

البداية والنهاية

قصص الأنبياء، أخبار الماضين

تأليف

الإمام الحافظ المؤرخ أبي الفداء إسماعيل بن كثير

٧٠١ ـ ٧٧٤هـ

حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه

د. علي أبو زيد أبو زيد

راجعه

الشيخ عبد القادر الأرناؤوط

الدكتور بشار عواد معروف

الجزء الثاني

دار ابن كثير

دمشق ـ بيروت



قصص الأنبياء ـ أخبار الماضين

● الموضوع: تاريخ
العنوان: البداية والنهاية 20/1
تأليف: الإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير

الطبعة الثالثة
1434 هـ - 2013 م
ISBN 978-9953-520-84-1

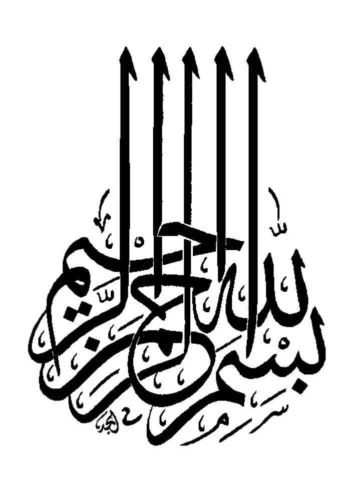
© حقوق الطبع محفوظة
يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع و التصوير و النقل و الترجمة و التسجيل المرئي و المسموع و الحاسوبي و غيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الناشر.



● الطباعة: مطبعة IPEX - بيروت - التجليد: شركة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت
● الورق: كريم - ألوان الطباعة: لونان - التجليد: فني / كعب لوحة
● القياس: 17×24 - عدد الصفحات: 10128 - الوزن: 15250 غ



دمشق - سوريا - ص.ب: 311
حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي - صالة المبيعات تلفاكس: 2225877 - 2228450
الإدارة تلفاكس: 2243502 - 2258541
بيروت - لبنان - ص.ب: 113/6318
برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي - بناء الحديقة - تلفاكس: 01 817857 - جوال: 03 204459
www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com


بسم الله الرحمن الرحيم

قصة موسى الكليم

وهو موسى بن عِمْرَان بن يافث[١] بن عازَر بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السَّلام .

قال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥١ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝٥٢ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٥١ ـ ٥٣] .

وقد ذكره الله تعالى في مواضعَ كثيرةٍ متفرِّقةٍ من القرآن . وذكر قصّته في مواضع متعدّدةٍ مبسوطةٍ مطوّلةٍ وغيرِ مطوّلة ، وقد[٢] تكلّمنا على ذلك كلّه في مواضعه من (التفسير)[٣] ، وسنوردُ سيرته هاهنا من ابتدائها إلى آخرها من الكتاب والسُّنَّة ، وما ورد في الآثار المنقولة من الإسرائيليات التي ذكرها السَّلَف وغيرهم إن شاء الله ، وبه الثقة وعليه التُّكلان[٤] .

قال الله تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص : ١ ـ ٦] .

يذكر تعالى ملخَّص القصّة ، ثم يبسطها بعد هذا ، فذكر أنّه يتلو على نبيّه خبر موسى وفرعونَ بالحقِّ ، أي : بالصدق الذي كأنَّ سامعه مشاهد للأمر معاين له : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ ، أي : تجبَّر ، وعتا ، وطغى ، وبغى ، وآثر الحياة الدُّنيا ، وأعرض عن طاعة الرَّبِّ الأعلى ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ أي قسم رعيته إلى أقسامٍ وفرقٍ وأنواعٍ يستضعف طائفةً منهم ، وهم شعب بني إسرائيل الذين هم من سُلالة نبيٍّ الله يعقوب بن نبي الله إسحاق بن إبراهيم خليل الله ، وكانوا إذ ذاك خيارَ أهل الأرض . وقد سُلِّطَ عليهم هذا الملكُ الظالم الغاشم الكافر الفاجر ، يستعبدهم ويستخدمهم في أخسِّ الصنائعِ والحِرفِ ، وأرداها وأدناها ، ومع هذا ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ .

وكان الحاملَ له على هذا الصنيعِ القبيحِ أنّ بني إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما كانوا يأثرونه عن

(١) في الأصول : قاهث . والتصويب من : التكملة والإتمام لكتاب التعريف والإعلام فيما أبهم من الأسماء والأعلام . الورقة ٦٨ .

(٢) في ب : أماكن متعددة مبسوطة مطولة ، وقد تكلمنا .

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣٥ ـ ٢٥٠) .

(٤) قوله : « وبه الثقة وعليه التكلان » ليس في ب .

إبراهيم عليه السَّلام من أنّه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاكُ ملك مِصْرَ على يديه ، وذلك والله أعلم حين كان جرى على سارَة امرأة الخليل من ملك مصر من إرادتِهِ إيّاها على السوء[١] ، وعصمةِ الله لها . وكانت هذه البِشارة مشهورةً في بني إسرائيل فتحدَّث بها القبط فيما بينهم ، ووصلت إلى فرعون ، فذكرها له بعض أُمرائه وأَساورته[٢] وهم يسمُرون عنده ؛ فأمر عند ذلك بقتل أبناء بني إسرائيل حذراً من وجود هذا الغلام ، (ولَنْ يُغْني حَذَرٌ مِنْ قَدَر)[٣] .

وذكر السُّدِّي[٤] ، عن أبي صالح وأبي مالك ، عن ابن عَبَّاس ، وعن مُرَّة ، عن ابن مسعود ، وعن أناس من الصحابة أن فرعون رأى في منامه كأنّ ناراً قد أقبلت من نحو بيت المَقْدس فأحرقت دور مصر وجميعَ القبط ، ولم تضرَّ بني إسرائيل ، فلما استيقظ هالَه ذلك ، فجمع الكهنةَ والحَزَأَة[٥] والسَّحرة ، وسألهم عن ذلك فقالوا : هذا غلامٌ يولد من هؤلاء يكون سببُ هلاكِ أهل مِصْرَ على يديه ، فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك النسوان ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ وهم بنو إسرائيل ، ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ أي الذين يؤول ملك مِصْرَ وبلادها إليهم ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ أي : سنجعل الضعيفَ قوياً ، والمقهورَ قاهراً ، والذليلَ عزيزاً ، وقد جرى هذا كلّه لبني إسرائيل كما قال تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ . . . ﴾ [الأعراف : ١٣٧] . وقال تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء : ٥٧ ـ ٥٩] ، وسيأتي تفصيل ذلك في موضعه إن شاء الله .

---

(١) في ب : السفه .

(٢) أساورته : مفردها أسوار ، بضم الهمزة وكسرها ، وهو القائد ، أو بمنزلة الأمير عند العرب . التاج .

(٣) قطعة من حديث جرى مجرى المثل ، رواه أحمد في المسند (٥/ ٢٣٤) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه بلفظ : « لن ينفع حذر من قدر » وذكره بهذا اللفظ الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٤٦) من حديث معاذ وقال : رواه أحمد والطبراني ، وشهر بن حوشب لم يسمع من معاذ ، ورواية إسماعيل بن عيَّاش عن أهل الحجاز ضعيفة . وساق رواية أخرى له من حديث عائشة رضي الله عنها وهو عند البزار وإسناده ضعيف جداً ، وهو عنده بنحوه (٧/ ٢٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وهو في كشف الأستار عن زوائد البزار للهيثمي (٤/ ٣٧) ، وذكره السخاوي في المقاصد الحسنة ص(٣٤٠) ، وإسناده ضعيف جداً فيه إبراهيم بن خثيم متروك .
وهو في الأمثال لأبي عبيد ص(٣٢٧) ، ومجمع الأمثال للميداني (٢/ ٢٣٧) ولفظه فيهما : لا ينفع حذر من قدر.

(٤) هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة الحجازي ثم الكوفي الأعور السُّدِّي ، أبو محمد ، أحد موالي قريش ، وأحد الأئمة المفسرين الكبار ، مات سنة (١٢٧)هـ . ترجمته في طبقات المفسرين للداوودي (١/ ١٠٩) . وتفسيره مخطوط لم يطبع بعد ، والنقل الذي أورده ابن كثير ساقه بنحوه الطبري في تفسيره (٢٠/ ١٩) وفي تاريخه (١/ ٣٨٨) .

(٥) الحزأة : جمع حَزّاء ، وهو الذي ينظر النُّجوم وأحكامها بظنّه وتقديره فربما أصاب . النهاية : (حزأ) .

والمقصودُ أنّ فرعون احترز كُلَّ الاحتراز أن لا يوجدَ موسى ، حتى جعل رجالاً وقوابلَ يدورون على الحبالى ، ويَعلمون ميقات وضعهن ، فلا تلد امرأةٌ ذكراً إلا ذبحه أولئك الذبَّاحون من ساعته .

وعند أهل الكتاب : أنَّه إنَّما كان يأمر بقتل الغلمان ليُضعف شوكةَ بني إسرائيلَ فلا يقاومونهم إذا غالبوهم أو قاتلوهم . وهذا فيه نظرٌ ، بل هو باطلٌ ، وإنّما هذا في الأمر بقتل الولدان بعد بعثة موسى ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ ﴾ [غافر : ٢٥] ولهذا قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ [الأعراف : ١٢٩] ، فالصّحيح أن فرعون إنّما أمر بقتل الغلمان أولاً حذراً من وجود موسى ـ كما قدمناه ـ[1] .

هذا والقدر يقول : يا أيّهذا الملكُ الجبّار المغرور بكثرة جنوده ، وسلطة بأسه ، واتّساع سلطانه ، قد حكم العظيم الذي لا يغالَب ، ولا يمانَع ، ولا تخالَف أقدارُه ، أنّ هذا المولود الذي تحترز منه ، وقد قتلت بسببه من النفوس ما لا يُعَدُّ ولا يُحْصى ، لا يكون مرباه إلا في دارك وعلى فراشك ، ولا يغذّى إلّا بطعامك ، وشرابك في منزلك ، وأنت الذي تتبنّاه ، وتربِّيه ، وتتعدّاه[2] ، ولا تطَّلع على سرِّ معناه ، ثم يكون هلاكُك في دنياك وأخراك على يديه ، لمخالفتك ما جاءك به من الحقِّ المبين ، وتكذيبك ما أُوحيَ إليه لتعلم أنت وسائر الخلق أن ربَّ السماوات والأرض هو الفعَّال لما يريدُ ، وأنّه هو القويُّ الشديد ، ذو البأس العظيم ، والحول ، والقوّة ، والمشيئة التي لا مردّ لها .

وقد ذكر غيرُ واحدٍ من المفسّرين أن القِبْط شكوا إلى فرعون قِلّة بني إسرائيل بسبب قتل ولدانهم الذكور ، وخشوا[3] أن تتفانى الكبار مع قتل الصِّغار ، فيصيرون هم الذين يلُون ما كان بنو إسرائيل يعالجون ، فأمر فرعونُ بقتل الأبناء عاماً وأن يُتركوا عاماً ، فذكروا أن هارون عليه السلام ولد في عام المسامحة عن قتل الأبناء ، وأن موسى عليه السلام ولد في عام قتلِهم ، فضاقت أمُّه به ذَرْعاً ، واحترزت من أوّل ما حَبِلت ، ولم يكن يظهر عليها مخاييل الحبل[4] ، فلما وضعت أُلهمت أنِ اتخذتْ له تابوتاً ، فربطته في حبلٍ ، وكانت دارها متاخمة للنيل ، فكانت ترضعه ؛ فإذا خشيت من أحدٍ وضعته في ذلك التابوت ، وأرسلته في البحر ، وأمسكت طرف الحبل عندها ، فإذا ذهبوا استرجعته[5] إليها به .

قال الله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ

---

(١) من قوله : وعند أهل الكتاب . . . إلى هنا زيادة من ب وط ، وقوله : كما قدمناه . ليس في ط .

(٢) أي تتجاوزه إلى غيره فتقتل غيره وتُمنع منه . قال ابن منظور : التَّعدِّي مجاوزة الشيء إلى غيره . اللسان (عدا) .

(٣) كذا في ب ، وفي أ وط : وخشي .

(٤) مخاييل الحبَل : علاماته ودلائله .

(٥) في ب : استخرجته .

وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص : ٧ ـ ٩] .

هذا الوحي : وحيُ إلهام وإرشادٍ كما قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٦٨ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا . . ﴾ الآية [النحل : ٦٨ ـ ٦٩] ، وليس هو بوحي نبوّةٍ ، كما زعمه ابن حَزْمٍ . وغير واحدٍ من المتكلّمين ، بل الصّحيح الأول ؛ كما حكاه أبو الحسن الأشعريّ عن أهل[١] السُّنَّة والجماعة .

قال السُّهَيلي[٢] : واسم أم موسى أيارخا . وقيل : أياذخت . والمقصود أنها أُرشدت إلى هذا الذي ذكرناه ، وأُلقيَ في خَلَدها ورُوعها أنْ لا تخافي ، ولا تحزني ؛ فإنه إنْ ذَهَب فإن الله سيردّه إليك ، وإن الله سيجعله نبياً مرسلاً يُعلي كلمته في الدنيا والآخرة ، فكانت تصنع ما أُمرت به ، فأرسلته ذاتَ يومٍ وذَهَلَتْ أن تربط طرف الحبل عندَها ، فذهب مع النيل ، فمرّ على دارِ فرعون ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ . قال بعضهم[٣] : هذه لام العاقبة ، وهو ظاهر إن كان متعلّقاً بقوله ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ﴾ ، وأمّا إن جعل متعلقاً بمضمون الكلام ، وهو أنَّ آل فرعون قُيِّضوا لالتقاطه ليكونَ لهم عدوّاً وحزَناً ، صارت اللّام معلِّلةً كغيرها ، والله أعلم . ويقوّي هذا التقدير[٤] الثاني قوله : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴾ ؛ أي : هم أهلٌ لهذا التقييض ليكون أبلغ في إهانتهم ، وأقوى في حسرتهم ؛ أن يربّوا عدوَّهم في دارهم . ولهذا قال : ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ﴾[٥] . وهو الوزير السَّوْء ﴿ وَجُنُودَهُمَا ﴾ المتابعين لهما ﴿ كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴾ ؛ أي كانوا على خلاف الصّواب ، فاستحقّوا هذه العقوبة والحسرة .

وذكر المفسّرون[٦] : أنّ الجواري التقطْنه من البحر في تابوتٍ مغلق عليه ، فلم يتجاسرْنَ على فتحه حتى وضعنه بين يدي امرأة فرعون آسية بنت مزاحم بن عُبَيْد بن الرَّيَّان بن الوليد الذي كان فرعون مصر في زمن يوسف ، وقيل : إنّها كانت من بني إسرائيل من سِبط موسى ، وقيل : بل كانت عمته . حكاه السُّهيلي[٧] ، فالله أعلم .

---

(١) في ب : عن مذهب أهل .
(٢) في التعريف والإعلام فيما أُبهم في القرآن من الأسماء والأعلام (مخطوط) الورقة (٤٦) .
(٣) كأبي حيان في البحر المحيط (٧/ ١٠٥) ، والزمخشري في الكشاف (٣/ ١٦٦) .
(٤) ليست في ب .
(٥) من قوله : إن فرعون وهامان وجنودهما . . إلى قوله : . . . عدواً وحزناً . سقط من ط .
(٦) كالطبري في : تفسيره (٢٠/ ٢١) .
(٧) التعريف والإعلام الورقة (٤٦) .

وسيأتي مدحُها والثناءُ عليها في قصّة مريمَ بنتِ عمران ، وأنّهما يكونان يوم القيامة من أزواجِ رسولِ الله ﷺ في الجنَّة . فلما فتحتِ الباب ، وكشفت الحجاب ، رأت وجهه يتلألأ بتلك الأنوار النبويّة ، والجلالة الموسويّة ، فلمّا رأته ووقع نظرها عليه أحبّته حبًّا شديداً جدًّا ، فلما جاء فرعونُ قال : ما هذا ؟ وأمَرَ بذبحه ، فاستوهبته منه ، ودفعت عنه ﴿ وَقَالَتِ . . . قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ ، فقال لها فرعون : أمّا لكِ فنعم ، وأمّا لي فلا ، أي : لا حاجة لي به . والبلاءُ مُوَكَّلٌ بالمنطِقِ[١] .

وقولها : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ ﴾ ، وقد أنالها الله ما رَجَت منه من النفع ، أَمّا في الدُّنيا فهداها الله به ، وأمّا في الآخرة فأسكنها جنته بسببه ، ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ ؛ وذلك أنّهما تبنّياه لأنه لم يكن يولد لها[٢] ولد .

قال الله تعالى : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ؛ أي : لا يدرون ماذا يريد الله بهم أَنْ قيّضهم لالتقاطه من النقمة العظيمة بفرعون وجنوده[٣] . ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص : ١٠ ـ ١٣] .

قال ابن عبّاس ، ومجاهد ، وعكرمة[٤] ، وسعيد بن جُبير ، وأبو عُبيدة ، والحسن[٥] ، وقتادة ،

---

(١) قطعة من حديث جرى مجرى المثل ، ذكره السخاوي في « المقاصد الحسنة » ص(١٤٧ ـ ١٤٨) وأطال الكلام عليه ، والسيوطي في الجامع الصغير (١/ ٤٣٥) .
وأورده أبو عبيد (٧٥) بلفظ : « البلاء موكل بالقول » . وهو في : الفاخر (٢٣٥) وجمهرة الأمثال (١/ ٢٠٧) وفصل المقال (٩٥) والمستقصى (١/ ٣٠٥) ومجمع الأمثال (١/ ١٧) ونهاية الأرب (١٦/ ٣٠٨) وتمثال الأمثال (١/ ٢٦٣) .
ـ وهو يضرب في كلمة يتكلم بها الرجل فتكون باعثة للبلاء . وأوله : « ما من طامة إلا وفوقها طامة . والبلاء . . » وهو حديث ضعيف .
ـ وقد اختلف فيمن هو قائله ، فذكر صاحب الفاخر ، وعنه أخذ الميداني أن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ أول من قاله ، عندما عرض النبي ﷺ نفسه على وفد ربيعة ، وأخذ أبو بكر يسألهم عن أنسابهم ، ونسبه في الجمهرة إلى الرسول ـ ﷺ ـ .
وقد نظمه بعضهم في بيت شعر فقال :

احفظ لسانك أن تقول فتُبتلى ... إن البلاء موكل بالمنطق

(٢) كذا في أ . وفي ب ، وط : لهما .
(٣) زاد في ب : وعند أهل الكتاب أن التي التقطت موسى وربته ابنة فرعون . وليس لامرأته ذكر بالكلية . وهذا في غلطهم على كتاب الله عز وجل .
(٤) هو عكرمة البربري .
(٥) إذا أطلق الحسن فهو الحسن بن يسار البصري .

والضحّاك ، وغيرهم ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ﴾ أي : من كلِّ شيءٍ من أمور الدنيا إلّا من موسى ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ ﴾ أي : لتظهر أمرَه وتسأل عنه جهرةً ، ﴿ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾ أي : صبّرناها وثبّتناها ﴿ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وقالت لأخته ، وهي ابنتها الكبيرة : ﴿ قُصِّيهِ ﴾ أي : اتّبعي أثره واطلبي لي[١] خبره ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ ﴾ قال مجاهد : عن بُعدٍ . وقال قتادة : جَعَلَتْ تنظر إليه وكأنّها لا تريده ؛ ولهذا قال : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ، وذلك لأن موسى عليه السلام لما استقرَّ بدار فرعون أرادوا أن يغذّوه برضاعةٍ ، فلم يقبل ثدياً ، ولا أخذ طعاماً ، فحاروا في أمره ، واجتهدوا على تغذيته بكل ممكن ، فلم يفعل ، كما قال تعالى : ﴿ ۞وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾ ، فأرسلوه مع القوابل والنساء إلى السوق لعلّ يجدون من يوافق رضاعته ، فبينما هم وقوف به والناس عكوف عليه ؛ إذ بصُرت به أخته فلم تُظْهِرْ أنها تعرفه ، بل قالت : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ .

قال ابن عباس : لمّا قالت ذلك قالوا لها : ما يدريك بنصحهم وشفقتهم عليه ؟ فقالت : رغبة في صهر الملك[٢] ، ورجاء منفعته . فأطلقوها وذهبوا معها إلى منزلهم ، فأخذته أمّه ، فلمّا أرضعته التقم ثديها وأخذ يمتصه ويرتضعه ، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً ، وذهب البشير إلى آسية يُعلمها بذلك ، فاستدعتها إلى منزلها ، وعرضت عليها أن تكون عندها ، وأن تحسن إليها ، فأبت عليها ، وقالت : إن لي بعلاً وأولاداً ، ولست أقدر على هذا إلا أن ترسليه معي ، فأرسلته معها ، ورتّبت لها رواتب ، وأجرت عليها النفقات ، والكسا[٣] ، والهبات فرجعت به تحوزه[٤] إلى رحلها ، وقد جمع الله شمله بشملها .

قال الله تعالى : ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ ، أي : كما وعدناها بردِّه ورسالته ، فهذا ردُّه ، وهو دليل على صدق البشارة برسالته ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وقد امتن الله على موسى بهذا ليلة كلَّمه[٥] فقال له فيما قال له : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى[٦] وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾ [طه : ٣٧ ـ ٣٩] ، إذ قال قتادة ، وغير واحد من السّلف[٧] : أي تُطْعَم وتُرفّه وتُغذى

---

(١) في ب : واطلعي . وفي ط : واطلبي له .

(٢) في تاريخ الطبري (١/ ٣٩٤) . ورغبتهم في ظؤورة الملك .

(٣) في أصولنا : والكساوي ، وهو خطأ . فالكساء جمعه : أكسية وهو اللباس . والكُسْوَة : الثوب يستتر به ويتحلى ، وجمعه : كُساً . أما النسبة إلى الكساء فهي : كِساويّ ، ولا مكان لها هنا .

(٤) تحوزه : تضمه .

(٥) في ب : وقد امتن الله تعالى بهذا على موسى ليلة كلمه . . .

(٦) زاد في ب : وذلك أنه كان لا يراه أحد إلا أحبه .

(٧) كابن زيد ، وابن جريج ، وأبي نُهيك . كما في تفسير الطبري (١٦/ ١٢٣) .

بأطيب المآكل ، وتلبس أحسن الملابس[١] بمرأىً مني ، وذلك كلّه بحفظي وكلاءتي لك فيما صنعت بك ولك ، وقدرته من الأمور التي لا يقدر عليها غيري ﴿ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَاكَ[٢] إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ [طه : ٤٠] ، وسنورد حديث الفتون في موضعه بعد هذا إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التُّكلان .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القصص : ١٤ ـ ١٧] .

لما ذكر تعالى أنّه أنعم على أمّه بردّه[٣] لها ، وإحسانه بذلك ، وامتنانه عليها ، شرع في ذكر أنه لما ﴿ بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ﴾ وهو احتكام[٤] الخَلْق والخُلُق ، وهو سنّ الأربعين في قول الأكثرين ، آتاه الله حكماً وعلماً ، وهو النبوّة والرسالة التي كان بَشّر بها أمّه حين قال : ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص : ٧] . ثم شرع في ذِكر سبب خروجه من بلاد مصر ، وذهابه إلى أرض مَدين ، وإقامته هنالك حتى كمل الأجل ، وانقضى الأمد[٥] ، وكان ما كان من كلام الله له ، وإكرامه بما أكرمه به ، كما سيأتي . فقال تعالى : ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ . قال ابن عبَّاس ، وسعيد بن جُبير ، وعِكْرمة ، وقَتادة ، والسُّدِّي[٦] : وذلك نصف النهار .

وعن ابن عبَّاس : بين العشاءين ﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ﴾ أي : يتضاربان ويتهاوشان ﴿ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ ﴾ أي : إسْرائيلي ﴿ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ أي : قبطي . قاله ابن عبَّاس ، وقتادة ، والسّدّي ، ومحمد بن إسحاق . ﴿ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ وذلك أن موسى عليه السلام كانت له بديار مِصْرَ صَولةٌ بسبب نسبته إلى تبنِّي فرعون له ، وتربيته في بيته ، وكانت بنو إسرائيل قد عزّوا وصارت لهم وجاهةٌ ، وارتفعت رؤوسهم بسبب أنّهم أرضعوه وهم أخواله ، أي : من الرَّضاعة .

فلما استغاث ذلك الإسرائيلي موسى عليه السلام على ذلك القبطي أقبل إليه موسى ﴿ فَوَكَزَهُۥ ﴾ . قال

---

(١) في ب : أشرف الملابس .
(٢) في الأصل : فرددناك . وهو سهو ، التبس بقوله تعالى : ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا . . . ﴾ الآية : [القصص : ١٣] .
(٣) في ب : بوصالها .
(٤) في ب : إحكام .
(٥) في ب : الأمل .
(٦) تفسير الطبري (٢٠/ ٢٩) .

مجاهد[١] : أي : طعنه بجُمعِ كفِّه . وقال قتادة : بعصاً كانت معه ، ﴿ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ ، أي : فمات منها .

وقد كان ذلك القبطي كافراً مشركاً بالله العظيم ، ولم يُردْ موسى قتله بالكلّية ، وإنما أراد زَجْره ورَدْعَه ، ومع هذا قال موسى : ﴿ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ أي : من العزِّ والجاه ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص : ١٨ ـ ٢١] .

يخبر تعالى أنّ موسى أصبح بمدينة مصر خائفاً ، أي : من فرعون ومَلَئِهِ أن يعلموا أنَّ هذا القتيل الذي رُفِع إليه أمرُه إنما قتله موسى في نصرة رجل من بني إسرائيل ، فتقوى ظنونهم أنّ موسى منهم ، ويترتَّب على ذلك أمرٌ عظيم ، فصار يسير في المدينة في صبيحة ذلك اليوم ﴿ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ أي : يتلفَّتُ[٢] ، فبينما هو كذلك إذا ذلك الرجل الإسرائيلي الذي استنصره بالأمس يستصرخه ، أي : يصرخ به ويستغيثه على آخر قد قاتله ، فعنَّفه موسى ، ولامه على كثرة شرّه ومخاصمته ، قال له : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ ، ثم أراد أن يبطش بذلك القبطي الذي هو عدوٌّ لموسى وللإسرائيلي فيردعه عنه ، ويخلّصه منه ، فلما عزم على ذلك ؛ وأقبل على القبطي ﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ .

قال بعضهم : إنما قال هذا الكلام الإسرائيلي الذي اطلع على ما كان صنع موسى بالأمس ، وكأنّه لما رأى موسى مقبلاً إلى القبطي اعتقد أنّه جاء إليه لمّا عنّفه قبل ذلك بقوله : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ ، فقال ما قال لموسى ، وأظهر الأمرَ الذي كان وقع بالأمس ، فذهب القبطي فاستعدى موسى إلى فرعون ، وهذا الذي لم يذكر كثيرٌ من النّاس سواه . ويحتمل أن قائل هذا هو القبطي ، وأنه لما رآه مقبلاً إليه خافه ، ورأى من سجيّته انتصاراً جيداً للإسرائيلي ، فقال ما قال من باب الظن والفراسة إن هذا لعلّه قاتل ذاك القتيل بالأمس ، أو لعلّه فهم من كلام الإسرائيلي حين استصرخه عليه ما دلّه على هذا . والله أعلم .

والمقصود أن فرعون بلغه أن موسى هو قاتل ذلك المقتول بالأمس ، فأرسل في طلبه ، وسبقهم رجلٌ ناصحٌ من طريق أقرب ، وجاءه من أقصى المدينة ساعياً إليه مشفقاً عليه ، فقال : ﴿ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ

---

(١) في تفسيره : (١/ ٤٨٢) . وقول ابن كثير : أي طعنه . لم يرد فيه ، وعنده : بجميع كفه ، والذي عند الطبري (٢٠/ ٣٠) : بجمع كفه .

(٢) في ط : يلتفت .

﴿ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ ﴾ أي : من هذه البلدة[١] ﴿ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ ، أي : فيما أقوله لك .

قال الله تعالى : ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ ، أي : فخرج من مدينة مِصْرَ من فوره على وجهه ، لا يهتدي إلى طريقٍ ولا يعرفه قائلاً : ﴿ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ[٢] وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ۝ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص : ٢١ ـ ٢٤] .

يخبر تعالى عن خروج[٣] عبده ورسوله وكليمه من مصر خائفاً يترقّب ؛ أي : يتلفّت خشية أن يدركه أحدٌ من قوم فرعون، وهو لا يدري أين يتوجّه ، ولا إلى أين يذهب ، وذلك لأنّه لم يخرج من مصر قبلها .

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ ﴾ أي : اتجه له طريقٌ يذهب فيه ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ . أي : عسى أن تكون هذه الطريق موصلة إلى المقصود ، وكذا وقع ، أوصلته[٤] إلى مقصودٍ ، وأي مقصود .

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ ﴾ وكانت بئراً يستقون منها ، ومَدْيَنُ[٥] هي المدينة التي أهلك الله فيها أصحاب الأيكة ، وهم قوم شعيب ، عليه السَّلام ، وقد كان هلاكهم قبل زمن موسى عليه السَّلام في أحد قولي العلماء[٦] ، ولما ورد الماء المذكور ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ أي : تكفكفان غنمهما أن تختلط بغنم النَّاس[٧] . ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ

---

(١) قوله : أي : من هذه البلدة . زيادة في ب ، وط .
(٢) الرعاء ، بكسر الراء المهملة : جمع راعٍ ، ويجمع أيضاً على رُعاة ، ورُعيان . تفسير الطبري (٢٠/ ٣٦) .
(٣) ليست في ب .
(٤) في ب : ووصلته .
(٥) مدين : على بحر القلزم (الأحمر) محاذية لتبوك على نحو ست مراحل ، وبها البئر التي استقى منها موسى عليه السلام للسائمة .
(٦) وهو قول ابن عبَّاس وقتادة ، وقد نقله المؤلف عن تفسير الطبري (٢٠/ ٣٥) بتصرف .
وأما القول الثاني فقد قال الطبري في تفسيره (٢٠/ ٣٤) : وقوله : (عسى ربي أن يهديني سواء السبيل) يقول : عسى ربي أن يبين لي قصد السبيل إلى مدين ، وإنما قال ذلك لأنه لم يكن يعرف الطريق إليها ، وذُكر أن الله قيض له إذ قال : (رب نجني من القوم الظالمين) فهيأ الله الطريق إلى مدين ، فخرج من مصر بلا زاد ولا حذاء ولا ظهر ولا درهم ولا رغيف خائفاً يترقب حتى وقع إلى أمة من الناس يسقون بمدين .
(٧) زاد في ب : وعند أهل الكتاب أنهن كن سبع بنات ، وهذا أيضاً من الغلط ، ولعله كان له سبع ، وإنما كان يستقي منهن اثنتان ، وهذا الجمع ممكن إن كان ذاك محفوظاً ، وإلا فالظاهر أنه لم يكن له سوى اثنتين .
وزاد مثل هذا في ط ، وفيهما : . . الغلط وكأنه كُنَّ سبعاً ولكن إنما كان تسقي اثنتان منهن . . سوى بنتان . وواضح في هذه الزيادة الضعف والخطأ .

وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ أي : لا نقدر على وِرد الماء إلَّا بعد صدور الرِّعاء لضعفنا ، وسبب مباشرتنا هذه الرعْية ضعف أبينا وكبره . قال الله تعالى : ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾ .

قال المفسرون[١] : وذلك أن الرِّعاء كانوا إذا فرغوا من وِردهم وضعوا على فم البئر صخرةً عظيمةً ، فتجيء هاتان المرأتان ، فيشرعان غنمهما في فضل أغنام الناس . فلما كان ذلك اليوم ، جاء موسى ، فرفع تلك الصخرة وحدَه ، ثم استقى لهماوسقى غنمهما ، ثم ردَّ الحجر كما كان .

قال أمير المؤمنين عمر[٢] : وكان لا يرفعه إلا عشرة ، وإنما استقى ذَنُوباً[٣] واحداً فكفاهما . ثمّ تولّى إلى الظلِّ ، قالوا : وكان ظلّ شجرة من السَّمُرِ[٤] .

روى ابن جرير[٥] ، عن ابن مسعود ؛ أنه رآها خضراء ترفّ[٦] ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ .

قال ابن عبَّاس : سار من مصر إلى مَدْيَن لم يأكل إلا البقل وورق الشجر ، وكان حافياً فسقطت نعلا قدميه[٧] من الحفاء ، وجلس في الظِّل ، وهو صفوة الله من خلقه ، وإن بطنه لاصق بظهره من الجوع ، وإنّ خُضْرَةَ البقل لتُرى من داخل جوفه ، وإنّه لمحتاج إلى شقِّ تمرة .

قال عطاء بن السَّائب : لما قال ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ أسمع المرأة ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [القصص : ٢٥ ـ ٢٨] .

لَمَّا جلس موسى عليه السَّلام في الظلِّ ، وقال ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ سمعته

(١) كالطبري (٢٠/ ٣٧) ، والقرطبي (١٣/ ٢٦٩) والزمخشري (٣/ ١٧٠) .
(٢) ساق المؤلف هذا الخبر هنا باختصار وبالمعنى ، ولكنه ساقه بتمامه في تفسيره (٣/ ٣٨٣) .
(٣) الذنوب : الدلو .
(٤) السمر ، بفتح السين وضم الميم : ضرب في شجر الطلح ، واحدته : سَمُرة .
(٥) في تفسيره (٢٠/ ٣٧) وذكر الخبر فيه بسياق أطول من هذا .
(٦) يقال : رفّ لونه يرفُّ ، بالكسر ، رفّاً ورفيفاً ، بَرَقَ وتلألأ ، اللسان (رفف) .
(٧) أورد الخبر المؤلف في تفسيره (٣/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤) وفيه : . . . وكان حافياً ، فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه وجلس في الظل . . . وإن بطنه للاصق .

المرأتان[١] ـ فيما قيل ـ فذهبتا إلى أبيهما ، فيقال : إنّه استنكر سرعة رجوعهما ، فأخبرتاه ما كان من أمر موسى عليه السَّلام ، فأمر إحداهما أن تذهب إليه فتدعوه ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ﴾ ، أي : مَشْيَ الحرائِرِ ، قالت : ﴿ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ صرَّحت له بهذا لئلا يوهم كلامُها ريبةً . وهذا من تمام حيائها وصيانتها . ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ ﴾ وأخبره خبره ، وما كان من أمره في خروجه من بلاد مِصْرَ فراراً من فرعونها ﴿ قَالَ لَهُ ﴾ ذلك الشيخ : ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ ، أي : خرجت من سلطاتهم فلست في دولتهم .

وقد اختلفوا في هذا الشيخ من هو ؟ فقيل : هو شعيبٌ عليه السَّلام، وهذا هو المشهور عند كثيرين[٢] .

وممَّن نصّ عليه: الحسن البصري، ومالك بن أنس . وجاء مصرحاً به في حديث[٣] ، ولكن في إسناده نظر .

وصرّح طائفةٌ بأن شعيباً عليه السلام عاش عمراً طويلاً بعد هلاك قومه حتى أدركه موسى عليه السلام وتزوَّج بابنته[٤] .

وروى ابن أبي حاتم وغيره ، عن الحسن البصري ، أن صاحب موسى عليه السَّلام هذا اسمه شعيب ، وكان سيّد الماء ، ولكن ليس بالنَّبيِّ صاحب مَدْيَن .

وقيل : إنّه ابن أخي شعيب .

وقيل : ابن عمه .

وقيل : رجل مؤمن من قوم شعيب .

وقيل : رجل اسمه يثرون ، هكذا هو في كتب أهل الكتاب : يثرون كاهن مَدْين ؛ أي : كبيرها وعالمها . قال ابن عبَّاس وأبو عُبَيْدة بن عبد الله : اسمه بترون[٥] . زاد أبو عبيدة وهو ابن أخي شعيب . زاد ابن عبَّاس : صاحب مَدين[٦] .

---

(١) قال السُّهيلي في التعريف والإعلام الورقة (٤٦) : هما صَفُوريَا ولَيا ابنتا بترون ، وبتَرون هو شعيب ، وقيل : ابن أخي شعيب وأن شعيباً كان قد مات ، وأكثر المفسرين على أنهما ابنتا شعيب وقال بعضهم : ليستا ابنتي شعيب ، وهو الصواب .

(٢) في ب : الأكثرين ، وقد أورد المؤلف هذه الأقوال في تفسيره (٣/ ٤٨٣) .

(٣) وقد ساقه المؤلف في تفسيره (٣/ ٤٨٣) من رواية الطبراني (وهو في معجمه الكبير ٦٣٦٤) عن سلمة بن سعد العنزي أنه وفد على رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : « مرحباً بقوم شعيب وأختان موسى » .

(٤) وهي ابنته صَفْوريَا كما ذكر السهيلي في التعريف والإعلام الورقة (٤٧) وزاد : وهي أهله التي قال [الله تعالى] فيها : ﴿ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ ﴾ [طه : ١٠] .

(٥) في أصولنا يثرون . وفي تاريخ الطبري (١/ ٣٨٥) : يترون ، وكلاهما مصحف ، والتصويب من التعريف والإعلام : للسهيلي الورقة (٤٦) .

(٦) ما قاله ابن عباس رضي الله عنه : الذي استأجر موسى يثربي صاحب مدين كما أورده ابن كثير في تفسيره =

والمقصود أنّه لما أضافه ، وأكرم مثواه ، وقصَّ عليه ما كان من أمره ، بشَّره بأنّه قد نجا ، فعند ذلك قالت إحدى البنتين لأبيها : ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ ﴾ ، أي : لرعي غنمك ، ثم مدحته بأنه قويٌّ أمينٌ .

قال عَمْرو[١] وابن عبَّاس ، وشريح القاضي ، وأبو مالك ، وقتادة ، ومحمد بن إسحاق ، وغير واحد : لمّا قالت ذلك قال لها أبوها : وما علمك بهذا ؟ فقالت : إنّه رفع صخرةً لا يطيق رفعها إلا عشرة . وإنّه لما جئت معه تقدمتُ أمامه ، فقال : كوني من ورائي ، فإذا اختلفت الطريق فاحذفي[٢] لي بحصاةٍ أعلم بها كيف الطريق .

قال ابن مسعود : أفرسُ النَّاس ثلاثة : صاحب يُوسف حين قال لامرأته ﴿ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ ﴾ [يوسف : ٢١] . وصاحبة موسى حين قالت : ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴾ . وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطَّاب[٣] .

﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ ﴾ .

استدلّ بهذا جماعةٌ من أصحاب أبي حنيفة رحمه الله على صحّة ما إذا باعه أحد هذين العبدين أو الثوبين ، ونحو ذلك أنّه يصحُّ لقوله : ﴿ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ ﴾ . وفي هذا نظر ؛ لأنّ هذه مُراوضةٌ لا معاقدةٌ . والله أعلم .

واستدلّ أصحابُ أحمد على صحّة الإيجار بالطعمة والكسوة كما جرت به العادة ، واستأنسوا بالحديث الذي رواه ابن ماجه في « سننه » مترجماً عليه كتابه[٤] : باب استئجار الأجير على طعام بطنه .

حدثنا محمد بن مصفّى[٥] الحمصي ، حدثنا بقيَّة بن الوليد ، عن مَسْلَمة بن علي ، عن سعيد بن أبي أيوب ، عن الحارث بن يزيد ، عن عُلَي بن رباح قال : سمعت عتبة بن النُّدَّر[٦] يقول : كُنَّا عند

= (٣/ ٣٨٥) . والخبر ذكره الطبري في تفسيره (٢٠/ ٤٠) ، وفيه : يثري .

(١) في أصولنا ، وتفسيره : عمرو ابن عباس ، وعمرو هو ابن ميمون . وقد أورد قوله الطبري في تفسيره : (٢٠/ ٤١) ، مع بقية الأقوال .

(٢) الحذف : الرمي عن جانب .

(٣) هو في تفسير المؤلف (٣/ ٣٨٥) .

(٤) في ب : مترجماً عليه في باب استئجار . . وفي ط : . . . مترجماً في كتابه . . .

(٥) في أصولنا : ابن الصفي وهو سهو ، ومحمد بن مصفى بن بُهلول ، الحمصي القرشي ، قال فيه ابن حجر في التقريب : صدوق ، له أوهام ، وكان يدلس (٢/ ٢٠٨) .

(٦) في ط : ابن الدر وهو تحريف . وعتبة بن النُّدَّر ، بضم النون ، وتشديد الدال المهملة المفتوحة . صحابي شامي ، توفي سنة (٨٤هـ) . مترجم في سير أعلام النبلاء (٣/ ٤١٧) ومصادر ترجمته ثمة .

رسول الله ﷺ فقرأ ﴿ طس ﴾ حتى إذا بلغ قصة موسى قال : « إنَّ موسى عليه السَّلام أجَرَ نفسه ثماني سنين أو عشرة[١] على عِفَّةِ فَرْجِهِ وطعام بطنهِ[٢] » .

وهذا من هذا الوجه لا يصح ؛ لأن مَسْلَمة بن عُلي الخشني[٣] الدمشقي البلاطي ضعيف عند الأئمّةِ لا يُحتج بتفرّده[٤] ولكن قد روي من وجهٍ آخر .

وقال ابن أبي حاتم :

حدّثنا أبو زرعة ، حدّثنا يحيى بن عبد الله بن بُكَيْر ، حدّثني ابن لَهِيعة . (ح)[٥] ، وحدّثنا أبو زرعة ، حدّثنا صفوان ، حدّثنا الوليد ، حدّثنا عبد الله بن لَهيعة ، عن الحارث بن يزيد الحضرمي ، عن عُلَي بن رَباح اللَّخْمي ، قال : سمعت عتبة بن النُّدَّر السّلمي صاحب رسول الله ﷺ يحدِّث أن رسول الله قال : « إنَّ مُوسَى عليه السلام أجرَ نَفْسَه لِعِفةِ فَرْجِهِ وَطعْمَةِ بَطْنِهِ »[٦] .

ثم قال تعالى ﴿ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [القصص : ٢٨] . يقول : إن موسى قال لصهره : الأمر على ما قلت ، فأيّهما قضيت[٧] فلا عدوان عليّ ، والله على مقالتنا سامع ، ومشاهد ، ووكيل عَليَّ وعليك ، ومع هذا فلم يقض موسى إلا أكملَ الأجلين وأتمّهما ، وهو العشر سنين كوامل تامّة .

قال البخاري : حدَّثنا محمد بن عبد الرَّحيم ، حدثنا سعيد بن سُليمان ، حدّثنا مروان بن شجاع ، عن سالم الأفْطس ، عن سعيد بن جُبير ، قال : سألني يَهودي من أهل الحِيْرةِ : أيّ الأجلين قضى موسى ؟ فقلت : لا أدري حتى أقدم على حَبرِ العرب فأسأله ، فقدمتُ ، فسألت ابنَ عبَّاس ، فقال : قَضَى أكثرَهما وأطيبهما ، إن رسول الله إذا قال فعلَ[٨] . تفرّد به البخاري من هذا الوجه .

---

(١) في سنن ابن ماجه : أو عشراً .

(٢) سنن ابن ماجه رقم (٢٤٤٤) في الرهون : باب إجارة الأجير على طعام بطنه ، وإسناده ضعيف .

(٣) في أصولنا : الحسني وهو تصحيف ، والخُشَني ، بضم الخاء ، وفتح الشين المعجمتين ، كما ضبطه ابن حجر وقال : متروك . التقريب (٢/ ٢٤٩) . وقال ابن حبّان : كان ممن يقلب الأسانيد ، ويروي عن الثقات ما ليس من أحاديثهم توهمّاً ، فلما فحش ذلك منه بطل الاحتجاج به . المجروحين (٣/ ٣٣) .

(٤) وفي إسناده أيضاً بقية بن الوليد وهو ضعيف ، أيضاً قالوا فيه : احذر أحاديث بقية ، وكن منها على تقية ، فإنها غير نقية . الأمصار ذوات الآثار ، للذهبي ص(٣٦ ـ ٣٧) .

(٥) علامة التحويل هذه في السند لم ترد في النسخة ب .

(٦) وهذه الرواية ضعيفة أيضاً في سندها عبد الله بن لهيعة وهو ضعيف عند التفرد ، وفي غير رواية العبادلة عنه ، كما في تحرير التقريب (٢/ ٢٥٨) .

(٧) من قوله : واللهُ على . . . إلى قوله : فأيهما قضيت . سقط من ب ، بنقلة عين .

(٨) رواه البخاري في الشهادات (٢٦٨٤) .

وقد رواه النسائي في حديث الفتون ـ كما سيأتي ـ من طريق القاسم بن أبي أيوب ، عن سعيد بن جبير[١] .

وقد رواه ابن جرير[٢] عن أحمد[٣] بن محمد الطُّوسي ، وابن أبي حاتم عن أبيه ، كلاهما عن الحُميدي ، عن سفيان بن عُيينة ، حدثني إبراهيم بن يحيى بن أبي يعقوب ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن ابن عبّاس : أن رسول الله ﷺ قال : « سألتُ جِبْرِيْلَ : أيَّ الأَجَلَيْن قَضَى مُوْسَى ؟ قَالَ : أَتمَّهُمَا وَأَكْمَلَهُما »[٤] . وإبراهيم هذا غير معروف إلّا بهذا الحديث .

وقد رواه البزّار عن أحمد بن أبان القرشي ، عن سفيان بن عُيينة ، عن إبراهيم بن أعين ، عن الحاكم بن أَبَان ، عن عِكْرمة ، عن ابن عبّاس ، عن النَّبيِّ ﷺ[٥] فذكره .

وقد رواه سُنيد ، عن حجّاج ، عن ابن جُريج ، عن مُجاهدٍ مرسلاً ، أن رسول الله سأل عن ذلك جبريلَ ، فسأل جبريلُ إسرافيلَ ، فسأل إسرافيلُ الربَّ عَزَّ وجلَّ فقال : « أبرّهما وأوفاهما » .

وبنحوه رواه ابن أبي حاتم من حديث يوسف بن سرح مُرسلاً .

ورواه ابن جرير[٦] من طريق محمد بن كعب أن رسول الله ﷺ سُئِل : أيَّ الأجلين قضى موسى ؟ قال : أوفاهما وأتمّهما .

وقد رواه البزّار وابن أبي حاتم من حديث عُوْبَد[٧] بن أبي عمران الجَوْني، وهو ضعيف عن أبيه ، عن عبد الله بن الصَّامت ، عن أبي ذَرٍّ ، أن رسول الله ﷺ سُئِل : أيَّ الأجلين قضى موسى ؟ قال : « أوفاهما

---

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى (١١٣٢٦) .

(٢) في تفسيره (٢٠/ ٤٤) ، ولهذا الخبر روايات أخرى عنده .

(٣) في أ و ب . محمد بن محمد الطوسي . وهو تحريف لأنه متوفى سنة (٣٤٤)هـ . الأنساب (٨/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥) أي عقب وفاة الطبري . والصواب ما جاء في ط ، وهو كذلك عند الطبري وعند المؤلف في تفسيره (٣/ ٣٨٦) وهو الذي أثبتناه . وأحمد بن محمد الطوسي توفي سنة (٢٤٨)هـ .

(٤) في أ : أو أكملها . والصواب ما جاء في ب وط وهو ما أثبتناه ، وهو موافق لما في تفسير الطبري .

(٥) في ب : أن رسول الله ﷺ قال : سألت جبريل أي الأجلين قضى موسى ؟ . . . فذكره ، وفي سنده إبراهيم بن أعين ، ضعيف .

(٦) في تفسيره (٢٠/ ٤٤) .

(٧) في ب : عوف ، وهو تحريف ، وعند المؤلف في تفسيره (٣/ ٣٨٦) : عويذ . وكذلك في التاريخ الصغير للبخاري (٢/ ٢٠٥) ، والكبير (٧/ الترجمة ٤١٣) ، وما أثبتناه هو الصواب كما جاء في تهذيب الكمال (١٨/ ٢٩٩)، والضعفاء للنسائي (٤٦٥)، والضعفاء الصغير للبخاري (الترجمة ٢٩٠)، وميزان الاعتدال للذهبي (٣/ ٣٠٤)، وهو كذلك بخطه في النسخة الخطية من « الميزان » .

وأبرّهما » . قال : وإن سُئِلتَ : أيَّ المرأتين تزوّج ؟ فقل : الصغرى منهما[١] .

وقد رواه البزار وابن أبي حاتم ، من طريق عبد الله بن لَهيعة ، عن الحارث بن يزيد الحضرمي ، عن عُلَيّ بن رَباح ، عن عُتبة بن النُّدَّر ، أن رسول الله قال : « إِنَّ مُوسى أَجَرَ نَفْسَه بِعِفَّةِ فَرْجِهِ وَطَعامِ بَطْنِهِ » فلمّا وفّى الأجل ، قيل : يا رسول الله أيَّ الأجلين ؟ قال : « أبرَّهما وأوفاهما » . فلما أراد فراق شعيب سأل امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به ، فأعطاها ما ولدت من غنمه من قالب لون[٢] من وُلْدِ ذلك العام ، وكانت غنمه سوداً حساناً ، فانطلق موسى عليه السّلام إلى عصا قسمها من طرفها ، ثمّ وضعها في أدنى الحوض ، ثمّ أوردها فسقاها ، ووقف موسى عليه السلام بإزاء الحوض فلم يصدر منها شاةٌ إلا ضرب جنبها شاةً شاةً ، قال فأتأمت وألبنت[٣] ووضعت كلّها قوالب ألوان ، إلا شاةً أو شاتين ، ليس فيها فَشُوش ولا ضَبُوب ولا عَزُوز ولا ثَعُول ، ولا كَمْشَة[٤] تفوت الكف ، قال النبي ﷺ : لو اقتحمتم الشام وجدتم بقايا تلك الغنم وهي السّامرية .

قال ابن لَهيعة : الفَشُوش : واسعة الشَّخْب[٥] ، والضَّبوب : طويلة الضَّرع تجرُّه[٦] . والعَزُوز : ضيِّقة الشخب[٧] . والثَّعُول : الصغيرة الضَّرع كالحلمتين[٨] . والكَمْشة : التي لا يحكم الكفُّ على ضرعها لصغره[٩] .

وفي صحّة رفع هذا الحديث نظر . وقد يكون موقوفاً كما قال ابن جرير ؛ حدثنا محمد بن المثنى ، حدّثنا مُعاذ بن هشام ، حدّثنا أبي ، عن قتادة ، حدثنا أنس بن مالك قال : لما دعا نبيُّ الله موسى صاحبَه

---

(١) وهو مخالف لما ذكره السهيلي في التعريف والإعلام . الورقة ص(٤٧) من أن موسى عليه السلام تزوج صَفُوريَا وهي الكبرى .

(٢) قالب لون : قال ابن الأثير في النهاية (٤/ ٩٧) تفسيره في الحديث : أنها جاءت على غير ألوان أمهاتها ، كأن لونها قد انقلب .

(٣) في ط وأ : فأتمأت وآنثت . وفي ب : فأنمت وأنبتت . وأثبتنا رواية التفسير (٣/ ٣٨٧) .

(٤) في ط : ولا كموش . وفي تفسيره : ولا كميشة ، والكموش والكمشة بمعنى .

(٥) الشخب : ما خرج من الضرع من اللبن إذا احتُلب . وعبارة النهاية في غريب الحديث (٣/ ٤٤٨) : وهي التي ينفشُّ لبنها من غير حلب ؛ أي : يجري ، وذلك لِسَعة الإحْليل . ومثله في اللسان (فش) .

(٦) وكذلك قال في تفسيره . والذي في النهاية (٣/ ٧٠) : الضَّبوب : الضيقة ثقب الإحليل . ومثله في اللسان (ضبب) .

(٧) وفي النهاية (٣/ ٢٢٩) : والعزوز : الشاة البكيئة القليلة اللبن الضيقة الإحليل .

(٨) عبارته في التفسير (٣/ ٣٨٧) : التي ليس لها ضرع إلا كهيئة حلمتين . وفي النهاية (١/ ٢١٢) : الثعول : الشاة التي لها زيادة حَلَمة ، وهو عيب .

(٩) وفي النهاية (٤/ ٢٠٠) : الكموش : الصغيرة الضرع ؛ سميت بذلك لانكماش ضرعها ؛ وهو تقلصه . ومثله في اللسان (كمش) .

إلى الأجل الذي كان بينهما قال له صاحبُه : كلّ شاةٍ ولدت على غير لونها فلك ولدها ، فعمد فوضع خيالاً على الماء ، فلما رأت الخيال فزعت ، فجالت جولة ، فولدت كلهن بلقاً إلا شاةً واحدةً ، فذهب بأولادهن ذلك العام . وهذا إسناد رجاله ثقات . والله أعلم .

وقد تقدّم عن نقل أهل الكتاب عن يعقوب عليه السلام حين فارق خاله لابان أنّه أطلق له ما يولد من غنمه بُلقاً ، ففعلَ نحو ما ذكر عن موسى عليه السلام . فالله أعلم .

﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [القصص : ٢٩ ـ ٣٢] .

تقدم أنّ موسى قضى أَتَمَّ الأجلين وأكملهما ، وقد يؤخذ هذا من قوله : ﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ ﴾ . وعن مجاهد أنّه أكمل عشراً وعشراً بعدها .

وقوله : ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ﴾ أي : من عند صهره ذاهباً ، فيما ذكره غير واحد من المفسّرين وغيرهم ، أنّه اشتاق إلى أهله ، فقصد زيارتهم ببلاد مصر في صورة مختفٍ ، فلما سار بأهله ومعه ولدان منهم وغنم قد استفادها في مدّة مقامه ، قالوا : واتّفق ذلك في ليلةٍ مظلمةٍ باردةٍ ، وتاهوا في طريقهم ، فلم يهتد إلى السّلوك في الدَّرب المألوف ، وجعل يوري[1] زناده فلا يوري شيئاً ، واشتدّ الظلام والبرد ، فبينما هو كذلك إذ أبصر عن بُعدٍ ناراً تأجّج في جانب[2] الطّور ، وهو الجبل الغربيّ منه عن يمينه ، فقال لأهله : ﴿ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾ ، وكأنّه ـ والله أعلم ـ رآها دونهم ، لأنّ هذه النار هي نور في الحقيقة ، ولا تصلح رؤيتها لكلّ أحدٍ ، ﴿ لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ ، أي : لعلّي أستعلم من عندها عن الطريق ، ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ فدلّ على أنّهم كانوا قد تاهوا عن الطريق في ليلةٍ باردةٍ ومظلمةٍ ؛ لقوله في الآية الأخرى : ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾ [طه : ٩ ـ ١٠] ، فدلّ على وجود الظلام ، وكونهم تاهوا عن الطريق . وجمع الكلّ في قوله في النمل : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ

---

(١) يوري : يقدح .
(٢) جبل الطور : جبل بالقرب من مصر عند موضع يسمى مدين ، وعليه كان الخطاب الثاني لموسى عليه السلام عند خروجه من مصر ببني إسرائيل .

﴿ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [الآية : ٧] . وقد أتاهم منها بخبرٍ ، وأي خبرٍ ، ووجد عندها هُدًى ، وأي هدًى ، واقتبس منها نوراً ، وأي نور .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [القصص : ٣٠] .

وقال في النمل : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [النمل : ٨] أي : سبحان الله الذي يفعلُ ما يشاء ، ويحكم ما يريد . ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [النمل : ٩] .

وقال في سورة طه ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ [الآيات : ١١ ـ ١٦] .

قال غير واحدٍ من المفسّرين من السّلف والخلف[١] : لمّا قصد موسى إلى تلك النار التي رآها فانتهى إليها ، وجدها تأجّج في شجرةٍ خضراء من العَوْسَج[٢] ، وكلّ ما لتلك النار في اضطرام ، وكلّ ما لخضرة تلك الشجرة في ازدياد ، فوقف متعجّباً ، وكانت تلك الشجرة في لِحْف[٣] جبل غربي منه عن يمينه ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ ﴾[٤] [القصص : ٤٤] وكان موسى في وادٍ اسمه طُوى ، فكان موسى مستقبل القبلة ، وتلك الشجرة عن يمينه من ناحية الغرب[٥] ، فناداه ربّه بالواد[٦] المقدّس طُوى ، فأمر أولاً بخلع نعليه تعظيماً وتكريماً وتوقيراً لتلك البقعة المباركة ، ولا سيّما في تلك الليلة المباركة .

وعند أهل الكتاب : أنّه وضع يده على وجهه من شدّة ذلك النور مهابةً له ، وخوفاً على بصره ، ثم خاطبه تعالى كما يشاء قائلاً له : ﴿ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴾ أي : أنا رب العالمين[٧] الذي لا تصلح العبادة وإقامة الصلاة إلّا له . ثمّ أخبره أنّ هذه الدنيا ليست بدار قرار ، وإنّما الدار الباقية يوم القيامة التي لا بدّ من كونها ووجودها ﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ أي : من خيرٍ وشرٍ . وحضّه وحثّه على العمل لها ، ومجانبة مَن لا يؤمن بها ممن عصى مولاه واتّبع هواه .

---

(١) تفسير الطبري (١٦/١٠٨ ـ ١٠٩) .
(٢) العوسج : شجر كثير الشوك ، واحدته عوسجة .
(٣) اللِّحْف : أصل الجبل .
(٤) زاد في ط تتمة الآية : ﴿ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ .
(٥) في ب : الغربي .
(٦) الوادي : معروف . وربما اكتفوا بالكسرة عن الياء . اللسان .
(٧) زاد في ط : ﴿ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ .

ثم قال له مخاطباً ومؤانساً ومبيّناً له أنّه القادر على كلِّ شيء ، الذي يقول للشيء كن فيكون ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ أي : أما هذه عصاك التي نعرفها منذ صَحِبْتها !؟ ﴿ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾ . أي : بل هذه عصاي التي أعرفها وأتحقّقها ، ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ [طه : ١٩ ـ ٢٠] . وهذا خارقٌ عظيم ، وبرهانٌ قاطعٌ على أن الذي يكلِّمه هو الذي يقول للشيء كن فيكون ، وأنّه الفعّال بالاختيار .

وعند أهل الكتاب : أنه سألَ برهاناً على صِدْقه عند مَن يكذِّبُه من أهل مصر ، فقال له الربّ عز وجل : ما هذه التي في يدك ؟ قال : عصا . قال : ألقها إلى الأرض ، ﴿ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ ﴾ ، فهرب موسى من قدّامها ، فأمره الربّ عز وجل أن يبسط يده ، ويأخذها بذنبها ، فلما استمكن منها ارتدت عصاً في يده ، وقد قال الله تعالى في الآية الأخرى : ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ ، أي : قد صارت حيَّةً عظيمةً لها ضخامةٌ هائلةٌ وأنيابٌ تصطك ، وهي مع ذلك في سرعة حركة الجانّ ، وهو ضرب من الحيّات[١] ، يقال : الجانّ والجِنّان ، وهو لطيف لكنه سريع الاضطراب والحركة جداً ، فهذه جمعت الضخامةَ والسرعةَ الشديدة ، فلمّا عاينها موسى عليه السلام ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا ﴾ أي : هارباً منها ، لأن طبيعة البشريّة تقتضي ذلك ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أي : ولم يلتفت ، (فناداه ربُّهُ) قائلاً له : ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴾ فَلَمّا رَجَعَ أمرَهُ اللهُ تعالى أَنْ يمسكها ، ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴾ [طه : ٢١] . فيقال : إنّه هابَها شديداً ، فوضع يده في كمّ مِدْرَعَته[٢] ، ثم وضع يده في وسط فمها . وعند أهل الكتاب : بذنبها . فلمّا استمكن منها ، إذا هي قد عادت كما كانت عصا ذات شعبتين . فسبحان القدير العظيم ربّ المشرقين والمغربين .

ثم أمره تعالى بإدخال يده في جيبه ، ثم أمره بنزْعها ، فإذا هي تتلألأ كالقمر بياضاً ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ ، أي : من غير برص ولا بَهَق[٣] ، ولهذا قال : ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ ﴾ [القصص : ٣٢] قيل : معناه إذا خِفتْ فضع يدك على فؤادك يسكن جأشُك . وهذا وإن كان خاصاً به ، إلا أنّ بركة الإيمان به حق بأن[٤] تنفع من استعمال ذلك على وجه الاقتداء بالأنبياء[٥] .

وقال في النمل : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [آية : ١٢] أي : هاتان الآيتان ، هما : العصا واليد ، هما البرهانان المشار إليهما في قوله : ﴿ فَذَٰنِكَ

---

(١) في اللسان ، والجانُّ : ضرب من الحيات أكحل العينين ، يَضرِب إلى الصفرة ، لا يؤذي . . والجمع جِنَّان .
(٢) المدرعة : ضرب من الثياب ، ولا تكون إلا من الصوف ، اللسان : درع .
(٣) البهق ، بفتحتين : بياض يعتري الجسد بخلاف لونه ؛ ليس من البرص .
(٤) في ب : حق الإيمان ينفع من استعمل .
(٥) من قوله : ثم أمره تعالى . . . إلى هنا زيادة من ب وط .

﴿ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾ ومع ذلك سبع آياتٍ أُخر ، فذلك تسع آياتٍ بيّنات ، وهي المذكورة في آخر سورة ﴿ سُبْحَـٰنَ ﴾ حيث يقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء : ١٠١ ـ ١٠٢] وهي المبسوطة في سورة الأعراف ، في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَـٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الآيات : ١٣٠ ـ ١٣٣] كما سيأتي الكلام على ذلك في موضعه ، وهذه التسع آيات غير العشر الكلمات ، في التسع من كلمات الله القدرية ، والعشرة من كلماته الشّرعية ، وإنما نبهنا على هذا لأنّه قد اشتبه أمرها على بعض الرواة ، فظنّ أنّ هذه هي هذه ، كما قررنا ذلك في تفسير آخر سورة بني إسرائيل[1] .

---

(١) في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ .

وتوهَّم بعض الرواة أن الكلمات هن الآيات ، مصدره الحديث الذي روي من طرق ، عن عبد الله بن سلمة عن صفوان بن عسّال المرادي قال : قال يهودي لصاحبه : اذهب بنا إلى هذا النبي حتى نسأله عن هذه الآيات ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ﴾ . فقال : لا تقل له نبي ، فإنه لو سمعك لصارت له أربع أعين . فسألاه ، فقال النبي ـ ﷺ ـ : « لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا تسحروا ، ولا تأكلوا الربا ، ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتله ، ولا تقذفوا محصنة ـ أو قال : لا تفرُّوا من الزحف ـ (شعبةُ الشاكُّ) وأنتم يا يهود عليكم خاصة أن لا تعدوا في السبت . فقبّلا يديه ورجليه ، وقالا : نشهد أنك نبي . قال : « فما يمنعكما أن تتبعاني؟ قالا : لأن داود ـ عليه السلام ـ دعا أن لا يزال من ذريته نبي ، وإنا نخشى إن أسلمنا أن تقتلنا يهود » .

وهذا الحديث أورده ابن كثير في تفسيره ، كما أورده من طرق الطبري (١٥/ ١١٥ ـ ١١٦) في تفسير قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ . . ﴾ .

وهو في : مسند أحمد (٤/ ٢٣٩ ، ٢٤٠) والترمذي : (٣١٤٤) ، في التفسير : باب (١٨) ومن سورة بني إسرائيل ، والنسائي (٧/ ١١١) في التحريم باب السحر .

قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . وقال ابن كثير : وهو حديث مشكل ، وعبد الله بن سلمة في حفظه شيء ، وقد تكلموا فيه ، ولعله اشتبه عليه التسع الآيات بالعشر الكلمات ، فإنها وصايا في التوراة لا تَعَلُّقَ لها بقيام الحجة على فرعون ، والله أعلم .

وقال ابن كثير أيضاً (٣/ ٦٦ ـ ٦٧) : وقد أوتي موسى عليه السلام آيات أُخر كثيرة ، منها : ضربه الحجر بالعصا وخروج الماء منه ، ومنها تظليلهم بالغمام ، وإنزال المن والسلوى ، وغير ذلك مما أوتيه بنو إسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر ، ولكن ذكر ههنا التسع آيات التي شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر فكانت حجة عليهم ، فخالفوها وعاندوها كفراً وجحوداً .

=

والمقصود أنّ الله سبحانه لما أمر موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ [القصص : ٣٣-٣٥] .

يقول تعالى ، مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى عليه السلام في جوابه لربّه عز وجل حين أمره بالذهاب إلى عدوّه الذي خرج من ديار مصر ، فراراً من سطوته وظلمه ، حين كان من أمره ما كان في قتل ذلك القبطي ، ولهذا ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ . أي : اجعله معي مُعيناً ، ورِدْأً ، ووزيراً يساعدني ويعينني على أداء رسالتك إليهم ، فإنّه أفصح مني لساناً ، وأبلغ بياناً . قال الله تعالى مجيباً له إلى سؤاله ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا ﴾ أي : برهاناً ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ أي : فلا ينالون منكما مكروهاً بسبب قيامكما بآياتنا ، وقيل : ببركة آياتنا ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ .

وقال في سورة طه : ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ [الآيات : ٢٤ ـ ٢٨] .

قيل : إنّه أصابه في لسانه لثغةٌ بسبب تلك الجمرة التي وضعها على لسانه ؛ التي كان فرعون أراد اختبار عقله حين أخذ بلحيته وهو صغير ، فهمّ بقتله فحاجّت عنه[1] آسية ، وقالت : إنّه طفلٌ ، فاختبره بوضع تمرة وجمرة بين يديه ، فهمّ بأخذ التمرة ، فصرفَ الملكُ يدَه إلى الجمرة ، فأخذها فوضعها على لسانه ، فأصابه لثغةٌ بسببها ، فسأل زوال بعضها بمقدار ما يفهمون قوله ، ولم يسأل زوالَها بالكليّة .

قال الحسن البصري : والرّسل إنّما يسألون بحسب الحاجة ، ولهذا بقيت في لسانه بقيةٌ ، ولهذا قال فرعون قبّحه الله فيما زعم أنّه يعيب به الكليم : ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ [الزخرف : ٥٢] أي : يُفصح عن مراده ويعبّر عمّا في ضميره وفؤاده . ثم قال موسى عليه السلام ﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ [طه : ٢٩ ـ ٣٦] . أي : قد أجبناك إلى جميع ما سألت ، وأعطيناك الذي طلبت ، وهذا من وَجاهته عند ربّه عَزَّ وَجَلَّ حين شفع أن يوحي الله إلى أخيه ، فأوحى إليه ، وهذا جاهٌ عظيمٌ . قال الله تعالى : ﴿ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب : ٦٩] وقال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٥٣] وقد سمعت

= وقد نظم بعضهم هذه الآيات التسع فقال :

عصـا ، سَنَـةٌ ، بَحْـرٌ ، جَـرادٌ وقُمَّـلٌ دَمٌ ، ويَدٌ ، بعد الضفادع ، طوفانُ

القاموس المحيط للفيروزأبادي (تسع) .

(١) في ط : فخافت عليه .

أمّ المؤمنين عائشة رجلاً يقول لأناس وهم سائرون في طريق الحجّ : أي أخ أمَنُّ على أخيه؟ فسكت القوم ، فقالت عائشة : لمن حولَ هودجها : هو موسى بن عمران حين شفع في أخيه هارون ، فأوحي إليه[1] ، قالَ الله تعالى ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ ، وقال تعالى في سورة الشعراء : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الآيات : ١٠ ـ ٢٠] تقدير الكلام : فأتياه فقالا له ذلك ، وبلّغاه ما أُرْسلا به من دعوته إلى عبادة الله تعالى وحدَه لا شريك له ، وأن يفكَّ أسارى بني إسرائيل من قبضته ، وقهره ، وسطوته ، وتركهم يعبدون ربّهم حيث شاؤوا ، ويتفرّغون لتوحيده ، ودعائه ، والتضرُّع لديه ، فتكبّر فرعون في نفسه ، وعتا ، وطغى ، ونظر إلى موسى بعين الازدراء والتنقّص قائلاً له : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ أي : أما أنت الذي ربّيناه في منزلنا وأحسنّا إليه ، وأنعمنا عليه مدةً من الدّهر ؟ وهذا يدلّ على أنّ فرعون الذي بُعث إليه هو الذي فرَّ منه ، خلافاً لما عند أهل الكتاب من أن فرعون الذي فرَّ منه مات في مُدّة مقامه بِمَدْين ، وأن الذي بُعِث إليه فرعونٌ آخر .

وقوله : ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي : وقتلت الرجل القبطي ، وفررت منّا ، وجحدت نعمتنا ، ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ أي : قبل أن يوحى إليَّ وينزل عليَّ ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا ﴾ أي : نبوّة ، ﴿ وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١] . ثم قال ، مجيباً لفرعون عما امتنّ به من التربية والإحسان إليه : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء : ٢٢] ، أي : وهذه النعمة التي ذكرت من أنك أحسنت إليّ ، وأنا رجل واحد من بني إسرائيل تقابل ما استخدمت هذا الشعب العظيم بكماله ، واستعبدتهم في أعمالك ، وخدمك ، وأشغالك .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٣ ـ ٢٨] .

يذكر تعالى ما كان بين فرعون وموسى من المقاولة ، والمحاجّة ، والمناظرة ، وما أقامه الكليم على فرعونَ اللئيم من الحجّة العقليّة المعنويّة ثم الحسيّة . وذلك أنّ فرعون قَبّحه الله أظهر جحد الصانع تبارك وتعالى ، وزعم أنّه الإله ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات : ٢٣ ـ ٢٤] . وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/٥٦٧) .

مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص : ٣٨] . وهو في هذه المقالة معاند يعلم أنّه عبدٌ مربوب ، وأنّ الله هو الخالق البارىء المصوِّر الإلَه الحقُّ ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل : ١٤] ، ولهذا قال لموسى عليه السلام على سبيل الإنكار لرسالته ، والإظهار أنّه ما ثَمَّ ربٌّ أرسله : ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ؟ لأنّهما قالا له : ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، فكأنه يقول لهما : ومَن ربّ العالمين الذي تزعمان أنّه أرسلكما وبعثكما؟ فأجابه موسى قائلاً : ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ يعني : ربُّ العالمين خالق هذه السموات والأرض المشاهدة ، وما بينهما من المخلوقات المتجدّدة من السّحاب ، والرياح ، والمطر والنبات ، والحيوانات التي يعلم كلّ موقن أنّها لم تحدث بأنفسها ، ولا بدّ لها من موجدٍ ومُحْدِثٍ وخالقٍ ، وهو الله الذي لا إلَه إلا هو ربُّ العالمين ﴿ قَالَ ﴾ أي : فرعون لمن حوله من أُمرائه ومَرَازِبته[1] ووزرائه على سبيل التهكّم والتنقّص لما قرّره موسى عليه السلام : ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ يعني كلامه هذا ، قال موسى مخاطباً له ولهم : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي : هو الذي خلقكم والذين من قبلكم من الآباء والأجداد والقرون السّالفة في الآباد ، فإنّ كلّ أحدٍ يعلم أنّه لم يخلق نفسه ، ولا أبوه ولا أمه ، ولم يَحدُث من غير مُحدِث ، وإنّما أوجده وخلقه الله ربُّ العالمين .

وهذان المقامان هما المذكوران في قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ ﴾ [فصلت : ٥٣] ، ومع هذا كلّه لم يستفق فرعون من رَقدته ، ولا نزع عن ضلالته ؛ بل استمرّ على طُغيانه ، وعِناده ، وكفرانه ، ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ، أي : هو المسخِّر لهذه الكواكب الزاهرة ، المسيِّرُ للأفلاك الدائرة ، خالق الظلام والضياء ، وربُّ الأرض والسماء ، ربُّ الأوّلين والآخِرين ، خالق الشمس والقمر والكواكب السائرة والثوابت الحائرة ، خالق اللّيل بظلامه ، والنهار بضيائه ، والكلُّ تحت قهره وتسخيره وتسييره سائرون ، وفي فلك يَسبحون ؛ يتعاقبون في سائر الأوقات ، ويدورون ، فهو تعالى الخالق المالك المتصرِّف في خلقه بما يشاء .

فلما قامت الحجج على فرعون ، وانقطعت شبهه ، ولم يبق له قولٌ سوى العناد ، عدل إلى استعمال سلطانه ، وجاهه ، وسطوته ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٩ ـ ٣٣] . وهذان هما البرهانان اللذان أيّده الله بهما ، وهما العصا واليد . وذلك مقامٌ أظهر فيه الخارقُ العظيم الذي بَهر به العقول والأبصار حين ألقى عصاه ؛ فإذا هي ثعبان مبين ، أي : عظيم الشكل ، بديعٌ

---

(١) المرازبة : واحدها : مرزبان ، وهو الفارس الشجاع المقدَّم على القوم ، دون الملك ، وهو معرَّب . اللسان .

في الضخامة ، والهول ، والمنظر العظيم الفظيع الباهر ، حتى قيل : إنّ فرعون لمّا شاهد ذلك وعاينه أخذه رَهَبٌ شديد ، وخوف عظيم ، بحيث إنه حصل له إسهالٌ عظيم أكثر من أربعين مرّة في يوم ، وكان قبل ذلك لا يتبرّز في كل أربعين يوماً إلا مرة واحدة ، فانعكس عليه الحال . وهكذا لما أَدخل موسى عليه السلام يده في جيبه واستخرجها ، أخرجها وهي كفِلْقَةِ القمر تتلألأ نوراً يبهر الأبصار ، فإذا أعادها إلى جيبه رجعت إلى صفتها الأولى ، ومع هذا كلّه لم ينتفع فرعون لعنه الله بشيء من ذلك ، بل استمر على ما هو عليه ، وأظهر أنّ هذا كلّه سحر ، وأراد معارضته بالسَّحَرة ، فأرسل يجمعهم من سائر[1] مملكته ، ومن في رعيته ، وتحت قهره ودولته ، كما سيأتي بسطه وبيانه في موضعه من إظهار الله الحق المبين والحجّة الباهرة القاطعة على فرعون وملئه وأهل دولته وملّته ، ولله الحمد والمِنَّةُ .

وقال تعالى في سورة طه : ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [الآيات : ٤٠ ـ ٤٦] .

يقول تعالى مخاطباً لموسى ، فيما كلّمه به لَيلة أَوحى إليه ، وأنعم بالنبوة عليه ، وكلّمه منه إليه : قد كنتُ مشاهداً لكَ وأنت في دار فرعون ، وأنت تحت كنفي ولطفي ، ثمّ أخرجتك من أرض مصر إلى أرض مَدين بمشيئتي وقَدَري وتدبيري ، فلبثت فيها سنين . ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ ﴾ ، أي : منّي لذلك ، فوافق ذلك تقديري وتسييري ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾ أي : اصطفيتك لنفسي برسالتي وبكلامي ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴾ يعني : ولا تفترا في ذِكري إذا قَدِمتما عليه ، ووفدتما إليه ، فإن ذلك عونٌ لكما على مخاطبته ، ومجاوبته ، وإهداء النصيحة إليه ، وإقامة الحجّة عليه .

وقد جاء في بعض الأحاديث : « يقول الله تعالى : إنَّ عَبْدي كُلَّ عَبْدي الذي يذكرني وهو ملاق[2] قِرْنه » .

وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا . . . ﴾ [الأنفال : ٤٥] .

ثم قال تعالى : ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ وهذا من حلمه تعالى[3] ، وكرمه ، ورأفته ، ورحمته بخلقه ، مع علمه بكفر فرعون وعتوّه ، وتجبُّره وهو إذ ذاك أردى خلقه ، وقد بعث إليه صفوته من خلقه في ذلك الزمان ، ومع هذا يقول لهما ويأمرهما أن يدعواه إليه بالتي

---

(١) سائر الشيء : بقيته .

(٢) في ب : كل عبدي لمن يذكرني وهو مناجز قرنه ، والحديث رواه الترمذي : (٣٥٨٠) في الدعوات ، باب ١١٩ ، وقال : « هذا حديث غريب (ضعيف) لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وليس إسناده بالقوي . . . ومعنى قوله : وهو ملاق قِرنه ، إنما يعني عند القتال ، يعني أن يذكر الله في تلك الساعة » .

(٣) في ب : وهذا من حكمة الله تعالى .

هي أحسن ؛ برفقٍ ولين ، ويعاملاه معاملةَ مَنْ يرجو أن يتذكّر أو يخشى ، كما قال تعالى لرسوله : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] وقال تعالى : ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ . . . ﴾ [العنكبوت : ٤٦] .

قال الحسن البصري : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ : أعذرا إليه ، قُولا له : إن لك ربّاً ولك معاداً ، وإن بين يديك جنةً وناراً[١] .

وقال وهْب بن مُنَبِّه : قولا له : إنّي إلى العفو والمغفرة أقرب منّي إلى الغضب والعقوبة[٢] .

وقال يزيد الرَّقَاشي[٣] عند هذه الآية : يا من يتحبّب إلى من يعاديه ؛ فكيف بمن يتولّاه ويناديه .

﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ وذلك أنّ فرعون كان جباراً عنيداً وشيطاناً مَريداً ، له سلطان في بلاد مِصر ، طويل عريض ، وجاه وجنود وعساكر وسطوة ، فهاباه من حيث البشريةُ ، وخافا أن يسطو عليهما في بادىء الأمر ، فثبّتهما سبحانه وتعالى وهو العليُّ الأعلى فقال : ﴿ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾ [الشعراء : ١٥] .

﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [طه : ٤٧ ـ ٤٨] .

يذكر تعالى أنّه أمرهما أن يذهبا إلى فرعون فيدعواه إلى الله تعالى أن يعبُدَه وحده لا شريك له ، وأن يرسل معهم بني إسرائيل ، ويُطلقهم من أسره وقهره ، ولا يعذبهم ﴿ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ ، وهو البرهان العظيم في العصا واليد ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ تقييدٌ مفيدٌ بليغٌ عظيمٌ . ثم تهدّداه وتوعّداه على التكذيب فقالا : ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ أي : كذّب بالحق بقلبه ، وتولّى عن العمل بقالَبه .

وقد ذكر السُّدِّي وغيره أنه لما قدم من بلاد مَدين دخل على أمّه وأخيه هارون ، وهما يتعشيان من طعام فيه الطفشيل[٤] ؛ وهو اللِّفْتُ ، فأكل معهما . ثم قال : يا هارون إنَّ الله أمرني وأمرك أن ندعو فرعون إلى

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ١٥٣) .

(٢) المصدر السابق .

(٣) الخبر في المصدر السابق . والرَّقَاشي ، بفتح الراء المهملة ، والقاف المخففة : نسبة إلى امرأة اسمها : رَقَاش ، كثرت أولادها حتى صاروا قبيلة ، وهي من قيس عيلان . الأنساب (٦/ ١٤٦) .
ويزيد بن طهمان الرقاشي ، أبو المعتمر ، من أهل البصرة .

(٤) في المحيط : الطَّفَيْشل ، بالمعجمة ، كَسَميدع : نوع من المرق . وفي تفسيره (٣/ ١٥٤) : وكان طعامهما ليلتئذٍ الطفيل ، وهو اللفت .

عبادته ، فقم معي ، فقاما يقصدان باب فرعون ، فإذا هو مغلق ، فقال موسى للبوّابين والحجَبة : أعلموه أنَّ رسولَ الله بالباب ، فجعلوا يسخرون منه ويستهزئون به .

وقد زعم بعضهم أنّه لم يؤذَن لهما عليه إلّا بعد حينٍ طويلٍ .

وقال محمد بن إسحاق : أُذن لهما بعد سنتين ، لأنّه لم يكُ أحدٌ يتجاسر على الاستئذان لهما[1] ، فالله أعلم .

ويقال : إنّ موسى تقدَّم إلى الباب فطرقه بعصاه ، فانزعج فرعون ، وأمر بإحضارهما ، فوقفا بين يديه ، فدعواه إلى الله عز وجل كما أمرهما .

وعند أهل الكتاب : أن الله قال لموسى عليه السلام : إن هارون اللاوي ، يعني الذي من نسل لاوي بن يعقوب ، سيخرج ويتلقّاك ، وأمره أن يأخذ معه مشايخ بني إسرائيل إلى عند فرعون ، وأمره أن يُظهر ما أتاه من الآيات ، وقال له : سأُقسّي قلبه فلا يرسل الشعب ، وأُكثر آياتي وأعاجيبي بأرض مصر .

وأوحى الله تعالى إلى هارون أن يخرج إلى أخيه يتلقّاه بالبرّيّة عند جبل حوريب ، فلما تلقّاه أخبره موسى بما أمره به ربّه ، فلما دخلا مِصر جمعا شيوخ بني إسرائيل ، وذهبا إلى فرعون ، فلما بلّغاه رسالة الله ، قال : مَنْ هو الله ؟ لا أعرفه ، ولا أُرسِلُ بني إسرائيل .

وقال الله تعالى مخبراً عن فرعون : ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه : ٤٩ ـ ٥٥] .

يقول تعالى ، مخبراً عن فرعون : إنّه أنكر إثبات الصّانع تعالى قائلاً : ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ ، أي : هو الذي خلق الخلق ، وقدَّر لهم أعمالاً وأرزاقاً وآجالاً ، وكتب ذلك عنده في كتابه اللّوحِ المحفوظ ، ثمّ هدى كلَّ مخلوقٍ إلى ما قدَّره له ، فطابَقَ عمله فيهم على الوجه الذي قدّره وعَلِمَه لكمال علمه وقدرته وقدره .

وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى : ١ ـ ٣] أي : قدّر قدراً وهدى الخلائق إليه .

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ يقول فرعونُ لموسى : فإذا كان ربُّك هو الخالق المقدِّر ، الهادي الخلائق لما قَدَّره ، وهو بهذه المثابة من أنّه لا يستحقُّ العبادة سواه ، فلِمَ عبد الأوّلون غيرَه ، وأشركوا به من

---

(١) تاريخ الطبري (١/ ٤٠٥) .

الكواكب والأنداد ما قد علمت ، فهلّا اهتدى إلى ما ذكرته القرونُ الأولى؟! ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ أي : هم وإن عبدوا غيرَه ، فليس ذلك بحجةٍ لك ، ولا يدلُّ على خلافِ ما أقول ؛ لأنّهم جهلة مثلك ، كل شيءٍ فعلوه مستطرٌ عليهم في الزُّبر من صغيرٍ وكبيرٍ ، وسيجزيهم على ذلك ربّي عز وجل ، ولا يظلم أحداً مثقال ذرّة ، لأن جميع أفعال العباد مكتوبة عنده في كتابٍ لا يضلُّ عنه شيءٌ ، ولا ينسى ربي شيئاً .

ثمّ ذكر له عظمة الرّبّ وقدرته على خلق الأشياء ، وجَعْلِه الأرضَ مهاداً والسماءَ سقفاً محفوظاً ، وتسخيره السحاب والأمطار لرزق العباد ودوابّهم وأنعامهم ، كما قال تعالى : ﴿ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلنُّهَىٰ ﴾ أي : لذوي العقول الصحيحة المستقيمة ، والفِطَر القويمة غير السّقيمة(1) ، فهو تعالى الخالق الرازق .

وكما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢١ ـ ٢٢] ولما ذكر إحياء الأرض بالمطر ، واهتزازها بإخراج نباتها فيه ، نبّه به على المعاد فقال : ﴿ ۞ مِنْهَا ﴾ ، أي : من الأرض خلقناكم ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الروم : ٢٧] .

ثم قال تعالى(2) : ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾ [طه : ٥٦ ـ ٥٩] .

يخبر تعالى عن شَقاء فرعون ، وكثرة جهله ، وقلّة عقله في تكذيبه بآيات الله ، واستكباره عن اتّباعها ، وقوله لموسى : إنّ هذا الذي جئت به سحرٌ ، ونحن نعارضك بمثله ، ثم طلب من موسى أن يواعده إلى وقتٍ معلومٍ ، ومكان معلومٍ ، وكان هذا من أكبر مقاصد موسى عليه السّلام أن يُظهر آياتِ الله وحججه ، وبراهينه جَهْرة بحضرة النّاس ، ولهذا قال : ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ ﴾ ، وكان يوم عيدٍ من أعيادهم ، ومجتمعٍ لهم ، ﴿ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾ أي : من أوّل النهار في وقت اشتداد ضياء الشمس ، فيكون الحقّ أظهر وأجلى ، ولم يطلب أن يكون ذلك ليلاً في ظلامٍ ، كيما يروج عليهم محالاً وباطلاً ، بل طلب أن يكون نهاراً جهرةً لأنه على بصيرة من ربّه ، ويقينٍ أن الله سيظهرُ كلمته ودينه ؛ وإن رغمت أنوف القبط .

---

(١) قوله : والفطر . . . السقيمة . سقط من ب .

(٢) قوله : ثم قال تعالى . . . زيادة من ط .

قال الله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ۝٦٠ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ۝٦١ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ۝٦٢ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ۝٦٣ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴾ [طه : ٦٠ ـ ٦٤] .

يخبر تعالى عن فرعون أنّه ذهب فجمع من كان ببلاده من السّحرة ، وكانت بلاد مصر في ذلك الزمان مملوءةً سَحرةً فضلاء في فنّهم غاية ، فجمعوا له من كلِّ بلدٍ ، ومن كلِّ مكان ، فاجتمع منهم خلقٌ كثيرٌ وجَمٌّ غفيرٌ ، فقيل : كانوا ثمانين ألفاً ، قاله محمد بن كعب . وقيل : سبعين ألفاً ، قاله القاسم بن أبي بَزَّة[١] . وقال السُّدِّي : بضعة وثلاثين ألفاً . وعن أبي أمامة : تسعة عشر ألفاً . وقال محمد بن إسحاق : خمسة عشر ألفاً . وقال كعب الأحبار : كانوا اثني عشر ألفاً[٢] . وروى ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس : كانوا سبعين رجلاً ، وروي عنه أيضاً : أنّهم كانوا أربعين غلاماً من بني إسرائيل ، أمرهم فرعون أن يذهبوا إلى العرفاء فيتعلّموا السِّحر ، ولهذا قالوا : ﴿ وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ ﴾ [طه : ٧٣] وفي هذا نظر .

وحضر فرعون ، وأمراؤه ، وأهل دولته ، وأهل بلده عن بَكرة أبيهم[٣] . وذلك أنّ فرعون نادى فيهم أن يحضروا هذا الموقف العظيم ، فخرجوا وهم يقولون : لعلّنا نتّبع السّحرة إن كانوا هم الغالبين . وتقدّم موسى عليه السلام إلى السّحرة فوعظهم ، وزجرهم عن تعاطي السِّحر الباطل الذي فيه معارضةٌ لآيات الله وحججه فقال : ﴿ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ۝٦١ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴾ قيل : معناه أنّهم اختلفوا فيما بينهم ؛ فقائل يقول : هذا كلام نبيٍّ وليس بساحر ، وقائل منهم يقول : بل هو ساحر ، فالله أعلم .

وأسرّوا التناجي بهذا وغيره ﴿ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا ﴾ يقولون : إنّ هذا وأخاه هارون ساحرانِ[٤] عليمان مطبقان متقنان لهذه الصِّناعة ، ومرادهم أن يجتمع النّاس عليهما ، ويصولا على الملك وحاشيته ، ويستأصلاكم عن آخركم ، ويستأمرا[٥] عليكم بهذه الصناعة ، ﴿ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴾ .

---

(١) في ط : أبي بردة ، وهو خطأ . والقاسم بن أبي بَزَّة ـ بفتح الموحدة وتشديد الزاي ـ المكي ، مولى بني مخزوم . قارىء ، ثقة . تقريب التهذيب (٢/ ١١٥) .

(٢) قوله : ألفاً . ليس في ب ، ورواية المتن موافقة لما أورده في تفسيره (٣/ ١٥٨) .

(٣) يقال : جاؤوا على بكرة أبيهم : إذا جاؤوا جميعاً على آخرهم . اللسان (بكر) .

(٤) قوله : ﴿ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم . . ﴾ . . هارون ساحران سقط من ب بنقلة عين .

(٥) في ب : وليستأصلاكم . . وليستأمرا .

وإنما قالوا الكلام الأوّل ليتدبّروا ويتواصَوا ويأتوا بجميع ما عندهم من المكيدة ، والمكر ، والخديعة ، والسِّحر ، والبُهتان ، وهيهات ، كذبت والله الظنون ، وأخطأت الآراء . أنّى يعارِضُ البهتان ، والسحرُ والهذيان ، خَوارقَ العادات التي أجراها الدَّيّان ، على يدي عبده الكليم ، ورسوله الكريم المؤيد بالبرهان الذي يبهر الأبصار ، وتحار فيه العقول والأذهان .

وقولهم : ﴿ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ﴾ أي : جميع ما عندكم ﴿ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ﴾ أي : جملةً واحدةً ، ثمّ حَضُّوا بعضهم بعضاً على التقدّم في هذا المقام ، لأن فرعون كان قد وعدهم ومَنّاهم ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء : ١٢٠] .

﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [طه : ٦٥ ـ ٦٩] .

لما اصطفّ السَّحرةُ ، ووقف موسى وهارون عليهما السلام تجاههم قالوا له : إمّا أن تلقيَ قبلنا ، وإما أن نلقيَ قبلك . ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ﴾ أنتم ، وكانوا قد عمدوا إلى حبالٍ وعِصِيٍّ ، فأودعوها الزئبقَ وغيرَه من الآلات التي تضطرب بسببها تلك الحبال والعصي اضطراباً يخيّل للرائي أنّها تسعى باختيارها ، وإنّما تتحرّك بسبب ذلك . فعند ذلك سحروا أعين النّاس ، واسترهبوهم ، وألقَوا حبالهم وعصيَّهم وهم يقولون : بعزّة فرعون إنّا لنحن الغالبون[1] .

قال الله تعالى : ﴿ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف : ١١٦] .

وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ أي : خاف على النّاس أن يفتتنوا بسحرهم ومحالهم قبل أن يُلْقِيَ ما في يده فإنّه لا يصنع شيئاً قبل أن يُؤمَر ، فأُوحيَ إليه في السّاعة الراهنة ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ فعند ذلك ألقى موسى عصاه وقال : ما جئتم به السِّحرُ إن الله سيُبْطِله إنَّ الله لا يُصلِحُ عمل المفسدين ﴿ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [يونس : ٨٢] .

وقال تعالى : ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ[2] عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ [الشعراء : ٤٥] ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الأعراف : ١١٨ ـ ١٢٢] وذلك أنّ موسى عليه السلام لمَّا ألقاها صارت حيةً عظيمةً ذات قوائم ـ فيما ذكره غيرُ

---

(١) قال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الشعراء : ٤٤] .

(٢) كلمة ﴿ موسى ﴾ ليست في ب . وبذلك تكون الآية من قوله عزَّ وجل في سورة الأعراف : ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ .

واحد من علماء السّلف ـ وعُنُقٍ عظيم ، وشكلٍ هائلٍ مزعجٍ ، بحيث إنّ النّاس انحازوا منها وهَربوا سِراعاً ، وتأخّروا عن مكانها ، وأقبلت هي على ما ألقوه من الحبال والعِصيّ فجعلت تلقفه واحداً واحداً في أسرع ما يكون من الحركة ، والنّاس ينظرون إليها ويتعجّبون منها .

وأما السَّحَرة فإنهم رأوا ما هالَهم وحيّرهم في أمرهم ، واطّلعوا على أمر لم يكن في خَلَدهم ولا بالهم ، ولا يدخل تحت صناعاتهم وأشغالهم . فعند ذلك ، وهنالك تحقّقوا بما عندهم من العلم أنّ هذا ليس بسحر ، ولا شَعْبَذة ، ولا محالٍ ، ولا خيالٍ ، ولا زورٍ ، ولا بهتانٍ ، ولا ضلالٍ ، بل حق لا يقدر عليه إلا الحقّ الذي ابتعث هذا المؤيَّدَ به بالحقّ ، وكشف الله عن قلوبهم غشاوة الغفلة وأنارها بما خلَق فيها من الهدى ، وأزاح عنها القسوة ، وأنابوا إلى ربِّهم وخرّوا له ساجدين ، وقالوا جَهْرةً للحاضرين ، ولم يخشوا عقوبةً ولا بلوىٰ ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [طه : ٧٠ ـ ٧٦] .

قال سعيد بن جُبير ، وعكرمة ، والقاسم بن أبي بَزّة ، والأوزاعي ، وغيرُهم : لمّا سجد السَّحَرة رأوا منازلَهم وقصورَهم في الجنة تُهَيّأ لهم ، وتُزَخْرَف لقدومهم ، ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فرعون ، وتهديده ، ووعيده ، وذلك لأن فرعون لمّا رأى هؤلاء السَّحرةَ قد أسلموا ، وأشهروا ذِكر موسى وهارون في النّاس على هذه الصِّفة الجميلة ، أفزعه ذلك ، ورأى أمراً بهره ، وأعمى بصيرته وبصره ، وكان فيه كيدٌ ، ومكرٌ ، وخداع ، وصنعة بليغة في الصدّ عن سبيل الله ، فقال مخاطباً للسّحرة بحضرة النّاس : ﴿ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ أي : هلاّ شاورتموني فيما صنعتم من الأمر الفظيع بحضرة رعيّتي ، ثمّ تهدّدَ ، وتوعّد ، وأبرق ، وأرعد ، وكذّب فأبعد قائلاً : ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ . وقال في الآية الأخرى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٣] .

وهذا الذي قاله من البهتان الذي يعلم كل عاقل[١] ما فيه من الكفر ، والكذب ، والهذيان ، بل لا يروج مثله[٢] على الصِّبيان ، فإنَّ النّاس كلهم من أهل دولته وغيرهم يعلمون أنّ موسى لم يَرَه هؤلاء يوماً من الدّهر ، فكيف يكون كبيرهم الذي علّمهم السِّحر . ثم هو لم يجمعهم ولا علم باجتماعهم حتى كان

---

(١) في ط : البهتان يعلم كل فرد عاقل . . .

(٢) كذا في ب وط . وفي أ : قيله .

فرعون هو الذي استدعاهم ، واجتباهم من كلِّ فجٍّ عميقٍ ، ووادٍ سحيقٍ ، ومن حواضر بلاد مصر والأطراف ، ومن المدن والأرياف .

قال الله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الآيات : ١٠٣ ـ ١٢٦] .

وقال تعالى في سورة يونس : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾

[الآيات : ٧٥ ـ ٨٢] .

وقال تعالى في سورة الشعراء : ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ

وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الآيات : ٢٩ ـ ٥١] .

والمقصود أنّ فرعون كذب وافترى ، وكفر غاية الكفر في قوله : ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ ، وأتى ببهتان يعلمه العالِمون ، بل العالَمون في قوله : ﴿ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ، وقوله : ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ﴾ يعني : يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى وعكسه ، ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي : ليجعلهم مثلةً ونكالاً لئلا يقتدي بهم أحد من رعيته وأهل مِلّته ، ولهذا قال : ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ أي : على جذوع النّخل ؛ لأنّها أعلى وأشهر ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ يعني : في الدنيا .

﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ أي : لن نُطيعَكَ وَنَترك ما وَقَر في قلوبنا من البيّنات والدّلائل القاطعات ﴿ وَالَّذِي فَطَرَنَا ﴾ قيل : معطوف ، وقيل : قَسَم ، ﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ﴾ أي : فافعل ما قدرت عليه ﴿ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أي : إنّما حكمك علينا في هذه الحياة الدنيا ، فإذا انتقلنا منها إلى الدار الآخرة ؛ صرنا إلى حكم الذي أسلمنا له ، واتّبعنا رسله ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ أي : وثوابه خير مما وعدتنا به من التقريب والترغيب ﴿ وَأَبْقَى ﴾ أي : وأدوم من هذه الدار الفانية .

وفي الآية الأخرى : ﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا ﴾ أي : ما اجترمناه من المآثم والمحارم ﴿ أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : من القبط ، بموسى وهارون عليهما السلام .

وقالوا له أيضاً : ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ﴾ أي : ليس لنا عندك ذنب إلا إيماننا بما جاءنا به رسولنا واتّباعنا آيات ربنا لمّا جاءتنا ، ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ أي : ثبّتنا على ما ابتُلينا به من عقوبة هذا الجبّار العنيد ، والسلطان الشديد ، بل الشيطان المريد ﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ .

وقالوا له(١) أيضاً يعظونه ، ويخوّفونه بأس ربّه العظيم : ﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ ، يقولون له : فإيّاك أن تكون منهم ، فكان منهم ﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴾ أي : المنازل العالية ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى ﴾ ، فاحرص أن تكون منهم ، فحالت بينه وبين ذلك الأقدار التي لا تُغالَب ولا تمانَع ، وحكم العليُّ العظيم بأن فرعون لعنه الله من أهل الجحيم ، ليباشر العذاب الأليم ، يُصبُّ من فوق رأسه الحميم ، ويقال له على

---

(١) في ط : وقالوا أيضاً .

وجه التقريع والتوبيخ ، وهو المقبوح المنبوح[(١)] الذّميم اللّئيم : ﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴾ [الدخان : ٤٩] .

والظّاهر من هذه السياقات[(٢)] أن فرعون لعنه الله ، صلبهم وعذّبهم ، رضيَ الله عنهم . قال عبد الله بن عباس ، وعُبيد بن عُمير : كانوا من أوّل النّهار سَحَرةً فصاروا من آخره شهداء بَرَرة . ويؤيّد هذا قولهم : ﴿ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴾ .

* * *

فصل

ولمّا وقع ما وقع من الأمر العظيم ، وهو الغَلَبُ الذي غُلِبَتْهُ القِبط في ذلك الموقف الهائل ، وأسلم السَّحَرة الذين استنصروا بهم[(٣)] ، لم يزِدْهم ذلك إلا كُفراً وعِناداً وبُعداً عن الحقِّ .

قال الله تعالى بعد قَصَصٍ ما تقدّم في سورة الأعراف : ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴾ [الآيات : ١٢٧ ـ ١٢٩] .

يخبر سبحانه وتعالى عَنِ الملأ من قوم فرعون ، وهم الأمراء والكبراء ، أنّهم حَرَّضوا مِلكهم فرعون على أذيّة نبيّ الله موسى عليه السلام ، ومقابلته بدل التصديق بما جاء به بالكفر والردِّ والأذى فقالوا : ﴿ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ ﴾ ، يعنون ـ قَبَّحهم اللهُ ـ أنّ دعوته إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والنهيَ عن عبادة ما سواه ، فسادٌ بالنسبة إلى اعتقاد القِبط ، لعنهم الله . وقرأ بعضهم[(٤)] :

---

(١) المنبوح : المشتوم . يقال : نبحتني كلابك : أي لحقتني شتائمك . وأصله من نباح الكلب ، وهو صياحه . اللسان .

(٢) في ب : الآيات .

(٣) في ط : استنصروا ربهم . وهو خطأ . وقراءة نافع وابن كثير : ﴿ سَنَقْتُلُ ﴾ بالتخفيف . حجة القراءات : (٢٩٤) والنشر (٢/ ٢٧١) .

(٤) قال عبد الفتاح القاضي في القراءات الشاذة (ص٤٨) : وقرأ الحسن وابن محيصن : ﴿ وإلَهتك ﴾ ، بكسر الهمزة وقصرها وفتح اللام وألف بعدها ، فقيل : إنه مصدر بمعنى العبادة مضاف لمفعوله ، أي : ويترك عبادته لك ، وقيل : مصدر أريد به المفعول ، أي : ويترك المعبود الذي تعبده . وكذا في : شواذ ابن خالويه (٤٥) ، وتفسير الطبري (٩/ ١٧) ، وفيه : والقراءة التي لا نرى القراءة بغيرها هي القراءة التي عليها قرّاء الأمصار ، لإجماع الحجة من القرّاء عليها .

﴿ ويذرك وإلٰهتك ﴾ أي : وعبادتك[1] ، ويحتمل شيئين : أحدهما : ويذر دينك ، وتقوّيه القراءة الأخرى . الثاني : ويذر أنْ يعبدَك ، فإنّه كان يزعم أنّه إلٰهٌ ، لعنه الله .

﴿ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَاءَهُمْ ﴾ ، أي : لئلاّ يكثر مقاتِلتهم ، ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ ، أي : غالبون .

﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ، أي : إذا همّوا هم بأذيّتكم ، والفتكِ بكم ، فاستعينوا أنتم بربّكم ، واصبروا على بليّتكم ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ، أي : فكونوا أنتم من[2] المتقين لتكونَ لكم العاقبة ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [يونس : ٨٤ـ٨٦] .

وقولهم : ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ ﴾ أي : قد كانت[3] الأبناء تُقتّل قبل مجيئك ، وبعد مجيئك إلينا ﴿ جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ .

وقال الله تعالى في سورة ﴿ حمٓ ﴾ المؤمن : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر : ٢٣ ـ ٢٤] وكان فرعون الملك ، وهامان الوزير ، وكان قارون[4] إسرائيليّاً من قوم موسى ، إلاّ أنّه كان على دين فرعون ومَلَئِهِ ، وكان ذا مالٍ جَزيلٍ جدّاً ، كما ستأتي قِصّته فيما بعد إن شاء الله تعالى . ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ [غافر : ٢٥] وهذا القتلُ للغلمان من بعد بعثة موسى إنّما كان على وجه الإهانة ، والإذلال ، والتقليل لملأ بني إسرائيل لئلاّ يكون لهم شوكةٌ يمتنعون بها ، أو يصولون على القِبْط بسببها ، وكانت القبط منهم يحذرون ، فلم ينفعهم ذلك ، ولم يردّ عنهم قدر الله الذي يقول للشيء كُنْ فيكون .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ [غافر : ٢٦] . ولهذا يقول النّاس على سبيل التهكّم : صار فرعون مُذكّراً ، وهذا منه ، فإنّ فرعون في زعمه يخاف على النّاس أن يضلهم موسى عليه السّلام .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ [غافر : ٢٧] . أي : عذت

---

(١) في تاريخ الطبري (١/٤١٣) وآلهته ـ فيما زعم ابن عباس ـ كانت البقر ، كانوا إذا رأوا بقرة حسناء أمرهم أن يعبدوها ، فلذلك أخرج لهم عجلاً بقرة .

(٢) الحرف (من) ليس في ط .

(٣) في ب : أي كانت .

(٤) في ب : وقارون كان . .

بالله، ولجأت إليه واستجرت[١] بجنابه من أن يَسْطُوَ فِرْعَونُ وغيرُه عليَّ بسوءٍ . وقوله : ﴿ مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ﴾ أي : جبّار عنيدٍ لا يَرْعَوي ، ولا ينتهي ، ولا يخافُ عذابَ الله وعقابه[٢] ؛ لأنه لا يعتقد معاداً ولا جزاءً . ولهذا قال : ﴿ مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ [غافر : ٢٧ ـ ٢٩] . هذا الرجل هو ابن عمِّ فرعون ، وكان يكتم إيمانه من قومه خوفاً منهم على نفسه . وزعم بعض النّاس أنّه كان إسرائيلياً ، وهو بعيدٌ ومخالف لسياق الكلام لفظاً ومعنى ، والله أعلم .

قال ابن جُرَيج : قال ابن عباس : لم يُؤْمِن من القِبط بموسى إلّا هذا ، والذي جاء من أَقْصى المدينة ، وامرأةُ فرعون . رواه ابن أبي حاتم . قال الدَّارَقُطْني : لا يُعْرف من اسمُه شمعان ، بالشين المعجمة ، إلا مؤمن آل فرعون ، حكاه السّهيلي[٣] .

وفي تاريخ الطبري أن اسمه : خير ، فالله أعلم .

والمقصود أنّ هذا الرجل كان يكتم إيمانَه ، فلما هَمَّ فرعون لعنه الله بقتل موسى عليه السلام وعزم على ذلك ، وشاور ملأه فيه ، خاف هذا المؤمن على موسى ، فتلطّف في ردِّ فرعون بكلامٍ جمع فيه الترغيبَ والترهيبَ ، فقال على وجه المشورة والرّأي ، وقد ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أَفْضَلُ الجِهادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ »[٤] . وهذا من أعلى مراتب هذا المقام ، فإن فرعون لا أشدَّ جَوْراً منه ، وهذا الكلام لا أعدل منه ، لأن فيه عصمة نبي . ويحتمل أنّه كاشرهم[٥] بإظهار إيمانه ، وصرّح لهم بما كان يكتمه ، والأوّل أظهر . والله أعلم .

قال ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ أي : من أجل أنّه قال : ربي الله ، فمثل هذا لا يقابَل بهذا ؛ بل بالإكرام والاحترام ، أو الموادعة وترك الانتقام ، يعني لأنّه إن ﴿ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ أي :

---

(١) قوله : واستجرت ليس في ط .
(٢) في ب : ولا عقابه .
(٣) في التعريف والإعلام فيما أبهم من القرآن : ورقة ٥٥ .
(٤) أخرجه الترمذي (٢١٧٤) في الفتن، باب ما جاء في أفضل الجهاد كلمة عدل وأبو داود (٤٣٤٤) في الملاحم ، وابن ماجه (٤٠١١)، في الفتن ، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، من طريق أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله. وأخرجه أحمد (٤/ ٣١٤) وإسناده ضعيف لضعف عطية العوفي، راويه عن أبي سعيد النسائي (٧/ ١٦١) عن طارق بن شهاب أن رجلاً سأل النبي ﷺ ، وهذا مرسل لأن طارق بن شهاب رأى النبي ﷺ ولم يسمع منه (وينظر تهذيب الكمال (١٣/ ٣٤١ ـ ٣٤٣) والتعليق عليه) لكنه مرسل صحابي، فيصح به الحديث كما قال المصنف .
(٥) كاشرهم : ضحك في وجههم وباسطهم .

بالخوارق التي دلّت على صدقه فيما جاء به عمّن أرسله ، فهذا إن وادعتموه كنتم في سلامةٍ لأنه ﴿ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ﴾ ، ولا يضرّكم ذلك ، ﴿ وَإِن يَكُ صَادِقًا ﴾ وقد تعرّضتم له ﴿ يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ﴾ أي : وأنتم تشفقون أن ينالكم أيسر جزاءٍ مما يتوعدكم به ، فكيف بكم إن حلَّ جميعه عليكم .

وهذا الكلام في هذا المقام من أعلى مقامات التلطُّف ، والاحتراز ، والعقل التّام .

وقوله : ﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ يُحذِّرهم أن يُسلبوا هذا الملك العزيز فإنّه ما تعرّض الدول للدِّينِ إلا سُلبوا مُلْكهم وذلّوا بعد عزِّهم ، وكذا وقع لآل فرعون ؛ ما زالوا في شكٍّ ، وريبٍ ، ومخالفةٍ ، ومعاندةٍ لما جاءهم موسى به حتى أخرجهم الله مما كانوا فيه من الملك والأملاك ، والدُّور والقصور والنِّعمة والحبور ، ثمّ حوِّلوا إلى البحر مهانين ، ونُقِلَتْ أرواحهم بعد العلوّ والرِّفعة إلى أسفل السّافلين . ولهذا قال هذا الرجل المؤمن الصّادق[1] البارُّ الراشد ، التابع للحقّ ، الناصح لقومه ، الكامل العقل : ﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي : عالين على الناس حاكمين عليهم ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ﴾ أي : لو كنتم أضعاف ما أنتم فيه من العدد والعدّة ، والقوّة والشدّة لما نفعنا ذلك ، ولا ردّ عنا بأس مالك الملك .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ أي : في جواب هذا كلِّه : ﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ ﴾ أي : ما أقول لكم إلا ما عندي ، ﴿ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ ، وكذب في كلٍّ من هذين القولين ، وهاتين المقدِّمتين ، فإنّه قد كان يتحقّق في[2] باطنه وفي نفسه أنّ هذا الذي جاء به موسى من عند الله لا محالة ، وإنّما كان يُظْهِرُ خلافه بغياً وعدواناً وعتوّاً وكفراناً .

قال الله تعالى إخباراً عن موسى أنه قال له[3] : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ [الإسراء : ١٠٢ ـ ١٠٤] .

وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل : ١٣ ـ ١٤] .

وأما قوله : ﴿ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ ، فقد كذب أيضاً ، فإنّه لم يكن على رشادٍ من الأمر ، بل كان على سَفَهٍ وضلالٍ وخَبَلٍ وخَيالٍ ، فكان أولاً ممن يعبد الأصنام والأمثال ، ثم دعا قومه الجَهَلَةَ الضُّلّالَ إلى أن اتّبعوه وطاوعوه وصدَّقوه فيما زعم من الكفر المحال في دعواه أنّه ربٌّ ، تعالى الله ذو الجلال[4] .

---

(١) في ط : المصدق .

(٢) في ب : يتحقق ويعلم في . .

(٣) قوله : أنه قال له . زيادة من ب .

(٤) في ب : مولانا ذو الجلال .

قال الله تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ [الزخرف : ٥١ ـ ٥٦] .

وقال تعالى : ﴿ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴾ [النازعات : ٢٠ ـ ٢٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِي هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾ [هود : ٩٦ ـ ٩٩] .

والمقصود بيان كذبه في قوله : ﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ ﴾ ، وفي قوله : ﴿ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر : ٢٩ ـ ٣٥] .

يحذِّرهم وليُّ الله إن كذبوا برسول الله موسى أن يَحُلَّ بهم ما حلَّ بالأمم من قبلهم من النقمات والمثُلات[١] ، مما تواتر عندهم ، وعند غيرهم ما حلَّ بقوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ ومَن بعدهم إلى زمانهم ، ذلك مما أقام الله به الحجج على أهل الأرض قاطبةً في صدق ما جاءت به الأنبياء لما أنزل من النقمة بمكذِّبيهم من الأعداء ، وما أنجى الله من اتَّبعهم من الأولياء ، وخوّفهم يومَ القيامة ، وهو ﴿ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴾ أي : حين ينادي الناسُ بعضهم بعضاً ، حين يولون ـ إن قدروا على ذلك ـ ، ولا إلى ذلك سبيل ﴿ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴾ [القيامة : ١٠ ـ ١٢] . وقال تعالى : ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : ٣٣ ـ ٣٦] .

وقرأ بَعْضُهم[٢] ﴿ يوم ٱلتنادِّ ﴾ ، بتشديد الدال : أي : يوم الفرار ، ويحتمل أن يكون يوم القيامة ،

---

(١) المثُلات : مفردها مَثُلَة وهي النقمة تنزل بالإنسان فيُجعل مثالاً يرتدع به غيره ، وذلك كالنكال . مفردات الراغب الأصفهاني .

(٢) هي قراءة ابن عباس والضحاك . قال : أي يندون كما تند الإبل . شواذ ابن خالويه (١٣٢) .

ويحتمل أن يكون يوم يُحِلُّ الله بهم البأس فيريدون[١] الفرار ولاتَ حِيْنَ مَناص . ﴿ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٢ ـ ١٣] .

ثم أخبرهم عن نبوّة يوسف في بلاد مصر وما كان منه من الإحسان إلى الخلق في دنياهم وأخراهم ، وهذا من سلالته وذريته ، ويدعو النّاس إلى توحيد الله تعالى وعبادته ، وأن لا يشركوا به أحداً من بريّته ، وأخبر عن أهل الديار المصرية في ذلك الزمان ، أن من سجيّتهم التكذيب بالحق ومخالفة الرسل ، ولهذا قال : ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ﴾ أي : وكذّبتم في هذا ، ولهذا قال : ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ﴾ أي : يردّون حجج الله وبراهينه ودلائل توحيده بلا حجّة ولا دليلٍ عندهم من الله ، فإن هذا أمر يمقته[٢] الله غاية المقت ، أي يبغض من تلبّس به من الناس ، ومن اتّصف به من الخلق ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ ، قُرِئَ بالإضافة وبالنعت[٣] ، وكلاهما متلازم ، أي : هكذا إذا خالفت القلوب الحقّ ولا تخالفه إلا بلا برهان ، فإن الله يطبع عليه أي يختم عليها[٤] .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾ [غافر: ٣٦ ـ ٣٧].

كذّب فرعونُ موسى عليه السلام في دعواه أن الله أرسله ، وزَعْمُ فرعونَ لقومه ما كذبه وافتراه في قوله لهم : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ ، وقال هاهنا : ﴿ لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ أي : طُرُقها ومَسَالِكها ، ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ﴾ . ويحتمل هذا معنيين : أحدهما : وإني لأظنه كاذباً في قوله : إن للعالم ربًّا غيري . والثاني : في دعواه أن الله أرسله . والأوّل أشبه بظاهر حال فرعون ، فإنه كان ينكر ظاهر إثبات الصانع[٥] ، والثاني أقرب إلى اللفظ حيث قال : ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ أي : فأسأله . هل أرسله أم لا ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ﴾ أي : في دعواه ذلك .

وإنما كان مقصود فرعون أن يَصُدَّ النّاس عن تصديق موسى عليه السلام وأن يحثّهم على تكذيبه . قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ ،

---

(١) في ط : فيودون .

(٢) في ب : فإن هذا مما يمقت الله . وفي ط : فإن هذا أمر يمقته .

(٣) قرأ أبو عمرو وابن عامر : ﴿ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ ﴾ بالنعت . وقرأ الباقون بغير تنوين ، على الإضافة . حجة القراءات (٦٣٠ ـ ٦٣١) ، النشر (٢/ ٣٦٥) .

(٤) زاد هاهنا في ب : بما فيها .

(٥) من قوله : والثاني في دعواه . . . . إلى هنا سقط من أ بنقلة عين .

وقُرئ[١] : ﴿ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾ . قال ابن عباس ومجاهد : يقول : إلّا في خسار ، أي : باطل لا يحصل له شيء من مقصوده الذي رامه ، فإنّه لا سبيل للبشر أن يتوصّلوا بقواهم إلى نيل السماء أبداً ، أعني السماء الدنيا ، فكيف بما بعدها من السماوات العُلى وما فوق ذلك من الارتفاع الذي لا يعلمه إلا الله عزّ وجلّ[٢] . وذكر غير واحد من المفسّرين أن هذا الصرح ، وهو القصر الذي بناه وزيره هامان له ، لم يُرَ بناءٌ أعلى منه ، وإن كان مبنياً من الآجرِّ المشويِّ بالنار ، ولهذا قال : ﴿ فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا ﴾ .

وعند أهل الكتاب أن بني إسرائيل كانوا يُسَخَّرون في ضرب اللَّبِن ، وكان مما حملوا من التكاليف الفرعونية أنّهم لا يُساعدون على شيء مما يحتاجون إليه فيه ، بل كانوا هم الذين يجمعون تُرابه وتبنه ومَاءه ، ويُطلب منهم في كلِّ يوم قسط معين ، إنْ لم يفعلوه وإلّا ضُربوا وأُهينوا غاية الإهانة ، وأُوذوا غاية الأذيَّة . ولهذا قالوا لموسى : ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ ، فوعدهم بأن العاقبة لهم على القبط وكذلك وقع ، وهذا من دلائل النبوة .

ولنرجع إلى نصيحة المؤمن ، وموعظته ، واحتجاجه قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَاۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [غافر : ٣٨ ـ ٤٠] يدعوهم رضي الله عنه إلى طريق الرشاد والحق ، وهي متابعة نبي الله موسى وتصديقه فيما جاء به من ربه ، ثم زهّدهم في الدنيا الدنيّة الفانية المنقضية لا محالة ، ورغّبهم في طلب الثواب عند الله الذي لا يضيع عمل عامل لديه ، القدير الذي ملكوت كل شيء بيديه ، الذي يعطي على القليل كثيراً ، ومِن عدله لا يجازي على السيئة إلا مثلها . وأخبرهم أن الآخرة هي دار القرار ؛ التي مَن وافاها مؤمناً قد عمل الصالحات فلهم الجنات العاليات والغرف الآمنات ، والخيرات الكثيرة الفائقات ، والأرزاق الدائمة التي لا تبيد . والخير الذي كل ما لهم منه في مزيد .

ثم شرع في بيان إبطال ما هم عليه ، وتخويفهم مما يصيرون إليه فقال : ﴿ ۞ وَيَـٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّـٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ

---

(١) قرئ ﴿ صَدَّ ﴾ بالبناء للمعلوم ، وهي قراءة الجمهور إلا عاصماً وحمزة والكسائي ، فقد قرؤوها بالبناء للمجهول . حجة القراءات (٦٣٢) وتفسير الطبري (٢٤/٤٣) .

(٢) تفسير الطبري : (٢٤/٤٣ ـ ٤٤) .

أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾[1] [غافر : ٤١ ـ ٤٦] .

كان يدعوهم إلى عبادة ربّ السماوات والأرض ، الذي يقول للشيء : كن فيكون ، وهم يدعونه إلى عبادة فرعون الجاهل الضّال الملعون ، ولهذا قال لهم على سبيل الإنكار : ﴿ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴾ ، ثمّ بيّن لهم بطلان ما هم عليه من عبادة ما سوى الله من الأنداد والأوثان ، وأنّها لا تملك من نفع ولا إضرار[2] فقال : ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ أي : لا تملك تصرّفاً ولا حكماً في هذه الدار ، فكيف تملكه يوم القرار . وأمّا الله عزّ وجلّ فإنه الخالق الرازق للأبرار والفجّار ، وهو الذي أحيا العباد ويميتهم ويبعثهم فيدخل طائعهم الجنة وعاصيهم إلى النار .

ثمّ توعّدهم إنْ هم استمروا على العناد بقوله : ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ . قال الله : ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ﴾ أي : بإنكاره سَلِم مما أصابهم من العقوبة على كفرهم بالله ومكرهم في صدّهم عن سبيل الله ، مما أظهروا للعامة من الخيالات والمحالات التي لبّسوا بها على عوامّهم وطَغامهم[3] ، ولهذا قال : ﴿ وَحَاقَ ﴾ أي : أحاط ﴿ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ أي : تُعرض أرواحهم في برزخهم صباحاً ومساءً على النار ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ . وقد تكلّمنا على دلالة هذه الآية على عذاب القبر في « التفسير »[4] ولله الحمد .

والمقصود أنّ الله تعالى لم يُهلكهم إلا بعد إقامة الحجج عليهم ، وإرسال الرسول إليهم ، وإزاحة الشُبه عنهم ، وأخذ الحجّة عليهم منهم ، فبالترهيب تارةً والترغيب أخرى ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٣٠ ـ ١٣٣] .

---

(١) الآية الأخيرة لم ترد في ب .

(٢) في ب : لا تملك نفعاً ولا ضراً .

(٣) الطغام : أرذال الناس وأوغادهم ، الواحد والجمع سواء .

(٤) تفسير ابن كثير (٤/ ٨٠ ـ ٨١) .

يخبر تعالى أنه ابتلى آل فرعون ، وهم قومه من القبط ، بالسّنين : وهي أعوام الجَدْب التي لا يُستغل فيها زرع ولا يُنتفع بضرع ، وقوله : ﴿ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ . وهي قلّة الثمار من الأشجار ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أي : فلَم ينتفعوا ولم يرعَوُوا ، بل تمرّدوا واستمروا على كفرهم وعنادهم ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ ﴾ وهو الخصب ونحوه ، ﴿ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ﴾ أي : هذا الذي نستحقّه ، وهذا الذي يليق بنا ، ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ﴾ أي : يقولون : هذا بشؤمهم أصابنا هذا ، ولا يقولون في الأوّل إنه بركتُهم وحسن مجاورتهم ، ولكنْ قلوبهم منكرة مستكبرة ، نافرة عن الحق ، إذا جاء الشرُّ أسندوه إليه ، وإن رأوا خيراً ادّعوه لأنفسهم .

قال الله تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي : الله يجزيهم على هذا أوفر الجزاء ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٣١ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : مهما جئتنا به من الآيات ، وهي الخوارق للعادات ، فلسنا نؤمن بك ولا نتّبعك ولا نطيعك ولو جئتنا بكلِّ آية .

وهكذا أخبر الله عنهم في قوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦ ـ ٩٧] .

قال الله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ أما الطّوفان ، فعن ابن عباس : هو كَثْرةُ الأمطار المُتْلِفَةِ للزروع والثمار . وبه قال سعيد بن جُبير وقتادة والسُّدّي والضحّاك . وعن ابن عباس وعطاء : هو كثرة الموت[1] . وقال مجاهد الطوفان : الماء والطاعون على كلِّ حال . وعن ابن عباس : أمرٌ طافَ[2] بهم .

وقد روى ابن جرير ، وابن مردويه ، من طريق يحيى بن يَمَان ، عن المنهال بن خليفة ، عن الحجّاج ، عن الحكم بن مِينا ، عن عائشة ، عن النبي ﷺ « الطُّوفانُ الموْتُ »[3] وهو غريب .

وأما الجراد : فمعروف . وقد روى أبو دَاود[4] ، عن أبي عثمان ، عن سلمان الفارسي قال : سُئل رسول الله عن الجراد فقال : « أَكْثَرُ جُنُوْدِ اللهِ لا آكُلُهُ وَلَا أُحَرِّمُهُ » وترك النبي ﷺ أكله إنما هو على وجه التقذُّر له ، كما ترك أكل الضَّبِّ ، وتنزّه عن أكل البَصَل والثوم والكرّاث ؛ لما ثبت في « الصحيحين »[5] عن عبد الله بن أبي أَوْفى قال : غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكلُ الجراد .

---

(١) تفسير الطبري (٩/ ٢٢ ـ ٢٧) .

(٢) في ب : حاق بهم .

(٣) هو في تفسيره : (٩/ ٢٧) من طريق أخرى عن مجاهد . وهو عن عائشة في الجامع الصغير (٢/ ١٠٨) .

(٤) سنن أبي داود رقم (٣٨١٣) في الأطعمة ، باب في أكل الجراد ، وإسناده ضعيف .

(٥) في البخاري (٥٤٩٥) في الذبائح والصيد ، باب أكل الجراد ، ومسلم (١٩٥٢) في الصيد ، باب إباحة الجراد .

وقد تكلّمنا على ما ورد فيه من الأحاديث والآراء في « التفسير »[١] والمقصود أنه استاف[٢] خضراءهم فلم يترك لهم زروعاً ولا ثماراً ولا سَبَداً[٣] ولا لَبَداً . وأما القُمَّل[٤] : فعن ابن عباس : هو السوس الذي يخرج من الحنطة . وعنه : أنّه الجرادُ الصغار الذي لا أجنحة له . وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة . وقال سعيد بن جبير ، والحسن : هو دوابٌّ سودٌ صغار . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هي البراغيث .

وحكى ابن جَرير[٥] عن أهل العربية أنها الحَمْنان ، وهو صغار القِرْدان ، فوق القَمْقَامة ، فدخل معهم البيوت والفُرش ، فلم يَقِرَّ لهم قرارٌ ، ولم يُمكنْهم معه الغمض ولا العيش . وفسَّره عطاء بن السائب بهذا القَمْل المعروف . وقرأها الحسن البصري كذلك بالتخفيف .

وأمّا الضفادع : فمعروفة ، لبستهم حتى كانت تسقط في أطعماتهم[٦] وأوانيهم ، حتى إن أحدهم إذا فتح فمه لطعامٍ أو شرابٍ سقطت في فيه ضفدعة من تلك الضفادع .

وأمّا الدم : فكان قد مَزج ماءهم كلّه[٧] ، فلا يستَقُون من النيل شيئاً إلا وجدوه دماً عَبِيطاً[٨] ، ولا من نهرٍ ولا بئرٍ ولا شيء إلا كان دماً في الساعة الراهنة .

هذا كله ، ولم ينل بني إسرائيل من ذلك شيء بالكلّية . وهذا من تمام المعجزة الباهرة والحجّة القاطعة ، أن هذا كلّه يحصل لهم من فعل موسى عليه السلام . فينالهم عن آخرهم ولا يحصل هذا لأحدٍ من بني إسرائيل ، وفي هذا أدل دليل .

قال محمد بن إسحاق : فَرَجع عدوُّ الله فرعونُ حين آمنت السّحرة مغلوباً مفلولاً ، ثمّ أبى إلا الإقامة على الكفر والتمادي في الشر ، فتابع الله عليه بالآيات ، فأخذه[٩] بالسنين ، فأرسل عليه الطّوفان ، ثمّ الجراد ، ثم القُمَّل ، ثمّ الضفادع ، ثمّ الدم ، آيات مفصلات .

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٤٠ ـ ٢٤٢) .

(٢) في ط استاق . واستاف : أهلك .

(٣) السبد : ما يطلع من رؤوس النبات قبل أن ينتشر ، والسبد : الوبر ، وقيل : الشعر . والعرب تقول : ماله سَبَد ولا لَبَد ؛ أي: ماله وبر ولا صوف متلبد ، يكنى بهما عن الإبل والغنم . وقيل : أي ماله قليل ولا كثير . اللسان (سبد).

(٤) تفسيره (٩/ ٢٢) ، وقد أورد مختلف الأراء في تفسير القمل .

(٥) القُراد أول ما يكون وهو صغير لا يكاد يرى من صِغره يقال له : قمقامة ، ثم يصير حمنانة ، ثم قراداً ، ثم حلمة . اللسان (حمن) .

(٦) جمع طعام : أطعمة ، وجمع الجمع : أطعمات .

(٧) في ط : مُزج ماؤهم كله به .

(٨) دم عبيط : طري .

(٩) كذا في ط . وفي أ وب : فواخذه . قال ابن منظور : آخذه ، كأخذه . وفي التنزيل : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ ﴾ . والعامة تقول : واخَذَه . اللسان (أخذ) .

فأرسل الطوفان ، وهو الماء ، ففاض على وجه الأرض ثمّ ركد . لا يقدرون على أن يخرجوا[1] ولا أن يعملوا شيئاً حتى جهدوا جوعاً ، فلما بلغهم ذلك ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ [الأعراف : ١٣٤] فدعا مُوْسَى رَبَّه فكشفه عنهم ، فلم يفوا له بشيء ، فأرسل الله عليهم الجراد ، فأكل الشجر ـ فيما بلغني ـ حتى أن كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم ومساكنهم ، فقالوا مثل ما قالوا ، فدعا ربّه ، فكشف عنهم ، فلم يفوا له بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم القُمَّل ، فذُكر لي أن موسى عليه السلام أُمر أن يَمْشي إلى كثيب حتى يضربه بعصاه ، فمشى إلى كثيب أهيل عظيم ، فضربه بها ، فانثال عليهم قملاً حتى غلب على البيوت والأطعمة ، ومنعهم النومَ والقرار ، فلما جهدهم قالوا له مثل ما قالوا له ، فدعا ربّه فكشفه عنهم ، فلم يفوا له بشيء مما قالوا ، فأرسل[2] الله عليهم الضفادع ، فملأت البيوت والأطعمة والآنية ، فلم يكشف أحدٌ ثوباً ولا طعاماً إلا وجد فيه الضفادع قد غلب[3] عليه ، فلمّا جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا ، فدعا ربّه فكشف عنهم ، فلم يفوا بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم الدمَ ، فصارت مياه آل فرعون دماً ؛ لا يستقون من بئر ولا نهر ولا يغترفون[4] من إناءٍ إلا عاد دماً عَبِيْطاً . وقال زيد بن أسْلم : المراد بالدم : الرعاف ، رواه ابن أبي حاتم .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٣٤ ـ ١٣٦] .

يخبر سبحانه وتعالى عن كفرهم ، وعتوّهم ، واستمرارهم على الضلال والجهل ، والاستكبار عن اتِّباع آيات الله وتصديق رسوله ، مع ما أُيِّد به من الآيات العظيمة الباهرة ، والحجج البليغة القاهرة ، التي أراهم الله إياها عَياناً ، وجعلها عليهم دليلاً وبرهاناً . وكلّما شاهدوا آية وعاينوها وجهدهم وأضنكهم حَلَفوا وعاهدوا موسى لئن كشف عنهم هذه ليؤمنُنَّ به وليرسلُنَّ معه مَن هو من حِزبه ، فكلّما رُفعت عنهم تلك الآية عادوا إلى شرّ مما كانوا عليه ، وأعرضوا عما جاءهم به من الحق ولم يلتفتوا إليه ، فيرسل الله عليهم آية أخرى هي أشد مما كانت قبلها وأقوى ، فيقولون فيكذبون ، ويعدون ولا يفون : ﴿ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ فيكشف عنهم ذلك العذاب الوبيل . ثمّ

---

(١) في ب : يحرثوا .
(٢) في ط : فكشف عنهم فلما لم . . . أرسل .
(٣) في ب : علت .
(٤) كذا في ب . وفي أ : ولا نهر يعرفون . . . ، وفي ط : ولا نهر يفترقون .

يعودون إلى جهلهم العريض الطويل ، هذا والعظيم الحليم القدير يُنظرهم ولا يُعجّل عليهم ، ويؤخّرهم ويتقدَّم بالوعيد إليهم ، ثم أخذهم بعد إقامة الحجة عليهم والإنذار إليهم أخْذَ عزيز مقتدر ، فجعلهم عِبرةً ونكالاً وسلفاً[١] لمن أشبههم من الكافرين ، ومَثَلاً لمن اتّعظ بهم من عباده المؤمنين ، كما قال تبارك وتعالى ـ وهو أصدق القائلين ـ في سورة ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٦ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ۝٤٧ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٤٨ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ۝٤٩ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ۝٥٠ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٥١ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ۝٥٣ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝٥٤ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٥ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ [الزخرف : ٤٦ ـ ٥٦] .

يذكر تعالى إرسالَه عبده الكليم الكريم إلى فرعون الخسيس اللئيم ، وأنّه تعالى أيّد رسولَه بآيات بيّنات واضحات تستحق أن تقابَل بالتعظيم والتصديق ، وأن يرتدعوا عمّا هم فيه من الكفر ويرجعوا إلى الحقّ والصراط المستقيم ، فإذا هم منها يضحكون وبها يستهزؤون ، وعن سبيل الله يصدّون ، وعن الحق يصدّون ، فأرسل الله عليهم الآيات تَتْرى يتبع بعضُها بعضاً ، وكلّ آية أكبر من التي تتلوها ، لأن التوكيد أبلغ مما قبله ﴿ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٤٨ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ . لم يكن لفظ السّاحر في زمنهم نقصاً ولا عيباً ؛ لأن علماءهم في ذلك الوقت هم السَّحَرة ، ولهذا خاطبوه به في حال احتياجهم إليه وضراعتهم لديه .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ . ثم أخبر تعالى عن تبجُّح فرعون بملكه وعظمة بلده وحسنها ، وتخرُّق الأنهار فيها ، وهي الخلجانات التي يكسرونها أمام[٢] زيادة النيل ، ثمّ تبجّح بنفسه وحِلْيته ، وأخذ يتنقّص رسولَ الله موسى عليه السلام ويزدريه بكونه ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ يعني : كلامه ؛ بسبب ما كان في لسانه من بقيّة تلك اللّثغة التي هي شرف له وكمال وجمال ، ولم تكن مانعةً له ، أن كلمه الله تعالى ، وأوحى إليه ، وأنزل بعد ذلك التوراة عليه ، وتنقَّصه فرعون ـ لعنه الله ـ بكونه لا أساور في يديه ولا زينة عليه[٣] ، وإنما ذلك من حلية النّساء لا يليق بشهامة الرجال فكيف بالرسل الذين

---

(١) قال الله تعالى في سورة الزخرف : ٥٥ ـ ٥٦ : ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٥ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ أي : جعلناهم متقدمين ليتعظ بهم الآخِرون .

(٢) في ب : أيام .

(٣) في ب : ولا زينة على موسى .

هم أكمل عقلاً ، وأتمّ معرفة ، وأعلى همَّة ، وأزهد في الدنيا ، وأعلم بما أعدّ الله لأوليائه في الأخرى .

وقوله : ﴿ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ لا يحتاج الأمر إلى ذلك إن كان إنما المراد أن تعظِّمه الملائكة ، فالملائكة يعظّمون ويتواضعون لمن هو دون موسى عليه السلام بكثير ، كما جاء في الحديث : « إنَّ الملائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَها لِطَالِبِ العِلْمِ رِضىً بما يَصْنَعُ »[1] فكيف يكون تواضعهم وتعظيمهم لموسى الكليم ، عليه الصلاة والتسليم والتكريم .

وإن كان إنما المراد شهادتهم له بالرسالة فقد أيّد من المعجزات بما يدل قطعاً لذوي الألباب ، ولمن قصد إلى الحقِّ والصواب ، ولعمي عما جاء به من البيّنات والحجج الواضحات من نظر إلى القشور وترك اللباب ، وطبع على قلبه ربّ الأرباب ، وختم عليه بما فيه من الشكِّ والارتياب ، كما هو حال فرعون القبطي العمي الكذّاب .

قال الله تعالى : ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾ ، أي : استخف عقولهم الفاسدة[2] ، ودَرَجهم من حالٍ إلى حالٍ إلى أن صدَّقوه في دعواه الربوبية ، لعنه الله وقبّحهم ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾ .

﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ﴾ أي : أغضبونا ﴿ ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾[3] أي : بالغرق والإهانة ، وسَلْب العزِّ ، والتبدّل بالذُّلِّ ، وبالعذاب بعد النِّعمة ، والهوان بعد الرفاهية ، والنار بعد طيب العيش ، عياذاً بالله العظيم وسلطانه القديم من ذلك . ﴿ فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا ﴾ أي : لمن اتبعهم في الصفات ﴿ وَمَثَلًا ﴾ أي : لمن اتَّعظ بهم وخاف من وبيل مصرعهم ممن بَلَغه جليَّةُ خبرهم ، وما كان من أمرهم ، كما قال الله تعالى :

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴾ [القصص : ٣٨ـ ٤٢] .

يخبر سبحانه وتعالى أنهم لما استكبروا عن اتباع الحق ، وادَّعى مَلِكُهم الباطلَ ، ووافقوا عليه

---

(١) قطعة من حديث صفوان بن عسال المرادي ، أخرجه الترمذي (٣٥٣٦) في الدعوات ، باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده . وقال الترمذي : حسن صحيح ، وهو كما قال .

(٢) قوله : الفاسدة . زيادة في ب .

(٣) في ب : ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

وأطاعوه فيه ، اشتد غضب الربّ القدير العزيز الذي لا يُغَالَب ولا يمانَع عليهم ، فانتقم منهم أشد الانتقام ، وأغرقه هو وجنوده في صبيحة واحدة ، فلم يفلت منهم أحدٌ ولم يبق[(١)] منهم ديَّار ، بل كلٌّ قد غرق فدخل النار ، وأُتبعوا لعنة في هذه الدار بين العالمين ، ويوم القيامة بئس الرفد المرفود ، ويوم القيامة هم من المقبوحين .

ذكر هلاك فرعون وجنوده[(٢)]

لما تمادىٰ قبطُ مصر على كفرهم وعتوِّهم وعنادهم ، متابعةً لملكهم فرعون ، ومخالفةً لنبي الله ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام ، وأقام الله على أهل مصر الحجج[(٣)] العظيمة القاهرة ، وأراهم من خوارق العادات ما بَهر الأبصار وحيَّر العقول ، وهم مع ذلك لا يرعوون ، ولا ينتهون ، ولا ينزعون ، ولا يرجعون ، ولم يؤمن منهم إلا القليل ، قيل : ثلاثة ، وهم : امرأة فرعون ـ ولا علم لأهل الكتاب بخبرها ـ ومؤمن آل فرعون الذي تقدمت حكاية موعظته ، ومشورته ، وحجّته عليهم ، والرجل الناصح الذي جَاءَ يَسْعَى من أقصى المدينة فقال : ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [القصص : ٢٠] قاله ابن عباس ؛ فيما رواه ابن أبي حاتم عنه ، ومراده غيرَ السَّحَرةِ ، فإنّهم كانوا من القبط .

وقيل : بل آمن طائفة من القبط من قوم فرعون ، والسّحرة كلّهم ، وجميع شعب بني إسرائيل . ويدلُّ على هذا قوله تعالى : ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ [يونس : ٨٣] فالضمير في قوله : ﴿ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ ﴾ عائدٌ على فرعون ، لأن السياق يدلُّ عليه ، وقيل : على موسى لقربه ، والأول أظهر كما هو مقرر في « التفسير »[(٤)] . وإيمانهم كان خفية لمخافتهم من فرعون وسَطوته وجبروته وسلطته ، ومن ملئهم أن ينمُّوا عليهم إليه فيفتنهم عن دينهم . قال الله تعالى مخبراً عن فرعون ، وكفى بالله شهيداً : ﴿ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي جبّارٍ عنيدٍ مستعلٍ بغير الحقّ ﴿ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ أي : في جميع أموره ، وشؤونه ، وأحواله ، ولكنّه جرثومةٌ قد حان انجعافها[(٥)] ، وثمرةٌ خبيثة قد آن قطافها ، ومهجةٌ ملعونة قد حُتم إتلافها .

وعند ذلك قال موسى : ﴿ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ۝٨٤ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا

---

(١) كذا في ب وط . وفي أ : ولا يبقى .
(٢) في ط : هلاك فرعون وجنوده .
(٣) في ب : الحجج البالغة العظيمة .
(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٢٧) .
(٥) انجعافها : انقلاعها . يقال : جعفه فانجعف : أي صرعه وضرب به الأرض فانصرع .

تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [يونس : ٨٤ ـ ٨٦] ، يأمرهم بالتوكّل على الله ، والاستعانة به ، والالتجاء إليه ، فأتمروا بذلك ، فجعل الله لهم مما كانوا فيه فَرَجاً ومخرجاً .

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(١) [يونس : ٨٧] .

أوحى الله تعالى إلى موسى وأخيه هارون عليهما السلام أن يتَّخذا لقومهما بيوتاً متميّزة فيما بينهم عن بيوت القبط ؛ ليكونوا على أُهبة في الرحيل إذا أُمروا به ، ليعرف بعضهم بيوت بعض .

وقوله : ﴿ وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ قيل : مساجد . وقيل : معناه كثرة الصلاة فيها . قاله مجاهد ، وأبو مالك ، وإبراهيم النَّخعي ، والربيع ، والضحاك ، وزيد بن أسلم ، وابنه عبد الرحمن ، وغيرهم . ومعناه على هذا : الاستعانة على ما هم فيه من الضرّ والشّدة والضّيق بكثرة الصلاة ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [سورة البقرة : ٤٥] وكان رسول الله ﷺ إذا حَزَبه أمر صَلّى(٢) .

وقيل : معناه أنّهم لم يكونوا حينئذٍ يقدرون على إظهار عباداتهم في مجتمعاتهم ومعابدهم ، فأُمروا أن يصلّوا في بيوتهم عوضاً عمّا فاتهم من إظهار شعار الدين الحق في ذلك الزمان الذي اقتضى حالُهم إخفاءَه خوفاً من فرعون وملئه . والمعنى الأول أقوى ، لقوله : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وإن كان لا ينافي الثاني أيضاً ، والله أعلم .

وقال سعيد بن جبير ﴿ وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ : أي متقابلة .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس : ٨٨ ـ ٨٩] هذه دعوةٌ عظيمةٌ دعا بها كَليمُ الله موسى على عدوّ الله فرعون ، غضباً لله عليه لتكبّره عن اتباع الحق ، وصدّه عن سبيل الله ، ومعاندته وعتوّه وتمرُّده واستمراره على الباطل ، ومكابرته الحق الواضح الجلي الحسّي والمعنوي ، والبرهان القطعي فقال : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ

---

(١) زاد في (ب) الآية التي تليها : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا ﴾ .

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٨)، وأبو داود (١٣١٩) والطبري في تفسيره (١/ ٢٦٠)، وأبو عوانة (٦٨٤٢)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٤٥١)، والخطيب في تاريخه (٧/ ٢٥٨) (ط. د. بشار) وغيرهم من طرق عن عكرمة بن عمار عن محمد ابن عبد الله الدؤلي، عن عبد العزيز ابن أخي حذيفة، ويقال: أخيه، عن حذيفة، به. وهذا إسناد ضعيف، محمد بن عبد الله، ويقال: ابن عُبيد، مجهول لم يرو عنه سوى عكرمة بن عمار ولم يوثقه أحد، ولذلك ذكره الذهبي في الميزان (تحرير التقريب ٢/ ٢٧٢)، وعبد العزيز روى عنه اثنان من المجهولين، وقال الذهبي: لا يعرف (تحرير التقريب ٢/ ٣٧٥). وأيضاً فإن الحديث قد اختلف فيه على عكرمة . أقول: ولكن له شاهد عند الطبراني في «الأوسط» رقم (٨٩٠) من حديث عبد الله بن سلام قال: كان النبي ﷺ إذا نزل بأهله الضيق أمرهم بالصلاة، ثم قرأ ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه : ١٣٢] فهو به حسن .

وَمَلَأَهُۥ ﴾ يعني قومَه من القبط ومَن كان على ملّته ودان بدينه ﴿ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ﴾ أي: وهذا يغترُّ به من يُعظِّم أمرَ الدنيا فيحسب الجاهلُ أنّهم على شيء لكون هذه الأموال، وهذه الزِّينة من اللباس ، والمراكب الحسنة الهنيَّة، والدُّور الأنيقة، والقصور المبنيَّة، والمآكل الشهية، والمناظر البهية، والمُلك العزيز والتمكين، والجاه العريض في الدنيا لا الدين ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾، قال ابن عباس ومجاهد : أي أهلكها . وقال أبو العالية ، والربيع بن أنس ، والضحاك : اجعلها حجارةً منقوشةً كهيئة ما كانت . وقال قتادة : بلغنا أن زروعهم صارت حِجارةً . وقال محمد بن كعب : جعل سُكَّرَهُمْ حجارةً، وقال أيضاً: صارت أموالهم كلّها حجارة. ذُكر ذلك لعمر بن عبد العزيز، فقال عمر بن عبد العزيز لغلام[1] : قم إيتني بكيس ، فجاءه بكيس ، فإذا فيه حِمّصٌ وبَيضٌ قد قطع وقد حُوّل حجارة، رواه ابن أبي حاتم. وقوله : ﴿ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ قال ابن عباس: أي اطبع عليها ، وهذه دعوةُ غضبٍ لله تعالى ولدينه ولبراهينه ، فاستجاب الله تعالى لها وحقّقها وتقبّلها ، كما استجاب لنوح في قومه حيث قال: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح : ٢٦ـ٢٧] ولهذا قال تعالى، مخاطباً لموسى حين دعا على فرعون وملئهِ وأمَّن أخوه هارون على دعائه، فنزل ذلك منزلة الداعي أيضاً : ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

قال المفسرون[2] وغيرهم من أهل الكتاب : استأذن بنو إسرائيل فرعون في الخروج إلى عيدٍ لهم ، فأذن لهم وهو كارهٌ ، ولكنّهم تجهّزوا للخروج ، وتأهّبوا له ، وإنّما كان في نفس الأمر مكيدةٌ بفرعون وجنوده ليتخلّصوا منهم ويخرجوا عنهم ، وأمرهم الله تعالى ـ فيما ذكره أهل الكتاب ـ أن يستعيروا حليّاً منهم ، فأعاروهم شيئاً كثيراً ، فخرجوا بليلٍ ، فساروا مستمرّين ذاهبين من فورهم ، طالبين بلاد الشام ، فلما علم بذهابهم فرعونُ حَنِق عليهم كلّ الحنق ، واشْتَدَّ غضبه عليهم ، وشرع في استحثاث جيشه ، وجمع جنوده ليلحقهم ويمحقهم[3] .

قال الله تعالى : ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء : ٥٢ ـ ٦٨] .

---

(١) في ط : لغلام له . وقد ساق الطبري الكثير من الآراء في تفسير ذلك (١١/ ١٠٨) وما بعدها .
(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) (١١/ ٢٣٥) .
(٣) من قوله : واشتد غضبه . . . إلى هنا زيادة من ب وط .

قال علماء التفسير[١] : لما ركب فرعون في جنوده طالباً بني إسرائيل يقفو أثرهم ، كان في جيشٍ كثيفٍ عرمرم ، حتى قيل : إنه كان في خيوله مئة ألف فحلٍ أدْهَم ، وكانت عدّة الجنود تزيد على ألف ألف وستمئة ألف . فالله أعلم . وقيل : إن بني إسرائيل كانوا نحواً من ستمئة ألف مقاتل غير الذرّية ، وكان بين خروجهم من مصر[٢] صحبة موسى عليه السلام ، ودخولهم إليها صحبة أبيهم إسرائيل أربعمئة سنة وست وعشرون سنة شمسية .

والمقصود أنّ فرعون لحقهم بالجنود ، فأدركهم عند شروق الشمس ، وتراءى الجمعان ، ولم يبق ثَمَّ ريب ولا لَبس ، وعاين كلٌّ من الفريقين صاحبه ، وتحقّقه ورآه ولم يبق إلا المقاتلة والمجاولة والمحاماة ، فعندها قال أصحاب موسى ، وهم خائفون : ﴿ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴾ وذلك لأنهم اضْطُرّوا في طريقهم إلى البحر ، فليس لهم طريق ولا محيد إلا سلوكُه وخوضه[٣] . وهذا ما لا يستطيعه أحد ولا يقدر عليه ، والجبال عن يسرتهم وعن أيمانهم ، وهي شاهقةٌ منيفةٌ ، وفرعون قد غالقهم وواجههم ، وعاينوه في جنوده وجيوشه وعَدَده وعُدَده ، وهم منه في غاية الخوف والذُّعر لِما قاسوا في سلطانه من الإهانة والنّكر ، فشكوا إلى نبي الله ما هم فيه مما قد شاهدوه وعاينوه ، فقال لهم الرسول الصّادق المصدوق : ﴿ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴾ ، وكان في السّاقة[٤] فتقدّم إلى المقدمة ، ونظر إلى البحر وهو يتلاطم بأمواجه ، ويتزايد زَبَدُ أُجاجه[٥] ، وهو يقول : هاهنا أمرت ، ومعه أخوه هارون ويوشع بن نون ، وهو يومئذ من سادات بني إسرائيل وعلمائهم وعُبّادهم الكبار ، وقد أوحى الله إليه وجعله نبياً بعد موسى وهارون عليهما السلام كما سنذكره فيما بعد إن شاء الله ، ومعهم أيضاً مؤمن آل فرعون ، وهم وقوفٌ ، وبنو إسرائيل بكمالهم عليهم عُكوف ، ويقال : إن مؤمن آل فرعون جَعل يَقْتَحم بفرسه مراراً في البحر هل يمكن سلوكه فلا يمكن ، ويقول لموسى عليه السلام : يا نبي الله أهاهُنا أُمِرت ؟ فيقول : نعم .

فلما تفاقم الأمر ، وضاق الحالُ ، واشتد الأمرُ ، واقترب فرعون وجنوده في جَدّهم ، وحَدّهم ، وحَديدهم ، وغضبهم ، وحنقهم ، وزاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، فعند ذلك أوحى الحليم العظيم القدير ربُّ العرش الكريم إلى موسى الكليم : ﴿ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ ﴾ فلمّا ضربه يقال : إنّه قال له : انفلق بإذن الله ، ويقال : إنّه كنّاه بأبي خالد[٦] ، فالله أعلم .

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن (١/ ٣٨٩) .
(٢) قوله : مصر . سقط من ب .
(٣) في ب : وخروجه .
(٤) الساقة : مؤخرة الجيش .
(٥) الأجاج : الماء الملح . والأجيج : صوت انصباب الماء .
(٦) في ط : خلد . وأبو خالد : كنية البحر . المرصع (١٥٢) .

قال اللهُ تَعالى : ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ . ويقال : إنّه انفلق اثنتي عشرةَ طريقاً ، لكلِّ سِبطٍ[1] طريقٌ يسيرون منه ، حتى قيل : إنّه صار أيضاً شبابيك ليرى بعضهم بعضاً ، وفي هذا نظر ، لأنّ الماء جُرم شفّاف إذا كان من ورائه ضياءٌ حَكَاه .

وهكذا كان ماءُ البحر قائماً مثل الجبال، مكفوفاً بالقدرةِ العظيمةِ الصّادرة من الذي يقول للشيء: كن، فيكون، وأَمَرَ الله ريحَ الدّبور[2] فَلقحت حال البحر فأذهبته حتى صار يابساً لا يعلق في سنابك الخيول والدواب.

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾ [طه : ٧٧ ـ ٧٩] .

والمقصود أنّه لما آل أمر البحر إلى هذه الحال بإذن الربّ العظيم الشديد المحال ، أمر موسى عليه السلام أن يجوزه ببني إسرائيل ، فانحدروا فيه مسرعين مستبشرين مبادرين ، وقد شاهدوا من الأمر العظيم ما يحيّر الناظرين ، ويهدي قلوب المؤمنين ، فلما جاوزوه وجاوزه وخرج آخرهم منه وانفصلوا عنه ، كان ذلك عند قدوم أوّل جيش فرعون إليه ووفودهم عليه ، فأراد موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه ليرجع كما كان عليه لئلا يكون لفرعون وجنوده وصول إليه ، ولا سبيل عليه ، فأمره القديرُ ذو الجلال أن يترك البحر على هذه الحال كما قال ، وهو الصّادق في المقال : ﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴾ [الدخان : ١٧ ـ ٣٣] .

فقوله تعالى : ﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ﴾ أي : ساكناً على هيئته لا تغيّره عن هذه الصفة . قاله عبد الله بن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، والربيع ، والضحاك ، وقتادة ، وكعب الأحبار ، وسِمَاك بن حرب ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيرهم ، فلما تركه على هيئته وحالته ، وانتهى فرعون فرأى ما رأى وعاين ما عاين ، هالَهُ هذا المنظر العظيم ، وتحقّق ما كان يتحقّقه قبل ذلك من أنّ هذا من فِعل ربّ العرش الكريم ، فأحجم ولم يتقدّم ، وندم في نفسه على خروجه في طلبهم ، والحالة هذه حيث لا ينفعه الندم ، لكنّه أظهر لجنوده تجلّداً ، وعاملهم معاملة العدا ، وحملته النّفس الكافرة ، والسجيّة الفاجرة على أن قال

---

(١) الأسباط من اليهود : كالقبائل من العرب ، الذين يرجعون إلى أب واحد . وقيل : السبط : الفرقة .

(٢) ريح الدبور : الريح الغربية .

لمن استخفّهم فأطاعوه ، وعلى باطله تابعوه : انظروا كيف انحسر البحرُ لي لأدرك عبيدي الآبقين من يدي ، الخارجين عن طاعتي وبلدي ، وجعل يوري(١) في نفسه أن يذهب خلفهم ويُجوّز(٢) أن ينجو ، وهيهات ، ويقدم تارة ولكنه يحجم تارات . فذكروا أن جبريل عليه السلام تبدَّى في صورة فارسٍ راكبٍ على رَمَكَةٍ حائل(٣) ، فمرّ بين يدي فحلِ فرعون لعنه الله فَحمحم إليها وأقبل عليها ، وأسرع جبريل بين يديه ، فاقتحم البحر واستبق الجواد وقد أجاد ، فبادر مسرعاً هذا وفرعون لا يملك من نفسه شيئاً ولا لنفسه ضرّاً ولا نفعاً ، فلما رأته الجنود قد سلك البحر اقتحموا وراءه مسرعين ، فحصلوا في البحر أجمعين أكتعين أبصعين(٤) ، حتى هَمَّ أولُهم بالخروج منه ، فعند ذلك أمر الله تعالى كليمَه فيما أوحاه إليه أن يضرب البحر بعصاه ، فضربه فارتَطَم عليهم البحرُ كما كان ، فلم ينج منهم إنسان .

قال الله تعالى : ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أي : في إنجائه أولياءه فلم يَغْرَق منهم أحد ، وإغراقه أعداءه فلم يخلص منهم أحدٌ ، آيةٌ عظيمةٌ ، وبرهانٌ قاطعٌ على قدرته تعالى العظيمة ، وصدق رسوله فيما جاء به عن ربّه من الشريعة الكريمة والمناهج المستقيمة .

وقال تعالى : ﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ [يونس : ٩٠ ـ ٩٢] .

يخبر تعالى عن كيفية غرق فرعون زعيم كَفَرة القبط ، وأنّه لما جعلت الأمواج تخفضه تارةً وترفعه أخرى ، وبنو إسرائيل ينظرون إليه وإلى جنوده ماذا أحل الله به وبهم من البأس العظيم ، والخطب الجسيم ، ليكون أقرّ لأعْيُن بني إسرائيل ، وأشفى لنفوسهم ، فلما عاين فرعون الهلَكة ، وأُحيط به ، وباشر سكرات الموت ، أناب حينئذٍ وتاب ، وآمن حين لا ينفع نفساً إيمانُها(٥) ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦ ـ ٩٧] .

وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [غافر : ٨٤ ـ ٨٥] .

---

(١) في ب : يروّي .
(٢) في ط : ويرجو .
(٣) الرمكة : الفرس ، والحائل : التي لم تحمل .
(٤) من صيغ التوكيد في العربية .
(٥) قال عز وجل في سورة الأنعام : ١٥٨ ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ .

وهكذا دعا موسى على فرعون وملئه أن يطمس على أموالهم ، ويشدد على قلوبهم ، فلا يؤمنوا ﴿ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ أي : حين لا ينفعهم ذلك[١] ، ويكون حسرة عليهم ، وقد قال تعالى لهما ، أي لموسى وهارون ، حين دعوا بهذا ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾ ، فهذا من إجابة الله تعالى دعوة كليمه وأخيه هارون عليهما السلام .

ومن ذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد[٢] ؛ حدّثنا سليمان بن حَرب ، حدّثنا حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد ، عن يوسف بن مِهران ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « لما قَالَ فِرْعَوْنُ : ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ قال : قالَ لي جِبْرِيْلُ : لَوْ رَأيْتَنِي وَقَدْ أَخَذْتُ مِنْ حَالِ البَحْرِ فَدَسَسْتُهُ في فِيْهِ مَخافَةَ أَنْ تَنالَهُ الرَّحْمَةُ » ورواه الترمذي[٣] ، وابن جرير[٤] ، وابن أبي حاتم عند هذه الآية ؛ من حديث حمّاد بن سلمة . وقال الترمذي : حديث حسن[٥] .

وقال أبو داود الطيالِسِي[٦] : حدَّثنا شعبة ، عن عدي بن ثابت وعطاء بن السائب ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « قال لي جِبْريلُ : لَوْ رَأَيْتَني وَأَنا آخُذُ مِنْ حَالِ البَحْرِ فَأَدُسّه في فَمِ فِرْعَوْنَ مَخَافَةَ أَنْ يَنَالَهُ الرَّحْمَةُ » . ورواه الترمذي[٧] ، وابن جرير[٨] ، من حديث شعبة[٩] ، وقال الترمذي : حسن صحيح غريب ، وأشار ابن جرير في روايةٍ إلى وقفه[١٠] .

وقال ابن أبي حاتم : حدّثنا أبو سعيد الأشج ، حدّثنا أبو خالد الأحمر ، عن عمر بن عبد الله بن يعلى الثقفي ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس قال : لما غرّق الله فرعون ، أشار بإصبعه ورفع صوته : ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ قال : فخافَ جبريل أن تسبق رحمةُ الله فيه غضَبَه ، فجعل يأخذ الحالَ بجناحَيه فيضرب به وجهه فيرمسه ، ورواه ابن جرير من حديث أبي خالد به . وقد رواه ابن جرير[١١] من طريق كثير بن زاذان ، وليس بمعروف ، عن أبي حازم ، عن أبي هريرة قال : قال

---

(١) في ب : فلم يكن ينفعهم إيمانهم ذلك . . .

(٢) مسند أحمد (١/ ٣٠٩) .

(٣) سنن الترمذي رقم (٣١٠٧) ، في التفسير ، باب ومن سورة يونس ، وهو حديث صحيح بطرقه .

(٤) تفسيره (١١/ ١١٢) .

(٥) إسناده ضعيف ، لضعف علي بن زيد بن جدعان ، وقد صح موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنهما .

(٦) في مسنده (٢٦١٨) .

(٧) سنن الترمذي رقم (٣١٠٨) وهو حديث صحيح بطرقه ولكن الصحيح وقفه .

(٨) في تفسيره (١١/ ١١٢) .

(٩) من قوله : شعبة عن عدي . . . إلى هنا سقط من ب بنقلة عين .

(١٠) أكثر أصحاب شعبة أوقفوه، فالموقوف أصح .

(١١) في تفسيره (١١/ ١١٢ ـ ١١٣) .

رسول الله ﷺ : « قال لي جِبْرِيْلُ : يا مُحمد لَوْ رَأَيْتَنِي وَأنا أغُطُّهُ وَأَدُسُّ مِنَ الحالِ في فِيْهِ مَخَافَةَ أنْ تُدْرِكَهُ رَحْمَةُ اللهِ فَيَغْفِر لَهُ » . يعني : فرعون[١] .

وقد أرسله غير واحد من السّلف كإبراهيم التيمي ، وقتادة ، وميمون بن مهران ، ويقال : إن الضحاك بن قيس خطب به الناس . وفي بعض الروايات أنّ جبريل قال : ما بغضت أحداً بغضي لفرعون حين قال : أنا ربكم الأعلى ، ولقد جَعَلت أدسُّ في فيه الطين حين قال ما قال .

وقوله تعالى : ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ استفهام إنكارٍ ، ونصٌّ على عدم قبوله تعالى منه ذلك ، لأنه ـ والله أعلم ـ لو رُدَّ إلى الدنيا كما كان لعادَ إلى ما كان عليه ، كما أخبر تعالى عن الكفّار إذا عايَنُوا النارَ وشاهدوها أنّهم يقولون : ﴿ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [الأنعام : ٢٧ ـ ٢٨] وقوله : ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ قال ابن عباس وغير واحد : شكَّ بعضُ بني إسرائيل في موت فرعون ، حتى قال بعضهم : إنه لا يموت ، فأمر الله البحر فرفعه على مرتفع . قيل : على وجه الماء ، وقيل : على نَجْوَةٍ[٢] من الأرض وعليه درعُه التي يعرفونها من ملابسه ليتحقّقوا بذلك هلاكه ، ويعلموا قدرة الله عليه . ولهذا قال : ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ أي : مصاحباً درعك المعروفة بك ﴿ لِتَكُونَ ﴾ أي أنت آية ﴿ لِمَنْ خَلْفَكَ ﴾ أي من بني إسرائيل ، دليلاً على قدرة الله الذي أهلكه . ولهذا قرأ بعض السلف : ﴿ لِتَكُوْنَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً ﴾[٣] .

ويحتمل أن يكون المراد ننجّيك مصاحباً درعك لتكون درعُك علامةً لمن وراءك من بني إسرائيل على معرفتك وأنّك هُلِكْت . والله أعلم .

وقد كان هلاكه وجنوده في يوم عاشوراء ، كما قال الإمام البخاري في « صحيحه » : حدّثنا محمد بن بشّار[٤] ، حدّثنا غُندَر ، حـدّثنا شعبة ، عن أبي بشرٍ ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس قال : قدم النبيّ ﷺ المدينة واليهودُ تصوم عاشوراء[٥] فقالوا : هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون ، قال

---

(١) ورواه الطبراني في « الأوسط » رقم (٥٨٢٣) وفي سنده قيس بن الربيع ، وثقه شعبة والثوري ، وضعفه جماعة ، والصحيح وقفه على ابن عباس كما مر .

(٢) النجوة : ما ارتفع من الأرض .

(٣) في حاشية أ : بالقاف ، أي : ولتكون لخالقك آية كسائر آياته . وهي قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه . البحر المحيط (٥/ ١٨٩) .

(٤) هو محمد بن بشار بن عثمان العبدي البصري أبو بكر ، لقبه بندار ، لأنه كان بندار حديث بلده ، أي جمع حديث بلده .

(٥) في ط : يوم عاشوراء .

النبي ﷺ[١] : « أَنْتُم أَحَقُّ بموسَى مِنْهُم[٢] فصَامُوا » . وأصل هذا الحديث في « الصحيحين » وغيرهما[٣] . والله أعلم .

***

فصل

فيما كان من أمر بني إسرائيل بعد هلاك فرعون[٤]

قال الله تعالى : ﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [الأعراف : ١٣٦ ـ ١٤١] .

يذكر تعالى ما كان من أمر فرعون وجنوده في غرقهم ، وكيف سلبهم عِزَّهم ومالَهم وأنفسهم ، وأورث بني إسرائيل جميع أموالهم وأملاكهم ، كما قال : ﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء : ٥٩] ، وقال : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ [القصص : ٥] ، وقال هاهنا : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ أي : أهلك ذلك جميعه وسلبهم عزَّهم العزيزَ العريضَ في الدنيا ، وهلك الملك ، وحاشيته ، وأمراؤه ، وجنودُه ، ولم يبقَ ببلد مصرَ سوى العامّة والرعايا . فذكر ابن عبد الحكم[٥] في « تاريخ مصر » أنّه من ذلك الزمان تسلَّط نساءُ مصر على رجالها ؛ بسبب أن نساء الأمراء والكبراء تزوجْن بمن دونَهُنَّ

---

(١) زاد في ب : لأصحابه .

(٢) في ط : فصوموا .

(٣) رواه البخاري : رقم (٢٠٠٤) في الصوم ، باب صيام يوم عاشوراء ، ومسلم (١١٣٠) في الصيام ، باب صوم يوم عاشوراء ، وأبو داود رقم (٢٤٤٤) ، في الصوم ، باب في صوم يوم عاشوراء .

(٤) في ط : أمر بني إسرائيل بعد هلاك فرعون .

(٥) هو محمد بن عبد الله بن عبد الحكم المصري ، فقيه عصره . له عدة مؤلفات ، منها « تاريخ مصر » ، و « أدب القضاة » و « سيرة عمر بن عبد العزيز » . توفي سنة (٢٦٨هـ) . كشف الظنون (١/ ٣٠٤) والأعلام (٦/ ٢٢٣) .

من العامة ، فكانت لهنَّ السَّطوة عليهم ، واستمرت هذه سُنّة نساء مصر إلى يومك هذا .

وعند أهل الكتاب : أنّ بني إسرائيل لما أُمِروا بالخروج من مصر جعل الله ذلك الشهر أول سَنَتهم ، وأُمروا أن يذبح كلُّ أهل بيت حَمَلاً من الغنم ، فإن كانوا لا يحتاجون إلى حَمَل فليشترك الجار وجاره فيه ، فإذا ذبحوه فلينضحوا من دمه على أعتاب أبوابهم ليكون علامة لهم على بيوتهم ولا يأكلوه مطبوخاً ولكن مشوياً برأسه وأكارعه وبطنه ، ولا يُبقوا منه شيئاً ، ولا يكسروا له عظماً ، ولا يُخرجوا منه شيئاً إلى خارج بيوتهم ، وليكن خبزهم فطيراً سبعة أيام ، ابتداؤها من الرابع عشر من الشهر الأوّل من سَنتهم ، وكان ذلك في فصل الربيع ، فإذا أكلوا فلتكن أوساطهم مشدودةً ، وخفافهم في أرجلهم ، وعصيّهم في أيديهم ، وليأكلوا بسرعةٍ قياماً . ومهما فَضُل عن عشائهم فما بقي إلى الغد فليحرقوه بالنار ، وشُرِعَ هذا لهم عيداً لأعقابهم مادامت التوراة معمولاً بها ، فإذا نُسخت بَطَل شرعُها . وقد وقع .

قالوا : وقتل الله عزّ وجلّ في تلك الليلة أبكارَ القِبط وأبكارَ دوابهم ؛ ليشتغلوا عنهم ، وخرج بنو إسرائيل حتى انتصف الليل[١] ، وأهل مصر في مناحةٍ عظيمةٍ على أبكار أولادهم وأبكار أموالهم ، ليس من بيت إلا وفيه عويلٌ . وحين جاء الوَحي إلى موسى خرجوا مُسرعين ، فحملوا العجينَ قبل اختماره وحملوا الأزواد في الأردية وألقوها على عواتقهم . وكانوا استعاروا من أهل مصر حُليّاً كثيراً ، فخرجوا وهم ستمئة ألف رجلٍ سوى الذراري بما معهم من الأنعام ، وكانت مدة مقامهم بمصر أربعمئة سنةٍ وثلاثين سنةً . هذا نصُّ كتابهم .

وهذه السَّنة عندهم تسمى سنة الفسخ ، وهذا العيد عيد الفسخ[٢] . ولهم عيد الفَطير وعيد الحَمَل وهو أوّل السنة . وهذه الأعياد الثلاثة آكد أعيادهم ، منصوص عليها في كتابهم .

ولما خرجوا من مصر أخرجوا معهم تابوت يوسف عليه السلام وخرجوا على طريق بحر سوف . وكانوا في النهار يسيرون والسحاب بين أيديهم يسير أمامهم ، فيه عامود نور ، وبالليل أمامهم عامود نار ، فانتهى بهم الطريق إلى ساحل البحر ، فنزلوا هنالك ، وأدركهم فرعون وجنوده من المصريين وهم هناك حلول على شاطئ اليمِّ ، فقلق كثير من بني إسرائيل ، حتى قال قائلهم : كان بقاؤنا بمصر أحبَّ إلينا من الموت بهذه البرّيّة . وقال موسى عليه السلام لمن قال هذه المقالة : لا تخشَوا فإن فرعون وجنوده لا يرجعون إلى بلدهم بعد هذا .

قالوا : وأمر الله موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه وأن يقسمه ولِيَدْخُلَ بنو إسرائيل في البحر

---

(١) في ط : النهار .

(٢) في حاشية أ وب : الفصح ، وفي اللسان : والفِصح ، بالكسر : فطر النصارى ، وهو عيد لهم . وأفصحوا : جاء فصحهم ، وهو إذا أفطروا وأكلوا اللحم (فصح) .

واليَبَس[١] . وصار الماء من هاهنا وهاهنا كالجبلين ، وصار وسطه يَبَساً ، لأن الله سلّط عليه ريحَ الجنوب والسَّموم[٢] ، فجاز بنو إسرائيل البحر واتَّبعهم فرعون وجنوده ، فلما توسّطوه[٣] أمر الله موسى فضرب[٤] البحر بعصاه فرجع الماء كما كان عليهم .

لكن عند أهل الكتاب أن هذا كان في الليل ، وأن البحر ارتطم عليهم عند الصبح ، وهذا من غلطهم وعدم فهمهم في تعريبهم ، والله أعلم .

قالوا : ولما أغرق الله تعالى فرعون وجنوده ، حينئذٍ سبَّح موسى وبنو إسرائيل بهذا التسبيح للربّ وقالوا : نسبّح الربّ البهيَّ الذي قهر الجنود ، ونبذ فرسانها في البحر ، المنيع المحمود . وهو تسبيحٌ طويلٌ . قالوا : وأخذت مريم النبيّة[٥] أختُ هارون دُفّاً بيدها ، وخرج النساء في أثرها كلهنَّ بدفوف وطبول ، وجعلت مريم ترتّل لهنّ وتقول : سبحان الربّ القهار الذي قهر الخيول وركبانها إلقاءً في البحر . هكذا رأيته في كتابهم . ولعلّ هذا هو من الذي حمل محمد بن كعب القُرظي على زعمه أن مريم بنت عمران أم عيسى هي أخت هارون وموسى مع قوله : ﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ ﴾ [مريم : ٢٨] وقد بيَّنّا غلطه في ذلك ، وأن هذا لا يمكن أن يقال ، ولا يتابعه أحدٌ عليه ، بل كل أحدٍ خالفه فيه ، ولو قدّر أن هذا محفوظ فهذه مريم بنت عمران أخت موسى وهارون عليهما السلام ، وأم عيسى عليهما السلام وافقتها في الاسم واسم الأب واسم الأخ ، لأنّهم كما قال رسول الله ﷺ للمغيرة بن شعبة لما سأله أهلُ نجران عن قوله : ﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ ﴾ ، فلم يدر ما يقول لهم حتى سأل رسول الله ﷺ عن ذلك ، فقال : « أَمَا عَلِمْتَ أَنّهُم كانُوا يُسَمُّوْنَ بأَسْماءِ أَنْبِيَائِهِم » ، رواه مسلم[٦] .

وقولهم : النبيَّة ، كما يقال للمرأة من بيت الملك : ملكة ، ومن بيت الإمرة : أميرة ، وإن لم تكن مباشِرَةً شيئاً من ذلك ، فكذا ، هذه استعارة لها لا أنّها نبيّة حقيقة يوحى إليها ، وضَرْبُها بالدُّفّ في مثل هذا اليوم الذي هو أعظم الأعياد عندهم دليلٌ على أنه قد كان شرع من قبلنا ضرب الدُّف في العيد . وهذا مشروع لنا أيضاً في حقّ النِّساء ، لحديث الجاريتين اللتين كانتا عند عائشة تضربان بالدّف في أيام مِنى ، ورسول الله ﷺ مضطجعٌ مولٍّ ظهره إليهم ووجهه إلى الحائط ، فلما دخل أبو بكر زَجَرهن وقال : أبمزمور

---

(١) اليَبَس ، بفتحتين : المكان يكون رطباً ثم ييبس .
(٢) السَّموم : الريح الحارة ، وقيل : الباردة ليلاً كان أو نهاراً . اللسان .
(٣) أي فلما توسط فرعون وجنوده البحر .
(٤) كذا في ب ، وط . وفي أ : يضرب .
(٥) كما يقال للمرأة من بيت الملك : ملكة ، أميرة وليس المقصود أنها نبية يوحى إليها ، وسيذكر المؤلف ذلك بعد قليل .
(٦) صحيح مسلم رقم (٢١٣٥) في الآداب ، باب النهي عن التكني بأبي القاسم وبيان ما يستحب من الأسماء .

الشيطان في بيت رسول الله ﷺ ؟ فقال : « دَعْهُنَّ يا أبا بَكْرٍ ، فإنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيْداً ، وَهذا عِيْدُنا »[١] .

وهكذا يُشرع عندنا في الأعراس ، ولقُدُوم الغُيَّاب ، كما هو مقرر في موضعه . والله أعلم .

وذكروا أنّهم لما جاوزوا البحر ، وذهبوا قاصدين إلى بلاد الشام ، مكثوا ثلاثة أيام لا يجدون ماءً ، فتكلّم من تكلّم منهم بسبب ذلك ، فوجدوا ماءً زعاقاً أُجاجاً[٢] لم يستطيعوا شربه ، فأمر الله موسى فأخذ خشبةً فوضعها فيه فحَلا وساغ شربه . وعلَّمه الربُّ هنالك فرائضَ وسنناً ، ووصاه وصايا كثيرةً .

وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز المهيمن على ما عداه من الكتب : ﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ۝١٣٨ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٣٨ ـ ١٣٩] .

قالوا : هذا الجهل والضلال وقد عاينوا من آيات الله وقدرته ما دلَّهم على ما جاءهم به رسول ذي الجلال والإكرام ، وذلك أنّهم مَرُّوا على قوم يعبدون أصناماً ، قيل : كانت على صور البقر ، فكأنهم سألوهم لِمَ يعبدونها؟ فزعموا لهم أنها تنفعهم وتنصرهم[٣] ويسترزقون بها عند الضرورات ، فكأن بعض الجهّال منهم صدَّقوهم في ذلك ، فسألوا نبيَّهم الكليم الكريم العظيم أن يجعل لهم آلهة كما لأولئك آلهة ، فقال لهم مبيّناً لهم أنّهم لا يعقلون ولا يهتدون : ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ .

ثم ذكَّرهم نعمة الله عليهم في تفضيله إيّاهم على عالمي زمانهم بالعلم ، والشرع ، والرسول الذي بين أظهرهم وما أحسن به إليهم ، وما امتنَّ به عليهم من إنجائهم من قبضة فرعون الجبّار العنيد ، وإهلاكه إياه وهم ينظرون ، وتوريثه إياهم ما كان فرعون وملؤه يجمعونه من الأموال والسعادة ، ﴿ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ﴾ وبين لهم أنّه لا تصلح العبادة إلا لله وحده لا شريك له ، لأنه الخالق الرازق القهّار ، وليس كلّ بني إسرائيل سأل هذا السؤال ، بل الضمير عائد على الجنس في قوله : ﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ ﴾ أي قال بعضهم كما في قوله[٤] : ﴿ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ۝٤٧ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭۚ بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا ﴾ [الكهف : ٤٧ ـ ٤٨] فالذين زعموا هذا بعضُ الناس لا كلُّهم ، وقد قال الإمام أحمد[٥] : حدّثنا

---

(١) أخرجه البخاري (٩٥٢) في العيدين ، باب : سنة العيدين لأهل الإسلام ، وابن ماجه (١٨٩٨) ، في النكاح ، باب الغناء والدف .

(٢) كذا في ب ، وط . وفي أ : زهاقا .
وماء زعاق : مرٌّ غليظ لا يطاق شربه . وماءٌ أُجاج : ملح . وقيل شديد المرارة .

(٣) في ط : وتضرهم . وكتب في حاشية ب لعله : وتضرهم .

(٤) في ب : كما قال بعضهم في قوله .

(٥) في مسنده (٥/ ٢١٨) .

عبد الرزاق ، حدثنا مَعْمَر ، عن الزُّهْري ، عن سِنان الدِّيْلي[١] ، عن أبي واقد اللَّيْثي قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حُنَيْن ، فمررنا بسِدْرَة[٢] ، فقلنا : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط ، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها ، فقال النبي ﷺ : « اللهُ أَكْبَرُ ! هذا كَما قالَتْ بَنُو إسْرائِيْلَ لِموسَى ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ إنَّكُم تَرْكَبُونَ سُنَنَ الذيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ » .

ورواه النسائي[٣] عن محمد بن رافع ، عن عبد الرزاق[٤] ، به .

ورواه الترمذي[٥] ، عن سعيد بن عبد الرحمن المخزومي ، عن سفيان بن عيينة ، عن الزهري ، به . ثم قال : حسن صحيح .

وقد روى ابن جرير[٦] من حديث محمد بن إسحاق ومَعْمر ، وعقيل ، عن الزهري ، عن سنان بن أبي سنان ، عن أبي واقد الليثي أنّهم خرجوا من مكة مع رسول الله ﷺ إلى حُنَيْن[٧] ، قال : وكان للكفار سِدرة يعكُفون عندها ويعلِّقون بها أسلحتهم يقال لها : ذات أنواط ، قال فمررنا بسدرةٍ خضراءَ عظيمةٍ ، قال : فقلنا : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . قال : « قُلْتُم ـ وَالذي نَفْسِي بِيَدِهِ ـ كما قَالَ قَوْمُ مُوسَى لموسَى : ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ » .

والمقصود أنّ موسى عليه السلام لما انفصل من بلاد مصر ، وواجه بلاد بيت المقدس ، وجد فيها قوماً من الجبارين من الحيثانيين والفزاريين والكنعانيين وغيرهم ، فأمرهم موسى عليه السلام بالدخول عليهم ومقاتلتهم وإجلائهم إياهم عن بيت المقدس ، فإن الله كتبه لهم ، ووعدهم إيّاه على لسان إبراهيم الخليل وموسى الكليم الجليل ، فأبَوا ونكلوا عن الجهاد ، فسلّط الله عليهم الخوف ، وألقاهم في التيه يسيرون ويحلّون ويرتحلون ويذهبون ويجيئون في مدّة من السنين طويلة ، هي من العدد أربعون ، كما قال الله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ

---

(١) الدِّيْلي ، بكسر الدال المهملة وسكون الياء ، وكسر اللام . لغة في الدؤلي . اللباب (١/ ٥١٤) الدؤلي .
(٢) السِّدْر : شجر النبق .
(٣) في تفسيره (٢٠٥)، وهو في الكبرى (١١١٨٥).
(٤) وهو في مصنفه (٢٠٧٦٣) .
(٥) في الفتن من جامعه (٢١٨٠) .
(٦) تفسيره (٩/ ٣١) .
(٧) في المطبوع: « خيبر » خطأ، والصواب ما أثبتناه، وينظر تعليق الدكتور بشار على طبعته في جامع الترمذي (٤/ ٥٠).

يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [المائدة : ٢٠ ـ ٢٦] .

يذكّرهم نبيُّ الله نعمةَ الله عليهم ، وإحسانه إليهم بالنعم الدينية والدنيوية ، ويأمرهم بالجهاد في سبيل الله ومقاتلة أعدائه فقال : ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ ﴾ أي : تنكصوا على أعقابكم وتنكلوا عن قتال أعدائكم ، ﴿ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ أي : فتخسروا بعد الربح ، وتنقصوا بعد الكمال .

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ أي : عتاة كفرة متمردين ﴿ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾ . خافوا من هؤلاء الجبارين ، وقد عاينوا هلاك فرعون وهو أجبر من هؤلاء وأشد بأساً وأكثر جمعاً وأعظم جنداً ، وهذا يدلّ على أنّهم ملومون[١] في هذه المقالة ، ومذمومون على هذه الحالة من الذلّة عن مصاولة الأعداء ومقاومة المَرَدة الأشقياء .

وقد ذكر كثيرٌ من المفسّرين[٢] هاهنا آثاراً فيها مجازفاتٌ كثيرةٌ باطلةٌ ، يدلّ العقل والنقل على خلافها ، من أنهم كانوا أشكالاً هائلة ضخاماً جداً ، حتى إنهم ذكروا أن رُسَل بني إسرائيل لما قدموا عليهم تلقَّاهم رجل من رسل الجبارين ، فجعل يأخذهم واحداً واحداً ويلفُّهم[٣] في أكمامه وحجزة سراويله[٤] ، وهم اثنا عشر رجلاً ، فجاء بهم فنثرهم بين يدي ملك الجبّارين ، قال : ما هؤلاء؟ ولم يعرف أنّهم من بني آدم حتى عرفوه . وكل هذه هذيانات وخرافات لا حقيقة لها ، وأن الملك بعث معهم عنباً ، كل عنبة تكفي الرجل ، وشيئاً من ثمارهم ليعلموا ضخامة أشكالهم . وهذا ليس بصحيح .

وذكر هاهنا أن عوج بن عنق خرج من عند الجبارين إلى بني إسرائيل ليهلكهم ، وكان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمئة ذراع وثلاثة وثلاثين ذراعاً وثلث ذراع ، هكذا ذكره البغوي وغيره ، وليس بصحيح كما قدمنا بيانه[٥] عند قوله ﷺ : « إنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ طُولُه سِتُّونَ ذِراعاً » ، ثمّ لم يزل الخلق ينقص حتى الآن . قالوا : فعمد عوج إلى قلة جبل[٦] فاقتلعها ، ثمّ أخذها بيديه ليلقيها على جيش موسى ، فجاء طائر فنقر تلك الصخرة فخرقها ، فصارت طوقاً في عنق عوج بن عنق ، ثمّ عمد موسى إليه فوَثَب في الهواء

---

(١) كذا في ب ، وط . وأ : ملزمون .
(٢) انظر القرطبي وابن كثير .
(٣) في ب : ويجعلهم .
(٤) حُجْزة السراويل : موضع التِّكَّة .
(٥) في الجزء الأول من هذا الكتاب ، في الأحاديث الواردة في خلق آدم .
(٦) في ط : قمة . والقلّة : أعلى الجبل ، وقلّة كل شيء : أعلاه .

عشرة أذرع ، وطوله عشرة أذرع ، وبيده عصاه وطولها عشرة أذرع ، فوصل إلى كعب قدمه فقتله .

يروى هذا عن نوف[١] البِكَالي ، ونقله ابن جرير[٢] عن ابن عباس . وفي إسناده إليه نظر . ثم هو مع هذا كله من الإسرائيليات ، وكل هذه من وضع جهال بني إسرائيل ، فإن الأخبار الكذب قد كثرت عندهم ولا تمييز لهم بين صحتها وباطلها . ثمّ لو كان هذا صحيحاً لكان بنو إسرائيل معذورين في النكول عن قتالهم ، وقد ذمّهم الله على نكولهم ، وعاقبهم بالتيه على ترك جهادهم ومخالفتهم رسولهم ، وقد أشار عليهم رجلان صالحان منهم بالإقدام ، ونهياهم عن الإحجام . ويقال : إنهما يوشع بن نون وكالب بن يوقنا ، قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطية والسُّدّي والربيع بن أنس وغير واحد[٣] .

﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾ أي يخافون الله ، وقرأ بعضهم[٤] : ﴿ يُخافون ﴾ أي : يهابون ﴿ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ أي : بالإسلام والإيمان والطّاعة والشجاعة : ﴿ ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي : إذا توكلتم على الله واستعنتم به ولجأتم إليه نصركم على عدوّكم وأيّدكم عليهم وأظفركم بهم .

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ فصمّم ملؤهم على النكول عن الجهاد ، ووقع أمرٌ عظيمٌ وَوَهَنٌ كبيرٌ . فيقال : إن يوشع وكالب لمّا سمعا هذا الكلام شقّا ثيابهما ، وإنّ موسى وهارون سَجدا إعظاماً لهذا الكلام وغضباً لله عزَّ وجلَّ وشفقةً عليهم من وبيل هذه المقالة .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ قال ابن عباس : اقض بيني وبينهم[٥] . ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ عوقبوا على نكولهم بالتيهان في الأرض ، يسيرون إلى غير مقصد ليلاً ونهاراً وصباحاً ومساءً ، ويقال : إنّه لم يخرج أحدٌ من التيه ممن دخله ، بل ماتوا كلّهم في مدة أربعين سنة ، ولم يبق إلّا ذراريهم ، سوى يوشع وكالب عليهما السلام .

لكن أصحاب محمد يوم بدر لم يقولوا له كما قال قوم موسى لموسى ، بل لما استشارهم في الذهاب

---

(١) في الأصل « عوف » ، وهو تحريف ، وهو نَوْف بن فَضَالة البِكالي ، ابن امرأة كعب ، مات بعد سنة (٩٠هـ) . قال في تقريب التهذيب : شامي مستور ، وإنما كذّب ابن عباس ما رواه عن أهل الكتاب (٢/ ٣٠٩) . والبِكالي : نسبة إلى بني بِكال ، بطن من حمير . اللباب (١/ ١٦٨) ، ولا نعرف في الرواة من اسمه عوف البكالي .

(٢) تاريخ الطبري (١/ ٤٣١) .

(٣) تفسير الطبري (٦/ ١١٣) .

(٤) هي قراءة ابن عباس ، ومجاهد وسعيد بن جبير . تفسير الطبري (٦/ ١١٣ ـ ١١٤) والبحر المحيط (١/ ١٢٣) .

(٥) تفسير الطبري (٦/ ١١٦) .

إلى النفير تكلّم الصِّدِّيقُ فأحْسَنَ، وغيره من المهاجرين، ثم جعل يقول: « أشِيْروا عَلَيَّ » حتى قال سعدُ بن مُعاذ: كأنك تُعَرِّض بنا يا رسول الله، فوالذي بعثك بالحق[١] لو استعرضتَ بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلّف منّا رجلٌ واحدٌ، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً، إنّا لصبُرٌ في الحرب، صُدُق في اللِّقاء، لعلّ اللهَ يريكَ منّا ما تَقَرُّ به عينُك. فَسِرْ بنا على بركة الله. فَسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد وبسطه ذلك[٢].

وقال الإمام أحمد[٣]: حدَّثنا وكيع، حدّثنا سفيان، عن مخارق بن عبد الله الأحْمسي[٤]، عن طارق ـ هو ابن شهاب ـ أن المِقْداد قال لرسول الله ﷺ يوم بدر: يا رسول الله إنّا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكن: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون.

وهذا إسنادٌ جيِّدٌ من هذا الوجه، وله طريق[٥] أخرى: قال أحمد[٦]: حدّثنا أسود بن عامر، حدّثنا إسرائيل، عن مخارق، عن طارق بن شهاب قال: قال عبد الله بن مسعود: لقد شهدت من المقداد مشهداً لأن أكون أنا صاحبه[٧] أحبّ إليَّ مما عدل به، أتى رسول الله ﷺ وهو يدعو على المشركين، قال: والله يا رسول الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ ولكنّا نقاتل عن يمينك وعن يسارك، ومن بين يديك ومن خلفك. فرأيتُ وجه رسول الله ﷺ يُشْرِق لذلك، وسُرَّ بذلك. رواه البخاري في التفسير، والمغازي من طرق، عن مخارق، به[٨].

وقال الحافظ أبو بكر بن مَردويه: حدّثنا علي بن الحسن بن علي، حدثنا أبو حاتم الرازي، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري، حدثنا حميد، عن أنس: أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر استشار المسلمين، فأشار عليه عمر، ثم استشارهم فأشار عليه عمر، ثم استشارهم، فقالت الأنصار: يا معشر الأنصار إيّاكم يريدُ رسول الله ﷺ. قالوا: إذاً لا نقول له كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ والذي بعثك بالحق إن ضربتَ أكبادَها إلى بَرْك الغِمَاد[٩] لاتّبعناك.

---

(١) كذا في ب، وط. وفي أ: فوالذي نفسي بيده.
(٢) انظر سيرة ابن هشام. غزوة بدر.
(٣) في مسنده (٤/ ٣١٤).
(٤) (الأَحْمَسِي): نسبة إلى أحمس، وهي طائفة من بجيلة نزلوا الكوفة. الأنساب (١/ ١٤٦).
(٥) في ط: طرق.
(٦) في مسنده (١/ ٣٩٠).
(٧) في ب: لأن أكون صاحبه.
(٨) قوله: به، ليس في ب. والحديث في البخاري برقم (٣٩٥٢) في المغازي، باب قوله تعالى ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾، و(٤٦٠٩)، في التفسير سورة المائدة، باب ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ ﴾.
(٩) في حاشية ب: برك الغماد: مدينة النجاشي ملك الحبشة.
وقيل: هو موضع وراء مكة بخمس ليال مما يلي البحر. وموضع في أقاصي أرض هجر. وقيل: هو أقصى حَجْر=

ورواه الإمام أحمد عن عبيدة بن حميد ، عن حميد الطويل ، عن أنس[١] ، ورواه النسائي عن محمد بن المثنى ، عن خالد بن الحارث ، عن حميد ، عن أنس ، به نحوه[٢] .

وأخرجه ابن حبّان في « صحيحه »[٣] عن أبي يعلى[٤] ، عن عبد الأعلى بن حمّاد ، عن معتمر ، عن حميد عن أنس ، به نحوه .

* * *

فصل
في دخول بني إسرائيل التِّيه ومَا جرى لهم من الأمور العجيبة[٥]

قد ذكرنا نكول بني إسرائيل عن قتال الجبّارين ، وأن الله تعالى عاقبهم بالتيه ، وحكم بأنّهم لا يخرجون منه إلى أربعين سنة ، ولم أرَ في كتاب أهل الكتاب قصّة نكولهم عن قتال الجبّارين ، ولكن[٦] فيها أن يوشع جهّزه موسى لقتال طائفةٍ من الكفّار ، وأن موسى وهارون وخور[٧] جلسوا على رأس أَكَمَةٍ ، ورفع موسى عصاه ، فكلّما رفعها انتصرَ يوشَعُ عليهم ، وكلّما مالت يدُه بها من تعبٍ أو نحوِه غلبهم أولئك ، وجعل هارون وخور يدعَمان يديه عن يمينه وشماله ذلك اليوم إلى غروب الشمس ، فانتصر حزب يوشع عليه السلام .

وعندهم : أن يثرون كاهن مدين وخَتَن[٨] موسى عليه السلام بلغه ما كان من أمر موسى ، وكيف أظفره الله بعدوّه فرعون ، فقدم على موسى مسلماً ، ومعه ابنته صفُّورا[٩] زوجة موسى وابناها منه جِرْشُون

= باليمن . معجم البلدان .

(١) المسند (٣/ ١٠٥ و١٨٨) .

(٢) أخرجه في السير (٨٥٨٠) والمناقب (٨٣٤٨)، والتفسير (١١١٤١) من سننه الكبرى .

(٣) ابن حبان (٤٧٢١) .

(٤) وهو في مسنده (٣٨٠٣) وهو حديث صحيح .

(٥) كذا في الأصل ، وفي ب : فصل في دخول بني إسرائيل التيه وما جرى لهم فيه . . وفي ط : دخول بني إسرائيل التيه وما فيه من الأمور العجيبة .

(٦) وردت هذه القصة في العهد القديم ، سفر الخروج ، الإصحاح السابع عشر .

(٧) كذا في أصولنا . (خور) بالخاء المعجمة . وفي العهد القديم : (حور) بالمهملة .

(٨) الخَتَنُ : أبو امرأة الرجل ، وأخو امرأته ، وكل من كان من قبل امرأته . والجمع : أختان ، والأنثى خَتَنَة . اللسان .
وهذا الخبر في سفر الخروج ، الإصحاح الثامن عشر .

(٩) كذا في أصولنا . وفي العهد القديم : صفُّورة .

وعازر(١) ، فتلقّاه موسى وأكرمه ، واجتمع به شيوخ بني إسرائيل وعظّموه وأجلُّوه .

وذكروا أنّه رأى كثرة اجتماع بني إسرائيل على موسى في الخصومات التي تقع بينهم ، فأشار على موسى أن يجعل على الناس رجالاً أمناء أتقياء أعفّاء ، يبغضون الرِّشَا والخيانة ، فيجعلهم على الناس رؤوس ألوف ، ورؤوس مئين ، ورؤوس خمسين ، ورؤوس عشرة ، فيقضون بين الناس ، فإذا أشكل عليهم أمر جاؤوك ففصلْتَ بينهم ما أشكل عليهم ، ففعل ذلك موسى عليه السلام .

قالوا(٢) ودخل بنو إسرائيل البرية عند سيناء في الشهر الثالث من خروجهم من مصر، وكان خروجهم في أوّل السنة التي شُرِعت لهم، وهي أول فصل الربيع، فكأنهم دخلوا التيه في أول فصل الصيف والله أعلم.

قالوا(٣) ونزل بنو إسرائيل حول طور سيناء وصَعِد موسى الجبلَ فكلّمه ربُّه ، وأمره أن يذكّر بني إسرائيل ما أنعم الله به عليهم من إنجائه إيّاهم من فرعون وقومه ، وكيف حملهم على مثل جناحَي نسرٍ من يده وقبضته ، وأمره أن يأمر بني إسرائيل بأن يتطّهروا ويغتسلوا ويغسلوا ثيابَهم ، وليستعدّوا إلى اليوم الثالث ، فإذا كان في اليوم الثالث فليجتمعوا حول الجبل ولا يقتربنَّ أحدٌ منهم إليه ، فمن دنامنه قُتِل ، حتى ولا شيء من البهائم ماداموا يسمعون صوت القرن ، فإذا سكن القرن فقد حلّ لكم أن ترتقوه(٤) ؛ فسمع بنو إسرائيل ذلك ، وأطاعوا ، واغتسلوا ، وتنظّفوا ، وتطيّبوا ، فلما كان اليوم الثالث ركب الجبلَ غمامةٌ عظيمةٌ وفيها أصواتٌ وبروقٌ وصوت الصور شديدٌ جداً ، ففزع بنو إسرائيل من ذلك فزعاً شديداً ، وخرجوا فقاموا في سفح الجبل ، وغشي الجبلَ دخانٌ عظيمٌ في وسطه عمود نور ، وتزلزل الجبل كلّه زَلزلةً شديدةً ، واستمر صوت الصور ـ وهو البوق(٥) ـ واشتد ، وموسى عليه السلام فوق الجبل والله يكلِّمه ويناجيه ، وأمر الربّ عز وجل موسى أن ينزل فيأمر بني إسرائيل أن يقتربوا من الجبل ليسمعوا وصيّة الله ، ويأمر الأحبار ـ وهم علماؤهم ـ أن يدنوا فيصعدوا الجبل ليتقدّسوا(٦) بالقرب ، وهذا نص في كتابهم على وقوع النسخ لا محالة ، فقال موسى : يا رب إنّهم لا يستطيعون أن يَصْعدوه ، وقد نَهيتَهم عن ذلك ، فأمره الله تعالى أن يذهب فيأتي معه بهارون أخيه ، وليكن الكهنة ـ وهم العلماء ـ والشعب ـ وهم بقية بني إسرائيل ـ غير بعيد ففعل موسى ، وكلَّمه ربّه عز وجل فأمره حينئذٍ بالعشر كلمات .

---

(١) في المصدر السابق : جرشوم ؛ لأنه قال : كنت نزيلاً في أرض غريبة . واسم الآخر : أليعازر ؛ لأنه قال : إلّه أبي كان عوني وأنقذني من سيف فرعون .

(٢) في سفر الخروج ، الإصحاح التاسع عشر .

(٣) في المصدر السابق نفسه .

(٤) في العهد القديم : أما عند صوت البوق فهم يصعدون إلى الجبل .

(٥) في ب : وهو القرن .

(٦) في ط : ليتقدموا .

وعندهم[١] أن بني إسرائيل سمعوا كلام الله ، ولكن لم يفهموا حتى فهّمهم موسى ، وجعلوا يقولون لموسى : بلِّغنا أنتَ عن الرب عز وجل فإنا نخاف أن نموت ، فبلّغهم عنه ، فقال هذه العشر الكلمات وهي : الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له ، والنّهي عن الحلف بالله كذباً ، والأمر بالمحافظة على السّبت ، ومعناه تفرُّغ يومٍ من الأسبوع للعبادة ، وهذا حاصل بيوم الجمعة الذي نسخ الله به السَّبت .

كرّم[٢] أباك وأمك ليطول عمرك بالأرض[٣] الذي يعطيك الله ربك ، لا تقتل ، لا تزن ، لا تسرق ، لا تشهد على صاحبك شهادة زور ، لا تمدّ عينك إلى بيت صاحبك ، ولا تشْتَهِ امرأة صاحبك ولا عبدَه ولا أَمته ولا ثورَه ولا حمارَه ولا شيئاً من الذي لصاحبك ، ومعناه النّهي عن الحسد .

وقد قال كثيرٌ من علماء السلف وغيرهم[٤] : مضمون هذه العشر الكلمات في آيتين من القرآن ، وهما قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوٓا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ . . . ﴾ الآية [: ١٥١ ـ ١٥٣] .

وذكروا بعد العشر الكلمات وصايا كثيرةً وأحكاماً متفرّقةً عزيزةً كانت فزالت ، وعملت بها حيناً من الدهر ، ثمّ طرأ عليها عصيانٌ من المكلّفين بها ، ثمّ عمدوا إليها فبدّلوها وحرّفوها وأوّلوها . ثمّ بعد ذلك كلّه سَلَبوها فصارت منسوخةً مبدَّلة بعد ما كانت مشروعةً مكملة ، فلله الأمر من قبلُ ومن بعدُ ، وهو الذي يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد ، ألا له الخَلْقُ والأمر ، تبارك الله ربُّ العالمين .

وقد قال الله تعالى : ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾ [طه : ٨٠ ـ ٨٢]

يذكر تعالى منّته وإحسانه إلى بني إسرائيل بما أنجاهم من أعدائهم ، وخلّصهم من الضيق والحرج ، وأنه وعدهم صحبة نبيهم كليمه إلى جانب الطور الأيمن ؛ أي : منهم ، لينزّل عليه أحكاماً عظيمةً فيها مصلحةٌ لهم في دنياهم وأخراهم ، وأنّه تعالى أنزل عليهم في حال شدَّتهم وضرورتهم في سفرهم في

---

(١) سفر الخروج ، الإصحاح العشرون .
(٢) كذا في أ ، وب . وفي ط : أكرم ، وكذلك لفظ العهد القديم .
(٣) في ب ، وط : في الأرض . وفي العهد القديم : على الأرض .
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٣٨١) .

الأرض التي ليس فيها زرع ولا ضرع منّاً من السماء يصبحون فيجدونه خلال بيوتهم ، فيأخذون منه قدر حاجتهم في ذلك اليوم إلى مثله من الغد ، ومن ادّخر منه لأكثر من ذلك فسد . ومن أخذ منه قليلاً كفاه ، أو كثيراً لم يفضل عنه ، فيصنعون منه مثل الخبز وهو في غاية البياض والحلاوة ، فإذا كان من آخر النهار غَشِيَهم طيرُ السَّلْوى ، فيقتنصون منه بلا كُلْفةٍ ما يحتاجون إليه بحسب كفايتهم لعشاهم ، وإذا كان فصل الصيف ظلَّل الله عليهم الغمامَ ، وهو السّحاب الذي يستر عنهم حرّ الشمس وضوءها الباهر . كما قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٤٠ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴾ إلى أن قال : ﴿ وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ۝٤٩ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ۝٥٠ وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ۝٥١ ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٥٢ وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۝٥٣ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٤ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ۝٥٥ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٥٦ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ . . . إلى أن قال : ﴿ ۞ وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ۝٦٠ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴾ [٤٠ - ٦١] .

فذكر تعالى إنعامه عليهم ، وإحسانه إليهم بما يسّر لهم من المَنِّ والسَّلوى طعامين شهيّين بلا كُلفةٍ ولا سعيٍ لهم فيه ، بل ينزّل اللهُ المنَّ باكراً ، ويرسل عليهم طير السلوى عشياً . وأنبع الماءَ لهم بضرب موسى عليه السلام حَجَراً كانوا يحملونه معهم بالعصا فتفجر منه اثنتا عشرة عيناً ، لكل سِبْط عينٌ منه تَنْبَجس ، ثمّ تتفجر ماءً زُلالاً فيستقون فيشربون[1] ويسقون دوابهم ، ويدَّخرون كفايتهم . وظلّل عليهم الغمامَ من الحرِّ ، وهذه نعمٌ من الله عظيمةٌ ، وعطيّات جسيمةٌ ، فما رَعَوها حق رعايتها ، ولا قاموا بشكرها وحق عبادتها ، ثمّ ضجر كثيرٌ منها ، وتبرّموا بها ، وسألوا أن يستبدلوا منها ببدلها ﴿ مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ ﴾ فقرّعهم الكليمُ ووبَّخهم وأنَّبهم على هذه المقالة وعنّفهم

---

(١) قوله : فيشربون . ليس في ط .

قائلاً ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ أي : هذا الذي تطلبونه وتريدونه ، بدل هذه النعم التي أنتم فيها ، حاصلٌ[1] لأهل الأمصار الصغار والكبار ، موجودٌ بها ، وإذا هبطتم إليها ، أي : ونزلتم عن هذه المرتبة التي لا تصلحون لمنصبها ، تجدون بها ما تشتهون وما ترومون مما ذكرتم من المآكل الدَّنيَّةِ والأغذية الرديّة ، ولكني لست أجيبكم إلى سؤال ذلك هاهنا ، ولا أبلّغكم ما تعنتم به من المنى ، وكل هذه الصفات المذكورة عنهم الصادرة منهم تدلّ على أنّهم لم ينتهوا عما نهوا عنه ، كما قال الله تعالى ﴿ وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ [طه : ٨١] أي : فقد هلك ، وحُقّ له ـ والله ـ الهلاكُ والدمار . وقد حلّ عليه غضب الملك الجبّار ، ولكنه تعالى مزج هذا الوعيد الشديد بالرجاء لمن أنابَ وتاب ، ولم يستمر على متابعة الشيطان المريد ، فقال : ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه : ٨٢] .

* * *

سؤال الرُّؤية

قال تعالى : ﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٤٢ ـ ١٤٧] .

قال جماعةٌ من السّلَف ، منهم ابن عباس ومَسْروقٌ ومجاهد[2] : الثلاثون ليلةً : هي شهر ذي القعدة بكماله ، وأُتِمَّت أربعين ليلةً بعشر ذي الحجة ، فعلى هذا يكون كلام الله له يوم عيد النّحر ، وفي مثله أكمل الله عزَّ وجل لمحمد ﷺ دينه ، وأقام حججه وبراهينه .

والمقصود أنّ موسى عليه السلام لما استكمل الميقات وكان فيه صائماً ، يقال : إنّه لم يستطعم

---

(١) في ب : بل هذه النعم التي أنتم تطلبونها حاصلة لأهل . . .
(٢) جمع هذه الأقوال الطبري في تفسيره (٩/ ٣٢ ـ ٣٣) .

بطعام ، فلما كَمُلَ الشهر أخذ لِحاء شجرةٍ[١] فمضغه ليطيب ريح فمه ، فأمر الله أن يُمْسِك عشراً أخرى فصارت أربعين ليلةً . ولهذا ثبت في الحديث[٢] أن خُلُوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك[٣] . فلما عزم على الذهاب استخلف على شعب بني إسرائيل أخاه هارون المحبَّب المبجّل الجليل ، وهو ابن أمّه وأبيه ووزيره في الدعوة إلى مُصْطَفِيه ، فوصّاه وأمره[٤] ، وليس في هذا لِعُلُوّ منزلته في نبوته منافاةٌ .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا ﴾ أي : في الوقت الذي أُمِر بالمجيء فيه ، ﴿ وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ أي : كلّمه الله من وراء الحجاب إلا أنه أسمعه الخطابَ ، فناداه ، وناجاه ، وقرّبه ، وأدناه ، وهذا مقامٌ رفيعٌ ، ومعقلٌ منيعٌ ، ومنصبٌ شريفٌ ، ومنزلٌ منيفٌ ، فصلوات الله عليه تَتْرى ، وسلامه عليه في الدنيا والأخرى .

ولما أُعطي هذه المنزلةَ العليّة، والمرتبة السّنية، وسمع الخطاب، سأل رفعَ الحجاب، فقال للعظيم الذي لا تُدركه الأبصارُ ، القويِّ البرهان : ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي ﴾ . ثم بيّن تعالى أنه لا يستطيع أن يثبت عند تجَلِّيه تبارك وتعالى ، لأن الجبل الذي هو أقوى وأكبر ذاتاً ، وأشد ثباتاً من الإنسان لا يثبت عند التجلّي من الرحمن . ولهذا قال : ﴿ وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِيۚ ﴾ .

وفي الكتب المتقدّمة أن الله تعالى قال له : يا موسى إنّه لا يراني حيٌّ إلا ماتَ ، ولا يابسٌ إلا تَدَهْدَه[٥] .

وفي الصحيحين[٦] : عن أبي موسى ، عن رسول الله ﷺ أنّه قال : « حِجَابُهُ النُّورُ » . وفي رواية : « النار . لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحاتُ وَجْهِهِ ما انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَره من خلقه » .

وقال ابن عباس في قوله تعالى ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [الأنعام : ١٠٣] ذاك نورُه الذي هو نورُه ، إذا تجلّى لشيءٍ لا يقوم له شيء ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

---

(١) لحاء كل شجرة : قشرها .

(٢) قوله : الحديث زيادة من ط . وفي ب : ثبت الحديث في أن خلوف . . .

(٣) أخرجه البخاري : برقم (١٨٩٤) في الصوم ، باب فضل الصوم . و(١٩٠٤) باب هل يقول الصائم إني صائم إذا شتم ، و(٥٩٢٧) في اللباس ، باب ما يذكر في المسك ، و(٧٤٩٢) في التوحيد ، باب قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ ﴾ و(٧٥٣٨) في التوحيد ، باب ذكر النبي ﷺ وروايته عن ربه . ومسلم برقم (١١٥١) في الصيام ، باب فضل الصيام .

(٤) في ب : وأمره ونهاه .

(٥) في ب : يَدَّهده . والدهدهة : الدحرجة .

(٦) أخرجه مسلم (١٧٩) في الإيمان ، باب في قوله عليه السلام : إن الله لا ينام ، ولم يرد في البخاري خلافاً لقول المؤلف وفي الصحيحين .

قال مجاهد ﴿ وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ﴾ : فإنه أكبر منك ، وأشدّ خلقاً ، فلما تجلّى ربّه للجبل فنظر إلى الجبل لا يتمالك ، وأقبل الجبل فدُكَّ على أوله ، ورأى موسى ما يصنع الجبل ، فخر صَعِقاً .

وقد ذكرنا في « التفسير »[١] ما رواه الإمام أحمد[٢] ، والترمذي[٣] وصحّحه ، وابنُ جرير[٤] والحاكم[٥] ، من طريق حماد بن سلمة ، عن ثابت ـ زاد ابن جرير وليث ـ عن أنس : أن رسول الله ﷺ قرأ : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾ قال : هكذا بإصبعه ووضع النبي ﷺ الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر ، فساخ الجبل . لفظ ابن جرير .

وقال السُّدِّي عن عكرمة ، وعن ابن عباس : ما تجلّى ـ يعني من العظمة ـ إلّا قدر الخنصر ، فجعل الجبل دكاً ، قال : تراباً ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ أي : مَغْشِيّاً عَلَيه . وقال قتادة : ميتاً . والصحيح الأول ؛ لقوله ﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ ﴾ فإن الإفاقة إنما تكون عن غشي .

قال ﴿ سُبْحَٰنَكَ ﴾ تنزيهٌ وتعظيمٌ وإجلالٌ أن يراه بعظمته أحدٌ ﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ أي : فلستُ أسأل بعد هذا الرؤية ﴿ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أنه لا يراك حيٌّ إلا مات ، ولا يابس إلا تَدَهْدَه[٦] .

وقد ثبت في « الصحيحين » من طريق عمرو بن يحيى بن عُمارة بن أبي حسن المازني الأنصاري ، عن أبيه ، عن أبي سعيد الخُدري قال: قال رسول الله ﷺ: « لا تُخَيّروني مِنْ بَيْنِ الأَنْبياءِ ، فإنَّ النّاسَ يُصْعَقُوْنَ يَوْمَ القِيامَةِ فَأَكُوْنُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيْقُ ، فإذا أنا بِمُوْسَى آخِذٌ بِقائِمَةٍ مِنْ قَوائِمِ العَرْشِ[٧] فلا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلي أم[٨] جُوْزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّوْرِ »[٩] . لفظ البخاري . وفي أوله قصة اليهودي الذي لطم وجهه الأنصاريُّ حين قال :

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٤٤) وما بعدها .
(٢) في مسنده (٣/ ١٢٥ . و٢٠٩) .
(٣) سنن الترمذي رقم (٣٠٧٤) في التفسير ، باب ومن سورة الأعراف .
(٤) تفسير الطبري (٩/ ٣٧) .
(٥) المستدرك (١/ ٢٥ و٢/ ٣٢٠ و٥٧٧) .
(٦) في ب : يَدَّهْدَه .
(٧) في ب : فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش ، وسيرد الحديث بعد قليل بهذا اللفظ .
(٨) كذا في ب ، والبخاري ، وهو وفاق ما عليه أهل النحو . وفي أ ، وط : أو
(٩) في البخاري : برقم (٢٤١٢) في أول الخصومات . و (٣٣٩٨) في الأنبياء ، باب قوله تعالى : ﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً ﴾ ، و (٤٦٣٨) في تفسير سورة الأعراف ، باب ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا ﴾ ، و (٦٩١٦ و٦٩١٧) في الديات ، باب إذا لطم المسلم يهودياً عند الغضب . و (٧٤٢٧) في التوحيد ، باب ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ .
ومسلم رقم (٢٣٧٤) في الفضائل ، باب من فضائل موسى عليه السلام . وفي الروايات بعض اختلاف .

لا والذي اصطفى موسى على البشر ، فقال رسول الله : « لا تخيِّروني مِن بين الأنبياءِ » .

وفي « الصحيحين »[1] من طريق الزُّهْري ، عن أبي سلمة وعبد الرحمن الأعرج ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ ، بنحوه وفيه : « لا تُخَيِّروني عَلَى مُوسى » وذكر تمامه . وهذا من باب الهضم والتواضع ، أو نهي عن التفضيل بين الأنبياء على وجه الغضب والعصبية ، أو ليس هذا إليكم ، بل اللهُ هو الذي رفع بعضهم فوق بعض درجات ، وليس يُنالُ هذا بمجرد الرأي ، بل بالتوقيف . ومن قال : إن هذا قاله قبل أن يعلم أنه أفضل ، ثم نُسخ باطّلاعه على أفضليته عليهم كلّهم ، ففي قوله نظر ؛ لأن هذا من رواية أبي سعيد وأبي هريرة ، وما هاجر أبو هريرة إلّا عام حُنَين متأخِّراً ، فيبعد أنّه لم يعلم بهذا إلّا بعد هذا . والله أعلم .

ولا شك أنّه صلوات الله وسلامه عليه أفضل البشر ، بل الخليقة . قال الله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] وما كملوا إلا بشرف نبيّهم . وثبت بالتواتر عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال : « أنا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يوْمَ القِيَامَةِ وَلَا فَخْر »[2] ، ثمّ ذكر اختصاصه بالمقام المحمود الذي يغبِطُه به الأوّلون والآخرون الذي تحيد عنه الأنبياء والمرسلون ، حتى أولو العزم الأكملون نوحٌ وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم .

وقوله ﷺ : « فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيْقُ فَأَجِدُ مُوسَى باطِشاً بِقائِمَةِ العَرْشِ » أي : آخذاً بِها « فلا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلي أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّوْرِ » دليلٌ على أنّ هذا الصعق الذي يحصل للخلائق في عَرَصَات القيامة حين يتجلّى الربُّ لِفَصْل القضاء بين عباده ، فيُصْعَقون من شدّة الهيبة والعَظَمةِ والجلال فيكون أوّلَهم إفاقةً محمدٌ خاتم الأنبياء ومصطفى ربِّ الأرض والسماء على سائر الأنبياء ، فيجد موسى باطشاً بقائمة العرش ، قال الصّادق المصدوق : « لا أدْري أَصعق فأفاقَ قَبْلي » أي : كانت صعقته خفيفة ، لأنّه قد ناله بهذا السبب في الدنيا صعق ، أو جوزي بصعقة الطور ، يعني فلم يصعق بالكلّية ، وهذا فيه شرفٌ كبيرٌ لموسى عليه السلام من هذه الحيثية . ولا يلزم تفضيله بها مطلقاً من كلِّ وجه . ولهذا نبّه رسول الله ﷺ على شرفه وفضيلته بهذه الصّفة ، لأن المُسْلِم لمّا ضرب وجه اليهودي حين قال : لا والذي اصطفى موسى على البشر ، قد يحصل في نفوس بعض المشاهدين لذلك هضمٌ بجناب موسى عليه السلام فبيّن النبي ﷺ فضيلته وشرفه .

---

(١) في البخاري : برقم (٢٤١١) في أول الخصومات . ومسلم (٢٣٧٣) في الفضائل ، باب من فضائل موسى ﷺ .

(٢) اللفظ للترمذي . وهو قطعة من حديث فيه من طريق أبي سعيد الخدري ، رقم (٣١٤٨) في التفسير ، باب ومن سورة بني إسرائيل .

وأخرجه البخاري : برقم (٣٣٤٠) في الأنبياء ، باب قوله عز وجل ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ ومسلم (١٩٤) في الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها . والترمذي (٢٤٣٤) في صفة القيامة ، باب ما جاء في الشفاعة . من طريق أبي هريرة .

ـ وقوله تعالى : ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي ﴾ أي : في ذلك الزمان لا ما قبله ، لأن إبراهيم الخليل أفضلُ منه ـ كما تقدم بيان ذلك في قصة إبراهيم[١] ـ ولا ما بعده لأن محمداً ﷺ أفضل منهما ، كما ظهر شرفه ليلة الإسراء على جميع المرسلين والأنبياء ، وكما ثبت أنه قال : « سَأَقُومُ مَقَاماً يَرْغَبُ إليَّ الخَلْقُ حَتَّى إبْرَاهِيم »[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ أي : فخذ ما أعطيتك من الرسالة والكلام ، ولا تسأل زيادة عليه ، وكن من الشاكرين على ذلك .

قال الله تعالى : ﴿ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ ﴾ وكانت الألواح من جوهرٍ نفيسٍ . ففي « الصحيح » أنّ الله كتب له[٣] التوراة بيده ، وفيها مواعظ عن الآثام وتفصيلٌ لكلِّ ما يحتاجون إليه من الحلال والحرام : ﴿ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ ﴾ أي : بعزم ونيّةٍ صادقةٍ قويّةٍ ﴿ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ ﴾ أي : يضعوها على أحسن وجوهها وأجمل محاملها ﴿ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ أي : سترون عاقبة الخارجين عن طاعتي المخالفين لأمري المكذِّبين لرسلي . ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ﴾ عن فهمها وتدبُّرها وتعقُّل معناها الذي أريد منها ، ودلّ عليه مقتضاها ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا ﴾ أي : ولو شاهدوا مهما شاهدوه من الخوارق والمعجزات لا ينقادون لاتِّباعها ﴿ وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا ﴾ أي : لا يسلكوه ولا يتبعوه ﴿ وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ أي : صرفناهم عن ذلك لتكذيبهم بآياتنا ، وتغافلهم عنها ، وإعراضهم عن التصديق بها والتفكّر في معناها وترك العمل بمقتضاها ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ .

* * *

(١) في الجزء الأول .

(٢) ورد تخريجه في الجزء الأول .

(٣) في ب : كتب التوراة . والحديث في البخاري (٦٦١٤) ، ومسلم (٢٦٥٢) .

قصَّة عِبادتهم العجْل في غيبَـة كليم الله عنهم[(١)]

قال الله تعالى : ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [الأعراف : ١٤٨ ـ ١٥٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ [طه : ٨٣ ـ ٩٨] .

يذكر تعالى ما كان من أمر بني إسرائيل حين ذهب موسى عليه السلام إلى ميقات ربّه ، فمكث على الطور يناجيه ربُّه ويسأله موسى عليه السلام عن أشياءَ كثيرةٍ ، وهو تعالى يجيبه عنها ، فعمد رجلٌ منهم يقال له : هارون السّامري[(٢)] ، فأخذ ما كان استعاروه من الحليّ ، فصاغ منه عجلاً ، وألقى فيه قبضةً من التراب كان أخذها من أثر فرس جبريل حين رآه يوم أغرقَ الله فرعونَ على يديه ، فلما ألقاها فيه خارَ كما

---

(١) في ب : في غيبة كليم الله موسى عليه السلام عنهم . وفي ط : في غيبة موسى .

(٢) في تاريخ الطبري (١/ ٤٢٥) : وكان اسم السامري موسى بن ظفر .

يخور العجل الحقيقي . ويقال : إنّه استحال عجلاً جسداً ، أي: لحماً ودماً حيّاً يخور . قاله قتادة وغيره .

وقيل : بل كانت الريح إذا دخلت من دُبره خرجت من فمه فيخور كما تخور البقرة ، فيرقصون حوله ويفرحون ﴿ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴾ أي : فنسي موسى ربّه عندنا ، وذهب يتطلّبه وهو هاهنا ، تعالى الله عما يقولون[١] علوّاً كبيراً ، وتقدّست أسماؤه وصِفاته ، وتضاعفت آلاؤه وعِداته .

قال الله تعالى مبيناً بطلان ما ذهبوا إليه ، وما عوّلوا عليه من إلَهية هذا الذي قُصاراه أن يكون حَيواناً بَهيماً ، وشيطاناً رجيماً ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ وقال : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴾ فذكر أنّ هذا الحيوان لا يتكلّم ولا يردّ جواباً ، ولا يملك ضرّاً ولا نفعاً ، ولا يهدي إلى رشدٍ ، اتخذوه وهم ظالمون لأنْفُسهم عالمون في أنفسهم بطلان ما هم عليه من الجهل والضلال : ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي : ندموا على ما صنعوا ﴿ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ .

ولمّا رجع موسى عليه السلام إليهم ، ورأى ما هم عليه من عبادة العجل ، ومعه الألواح المتضمّنة التوراة ، ألقاها ، فيقال : إنّه كسرها . وهكذا هو عند أهل الكتاب[٢] ، وأن الله أبدله غيرها . وليس في اللفظ القرآني ما يدلّ على ذلك ، إلا أنه ألقاها حين عاين ما عاين . وعند أهل الكتاب أنّهما كانا لوحين[٣] وظاهر القرآن أنّها ألواح متعددة ، ولم يتأثر بمجرّد[٤] الخبر من الله تعالى عن عبادة العجل فأمره[٥] بمعاينة ذلك . ولهذا جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد[٦] ، وابن حِبّان[٧] . عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « لَيْسَ الخَبَرُ كالمُعَايَنَةِ » ، ثمّ أقبل عليهم فعنّفَهم ، ووبّخهم ، وهجّنهم في صنيعهم هذا القبيح ، فاعتذروا إليه بما ليس بصحيح ، ﴿ حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴾ تحرّجوا من تملّك حُليّ آل فرعون وهم أهل حرب ، وقد أمرهم الله بأخذه وأباحه لهم ، ولم يتحرّجوا بجهلهم وقلّة علمهم وعقلهم من عبادة العجل الجسد الذي له خُوار مع الواحد الأحد الفرد الصمد القهّار .

ثم أقبل على أخيه هارون عليهما السلام قائلاً له : ﴿ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ﴾ أي : هَلاّ لما رأيت ما صنعوا اتّبعتني فأعلمتني بما فعلوا ؟ فقال : ﴿ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ

---

(١) في ب : تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .
(٢) سفر الخروج : الإصحاح الثاني والثلاثون .
(٣) المصدر السابق .
(٤) في ب : بوجود .
(٥) في ب : عن عبادتهم العجل تأثره بمعاينة ذلك .
(٦) مسند أحمد (١/ ٢٧١) .
(٧) صحيح ابن حبان (٢٤١٣) في كتاب التاريخ ، باب بدء الخلق .

إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أي : تركتهم وجئتني وأنت قد استخلفتني فيهم : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ .

وقد كان هارون عليه السلام نهاهم عن هذا الصنيع الفظيع أشدَّ النهي ، وزجرهم عنه أتمَّ الزجر . قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ﴾ أي : إنّما قدّر الله أمر هذا العجل وجعله يخور فتنةً واختباراً لكم ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ أي : لا هذا ﴿ فَٱتَّبِعُونِي ﴾ أي : فيما أقول لكم ﴿ وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ۝٩٠ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ يشهد الله لهارون عليه السلام وكفى بالله شهيداً ، أنّه نهاهم ، وزجرهم عن ذلك فلم يطيعوه ، ولم يتّبعوه .

ثم أقبل موسى على السّامري ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴾ أي : ما حملك على ما صنعت ؟ ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ ﴾ أي : رأيت جبريل وهو راكب فرساً ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ ﴾ أي : من أثر فرس جبريل .

وقد ذكر بعضهم أنّه رآه وكلّما وطئت بحوافرها على موضعٍ اخضرَّ وأعشبَ ، فأخذ من أثر حافرها ، فلما ألقاه في هذا العجل المَصُوغ[1] من الذهب كان من أمره ما كان ، ولهذا قال : ﴿ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ۝٩٦ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾ وهذا دعاء عليه بأن لا يَمَسَّ أحداً معاقبة له على مسّه مالم يكن له مسّه . هذا معاقبة له في الدنيا ، ثم توعّده في الأخرى فقال : ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ﴾ وقرئ ﴿ لَنْ تُخلِفه ﴾[2] ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴾ . قال : فعمد موسى عليه السلام إلى هذا العجل فحرّقه بالنار كما قاله قتادة وغيره . وقيل : بالمبارد ، كما قاله علي وابن عباس وغيرهما ، وهو نص أهل الكتاب[3] ، ثمّ ذراه في البحر ، وأمر بني إسرائيل فشربوا ، فمن كان من عابديه عَلِق على شفاههم من ذلك الرماد منه ما يدل عليه ، وقيل : بل اصفرّت ألوانهم .

ثمّ قال تعالى إخباراً عن موسى أنّه قال لهم : ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾

---

(١) في ط : المصنوع .

(٢) قوله : وقرئ : لن تخلفه . سقط في ب . وفي ط : نخلفه : بالنون .
وقراءة ﴿ لن تُخْلَفه ﴾ بفتح اللام هي قراءة الجمهور . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ تُخْلِفه ﴾ بكسر اللام . أي : لن تغيب عنه . على وجه التهديد . أي : ستصير إليه مريداً أو كارها ، فلا يكون لك سبيل إلى أن تخلفه . حجة القراءات (٤٦٢ ـ ٤٦٣) .

(٣) الذي قاله أهل الكتاب في سفر الخروج ، الإصحاح الثاني والثلاثين : ثم أخذَ العجلَ الذي صنعوا ، وأحرقه بالنار ، وطحنه حتى صار ناعماً ، وذراه على الماء ، وسقى بني إسرائيل .

وهكذا وقع . وقد قال بعض السلف : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾ مسجَّلةٌ لكلِّ صاحب بِدعةٍ إلى يوم القيمة .

ثمّ أخبر تعالى عن حلمه ، ورحمته بخلقه ، وإحسانه على عبيده في قبوله توبة من تاب إليه بتوبته عليه فقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لكنْ لم يقبلِ اللهُ توبة عابدي العجل إلا بالقتل كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ٥٤] فيقال : إنّهم أصبحوا يوماً وقد أخذ من لم يعبد العجل في أيديهم السيوف ، وألقى الله عليهم ضَباباً حتى لا يعرف القريبُ قريبَه ولا النسيب نسيبه ، ثمّ مالوا على عابديه فقتلوهم وحصدوهم . فيقال : إنّهم قتلوا في صبيحةٍ واحدة سبعين ألفا .

ثمّ قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ استدلّ بعضهم بقوله : ﴿ وَفِى نُسْخَتِهَا ﴾ على أنها تكسّرت ، وفي هذا الاستدلال نظر ، وليس في اللفظ ما يدلّ على أنّها تكسّرت . والله أعلم .

وقد ذكر ابن عباس في حديث الفتون ـ كما سيأتي[1] ـ أن عبادتهم العجل كانت على أثر خروجهم من البحر ، وما هو ببعيد ؛ لأنهم حين خرجوا ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ .

وهكذا عند أهل الكتاب أن عبادتهم العجل كانت قبل مجيئهم بلاد بيت المقدس ، وذلك أنّهم لما أُمروا بقتل من عبد العجل قَتلوا في أول يومٍ ثلاثة آلاف . ثمّ ذهب موسى يستغفر لهم فغفر لهم بشرط أن يدخلوا الأرض المقدّسة .

﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٥ ـ ١٥٧] .

ذكر السُّدِّي وابن عباس وغيرهما أن هؤلاء السبعين كانوا علماءَ بني إسرائيل ، ومعهم موسى وهارون ويوشع وناداب وأبيهو ، ذهبوا مع موسى عليه السلام ليعتذروا عن بني إسرائيل في عبادة من عبد منهم العجلَ ، وكانوا قد أُمروا أن يتطيّبوا ويتطهّروا ويغتسلوا ، فلما ذهبوا معه واقتربوا من الجبل ، وعليه

(١) صفحة : (٩٢) من هذا الجزء .

الغمام ، وعمود النور ساطعٌ ، وصعد موسى الجبل ، فذكر بنو إسرائيل أنّهم سمعوا كلام الله ، وهذا قد وافقهم عليه طائفةٌ من المفسّرين وحملوا عليه قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٧٥] ، وليس هذا بلازمٍ ، لقوله تعالى : ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة : ٦] أي مبلّغاً ، وهكذا هؤلاء سمعوه مبلَّغاً من موسى عليه السلام ، وزعموا أيضاً أن السبعين رأوا اللهَ ، وهذا غلط منهم ، لأنّهم لما سألوا الرؤية أخذتهم الرجفةُ كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة : ٥٥ ـ ٥٦] وقال هاهنا : ﴿ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ﴾[١] .

قال محمد بن إسحاق : اختار مُوسى من بني إسرائيلَ سَبعينَ رجُلاً الخيِّر فالخيِّر ، وقال : انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم ، وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم ، صوموا ، وتطهّروا ، وطهِّروا ثيابكم ، فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وَقَّته له ربُّه ، وكان لا يأتيه إلا بإذنٍ منه وعلم ، فقال له طلب مني السبعون أن يسمعوا كلامَ الله ، فقال : أَفْعَلُ ، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشّى الجبلَ كلَّه ، ودنا موسى فدخل في الغمام وقال للقوم : ادنوا ، وكان موسى إذا كلّمه الله وقع على جبهته نورٌ ساطعٌ لا يستطيع أحدٌ من بني آدم أن ينظر إليه ، فضرب دونه بالحجاب ، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً فسمعوه وهو يكلِّم موسى ؛ يأمره[٢] وينهاه ، افعل ، لا تفعل . فلما فرغ الله من أمره وانكشفَ عن موسى الغمام ، وأقبل عليهم ، قالوا : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة : ٥٥] ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ ، وهي الصّاعقة ، فالتقت أرواحهم فماتوا جميعاً ، فقام موسى يناشد ربّه ، ويدعوه ، ويرغب إليه ويقول : ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ﴾ أي : لا تؤاخذْنا بما فعل السفهاء الذين عبدوا العجل منّا فإنا برآءُ مما عملوا .

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن جريج : إنّما أخذتهم الرجْفة لأنهم لم ينْهَوا قومهم عن عبادة العجل[٣] . وقوله : ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ أي : اختبارُك وابتلاؤك وامتحانك ، قاله ابن عباس وسعيد بن جُبير وأبو العالية والربيع بن أنس ، وغير واحد من علماء السّلف والخلف . يعني : أنت الذي قدّرت هذا وخلقت ما كان من أمر العجل اختباراً تختبرهم به ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ﴾ أي : اختُبرتم ، ولهذا قال : ﴿ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ﴾ أي : من شئتَ أضللته باختبارك إياه ، ومن شئتَ هديته ، لك الحكم والمشيئة ، ولا مانع ولا رادّ لما حكمت وقضيت ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾

(١) ساق الطبري عدداً من الآراء في تفسيره (٩/ ٥٠) .
(٢) في ط : يأمر ، والخبر في تفسير الطبري (٩/ ٥٠) .
(٣) انظر تفسير القرطبي (٧/ ٢٩٥) .

أي : تبنا إليك ، ورجعنا ، وأنبنا ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جُبير ، وأبو العالية ، وإبراهيم التيمي ، والضحَّاك ، والسُّدّي ، وقتادة ، وغير واحد . وهو كذلك في اللغة[١] .

﴿ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أي : أنا أعذِّب من شئتُ بما أشاء من الأمور التي أخلقها وأقدِّرها ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ كما ثبت في « الصحيحين »[٢] عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إنّ اللهَ لَما فَرَغَ مِنْ خَلْقِ السَّمواتِ والأرْضِ كَتَبَ كِتاباً فَهُوَ مَوْضُوعٌ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ : إنَّ رَحْمَتي تَغْلِبُ غَضَبِي » ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : فسأُوحيها حتماً لمن اتصف بهذه الصفات ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ﴾ الآية . وهذا فيه تنويه بذكر محمد ﷺ وأُمَّته من الله لموسى عليه السلام في جملة ما ناجاه به ، وأعلمه ، وأطلعه عليه . وقد تكلّمنا على هذه الآية وما بعدها في « التفسير »[٣] بما فيه كفاية ومقنع ، ولله الحمد والمِنَّة .

وقال قتادة : قال موسى يا رب أجد في الألواح أمّةً خير أمّةٍ أُخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ربِّ اجعلهم أمتي ، قال : تلك أمّةُ أحمد . قال : ربِّ إني أجد في الألواح أمّةً هم الآخِرون في الخلق ، السابقون في دخول الجنة ، ربِّ اجعلهم أمتي . قال : تلك أمّةُ أحمد . قال : رب إني أجد في الألواح أمّةً أناجِيْلُهم في صدورهم يقرؤونها وكان مَن قبلهم يقرؤون كتابهم نظراً حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئاً ولم يعرفوه ، وإن الله أعطاكم أيتها الأمة من الحفظ شيئاً لم يعطه أحداً من الأمم ، قال : ربِّ اجعلهم أمتي : قال : تلك أمّةُ أحمد . قال : ربِّ إني أجد في الألواح أمّةً يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ويقاتلون فصول الضَّلالة حتى يقاتلوا الأعور الكذّاب فاجعلهم أمتي ، قال : تلك أمّة أحمد . قال : ربِّ إني أجد في الألواح أمّةً صدقاتهم يأكلونها في بطونهم ، ويؤجَرون عليها ، وكان مَن قبلهم إذا تصدَّق بصدقةٍ فَقُبِلَتْ منه بعث الله عليها ناراً فأكلتها وإن رُدَّت عليه تُرِكت فتأكلها السباع والطير ، وإن الله أخذ صدقاتكم من غنيِّكم لفقيركم ، قال : ربِّ فاجعلهم أمتي ، قال : تلك أمّةُ أحمد . قال ربِّ فإني أجد في الألواح أمّةً إذا هَمَّ أحدهم بحسنة ثمّ لم يعملها كُتبت له حسنةً فإن عملها كُتِبت له عشرُ أمثالها إلى سبعمئة ضعف ، قال : ربِّ اجعلهم أمتي ، قال : تلك أمّةُ أحمد . قال : ربِّ إني أجد في الألواح أمّةً هم المشفَّعون المشفوع لهم فاجعلهم أمتي ، قال : تلك أمّةُ أحمد . قال قتادة فذُكر لنا أن موسى عليه السلام نبذ الألواح وقال : اللهم اجعلني من أمّةِ أحمد .

وقد ذكر كثيرٌ من الناس ما كان من مناجاة موسى عليه السلام ، وأوردوا أشياءَ كثيرةً لا أصل لها ،

---

(١) في جمهرة اللغة (٢/ ٣٠٦) : هاد الرجل يهود هَوداً : إذا أناب ورجع . ومنه قول الله جل وعزّ : ﴿ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾ أي : أنبنا ورجعنا . اللسان (هود) ، ومفردات ألفاظ القرآن للراغب (٥٤٤) .

(٢) أخرجه البخاري : برقم (٧٤٠٤) في التوحيد ، باب قوله تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ ، ومسلم برقم (٢٧٥١) في التوبة ، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه .

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٥١) .

ونحن نذكر ما تيسّر ذِكره من الأحاديث والآثار بعون الله وتوفيقه ، وحسن هدايته ، ومعونته ، وتأييده .

قال الحافظ أبو حاتم محمد بن حاتم بن حِبان في « صحيحه »[١] : ذِكْرُ سؤال كليم الله ربّه عز وجل عن أدنى أهل الجنة وأرفعهم منزلة : أخبرنا عمر بن سعيد الطَّائي بمَنْبِج ، حدّثنا حامد بن يحيى البلخي ، حدّثنا سفيان ، حدّثنا مُطَرِّف بن طريف وعبد الملك بن أبْجر ـ شيخان صالحان ـ سمعا الشعبيَّ يقول : سمعت المغيرة بن شعبة يقول على المنبر عن النبي ﷺ : « إن موسى عليه السلام سأل ربَّهُ عز وجل : أيُّ أهل الجنّة أدنى منزلةً ؟ قال : رجلٌ يجيء بعد ما يدخل أهل الجنة الجنةَ ، فيقال: ادخل الجنة . فيقول : كيف أدخل الجنة وقد نزل النّاس منازلهم ، وأخذوا إخاذاتهم فيقال له : أترضى أن يكون لك من الجنة مثلُ ما كان لملكٍ من ملوك الدنيا ؟ فيقول : نعم ! أي ربّ . فيقال : لك هذا ومثله ومثله ومثله فيقول : أي ربّ ، رضيت . فيقال له : إنّ لك هذا وعشرة أمثاله ، فيقول : أي ربّ ، رضيت . فيقال له : لك مع هذا ما اشتهت نفسك ولذّت عينك . وسأل ربّه : أيُّ أهل الجنة أرفع منزلة ؟ قال : سأحدِّثك عنهم : غرستُ كرامتهم بيدي ، وختمت عليها ، فلا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . ومصداق ذلك في كتاب الله عز وجل : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ الآية [السجدة : ١٧] » .

وهكذا رواه مسلم والترمذي[٢] ، كلاهما عن ابن أبي عمر ، عن سفيان ـ وهو ابن عيينة ـ به . ولفظ مسلم : « فَيُقَالُ لَهُ : أَتَرْضَى أنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلوكِ الدُّنْيا ؟ فيقولُ : رَضِيْتُ رَبِّ . فَيَقولُ : لَكَ ذلكَ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ ، فيقول في الخامسة : رضِيتُ ربِّ . فيقال : هذا لك وعشرةُ أمثالِه ، وَلكَ ما اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ . فَيَقُولُ : رَضِيْتُ رَبِّ . قالَ رَبِّ فأعْلاهُم منزلةً ؟ قالَ : أولئك الذين أردت ، غرست كرامتهم بيدي ، وختمت عليها ، فلم تر عين ، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر . قال : ومصداقه من كتاب الله : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ » .

وقال الترمذي : حسن صحيح قال : ورواه بعضهم عن الشعبي عن المغيرة فلم يرفعه ، والمرفوع أصح .

وقال ابن حبان[٣] : ذِكْرُ سؤال الكليم ربّه عن خصالٍ سبع . حدّثنا عبد الله بن محمد بن سِلم ببيت المقدس ، حدّثنا حَرْمَلة بن يحيى ، حدثنا ابن وهب ، أخبرني عمرو بن الحارث ، أن أبا السَّمْح حدَّثه عن ابن حُجَيْرة[٤] ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ أنّه قال : سأل مُوسى رَبَّهُ عَزَّ وجَلَّ عَنْ سِتّ خِصَالٍ كانَ

---

(١) صحيح ابن حبان (٦٢١٦) كتاب التاريخ ، باب بدء الخلق .

(٢) صحيح مسلم (١٨٩) في الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها . سنن الترمذي (٣١٩٨) في التفسير ، باب ومن سورة السجدة .

(٣) صحيح ابن حبان (٦٢١٧) كتاب التاريخ ، باب بدء الخلق .

(٤) هو عبد الرحمن بن حُجَيرة ، البصري القاضي ، الثقة . مات سنة (٨٣هـ) . تقريب التهذيب (١/ ٤٧٧) .

يَظُنُّ أنَّها لَهُ خَالِصَةٌ والسَّابِعَةُ لَمْ يَكُنْ مُوْسَى يُحِبُّها . قال : يا رَبّ أيُّ عِبَادِكَ أتْقَى ؟ قالَ : الذي يَذْكُرُ ولا يَنْسى ، قال : فأيُّ عِبَادِكَ أَهْدَى ؟ قالَ : الذي يَتَّبِعُ الهُدَى . قالَ : فأيُّ عِبادِكَ أحكم ؟ قالَ : الذي يَحْكُمُ لِلنَّاسِ كَما يَحْكُمُ لِنَفْسِه . قالَ : فأيُّ عِبادِكَ أَعْلَم ؟ قالَ : عالِمٌ لا يَشْبَعُ مِنَ العِلْمِ يَجْمَعُ عِلْمَ النَّاسِ إلى عِلْمِهِ . قالَ : فأيُّ عبادِكَ أعَزّ ؟ قال : الذي إذا قَدَرَ غَفَر . قال : فأيُّ عبادِكَ أَغْنَى ؟ قال : الذي يَرْضَى بما يُؤْتى . قالَ : فأيُّ عبادِكَ أفْقَرُ ؟ قالَ : صاحِبُ مَنْقُوصٍ . قالَ رَسُولُ الله ﷺ « لَيْسَ الغنى عَنْ ظهر ، إنّما الغنى غنى النفس ، وإذا أراد الله بعبدٍ خيراً ، جعل غناه في نفسه ، وتقاه في قلبه ، وإذا أراد بعبدٍ شراً جَعَل فَقْرَه بين عينيه » .

قال ابن حِبّان : قوله : صاحب منقوص يريد به : منقوص حالته يستقل ما أوتي ، ويطلب الفضل .

وقد رواه ابن جرير في « تاريخه »[(١)] عن ابن حميد ، عن يعقوب القُمّي[(٢)] ، عن هارون بن عنترة[(٣)] ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال : سأل موسى ربّه عز وجل ، فذكر نحوه ، وفيه قال : (أي ربّ ! فأي عبادك أعلم ؟ قال : الذي يبتغي علم النّاس إلى علمه عسى أن يجد[(٤)] كلمةً تهديه إلى هُدى ، أو تردُّه عن ردى . قال : أي ربّ ! فهل في الأرض أحدٌ أعلم مني ؟ قال : نعم الخضر ، فسأل السبيل إلى لُقْيِهِ ، فكان ما سنذكره بَعْدُ إن شاء الله وبه الثقة .

ذكر
حديث آخر في معنى ما ذكره ابن حبان

قال الإمام أحمد : حدّثنا يحيى بن إسحاق ، حدّثنا ابن لَهِيْعة ، عن درّاج ، عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد الخُدْري ، عن النبي ﷺ أنه قال : « إن موسى قال : أي ربّ عبدك المؤمن مُقتَّرٌ عليه في الدُّنيا ، قال فَفُتِحَ لَهُ باب من الجنة ، فنظر إليها ، قال : يا مُوسَى هذا ما أعْدَدْتُ لَهُ . فَقالَ مُوسَى : يا رَبِّ ، وعِزَّتِكَ وَجَلالِكَ لو كَانَ مُقَطَّعَ[(٥)] اليَدَيْن والرِّجلَين ، يُسْحَبُ على وجْهه منْذُ يَوْم خَلَقْتَه إلى يوم القيامةِ ، وكانَ هذا مَصِيره لَم يَرَ بُؤساً قَطُّ . قال : ثُمَّ قَال : أي ربِّ عَبْدك الكافِر مُوَسَّعٌ عَلَيْه في الدُّنيا . قال : ففُتح له بابٌ إلى النارِ ، فيقولُ : يا موسَى هذا ما أعْدَدْتُ له ، فقال : أي ربّ وَعِزَّتِكَ وَجَلالِكَ لَوْ كانَتْ لَهُ

---

(١) تاريخ الطبري (١/ ٣٧١) ، وفي لفظه اختلاف عما هنا .

(٢) في ط : التميمي . وهو تحريف . وهو يعقوب بن عبد الله بن سعد العجمي القمي ، توفي سنة (١٧٤هـ) . ترجمته في سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٦٦) .

(٣) في ط : عبيرة . وهو تصحيف .

(٤) في ب : أن يصيب .

(٥) في ب : أقطع .

الدُّنيا منذُ يَوْم خَلَقْتَهُ إلى يَوْمِ القِيامَةِ ، وكانَ هذا مَصِيرُهُ لَمْ يَرَ خَيْراً قط » . تفرّد به أحمد من هذا الوجه[١] ، وفي صحته نظر . والله أعلم .

وقال ابن حبان[٢] : ذِكْرُ سُؤالِ كليم الله ربّه جل وعلا أن يعلمه شيئاً يذكره به . حدَّثنا ابن سلم[٣] حدّثنا حَرْملة بن يحيى ، حدّثنا ابن وهْب ، أخبرني عمرو بن الحارث أنَّ درَّاجاً حدَّثه ، عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد ، عن النبي ﷺ أنه قال : « قال مُوسَى : يا رَبِّ عَلِّمْني شَيْئاً أَذْكُركَ بِهِ وَأَدْعُوْكَ بِهِ . قالَ : قُلْ يا مُوسى : لا إِلَهَ إلّا اللهُ . قال يا رَبِّ كُلُّ عِبادِكَ يقولُ هذا . قالَ : قُلْ : لا إِلَهَ إلّا اللهُ . قالَ : إنَّما أُرِيْدُ شَيْئاً تَخُصُّني بهِ . قالَ يا مُوسَى لَوْ أَنَّ أَهْلَ السَّمواتِ السَّبْعِ وَالأَرَضِيْن السَّبْعِ في كِفَّةٍ ، ولَا إِلَهَ إلّا اللهُ في كِفَّةٍ مالَتْ بِهِمْ لا إِلَهَ إلّا اللهُ » .

ويشهد لهذا الحديث حديث البِطاقة[٤] . وأقرب شيءٍ إلى معناه الحديثُ المروي في السنن[٥] عن النبي ﷺ أنه قال : « أَفْضَلُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ عَرَفَةَ ، وَأَفْضَلُ ما قُلْتُ أنا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلي : لا إِلَهَ إلّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيْكَ لَهُ ، لَهُ المُلْكُ ولَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيْر » . وقال ابن أبي حاتم عند تفسير آية

---

(١) المسند (٣/ ٨١) .

(٢) صحيح ابن حبان (٦٢١٨) كتاب التاريخ ، باب بدء الخلق ، وإسناده ضعيف ، فإن دراجاً ضعيف لا سيما في روايته عن أبي الهيثم .

(٣) في ط : ابن سلمة . وهو سهو . وابن سلم هو عبد الله بن محمد بن سلم الفريابي المقدسي . سمع من حرملة بن يحيى بمصر ، وحدّث عنه ابن حبان ووثقه ، توفي سنة نيف عشرة وثلاثمئة . سير أعلام النبلاء (١٤/ ٣٠٦) .

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٢١٣) و (٢/ ٢٢١ ـ ٢٢٢) ، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، ومن حديثه أخرجه ابن ماجه برقم (٤٣٠٠) في الزهد ، باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة . والترمذي برقم (٢٦٣٩) في الإيمان ، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله .

(٥) هكذا قال، وفي قوله نظر، فإن هذا الحديث لم يخرجه من أصحاب السنن سوى الترمذي (٣٥٨٥) في الدعوات من جامعه من حديث حماد بن أبي حميد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وضعفه بحميد هذا فقال: «هذا حديث غريب من هذا الوجه وحماد بن أبي حميد هو محمد بن أبي حميد وهو أبو إبراهيم الأنصاري المديني وليس هو بالقوي عند أهل الحديث». ومن هذا الطريق أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٢١٠). ومن العجب أن الهيثمي أورده في مجمع الزوائد (٣/ ٢٥٢) وقال: رواه أحمد ورجاله موثقون! والصحيح في هذا أنه مرسل كما في الموطأ من حديث طلحة بن عبيد الله بن كريز (٥٧٢ برواية الليثي من ط . د. بشار). وقال ابن عبد البر في التمهيد (٦/ ٣٩): «لا خلاف عن مالك في إرسال هذا الحديث كما رأيت، ولا أحفظه بهذا الإسناد مسنداً من وجه يحتج بمثله. وقد جاء مسنداً من حديث علي بن أبي طالب وعبد الله بن عمرو بن العاص، فأما حديث علي فإنه يدور على دينار أبي عمرو عن ابن الحنفية وليس دينار ممن يحتج به. وحديث عبد الله بن عمرو من حديث عمرو بن شعيب، وليس دون عمرو من يحتج به فيه» ثم ساقه موصولاً من هذه الطرق وقال: «ومرسل مالك أثبت من تلك المسانيد» (٦/ ٤١). أقول: وللحديث شاهد من حديث علي عند الطبراني في « الدعاء » رقم (٨٧٤) وفي إسناده قيس بن الربيع، وحديثه يصلح للمتابعات والشواهد، وشاهد آخر موقوف من حديث ابن عمر عند الطبراني في «الدعاء» رقم (٨٧٨) وإسناده صحيح، وشاهد ثالث مرسل من حديث طلحة بن عبيد الله بن كريز عند مالك (١/ ٢١٤) ومن طريقه عبد الرزاق رقم (٨١٢٥) فهو حديث حسن لغيره .

الكُرْسِي : حدّثنا أحمد بن القاسم بن عطية ، حدّثنا أحمد بن عبد الرحمن الدَّشْتكي[١] ، حدّثني أبي ، عن أبيه ، حدّثنا أشعث بن إسحاق ، عن جعفر بن أبي المغيرة ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس أن بني إسرائيل قالوا لموسى : هل ينامُ رَبُّك ؟ قال : اتقوا الله . فناداه ربه عز وجل : يا موسى سألوكَ هل ينامُ ربك ، فخـذ زُجاجتين في يديك ، فَقُمِ الليلَ ، ففعلَ موسى ، فلما ذهب من الليل ثلثٌ نَعَسَ فوقع لركبتيه ، ثم انتعش فَضَبَطَهما ، حتى إذا كان آخر الليل نَعَسَ فسقطت الزجاجتان فانكسرتا . فقال : يا موسى لو كنتُ أنامُ لسقطتِ السماواتُ والأرضُ فهلكن كما هلكتِ الزجاجتان في يديك . قال وأنزل الله على رسوله آية الكرسي .

وقال ابن جرير : حدّثنا إسحاق بن أبي إسرائيل ، حدّثنا هشام بن يوسف ، عن أمية بن شِبْل ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يحكي عن موسى عليه السلام على المنبر قال : وقَعَ في نَفْسِ مُوسى عليه السلام هَلْ يَنَامُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ، فأَرْسَلَ الله عز وجل إليه مَلَكاً فأَرَّقَهُ ثَلاثاً ، ثُمَّ أَعْطاهُ قارُورَتَيْنِ في كُلِّ يَدٍ قارُورَةٌ ، وأَمَرَهُ أَنْ يَحْتَفِظَ بِهِمَا ، قالَ : فَجَعَلَ يَنَامُ وكادَت يَدَاهُ تَلْتَقِيان فَيَسْتَيْقِظ فَيَحْبِسُ إحْداهُما عَلى الأخرى حَتَّى نامَ نَومَةً فاصْطَفَقَتْ يَدَاهُ ، فانْكَسَرَتِ القارُورَتان . قالَ : ضَرَبَ اللهُ لَهُ مَثَلاً أنْ لَوْ كَانَ يَنَامُ لَمْ يَسْتَمْسِك السَّماءُ والأَرْضُ .

وهذا حديث غريبٌ رفعه ، والأشبه أن يكون موقوفاً ، وأن يكون أصلُه إسرائيلياً[٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [البقرة : ٦٣ ـ ٦٤] .

وقال تعالى : ﴿ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧١] قال ابن عباس[٣] وغير واحد من السّلف : لما جاءهم موسى بالألواح فيها التوراة ، أمرهم بقَبولها والأخذ بها بقوةٍ وعزم ، فقالوا : انشرها علينا فإن كانت أوامرها ونواهيها سَهلةً قبلناها ، فقال : بل اقبلوها بما فيها ، فراجعوه مِراراً ، فأمر الله الملائكة فرفَعوا الجبلَ على رؤوسهم حتى صار ﴿ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ ﴾ أي : غمامة على رؤوسهم ، وقيل لهم : إن لم تقبلوها بما فيها وإلّا سقط هذا الجبل عليكم ، فقبلوا ذلك ، وأُمروا بالسجود فسجدوا ، فجعلوا ينظرون إلى الجبل بشق وجوههم ، فصارت سُنّة لليهود إلى اليوم يقولون : لا سجدة أعظم من سجدةٍ رفعت عنا العذاب .

---

(١) الدشتكي : نسبة إلى دشتك : قرية بالري من بلاد فارس .

(٢) العلة فيه من أمية بن شبل ، قال الإمام الذهبي في الميزان (١/ ٢٧٦) : « له حديث منكر رواه عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن أبي هريرة مرفوعاً ، قال : وقع في نفس موسى : هل ينام الله . . . الحديث رواه عنه هشام بن يوسف . وخالفه معمر عن الحكم عن عكرمة قوله ، وهو أقرب » .

(٣) تفسير الطبري (٩/ ٧٤) .

وقال سُنَيْد بن داود ، عن حَجَّاج بن محمد ، عن أبي بكر بن عبد الله قال : فلما نشرها لم يبق على وجه الأرض جبلٌ ، ولا شجر ولا حجر إلا اهتز ، فليس على وجه الأرض يهوديٌّ صغير ولا كبير تقرأ عليه التوراة إلا اهتز ونفض لها رأسه[١] .

قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ أي : ثم بعد مشاهدة هذا الميثاق العظيم ، والأمر الجسيم ، نكثتم عهودكم ومواثيقكم ﴿ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ بأن تداركم بالإرسال إليكم ، وإنزال الكُتُبِ عليكم ﴿ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ .

* * *

(١) المصدر السابق (٩/ ٧٥) .

قصة بقرة بني إسرائيل

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ٦٧ ـ ٧٣] .

قال ابن عباس وعَبِيدة السلماني وأبو العالية ومجاهد والسُّدّي ، وغير واحد من السلف : كان رجل في بني إسرائيل كثير المال ، وكان شيخاً كبيراً ، وله بَنو أخٍ ، وكانوا يتمنَّوْن موته ليرثوه ، فعمد أحدُهم فقتله في الليل ، وطرحه في مجمع الطريق[١] ، ويقال على باب رجل منهم ، فلما أصبح الناس اختصموا فيه ، وجاء ابن أخيه فجعل يصرخ ويتظلَّم ، فقالوا : ما لكم تختصمون ولا تأتون نبيَّ الله ، فجاء ابن أخيه ، فشكى أمرَ عمه إلى رسول الله موسى ﷺ فقال موسى عليه السلام : أنشد الله رجلاً عنده عِلمٌ من أمر هذا القتيل إلا أعلمنا به ، فلم يكن عند أحد منهم علمٌ منه ، وسألوه أن يسأل في هذه القضية ربّه عز وجل فسأل ربه عز وجل في ذلك ، فأمره الله تعالى أن يأمرهم بذبح بقرة ، فقال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ يعنون نحن نسألك عن أمر هذا القتيل ، وأنت تقول لنا هذا . ﴿ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ أي : أعوذ بالله أن أقول عنه غير ما أُوحيَ إليّ . وهذا هو الذي أجابني حين سألته عمّا سألتموني عنه أن أسأله فيه .

قال ابن عباس وعَبِيدة ومجاهد وعكرمة والسدي وأبو العالية ، وغير واحد : فلو أنّهم عَمدوا إلى أي بقرة فذبحوها لحصل المقصودُ منها ، ولكنهم شددوا ، فشدَّد عليهم . وقد ورد فيه حديث مرفوع[٢] ، وفي إسناده ضعف ، فسألوا عن صفتها ، ثمّ عن لونها ثمّ عن سنّها ، فأجيبوا بما عزّ وجودُه عليهم ، وقد ذكرنا تفسير ذلك كلّه في « التفسير »[٣] .

---

(١) في ط : الطرق .

(٢) انظر الدر المنثور (١/ ١٩٠) .

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ١٠٨) .

والمقصود أنهم أُمروا بذبح بقرة عوان ، وهي الوسط بين النصف الفارض وهي الكبيرة ، والبكر وهي الصغيرة ، قاله ابن عباس ومجاهد وأبو العالية وعكرمة والحسن وقتادة وجماعة .

ثمّ شدّدوا وضيّقوا على أنفسهم فسألوا عن لونها ، فأُمروا بصفراء فاقعٌ لونها ، أي مُشربٌ بحمرةٍ تسرُّ الناظرين . وهذا اللون عزيز . ثمّ شدّدوا أيضاً ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ . ففي الحديث المرفوع الذي رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه : « لولا أن بني إسرائيل استثنوا لما أعطوا » وفي صحته نظر[١] . والله أعلم . ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ وهذه الصفات أضيق مما تقدم ، حيث أمروا بذبح بقرة ليست بالذَّلول ، وهي المذلّلة بالحراثة ، وسقي الأرض بالسانية[٢] ، مسلّمة وهي الصحيحة التي لا عيب فيها ، قاله أبو العالية وقتادة .

وقوله تعالى : ﴿ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ ﴾ أي : ليس فيها لون يخالف لونها ، بل هي مسلَّمة من العيوب ، ومن مخالطة سائر الألوان غير لونها ، فلمّا حدّدها بهذه الصفات ، وحصرها بهذه النعوت والأوصاف ﴿ قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ ﴾ ويقال : إنهم لم يجدوا هذه البقرة بهذه الصفات إلا عند رجلٍ منهم كان بارّاً بأبيه ، فطلبوها منه فأبى عليهم ، فأرغبوه في ثمنها حتى أعطوه ـ فيما ذكره السُّدّي ـ بوزنها ذهباً ، فأبى عليهم ، حتى أعطوه بوزنها عشر مرات فباعها منهم ، فأمرهم نبي الله موسى بذبحها ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ أي : وهم يتردّدون في أمرها .

ثمّ أمرهم عن الله أن يضربوا ذلك القتيل ببعضها . قيل : بلحم فخذها . وقيل بالعظم الذي يلي الغُضْروف . وقيل بالبضعة التي بين الكتفين ، فلما ضربوه ببعضها أحياه الله تعالى فقام وهو تشخب أوداجه[٣] فسأله نبي الله : من قتلك ؟ قال : قتلني ابن أخي . ثمّ عاد ميتاً كما كان . قال الله تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي : كما شاهدتم إحياء هذا القتيلِ عن أمر الله له ، كذلك أمره في سائر الموتى إذا شاء إحياءَهم أحياهم في ساعةٍ واحدة كما قال : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۚ ﴾ الآية : [لقمان : ٢٨] .

***

---

(١) أورده المؤلف في تفسيره (١/ ١١٥) ، عن أبي هريرة ، وقال : وهذا حديث غريب من هذا الوجه ، وأحسن أحواله أن يكون من كلام أبي هريرة .

(٢) السانية : الدلو الكبير يُستقى بها .

(٣) الأوداج : عروق في العنق . وقد ساق المؤلف في تفسيره (١/ ١١٢) الكثير من الآراء حول هذه القصة .

قِصّة موسى والخضر عليهما السلام

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا (٧٣) فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ[1] بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا (٧٤) ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا (٧٦) فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف : ٦٠ ـ ٨٢] .

قال بعضُ أهل الكتاب : إن موسى هذا الذي رحل إلى الخضر هو موسى بن ميشا بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن[2] إبراهيم الخليل ، وتابعهم على ذلك بعض من يأخذ من صحفهم ، وينقل عن كتبهم ، منهم نوف بن فضالة الحميري الشامي البِكَالي . ويقال : إنّه دمشقي ، وكانت أمه زوجة كعب الأحبار . والصحيح الذي دلَّ عليه ظاهر سياق القرآن ، ونص الحديث الصحيح الصريح المتفق عليه ، أنّه موسى بن عمران صاحب بني إسرائيل .

---

(١) في أ : ﴿ زاكية ﴾ ، وما أثبتناه قراءة الجمهور .

(٢) قوله : إسحاق بن زيادة من ط ، وفي ب توقف عند يعقوب .

قال البخاري[١] : حدّثنا الحميدي ، حدّثنا سفيان ، حدّثنا عمرو بن دينار ، أخبرني سعيد بن جُبير قال : قلت لابن عباس : إن نوفاً البِكَالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ، ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل . قال ابن عباس : كذب عدو الله . حدّثنا أُبي بن كعب أنّه سمع رسول الله ﷺ يقُول : « إنَّ مُوسَى قامَ خَطِيْباً في بَني إِسْرَائِيْلَ فَسُئِلَ : أيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ ؟ فقَالَ : أنا . فَعَتِبَ اللهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ العِلْمَ إلَيْه ، فأَوْحَى اللهُ إليْه : إنَّ لي عَبْداً بِمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ . قالَ موسَى : يا رَبِّ وَكَيْفَ لي بهِ ؟ قالَ : تأْخُذُ مَعَكَ حُوْتاً فَتَجْعَلُهُ بِمِكْتَلٍ[٢] فَحَيثما فَقَدْتَ الحوتَ فَهُوَ ثَمَّ . فأَخَذَ حُوتاً فَجعله بِمِكْتَلٍ ، ثُمَّ انْطَلَقَ وَانْطلَقَ مَعَهُ فَتاهُ يُوْشَعُ بنُ نُونٍ حَتّى إذا أَتَيا الصَّخْرَةَ وَضَعا رُؤُوسهما فَناما ، واضْطَرَبَ الحوتُ في المِكْتَلِ ، فَخَرَجَ مِنْهُ فَسَقَطَ في البَحْرِ وَاتّخذَ سَبِيْلَه في البَحْرِ سَرَباً . وأَمْسَكَ اللهُ عَنِ الحوتِ جرية الماءِ فَصارَ عَلَيْهِ مِثْلَ الطاقِ ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ نَسِيَ صاحِبُهُ أَنْ يُخْبِرَهُ بالحوتِ فانْطَلَقا بَقِيَّةَ يَوْمِهِما وَلَيْلَتهما حَتّى إذا كانَ مِنَ الغَدِ ﴿ قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾ وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى النَّصَبَ حَتَّى جاوَزَ المَكانَ الذي أَمَرَهُ اللهُ بِهِ ﴿ قَالَ ﴾ له فتاه : ﴿ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ قال : فكان للحوت سَرَباً ولموسى ولفتاه عجباً ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ قال : فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة ، فإذا رجلٌ مُسَجّى بثوب ، فسلّم عليه موسى ، فقال الخضر : وأنّى بأرضك السلامُ . قال : أنا موسى . قال : موسى بني إسرائيل ؟ قال : نعم ، أتيتك لتعلمني مما عُلّمت رُشْداً ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾ يا موسى إني على علم من علم الله علَّمنيه اللهُ لا تعلمه أنتَ ، وأنتَ على علم من علم الله علَّمَكه الله لا أعلمه ، فقال موسى ﴿ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴾ . قال له الخضر : ﴿ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا ﴾ يمشيان على ساحل البحر ، فمرت سفينةٌ فكلّمهم أن يحملوهم ، فعرَفوا الخضر ، فحملوهم بغير نَوْل . فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقَدُوم . فقال له موسى : قوم حملونا بغير نَوْل عمدت إلى سفينتهم فخرقتها ﴿ لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴾ قال : وقال رسول الله ﷺ « وكانتِ الأولى مِنْ مُوسى نسياناً ، قال وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة ، فقال له الخضر : ما علمي وعلمك في علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر . ثم خرجا من السفينة ، فبينما هما يمشيان على الساحل إذ بصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله ، فقال له موسى : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل

---

(١) سقطت صفحة كاملة من ب ، وعوض عنها صفحة بخط مغاير ، ووقع فيها اختلاف كثير عن نسخة الأصل ، لم أشر إليه لأنه لا يفيد في اختلاف النسخ .

(٢) المكتل : الزنبيل الذي يعمل من الخوص .

لَكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ قال : وهذه أشد من الأولى ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ قال : مائل ، فقال الخضر بيده ﴿ فَأَقَامَهُ ﴾ فقال موسى : قومٌ أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ قال رسول الله ﷺ « وددْنا أَنَّ مُوسَى كانَ صَبرَ حَتَّى يَقُصَّ اللهُ عَلَيْنا مِنْ خَبَرِهِما »[١] .

قال سعيد بن جبير فكان ابن عباس يقرأ : وكان أمامهم مَلِك يأخذ كلّ سفينةٍ صالحةٍ غصباً ، وكان يقرأ : وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين .

ثم رواه البخاري[٢] أيضاً عن قُتيبة ، عن سُفيان بن عُيَيْنة بإسناده ، نحوه . وفيه : فخرج موسى ومعه فتاه يوشع بن نون ، ومعهما الحوت حتى انتهيا إلى الصخرة ، فنزلا عندها ، قال : فوضع موسى رأسه فنام ، قال سفيان : وفي حديث غير عَمرو قال : وفي أصل الصخرة عين يقال لها : الحياة ، لا يصيب من مائها شيءٌ إلا حيي ، فأصاب الحوت من ماء تلك العين ، قال : فتحرّك وانْسَلَّ من المِكتل ، ودخل البحرَ ، فلما استيقظ ﴿ قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا ﴾ وساق الحديث وقال : ووقع عصفور على حرف السفينة ، فغمس منقاره في البحر ، فقال الخضر لموسى : ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره . . . وذكر تمام الحديث .

وقال البخاري : حدّثنا إبراهيم بن موسى ، أخبرنا هشام بن يوسف أن ابن جُريج أخبرهم قال : أخبرني يعلى بن مسلم ، وعمرو بن دينار ، عن سعيد بن جُبير يزيد أحدهما[٣] على صاحبه ، وغيرهما قد سمعته يحدثه عن سعيد بن جبير قال : إنا لَعند ابن عباس في بيته إذ قال : سَلوني ، فقلت : أي أبا عباس ـ جعلني الله فداك ـ بالكوفة رجل قاصٌّ يقال له : نوف ، يزعم أنّه ليس هو نبي بني إسرائيل ، أما عمرو فقال لي : قال : كذب عدوُّ الله . وأمّا يعلى فقال لي : قال ابن عباس : حدّثني أُبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : مُوسى رسول الله ذَكَّرَ الناسَ يوماً حتى إذا فاضت العيونُ ، ورقّت القلوبُ ، ولّى فأدركه رَجُل ، فقال : أي رسول الله هل في الأرض رجل أعلم منك ؟ قال : لا ، فَعَتِبَ اللهُ عَلَيْه إذْ لَمْ يَرُدَّ العلْم إلى الله . قيل : بلى . قال : أي ربّ فأين ؟ قالَ : بِمَجْمَع البَحْرَيْن . قالَ أي رَبّ اجْعَل لي علماً أعلم ذلك به . قال : قال لي عمرو : حيث يفارقك الحوت . وقال لي يعلى : خذ حوتاً ميتاً حيث ينفخ فيه

---

(١) الحديث بتمامه أخرجه البخاري : رقم (١٢٢) ، في العلم ، باب ما يستحب للعالم إذا سئل : أي الناس أعلم ؟ فيكل العلم إلى الله . وفيه اختلاف عما هاهنا .

(٢) صحيح البخاري رقم (٤٧٢٧) في تفسير سورة الكهف ، باب ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ ﴾ . صحيح البخاري (٤٧٢٦) .

(٣) قوله : يزيد أحدهما . . . إلى هنا . زيادة من ط . وهي في البخاري .

الروح ، فأخذ حوتاً فجعله في مِكتل فقال لفتاه : لا أُكلّفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت ، قال : ما كلفتَ كبيراً ، فذلك قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ ﴾ يوشع بن نون . ليست عن سعيد بن جبير . قال : فبينما هو في ظلّ صخرةٍ في مكان ثَرْيَان إذ تَضَرَّب[1] الحوت ، وموسى نائم ، فقال فتاه : لا أُوقظه ، حتى إذا استيقظ نسي أن يخبره ، وتضرّب الحوت حتى دخل البحر فأمسك الله عنه جرية البحر حتى كأن أثره في حجر ، قال : فقال لي عمرو : هكذا كان أثره في حجر ، وحلَّق بين إبهاميه واللتين تليان . ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾ . وقد قطع الله عنك النصب . ليست هذه عن سعيد . أخبره ، فرجعا فوجدا خضراً قال : قال عثمان بن أبي سليمان على طنفسة[2] خَضْراء على كبد البحر . قال سعيد : مُسجًى بثوبه قد جعل طرفه تحت رجليه ، وطرفه تحت رأسه ، فسلّم عليه موسى ، فكشف عن وجهه وقال : هل بأرضٍ من سلام ؟ من أنت ؟ قال : أنا موسى . قال : موسى بني إسرائيل ؟ قال : نعم . قال : فما شأنك ؟ قال : جئتك ﴿ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ قال : أما يكفيك أنّ التوراة بيديك ، وأنّ الوحي يأتيك ، يا موسى إن لي علماً لا ينبغي لك أن تعلمه ، وإن لك علماً لا ينبغي لي أن أعلمه ، فأخذ طائرٌ بمنقاره من البحر ، فقال : والله ما علمي وعلمك في جَنْب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر . ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ ﴾ وجدا معابر صغاراً تحمل أهل الساحل إلى أهل هذا الساحل الآخر ، عرفوه فقالوا : عبد الله الصالح . قال : فقلنا لسعيد : خضر ؟ قال : نعم . لا نحمله بأجر . فـ ﴿ خَرَقَهَا ﴾ ووتّد فيها وَتَداً ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾ قال مجاهد : منكراً ، ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾ . كانت الأولى نسياناً ، والوسطى شرطاً ، والثالثة عمداً . ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ ﴾ قال يعلى[3] : قال سعيد : وجد غلماناً يلعبون ، فأخذ غلاماً كافراً ظريفاً ، فأضجعه ، ثمّ ذبحه بالسكين . ﴿ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً ﴾ لم تعمل بالخبث . ابن عباس قرأها ﴿ زكية ﴾ زاكية مسلمة كقولك : غلاماً[4] زكياً . ﴿ فَٱنطَلَقَا . . . فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ﴾ قال بيده هكذا ورفع يده فاستقام ، قال يعلى : حسبت أن سعيداً قال : فمسحه بيده فاستقام . ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ . قال سعيد : أجراً نأكله . ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ ﴾ . وكان أمامهم ، قرأها ابن عباس أمامهم ﴿ مَّلِكٌ ﴾ يزعمون عن غير سعيد أنّه هدد بن بدد ، والغلام المقتول [اسمه][5] يزعمون جيسور . ﴿ مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ فإذا هي

---

(١) ثريان : مبلول . وتَضَرَّب ، تَحرَّكَ وسار في الأرض .

(٢) الطنفسة : البساط .

(٣) تفسير الطبري (١٥/ ١٨٥) .

(٤) المصدر السابق .

(٥) سقطت من ط ، وهي في أ وفي صحيح البخاري الذي ينقل منه المصنف .

مرّت به يدعها بعيبها، فإذا جاوزوا أصلحوها فانتفعوا بها . منهم من يقول : سدُّوها بقارورة ، ومنهم من يقول : بالقار .

﴿ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ﴾ وكان كافراً ﴿ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾ أي : يحملهما حُبُّه على أن يتابعاه على دينه ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً ﴾ لقوله : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً ﴾ . ﴿ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ هما به أرحم منهما بالأول الذي قتل خضر . وزعم غير سعيد بن جبير أنهما أبدلا جاريةً . وأما داود[1] بن أبي عاصم فقال عن غير واحد : إنها جارية .

وقد رواه عبد الرزاق ، عن معمر ، عن أبي إسحاق ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : خطب موسى بني إسرائيل فقال : ما أحدٌ أعلم بالله وبأمره مني ، فأُمِرَ أن يلقى هذا الرجل . فذكر نحو ما تقدّم . وهكذا رواه محمد بن إسحاق ، عن الحسن بن عمارة ، عن الحَكَم بن عُتَيْبَة ، عن سعيد بن جبير ، عن أُبي بن كعب ، عن رسول الله ﷺ كنحو ما تقدم أيضاً . ورواه العَوْفي عنه موقوفاً .

وقال الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، عن ابن عباس[2] أنه تمارى هو والحرُّ بن قيس بن حصن الفزازي في صاحب موسى ، فقال ابن عباس : هو خضرٌ ، فمر بهما أُبي بن كعب ؛ فدعاه ابن عباس فقال : إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لُقْيِهِ ، فهل سمعت من رسول الله فيه شيئاً ؟ قال : نعم . وذكر الحديث[3] .

وقد تقصَّينا طُرق هذا الحديث ، وألفاظه في تفسير سورة الكهف[4] . ولله الحمد .

وقوله : ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ قال السُّهيلي : وهما أصرم وصريم ابنا كاشح . ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾ قيل : كان ذهباً ، قاله عكرمة ، وقيل : علماً ، قاله ابن عباس . والأشبه أنه كان لوحاً من ذهب مكتوباً فيه علم . قال البزّار[5] : حدّثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري ، حدّثنا بِشْر بن المنذر ، حدّثنا الحارث بن عبد الله اليَحْصُبي[6] ، عن عيّاش بن عباس القتباني ، عن ابن حُجَيرة عن

---

(١) في ط : وزعم سعيد بن جبير أنه ابن لا جارية ، وأما داود . وهو تحريف ، وما هنا موافق لما في صحيح البخاري .

(٢) حديث الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس أخرجه أحمد (٥/ ١١٦) والبخاري (٧٤) و(٧٨) في العلم ، و(٣٤٠٠) في أحاديث الأنبياء ، و(٧٤٧٨) في التوحيد ، ومسلم (٢٣٨٠) (١٧٤) ، والنسائي في العلم من سننه الكبرى (٥٨٤٤) ، وفي التفسير المفرد (٣٢٧) و(٣٢٨) و(٣٢٩) .وهو في الكبرى (١١٣٠٧) و(١١٣٠٨) و(١١٣٠٩) (وينظر المسند الجامع ١/ ٧٥ ـ ٧٦ حديث ٧٥) .

(٣) إلى هنا نهاية الصفحة المخالفة لخط ب .

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٩٨) .

(٥) انظر كشف الأستار (٢٢٢٩) ، وفي إسناده ضعف .

(٦) اليَحصِبي ، بفتح الياء وسكون الحاء ، وكسر الصاد المهملة ، وقيل : بضمها : نسبة إلى يحصب : قبيلة من حِمْيَر . اللباب (٣/ ٤٠٧) .

أبي ذر رَفَعه قال : إن الكَنْز الذي ذَكَرَ اللهُ في كتابه لوح من ذهب[١] مصمت ، عجبت لمن أيقن بالقدر كيف نصب[٢] ؛ وعجبت لمن ذكر النار ثم ضحك ، وعجبت لمن ذكر الموت كيف غفل ، لا إلّه إلا الله .

وهكذا روي عن الحسن البصري وعمر مولى غفرة ، وجعفر الصادق نحو هذا .

وقوله : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ وقد قيل : إنه كان الأب السابع ، وقيل : العاشر . وعلى كلّ تقدير فيه دلالة على أن الرجل الصالح يُحفظ في ذريته ، فالله المستعان .

وقوله : ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ دليلٌ على أنّه كان نبياً ، وأنّه ما فعل شيئاً من تلقاء نفسه ، بل بأمر ربّه ، فهو نبي ، وقيل : رسول ، وقيل : وليٌّ . وأغرب من هذا من قال : كان ملكاً والله أعلم[٣] .

وسنفرد للخضر ترجمة على حدة بعد هذا[٤] .

---

(١) في ط : من الذهب . وذهب مُصْمَت : لا يخالطه شيء .

(٢) كذا في أ ، وط . وتفسير المؤلف . وفي ب : يغضب .

(٣) جاء في المطبوع من البداية والنهاية هنا زيادة لم ترد في أ وب . وهي :
قلت : وقد أغرب جداً من قال : هو ابن فرعون . وقيل : إنه ابن ضحاك الذي ملك الدنيا ألف سنة .
قال ابن جرير : والذي عليه جمهور أهل الكتاب أنه كان في زمن أفريدون ، ويقال : إنه كان على مقدمة ذي القرنين الذي قيل : إنه كان أفريدون ، وذو الفرس هو الذي كان في زمن الخليل .
وزعموا أنه شرب من ماء الحياة فخلد وهو باقٍ إلى الآن . وقيل : إنه من ولد بعض من آمن بإبراهيم وهاجر معه من أرض بابل . وقيل : اسمه : ملكان ، وقيل : أرميا بن خلقيا . وقيل : كان نبياً في زمن سباسب بن لهراسب .
قال ابن جرير : وقد كان بين أفريدون وبين سباسب دهور طويلة لا يجهلها أحد من أهل العلم بالأنساب .
قال ابن جرير : والصحيح : أنه كان في زمن أفريدون ، واستمر حياً إلى أن أدركه موسى عليه السلام وكانت نبوة موسى في زمن منوشهر الذي هو من ولد أبرج بن أفريدون أحد ملوك الفرس ، وكان إليه الملك بعد جده أفريدون لعهده ، وكان عادلاً ، وهو أول من خندق الخنادق وأول من جعل في كل قرية دهقاناً . وكانت مدة ملكه قريباً من مئة وخمسين سنة . ويقال : إنه كان من سلالة إسحاق بن إبراهيم . وقد ذكر عنه من الخطب الحسان ، والكليم (كذا في ط) البليغ النافع الصحيح ما يبهر العقل ويحير السامع ، وهذا يدل على أنه من سلالة الخليل . والله أعلم .
وقد قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ ﴾ . . الآية [آل عمران : ٨١] .
فأخذ الله ميثاق كل نبي على أن يؤمن بمن يجيء بعده من الأنبياء وينصره ، فلو كان الخضر حياً في زمانه لما وسعه إلا اتباعه والاجتماع به والقيام بنصره ، ولكان مِن جملة مَن تحت لوائه يوم بدر كما كان تحتها جبريل وسادات من الملائكة . وقصارى الخضر ـ عليه السلام ـ أن يكون نبياً ، وهو الحق ، أو رسولاً ، كما قيل ، أو ملكاً ـ فيما ذكر ـ وأياً كان فجبريل رئيس الملائكة ، وموسى أشرف من الخضر ، ولو كان حياً لوجب عليه الإيمان بمحمد ونصرته ، فكيف إن كان الخضر ولياً كما يقوله طوائف كثيرون ، فأولى أن يدخل في عموم البعثة ، وأحرى ، ولم ينقل في حديث حسن ، بل ولا ضعيف يعتمد أنه جاء يوماً واحداً إلى رسول الله ﷺ ، ولا اجتمع به . وما ذكر من حديث التعزية فيه ، وإن كان الحاكم قد رواه ، فإسناده ضعيف . والله أعلم .

(٤) في ب : على حدة بعد هذا .

ذكر الحديث الملقب بحديث الفُتُوْن
المتضمّن قصّة موسى مبسوطة من أوّلها إلى آخرها[(١)]

قال الإمام أبو عبد الرحمن النَّسائي في كتاب التفسير من « سننه »[(٢)] ، عند قوله تعالى في سورة طه ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ﴾ [الآية : ٤٠] : (حديث الفتون) :

أخبرنا عبد الله بن محمد ، حدّثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا أَصْبَغ بن زيد[(٣)] ، حدّثنا القاسم بن أبي أيوب ، أخبرني سعيد بن جُبير قال : سألت عبد الله بن عباس عن قوله تعالى لموسى ﴿ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ﴾ فسألته عن الفتون ما هو ؟ فقال : استأنفِ النهارَ يا بنَ جُبير ، فإن لهذا حديثاً طويلاً ، فلما أصبحتُ غدوتُ إلى ابن عباس لِأَنْتَجِزَ منه ما وعدني من حديث الفُتون فقال : تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وَعَدَ إبراهيم عليه السلام أن يجعل في ذُرّيته أنبياءَ وملوكاً ، فقال بعضهم : إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك ما يشكُّون فيه ، وكانوا يظنُّون أنه يوسف بن يعقوب ، فلما هلَكَ قالوا : ليس هكذا وعد إبراهيم . فقال فرعون : فكيف تَرَون ؟ فأْتَمَرُوا وأجْمعوا أمرَهم على أن يبعث رجالاً معهم الشِّفارُ[(٤)] يطوفون في بني إسرائيل فلا يجدون مولوداً ذكراً إلّا ذبحوه ، ففعلوا ذلك . فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بآجالهم والصغارَ يُذبحون ، قالوا : توشكون أن تفنوا بني إسرائيل فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخِدْمة الذي كانوا يكفونكم ، فاقْتُلوا عاماً كلَّ مولود ذكر ، فيقل أبناؤهم[(٥)] ، ودعوا عاماً فلا تقتلوا منهم أحداً ، فيشبّ الصغار مكان من يموت من الكبار ، فإنهم لن يكثروا بمن تستحيون منهم فتخافوا مكاثرتهم إيّاكم ، ولن يفنوا[(٦)] بمن تقتلون وتحتاجون إليهم ، فأجمعوا أمرهم على ذلك .

فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا تقتل فيه الغلمان ، فولدته علانيةً آمنةً . فلما كان من قابل حملت بموسى عليه السلام فوقع في قلبها الهمُّ والحزَن ، وذلك من الفتون يا ابن جبير ، ما دخل عليه في

---

(١) في ب : المتضمن قصة موسى مبسوطة من أولها إلى آخرها . وسقط من العنوان أوله . وفي ط : حديث الفنون المتضمن قصة موسى من أولها إلى آخرها .

(٢) هو في كتاب التفسير من السنن الكبرى للنسائي كما في تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف للمزي (٤/٤٣٨) . وتحرفت فيه الفتون ، إلى القنوت ، وانظره في تفسير النسائي (٣٤٦) وهو قطعة من سننه الكبرى .

(٣) في ب : يزيد . وأصبغ بن زيد بن علي الجهني ، الوراق ، كاتب المصاحف . صدوق . من السادسة . مات سنة (١٥٧هـ) تقريب التهذيب (١/ ٨١) .

(٤) الشفار : جمع شفرة ، وهي السِّكين العظيم ، وحدُّ السيف .

(٥) في المطبوع من التفسير : « نباتهم » .

(٦) في ط . « تفتنوا » تحريف .

بطن أمّه مما يراد به فأوحى الله إليها أن ﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص : ٧] فأمرها إذا ولدت أن تجعله في تابوتٍ ، وتلقيه في اليمِّ ، فلما ولدت فعلت ذلك ، فلما توارى عنها ابنها أتاها الشيطان فقالت في نفسها : ما فعلت بابني ؟ لو ذُبح عندي فواريتُه ، وكفَّنتُه كان أحبَّ إليَّ من أن ألقيه إلى دوابّ البحر وحيتانه . فانتهى الماء به حتى أوفى عند فرضةٍ تستقي منها جواري امرأة فرعون ، فلما رأينَه أخذنه فهممن أن يفتحن التابوت ، فقال بعضهن : إن في هذا مالاً وإنا إن فتحناه لم تصدِّقنا امرأةُ الملك بما وجدنا فيه ، فحملنه كهيئته لم يُخرجن منه شيئاً حتى دفعنه إليها ، فلما فتحته رأت فيه غلاماً ، فألقى عليه منها محبةً لم يلق منها على أحد قط ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ﴾ [القصص : ١٠] من ذكر كلِّ شيءٍ إلّا من ذكر موسى .

فلما سمع الذَّبّاحون بأمره أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون ليذبحوه ، وذلك من الفتون يا ابن جبير ، فقالت لهم : أقرُّوه فإن هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل حتى آتي فرعون فأستوهبه منه ، فإن وهبه لي كنتم قد أحسنتم وأجملتم، وإن أمر بذبحه لم أَلُمكم، فأتت فرعون فقالت : ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ [القصص : ٩] فقال فرعون : يكون لك ، فأمّا لي فلا حاجة لي فيه . فقال رسول الله ﷺ : « وَالّذي يُحْلَفُ بِهِ لَوْ أَقَرَّ فِرْعَوْنُ أَنْ يَكُوْنَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَهُ كَما أَقَرَّتِ امْرأَتُهُ لَهَدَاهُ اللهُ كَمَا هَدَاها ، ولَكِنْ حَرَمَهُ ذلكَ »[١] فأرسلت إلى مَن حولها ، إلى كلِّ امرأة لها لبن تختار ظِئْراً[٢] ، فجعل كلّما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يُقْبِل على ثديها ، حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت ، فأحزنها ذلك ، فأمرت به فأُخرج إلى السوق ومجمع الناس ، ترجو أن تجد له ظِئراً تأخذه منها فلم يقبل ، وأصبحت أمّ موسى والهاً ، فقالت لأخته قصِّي أثره واطلبيه هل تسمعين له ذِكراً أحيّ ابني أم قد أكلته الدواب ، ونسيت ما كان الله وعدها فيه ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِۦ ﴾ أخته ﴿ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص : ١١] والجنب : أن يسمو بصر الإنسان إلى شيءٍ بعيدٍ وهو إلى جنبه لا يشعر به ، فقالت من الفرح حين أعياهم الظؤرات : أنا ﴿ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ [القصص : ١٢] فقالوا ما يدريك ما نصحهم هل يعرفونه ؟ حتى شكّوا في ذلك ، وذلك من الفتون يا ابن جبير . فقالت : نصحهم له ، وشفقتهم عليه ، ورغبتهم في صهر الملك ، ورجاء منفعة الملك ، فأرسلوها ، فانطلقت إلى أمها فأخبرتها الخبر ، فجاءت أمّه فلما وضعته في حجرها نزا[٣] إلى ثديها فمصه[٤] حتى امتلأ جنباه ريّاً .

---

(١) تقدم الحديث .

(٢) في ب : كل امرأة لها ولد لأن تختار له ظئراً ، وفي ط : « الى كل امرأة لها لأف » ولا معنى لها . والظئر : المرضعة لغير ولدها .

(٣) نزا : وثب .

(٤) وفي ب : يمُصّنه .

وانطلق البشير إلى امرأة فرعون يبشرونها أن قد وجدنا لابنك ظِئراً ، فأرسلت إليها فأتت بها وبه . فلما رأت ما يصنع بها قالت : امكثي ترضعي ابني هذا فإني لم أحب شيئاً حبَّه قطّ . قالت أم موسى : لا أستطيع أن أترك بيتي وولدي فيضيع ، فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتي فيكون معي لا آلوه خيراً فعلتُ ، فإني غيرُ تاركة بيتي وولدي ، وذكرت أم موسى ما كان الله وعدها فتعاسرت على امرأة فرعون وأيقنت أن الله منجزٌ موعوده ، فرجعت إلى بيتها من يومها ، وأنبته الله نباتاً حسناً ، وحفظ لما قد قضى فيه ، فلم يزل بنو إسرائيل وهم في ناحية القرية ممتنعين من السخرة والظلم ما كان فيهم .

فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأمّ موسى : أزيريني ابني . فوعدتها يوماً تزيرها[١] إياه فيه ، وقالت امرأة فرعون لخزّانها ، وظؤورها ، وقَهَارمتها[٢] : لا يبقين أحد منكم إلا استقبل ابني اليوم بهديةٍ وكرامةٍ لأرى ذلك فيه ، وأنا باعثة أميناً يحصي كلّ ما يصنع كلّ إنسان منكم ، فلم تزل الهدايا والكرامة والنُّحْل[٣] تستقبله من حين خرج من بيت أمّه إلى أن دخل على امرأة فرعون . فلما دخل عليها نَحَلَتْه وأكرمتهُ وفرحت به ، ونحلَت أمّه بحسن أثرها عليه . ثمّ قالت : لآتين به فرعون فلينحلنّه وليكرمنّه ، فلما دخلت به عليه ، جعله في حجره ، فتناول موسى لحيةَ فرعون فمدّها إلى الأرض ، فقال الغواة من أعداء الله لفرعون : ألا ترى ما وعد الله إبراهيم نبيّه أنّه زعم أن يرثك[٤] ويعلوك ويصرعك ، فأَرسل إلى الذباحين ليذبحوه . وذلك من الفتون يا بن جبير ، يُعدُّ كلُّ بلاءٍ ابتُلي به وأريد به فتوناً . فجاءت امرأة فرعون تسعى[٥] إلى فرعون فقالت : ما بدا لك في هذا الغلام الذي وهبته لي ؟ فقال : ألا ترينه يُزْعَمُ أنه يصرعني ويعلوني . فقالت : اجعل بيني وبينك أمراً تعرف فيه الحق ، ائت بجمرتين ولؤلؤتين ، فقربْهن إليه ، فإن بطش[٦] باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين عرفتَ أنّه يعقل ، وإن تناول الجمرتين ولم يُردِ اللؤلؤتين علمتَ أن أحداً لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين ، وهو يعقل ، فقرّب إليه فتناول الجمرتين ، فانتزعهما منه مخافة أن يحرقا يده ، فقالت المرأة : ألا ترى ؟! فصرفه الله عنه بعد ما كان هَمَّ به وكان الله بالغاً فيه أمره .

فلما بلغ أشدّه ، وكان من الرِّجال لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحدٍ من بني إسرائيل معه بظلمٍ ولا سخرةٍ حتى امتنعوا كلّ الامتناع ؛ فبينما موسى عليه السلام يمشي في ناحية المدينة إذا هو برَجُلين يقتتلان ، أحدهما فرعوني ، والآخر إسرائيلي ، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني ، فغضب موسى

---

(١) في ط : تريها ، وما هنا من النسخ ، وهو الذي في تفسير النسائي الذي ينقل منه المصنف .
(٢) قهارمة : جمع قهرمان ، وهو من أمناء الملك وخاصته . (فارسي) .
(٣) النُّحْل : إعطاؤك الإنسان شيئاً بلا استعاضة ، ومهر المرأة .
(٤) هكذا هنا وفي تفسيره أيضاً ، وفي تفسير النسائي : « يَرُبَّك » ولعله الأوجه .
(٥) في ب : تبكي ، وما هنا يعضده ما في التفسير .
(٦) بطش بالشيء : أخذه بعنف وشدة .

غضباً شديداً لأنه تناوله وهو يعلم منزلته من بني إسرائيل ، وحفظه لهم [لا يعلم الناس إلا أنما ذلك من الرضاع إلا أمُّ موسى ، إلا أن يكون الله سبحانه أطلع موسى عليه السلام من ذلك على][1] ما لم يطّلع عليه غيره ، فوكز موسى الفرعوني فقتله ، وليس يراهما أحدٌ إلا الله عزَّ وجلَّ والإسرائيلي ، فقال موسى حين قتل الرجل : ﴿ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ [القصص : ١٥] ثم قال : ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ [القصص : ١٦ ـ ١٨] الأخبارَ ، فأُتي فرعون فقيل له : إن بني إسرائيل قتلوا رجلاً من آل فرعون فخذ لنا بحقِّنا ولا ترخّص لهم ، فقال : ابغوني قاتله ومن يشهد عليه ؟ فإن الملك وإن كان صغوه[2] مع قومه لا ينبغي له أن يقتل بغير بيِّنةٍ ولا ثبتٍ، فاطلبوا لي علمَ ذلك آخذْ لكم بحقكم . فبينما هم يطوفون لا يجدون بيِّنةً إذا موسى من الغد قد رأى ذلك الإسرائيلي يقاتل رجلاً من آل فرعون آخر ، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني، فصادف موسى قد نَدِم على ما كان منه ، وكره الذي رأى ، فغضب الإسرائيلي وهو يريد أن يَبْطش بالفرعوني ، فقال للإسرائيلي لِمَا فعل بالأمس واليوم ﴿ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [القصص : ١٨]. فنظر الإسرائيلي إلى موسى بعد ما قال له ما قال ، فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذي قتل فيه الفرعوني ، فخاف أن يكون بعد ما قال له : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ أن يكون إياه أراد ، ولم يكن أراده إنّما أراد الفرعوني ، فخاف الإسرائيلي . وقال : ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ﴾ [القصص : ١٩] وإنّما قال له مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقتله ، فتتاركا . وانطلق الفرعوني فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي من الخبر حين يقول : أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ، فأرسَل فرعون الذّباحين ليقتلوا موسى ، فأخذ رسلُ فرعون الطريق الأعظم يمشون على هِينتهم يطلبون موسى ، وهم لا يخافون أن يفوتهم ، فجاء رجلٌ من شيعة موسى من أقصى المدينة ، فاختصر طريقاً حتى سبقهم إلى موسى فأخبره ، وذلك من الفتون يا ابن جبير .

فخرج موسى متوجِّهاً نحو مَدين لم يلق بلاءً قبلَ ذلك ، وليس له بالطريق علم إلا حُسنُ ظنّه بربّه عز وجل ، فإنه قال : ﴿ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ [القصص : ٢٢ ـ ٢٣] يعني بذلك حابستين غنمهما فقال لهما : ﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ معتزلتين لا تسقيان مع الناس ، قالتا : ليس لنا قوة نزاحم القوم ، وإنما ننتظر فضول حياضِهم ، فسقى لهما ، فجعل يغرف في الدلو ماءً كثيراً حتى كان أول الرعاءِ . وانصرفتا بغنمهما إلى أبيهما ، وانصرف موسى فاستظلّ بشجرةٍ ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص : ٢٤] ، واستنكر أبوهما سرعة صَدَرِهما بغنمهما حُفَّلاً بطاناً فقال : إن لكما اليوم لشأناً ، فأَخْبَرَتاه بما صنع

(١) زيادة من تفسير النسائي . وقريب منها في ب .
(٢) في ط والمطبوع من تفسير النسائي : صفوه ، بالفاء وهو تصحيف . والصغو . . الميل .

موسى ، فأمر إحداهمـا أن تدعوَه ، فأتت موسى فدعته ، فلما كلَّمه ﴿ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص : ٢٥] ليس لفرعون ولا لقومه علينا من سلطان ، ولسنا في مملكته ﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ [القصص : ٢٦] فاحتملته الغَيْرَةُ على أن قال لها : ما يدريك ما قوته وما أمانته ؟ فقالت : أمّا قوته فما رأيت منه في الدلو حين سقى لنا ، لم أر رجلاً قط أقوى في ذلك السقي منه . وأما الأمانة فإنه نظر إليَّ حين أقبلت إليه وشخصت له ، فلما علم أني امرأة صوَّب رأسَه فلم يرفعه حتى بلَّغته رسالتَك ، ثمّ قال لي : امشي خلفي وانعتي لي الطريق ، فلم يفعل هذا إلا وهو أمين ، فَسُرِّي عن أبيها وصدَّقها وظنّ به الذي قالت ، فقال له : هل لك ﴿ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [القصص : ٢٧] ففعل ، فكانت على نبي الله موسى ثماني سنين واجبة ، وكانت السنتان عِدَةً منه ، فقضى الله عنه عِدَته فأتمها عشراً .

قال سعيد ـ هو ابن جبير[١] ـ : فلقيني رجلٌ من أهل النصرانية من علمائهم قال : هل تدري أيَّ الأجلين قضى موسى ؟ قلت : لا ، وأنا يومئذ لا أدري ، فلقيت ابنَ عبَّاس ، فذكرت ذلك له فقال : أما علمتَ أن ثمانيةً كانت على نبي الله واجبةً لم يكن نبيُّ الله ليُنْقِص منها شيئاً ، وتعلم أن الله كان قاضياً عن موسى عِدَته التي وعده ، فإنه قضى عشر سنين ، فلقيت النصراني فأخبرته ذلك فقال : الذي سألته فأخبرك أعلم منك بذلك ، قلت : أجل وأولى .

فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار والعصا ويده ما قصّ الله عليك في القرآن . فشكا إلى الله تعالى ما يتخوَّف من آل فرعون في القتيل وعقدة لسانه ، فإنّه كان في لسانه عقدةٌ تمنعه من كثير من الكلام ، وسأل ربّه أن يعينه بأخيه هارون يكون له ردءاً ، ويتكلّم عنه بكثيرٍ مما لا يُفصح به لسانه ، فآتاه الله عز وجل سؤله وحلَّ عقدةً من لسانه ، وأوحى الله إلى هارون فأمره أن يلقاه فاندفع[٢] موسى بعصاه حتى لقي هارون فانطلقا جميعاً إلى فرعون ، فأقاما على بابه حيناً لا يؤذَن لهما . ثمّ أُذِن لهما بعد حِجاب شديد، فقالا : إنا رسولا ربّك . فقال : فمن ربّكما ؟ فأخبره بالذي قصّ الله عليك في القرآن . قال فما تريدان ؟ وذكَّره القتيل ، فاعتذر بما قد سمعت . قال : أريد أن تؤمن بالله وترسل معي بني إسرائيل ، فأبى عليه وقال : ائت بآية إن كنت من الصادقين ، فألقى عصاه فإذا هي حية[٣] عظيمةٌ فاغرةٌ فاها مسرعة إلى فرعون ، فلمَّا رآها فرعون قاصدة إليه خافها ، واقتحم عن سريره ، واستغاث بموسى أن يكفّها عنه ، ففعل . ثمّ أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوءٍ ، يعني من غير بَرَصٍ . ثمّ ردَّها فعادت إلى لونها الأول .

---

(١) في ب : سعيد بن جبير .
(٢) في ب : فانتفع .
(٣) في أ وط : « ثعبان » وما هنا من ب ، وهو الذي عند النسائي .

فاستشار الملأ حوله فيما رأى فقالوا له : ﴿ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴾ [طه : ٦٣] يعني مُلْكهم الذي هم فيه والعيش ، وأبَوا على موسى أن يعطوه شيئاً مما طلب ، وقالوا له : اجمع السّحرة فإنّهم بأرضك كثيرٌ حتى تغلب بسحرك سحْرَهما ، فأرسل إلى المدائن فحشر له كلّ ساحرٍ متعالم . فلمّا أتوا فرعون قالوا : بم يعمل الساحر ؟ قالوا : يعمل بالحيّات . قالوا : فلا والله ما أحدٌ في الأرض يعمل السحر بالحيات والحبال والعصي الذي نعمل . وما أَجْرُنا إن نحن غلبنا ؟ قال لهم : أنتم أقاربي وخاصّتي ، وأنا صانعٌ إليكم كلَّ شيء أحببتم ، فتواعدوا يومَ الزينة ﴿ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾ [طه : ٥٩] .

قال سعيد : فحدّثني ابن عباس أن يوم الزينة اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون والسّحرة هو يوم عاشوراء ، فلمّا اجتمعوا في صعيد قال الناس بعضهم لبعض : انطلقوا فلنحضر هذا الأمر لعلّنا نتّبعُ السّحرة إن كانوا هم الغالبين . يعنون موسى وهارون استهزاءً بهما ، فقالوا : ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ ﴾ ـ بعد تريثهم بسحرهم ـ ﴿ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾ [الأعراف : ١١٥] قالَ بَلْ أَلْقُوا ﴿ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الشعراء : ٤٤] فرأى مُوسى من سحرهم ما أوجَسَ في نفسه خيفةً ، فأوحى الله إليه أن ألق عصاك ، فلما ألقاها صارت ثعباناً عظيمة فاغِرةً فاها ، فجعلت العصي تَلَبَّسُ بالحبال حتى صارت جُرَزاً على الثعبان تدخل فيه حتى ما أبقت عصاً ولا حبلاً إلا ابتلعته ، فلما عرف السّحرة ذلك قالوا : لو كان هذا سحراً لم يبلغ[١] من سحرنا كلّ هذا ، ولكنّه أمرٌ من الله تعالى ، آمنا بالله وبما جاء به موسى ، ونتوب إلى الله مما كنّا عليه ، فكسر الله ظهر فرعون في ذلك الموطن وأشياعه ، وظهر الحق ، وبطل ما كانوا يعملون ، فغُلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين .

وامرأة فرعون بارزةٌ متبذِّلة[٢] تدعو الله بالنّصر لموسى على فرعون وأشياعه ، فمن رآها من آل فرعون ظنّ أنها إنّما ابتذلت[٣] للشفقة على فرعون وأشياعه ، وإنّما كان حزنها وهمّها لموسى .

فلما طال مكثُ موسى بمواعيد فرعون الكاذبة ؛ كلّما جاء بآية وعده عندها أن يرسل معه بني إسرائيل فإذا مضت أخلف من غده ، وقال : هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا ؟ فأرسل الله على قومه الطّوفان ، والجراد ، والقُمّل ، والضفادِعَ ، والدَّمَ آياتٍ مفَصَّلاتٍ ، كلّ ذلك يشكو إلى موسى ويطلب إليه أن يكفّها عنه ، ويوافقه[٤] على أن يرسل معه بني إسرائيل ، فإذا كفّ ذلك عنه أخلف بوعده ، ونكث عهده حتى أُمِرَ موسى بالخروج بقومه ، فخرج بهم ليلاً ، فلما أصبح فرعون ورأى أنّهم قد مضوا ، أرسل في المدائن

---

(١) في ط : « تبلغ » ، وما هنا يعضده ما في تفسير النسائي ، وب .
(٢) في ط : مبتذلة .
(٣) هكذا في أ وط وتفسير النسائي ، وفي ب : تبذلت .
(٤) في ب : ويطلب إليه أن يوافقه .

حاشرين ، فتبعه بجنودٍ عظيمةٍ كثيرةٍ ، وأوحى الله إلى البحر إذا ضربك موسى عبدي بعصاه فانفلق اثنتي عشرة فرقةً حتى يجوز موسى ومن معه ، ثمّ الْتقِ على من بقي بعد من فرعون وأشياعه ، فنسي[١] موسى أن يضرب البحر بالعصا ، وانتهى إلى البحر وله قَصيف[٢] مخافة أن يضربه موسى بعصاه ، وهو غافل فيصير عاصياً لله عز وجل ، فلما تراءى الجمعان ، وتقاربا قال أصحاب موسى : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء : ٦١] افعل ما أمرك به ربّك فإنه لم يكذب ، ولم تكذب ، قال : وعدني ربي إذا أتيت البحر انفرق اثنتي عشرة فرقة حتى أجاوزه ، ثمّ ذكر بعد ذلك العَصَا ، فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى ، فانفرق البحر كما أمره ربّه ، وكما وعد موسى ، فلما أن جاوز موسى وأصحابه كلّهم البحر ودخل فرعون وأصحابه ، التقى عليهم البحر كما أُمرَ .

فلما جاوز موسى قال أصحابه : إنّا نخاف أن لا يكون فرعون غرق ، ولا نؤمن بهلاكه[٣] ، فدعا ربّه فأخرجه له ببدنه حتى استيقنوا بهلاكه .

ثمّ مرّوا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٣٨ ـ ١٣٩] قَدْ رأيتم من العبر ، وسمعتم ما يكفيكم .

ومضى فأنزلهم موسى منزلاً وقال : أطيعوا هارون فإنّ الله قد استخلفه عليكم ، فإنّي ذاهب إلى ربّي وأجّلَهم ثلاثين يوماً أن يرجع إليهم فيها ، فلما أتى ربّه عزّ وجلّ وأراد أن يكلّمه في ثلاثين يوماً ، وقد صامهنَّ ليلَهنَّ ونهارَهنَّ ، وكره أن يكلّم ربّه وريح فِيه ريح فم الصّائم ، فتناول موسى شيئاً من نبات الأرض فمضغه ، فقال له ربّه حين أتاه : لم أفطرت ؟ ـ وهو أعلم بالذي كان ـ قال يا ربّ إني كرهت أن أكلّمك إلّا وفمي طيّب الريح . قال : أو ما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب من ريح المسك . ارجع فصُم عشراً ، ثمّ ائتني . ففعل موسى ما أمره به ربُّه ، فلما رأى قومُ موسى أنه لم يرجع إليهم في الأجل ، ساءهم ذلك ، وكان هارون قد خطبهم فقال : إنّكم خرجتم من مصر ولقوم فرعون عندكم عوار وودائعُ ، ولكم فيها مثل ذلك ، وأنا أرى أن تحتسبوا مالكم عندهم ، ولا أحلّ لكم وديعة استُودعتموها ، ولا عارية ، ولسنا برَادّين إليهم شيئاً من ذلك ، ولا ممسكيه لأنفسنا ، فحفر حفيراً وأَمَرَ كلَّ قومٍ عندهم من ذلك من متاعٍ أو حليةٍ أن يقذفوه في ذلك الحفير . ثمّ أوقد عليه النار فأحرقه فقال : لا يكون لنا ولا لهم .

---

(١) في ب : فأنسي .
(٢) القصيف : الصوت الهائل يشبه صوت الرعد .
(٣) في ب : ولا نأمن بهذا له .

وكان السامري من قومٍ يعبدون البقر جيرانٌ لبني إسرائيل ، ولم يكن من بني إسرائيل فاحتمل مع موسى وبني إسرائيل حين احتملوا ، فقضى له أن رأى أثراً ، فقبض منه قبضةً ، فمرّ بهارون ، فقال له هارون : يا سامري ألا تلقي ما في يديك ، وهو قابض عليه لا يراه أحدٌ طوال ذلك ، فقال : هذه قبضة من أثر الرسول الذي جاوز بكم البحر ، ولا أُلقيها لشيءٍ إلا أن تدعو اللهَ إذا ألقيتُها أن يكون ما أريد ، فألقاها ودعا له هارون ، فقال : أريد أن تكون عجلاً ، فاجتمع ما كان في الحفرة من متاعٍ ، أو حليةٍ ، أو نحاسٍ ، أو حديدٍ ، فصار عجلاً أجوف ليس فيه روح ، له خُوار . قال ابن عباس : لا والله ما كان فيه صوت قط ، إنّما كانت الريح تدخل من دبره وتخرج من فيه فكان ذلك الصوت من ذلك .

فتفرّق بنو إسرائيل فِرَقاً ، فقالت فرقةٌ : يا سامري ما هذا ـ وأنت أعلم به ـ قال : هذا ربكم ولكن موسى أضل الطريق . وقالت فرقةٌ : لا نكذّب بهذا حتى يرجع إلينا موسى ، فإن كان ربنا لم نكن ضيعناه ، وعجزنا فيه حتى رأيناه ، وإن لم يكن ربنا فإنا نتبع قول موسى . وقالت فرقةٌ : هذا من عمل الشيطان وليس بربّنا ، ولا نؤمن به ، ولا نصدِّق . وأسرَّت فرقةٌ في قلوبهم الصِّدق بما قال السامري في العجل وأعلنوا التكذيب به ، فقال لهم هارون عليه السلام : ﴿ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴾ [طه : ٩٠] ليس هذا . قالوا : فما بال موسى وعدنا ثلاثين يوماً ثمّ أخلفنا ؟ هذه أربعون يوماً قد مضت . فقال سفهاؤهم : أخطأ ربّه فهو يطلبه ويبتغيه .

فلمّا كلّم الله موسى وقال له ما قال ، أخبره بما لقي قومه من بعده ، فرجع إلى قومه غضبان أسفاً ، فقال لهم ما سمعتم ما في القرآن ؟! ﴿ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ ﴾ [الأعراف : ١٥٠] وألقى الألواح من الغضب . ثمّ إنّه عَذَرَ أخاه بعذره ، واستغفر له ، فانصرف إلى السامري ، فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : قبضت ﴿ قَبۡضَةً مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ ﴾ وفطنت لها ، وعَميت عليكم ، فقذفتها ﴿ وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ٩٦ قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ﴾ [طه : ٩٦ ـ ٩٧] ولو كان إلَهاً لم يخلص إلى ذلك منه .

فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة ، واغتبط الذين كان رأيهم فيه مثل رأي هارون ، فقالوا لجماعتهم : يا موسى سل لنا أن يُفتح لنا بابُ توبةٍ نصنعها فتكفّر عنّا ما عملنا ، فاختار ﴿ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا ﴾ [الأعراف : ١٥٥] لذلك لا يألو الخير خيار بني إسرائيل ، ومن لم يشرك في الحق ، فانطلق بهم يسأل لهم التوبة ، فرجفت بهم الأرض ، فاستحيا نبي الله عليه السلام من قومه ومن وفده حين فُعل بهم ما فُعل ، فقال : ﴿ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ ﴾ [الأعراف : ١٥٥] وفيهم من كان الله تعالى اطلع منه على ما أُشرب قلبه من حُبِّ العجل وإيمانٍ به ، فلذلك رجفت بهم الأرض ، فقال : ﴿ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ

﴿ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف : ١٥٦ـ١٥٧] فقال : يا رب سألتك التوبة لقومي ، فقلت : إن رحمتي كتبتها لقوم غير قومي ، فليتك أخّرتني حتى تخرجني في أمّة ذلك الرجل المرحومة ، فقال له : إنّ توبتهم أن يقتل كلّ رجلٍ من لقي من والدٍ وولدٍ فيقتله بالسيف ، لا يبالي مَن قتل في ذلك الموطن . وتاب أولئك الذين كان خفي على موسى وهارون ، واطلع الله من ذنوبهم فاعترفوا بها ، وفعلوا ما أُمروا ، وغفر الله للقاتل والمقتول .

ثمّ سار بهم موسى عليه السلام متوجّهاً نحو الأرض المقدّسة ، وأخذ الألواح بعدما سكت عنه الغضب ، فأمرهم بالذي أُمِر به من الوظائف ، فثقل ذلك عليهم وأبوا أن يقرّوا بها ، ونَتَقَ الله عليهم الجبل كأنّه ظلّةٌ ، ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم ، وأخذوا الكتاب بأيمانهم ، وهم مصغون ينظرون إلى الجبل ، والكتاب بأيديهم ، وهم من وراء الجبل مخافةَ أن يقع عليهم ، ثمّ مضوا حتى أتوا الأرض المقدّسة ، فوجدوا مدينة فيها قومٌ جبارون ، خَلْقُهم خَلْقٌ منكر ، وذكر من ثمارهم أمراً عجباً من عِظَمها ، فقالوا : ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ لا طاقة لنا بهم ، ولا ندخلها ما داموا فيها ﴿ فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾ ـ قيل ليزيد : هكذا قرأه ؟ قال : نعم ـ من الجبارين آمَنَا بموسى وخرجا إليه فقالوا : نحن أعلم بقومنا إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم ؛ فإنهم لا قلوب لهم ، ولا منعة عندهم ، فادخلوا ﴿ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ﴾ ويقول أُناس : إنهم من قوم موسى . فقال الذين يخافون من بني إسرائيل ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾[1] [المائدة : ٢٢ ـ ٢٤] فأغضبوا موسى ، فدعا عليهم وسمّاهم فاسقين ، ولم يدعُ عليهم قبل ذلك لما رأى منهم من المعصية وإساءتهم حتى كان يومئذٍ ، فاستجاب الله له وسمّاهم كما سمّاهم فاسقين ، فحرّمها عليهم أربعين سنةً يتيهون في الأرض ، يصبحون كلّ يوم فيسيرون ليس لهم قرار ، ثمّ ظلّل عليهم الغمام في التيه ، وأنزل عليهم المَنَّ والسلوى ، وجعل لهم ثياباً لا تبلى ولا تتسخ ، وجعل بين ظهرانيهم حجراً مربّعاً ، وأمر موسى فضربه بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، في كلِّ ناحية ثلاثة أعين ، وأعلم كلّ سبطٍ عينهم التي يشربون منها ، فلا يرتحلون من مَنْقَلَةٍ[2] إلا وجدوا ذلك الحجر بالمكان الذي كان منهم فيه بالأمس .

رفع ابن عباس هذا الحديث إلى النبي ﷺ ، وصدّق ذلك عندي أن معاوية سمع من ابن عباس هذا الحديث ، فأنكر عليه أن يكون الفرعوني الذي أفشى على موسى أمر القتيل الذي قتل ، فقال : كيف يفشي عليه ، ولم يكن عَلم به ، ولا ظهر عليه إلّا الإسرائيلي الذي حضر ذلك ؟ فغضب ابن عبّاس ، فأخذ بيد

---

(١) من قوله : قيل ليزيد : هكذا . . . إلى . . . إنا هاهنا قاعدون . سقط من ب .

(٢) في ب : منزلة . وفي ط : محلة . والمنقلة : المرحلة من مراحل السفر .

معاوية ، فانطلق به إلى سعد بن مالك الزُّهْري ، فقال له : يا أبا إسحاق ، هل تذكر يوم حدّثنا رسول الله ﷺ عن قتيل موسى الذي قتل من آل فرعون ؟ الإسرائيلي الذي أفشى عليه أم الفرعوني ؟ قال : إنما أفشى عليه الفرعوني بما سمع الإسرائيلي الذي شهد ذلك وحضره .

هكذا ساق هذا الحديث الإمام النسائي . وأخرجه ابن جرير[١] وابن أبي حاتم في « تفسيريهما » من حديث يزيد بن هارون . والأشبه ـ والله أعلم ـ أنه موقوف ، وكونه مرفوعاً فيه نظر ، وغالبه متلقى من الإسرائيليات ، وفيه شيء يسير مصرّح برفعه في أثناء الكلام ، وفي بعض ما فيه نظرٌ ونكارةٌ ، والأغلب أنه كلام كعبِ الأحبار .

وقد سمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المِزِّي يقول ذلك . والله أعلم .

* * *

ذكر
بناء قبّة الزمان

قال أهل الكتاب[٢] : وقد أمر الله موسى عليه السلام بعمل قبّة من خشب الشمشار[٣] ، وجلود الأنعام ، وشعر الأغنام ، وأمر بزينتها بالحرير المصبغ والذهب والفضّة على كيفيات مفصّلة عند أهل الكتاب ولهـا عشر سُرادقـات ؛ طول كلِّ واحدٍ ثمـانية وعشرون ذراعـاً ، وعرضه أربعة أذرعٍ ، ولها أربعةُ أبوابٍ وأطنابٌ من حريرٍ ، ودمقس مصبغ ، وفيها دفوف وصفائح من ذهب وفضّة ، وفي كلِّ زاوية بابان ، وأبوابٌ أُخر كبيرةٌ ، وستورٌ من حريرٍ مصبغ وغير ذلك مما يطول ذِكره .

وبعمل تابوتٍ[٤] من خشب الشمشار ، يكون طولُه ذراعين ونصفاً وعرضه ذراعين وارتفاعُه ذراعاً ونصفاً ، ويكون مضبَّباً[٥] بذهبٍ خالصٍ من داخله وخارجه وله أربع حَلَقٍ في أربع زواياه ، ويكون على حافتيه كروبيان[٦] من ذهبٍ ، يعنون صفة ملكين بأجنحة وهما متقابلان ، صنعه رجل اسمه بصليال .

وأمره أن يعمل مائدةً من خشب الشمشار طولها ذراعان وعرضهـا ذراع ونصف لها ضِبَاب ذهب

---

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى (١١٣٢٦) وابن جرير (١٦/ ١٦٤) وفي إسناده ضعف .
(٢) العهد القديم : سفر الخروج ، الإصحاح السادس والعشرون .
(٣) في المصدر السابق : شجر السنط . وهو نوع من الشجر يكثر في مصر . القاموس المحيط .
(٤) سفر الخروج ، الإصحاح الخامس والعشرون .
(٥) ضبَّبَ الخشب : ألبسه الحديد أو الذهب أو نحوهما .
(٦) الكروبيون : الملائكة المقربون .

وإكليل ذهب بشفة مرتفعة بإكليلٍ من ذهب وأربع حَلَق من نواحيها من ذهب مُغرزة في مثل الرمّان ، من خشب ملبّس ذهباً ، واعمل صِحافاً[١] ومصافي وقصاعاً على المائدة .

واصنع منارة من ذهبٍ دليّ[٢] ، وفيها ست قصبات من ذهب من كلِّ جانب ثلاث ، على كلِّ قصبة ثلاثة سُرُج ، وليكن في المنارة أربعة قناديل ، ولتكن هي وجميع هذه الآنية من قنطار من ذهب صنع ذلك بصليال أيضاً ، وهو الذي عمل المذبح أيضاً ، ونصب هذه القبة أول يوم من سنتهم ، وهو أوّل يومٍ من الربيع ، ونصب تابوت الشهادة ، وهو ـ والله أعلم ـ المذكور في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٨] .

وقد بُسط هذا الفصل في كتابهم مطوّلاً جدّاً ، وفيه شرائع لهم ، وأحكام ، وصفة قربانهم وكيفيته . وفيه أن قبّة الزمان كانت موجودة قبل عبادتهم العجل الذي هو متقدِّم على مجيء بيت المقدس ، وأنها كانت لهم كالكعبة يصلّون فيها وإليها ، ويتقرّبون عندها . وأن موسى عليه السلام كان إذا دخلها يقفون عندها[٣] ، وينزل عمود الغمام على بابها فيخرّون عند ذلك سُجَّداً لله عزّ وجلّ ، ويكلم اللهُ موسى عليه السلام من ذلك العمود الغمام الذي هو نورٌ ، ويخاطبه ، ويناجيه ، ويأمره ، وينهاه ، وهو واقف عند التابوت صامدٌ إلى ما بين الكَرُوبِيِّيْنَ ، فإذا فصل الخطاب يخبر بني إسرائيل بما أوحاه اللهُ عزَّ وجلَّ إليه من الأوامر والنواهي . وإذا تحاكموا إليه في شيءٍ ليس عنده من الله فيه شيء يجيء إلى قبّة الزمان ، ويقف عند التابوت ، ويصمد لما بين ذينك الكروبِيِّيْنَ ، فيأتيه الخطاب بما فيه فصل تلك الحكومة[٤] .

وقد كان هذا مشروعاً لهم في زمانهم ، أعني استعمال الذهب والحرير المصبغ واللآلىء في معبدهم وعند مصلاّهم ، فأمّا في شريعتنا فلا ، بل قد نُهينا عن زخرفة المساجد وتزيينها لِئَلا تشغل المصلّين ؛ كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما وسّع في مسجد رسول الله ﷺ للّذي وكّله على عمارته : ابنِ للناسِ ما يُكنُّهم ، وإياكَ أن تُحمِّر أو تُصَفِّر فتفتن الناس . وقال ابن عباس : لا تُزَخْرِفُنَّها كما زخرفت اليهود والنصارى كنائسَهم[٥] ، وهذا من باب التشريف والتكريم والتنزيه لهذه الأمّة عن مشابهة من كان قبلهم من الأمم ، إذ جمع الله همّهم في صلاتهم على التوجّه إليه والإقبال عليه ، وصان أبصارهم وخواطرهم عن الاشتغال والتفكّر في غير ما هم بصدده من العبادة العظيمة . فلله الحمد والمِنَّة .

---

(١) الصحاف : جمع صَحْفَة ، وهي آنية الطعام . والمصافي : جمع مصفاة .
(٢) في العهد القديم : ذهب نقي .
(٣) في ب : حَوْلها .
(٤) في ب : الخصومة .
(٥) رواه البخاري تعليقاً (١/ ٥٣٩) .

وقد كانت قبّة الزمان هذه مع بني إسرائيل في التيه يُصلُّون إليها وهي قبلتهم ، وكعبتهم ، وإمامُهم كليم الله موسى عليه السلام ، ومُقدِّم القربان أخوه هارون عليه السلام . فلما مات هارون ثمّ موسى عليهما السلام ، استمرّت بنو هارون في الذي كان يليه أبوهم من أمر القربان . وهو فيهم إلى الآن .

وقام بأعباء النبوّة بعد موسى وتدبير الأمر بعده فتاه يوشَع بن نون عليه السلام ، وهو الذي دخل بهم بيت المقدس ، كما سيأتي بيانه .

والمقصود هنا أنّه لما استقرّت يده على البيت المقدّس نصب هذه القبّة على صخرة بيت المقدس ، فكانوا يصلّون إليها ، فلما بادت صلوا إلى محلّتها ، وهي الصخرة ، فلهذا كانت قبلة الأنبياء بعده إلى زمان رسول الله ﷺ، وقد صلى إليها رسول الله ﷺ قبل الهجرة ، وكان يجعل الكعبة بين يديه . فلما هاجر أُمِر بالصلاة إلى بيت المقدس ، فصلّى إليها ستة عشر ، وقيل : سبعة عشر شهراً[١] . ثم حُوّلت القبلة إلى الكعبة ، وهي قبلة إبراهيم ، في شعبان سنة ثنتين في وقت صلاة العصر ، وقيل : الظهر ، كما بسطنا ذلك في « التفسير »[٢] عند قوله تعالى : ﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ ﴾ إلى قوله : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ ﴾ الآيات[٣] [البقرة : ١٤٢ ـ ١٤٤] .

* * *

(١) في ب : ستة عشر شهراً ، وقيل : سبعة عشر .

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ١٨٩) .

(٣) زاد في ب : والله أعلم .

قصة قارون مع موسى عليه السّلام

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص : ٧٦ ـ ٨٣] .

قال الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباسٍ قال : كان قارون ابنَ عم موسى . وكذا قال إبراهيم النَّخعي[١] ، وعبد الله بن الحارث بن نوفل ، وسِماك بن حرب ، وقتادة ، ومالك بن دينار ، وابن جريج ، وزاد فقال : هو قارون بن يصهر بن قاهث ، وموسى بن عمران بن قاهث[٢] .

قال ابن جرير[٣] : وهذا قول أكثر أهل العلم أنّه كان ابن عمّ موسى . وردَّ قولَ ابن إسحاق : إنه كان عم موسى .

قال قتادة : وكان يُسمّى النُّورَ لِحُسْنِ صوته بالتوراة ، ولكن عدوّ الله نافق كما نافق السّامري ، فأهلكه البغي لكثرة ماله .

وقال شهر بن حوشب : زاد في ثيابه شبراً طولاً ترفُّعاً على قومه .

وقد ذكر الله تعالى كثرة كنوزة حتى إن مفاتحه لكان يثقل حملها على الفئام من الرجال الشداد . وقد قيل : إنها كانت من الجلود ، وإنها كانت تحمل على ستين بغلاً فالله أعلم .

---

(١) النَّخَعي ، بفتح النون والخاء المعجمة : نسبة إلى النخع ، وهي قبيلة كبيرة من مذحج . اللباب (٣/ ٣٠٤) .

(٢) في ب : وموسى بن عمران بن يصهر بن قاهث . وط : هافث .

(٣) كذا في ب . وفي أ وط : جريج . والخبر في تاريخ الطبري (١/ ٤٤٣) ، وفيه : وأما أهل العلم من سلف أمتنا ومن أهل الكتابين فعلى ما قال ابن جريج .

وقد وعظه النّصحاء من قومه قائلين : ﴿ لَا تَفْرَحْ ﴾ أي : لا تبطر بما أُعطيت ، وتفخر على غيرك ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۝٧٦ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ . يقولون : لتكن همّتك مصروفةً إلى تحصيل ثواب الله في الدار الآخرة ، فإنّه خيرٌ وأبقى ، ومع هذا ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي : وتناول منها بمالك ما أحلّ الله لك فتمتّع لنفسك بالملاذ الطيبة الحلال ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ أي : وأحسن إلى خَلق الله كما أحسن الله خالقُهم وبارئُهم إليك ﴿ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي : ولا تُسيء إليهم ، ولا تفسد فيهم ، فتقابلهم ضدّ ما أُمرت فيهم فيعاقبك ، ويسلبك ما وهبك ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ .

فما كان جوابه لهذه النّصيحة الصّحيحة الفصيحة إلا أن ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ﴾ يعني أنا لا أحتاج إلى استعمال ما ذكرتم ، ولا إلى ما إليه أشرتم ، فإن الله إنما أعطاني هذا لعلمه أني أستحقه ، وأني أهلٌ له ، ولولا أني حبيب إليه ، وحَظِيٌّ عنده لما أعطاني ما أعطاني .

قال الله تعالى رادّاً عليه ما ذهب إليه : ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ أي : قد أهلكنا من الأمم الماضين بذنوبهم وخطاياهم من هو أشد من قارون قوة وأكثر أموالاً وأولاداً ، فلو كان ما قال صحيحاً لم نعاقب أحداً ممن كان أكثر مالاً منه ، ولم يكن ماله دليلاً على محبتنا له ، واعتنائنا به كما قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ [سبأ : ٣٧] وقال تعالى ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٥ ـ ٥٦] . وهذا الردّ عليه يدلّ على صحّة ما ذهبنا إليه من معنى قوله : ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ﴾ . وأمّا من زعم أن المراد من ذلك أنه كان يعرف صَنْعة الكيمياء ، أو أنه كان يحفظ الاسم الأعظم فاستعمله في جمع الأموال فليس بصحيح ؛ لأن الكيمياء تخييل وصبغة ، لا تحيل الحقائق ، ولا تشابه صنعة الخالق ، والاسم الأعظم لا يصعد الدعاءُ به مِن كافر به ، وقارون كان كافراً في الباطن منافقاً في الظاهر . ثمّ لا يصح جوابه لهم لهذا على التقدير ولا يبقى بين الكلامين تلازم . وقد وضحنا هذا في كتابنا « التفسير »[1] ولله الحمد .

قال الله تعالى : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ﴾ ذكر كثير من المفسرين أنه خرج في تجمُّلٍ عظيمٍ من ملابس ، ومراكب ، وخدمٍ ، وحشمٍ ، فلما رآه من يعظّم زهرة الحياة الدنيا تمنّوا أن لو كانوا مثله ، وغَبَطوه بما عليه وله ، فلما سمع مقالتهم العلماء ذوو الفَهم الصحيح الزهّاد الألِبّاءُ قالوا لهم : ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ أي : ثواب الله في الدار الآخرة خيرٌ وأبقى وأجلُّ وأعلى . قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ أي : وما يلقّى هذه النصيحة وهذه المقالة وهذه الهمّة السامية

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٩٩) .

إلى الدار الآخرة العلية عند النظر إلى زهرة هذه الدنيا الدنيَّة إلاّ مَن هدى اللهُ قلْبَهُ ، وثبَّت فؤاده ، وأيّد لُبَّه ، وحقق مراده . وما أحسن ما قال بعض السلف : إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات والعقل الكامل عند حلول الشهوات .

قال الله تعالى : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ لما ذكر الله تعالى خروجه في زينته واختياله فيها وفخره على قومه بها قال : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ كما روى البخاري[١] من حديث الزهري عن سالم ، عن أبيه ، عن النبي ﷺ قال : « بَيْنَا رَجُلٌ يَجُرُّ إزارَهُ إذْ خُسِفَ بِهِ فَهُو يَتَجَلْجَلُ في الأرضِ إلى يَومِ القيامَةِ » ثمّ رواه البخاري[٢] من حديث جرير بن زيد ، عن سالم ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ ، نحوه .

وقد ذُكر عن ابن عباس والسُّدي أن قارون أعطى امرأة بغيّاً مالاً على أن تقول لموسى عليه السلام وهو في ملأٍ من الناس : إنّك فعلت بي كذا وكذا ، فيقال : إنّها قالت له ذلك ، فأرعد من الفرق ، وصلّى ركعتين ، ثمّ أقبل عليها فاستحلفها مَنْ دَلّكِ على ذلك وما حملك عليه ؟ فذكرت أن قارون هو الذي حملها على ذلك ، واستغفرت الله ، وتابت إليه ، فعند ذلك خرّ موسى لله ساجداً ، ودعا الله على قارون ، فأوحى الله تعالى إليه إني قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه ، فأمر موسى الأرض أن تبتلعه وداره ، فكان ذلك . فالله أعلم[٣] .

وقد قيل : إن قارون لما خرج على قومه في زينته مرّ بجحفله[٤] ، وبغاله ، وملابسه على مجلس موسى عليه السلام وهو يذكّر قومه بأيام الله ، فلما رآه الناس انصرفت وجوه كثير من الناس ينظرون إليه ، فدعاه موسى عليه السلام فقال له : ما حملك على هذا ؟ فقال : يا موسى أما لئن كنتَ فُضِّلت عليَّ بالنبوة فلقد فُضِّلتُ عليك بالمال ، ولئن شئت لتخرجن فلتدعُوَن عليّ ، ولأدعون عليك ، فخرج وخرج قارون في قومه ، فقال له موسى : تدعو أو أدعو ؟ قال : أدعو أنا ، فدعا قارون فلم يُجَب في موسى . فقال موسى : أدعو ؟ قال : نعم . فقال موسى : اللهم مُرِ الأرض فلتطعْني[٥] اليوم ، فأوحى الله تعالى إليه : إني قد فعلتُ ، فقال موسى : يا أرضُ خذيهم ، فأخذتهم إلى أقدامهم ، ثمّ قال : خذيهم ، فأخذتهم إلى ركبهم ، ثمّ إلى مناكبهم ، ثمّ قال : أقبلي بكنوزهم وأموالهم ، فأقبلت بها حتى نظروا إليها ، ثمّ أشار موسى بيده فقال : اذهبوا بني لاوي ، فاستوت بهم الأرض .

---

(١) صحيح البخاري رقم (٣٤٨٥) في الأنبياء ، باب (٥٤) .
(٢) صحيح البخاري رقم (٥٧٩٠) في اللباس ، باب من جرّ ثوبه خيلاء .
(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٩٥) .
(٤) في ب : بخيله .
(٥) في ب : فلتطعني . وهو أشبه .

وقد روي عن قتادة أنّه قال : يُخسف بهم كلَّ يوم قامةٌ إلى يوم القيامة . وعن ابن عباس أنّه قال : خُسف بهم إلى الأرض السابعة .

وقد ذكر كثير من المفسرين هاهنا إسرائيليات كثيرة ضربنا عنها صفحاً وتركناها قصداً .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ لم يكن له ناصر من نفسه ولا من غيره كما قال تعالى : ﴿ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ [الطارق : ١٠] ولمّا حلّ به ما حلّ من الخسف ، وذهاب الأموال ، وخراب الدار ، وإهلاك النفس والأهل والعقار ، ندم[1] من كان تمنى مثل ما أوتي ، وشكروا الله تعالى الذي يدبّر عباده بما يشاء من حسن التدبير المخزون ، ولهذا قالوا : ﴿ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ . وقد تكلّمنا على لفظ (ويك) في « التفسير »[2] ، وقد قال قتادة : (ويكأن) بمعنى : ألم ترَ أنّ ، وهذا قولٌ حسنٌ من حيثُ المعنى والله أعلم .

ثمّ أخبر تعالى ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ وهي دار القرار ، وهي الدار التي يُغْبَط من أُعطيها ، ويُعزّى من حُرمها إنّما هي معدّة ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ فالعلوُّ هو التكبُّر ، والفخر ، والأشر ، والبطر ﴿ وَلَا فَسَادًا ﴾ وهو عمل المعاصي اللاّزمة والمتعدّية من أخْذِ أموال الناس ، وإفساد معايشهم ، والإساءة إليهم ، وعدم النّصح لهم ، ثمّ قال تعالى : ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

وقصّة قارون هذه قد تكون قبل خروجهم من مصر ، لقوله : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ فإن الدار ظاهرة في البنيان ، وقد تكون بعد ذلك في التِيه ، وتكون الدار عِبارة عن المحلة التي تضرب فيها الخيام كما قال عنترة : [من الكامل]

يـا دارَ عَبْلَـةَ بـالجِـوَاءِ تكَلَّمـي وَعِمي صَباحاً دارَ عَبْلَةَ واسْلَمي[3]

والله أعلم .

وقد ذكر الله تعالى مذمّة قارون في غير ما آية من القرآن . قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٢٣ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر : ٢٣ ـ ٢٤] .

وقال تعالى في سورة العنكبوت ، بعد ذكر عاد وثمود وقارون وفرعون وهامان ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ۝٣٩ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ

---

(١) في ب : تدبّر .
(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٠١) .
(٣) من معلقته التي مطلعها : [من الكامل]
هَـلْ غـادَرَ الشعـراءُ مـن مُتَـرَدَّمِ أم هـلْ عـرفـتَ الـدارَ بعـدَ تـوَهُّـم
ديوانه (١٨٣) . والجِواء : موضع .

أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [٣٩ ـ ٤٠] .

فالذي خسف الله به الأرض قارون ـ كما تقدّم ـ والذي أغرق فرعون وهامان وجنودَهما أنّهم كانوا خاطئين .

وقد قال الإمام أحمد(١) : حدّثنا أبو عبد الرحمن ، حدّثنا سعيد ، حدّثنا كعب بن علقمة ، عن عيسى ابن هلال الصَّدَفي(٢) ، عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ أنّه ذكر الصلاة يوماً فقال : « مَنْ حَافَظَ عَلَيْها كانَتْ لَهُ نُوْراً وبُرْهَاناً ونجاةً يومَ القِيامة ، ومَنْ لَم يُحَافِظْ عَلَيْها لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلاَ بُرْهانٌ ولا نَجَاةٌ ، وكانَ يَوْمَ القيامةِ مَعَ قَارُونَ وفِرْعَونَ وهامان وأُبَيِّ بنِ خَلَفٍ » . انفرد به أحمد ، رحمه الله .

***

باب
ذِكْر فضَائِل موسى عليه السّلام وَشمائِله وصفاته ووفاته(٣)

قال الله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٥١ ـ ٥٣] .

وقال تعالى : ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى ﴾ [الأعراف : ١٤٤] .

وتقدّم في « الصحيحين » عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا تُفَضِّلُوني عَلَى مُوسَى ، فإنّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ القيامَةِ فأكُونُ أوَّلَ مَنْ يفِيْقُ فأجِدُ مُوْسَى باطِشاً بِقائمةِ العَرْشِ فَلا أدْري أَصعِقَ فأفاقَ قَبْلي أمْ جُوزِي بِصَعْقَةِ الطُّوْرِ »(٤) . وقدَّمنا أنه مِنْ رسول الله ﷺ مِنْ باب الهَضْم والتواضع ، وإلاّ فهو صلوات الله وسلامُه عليه خاتم الأنبياء ، وسيّد ولد آدم في الدنيا والآخرة قطعاً جزماً لا يحتمل النقيض .

وقال تعالى : ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ إلى أن قال : ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء : ١٦٣ ـ ١٦٤] .

وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب : ٦٩] .

---

(١) في مسنده (٢/ ١٦٩) ، وهو حديث حسن .
(٢) الصدفي : نسبة إلى الصَّدِف ، بكسر الدال ، وهي قبيلة من حمير نزلت مصر . اللباب (٢/ ٢٣٦) .
(٣) في ط : باب فضائل . . . ووفاته .
(٤) تقدم تخريجه ص (٧١) .

قال الإمام أبو عبد الله البخاري : حدّثنا إسحاق[١] بن إبراهيم ، حدّثنا رَوح بن عبادة ، عن عوف ، عن الحسن ومحمد وخِلاس ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ مُوسَى كانَ رَجُلاً حَيِيّاً سِتِّيراً لا يَرَى جِلْدَهُ شَيْءٌ استحياءً منه ، فآذاهُ مَن آذاه مِن بني إسْرائيلِ ، فقالوا : ما يَسْتَتِرُ هذا التَّسَتُّرَ إلاّ مِن عَيْبٍ بِجِلْدِهِ إمّا بَرَصٌ وإما أُدْرَة[٢] وإمّا آفةٌ . وإنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أرادَ أنْ يُبَرِّأَهُ مِمَّا قالُوا لِموسى ، فَخَلاَ يَوْماً وَحْدَهُ ، فَوَضَعَ ثِيابَهَ عَلى الحَجَرِ ، ثُمَّ اغْتَسَلَ ، فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ عَلَى ثِيابِهِ لِيأْخُذَهَا ، وأنّ الحَجَرَ عَدَا بِثَوْبِهِ ، فأخَذَ مُوسى عَصَاهُ وطَلَبَ الحَجَرَ فَجَعَل يَقُولُ : ثَوبي حَجَرٌ ، ثوبي حَجَرٌ ، حَتّى انْتَهَى إلى مَلأٍ مِن بني إسْرائيل ، فَرَأَوْهُ عُرْياناً أَحْسَنَ ما خَلَقَ اللهُ وبرّأهُ[٣] مِمّا يَقُوْلُونَ . وقامَ الحجرُ فأخَذَ ثوبَهُ فَلَبِسَهُ وَطَفِقَ بالحجَرِ ضَرْباً بعصاهُ ، فواللهِ إنَّ بالحجَرِ لَنَدَباً مِنْ أَثَر ضَرْبِهِ ثلاثاً أوْ أرْبعاً أو خَمْساً[٤] ، قال : فذلك قولُه عز وجل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾[٥] .

وقد رواه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن شقيق ، وهمّام بن منبه ، عن أبي هريرة ، به[٦] .

وهو في « الصحيحين »[٧] من حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عنه ، به .

ورواه مسلم من حديث عبد الله بن شقيق العقيلي عنه[٨] .

قال بعض السلف : كان من وجاهته أنّه شفع في أخيه عند الله ، وطلب منه أن يكون معه وزيراً ، فأجابه الله إلى سُؤاله ، وأعطاه طَلِبَتَهُ ، وجعله نبياً كما قال : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ . ثم قال

---

(١) في ط : ابن .
وفي ب ، هنا ، خمسة أسطر كتبت بخط مخالف ، لخط الأصل ، وفيها نص مخالف لنص أ وط . وهو : (حدثنا إسحاق بن إبراهيم قال : حدثنا عبد الرزاق ، عن معمر ، عن همام بن منبه ، عن أبي هريرة ، عن النبي ـ ﷺ ـ قال : « كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة ، ينظر بعضهم إلى بعض ، وكان موسى ـ ﷺ ـ يغتسل وحده . فقالوا : والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر فذهب مرة يغتسل ، فوضع ثوبه على حجر ففر الحجر بثوبه ، فخرج موسى في إثره يقول : ثوبي يا حجر حتى نظرت بنو إسرائيل إلى موسى وقالوا : والله ما بموسى من بأس . وأخذ ثوبه ، فطفق بالحجر ضرباً » . قال أبو هريرة : والله إنه لندب بالحجر ستة أو سبعة ضرباً بالحجر) .
وهذا الحديث رواه البخاري (١/ ٣٨٥) ، في الغسل ، باب من اغتسل عرياناً وحده . وهو فيه عن إسحاق بن نصر عن عبد الرزاق .

(٢) في ط : أو . والأدرة ، بضم الهمزة وسكون الدال ، وقيل بفتحتين : نفخة في الخصية .

(٣) كذا في ط . وفي أ : وأبرأه وهذا مما زاده ابن كثير هنا في النص وليس في لفظ البخاري .

(٤) نهاية الخلاف مع ب .

(٥) أخرجه البخاري : برقم (٣٤٠٤) في الأنبياء ، باب (٢٨) .

(٦) المسند (٢/ ٥١٤ ـ ٥١٥) .

(٧) رواه البخاري رقم (٢٧٨) ومسلم برقم (٣٣٩) في الحيض ، باب جواز الاغتسال عرياناً في الخلوة .

(٨) في أحاديث الأنبياء من صحيحه (٣٣٩) (١٥٦) .

البخاري[١] : حدّثنا أبو الوليد ، حدّثنا شعبة ، حدّثنا الأعمش : سألت أبا وائل قال سمعت عبد الله قال : قَسَم رسول الله ﷺ قسماً ، فقال رجل : إنّ هذه قِسْمةٌ ما أُريد بها وجه الله ، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته ، فغضب حتى رأيت الغضب في وجهه . ثم قال : « يَرْحَمُ اللهُ مُوسى ، قَدْ أوْذِيَ بأكْثَرَ مِنْ هذا فَصَبَرَ » . وكذا رواه مسلم[٢] من غير وجه عن سليمان بن مهران الأعمش ، به .

وقال الإمام أحمد : حدّثنا حجاج[٣] ، سمعت إسرائيل بن يونس ، عن الوليد بن أبي هشام مولى لهمْدان ، عن زيد بن أبي زائد ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « لا يُبَلِّغْنِي أَحَدٌ عَنْ أحَدٍ شَيْئاً فإنّي أُحِبُّ أنْ أَخْرُجَ إلَيْكُم وَأنا سَلِيْمُ الصَّدْرِ » . قال وأتى رسولَ اللهِ ﷺ مالٌ فقسمه ، قال : فمررتُ برجلين وأحدهما يقول لصاحبه : والله ما أراد محمدٌ بقسمته وجه الله ولا الدارَ الآخرة ، فثبتُّ حتى سمعتُ ما قالا . ثمّ أتيت رسولَ الله فقلت : يا رسول الله إنّك قلتَ لنا : « لا يُبَلّغُني أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ مِنْ أصْحَابي شَيْئاً » وإني مررتُ بفلان وفلان وهما يقولان كذا وكذا . فاحمرَّ وجهُ رسول الله ﷺ وشقّ عليه . ثمّ قال : « دعْنا مِنْكَ فَقَدْ أوْذِيَ مُوسَى أكْثَرَ مِنْ ذلكَ فَصَبَرَ »[٤] .

وهكذا رواه أبو داود والترمذي[٥] من حديث إسرائيل ، عن الوليد بن أبي هاشم ، به . وفي رواية للترمذي[٦] ولأبي داود[٧] من طريق ابن العبد ، عن إسرائيل ، عن السُّدّي ، عن الوليد ، به . وقال الترمذي : غريب من هذا الوجه .

وقد ثبت في « الصحيحين » في أحاديث الإسراء أن رسول الله ﷺ مر بموسى وهو قائم يصلي في قبره . ورواه مسلم عن أنس .

وفي « الصحيحين »[٨] من رواية قتادة عن أنس ، عن مالك بن صعصعة ، عن النبي ﷺ أنّه مرّ ليلة أُسْرِي به بموسى في السماء السادسة ، فقال له جبريل : هذا موسى فسلِّم عليه ، قال : « فَسَلَّمْتُ عَلَيْه ، فَقَال : مَرْحَباً بالنبي الصَّالح والأخ الصَّالِح ، فَلَمَّا تجاوَزْتُ بَكَى ، قيلَ له : ما يُبْكِيك ؟ قالَ : أبْكي لأنَّ غُلاماً بُعِثَ بَعْدي يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ أمَّتهِ أكْثَرُ مما يَدْخُلها من أمّتي » ، وذكر إبراهيم في السماء السابعة .

---

(١) صحيح البخاري (٣٤٠٥) في الأنبياء ، باب (٢٨) .
(٢) صحيح مسلم رقم (١٠٦٢) في الزكاة ، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه .
(٣) في ط : أحمد بن حجاج .
(٤) المسند (١/٣٩٦) .
(٥) أخرجه أبو دواد رقم (٤٨٦٠) في الأدب ، باب رفع الحديث من المجلس ، والترمذي برقم (٣٨٩٧) في المناقب ، باب فضل أزواج النبي ﷺ .
(٦) الترمذي (٣٨٩٦) في المناقب أيضاً .
(٧) ينظر تحفة الأشراف ، حديث (٩٢٢٧) .
(٨) أخرجه البخاري (٣٢٠٧) في بدء الخلق ، ومسلم (١٦٤) (٢٦٤) في الإيمان .

وهذا هو المحفوظ ، وما وقع في حديث شريك بن أبي نمر عن أنس ، من أن إبراهيم في السادسة ، وموسى في السابعة ، بتفضيل كلام الله ، فقد ذكر غير واحد من الحفّاظ أن الذي عليه الجادة أن موسى في السادسة ، وإبراهيم في السابعة ، وأنه مسندٌ ظهره إلى البيت المعمور الذي يدخله كلَّ يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثمّ لا يعودون إليه آخر ما عليهم[١] .

واتفقت الروايات كلّها على أن الله تعالى لما فرض على محمد ﷺ وأمته خمسين صلاةً في اليوم والليلة ، فمرّ بموسى قال : ارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك فإني قد عالجت بني إسرائيل قبلك أشدّ المعالجة ، وإن أمتك أضعف أسماعاً ، وأبصاراً ، وأفئدة ، فلم يزل يترددُ بين موسى وبين الله عزّ وجلّ ويخفّف عنه كل مرة حتى صارت إلى خمس صلوات في اليوم والليلة ، وقال الله تعالى : هي خمس وهي خمسون ، أي بالمضاعفة ، فجزى الله عنا محمداً ﷺ خيراً . وجزى الله عنا موسى عليه السلام خيراً .

وقال البخاري[٢] : حدّثنا مُسَدَّد ، حدّثنا حُصَين بن نمير ، عن حُصين بن عبد الرحمن ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : خرج علينا رسول الله ﷺ يوما فقال : « عُرِضَتْ عَلَيّ الأُمَمُ وَرَأَيْتُ سَواداً كَثيراً سَدَّ الأُفُقَ ، فَقِيلَ : هذا مُوسَى في قَوْمه » . هكذا روى[٣] البخاري هذا الحديث هاهنا مختصراً .

وقد رواه الإمام أحمد مطولاً فقال : حدّثنا سَريج ، حدّثنا هشيم[٤] ، حدّثنا حُصين بن عبد الرحمن ، قال : كنت عند سعيد بن جُبير فقال : أيُّكم رأى الكوكبَ الذي انقضَّ البارحة ؟ قلت : أنا ، ثم قلت : إني لم أكن في صلاة ولكن لُدغت . قال : وكيف فعلت ؟ قلت : اسْتَرْقَيْتُ . قال : وما حملك على ذلك ؟ قال : قلت : حديثٌ حدَّثناه الشعبي عن بُريدة الأسلمي أنه قال : « لا رُقْيَةَ إلاَّ مِنْ عَيْنٍ أَوْ حمّةٍ » . فقال سعيد ـ يعني ابنَ جُبير ـ قد أحسن مَنِ انتهى إلى ما سمع . ثمّ قال : حدّثنا ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ ، وَالنبي ومعه الرَّجُل والرجلان ، والنّبي وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ ، إذْ رُفع لي سَوَادٌ عَظِيْمٌ ، فَقُلْتُ : هذِهِ أُمّتي ؟ فقيلَ : هذا مُوسى وقومُه ، ولكِنِ انْظُرْ إلى الأفقِ فإذا سَوَادٌ عَظِيْمٌ . ثُمَّ قِيلَ : انظُرْ إلى هذا الجانبِ فإذا سَوَادٌ عَظِيْمٌ ، فقيلَ : هذه أُمّتُكَ وَمَعَهُم سَبْعُون ألفاً يَدْخُلُونَ الجنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ ولا عَذَابٍ » . ثمّ نهض رسول الله ﷺ فَدَخَلَ ، فخاض القوم في ذلك فقالوا : مَن هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذابٍ ؟ فقال بعضهم : لعلّهم الذين صحبوا النبي ﷺ .

---

(١) حديث شريك في البخاري (٧٥١٧) في التوحيد ، وهذا واحد من الأخطاء التي أخطأ فيها شريك في هذا الحديث ، وبينها الحافظ ابن حجر في الفتح .

(٢) صحيح البخاري (٣٤١٠) في الأنبياء ، و(٥٧٥٢) في الطب .

(٣) في ب : رواه .

(٤) في ط : هشام ، وهو تحريف .

وقال بعضهم : لعلّهم الذين وُلدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئاً قطُّ ، وذكروا أشياء . فخرج إليهم رسول الله ﷺ فقال : « ما هذا الذي كُنْتُم تَخُوضُوْنَ فيه » ؟ فأخبروه بمقالتهم ، فقال : « هُمُ الذينَ لا يَكْتَوُوْنَ وَلا يَسْتَرْقُوْنَ وَلاَ يَتَطَيَّرُوْنَ وَعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُوْنَ » ، فقام عُكاشة بن مِحْصَن[١] الأسدي فقال : أنا منهم يا رسولَ الله ؟ قال : « أَنْتَ مِنْهُم » . ثم قام آخر فقال : أنا منهم يا رسول الله ؟ فقال « سبَقَكَ بها عُكَاشَةُ »[٢] .

وهذا الحديث له طرق كثيرة جداً ، وهو في الصحاح والحسان وغيرها ، وسنوردها إن شاء الله تعالى في باب صِفَة الجنة عند ذكر أحوال القيامة وأهوالها[٣] .

وقد ذكر الله تعالى موسى عليه السلام في القرآن كثيراً ، وأثنى عليه وأورد قصته في كتابه العزيز مراراً وكررها كثيراً ، مطولة ومبسوطة ومختصرة ، وأثنى عليه بليغاً . وكثيراً ما يقرنه الله تعالى ويذكره ، ويذكر كتابه مع محمد ﷺ وكتابه ، كما قال في سورة البقرة ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٠١] .

وقال الله تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ [آل عمران : ١ ـ ٤] .

وقال تعالى في سورة الأنعام : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ۝٩١ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [الآيتان : ٩١ ـ ٩٢] .

فأثنى تعالى على التوراة ، ثمّ مدح القرآن العظيم مدحاً عظيماً ، وقال تعالى في آخرها : ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝١٥٤ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [١٥٤ ـ ١٥٥] .

وقال تعالى في سورة المائدة : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا

---

(١) في ط : محيصن . وعكاشة بن محصن بن حرثان الأسدي ، صحابي من أمراء السرايا . استشهد في حروب الردة . الإصابة (٢/ ٤٩٤) ترجمة رقم (٥٦٣٢) والأعلام (٤/ ٢٤٤) .

(٢) مسند أحمد (١/ ٢٧١) ، وفيه اختلاف يسير بالألفاظ .

(٣) في النهاية من هذا الكتاب . وتخريجه ثمة .

تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ إلى أن قال : ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ . . . ﴾ [الآية : ٤٤ ـ ٤٨] . فجعل القرآن حاكماً على سائر الكتب غيره ، وجعله مصدِّقاً لها ومبيناً ما وقع فيها من التحريف والتبديل ، فإن أهل الكتاب استُحفِظوا على ما بأيديهم من الكتب فلم يقدروا على حفظها ، ولا على ضبطها وصونها ، فلهذا دخلها ما دخلها من تغييرهم وتبديلهم لسوء فهومهم ، وقصورهم في علومهم ، ورداءة قصودهم ، وخيانتهم لمعبودهم ، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة . ولهذا يوجد في كتبهم من الخطأ البيّن على الله وعلى رسله ما لا يحدُّ ولا يوصف ، وما لا يوجد مثله ولا يعرف .

وقال تعالى في سورة الأنبياء : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ [الآيات : ٤٨ ـ ٥٠] .

وقال الله تعالى في سورة القَصص : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [الآيتان : ٤٨ ـ ٤٩] . فأثنى الله على الكتابين وعلى الرسولين ، عليهما السلام .

وقالت الجن لقومهم : إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى . وقال ورقة بن نوفل لما قصَّ عليه رسول الله ﷺ خبر ما رأى من أول[١] الوحي ، وتلا عليه ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١ ـ ٥] قال : سُبُّوحٌ سبوح ، هذا الناموس الذي أنزل على موسى بن عمران .

وبالجملة فشريعة موسى عليه السلام كانت عظيمة[٢] ، وأمته كانت أمّة كثيرة ، ووجد فيهم أنبياء وعلماء وعبّاد وزهاد[٣] وملوك وأمراء وسادات وكبراء . لكنّهم كانوا فبادوا ، وتبدّلوا كما بُدِّلت شريعتهم ، ومُسخوا قِردة وخنازير ، ثمّ نسخت بعد كل حساب ملّتهم ، وجرت عليهم خطوب وأمور يطول ذكرها ، ولكن سنورد ما فيه مَقنع لمن أراد أن يبلغه خبرها إن شاء الله . وبه الثقة وعليه التُّكلان .

* * *

(١) السيرة النبوية (١/ ٢٣٨) .

(٢) في ب : كانت شريفة عظيمة .

(٣) زاد في ب هنا : وأولياء . وفي ط : وألباء .

ذكر
حجّته علَيه السلام إلى البَيت العتيق[١]

قال الإمام أحمد : حدّثنا هُشَيم[٢] ، حدّثنا داود بن أبي هند ، عن أبي العالية ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ مر بوادي الأزرق فقال : « أيُّ وادٍ هذا » ؟ قالوا : وادي الأَزرق . قال : « كأنّي أَنْظُرُ إلى مُوْسَى وَهُوَ هابِطٌ مِنَ الثَّنِيَّةِ وَلَهُ جُؤارٌ إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بالتَّلْبِيَةِ » حَتَّى أتى على ثنيَّة هَرْشَى . فقال : « أيُّ ثَنِيَّةٍ هذِهِ » ؟ قالوا : هذه ثنيّة هَرْشَى . قال : « كأنّي أَنْظُرُ إلى يُوْنُس بنِ مَتَّى عَلَى ناقَةٍ حَمْراءَ ، عَلَيْهِ جُبَّةٌ مِنْ صُوْفٍ ، خِطَامُ ناقَتِهِ خلبةٌ » . قال هُشيم : يعني ليفاً ، « وهو يلبِّي »[٣] .

وأخرجه مسلم[٤] من حديث داود بن أبي هند ، به .

وروى الطبراني[٥] عن ابن عباس مرفوعاً أن موسى حج على ثور أحمر . وهذا غريب جداً .

وقال الإمام أحمد[٦] : حدّثنا محمد بن أبي عدي ، عن ابن عون ، عن مجاهد قال : كنا عند ابن عباس ، فذكروا الدجّال ، فقال : إنه مكتوب بين عينيه (ك ف ر) قال : ما يقولون ؟ قال : يقولون : مكتوب بين عينيه (ك ف ر) ، فقال ابن عباس : لم أسمعه قال ذلك ولكن قال : أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم ، وأما موسى فرجل آدم جعد الشعر على جملٍ أحمرَ مَخْطوم بخُلْبة ، كأني أنظر إليه وقد انحدر من الوادي يلبِّي .

قال هشيم : الخُلْبَةُ : الليف .

ثمّ رواه الإمام أحمد[٧] ، عن أسود ، عن إسرائيل ، عن عثمان بن المغيرة ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيتُ عِيْسَى بنَ مَرْيَمَ ومُوسى وإبراهيمَ ، فأمّا عِيْسَى فأبْيَضُ جَعْدٌ عَرِيْضُ الصَّدْرِ . وأمّا مُوْسَى فآدَمُ جَسِيْمٌ » . قالُوا : فإبراهيمُ ؟ قال : « انظروا إلى صاحبكم » .

وقال الإمام أحمد : حدّثنا يونس ، حدّثنا شيبان قال : حدّث قتادة ، عن أبي العالية ، حدّثنا ابنُ عَمّ

---

(١) في ب : ذكر حج موسى . . . وصفته . وفي ط : حجته . . .
(٢) في ط : هشام ، خطأ بيّن .
(٣) مسند أحمد (١/ ٢١٥ ـ ٢١٦) . وفي النهاية لابن الأثير (٥/ ٢٦٠) ، ثنية هرشى : هي ثنية بين مكة والمدينة ، وقيل : هرشى جبل قرب الجحفة .
(٤) صحيح مسلم رقم (١٦٦) (٢٦٩) في الإيمان ، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات ، وفرض الصلوات .
(٥) المعجم الكبير (١٢٥١٠) وفي إسناده ليث بن أبي سليم ضعيف .
(٦) في مسنده (١/ ٢٧٧) .
(٧) المسند (١/ ٢٩٦) .

نبيّكم ابنُ عباس قال : قال نبي الله ﷺ : « رأيتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بي مُوْسَى بنَ عِمْرانَ رَجُلاً طوالاً جَعْداً كأنهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ ، ورَأيتُ عِيْسَى بنَ مَرْيم مَرْبُوعَ الخَلْقِ إلى الحُمْرَةِ والبَياضِ ، سَبطَ الرأسِ »(١) .

وأخرجاه(٢) من حديث قتادة ، به .

وقال الإمام أحمد : حدّثنا عبد الرزاق ، حدّثنا مَعْمَر ، قال الزُّهري : وأخبرني سعيد بن المسيِّب ، عن أبي هُريرة قال : قال رسول الله ﷺ : حينَ أُسْرِيَ به : « لقيتُ مُوسَى » فَنعَتَهُ . فقالَ رَجُلٌ قالَ حسِبْتُه قال : مُضْطَرِبَ ـ يعني طويلاً ـ رَجْلَ الرأس ، كأنه من رجال شَنُوءةَ . « وَلَقِيْتُ عِيْسَى » . فَنَعَتَهُ رسولُ الله ﷺ فقال : « رَبعةٌ أحمر كأنّما خَرَجَ مِنْ دِيماسٍ » يعني : حماماً . قال : « ورأيتُ إبْراهِيْمَ وأنا أشْبَهُ وَلَدِهِ به » . . الحديث(٣) .

وقد تقدَّم غالبُ هذه الأحاديث في ترجمة الخليلِ(٤) .

***

ذكر
وفاته عليه السّلام

قال البخاري في « صحيحه » : (وفاة موسى عليه السلام) .

حدّثنا يحيى بن موسى ، حدّثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن ابن طاووس ، عن أبيه ، عن أبي هريرة قال : أُرسِل مَلَكُ الموتِ إلى موسى عليه السلام فلما جاءه صَكَّهُ(٥) . فرجع إلى ربّه عز وجل فقال : أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت ، قال : ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور ، فله بما غطّت يدُه بكلِّ شعرة سَنة . قال : أيْ رب ، ثمّ ماذا ؟ قال : ثمّ الموت . قال : فالآن ، قال : فسأل اللهَ عزَّ وجَلَّ أن يدنيه من الأرض المقدّسة رميةً بِحَجر . قال أبو هريرة فقال رسول الله ﷺ « فَلو كُنْتُ ثَمَّ لأَرَيْتُكُم قَبْرَهُ إلى جَانِبِ الطَّرِيْقِ عِنْدَ الكَثِيْبِ الأحْمَرِ »(٦) .

قال : وأخبرنا معمر ، عن همّام ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ نحوه .

---

(١) المسند (١/ ٢٤٥) . والسبط هو المسترسل ، ليس فيه تكسر .

(٢) صحيح مسلم رقم (١٦٥) في الإيمان ، باب الإسراء برسول الله ﷺ وهو عند البخاري : برقم (٣٤٣٠) في الأنبياء ، باب قول الله تعالى ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ ﴾ من حديث مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٣) المسند (٢/ ٢٨٢) .

(٤) في الجزء الأول من هذا الكتاب .

(٥) صكّه : ضربه ودفعه .

(٦) صحيح البخاري رقم (٣٤٠٧) في الأنبياء ، باب وفاة موسى وذكره بعده .

وقد روى مسلم[١] الطريق الأول من حديث عبد الرزاق ، به .

ورواه الإمام أحمد من حديث حماد بن سلمة ، عن عمار بن أبي عمار ، عن أبي هريرة مرفوعاً ، وسيأتي[٢] .

وقال الإمام أحمد : حدّثنا الحسن ، حدّثنا ابن لَهِيْعَة ، حدّثنا أبو يونس ـ يعني سليم بن جبير ـ عن أبي هريرة . قال الإمام أحمد : لم يرفعه . قال : جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام فقال : أجب ربك . فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها . فرجَع الملك إلى الله عز وجل فقال : إنك بعثتني إلى عبد لك لا يريد الموت . قال : وقد فقأ عيني . قال : فرد الله عينَه وقال : ارجع إلى عبدي فقل له ألحياةَ تُريد ؟ فإنْ كنتَ تريدُ الحياةَ فضع يدَكَ على متن ثور فما وارت يدك من شعرة فإنك تعيش بها سنة . قال : ثمّ مَهْ ؟ قال : ثمّ الموت . قال : فالآن يا ربِّ من قريب . تفرّد به أحمد[٣] ، هو موقوف بهذا اللفظ .

وقد رواه ابن حِبان في « صحيحه »[٤] من طريق معمر ، عن ابن طاووس ، عن أبيه ، عن أبي هريرة . قال معمر : وأخبرني من سمع الحسن عن رسول الله ، فذكره ، ثمّ استشكله ابن حِبّان ، وأجاب عنه بما حاصله : أن ملك الموت لما قال له هذا لم يعرفه لمجيئه له على غير صورة يعرفها موسى عليه السلام كما جاء جبريل في صورة أعرابي ، وكما وردت الملائكة على إبراهيم ولوط في صورة شباب فلم يعرفهم إبراهيم ولا لوط أولاً ، وكذلك موسى لعلّه لم يعرفه لذلك ولطمه ففقأ عينه ؛ لأنه دخل داره بغير إذنه . وهذا موافق لشريعتنا في جواز فقء عين من نظر إليك في دارك بغير إذن[٥] .

ثمّ أورد الحديث من طريق عبد الرزاق عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « جاءَ مَلَكُ المَوْتِ إلى مُوسَى لِيَقْبِضَ رُوحَه قال له: أَجِبْ رَبَّك. فَلَطَم مُوسى عينَ مَلَكِ المَوْتِ فَفَقَأَ عَيْنَه » ، وذكر تمام الحديث كما أشار إليه البخاري ، ثمّ تأوّله على أنه لما رفع يده ليلطمه قال له : أجب ربّك ، وهذا التأويل لا يتمشّى على ما ورد به اللفظ من تعقيب قوله : أجب ربك ، بلطمه ولو استمر على الجواب الأول لتمشّى له وكأنّه لم يعرفه في تلك الصورة ، ولم يحمل قوله هذا على أنّه مطابق إذ لم يتحقق في الساعة الراهنة أنّه ملَك كريم ؛ لأنه كان يرجو أموراً كثيرة كان يحب وقوعها في حياته من خروجهم من التيه ، ودخولهم الأرض المقدّسة ، وكان قد سبق في قدر[٦] الله

---

(١) صحيح مسلم رقم (٢٣٧٢) في الفضائل ، باب فضائل موسى ﷺ .

(٢) وهو في المسند (٢/ ٢٦٩) .

(٣) المسند (٢/ ٣٥١) .

(٤) ابن حبان (٦٢٢٤) .

(٥) قوله : وهذا موافق . . . بغير إذن . سقط من ب .

(٦) في ط : « قدرة » . والحديث ذكره التبريزي في مشكاة المصابيح برقم (٥٧١٣) . وقال : متفق عليه .

أنّه عليه السلام يموت في التيه بعد هارون أخيه ، كما سنبينه إن شاء الله تعالى .

وقد زعم بعضهم أن موسى عليه السلام هو الذي خرج بهم من التيه ودخل بهم الأرض المقدّسة . وهذا خلاف ما عليه أهل الكتاب وجمهور المسلمين . ومما يدلّ على ذلك قوله لما اختار الموتَ : ربّ أدنني إلى الأرض المقدّسة رميةً بحجر . ولو كان قد دخلها لم يسأل ذلك ، ولكن لما كان مع قومه بالتيه وحانت وفاته عليه السلام أحبَّ أن يتقرّب إلى الأرض التي هاجر إليها ، وحثّ قومه عليها ، ولكن حال بينهم وبينها القدر رميةً بحجر ، ولهذا قال سيد البشر ، ورسول الله إلى أهل الوبر والمدر[١] : « فلو كُنْتُ ثَمَّ لأَرَيْتُكُم قَبْرَهُ عِنْدَ الكَثِيْبِ الأَحْمَرِ » .

وقال الإمام أحمد : حدّثنا عفان ، حدّثنا حمّاد ، حدّثنا ثابت وسليمان التَّيْمي ، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « لما أُسْرِي بي مَرَرْتُ بموسَى وهُو قائِمٌ يُصَلّي في قَبْرِهِ عِنْدَ الكَثِيْبِ الأَحْمَرِ »[٢] .

ورواه مسلم من حديث حمّاد بن سلمة[٣] ، به .

وقال السدّي عن أبي مالك وأبي صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرّة عن ابن مسعود ، وعن ناسٍ من الصحابة قالوا: ثم إن الله تعالى أوحى إلى موسى: إني متوفٍّ هارون فائْتِ به جبل كذا وكذا. فانطلق موسى وهارون نحو ذلك الجبل فإذا هم بشجرة لم يُرَ شجرةٌ مثلها، وإذا هم ببيتٍ مبني، وإذا هم بسريرٍ عليه فرش، وإذا فيه ريحٌ طيبةٌ، فلما نظر هارون إلى ذلك الجبل والبيت وما فيه أعجبه ، قال يا موسى إني أحب أن أنام على هذا السرير ، قال له موسى : فنم عليه قال : إني أخاف أن يأتي رب هذا البيت فيغضب عليّ ، قال له : لا ترهب ، أنا أكفيك ربَّ هذا البيت ، فنم . قال : يا موسى نم معي فإن جاء ربّ هذا البيت غضب عليّ وعليك جميعاً . فلما ناما أخذ هارونَ الموتُ فلما وجدَ حسّه قال : يا موسى خدعتني . فلما قُبض رُفع ذلك البيت، وذهبت تلك الشجرة، ورفع السرير به إلى السماء ، فلما رجع موسى إلى قومه وليس معه هارون قالوا : فإن موسى قتل هارون ، وحسده حب بني إسرائيل له ، وكان هارون أكفَّ عنهم وألينَ لهم من موسى ، وكان في موسى بعضُ الغلظة عليهم ، فلما بلغه ذلك قال لهم : ويحكم كان أخي أفتروني أقتله ؟ فلما أكثروا عليه ، قام فصلّى ركعتين ثمّ دعا اللهَ فنزل السريرُ حتى نظروا إليه بين السماء والأرض .

ثمّ إن موسى عليه السلام بينما هو يمشي ويوشَع فتاه إذ أقبلت ريح سوداء فلما نظر إليها [يوشع][٤] ظن أنها الساعة ، فالتزم موسى وقال : تقوم الساعة وأنا ملتزم موسى نبيّ الله ، فاستل[٥] موسى عليه السلام

---

(١) المدر : الطين اليابس . ويراد به أهل المدينة الذين يبنون بيوتهم به .
(٢) المسند (٣/ ٢٤٨) .
(٣) صحيح مسلم رقم (٢٣٧٥) في الفضائل ، باب من فضائل موسى ﷺ .
(٤) زيادة من ط ، وتاريخ الطبري .
(٥) في ب : فانسل .

من تحت القميص ، وترك القميص في يدي يوشع . فلما جاء يوشع بالقميص أخذته بنو إسرائيل وقالوا : قتلت نبي الله ؟ فقال : لا والله ما قتلته ولكنه استل مني . فلم يصدّقوه وأرادوا قتله ، قال : فإذا لم تصدقوني فأخّروني ثلاثة أيام ، فدعا الله ، فأُتي كلّ رجلٍ ممن كان يحرسه في المنام ، فأُخبر أن يوشع لم يقتل موسى ، وإنّا قد رفعناه إلينا ، فتركوه ولم يبق أحد ممن أبى أن يدخل قرية الجبارين مع موسى إلا مات ، ولم يشهد الفتح[١] .

وفي بعض هذا السياق نكارة وغرابة والله أعلم .

وقد قدّمنا أنه لم يخرج أحد من التيه ممن كان مع موسى سوى يوشع بن نون ، وكالب بن يوقنا ، وهو زوج مريم أخت موسى وهارون ، وهما الرجلان المذكوران فيما تقدم ، اللذان أشارا على ملأ بني إسرائيل بالدخول عليهم .

وذكر وهب بن منبه أن موسى عليه السلام مرّ بملأٍ من الملائكة يحفرون قبراً ، فلم يَرَ أحسن منه ، ولا أنضر ، ولا أبهج ، فقال : يا ملائكةَ الله لمن تحفرون هذا القبر ؟ فقالوا : لعبد من عباد الله كريم ، فإن كنت تحب أن تكون هذا العبد فادخل هذا القبر ، وتمدد فيه ، وتوجّه إلى ربك ، وتنفَّس أسهل تنفسٍ ، ففعل ذلك فمات صلوات الله وسلامه عليه فَصَلَّتْ عليه الملائكة ودفنوه[٢] .

وذكر أهل الكتاب وغيرُهم أنه مات وعمره مئة وعشرون سنةً .

وقد قال الإمام أحمد[٣] : حدّثنا أمية بن خالد ويونس قالا : حدّثنا حمّاد بن سلمة، عن عمار بن أبي عمار، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال يونس : رفع هذا الحديث إلى النبي ﷺ قال : « كان مَلَكُ الموتِ يأتي الناسَ عِياناً ، قال : فأتى مُوسَى عَليه السلامُ ، فَلَطَمَهُ فَفَقَأَ عَيْنَهُ ، فأتى رَبَّه فقال : يا رَبِّ عَبْدُكَ مُوسَى فَقَأَ عَيْني ولولا كَرامَتُهُ عَلَيْكَ لَعَتِبْتُ عَلَيْه[٤] » . وقال يونس : « لشققتُ عليه » . قال له : « اذْهَب إلى عَبدي ، فَقُلْ لَه فَلْيَضَع يَدَه على جلد (أو مسْك) ثور فَلَه بكُل شَعْرَةٍ وَارَتْ يَدُهُ سَنَةٌ ، فأتاه فقال له ، فقال : ما بعد هذا ؟ قال : الموت . قال : فالآن . قال : فشمه شمة فَقَبَضَ رُوْحَه » . قال يونس : فردّ الله عليه عينه ، وكان يأتي الناس خفية .

وكذا رواه ابن جرير[٥] عن أبي كريب عن مُصعب بن المقدام عن حمّاد بن سلمة ، به ، فرفعه أيضاً[٦] .

---

(١) تاريخ الطبري (١/ ٤٣٢ ـ ٤٣٣) .
(٢) تاريخ الطبري (١/ ٤٣٣) .
(٣) في المسند (٢/ ٥٣٣) .
(٤) هكذا في الأصول ، وفي مسند أحمد : « لعَنَّفْتُ به » وهو أحسن .
(٥) في تاريخه (١/ ٤٣٤) .
(٦) في هذا الحديث مقال من وجهين : الأول أنه قد اختلف في رفعه ووقفه ، والثاني : نكارة عبارة : «كان ملك الموت يأتي الناس عياناً» وهي مما تفرد بها حماد بن سلمة عن عمار بن أبي عمار ، ولكل من هذين الراويين بعض ما يُستنكر كما هو معروف من ترجمتيهما .

ذكر
نبوّة يوشع وقيامه بأعبَاء بني إسرَائيل بعد موسى وهارون عليهم السلام[١]

هو يوشع بن نون بن أفراييم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام[٢] .

وقد ذكره الله تعالى في القرآن غيرَ مُصرّح باسمه في قصّة الخضرِ ، كما تقدم من قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ ﴾ ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ﴾ وقدّمنا[٣] ما ثبت في الصحيح من رواية أُبي بن كعب رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ : من أنه يوشع بن نون ، وهو متفق على نبوّته عند أهل الكتاب ، فإن طائفة منهم ـ وهم السامرة ـ لا يقرّون بنبوّة أحدٍ بعد موسى إلا يوشع بن نون ، لأنه مصرّح به في التوراة ، ويكفرون بما وراءه ، وهو الحق من ربّهم ، فعليهم لعائن الله البالغة[٤] إلى يوم القيامة .

وأما ما حكاه ابن جرير وغيره من المفسرين ، عن محمد بن إسحاق من أن النبوة[٥] حُولت من موسى إلى يوشع في آخر عمر موسى ، فكان موسى يلقى يوشَع فيسأله ما أحدث الله من الأوامر والنواهي حتى قال له : يا كليم الله ، إني كُنت لا أسألك عما يوحي الله إليك حتى تخبرني أنت ابتداءً من تلقاء نفسك ، فعند ذلك كره موسى الحياة وأحب الموت[٦] ، ففي هذا نظر ، لأن موسى عليه السلام لم يزل الأمر ، والوحي ، والتشريع ، والكلام من الله إليه من جميع أحواله حتى توفّاه الله عزّ وجلّ ، ولم يزل معزّزاً مكرّماً مدلّلاً وجيهاً عند الله ، كما قدّمنا في الصحيح من قصّة فقْئه عَين مَلك الموت ، ثمَّ بعثه الله إليه إن كان يريد الحياة فليضع يده على جلد ثور فله بكلِّ شعرة وارَتْ يدُه سنةٌ يعيشها ، قال : ثمّ ماذا ؟ قال : الموت . قال : فالآن يا رب . وسأل الله أن يُدنيه إلى بيت المقدس رميةً بحجر ، وقد أجيب إلى ذلك صلوات الله وسلامه عليه[٧] .

فهذا الذي ذكره محمد بن إسحاق إن كان إنّما يقوله من كتب أهل الكتاب ، ففي كتابهم الذي يسمونه التوراة : أن الوحي لم يزل ينزل على موسى في كلّ حينٍ يحتاجون إليه إلى آخر مدّة موسى ، كما هو المعلوم من سياق كتابهم عند تابوت الشهادة في قبّة الزمان .

---

(١) قوله : ذكر عليهم السلام ليس في ط . وفي ب : عليهما . .
(٢) زاد في ب : وأهل الكتاب يقولون : يشوع بن عم هود . وفي ط : وأهل كتاب . . . يوشع بن عم هود .
(٣) ص (٨٦) من هذا الجزء . في (ذكر قصة موسى والخضر) .
(٤) في ط : المتتابعة .
(٥) زاد في أ هنا : من أن التوراة .
(٦) تاريخ الطبري (١/ ٤٣٣) وما بعدها .
(٧) هكذا في الأصل، وهذه القطعة التي أشار إليها المصنف ليست في صحيح البخاري وإنما تفرد بها مسلم من حديث سليمان التيمي عن أنس فأخرجها في أحاديث الأنبياء من صحيحه (٢٣٧٥)، فلعل صواب العبارة: « وقد ثبت في الصحيح في أحاديث الإسراء أن رسول الله ﷺ مر بموسى وهو قائم يصلي في قبره؛ رواه مسلم عن أنس » ، وإلا فإن ما ذكر غير صحيح .

وقد ذكروا في السفر الثالث(١) : أن الله أمر موسى وهارون أن يعدّا بني إسرائيل على أسباطهم ، وأن يجعلا على كلّ سبطٍ من الاثني عشر أميراً ـ وهو النقيب ـ(٢) وما ذاك إلّا ليتأهبوا للقتال قتال الجبارين عند الخروج من التيه ، وكان هذا عند اقتراب انقضاء الأربعين سنةً . ولهذا قال بعضهم : إنما فقأ موسى عليه السلام عين ملَك الموت لأنه لم يعرفه في صورته تلك ، ولأنه كان قد أُمر بأمر كان يرتجي وقوعه في زمانه ، ولم يكن في قَدَر الله أن يقع ذلك في زمانه بل في زمان فتاه يوشع بن نون عليه السلام ، كما أن رسول الله ﷺ كان قد أراد غزو الروم بالشام ، فوصل إلى تبوك ثمَّ رجع عامه ذلك في سنة تسعٍ . ثمّ حجّ في سنة عشر ، ثمّ رجع فجهّز جيش أسامة إلى الشام طليعة بين يديه ، ثمّ كان على عزم الخروج إليهم امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة : ٢٩] . ولما جهّز رسولُ الله جيشَ أسامة توفي عليه الصلاة والسلام وأسامة مخيِّم بالجُرْفِ(٣) ، فَنَفَّذَهُ صِدِّيقُه وخليفته أبو بكر الصدّيق(٤) رضي الله عنه . ثمّ لمّا لمّ شعث جزيرة العرب ، وما كان وهَى من أمر أهلها ، وعاد الحقّ إلى نصابه ، جهّز الجيوش يمنةً ويسرةً إلى العراق أصحاب كسرى ملك الفرس ، وإلى الشام أصحاب قيصر ملك الروم ، ففتح الله لهم ، ومكّن لهم وبهم ، وملّكهم نواصي أعدائهم ، كما سنورده في موضعه إذا انتهينا إليه مفصّلاً إن شاء الله ، بعونه وتوفيقه وحسن إرشاده .

وهكذا موسى عليه السلام كان الله تعالى قد أمره أن يجنّد بني إسرائيل ، وأن يجعل عليهم نقباء كما قال تعالى : ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ وقال الله : ﴿ إِنِّى مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة : ١٢] يقول لهم : لئن قمتم بما أوجبت عليكم ، ولم تَنْكِلُوا عن القتال كما نَكَلتم أوّلَ مرة ، لأجعلن ثواب هذه مكفراً لما وقع عليكم من عقاب تلك ، كما قال تعالى لمن تخلّف من الأعراب عن رسول الله ﷺ في غزوة(٥) الحديبية : ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح : ١٦] .

---

(١) في سفر العدد ، وهو الرابع ، الإصحاح الأول .

(٢) قوله : وهو النقيب . زيادة من ب وط .

(٣) موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام .

(٤) انظر ما قاله المؤلف في خبر (تنفيذ جيش أسامة بن زيد) من هذا الكتاب . ومطلع حديثه من أخبار سنة (١٣هـ) .

(٥) في ب : عمرة . ويقال : غزوة الحديبية ، وعمرة الحديبية ، لأن رسول الله ﷺ إنما كان قصده العمرة .

وهكذا قال تعالى لبني إسرائيل[١] : ﴿ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ . ثمّ ذمهم تعالى على سوء صنيعهم ونقضهم مواثيقهم ، كما ذمّ مَن بعدهم من النصارى على اختلافهم في دينهم وأديانهم . وقد ذكرنا ذلك في « التفسير » مستقصى ولله الحمد[٢] .

والمقصود أن الله تعالى أمر موسى عليه السلام أن يكتب أسماء المقاتلة من بني إسرائيل ممن يحمل السلاح ويقاتل ممن بلغ عشرين سنة فصاعداً ، وأن يجعل على كلّ سِبطٍ نقيباً منهم .

السبط الأول : سبط روبيل[٣] لأنه بِكر يعقوب ، كان عدّة المقاتلة منهم ستة وأربعين ألفاً وخمسمئة ، ونقيبهم منهم وهو أليصور بن شَدَيْئُور[٤] .

السبط الثاني : سبط شمعون ، وكانوا تسعة وخمسين ألفاً[٥] ، ونقيبهم شلوميئيل بن صُوريشَدَّاي[٦] .

السبط الثالث : سبط يهوذا ، وكانوا أربعة وسبعين ألفاً وستمئة ، ونقيبهم نحشون بن عَمِّيناداب .

السبط الرابع : سبط إيساخر[٧] ، وكانوا أربعة وخمسين ألفاً وأربعمئة ، ونقيبهم نثنائيل بن صوغر[٨] .

السبط[٩] الخامس : سبط يوسف عليه السلام ، وكانوا أربعين ألفاً وخمسمئة ، ونقيبهم يوشع بن نون[١٠] .

السبط السادس : سبط ميشا ، وكانوا أحداً[١١] وثلاثين ألفاً ومئتين ونقيبهم جمليئيل بن فدهصور[١٢] .

السبط السابع : سبط بنيامين ، وكانوا خمسة وثلاثين ألفاً وأربعمئة ونقيبهم أبيدن بن جِدعون .

السبط الثامن : سبط جاد ، وكانوا خمسة وأربعين ألفاً وستمئة وخمسين رجلاً ، ونقيبهم أَلياساف بن دعوئيل .

---

(١) قوله : لبني إسرائيل . زيادة من ب وط .
(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤) .
(٣) في التوراة : رأوبين .
(٤) كذا في ط . والتوراة . وفي أ وب : أليضون بن سادور .
(٥) زاد في ط : وثلاثمئة . وهي في التوراة أيضاً .
(٦) كذا في التوراة ، وفي أ وب : ساموال بن صورشدي . وفي ط : هو ريشداي .
(٧) في التوراة : يسَّاكر .
(٨) كذا في التوراة ، وط . وفي أ وب : شال بن صاعون .
(٩) قوله : السبط . زيادة من ب وط .
(١٠) في التوراة : لابني يوسف : لافراييم ؛ أليشمَع بن عمّيهود . ولمنسَّى : جملئيل بن مذهصور .
(١١) في التوراة : اثنان وثلاثون .
(١٢) في أ وب : يرضون .

السبط التاسع : سبط أَشِير ، وكانوا أحداً وأربعين ألفاً وخمسمئة ونقيبهم فجعيئيل بن عُكْرَن[١] .

السبط العاشر : سبط دان ، وكانوا اثنين وستين ألفاً وسبعمئة ونقيبهم أَخِيعَزَر ابن عَمّيشدّاي[٢] .

السبط الحادي عشر : سبط نفتالي وكانوا ثلاثة وعشرين[٣] ألفاً وأربعمئة ونقيبهم أخيرَع بن عينن[٤] .

السبط الثاني عشر : سبط زبولون[٥] ، وكانوا سبعة وخمسين ألفاً وأربعمئة ، ونقيبهم أَلياب بن حِيلون[٦] . هذا نص كتابهم الذي بأيديهم والله أعلم .

وليس منهم بنو لاوي . فأمر الله موسى أن لا يعدَّهم معهم لأنّهم موكّلون بحمل قُبة الشهادة ، وضربها ، ونصبها ، وحملها إذا ارتحلوا ، وهو سبط موسى وهارون عليهما السلام ، وكانوا اثنين وعشرين ألفاً من ابن شَهْرٍ فما فوق ذلك . وهم في أنفسهم قبائل إلى كلِّ قبيلة طائفة من قبة الزمان يحرسونها ، ويحفظونها ، ويقومون بمصالحها ، ونصبها وحملها ، وهم كلّهم حولها ينزلون ويرتحلون أمامها ويمنتها وشأمتها[٧] ووراءها .

وجملة ما ذكر من المقاتلة غير بني لاوي خمسمئة ألف وأحد وسبعون ألفاً وستمئة وخمسون[٨] ، لكن قالوا : فكان عدد بني إسرائيل ممن عمره عشرون سنة فما فوق ذلك ممن حمل السلاح ستمئة ألف وثلاثة آلاف وخمسمئة وخمسين[٩] رجلاً سوى بني لاوي ، وفي هذا نظر ، فإن جميع الجمل المتقدّمة إن كانت كما وجدنا في كتابهم[١٠] لا تطابق الجملة التي ذكروها . والله أعلم .

فكان بنو لاوي الموكّلون بحفظ قبّة الزمان يسيرون في وسط بني إسرائيل وهم القلب ، ورأس الميمنة بنو روبيل، ورأس الميسرة بنو دان، وبنو نفتالي يكونون ساقة[١١] . وقَرَّر موسى عليه السلام بأمر الله تعالى

---

(١) كذا في ط . والتوراة . وفي أ وب مخابيل بن عجران .

(٢) كذا في ط . والتوراة . وفي أ : جعيدر بن عيشدي . وفي ب : جعيدر بن عمشيد .

(٣) في ط : وخمسي ، وهي كذلك في التوراة .

(٤) كذا في التوراة . وفي أ وب : أخدع بن عنيان . وفي ط : عين .

(٥) كذا في ط . التوراة . وفي أ وب : زايلون .

(٦) في أ . الباب بن جالون . وفي ب . بإليان بن جالون . وفي ط : ألباب . وأثبتنا ما في التوراة .

(٧) في ط : وشمالها . والشأمة : الميسرة . وقال : قعد فلان يمنة ، وقعد فلان شأمة . اللسان .

(٨) في ط : خمسمئة ألف وأحد وسبعون ألفا وست مئة وست وخمسون . وهذا الرقم الذي ورد أقل من مجموع ما ذكر مفصلاً قبل قليل .

(٩) هذا ما ورد في التوراة . وفي ب : ألف ألف وثلاثة آلاف وخمس مئة وخمسين . وفي ط : ... وخمسة وخمسين .

(١٠) بل ليست مطابقة لما في المطبوع من التوراة اليوم .

(١١) في ب : يلتقون : ساقة . والساقة : مؤخرة الجيش .

له الكهانة في بني هارون كما كانت لأبيهم من قبلهم وهم ناداب وهو بِكره وأبيهو والعازر ويثمر[(١)] .

والمقصود أن بني إسرائيل لم يبق منهم أحد ممن كان نكل عن دخول مدينة الجبارين الذين قالوا : ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [المائدة : ٢٤] قاله الثوري : عن أبي سعيد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس . وقاله قتادة وعكرمة . ورواه السُّدّي عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة ، حتى قال ابن عباس وغيره من علماء السلف والخلف : ومات موسى وهارون قبله كلاهما في التيه جميعاً[(٢)] .

وقد زعم ابن إسحاق أن الذي فتح بيت المقدس هو موسى ، وإنما كان يوشع على مقدّمته ، وذكر في مروره إليها قصّة بلعام بن باعور الذي قال تعالى فيه : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٥ ـ ١٧٧] وقد ذكرنا قصته في « التفسير »[(٣)] ، وأنّه كان فيما قاله ابن عباس وغيرُه يعلم الاسم الأعظم ، وأن قومه سألوه أن يدعو على موسى وقومه فامتنع عليهم ، ولما ألحّوا عليه ركب حمارة له . ثمّ سار نحو معسكر بني إسرائيل ، فلما أشرف عليهم ربضت به حمارته ، فضربها حتى قامت ، فسارت غير بعيد وربضت ، فضربها ضرباً أشدّ من الأول ، فقامت ثمّ ربضت ، فضربها ، فقالت له : يا بلعام أين تذهب ؟ أما ترى الملائكة أمامي تردّني عن وجهي هذا ! أتذهب إلى نبي الله والمؤمنين تدعو عليهم ؟ فلم ينزع عنها فضربها حتى سارت به ، حتى أشرف عليهم من رأس جبل حُسْبان ، ونظر إلى معسكر موسى وبني إسرائيل فأخذ يدعو عليهم ، فجعل لسانه لا يطيعه إلا أن يدعو لموسى وقومه ويدعو على قوم نفسه ، فلاموه على ذلك ، فاعتذر إليهم بأنه لا يجري على لسانه إلا هذا ، واندلع لسانُه حتى وقع على صدره ، وقال لقومه : ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة ، ولم يبق إلا المكر والحيلة . ثمّ أمر قومه أن يزيّنوا النساء ويبعثوهن بالأمتعة يبعن عليهم ويتعرضن لهم ، حتى لعلّهم يقعون في الزنا فإنه متى زنى رجلٌ منهم كُفيتموهم ، ففعلوا وزيّنوا نساءهم وبعثوهن إلى المعسكر ، فمرّت امرأة منهم اسمها كُسْتَى برجل من عظماء بني إسرائيل وهو زَمري بن شَلوم ، يقال : إنه كان رأس سبط بني شمعون بن يعقوب ، فدخل بها قُبّته ، فلما خلا بها أرسل الله الطاعون على بني إسرائيل ، فجعل يجوس[(٤)] فيهم ، فلما بلغ الخبر إلى فنحاص بن العيزار بن هارون

---

(١) في التوراة : إيثاما .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٥٢) .

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٦٤) وما بعدها .

(٤) يجوس : يتردد ويتنقل .

أخذ حربته ـ وكانت من حديد ـ فدخل عليهما القُبَّةَ ، فانتظمهما جميعاً فيها ، ثمّ خرج بهما على الناس ، والحربة في يده ، وقد اعتمد على خاصرته ، وأسندها إلى لحيته ، ورفعهما نحو السماء ، وجعل يقول : اللهم هكذا تفعل بمن يعصيك ، ورُفع الطاعونُ .

فكان جملة من مات في تلك الساعة سبعين ألفاً ، والمقلِّلُ يقول : عشرون ألفا . وكان فنحاص بكر أبيه العيزار بن هارون ، فلهذا يجعل بنو إسرائيل لولد فنحاص من الذبيحة أليته والذراع واللحى ، ولهم البكر من كلِّ أموالهم وأنفسهم .

وهذا الذي ذكره ابن إسحاق من قصّة بلعام صحيح ، قد ذكره غير واحد من علماء السّلف . لكن لعلّه لما أراد موسى دخول بيت المقدس [أول مقدمه من الديار المصرية ، ولعلّه مراد ابن إسحاق ، ولكن ما فهمه بعض الناقلين عنه . وقد قدّمنا عن نص التوراة ما يشهد لبعض هذا والله أعلم . أو لعلّ هذه قصة أخرى كانت في خلال سيرهم في التيه ، فإن في هذا السياق ذكر حُسبان وهي بعيدة عن أرض بيت المقدس ، أو لعلّه كان هذا بجيش موسى الذين عليهم يوشع بن نون حين خرج بهم من التيه قاصداً بيت المقدس] كما صرح به السُّدِّي . والله أعلم .

وعلى كلّ تقدير فالذي عليه الجمهور أن هارون توفي بالتيه قبل موسى أخيه بنحو من سنتين . وبعده موسى في التيه أيضاً كما قدّمنا ، وأنه سأل ربّه أن يقرب إلى بيت المقدس فأجيب إلى ذلك . فكان الذي خرج بهم من التيه ، وقصد بهم بيت المقدس هو يوشع بن نون عليه السلام ، فذكر أهل الكتاب وغيرهم من أهل التاريخ أنه قطع ببني إسرائيل نهر الأردن وانتهى إلى أريحا ، وكانت من أحصن المدائن سوراً ، وأعلاها قصوراً ، وأكثرها أهلاً ، فحاصرها ستة أشهر . ثمّ إنهم أحاطوا بها يوماً وضربوا بالقرون ـ يعني الأبواق ـ وكبّروا تكبيرةَ رجلٍ واحدٍ ، فتفسّخ سورها ، وسقط وجبة واحدة ، فدخلوها ، وأخذوا ما وجدوا فيها من المغانم ، وقتلوا اثني عشر ألفاً من الرجال والنساء ، وحاربوا ملوكاً كثيرةً .

ويقال : إن يوشع ظهر على أحدٍ وثلاثين ملكاً من ملوك الشام . وذكروا أنه انتهى محاصرته له إلى يوم جمعةٍ بعد العصر . فلما غربت الشمس أو كادت تغرب ويدخل عليهم السبت الذي جعل عليهم وشرع لهم ذلك الزمان ، قال لها : إنك مأمورة وأنا مأمور ، اللهم احبسها عليَّ ، فحبسها الله عليه حتى تمكّن من فتح البلد ، وأمر القمر فوقف عن الطلوع ، وهذا يقتضي أن هذه الليلة كانت الليلة الرابعة عشرة من الشهر .

والأول ، وهو قضية الشمس ، مذكورة في الحديث الذي سأذكره . وأما قضية القمر فمن عند أهل الكتاب ، ولا ينافي الحديث ، بل فيه زيادة تستفاد فلا تُصدق ولا تُكذب ، ولكن ذكرهم أن هذا في فتح أريحا فيه نظر ، والأشبه ـ والله أعلم ـ أن هذا كان في فتح بيت المقدس الذي هو المقصود الأعظم ، وفتح أريحا كان وسيلة إليه . والله أعلم .

قال الإمام أحمد: حدّثنا أسود بن عامر ، حدّثنا أبو بكر ، عن هشام ، عن ابن سيرين ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ الشَّمسَ لم تُحْبَسْ لِبَشرٍ إلاّ لِيوشَع لَيالِيَ سَارَ إلى بَيْتِ المقْدِس »[١] . انفرد به أحمد من هذا الوجه، وهو على شرط البخاري . وفيه دلالة على أن الذي فتح بيت المقدس هو يوشع بن نون عليه السلام ، لا موسى ، وأن حبس الشمس كان في فتح بيت المقدس لا أريحا كما قلنا . وفيه أن هذا كان من خصائص يوشَع عليه السلام ، فيدل على ضعف الحديث الذي رويناه أن الشمس رجعت حتى صلى علي بن أبي طالب صلاة العصر بعد ما فاتته بسبب نوم النبي ﷺ على ركبته ، فسأل رسول الله أن يردّها عليه حتى يصلّي العصر فرجعت[٢] . وقد صححه أحمد بن صالح المصري[٣] ، ولكنه منكر ليس في شيء من الصحاح ولا الحسان ، وهو مما تتوفر الدواعي على نقله . وتفرّدت بنقله امرأة من أهل البيت مجهولة لا يعرف حالها . والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدّثنا عبد الرزاق ، حدّثنا معمر ، عن همام ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « غزا نبيٌّ مِنَ الأنبياءِ فَقَالَ لِقَوْمِهِ : لا يَتْبَعني رَجُلٌ قد مَلكَ بُضْعَ امرأةٍ وهُو يُريدُ أن يَبْنيَ بها ولَمَّا يَبْنِ ، ولا آخرُ قَدْ بَنَى بنياناً ولم يَرْفَع سُقُفَها ، ولا آخرُ قَدِ اشْتَرى غنماً أو خَلِفاتٍ[٤] وهو يَنْتَظِرُ أولادَها . فغزا فدنا منَ القَريةِ حِينَ صُلي العصر أو قريباً من ذلكَ ، فقال للشمسِ : أنتِ مأمورةٌ وأنا مأمورٌ ، اللهم احْبِسْها عَلَيَّ شَيئاً ، فَحُبِسَتْ عَلَيه حتّى فَتحَ اللهُ عليه ، فَجَمَعُوا ما غَنِموا فأتت النارُ لتأكُلَه ، فأبت أنْ تطعمَه ، فَقالَ : فِيكُم غُلُولٌ[٥] فلْيبايِعْني مِن كُلِّ قَبيلةٍ رَجُلٌ ، فبايعوهُ ، فلَصِقَتْ يَدُ رَجُلٍ بيدِهِ ، فقالَ : فيكُمُ الغُلُولُ ، ولْتُبايعني قبيلَتُكَ ، فبايعَتْهُ قبيلَتُه ، فلَصِقَ بيدِ رَجُلَين أو ثلاثةٍ ، فقالَ: فيكُم الغُلولُ ، أنتم غَللتم ، فأخْرَجُوا له مثلَ رأسِ بَقَرةٍ من ذهب ، قالَ : فوضَعُوه بالمالِ وهو بالصَّعِيْد ، فأقبلتِ النارُ فأكَلَتْهُ ، فلم تحلَّ الغنائمُ لأحَدٍ مِنْ قَبْلنا ، ذلك بأنّ الله رأى ضَعْفَنا وَعَجْزَنا فطيَّبَها لَنا » . انفرد به مسلم[٦] من هذا الوجه[٧] .

---

(١) المسند (٢/ ٣٢٥) .

(٢) الحديث في شرح الزرقاني (٥/ ١١٣) ومشكل الآثار (٢/ ٨) والشفا (١/ ٥٤٨) وفي الحديث كلام. انظر شرح الزرقاني.

(٣) في أ : علي بن صالح المصري ، والصواب ما أثبتناه فهو أحمد بن صالح المصري أبو جعفر الحافظ المعروف بابن الطبري كان أبوه من أهل طبرستان، ولد بمصر (١٧٥هـ) وتوفي فيها (٢٤٨هـ). قال ابن حبان في كتاب الثقات: كان أحمد بن صالح في الحديث وحفظه عند أهل مصر كأحمد بن حنبل عند أهل العراق . تهذيب التهذيب (١/ ٣٩).

(٤) رواه أحمد (٢/ ٣١٨) والخَلِفَات : جمع خلفة ، وهي الحامل من النوق .

(٥) الغُلول : الخيانة في المغنم ، والسرقة من الغنيمة قبل القسمة .

(٦) هو في مسند أحمد (٢/ ٣١٨) كما قال في بداية الحديث . وأخرجه مسلم أيضاً كما قال هنا ، رقم (١٧٤٧) في الجهاد والسير ، باب تحليل الغنائم لهذه الأمة خاصة .

(٧) لعله يريد من حديث عبد الرزاق عن معمر ، وإلا فإن البخاري أخرجه من حديث عبد الله بن المبارك عن معمر به (٣١٢٤) و(٥١٥٧) .

وقد روى البزار من طريق مبارك بن فضالة ، عن عبيد الله ، عن سعيد المقْبُري ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ نحوه[١] ، قال : ورواه محمد بن عجلان عن سعيد المقبري[٢] . قال : ورواه قتادة ، عن سعيد بن المسيِّب ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ[٣] .

والمقصود أنّه لما دخل بهم باب المدينة أُمروا أن يدخلوها سُجَّدا ، أي : ركّعا متواضعين شاكرين لله عز وجل على ما مَنَّ به عليهم من الفتح العظيم الذي كان الله وعدهم إياه ، وأن يقولوا حال دخولهم : حِطّة ، أي : حط عنا خطايانا التي سلفت من نكولنا الذي تقدّم منا . ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ مكة يوم فتحها دخلها وهو راكب ناقَتَه ، وهو متواضعٌ حامدٌ شاكرٌ حتى أن عُثنونه ، وهو طرف لحيته ، ليمس مورك رحله مما يطأطىء رأسَه خضعاناً لله عز وجل ، ومعه الجنود والجيوش ممن لا يرى منه إلا الحدق ، ولا سيما الكتيبة الخضراء التي فيها رسول الله ﷺ ، ثمّ لما دخلها اغتسل وصلّى ثماني ركعات ، وهي صلاة الشكر على النصر على المنصور من قولي العلماء . وقيل : إنّها صلاة الضحى ، وما حمل هذا القائل على قوله هذا إلا لأنها وقعت وقت الضحى .

وأما بنو إسرائيل فإنهم خالفوا ما أُمروا به قولاً وفعلاً، دخلوا الباب يزحفون على أستاههم وهم يقولون: حبة في شعرة، وفي رواية: حنطة في شعرة. وحاصله أنّهم بدّلوا ما أُمروا به واستهزؤوا به، كما قال الله تعالى حاكياً عنهم في سورة الأعراف ، وهي مكية : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾ [الآيتان : ١٦١ ـ ١٦٢] وقال تعالى في سورة البقرة ، وهي مدنية مخاطباً[٤] لهم : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ [الآيتان : ٥٨ ـ ٥٩] .

وقال الثوري ، عن الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ﴿ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ قال : رُكّعاً من باب صغير . رواه الحاكم وابن جرير وابن أبي حاتم .

وكذا روى العوفي عن ابن عباس . وكذا روى الثوري عن ابن إسحاق عن البراء .

قال مجاهد والسدي والضحاك : الباب هو باب حطة من بيت إيلياء بيت المقدس .

---

(١) أخرجه الحاكم من طريق مبارك بن فضالة ، به (٢/ ١٣٩) .

(٢) لم أقف عليه من هذا الوجه .

(٣) أخرجه النسائي في السير من سننه الكبرى (٨٨٧٨) ، وابن حبان (٤٨٠٧) .

(٤) تفسير الطبري (١/ ٢٣٨) .

قال ابن مسعود : فدخلوا مقنعي رؤوسهم ضد ما أُمروا به . وهذا لا ينافي قول ابن عباس إنهم دخلوا يزحفون على أستاههم . وهكذا في الحديث الذي سنورده بعدُ فإنّهم دخلوا يزحفون وهم مقنعوا رؤوسهم .

وقوله : ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾ الواو هنا حالية لا عاطفة ، أي : ادخلوا سُجَّداً في حال قولكم حطّة .

قال ابن عباس وعطاء والحسن وقتادة والربيع : أمروا أن يستغفروا[١] .

قال البخاري[٢] : حدّثنا محمد ، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، عن ابن المبارك ، عن مَعْمر ، عن همّام بن منبه ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « قيلَ لِبَني إسْرائيلَ : ادْخُلوا البابَ سُجَّداً ، وقُولُوا : حِطَّة ، فَدَخَلوا يَزْحَفُونَ عَلَى أسْتَاهِهِم ، فَبَدَّلُوا وقالُوا : حِطَّة حَبة في شَعرة » .

وكذا رواه النسائي من حديث ابن المبارك ببعضه[٣] . ورواه عن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم عن ابن مهدي ، به موقوفاً[٤] . وقد قال عبد الرزاق : أنبأنا معمر عن همام بن منبّه أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول : قال رسول الله ﷺ : « قالَ اللهُ لِبني إسْرائيلَ : ادْخُلوا البابَ سُجَّدا وقُولُوا حِطَّة نغفرْ لَكم خَطَاياكُم ، فَبَدَّلوا فَدَخَلوا البابَ يَزْحَفُونَ على أسْتَاهِهِم ، فقالوا : حَبّة في شَعرة » . ورواه البخاري[٥] ، ومسلم[٦] ، والترمذي ، من حديث عبد الرزاق ، وقال الترمذي[٧] : حسن صحيح .

وقال محمد بن إسحاق : كان تبديلهم كما حدّثني صالح بن كَيْسان ، عن صالح مولى التَّوْءَمة[٨] ، عن أبي هريرة وعمَّن لا أتَّهم ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « دَخَلوا البابَ الذي أُمِرُوا أن يَدْخُلوا فيه سُجَّداً يَزْحَفُونَ على أسْتَاهِهِم وهُم يقولُونَ : حِنْطة في شَعيرة »[٩] .

وقال أسباط ، عن السُّدي ، عن مُرة ، عن ابن مسعود قال في قوله : ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ

---

(١) انظر تفسير الطبري (١/ ٢٣٨) .

(٢) صحيح البخاري رقم (٤٤٧٩) في تفسير سورة البقرة ، باب ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ . . ﴾ .

(٣) في تفسيره (١٠) ، وهو في الكبرى (١٠٩٩٠) .

(٤) في تفسيره (٩) ، وهو في الكبرى (١٠٩٨٩) .

(٥) صحيح البخاري رقم (٣٤٠٣) في الأنبياء ، باب (٢٨) ﴿ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾ ، و(٤٦٤١) في التفسير .

(٦) صحيح مسلم رقم (٣٠١٥) في التفسير .

(٧) الترمذي رقم (٢٩٥٦) ، في التفسير ، باب ومن سورة البقرة .

(٨) هو صالح بن نبهان المدني ، مولى التَّوْءَمَة ، صدوق ، اختلط بأخرة . توفي سنة خمس أو ست وعشرين . وهو من رجال التهذيب .

(٩) تفسير الطبري (١/ ٢٤٠) .

﴿ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ قال : قالوا « هطي سمقاثا ازمه مزبا » فهي في العربية : (حَبَّة حِنْطَة حَمْراء مَثْقُوبة فيها شَعْرة سَوْداء)[١] .

وقد ذكر الله تعالى أنّه عاقبهم على هذه المخالفة بإرسال الرِّجْز الذي أنزله عليهم ، وهو الطاعون ، كما ثبت في « الصحيحين » من حديث الزهري عن عامر بن سعد[٢] ، ومن حديث مالك عن محمد بن المنْكَدِر وسالم أبي النضر[٣] ، عن عامر بن سعد ، عن أسامة بن زيد ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إنَّ هذا الوَجَع (أو السّقم) رِجْزٌ عُذِّبَ بِهِ بَعْضُ الأمَم قَبلَكم » .

وروى النسائي[٤] وابن أبي حاتم ـ وهذا لفظه ـ من حديث الثوري ، عن حبيب بن أبي ثابت ، عن إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص ، عن أبيه ، وأسامة بن زيد وخزيمة بن ثابت قالوا : قال رسول الله ﷺ : « الطاعُونُ رِجْزٌ عَذابٌ عُذّبَ بهِ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم »[٥] .

وقال الضحاك عن ابن عباس : الرِّجْز : العذاب . وكذا قال مجاهد ، وأبو مالك ، والسدي ، والحسن ، وقتادة . وقال أبو العالية : هو الغضب .

وقال الشعبي : الرِجْز : إمّا الطاعون ، وإما البرد .

وقال سعيد بن جبير : هو الطاعون .

ولما استقرت يد بني إسرائيل على بيت المقدس استمروا فيه وبين أظهرهم نبي الله يوشع يحكم بينهم بكتاب الله التوراة حتى قبضه الله إليه وهو ابن مئة وسبع وعشرين سنة ، فكان مدةُ حياته بعد موسى سبعاً وعشرين سنة .

***

---

(١) المصدر السابق (١/ ٢٤١) .

(٢) أخرجه البخاري في ترك الحيل من صحيحه (٦٩٧٤) من حديث شعيب عن الزهري ، به ، وأخرجه مسلم من حديث يونس ومعمر عن الزهري (٢٢١٨) (٩٦) .

(٣) أخرجه البخاري في ذكر بني إسرائيل من صحيحه (٣٤٧٣) ، ومسلم (٢٢١٨) (٩٢) .

(٤) في الطب من سننه الكبرى (٧٥٢٣) .

(٥) قصَّر المصنف رحمه الله في تخريج هذه الطريق ، فقد رواه مسلم من حديث الثوري ، به (٢٢١٨) (٩٧) .

ذكر قصتي
الخضر وإلياس عليهما السلام

أما الخَضر فقد تقدّم أن موسى عليه السلام رحل إليه في طلب ما عنده من العلم اللَّدُنّي ، وقصّ الله من خبرهما في كتابه العزيز في سورة الكهف ، وذكرنا في تفسير ذلك هنالك ، وأوردنا هنا ذكر الحديث المصرّح بذكر الخضر عليه السلام وأن الذي رحل إليه هو موسى بن عمران نبي بني إسرائيل عليه السلام الذي أنزلت عليه التوراة .

وقد اختلف في الخضر في اسمه ونسبه ونبوته وحياته إلى الآن على أقوال سأذكرها لك هاهنا ، إن شاء الله وبحوله وقوته .

قال الحافظ ابن عساكر : يقال : إنّه الخضر بن آدم عليه السلام لصلبه . ثمّ روى من طريق الدارقُطني : حدّثنا محمد بن الفتح القَلانِسي[١] ، حدّثنا العباس بن عبد الله التَّرْقُفي[٢] ، حدّثنا رَوَّاد بن الجرَّاح ، حدّثنا مقاتل بن سليمان ، عن الضحّاك ، عن ابن عباس قال : الخضر ابن آدم لصلبه ونُسىءَ له في أجله حتى يُكذِّبَ الدجَّال[٣] . وهذا منقطع وغريب .

وقال أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستاني : سمعت مشيختنا ، منهم أبو عبيدة وغيره ، قالوا : إن أطول بني آدم عمراً الخضر ، واسمه خضرون بن قابيل بن آدم . قال : وذكر ابن إسحاق : أن آدم عليه السلام لما حضرته الوفاة أخبر بنيه أن الطوفان سيقع بالناس ، وأوصاهم إذا كان ذلك أن يحملوا جسده معهم في السفينة ، وأن يدفنوه في مكان عيَّنه لهم[٤] . فلما كان الطوفان حملوه معهم ، فلما هبطوا إلى الأرض أمر نوح بنيه أن يذهبوا ببدنه فيدفنوه حيث أوصى . فقالوا : إن الأرض ليس بها أنيس وعليها وحشة[٥] ، فحرّضهم وحثّهم على ذلك ، وقال : إن آدم دعا لمن يلي دفْنه بطول العمر ، فهابوا المسير

---

(١) القَلاَنسي ، بفتح القاف وتخفيف اللام : نسبة إلى القلانس وعملها . والقلنسوة : لباس للرأس مختلف الأنواع والأشكال ج : قلانس ، وقلانيس ، وقلاسٍ ، وقلاسي .

(٢) في ط : الرومي . وهو خطأ . وعباس بن عبد الله بن أبي عيسى الواسطي ، الترقُفي ، نزيل بغداد ، ثقة عابد ، مات سنة سبع أو ثمان وستين ومئتين . وهو من رجال التهذيب .
والتَّرقفي ، بفتح التاء ، وسكون الراء ، وضم القاف ، نسبة إلى ترقف من أعمال واسط . كذا ضبطه السمعاني ، وابن حجر في التقريب ، وياقوت في معجم البلدان ، وضبطه ابن الأثير في اللباب بضم التاء .

(٣) مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٨/ ٥٧ ـ ٥٨) .

(٤) أمرهم أن يحملوا جسده معهم في المغارة ، حتى إذا هبطوا أمرهم أن يدفنوه في الشام . كما في المعمرون .

(٥) في المعمرون : فقالوا : الأرض وَحِشة ، ولا أنيس بها ، ولا نهتدي الطريق ، ولكن نكف حتى يأمن الناس ويكثروا ، وتأنس البلاد ، وتجف .

إلى ذلك الموضع في ذلك الوقت ، فلم يزل جسده عندهم حتى كان الخضر هو الذي تولى دفنه ، وأنجز الله له ما وعده ، فهو يحيا إلى ما شاء الله له أن يحيا[١] .

وذكر ابن قتيبة في (المعارف) عن وهب بن منبه أن اسم الخضر بليا ، ويقال إيليا بن ملكان بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام[٢] .

وقال إسماعيل بن أبي أويس : اسم الخضر ـ فيما بلغنا والله أعلم ـ المعمر بن مالك بن عبد الله بن نصر بن لازد . وقال غيره : هو خضرون بن عميائيل بن اليفز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل . ويقال هو أرميا بن طبقا[٣] . فالله أعلم .

وقيل : إنّه كان ابن فرعون صاحب موسى ملك مصر . وهذا غريب جداً . قال ابن الجوزي : رواه محمد بن أيوب ، عن ابن لهيعة ، وهما ضعيفان . وقيل : إنه ابن مالك ، وهو أخو إلياس . قاله السدي كما سيأتي . وقيل : كان على مقدمة ذي القرنين . وقيل : كان ابن بعض من آمن بإبراهيم الخليل وهاجر معه . وقيل : كان نبياً في زمن بشتاسب بن لهراسب[٤] .

قال ابن جرير : والصحيح أنه كان متقدماً في زمن أفريدون[٥] حتى أدركه موسى عليهما السلام[٦] .

وروى الحافظ ابن عساكر عن سعيد بن المسيِّب أنه قال : الخضر أمه رومية وأبوه فارسي[٧] .

وقد ورد ما يدل على أنه كان من بني إسرائيل في زمان فرعون أيضاً . قال أبو زرعة في « دلائل النبوة » : حدّثنا صفوان بن صالح الدمشقي ، حدّثنا الوليد ، حدّثنا سعيد بن بشير ، عن قتادة ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، عن أُبي بن كعب ، عن رسول الله ﷺ أنه ليلة أُسري به وجَدَ رائحة طيبةً فقال « يا جِبْريلُ ما هذِهِ الرائِحَةُ الطَّيِّبَةُ ؟ قالَ : هذهِ رِيْحُ قَبْرِ الماشِطَةِ وابنتِها وزَوْجِها » . قال : وكان بدء ذلك أن الخضر كان من أشراف بني إسرائيل ، وكان ممره براهب في صومعته[٨] ، فتطلّع عليه الراهب فعلّمه الإسلام ، فلما بلغ الخضر زوَّجه أبوه امرأة ، فعلّمها الإسلام ، وأخذ عليها أن لا تعلِّمه أحداً ، وكان لا يقرب النساء . ثمّ طلّقها ، ثمّ زوجه أبوه بأخرى ، فعلّمها الإسلام ، وأخذ عليها أن لا تعلِّمه أحداً ، ثمّ

---

(١) نقل ابن كثير كلام أبي حاتم في : المعمرون ص (٣) ، مختصراً .
(٢) المعارف : (٤١ ـ ٤٢) .
(٣) كذا في أ و ب . وفي ط : خلقيا . وكذا في حاشية أ : خلقيا . وفي تاريخ الطبري (١/ ٣٦٦) .
(٤) أورد الطبري هذه الأقوال عند ذكره لقصة الخضر عليه السلام (١/ ٣٦٥) .
(٥) في ط : أفريدون بن أثفيان .
(٦) تاريخ الطبري (١/ ٣٦٦) وفيه زيادة .
(٧) مختصر تاريخ دمشق (٨/ ٥٨) .
(٨) في ب : وجاز مرة براهب في صومعة .

طلّقها . فكتمت إحداهما وأفشت عليه الأخرى . فانطلق هارباً حتى أتى جزيرةً في البحر ، فأقبل رجلان يَحْتَطِبان ، فرأياه ، فكتم أحدهما وأفشى عليه الآخر ؛ قال قد رأيت العزقيل[١] : ومن رآه معك ؟ قال : فلان ، فسُئِل فكتم ، وكان من دِينهم أنه من كذب قُتِل ، فقتل . وكان قد تزوج الكاتم المرأة الكاتمة . قال : فبينما هي تمشط بنت فرعون إذ سقط المشط من يدها ، فقالت : تَعِس فرعون . فأخبرت أباها ، وكان للمرأة ابنان وزوجٌ ، فأرسل إليهم ، فراوَد المرأةَ وزوجَها أن يرجعا عن دينهما ، فأبيا ، فقال : إني قاتلكما . فقالا : إحسان منك إلينا إن أنت قتلتنا أن تجعلنا في قبر واحد ، فجعلهما في قبر واحد . فقال : وما وجدت ريحاً أطيب منهما وقد دخلت الجنة[٢] .

وقد تقدمت قصة مائلة بنت فرعون . وهذا البسط في أمر الخضر قد يكون مدرجاً من كلام أُبي بن كعب أو عبد الله بن عباس ، والله أعلم .

وقال بعضهم : كنيته أبو العباس . والأشبه ـ والله أعلم ـ أن الخضر لقب غلب عليه .

قال البخاري ـ رحمه الله ـ : حدثنا محمد بن سعيد الأصبهاني ، حدثنا ابن المبارك ، عن مَعْمر ، عن هَمام ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « إنما سُمّي الخَضِر لأنه جَلَس على فَرْوَةٍ بيضاءَ فإذا هي تهْتَزُّ من خَلْفِه خَضْرَاءَ » . تفرد به البخاري[٣] .

وكذلك رواه عبد الرزاق عن معمر ، به[٤] . ثم قال عبد الرزاق : الفَرْوة : الحشيش الأبيض وما أشبهه ، يعني الهَشِيم اليابس .

وقال الخطّابي : وقال أبو عُمر : الفروة الأرض البيضاء التي لا نبات فيها ، وقال غيره : هو الهشيم اليابس ، شَبَّهه بالفروة ، ومنه قيل : فروة الرأس ، وهي جلدته بما عليها من الشعر ، كما قال الراعي :

ولقدْ تَرى الحبَشيَّ حولَ بُيوتِنا ... جَذِلاً إذا ما نالَ يوماً مأكلا[٥]

صَعْلاً أصكَّ كأنّ فروةَ رأسِه ... بُذِرَت فأَنبتَ جَانباهُ فُلفُلا[٦]

---

(١) في ب : الخضر .

(٢) وأخرجه من طريق آخر عن أبي بن كعب ، ابنُ ماجه (٤٠٣٠) في الفتن ، باب الصبر على البلاء وفي إسناده ضعف . ومن طريق آخر أحمد في مسنده (١/ ٣٠٩ ـ ٣١٠) .

(٣) صحيح البخاري رقم (٣٤٠٢) في الأنبياء ، باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام .

(٤) حديث عبد الرزاق أخرجه الترمذي (٣١٥١) في التفسير ، وقال : صحيح غريب .

(٥) في ب : نائلاً . والجَذِل : الفرِح .

(٦) في ط : جعداً أصك . وفي ب : أسك . والصَّعْل : الدقيق الرأس والعنق ، والأصك : الملتصق الأسنان والأضراس ، والأسك : من السَّكَك ، وهو الصمم ، وقيل : صغر الأذن ولزوقها بالرأس . والبيتان ليسا في المطبوع من شعر الراعي ـ جمع ناصر الحاني ـ طبع مجمع اللغة العربية ، دمشق (١٣٨٣هـ) وديوانه ـ جمع راينهرت ـ بيروت ـ المعهد الألماني ـ (١٤٠١هـ) .

قال الخطابي : وإنما سمي الخضر خضراً لحسنه وإشراق وجهه . قلت : وهذا لا ينافي ما ثبت في الصحيح ، فإن كان ولا بد من التعليل بأحدهما ، فما ثبت في الصحيح أولى وأقوى ، بل لا يلتفت إلى ما عداه ، وقد روى الحافظ ابن عساكر[١] هذا الحديث أيضاً من طريق إسماعيل بن حفص بن عمر الأَيْلي[٢] ، حدّثنا عثمان وأبو جُرَي[٣] وهمام بن يحيى ، عن قتادة ، عن عبد الله بن الحارث بن نوفل ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : « إنما سُمي الخَضِرُ خَضِراً لأنَّهُ صَلَّى عَلَى فَرْوَةٍ بَيْضَاءَ فاهْتَزَّتْ خَضْراء » . وهذا غريب من هذا الوجه .

وقال قبيصة ، عن الثوري ، عن منصور ، عن مجاهد قال : إنما سمي الخضر لأنه كان إذا صلّى اخضرّ ما حولَه[٤] .

وتقدم أن موسى ويوشع عليهما السلام لما رجَعا يقُصَّان الأثر وجداه على طنفسة خضراء على كبد البحر ، وهو مسجًّى بثوب قد جُعل طرفاه من تحت رأسه وقدميه ، فسلم عليه موسى عليه السلام فكشف عن وجهه فرد وقال : أنّى بأرضك السلام من أنت ؟ قال : أنا موسى . قال : موسى بني إسرائيل ؟ قال : نعم . فكان من أمرهما ما قص الله في كتابه عنهما .

وقد دل سياق القصة على نبوته من وجوه :

أحدها : قولـه تعالى : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ .

الثاني : قول موسى له : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف: ٦٥ ـ ٧٠] فلـو كان ولياً وليس بنبي لم يخـاطبه موسى بهذه المخاطبة ، ولم يردّ على موسى هـذا الردّ ، بل موسى إنما سأل صحبته لينال ما عنده من العلم الذي اختصّه الله به دونه ، فلو كان غير نبي لم يكن معصوماً ولم تكن لموسى ـ وهو نبي عظيم ورسول كريم واجب العصمة ـ كبير رغبة ولا عظيم طلبة في علم ولي غير واجب العصمـة ، ولما عزم على الذهاب إليه والتفتيش عليه ولو أنه يمضي حقباً من الزمان ، قيل : ثمانين سنة ، ثمّ لما اجتمع به تواضع له وعظّمه واتّبعه في صورة مستفيد منه ، دلّ على أنه نبي مثله ، يوحى إليه كما يوحى إليه ، وقد خُصَّ من العلوم اللدنية[٥]

---

(١) في ب : ابن عساكر الحافظ . والخبر في مختصر تاريخه (٨/ ٥٨) .
(٢) الأيلي ، بفتح الألف وسكون الياء : نسبة إلى بلدة على ساحل بحر القلزم مما يلي ديار مصر . اللباب .
(٣) في ط : أبو جزي ، بالزاي .
(٤) أورده ابن عساكر . مختصر تاريخه (٨/ ٥٨) .
(٥) في ب : الدينية .

والأسرار النبوية بما لم يُطْلِع اللهُ عليه موسى الكليمَ نبي بني إسرائيل الكريم .

وقد احتج بهذا المسلك بعينه الرُّمّاني[١] على نبوة الخضر عليه السلام .

الثالث : أن الخضر أقدم على قتل ذلك الغلام ، وما ذاك إلا للوحي إليه من الملك العلّام . وهذا دليلٌ مستقلٌ على نبوّته ، وبرهانٌ ظاهرٌ على عصمته ، لأن الولي لا يجوز له الإقدام على قتل النفوس بمجرّد ما يلقى في خَلَده ، لأن خاطره ليس بواجب العصمة ؛ إذ يجوز عليه الخطأ بالاتفاق . ولما أقدم الخضر على قتل ذلك الغلام الذي لم يبلغ الحلْم علماً منه أنه إذا بلغ يكفر ويحمل أبويه على الكفر لشدّة محبتهما له فيتابعانه عليه ، ففي قتله مصلحةٌ عظيمةٌ تربو على بقاء مهجته ، صيانةً لأبويه عن الوقوع في الكفر وعقوبته ، دلّ ذلك على نبوته وأنه مؤيَّد من الله بعصمته .

وقد رأيت الشيخ أبا الفرج بن الجوزي طرق هذا المسلك بعينه في الاحتجاج على نبوّة الخضر وصحّحه ، وحكى الاحتجاج عليه عن الرُّمَّاني أيضاً .

الرابع : أنه لما فسر الخضر تأويل الأفاعيل لموسى ووضَّح له عن حقيقة أمره وجلّى قال بعد ذلك كله : ﴿ رَحۡمَةً مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ﴾ [الكهف : ٨٢] يعني ما فعلته من تلقاء نفسي ، بل أُمرت به وأُوْحِي إليَّ فيه ، فدلت هذه الوجوه على نبوته . ولا ينافي ذلك حصول ولايته بل ولا رسالته كما قاله آخرون .

وأما كونه مَلَكاً من الملائكة ، فقول غريب جداً . وإذا ثبتت نبوته ـ كما ذكرناه ـ لم يبق لمن قال بولايته وأن الولي قد يطلع على حقيقة الأمور دون أرباب الشرع الظاهر مستَنَدٌ يستندون إليه ، ولا معتمدٌ يعتمدون عليه[٢] .

وأما الخلاف في وجوده إلى زماننا هذا ؛ فالجمهور على أنه باقٍ إلى اليوم . قيل : لأنه دَفَن آدم بعد خروجهم من الطوفان ، فنالته دعوة أبيه آدم بطول الحياة . وقيل : لأنه شرب من عين الحياة فحيي .

وذكروا أخباراً استشهدوا بها على بقائه إلى الآن ، وسنوردها[٣] إن شاء الله تعالى وبه الثقة .

وهذه وصيته لموسى حين قال : ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ ﴾ [الكهف : ٧٨] .

---

(١) هو علي بن عيسى الرُّمَّاني النحوي المعتزلي . صنف في التفسير واللغة والنحو والكلام والاعتزال . توفي سنة (٣٨٤هـ) . سير أعلام النبلاء (١٦/ ٥٣٣) .

(٢) زاد هنا في ب : وأيضاً فلو قيل بأنه كان ولياً فقد يكون على شريعة نبي غير موسى ، فإن موسى لم يكن مرسلاً إلى أهل الأرض قاطبة ، فليس لولي في هذه الأمة التي نبيها رسولُ الله إلى جميع الثقلين أن يدعي علماً لا تسيغهُ هذه الشريعة المحمدية التي هي عامة شاملة لجميع المكلفين إلى يوم الدين .

(٣) زاد في ب : مع غيرها .

رُوي في ذلك آثار منقطعة كثيرة :

قال السهيلي : أخبرنا أبو سعيد بن أبي عمرو ، حدّثنا أبو عبد الله الصفّار ، حدّثنا أبو بكر بن أبي الدنيا ، حدّثنا إسحاق بن إسماعيل ، حدّثنا جرير ، حدّثني أبو عبد الله المَلَطي[(١)] قال : لما أراد موسى أن يفارق الخضر قال له موسى : أوصني . قال : كُنْ نفّاعاً ، ولا تكن ضَرَّاراً . كن بشّاشاً ، ولا تكن غضبانَ . ارجع عن اللّجاجة ، ولا تمش في غير حاجة . وفي رواية من طريق أخرى زيادة : ولا تضحك إلا من عجبٍ[(٢)] .

وقال وهب بن مُنبه : قال الخضر : ؛ يا موسى إن الناس معذَّبون في الدنيا على قدر همومهم بها .

وقال بشر بن الحارث الحافي : قال موسى للخضر : أوصني . فقال نشر[(٣)] الله عليك طاعته . وقد ورد في ذلك حديث مرفوع رواه ابن عساكر من طريق زكريا بن يحيى الوَقَار[(٤)] إلاّ أنه من الكذّابين الكبار ، قال : قرىء على عبد الله بن وهب وأنا أسمع قال الثوري : قال مجالد ، قال أبو الودّاك ، قال أبو سعيد الخدري : قال عمر بن الخطاب : قال قال رسول الله ﷺ : « قالَ أخي مُوْسى : يا رَبّ ، ذكر كلمة ، فأتاه الخَضِرُ وهو فتًى طيّبُ الرِّيح ، حَسَنُ بياضِ الثياب مشمِّرُها ، فقال : السلامُ عليكَ ورحمةُ الله يا موسى بن عمران ، إنّ ربَّك يَقرَأ عَلَيك السلامَ . قال موسى : هو السَّلامُ وإلَيه السَّلامُ ، والحمد للهِ رَبِّ العالمينَ الذي لا أُحْصي نِعَمَهُ ولا أقْدِرُ على أداءِ شُكْرِهِ إلا بمعونته . ثمّ قال موسى : أريدُ أن توصيني بوصيةٍ ينفعُني اللهُ بها بعدَك . فقالَ الخضِر : يا طالِبَ العِلْم إنّ القائِلَ أقلُّ ملامة من المستمع ، فلا تملَّ جلساءك إذا حدثتهم ، واعلم أنَّ قلبك وعاءٌ فانظر ماذا تحشو به وعاءك . واغرف من الدنيا[(٥)] ، وانبذها وراءك ، فإنها لَيسَت لك بدار ، ولا لك فيها محل قرار . وإنما جعلت بُلْغة[(٦)] للعباد والتزود منها ليوم المعاد . ورُضْ نفسك على الصبر تخلص من الإثم .

يا موسى تفرَّغ للعلم إنْ كنت تريدُه ، فإنما العلمُ لمن تَفَرَّغ له . ولا تكن مكثاراً للعلم[(٧)] مهذاراً فإن

---

(١) المَلَطي ، بفتح الميم واللام : نسبة إلى مدينة مَلَطْية من ثغور الروم . اللباب (٣/ ٢٥٤ ـ ٢٥٥) .

(٢) في ب : ولا تضحك من غير عجب . والخبر في مختصر تاريخ دمشق (٨/ ٦٢) وزاد في آخره : ولا تعيّر امرأً بخطيئة ، وابك على خطيئتك يا ابن عمران .

(٣) في ط : يسر . وكذلك في مختصر تاريخ دمشق (٨/ ٦٢) .

(٤) في أ : الوتار ، وفي ب الوقّار بتشديد القاف . وفي ط : الوقاد . والوَقَار ، بفتح الواو والقاف المخففة ، وبعد الألف راء ، قال ابن الأثير : اشتهر بهذه الصفة أبو يحيى زكريا بن يحيى بن إبراهيم بن عبد الله الوقار مولى قريش ، إنما قيل له ذلك لسكونه وثباته ، وهو مصري ولد سنة (١٧٤هـ) ومات سنة (٢٥٤هـ) . اللباب (٣/ ٣٧٠) .

(٥) كذا في أ وط . وفي ب وابن عساكر : واعزف عن الدنيا .

(٦) البلغة : ما يكفي لسد الحاجة ولا يفضل عنها .

(٧) في ب : بالعلم . وفي ابن عساكر : بالمنطق .

كثرة المنطق تشين العلماء ، وتبدي مساوىء السخفاء . ولكن عَليكَ بالاقتصادِ ، فإن ذلك من التوفيق والسداد . وأعرِض عن الجهَّال وماطلهم واحلم عن السفهاء[١] فإن ذلك فعل الحكماء وزين العلماء . إذا شتمك الجاهلُ فاسكتْ عنه حِلماً ، وجانبه حَزْماً ، فإنّ ما بقي من جهله عليك وسبِّه إياك أكثر وأعظم .

يا ابن عِمْران ولا تَرى أنك أُوْتيتَ من العلم إلا قليلاً . فإن الاندلاث[٢] والتعسُّف من الاقتحام والتكلّف . يا ابن عمران لا تفتحن باباً لا تدري ما غَلْقه ، ولا تغلقن باباً لا تدري ما فتحه . يا ابن عمران من لا ينتهي من الدنيا نَهْمَتُه ، ولا تنقضي منها رغبته ، ومن يحقر حاله ويتهم الله فيما قضى له كيف يكون زاهداً ؟! هل يكف عن الشهوات[٣] من غلب عليه هواه . أو ينفعه[٤] طلب العلم والجهل قد حواه ، لأن سعيه إلى آخرته وهو مقبل على دنياه .

يا موسى تعلّم ما تعلمت لتعملَ به ولا تعلَّمه لتحدّث به فيكون عليك بوارُه ولغيرك نوره . يا موسى بن عمران اجعلِ الزهدَ والتقوى لباسَك ، والعلمَ والذِّكْر كلامَك ، واستكثر من الحسنات فإنك مصيب السيئات ، وزعزع بالخوف قلبك فإن ذلك يُرضي ربَّك ، واعمل خيراً فإنك لا بد عاملٌ سوءاً . قد وعظت إن حفظتَ . قال : فتَولّى الخضر وبقي موسى محزوناً مكروباً يبكي »[٥] .

لا يصح هذا الحديث . وأظنه من صنعة زكريا بن يحيى الوقَار المصري ، كذّبه غير واحد من الأئمة[٦] . والعجب أن الحافظ ابن عساكر سَكَت عنه .

وقال الحافظ أبو نُعيم الأصبهاني : حدّثنا سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني ، حدّثنا عمرو بن إسحاق بن إبراهيم بن العلاء الحمصي ، حدّثنا محمد بن الفضل بن عمران الكِنْدي ، حدّثنا بَقِيَّة بن الوليد ، عن محمد بن زياد ، عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه : « أَلاَ أُحَدِّثُكُمْ عَنِ الخَضِرِ ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « بينَما هُو ذاتَ يوم يَمشي في سُوقِ بَني إسْرائيلَ أبْصَره رَجُلٌ مُكَاتَب[٧] فقال : تَصدَّقْ عَلَيَّ بارَكَ اللهُ فيكَ . فقالَ الخضِرُ : آمنتُ باللهِ ما شاءَ اللهُ من أمرٍ يَكُونُ ، ما عندي من شيءٍ أُعْطِيكَهُ . فقالَ المسكينُ : أسألكَ بوجهِ اللهِ لَمَا تَصدَّقْتَ علَيَّ ، فإني نظرتُ إلى السيماء في وجهكَ

---

(١) في ب وابن عساكر : وأعرض عن الجهال وباطلهم ، واحلم على السفهاء .

(٢) الاندلاث : السرعة والاندفاع . يقال : اندلث الرجل : إذا مضى على وجهه ، أو أسرع وركب رأسه ، فلم ينهنهه شيء في قتال . اللسان .

(٣) قوله : ومن يحقر حاله . . . عن الشهوات . سقط من ب .

(٤) في ب : أو كيف .

(٥) الوصية في مختصر تاريخ دمشق (٨/ ٦١ ـ ٦٢) .

(٦) أورده الذهبي في ميزان الاعتدال (٢/ ٧٧) .

(٧) المكاتَبة : أن يكاتبك عبدُك على نفسه بثمنه ، فإذا أدّاه عتق .

ورجَوتُ البرَكَةَ عِندك . فقالَ الخضِر : آمنتُ باللهِ ما عِنْدي من شيء أعطيكه إلاّ أنْ تأخذَني فتبيعني . فقال المسكينُ : وهلْ يَستقيمُ هذا ؟ قالَ : نعم. الحقَّ أقولُ لكَ ، لَقَدْ سألتني بأمرٍ عظيم أمَا إني لا أُخَيِّبُكَ بوجه ربي ، بعني . قال : فقدَّمه إلى السُّوقِ فباعه بأربع مئة درهم . فمكث عند المشتري زماناً لا يَستَعملُه في شيء . فقال له : إنما ابتعتني التماسَ خيرٍ عندي ؛ فأوصني بعملٍ . قال : أكرهُ أن أشُقَّ عليكَ إنكَ شَيخٌ كبيرٌ ضعيفٌ . قال : ليس تشق علَيَّ . قال : فانقلْ هذه الحجارةَ ، وكان لا ينقلها دون ستةِ نفرٍ في يوم ، فخرجَ الرجل لبعض حاجته ، ثمّ انصرف وقد نقلَ الحجارة في ساعة . فقال : أحسنتَ وأجملتَ وأطقتَ ما لم أرَكَ تُطيقه . ثمّ عرضَ للرجلِ سفرٌ فقال : إني أَحْسبك أميناً فاخلُفني في أهلي خِلافةً حسنةً . قال : فأوصني بعملٍ. قال: إني أكره أن أشقَّ عليكَ. قال : ليس تَشُقُّ عليَّ . قال : فاضرب من اللَّبِن لبيتي حتى أقدم عليكَ . فمضى الرجل لسفره ، فرجَع وقد شُيِّد بناؤه ، فقال : أسألك بوجه الله ما سبيلُكَ وما أمرك ؟ فقال : سألتني بوجهِ اللهِ ، والسؤالُ بوجهِ اللهِ أوقعني في العُبُودِية ، سأُخبركَ مَنْ أنَا ، أنا الخضِر الذي سمعت به ، سألني مسكينٌ صدقةً فلم يكن عندي من شيءٍ أُعْطيه ، فسألني بوجهِ اللهِ فأمْكَنْتُه من رَقَبتي فباعني ، وأُخبرُكَ أنه من سُئِل بوجهِ اللهِ فردَّ سائلَه وهو يقدر وقفَ يومَ القيامةِ جلْدُه لا لَحم له ولا عظمَ يتقعقع[1] . فقالَ الرجلُ : آمنتُ باللهِ ، شَقَقْتُ عليكَ يا نَبيَّ اللهِ ولم أَعْلَم . فقالَ : لا بأسَ ، أحْسَنْتَ وأبقَيتَ . فقال الرجلُ : بأبي وأمي يا نبي اللهِ احكُم في أهلي ومالي بما أراك[2] الله ، أو أُخيّرك فأُخلي سبيلك ؟ فقال : أُحِبُّ أن تُخليَ سبيلي فأعْبُدَ ربي . فخلّى سبيله . فقال الخضر : الحمدُ لله الذي أوْقَعني في العبوديةِ ثمّ نجّاني منها » .

وهذا حديث رفْعُه خطأ ، والأشبه أن يكون موقوفاً . وفي رجاله من لا يُعْرف ، فالله أعلم[3] .

وقد رواه ابن الجوزي في كتابه (عُجالة المنتظِر في شرح حال الخضِر)[4] من طريق عبد الوهاب بن الضحاك[5] ، وهو متروك ، عن بقية .

وقد روى الحافظ ابن عساكر بإسناده إلى السُّدّي أن الخضر وإلياس كانا أخوين ، وكان أبوهما ملِكاً ، فقال إلياس لأبيه : إن أخي الخضِر لا رغبة له في الملك فلو أنك زوجته لعل يجيء منه ولدٌ يكون المُلْكُ

---

(١) يتقعقع : يضطرب .

(٢) في ب : أمرك .

(٣) الخبر مرفوعاً إلى النبي ﷺ في المعجم الكبير للطبراني (٨/ ٧٥٣٠) وفي مختصر تاريخ دمشق (٨/ ٦٢ ـ ٦٣) .

(٤) ذكره حاجي خليفه في كشف الظنون (١١٢٥) .

(٥) عبد الوهاب بن الضحاك العُرْضي ، أبو الحارث السُّلَمي من أهل حمص ، قال النَّسائي : عنده عجائب . وقال ابن حِبّان : لا يحل الاحتجاج به ، ولا الذكر عنه إلا على جهة الاعتبار . مات سنة (٢٤٥هـ) .
الضعفاء والمتروكين للنسائي (٦٩) ، والمجروحين ، لابن حبان (٢/ ١٤٧ ـ ١٤٨) والتقريب (١/ ٥٢٧) .

له ، فزوَّجه أبوه بامرأةٍ حسناء بكر ، فقال لها الخضر : إنه لا حاجة لي في النساء ، فإن شئتِ أطلقتُ سراحَك ، وإن شئتِ أقمتِ معي تعبدين الله عزَّ وجلَّ وتكتمين عليَّ سِرِّي . فقالت : نَعَم ، وأقامت معه سنةً . فلما مضت السنة دعاها الملكُ فقال : إنك شابة وابني شاب فأين الولد ؟ فقالت : إنما الولد من عند الله ، إن شاءَ كانَ و إن لم يشأ لم يكن . فأمره أبوه فطلّقها وزوَّجه بأخرى ثَيِّباً قد وُلد لها ، فلما زُفَّت إليه قال لها كما قال للتي قَبْلَها ، فأجابت إلى الإقامة عندَه . فلما مضت السنة سألها الملكُ عن الولد ، فقالت : إن ابنَك لا حاجة له بالنساء . فتطلبه أبوه ، فهربَ ، فأرسل وراءه فلم يقدروا عليه . فيقال : إنه قتل المرأة الثانية لكونها أفشت سرَّه فهرب من أجل ذلك ، وأطلق سراح الأُخرى فأقامت تعبدُ الله في بعض نواحي تلك المدينة ، فمرّ بها رَجُل يوماً فسمعته يقول : بسم الله ، فقالت له : أنَّى لك هذا الاسم ؟ فقال : إني من أصحاب الخضِر ، فتزوجته فولدت له أولاداً[١] .

ثم صار[٢] من أمرها أن صارت ماشِطةَ بنتِ فِرعون ، فبينما هي يوماً تمشطها إذ وقع المشط من يدها فقالت : بسم الله . فقالت ابنة فرعون : أبي ؟ فقالت : لا ، ربي وربّك وربّ أبيك ، الله . فأعلمت أباها ، فأمر ببقرة من نحاس ، فأُحميت ، ثمّ أمر بها فأُلقيت فيها ، فلما عاينت ذلك تقاعست أن تقع فيها ، فقال لها ابنٌ معها صغير : يا أماه اصبري فإنك على الحق ، فألقت نفسها في النار فماتت[٣] رحمها الله .

وقد روى ابن عساكر ، عن أبي داود الأعمى نُفَيع ـ وهو كذاب وضاع[٤] ـ عن أنس بن مالك . ومن طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف ـ وهو كذاب أيضاً ـ[٥] عن أبيه عن جدّه : أن الخضر جاء ليلة ، فسمع النبيُّ ﷺ كلامه[٦] وهو يدعو ويقول : اللهم أعني على ما ينجّيني مما خوَّفتني ، وارزقني شوقَ الصالحين إلى ما شوَّقتَهم إليه ، فبعث إليه رسول الله ﷺ أنس بن مالك فسلم عليه ، فرد عليه السلامَ وقال : قل له : إن الله فضَّلك على الأنبياء كما فضَّل شهرَ رمضان على سائر الشهور ، وفضّل أُمتك على

---

(١) الخبر مفصل عن السدي ، في مختصر تاريخ دمشق (٨/ ٦٣ ـ ٦٤) .

(٢) تتمة الخبر هذه عند ابن عساكر عن ابن عباس . مختصره (٨/ ٦٤) .

(٣) سياق الخبر عند ابن عساكر يختلف عما هنا . ففيه : وأخذ بعض ولدها فرمى به في البقرة وهي تغلي ، ثم قال : ترجعين؟ قالت : لا . فأخذ الولد الآخر حتى ألقى أولادها أجمعين ، ثم قال لها : ترجعين ؟ قالت : لا . فأمر بها ، قالت : إن لي حاجة ، فقال : وما هي : قالت : إذا ألقيتني في البقرة تأمر بالبقرة أن تُحمل ثم تكفأ في بيتي الذي على باب المدينة ، وتنحّي البقرة وتهدم البيت علينا حتى يكون قبورَنا . فقال : نعم ، إن لك علينا حقاً . قال : ففعل بها ذلك . مختصر تاريخ ابن عساكر (٨/ ٦٤) .

(٤) وقال النسائي : متروك الحديث . الضعفاء ، له (١٠٢) . والضعفاء للبخاري (١١٥) ، والمجروحين ، لابن حبان (٣/ ٥٥ ـ ٥٦) ، والتقريب (٢/ ٣٠٦) .

(٥) وقال النسائي : متروك الحديث . (ص٨٩) . والمجروحين ، لابن حبان (٢/ ٢٢١ ـ ٢٢٢) والتقريب (٢/ ١٣٢) .

(٦) لفظ كلامه . سقط من ط .

الأمم كما فضّل يوم الجمعة على غيره[١] . الحديث ـ وهو مكذوب ـ لا يصح لا سنداً ولا متناً ، لا يتمثَّل بين يدي رسول الله ﷺ ويجيء بنفسه مسلّماً ومتعلِّماً وهم يذكرون في حكاياتهم وما يسندونه عن بعض مشايخهم أن الخضِر يأتي إليهم ، ويسلّم عليهم ، ويعرف أسماءهم ومنازلهم ومحالّهم ، وهو مع هذا لا يعرف موسى بن عمران كليم الله الذي اصطفاه الله في ذلك الزمان على مَن سواه حتى يتعرف إليه بأنه موسى بني إسرائيل . وقد قال الحافظ أبو الحسين بن المنادي ، بعد إيراده حديث أنس هذا : وأهل الحديث متفقون على أنه حديثٌ منكر الإسناد سقيم المتن يتبين فيه أثر الصنعة .

فأما الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البيهقي[٢] قائلاً : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، أخبرنا أبو بكر ابن بالويه ، حدّثنا محمد بن بشر بن مطر ، حدّثنا كامل بن طلحة ، حدّثنا عباد بن عبد الصمد ، عن أنس ابن مالك قال: لما قُبض رسول الله ﷺ أحدق به أصحابه فبكوا حولَه واجتمعوا ، فدخل رجلٌ أشْهَب اللحية جسيمٌ صَبيح ، فتخطّى رقابَهم ، فبكى ثمّ التفت إلى أصحاب رسول الله ﷺ فقال : إن في الله عَزاءً من كلِّ مصيبةٍ ، وعِوَضاً من كلِّ فائت ، وخَلَفاً من كلِّ هالك ، فإلى الله فأنيبوا وإليه فارغبوا ، ونظره إليكم في البلاء ، فانظروا فإن المصاب من لم يُجْبَر ، وانصرف . فقال بعضهم لبعض : تعرفون الرجل ؟ فقال أبو بكر وعلي : نعم هذا أخو رسول الله ﷺ الخضر عليه السلام .

وقد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا عن كامل بن طلحة ، به ، وفي متنه مخالفة لسياق البيهقي ، ثم قال البيهقي : عباد بن عبد الصمد ضعيفٌ ، وهذا منكر بمرة .

قلت : عباد بن عبد الصمد هذا هو أبو معمر البصري ، روى عن أنس نسخة ؛ قال ابن حِبان[٣] ،

---

(١) اختصر ابن كثير النص هاهنا فالتبس مضمونه . والذي عند ابن عساكر ، في المختصر (٨/ ٦٥) : عن أنس قال : كان رسول الله ﷺ يتوضأ من الليل إلى الليل ، فخرجتُ معه ذات ليلة في بعض طرق المدينة ومعي الطَّهُور ، فسمعت صوت رجل يدعو : اللهم أعني على ما ينجيني مما خوّفتني . فقال رسول الله ﷺ : لو دعا بالتي تليها ـ قال : وفّق الله على لسان الداعي الذي كان في نفس رسول الله ﷺ ـ فقال : اللهم ارزقني شوق الصادقين إلى ما شوقتهم إليه . فقال : دع الطهور يا أنس ، جُمعتا له وربّ الكعبة ، ائت هذا الداعي فقل له : ادع لرسول الله ﷺ فليُعنه الله على ما بعثه ، وادع لأمته أن يأخذوا ما آتاهم نبيهم . قال : من أرسلك؟ ـ قال : ولم يكن النبي ﷺ قال لي : أخبره من أرسلني ـ قال : فقلت : وما عليك؟ قال : لست أدعو حتى تخبرني من أرسلك . فقلت : وما عليك؟ قال : لست أدعو حتى تخبرني من أرسلك . قال : فأتيت النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله إنه أبى حتى أخبره من أرسلني . قال : قل له : « رسول الله ﷺ » . فأتيت فقلت له : رسول الله ﷺ أرسلني . قال : مرحباً برسول الله ﷺ ، وبرسوله ، أنا أحق أن آتي رسولَ الله ﷺ ، فائت رسول الله ﷺ وقل له : أنا أخوك الخضر ، وإن الله فضلك على النبيين كما فضّل رمضان على سائر الشهور ، وفضل أمتك على سائر الأمم ، كما فضل الجمعة على سائر الأيام . قال : فلما ولّيت سمعته يقول : اللهم اجعلني من هذه الأمة المرحومة المرشدة المتاب عليها .

(٢) في دلائل النبوة (٧/ ٢٦٩) .

(٣) المجروحين (٢/ ١٧١) .

والعقيلي[١] : أكثرها موضوع . وقال البخاري[٢] : منكر الحديث . وقال أبو حاتم[٣] : ضعيف الحديث جداً منكره . وقال ابن عدي[٤] : عامّة ما يرويه في فضائل علي ، وهو ضعيف غالٍ في التشيع .

وقال الشافعي في « مسنده »[٥] : أخبرنا القاسم بن عبد الله بن عمر ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن جدّه علي بن الحسين قال : لما توفي رسولُ الله ﷺ وجاءت التعزية سمعوا قائلاً يقول : إن في الله عزاءً من كلّ مصيبة ، وخلَفاً من كل هالك ، ودرَكاً من كل فائت ، فبالله فثقوا ، وإياه فارجوا ، فإن المصاب من حُرِمَ الثواب . قال علي بن الحسين : أتدرون من هذا ؟ هذا الخضر .

شيخ الشافعي القاسم العمري متروك ؛ قال أحمد بن حنبل[٦] ويحيى بن معين[٧] : يكذب . زاد أحمد : ويضع الحديث . ثمّ هو مرسل ، ومثله لا يعتمد عليه هاهنا ، والله أعلم .

وقد روي من وجه آخر ضعيف عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن جدّه ، عن أبيه ، عن علي . ولا يصح .

وقد روى عبد الله بن وهب عمن حدّثه ، عن محمد بن عجلان ، عن محمد بن المنكدر أن عمر بن الخطاب بينما هو يصلي على جنازة إذ سمع هاتفاً وهو يقول : لا تسبقنا يرحمك الله ، فانتظره حتى لحق بالصفِّ ، فذكر دعاءه للميت : إنْ تعذبه فكثيراً عصاك ، وإن تغفر له ففقير إلى رحمتك . ولما دُفن قال : طوبى لك يا صاحبَ القبر إن لم تكن عريفاً أو جابياً أو خازناً أو كاتباً أو شرطياً ، فقال عمر : خذوا الرجل نسأله عن صَلاته وكلامه عمَّن هو . قال : فتوارى عنهم ، فنظروا فإذا أثر قدمه ذراع . فقال عُمر : هذا ـ والله ـ الخضر الذي حدّثنا عنه رسول الله ﷺ[٨] . وهذا الأثر فيه متهم ، وفيه انقطاع ، ولا يصح مثله .

وروى الحافظ ابن عساكر عن الثوري ، عن عبد الله بن مُحَرَّر ، عن يزيد بن الأصم ، عن علي بن أبي طالب قال : دخلت الطوافَ في بعض الليل ، فإذا أنا برجل متعلقٍ بأستار الكعبة وهو يقول : يا من

---

(١) الضعفاء الكبير (٣/ ١٣٩) وعبارته : « وله عن أنس مناكير كثيرة » .

(٢) عده البخاري اثنين في تاريخه الكبير؛ عباد بن منصور أبو معمر، وقال: فيه نظر، وعباد بن عبد الصمد، سمع أنساً، وقال فيه: منكر الحديث (٦/ الترجمتان ١٦٢٩ و١٦٣٠) وهما واحد إن شاء الله، كما في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم وغيره.

(٣) الجرح والتعديل (٦/ الترجمة ٤٢١) .

(٤) الكامل في الضعفاء (٤/ ١٦٤٨) .

(٥) مسند الشافعي (٣٦١) وليس فيه قول علي بن الحسين بأن القائل هو الخضر .

(٦) العلل (٢/ ١٩٨) ، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٧/ الترجمة ٦٤٣) .

(٧) هذا نقله من الميزان للذهبي (٣/ ٣٧٢) ، ولم نقف على ذلك في تاريخ الدوري (٢/ ٤٨١) وسؤالات ابن الجنيد (الترجمة ٢١٧) ، بل فيهما : ليس بشيء .

(٨) الخبر في مختصر تاريخ دمشق (٨/ ٦٥) .

لا يمنعه سَمْع من سمع ، ويا من لا تغلطه المسائل ، ويا من لا يبرمه إلحاح الملحّين ، ولا مسألة السائلين ، ارزقني بَرْدَ عفوك ، وحلاوة رحمتك . قال : فقلت : أعِد عليَّ ما قلت . فقال لي : أوسمعتَه ؟ قلت : نعم . فقال لي : والذي نفس الخضر بيده - قال : وكان هو الخضر - لا يقولها عبدٌ خلفَ صلاة مكتوبة إلا غَفَر الله له ذنوبه . ولو كانت مثل زبد البحر ، وورق الشجر ، وعدد النجوم ، لغفرها الله له . وهذا ضعيف من جهة عبد الله بن المحَرَّر فإنه متروك الحديث[١] . ويزيد بن الأصم لم يدرك علياً ، ومثل هذا لا يصح . والله أعلم .

وقد رواه أبو إسماعيل الترمذي حدّثنا مالك بن إسماعيل ، حدّثنا صالح بن أبي الأسود ، عن محفوظ ابن عبد الله الحَضْرَمي ، عن محمد بن يحيى قال : بينما علي بن أبي طالب يطوف بالكعبة إذا هو برجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول : يا من لا يشغله سمع عن سمع ، ويا من لا يغلطه السائلون ، ويا من لا يتبرَّم بإلحاح الملحِّين ، أذقني برد عفوك وحلاوة رحمتك قال : فقال له علي : يا عبد الله أعِد دعاءك هذا . قال : وقد سمعتَه ؟ قال : نعم . قال : فادع به في دُبر كلِّ صلاة ، فوالذي نفس الخضر بيده لو كان عليك من الذنوب عددُ نجوم السماء ومطرها ، وحصباء الأرض وترابها ، لغفر لك أسرع من طرفة عين[٢] .

وهذا أيضاً منقطع وفي إسناده من لا يُعرف ، والله أعلم .

وقد أورده ابن الجوزي من طريق أبي بكر بن أبي الدنيا ، حدّثنا يعقوب بن يوسف ، حدّثنا مالك بن إسماعيل ، فذكر نحوه ، ثمّ قال : وهذا إسنادٌ مجهولٌ منقطعٌ ، وليس فيه ما يدل على أن الرجل الخضر .

وقال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر : أخبرنا أبو القاسم بن الحصين ، أخبرنا أبو طالب محمد بن محمد ، أخبرنا أبو إسحاق المُزَكِّي[٣] ، حدّثنا محمد بن إسحاق بن خزيمة ، حدّثنا محمد بن أحمد بن يزيد أملَّهُ[٤] علينا بعبَّادان ، أخبرنا عمرو بن عاصم ، حدّثنا الحسن بن رَزِيْن[٥] ، عن ابن جُرَيج ، عن عطاء ، عن ابن عباس قال - ولا أعلمه إلا مرفوعاً إلى النبي ﷺ - قال : يلتقي الخضرُ وإلياس كلّ عام في الموسم ، فيحلق كلُّ واحد منهما رأس صاحبه ، ويَتَفَرَّقان عن هؤلاء الكلمات : بسمِ اللهِ ، ما شاء الله ،

---

(١) تقريب التهذيب ، والضعفاء والمتروكين للبخاري (٦٧) ، وللنسائي (٦٣) ، والمجروحين لابن حبان (٢/ ٢٢ - ٢٤) .

(٢) أورد ابن منظور هذه الرواية في مختصره لابن عساكر (٨/ ٦٦) .

(٣) المزَكّي ، بضم الميم وفتح الزاي ، وكاف مشددة ، يقال هذا لمن يزكي الشهود ويبحث عن حالهم ويعرفه القاضي . وأبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن يحيى المزكي شيخ نيسابور في عصره ، وكان من العبّاد المجتهدين . كثير الحج . رحل في طلب الحديث . وتوفي سنة (٣٦٢هـ) . اللباب (٣/ ٢٠٤) .

(٤) في ب وط : أملاه ، وهو أصوب .

(٥) في ط : « الحسن بن زريق » خطأ بيّن ، فإن الحسن بن زريق الطهوي يروي عن ابن عيينة ، والحسن بن رزين هذا يروي عن ابن جريج ، وقد ساق كل من العقيلي وابن عدي والذهبي في الميزان هذا الحديث في ترجمته كما سيأتي .

لا يسوق الخيرَ إلا الله ، ما شاء الله ، لا يَصْرِفُ السوء إلا الله ، ما شاء الله ، ما كان من نِعمة فمن الله ، ما شاء الله ، لا حول ولا قوة إلا بالله . قال : وقال ابن عباس : من قالهنَّ حين يُصبح وحين يُمسي ثلاث مرات آمَنَه اللهُ من الغَرق والحرق والسَّرَق. قال: وأحسبه قال: ومن الشيطان والسُّلطان والحية والعقرب[١] .

قال الدارقطني في « الأفراد » : هذا حديث غريب من حديث ابن جُريج لم يُحدِّث به غير هذا الشيخ عنه ، يعني الحسن بن رَزِين هذا . وقد روى عنه محمد بن كثير العبدي أيضاً ، ومع هذا قال فيه الحافظ أبو أحمد بن عدي[٢] : ليس بالمعروف . وقال الحافظ أبو جعفر العقيلي[٣] : مجهول وحديثه غير محفوظ . وقال أبو الحُسين[٤] ابن المنادي : هو حديث واهٍ بالحسن بن رَزِين .

وقد روى ابن عساكر نحوه[٥] من طريق علي بن الحسن الجهضمي ـ وهو كذاب ـ عن ضَمرة بن حبيب المقدسي ، عن أبيه ، عن العلاء بن زياد القُشَيْري ، عن عبد الله بن الحسن ، عن أبيه ، عن جده ، عن علي بن أبي طالب مرفوعاً قال : يجتمع كلَّ يوم عَرَفة بعرفات جِبريل وميكائيل وإسرافيل والخضر . . . وذكر حديثاً طويلاً موضوعاً تركنا إيراده قصداً ، ولله الحمد .

وروى ابن عساكر من طريق هشام بن خالد ، عن الحسن بن يحيى الخُشَنِي ، عن ابن أبي رَوّاد قال : إلياس والخضِر يصومان شهرَ رمضان في بيت المقدس ، ويحجان في كلِّ سنة ، ويشربان من ماء زمزم شَربةً واحدةً تكفيهما إلى مثلها من قابل[٦] .

وروى ابن عساكر أن الوليد بن عبد الملك بن مروان باني جامع دمشق أحبَّ أن يتعبَّدَ ليلةً في المسجد ، فأمر القُوَمَة[٧] أن يخلوه له ، ففعلوا ، فلما كان من الليل جاء من باب الساعات فدخل الجامع فإذا رجل قائم يصلي فيما بينه وبين باب الخضراء ، فقال للقُوَمة : ألم آمركم أن تخلوه ؟ فقالوا : يا أمير المؤمنين هذا الخضِر يجيء كلَّ ليلة يصلي هاهنا .

وقال ابن عساكر أيضاً : أخبرنا أبو القاسم إسماعيل بن أحمد ، أخبرنا أبو بكر بن الطبري ، أخبرنا

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٨/ ٦٦) .
(٢) الكامل (٢/ ٧٤٠) .
(٣) الضعفاء الكبير (١/ ٢٢٤) .
(٤) في ط : « الحسن » ، محرف ، وهو أبو الحسين أحمد بن جعفر بن محمد المعروف بابن المنادي المتوفى سنة ٣٣٦ كما في تاريخ الخطيب (٥/ ١١٠) (ط. د. بشار) والسير (١٥/ ٣٦١) وغيرهما .
(٥) مختصر تاريخ دمشق (٨/ ٦٦ ـ ٦٧) ، وذكره المزي في تهذيب الكمال (١٣/ ٣١٥ ـ ٣١٦) ، والذهبي في الميزان (٢/ ٣٣٠) .
(٦) مختصر تاريخ دمشق (٨/ ٦٧) .
(٧) القومة : الخدم .

أبو الحسين بن الفضل ، أخبرنا عبد الله بن جعفر ، حدّثنا يعقوب ـ وهو ابن سفيان الفَسَوي ـ حدّثني محمد بن عبد العزيز ، حدّثنا ضَمْرة[١] ، عن السري بن يحيى ، عن رياح بن عَبيدة قال : رأيتُ رجلاً يماشي عمر بن عبد العزيز معتمداً على يديه ، فقلت في نفسي : إن هذا الرجل جاف ، قال[٢] : فلما انصرف من الصلاة قلت : مَن الرجل الذي كان معتمداً على يدك آنفاً ؟ قال : وهل رأيته يا رياح ؟ قلت : نعم . قال : ما أحسبك إلا رجلاً صالحاً ، ذاك أخي الخضِر بشّرني أني سألي وأعدل[٣] .

قال الشيخ أبو الفرج بن الجوزي[٤] : الرَّملي مجروح عند العلماء[٥] . وقد قدح أبو الحسين بن المنادي في ضمرة ، والسري ، ورياح[٦] . ثمّ أورد من طرق أُخر عن عمر بن عبد العزيز أنه اجتمع بالخضر ، وضعَّفها كلَّها[٧] .

وروى ابن عساكر أيضاً أنه اجتمع بإبراهيم التيمي ، وبسفيان بن عُيينة وجماعة يطول ذكرهم[٨] . وهذه الروايات والحكايات هي عُمدة مَن ذهب إلى حياته إلى اليوم ، وكُلٌّ من الأحاديث المرفوعة ضعيفة

---

(١) في أ وط : (حمزة) وهو سهو ، وأثبتنا ما في ب ، وسيذكره المؤلف بعد قليل على الصواب .

(٢) في ط : حافي . وفي ب : حافٍ فلما .

(٣) مختصر ابن عساكر (٨/ ٦٩ ـ ٧٠) .

(٤) كلام ابن الجوزي صحيح، وقد ذكره في كتابه الضعفاء (٣/ ٧٧)، وهو محمد بن عبد العزيز العمري الرملي، قال أبو زرعة: ليس بالقوي، وقال أبو حاتم: كان عنده غرائب ولم يكن عندهم بالمحمود هو إلى الضعف ما هو، وقال البزار: لم يكن بالحافظ، لكن وصفه يعقوب بن سفيان بالحفظ ووثقه العجلي وحده، وذكره ابن حبان في الثقات وقال: ربما خالف. وقد انتقى الإمام البخاري حديثين من حديثه أحدهما في التفسير والثاني في الاعتصام (تحرير التقريب ٣/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣) .

(٥) هو محمد بن عبد العزيز الرملي . قال ابن حجر : صدوق يهم . التقريب (٢/ ١٨٦) .

(٦) كلام ابن المنادي هذا، إن صح عنه، فيه نظر، فإن ضمرة وهو ابن ربيعة الفلسطيني ثقة يهم قليلاً وإن قال الحافظ ابن حجر: « صدوق يهم قليلاً » فقد وثقه الأئمة: ابن معين، وأحمد، والنسائي، وآدم بن أبي إياس، وابن سعد، وابن حبان، والعجلي، ولم يتكلم فيه سوى زكريا الساجي، وله أوهام قليلة (تحرير التقريب ٢/ ١٥١ ـ ١٥٢). أما السري ابن يحيى فهو ثقة ولم يضعفه سوى الأزدي، وتضعيفه شبه لا شيء لأنه متكلم فيه كما في التقريب، ورياح بن عبيدة ثقة أيضاً كما في التقريب.

(٧) زاد هنا في ب : وذكر ابن عساكر في ترجمة رجل تطلبه سليمان بن عبد الملك أنه فرّ منه في البلاد يميناً وشمالاً ، فبينما هو يوماً في بعض الأماكن إذا رجل يصلي ، فاقترب ، فلما سلّم قال له : لعل هذا الطاغي أخافك؟ قال : نعم . فقال : قل : سبحان الله الواحد الذي ليس غيره إلّه ، سبحان القديم الذي لا بادئ له . سبحان الدائم الذي لا نفاد له . سبحان الذي كل يوم هو في شأن . سبحان الذي يحيي ويميت . سبحان الذي خلق ما يُرى وما لا يُرى . سبحان الذي علِمَ كل شيء بغير تعَلُّم . قال : فلما قلتها أمن قلبي ورجعت إلى سليمان فأجلسني معه على الفراش وقال : ساحر والله لقد أردت قتلك فما تمالكت إذ رأيتك أني أجلستك معي . فقلت : إن من قصتي كذا وكذا . فقال : الخضر والله ، والله الخضر ، والله .

(٨) مختصر تاريخ دمشق (٨/ ٦٨ ـ ٧٠) .

جداً لا يقوم بمثلها حجة في الدين ، والحكايات لا يخلو أكثرها عن ضعف في الإسناد . وقصاراها أنها صحيحة إلى من ليس بمعصوم من صحابي أو غيره لأنه يجوز عليه الخطأ . والله أعلم .

وقال[1] عبد الرزاق أخبرنا مَعْمَر ، عن الزُّهْري ، أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عُتبة أن أبا سعيد قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثاً طويلاً عن الدجّال ، وقال فيما يحدثنا : يأتي الدجّال وهو مُحَرَّم عليه أن يدخل نقاب المدينة ، فيخرج إليه يومئذ رجلٌ هو خير الناس أو من خيرهم ، فيقول : أشهدُ أنك أنت الدجّال الذي حدّثنا عنك رسول الله ﷺ بحديثه . فيقول الدجّال : أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته أتشكّون في الأمر ؟ فيقولون : لا . فيقتله ثم يُحييه ، فيقول حين يحيا : والله ما كنتُ أشدَّ بصيرة فيك مني الآن . قال : فيريد قتله الثانية فلا يُسلَّط عليه . قال مَعْمَر : بلغني أنه يجعل على حلقه صفيحة نحاس . وبلغني أنه الخضر الذي يقتله الدجّال ثمّ يُحييه .

وهذا الحديث مخرج في « الصحيحين » من حديث الزُّهري ، به[2] .

وقال أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سُفيان الفقيه الراوي عن مسلم : الصحيح أن يقال : إن هذا الرجل الخضر . وقول معمر وغيره : « بلغني » ، ليس فيه حجة . وقد ورد في بعض ألفاظ الحديث : فيأتي بشابٍ ممتلئ شباباً فيقتله . وقوله : « الذي حدّثنا عنه رسول الله ﷺ » لا يقتضي المشافهةَ ، بل يكفي التواتر .

وقد تصدَّى الشيخ أبو الفرج بن الجوزي ـ رحمه الله ـ في كتابه (عُجالة المنتظِر في شرح حال الخضِر) للأحاديث الواردة في ذلك من المرفوعات ، فبيّن أنها موضوعات ، ومن الآثار عن الصحابة والتابعين فمن بعدهم ، فبيّن ضعف أسانيدها ببيان أحوالها وجهالة رجالها ، وقد أجاد في ذلك وأحسن الانتقاد .

وأما الذين ذهبوا إلى أنه قد مات ، ومنهم البخاري ، وإبراهيم الحربي ، وأبو الحسين بن المنادي ، والشيخ أبو الفرج ابن الجوزي ؛ وقد انتصر لذلك وصنَّف فيه كتاباً سماه (عجالة المنتظِر في شرح حال الخضر)، فيحتج لهم بأشياء كثيرة. منها قوله تعالى ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ﴾ [الأنبياء: ٣٤] فالخضر إن كان بشراً فقد دخل في هذا العموم لا محالة، ولا يجوز تخصيصه منه إلا بدليل صحيح . والأصل عدمه حتى يثبت ، ولم يذكر ما فيه دليل على التخصيص عن معصوم يجب قبوله . ومنها أن الله تعالى قال : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران : ٨١]

---

(١) في ب : قال . والحديث في مصنف عبد الرزاق (١١/ ٣٩٣) رقم (٢٠٨٢٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الحج (١٨٨٢)، وفي الفتن (٧١٣٢) من طريق عقيل وشعيب، عن الزهري. وأخرجه مسلم في الفتن (٢٩٣٨) (١١٢) من طريق صالح بن كيسان عن الزهري .

قال ابن عباس : ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق لئن بُعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق لئن بُعث محمد وهم أحياء ليؤمِنُنَّ به وينصرنه . ذكره البخاري عنه ، فالخضر إن كان نبياً أو ولياً، فقد دخل في هذا الميثاق، فلو كان حياً في زمان رسول الله ﷺ لكان أشرف أحواله أن يكون بين يديه يؤمن بما أنزل الله عليه ، وينصره أن يصل أحد من الأعداء إليه ، لأنه إن كان ولياً فالصِّدِّيق أفضلُ منه ، وإن كان نبياً فموسى أفضلُ منه . وقد روى الإمام أحمد في (مسنده) : حدّثنا شُريح بن النعمان ، حدّثنا هُشيم ، أنبأنا مجالد ، عن الشعبي ، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « والذي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى كانَ حَيّاً ما وَسِعَه إلاّ أنْ يَتَّبِعَني »[1] . وهذا الذي يُقطع به ، ويُعلم من الدين علم الضرورة .

وقد دلّت عليه هذه الآية الكريمة أن الأنبياء كلّهم لو فرض أنهم أحياء مكلّفون في زمن رسول الله ﷺ لكانوا كلّهم أتباعاً له وتحت أوامره وفي عموم شرعه ، كما أنه صلوات الله وسلامه عليه لمّا اجتمع معهم ليلة الإسراء رُفع فوقهم كلّهم ، ولما هبطوا معه إلى بيت المقدس وحانت الصلاة ، أمره جبريل عن أمر الله أن يَؤُمَّهم ، فصلّى بهم في محلّ ولايتهم ، ودار إقامتهم ، فدلّ على أنه الإمام الأعظم ، والرسول الخاتم المبجّل ، المقدَّم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

فإذا عُلم هذا ، وهو معلوم عند كلِّ مؤمن ، علم أنه لو كان الخضِر حياً لكان من جملة أمة محمد ﷺ وممن يقتدي بشرعه ، لا يسعه إلاّ ذلك . هذا عيسى بن مريم عليه السلام إذا نزل في آخر الزمان يحكم بهذه الشريعة المطهّرة لا يخرج منها ولا يحيد عنها، وهو أحد أُولي العزم الخمسة المرسلين، وخاتم أنبياء بني إسرائيل ، والمعلوم أن الخضِر لم يُنقل بسند صحيح ولا حسن تسكن النفس إليه أنه اجتمع برسول الله ﷺ في يوم واحد ، ولم يشهد معه قتالاً في مشهد من المشاهد ، وهذا يوم بدر يقول الصَّادِق المصدوقُ فيما دعا به لربه عزّ وجلّ، واستنصره ، واستفتحه على من كفره : « اللهمَّ إنْ تهلِكْ هذهِ العِصَابةُ لا تُعْبَدُ بَعْدَها في الأرْضِ »[2] وتلك العصابة كان تحتها سادة المسلمين يومئذ وسادة الملائكة ، حتى جبريل عليه السلام كما قال حسان بن ثابت في قصيدة له في بيت يقال : إنه أفخر بيت قالته العرب : [من الكامل]

وبئرُ بـدْرٍ إذْ يـردّ وُجـوهَهـم   جِبْريلُ تحتَ لِوائِنا ومحمدُ[3]

فلو كان الخضر حياً لكان وقوفه تحت هذه الراية أشرف مقاماته ، وأعظم غزواته .

قال القاضي أبو يعلى محمد بن الحسين بن الفرّاء الحنبلي : سُئل بعض أصحابنا عن الخضِر هل ماتَ ؟ فقال : نعم . قال : وبلغني مثل هذا عن أبي طاهر بن الغباري ، قال : وكان يحتج بأنه لو كان حياً لجاء إلى رسول الله ﷺ . نقله ابن الجوزي في « العُجالة » .

---

(١) الحديث بتمامه في مسند أحمد (٣/ ٣٨٧) . (وسيأتي في ٤/ ٦٩) من هذا الكتاب .
(٢) الحديث بتمامه أخرجه مسلم (١٧٦٣) في الجهاد ، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر .
(٣) ليس في ديوانه . وفي ب : وبيوم بدر .

فإن قيل : فهلا يقال : إنه كان حاضراً في هذه المواطن كلّها ولكن لم يكن أحدٌ يراه ؟ فالجواب : أن الأصل عدم هذا الاحتمال البعيد الذي يلزم منه تخصيص العمومات بمجرّد التوهُّمات . ثمّ ما الحامل له على هذا الاختفاء ، وظهوره أعظم لأجره ، وأعلى في مرتبته ، وأظهر لمعجزته . ثمّ لو كان باقياً بعده لكان تبليغه عن رسول الله ﷺ الأحاديث النبوية ، والآيات القرآنية ، وإنكاره لِمَا وقع من الأحاديث المكذوبة ، والروايات المقلوبة ، والآراء البدعية ، والأهواء العصبية ، وقتاله مع المسلمين في غزواتهم ، وشهوده جمعهم وجماعاتهم ، ونفعه إياهم ودفعه الضرر عنهم ممن سواهم ، وتسديده العلماء والحكام ، وتقديره الأدلة والأحكام أفضل ما يقال عنه من كونه في الأمصار ، وجَوْبه الفيافي والأقطار . واجتماعه بعباد لا يعرف أحوال كثير منهم ، وجعله لهم كالنقيب المترجم عنهم . وهذا الذي ذكرناه لا يتوقّف أحد فيه بعد التفهيم ، والله يهدي من يَشاء إلى صراط مستقيم .

ومن ذلك ما ثبت في (الصحيحين) وغيرهما عن عبد الله بن عُمر ، أن رسول الله ﷺ صلَّى ليلةً العِشاءَ ثم قال: «أرأيْتُم لَيْلَتكُم هذِهِ فإنَّهُ إلى مِئة سَنَةٍ لا يَبْقَى مِمَّنْ هُو عَلَى وَجْهِ الأرْضِ اليَوْمَ أَحَدٌ»[1] . وفي رواية: « عَيْنٌ تَطرفُ » . قال ابن عمر : فَوَهَلَ[2] الناس في مقالة رسول الله ﷺ هذه ، وإنما أراد انخرام قرنه .

قال الإمام أحمد[3] : حدّثنا عبد الرزاق[4] ، أنبأنا مَعمر ، عن الزهري قال : أخبرني سالم بن عبد الله وأبو بكر بن سليمان بن أبي حَثْمةَ أن عبد الله بن عمر قال : صلّى رسول الله ﷺ ذات ليلة صلاة العشاء في آخر حياته ، فلما سلّم قام فقال : « أرأيْتُم لَيلتكم هذهِ فإنَّ علَى رأسِ مِئة سَنَةٍ لا يَبْقَى ممن على ظهر الأرض أحدٌ » . وأخرجه البخاري[5] ، ومُسلم[6] من حديث الزهري .

وقال الإمام أحمد[7] : حدّثنا محمد بن أبي عدي ، عن سليمان التيمي ، عن أبي نضرة ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ قبل موته بقليل أو بشهر : « ما مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ ، أو ما مِنْكُم مِنْ نَفْسٍ اليومَ مَنْفُوسَةٍ يأتي عَلَيها مئة سَنَةٍ وهيَ يَوْمَئذٍ حَيَّة » .

---

(١) أخرجه البخاري : برقم (١١٦) ، في العلم ، باب السمر في العلم ، ومسلم رقم (٢٥٣٧) في فضائل الصحابة عن الزهري ، باب قوله ﷺ : « لا تأتي مئة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة اليوم » .

(٢) وَهَلَ : غلط ، يقال : وهل يهل وَهْلاً ، أي : غلط وذهب وهمه إلى غير الصواب . أما وَهِلت بكسر الهاء ، فمعناه : فزعت .

(٣) في مسنده (٢/ ٨٨) .

(٤) وهو في مصنفه (٢٠٥٣٤) .

(٥) البخاري (١١٦) و(٥٦٤) .

(٦) مسلم (٢٥٣٧) .

(٧) المسند (٣/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦) .

وقال أحمد[١] : حدّثنا موسى بن داود ، حدّثنا ابن لَهِيْعة ، عن أبي الزبير ، عن جابر ، عن النبي ﷺ أنه قال قبل أن يموت بشهر : « تَسْأَلونَني عَنِ السَّاعَةِ وَإنّما عِلْمُها عِنْدَ اللهِ . أُقْسِمُ باللهِ ما عَلَى الأرْضِ نَفْسٌ مَنْفُوسَةٌ اليومَ يأتي عَلَيْها مئة سَنَةٍ » . وهكذا رواه مسلم[٢] من طريق أبي نَضرة وأبي الزبير كلٌّ منهما عن جابر بن عبد الله ، به[٣] نحوه .

وقال الترمذي[٤] : حدّثنا هنّاد ، حدّثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن أبي سفيان[٥] ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « ما على الأرْضِ مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ يأتي عَلَيها مئة سَنَةٍ » . وهذا أيضاً على شرط مسلم[٦] .

قال ابن الجوزي : فهذه الأحاديث الصِّحاح تقطع دابر دعوى حياة الخضر عليه السلام .

قالوا : فالخَضِر إن لم يكن قد أدرك زمان رسول الله ﷺ كما هو المظنون الذي يترقى في القوة إلى القطع ، فلا إشكال ، وإن كان قد أدرك زمانه ، فهذا الحديث يقتضي أنه لم يعش بعده مئة سنة ، فيكون الآن مفقوداً لا موجوداً ، لأنه داخل في هذا العموم ، والأصل عدم المخصِّص له حتى يثبت بدليل صحيح يجب قبوله . والله أعلم .

وقد حكى الحافظ أبو القاسم السُّهيلي في كتابه « التعريف والإعلام »[٧] عن البخاري ، وشيخه أبي بكر بن العربي أنه أدرك حياة النبي ﷺ ولكن مات بعده لهذا الحديث ، وفي كون البخاري ـ رحمه الله ـ يقول بهذا ، وأنه بقي إلى زمان النبي ﷺ نظر . ورجَّح السهيلي بقاءه ، وحكاه عن الأكثرين . قال : وأما اجتماعه مع النبي ﷺ وتعزيته لأهل البيت بعدَه ، فمروي من طُرق صِحاح[٨] . ثمّ ذكر ما تقدّم مما ضعَّفناه ، ولم يورد أسانيدها . والله أعلم .

***

---

(١) المسند (٣/ ٣٤٥) . وأخرجه من طريق آخر هو (٣٨٥) .
(٢) مسلم رقم (٢٥٣٨) في فضائل الصحابة، باب قوله ﷺ : « لا تأتي مئة سنة وعلى هذه الأرض نفس منفوسة اليوم ».
(٣) قوله : به ، ليس في ب .
(٤) أخرجه الترمذي رقم (٢٢٥٠) في الفتن ، باب (٦٤) .
(٥) في ب : أبي شعيب ، خطأ .
(٦) لكن الترمذي اقتصر على تحسينه .
(٧) التعريف والإعلام الورقة (٣٥) .
(٨) انظر ص٩٦ .

وَأمّا إلياس عَلَيه السّلام

فقال الله تعالى بعد قصة موسى وهارون من سورة الصافات ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الآيات : ١٢٣ ـ ١٣٢] .

قال علماء النسب : هو إلياس بن تشبين . ويقال : ابن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون . وقيل : إلياس بن العازر بن العيزار بن هارون بن عمران .

قالوا : وكان إرساله إلى أهل بعلَبَك غربي دمشق ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وأن يتركوا عبادة صَنَم لهم كانوا يسمونَه : بَعلا[١] . وقيل : كانت امرأة اسمها : بعل[٢] ، والأول أصح . ولهذا قال لهم ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ فكذّبوه ، وخالفوه ، وأرادوا قتله ، فيقال : إنه هرب منهم ، واختفى عنهم .

قال أبو يعقوب الأذرعي ، عن يزيد بن عبد الصمد ، عن هشام بن عمار قال : وسمعت من يذكر عن كعب الأحبار أنه قال : إن إلياس اختفى من ملك قومه في الغار الذي تحت الدم[٣] عشر سنين حتى أهلَكَ اللهُ الملِكَ وولّى غيرَه ، فأتاه إلياس ، فعرض عليه الإسلام ، فأسلم وأسلم من قومه خلقٌ عظيم غير عشرة آلاف منهم ، فأمر بهم فقتلوا عن آخرهم[٤] .

وقال ابن أبي الدنيا : حدّثني أبو محمد القاسم بن هاشم ، حدّثنا عمر بن سعيد الدمشقي ، حدّثنا سعيد بن عبد العزيز ، عن بعض مشيخة دمشق قال : أقام إلياس عليه السلام هارباً من قومه في كهف جبل عشرين ليلة ، أو قال أربعين ليلة ، تأتيه الغربان برزقه[٥] .

وقال محمد بن سعد كاتب الواقدي : أخبرنا هشام بن محمد بن السائب الكلبي ، عن أبيه قال : أول نبي بُعث إدريس ، ثمّ نوح ، ثمّ إبراهيم ، ثمّ إسماعيل وإسحاق ، ثمّ يعقوب ، ثمّ يوسف ، ثمّ لوط ، ثمّ

---

(١) استدركه محقق كتاب الأصنام لابن الكلبي (ص١٠٨) ، عن تاج العروس : (بعل) . وفي تاريخ الطبري (١/ ٤٦١) . وكان سائر بني إسرائيل قد اتخذوا صنماً يعبدونه من دون الله يقال له : بعل .

(٢) في تاريخ الطبري (١/ ٤٦١) عن ابن إسحاق .

(٣) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٢٣) .

(٤) تاريخ الطبري (١/ ٤٦٢) .

(٥) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٢٣) .

هود ، ثمّ صالح ، ثمّ شعيب ، ثمّ موسى وهارون ابنا عمران ، ثمّ إلياس بن تشبين بن العازر بن هارون بن عمران بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ، هكذا قال[١] . وفي هذا الترتيب نظر .

وقال مكحول ، عن كعب : أربعة أنبياء أحياء ، اثنان في الأرض : إلياس والخضر ، واثنان في السماء : إدريس وعيسى[٢] .

وقد قدّمنا قول من ذكر أن إلياس والخضر يجتمعان في كلِّ عام في شهر رمضان في بيت المقدس ، وأنّهما يحجّان كلّ سنة ، ويشربان من زمزم شَربة تكفيهما إلى مثلها من العام المقبل . وأوردنا الحديث الذي فيه أنهما يجتمعان بعرفات كلّ سنة ، وبيّنا أنه لم يصح شيء من ذلك ، وأن الذي يقوم عليه الدليل أن الخضر ماتَ ، وكذلك إلياس عليهما السلام . وما ذكره وهب بن منبّه وغيره أنه لما دعا ربه عز وجل أن يقبضه إليه لما كذبوه وآذوه ، فجاءته دابة لونُها لون النار ، فركبها وجعل الله له ريشاً وألبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب ، وصار ملكياً بشرياً سماوياً أرضياً ، وأوصى إلى اليسع بن أخطوب[٣] ففي هذا نظر ، وهو من الإسرائيليات التي لا تُصدّق ولا تكذب ، بل الظاهر أن صحتها بعيدة . والله أعلم .

فأما الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البيهقي : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، حدّثني أبو العباس أحمد بن سعيد المَعْداني[٤] ببخارى ، حدّثنا عبد الله بن محمود ، حدّثنا عبدان بن سنان ، حدّثني أحمد بن عبد الله البَرْقي ، حدّثنا يزيد بن يزيد البلوي ، حدّثنا أبو إسحاق الفزاري ، عن الأوزاعي ، عن مكحول ، عن أنس بن مالك قال : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر ، فنزلنا منزلاً ، فإذا رجلٌ في الوادي يقول : اللهم اجعلني من أمّة محمد ﷺ المرحومة المغفورة المتاب لها . قال : فأشرفت على الوادي فإذا رجلٌ طوله أكثر من ثلاثمئة ذراع ، فقال لي : من أنت ؟ فقلت : أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ . قال : فأين هو ؟ قلت : هو ذا يسمع كلامَك . قال : فأته فأقرئه السلامَ ، وقل له : أخوك إلياس يُقرئك السلامَ . قال : فأتيت النبي ﷺ فأخبرته ، فجاء حتى لقيه فعانقه وسلّم ، ثمّ قعدا يتحادثان ، فقال له : يا رسول الله إني ما آكل في سنة إلا يوماً ، وهذا يوم فطري ، فآكل أنا وأنت . قال : فنزلتْ عليهما مائدةٌ

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٢٣) . وانظر الطبقات لابن سعد (١/ ٤٠) .
(٢) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٢٤) .
(٣) تاريخ الطبري (١/ ٤٦٣) . ومختصر تاريخ دمشق (٥/ ٢٥ ـ ٢٧) .
(٤) المَعْداني ، بفتح الميم وسكون العين : نسبة إلى مَعْدان وهو اسم لجد أبي العباس أحمد بن سعيد بن أحمد بن محمد بن معدان . ترجمته في اللباب (٣/ ٢٣٢) . وفي دلائل النبوة : البغدادي ، وهو تحريف ، والحديث فيه (٥/ ٤٢١) .

من السماء عليها خبزٌ وحوت وكَرَفس[١] ، فأكلا وأطعماني وصلَّيا[٢] العصر ، ثم ودَّعه . ورأيته مرّ في السحاب نحو السماء . فقد كفانا البيهقي أمره وقال : هذا حديث ضعيف بمرَّة ، والعجب أن الحاكم أبا عبد الله النيسابوري أخرجه في « مستدركه »[٣] على الصحيحين ، وهذا مما يُستدرك به على « المستدرك » فإنه حديث موضوع مخالف للأحاديث الصحاح من وجوه . ومعناه لا يصح أيضاً ، فقد تقدم في « الصحيحين » أن رسول الله ﷺ قال : « إنَّ اللهَ خَلَقَ آدَم طُوْلُه سِتُّون ذراعاً في السماء » إلى أن قال : « ثُمَّ لَمْ يَزَلِ الخلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الآنَ »[٤] وفيه أنه لم يأت إلى رسول الله ﷺ حتى كان هو الذي ذهب إليه . وهذا لا يصح ، لأنه كان أحق بالسعي إلى بين يدي خاتم الأنبياء . وفيه أنه يأكل في السنة مرة ، وقد تقدم عن وهب أنه سلبه الله لذة المطعم والمشرب ، وفيما تقدم عن بعضهم أنه يشرب من زمزم كلّ سَنَةٍ شربةً تكفيه إلى مثلها من الحول الآخر . وهذه أشياء متعارضة ، وكلّها باطلة لا يصح شيءٌ منها .

وقد ساق ابن عساكر هذا الحديث من طريق آخر ، واعترف بضعفها ، وهذا عجب منه كيف تكلّم عليه ، فإنه أورده من طريق حسن بن عَرَفة ، عن هانئ بن الحسن ، عن بقية ، عن الأوزاعي ، عن مكحول ، عن واثلة بن الأسقع ، فذكر نحو هذا مطولاً[٥] ، وفيه أن ذلك كان في غزوة تبوك وأنه بعث إليه رسول الله ﷺ أنس بن مالك وحذيفة بن اليمان ، قالا : فإذا هو أعلى جسماً منا بذراعين أو ثلاثة ، واعتذر بعدم قدومه لئلا تنفر الإبل ، وفيه أنه لما اجتمع به رسول الله ﷺ أكلا من طعام الجنَّة وقال : إن لي في كلِّ أربعين يوماً أكلةً ، وفي المائدة خبز ورمان وعنب وموز ورُطَب وبقل ماعدا الكُرَّاث ، وفيه أن رسول الله ﷺ سأله عن الخضر فقال : عهدي به عام أول ، وقال لي : إنك ستلقاه قبلي ، فأقرئه مني السلام[٦] .

وهذا يدلّ على أن الخضر وإلياس بتقدير وجودهما ، وصحّة هذا الحديث لم يجتمعا به إلى سنة تسعٍ من الهجرة ، وهذا لا يسوغ شرعاً ، وهذا موضوع أيضاً .

وقد أورد ابن عساكر طرقاً فيمن اجتمع بإلياس من العباد[٧] ، وكلّها لا يُفرَح بها ، إمّا لضعف إسنادها أو لجهالة المسند إليه فيها . ومن أحسنها ما قال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدّثني بشر بن مُعاذ ، حدّثنا حماد بن واقد ، عن ثابت قال : كنا مع مصعب بن الزبير بسواد الكوفة ، فدخلت حائطاً أصلي فيه

---

(١) الكَرَفْس : بقل كثير المنافع .
(٢) في ط : وصلينا .
(٣) المستدرك (٢/ ٦١٧) . والبيهقي في الدلائل (٥/ ٤٢١) وقال الذهبي في تلخيص المستدرك : إنه حديث موضوع .
(٤) تقدم تخريج هذا الحديث .
(٥) زاد في ب هاهنا : وهذا موضوع أيضاً .
(٦) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٢٧ ـ ٢٩) .
(٧) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٢٩) .

ركعتين ، فافتتحت : ﴿ حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ﴾ [غافر : ١ ـ ٣] . فإذا رجل من خلفي على بغلة شهباءَ ، عليه مقطعات يمنية ، فقال لي : إذا قلت : ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ ﴾ فقل : يا غافر الذنب اغفر لي ذنبي . وإذا قلت : ﴿ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ ﴾ فقل : يا قابل التوب تقبل توبتي . وإذا قلت : ﴿ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ﴾ فقل : يا شديد العقاب لا تعاقبني . وإذا قلت : ﴿ ذِى ٱلطَّوْلِ ﴾ فقل : يا ذا الطول تطوّل عليّ برحمةٍ ، فالتفتُّ فإذا لا أحد ، وخرجت فسألت : مرَّ بكم رجل على بغلة شهباء عليه مقطعات يمنية ؟ فقالوا : ما مرَّ بنا أحد ، فكانوا لا يرون إلا أنه إلياس[١] .

وقوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أي : للعذاب ، إما في الدنيا والآخرة أو في الآخرة ، والأوّل أظهر على ما ذكره المفسرون والمؤرخون .

وقوله : ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ أي : إلا من آمن منهم .

وقوله : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴾ أي : أبقينا بعده ذِكراً حسناً له في العالمين ، فلا يذكر إلا بخير ، ولهذا قال : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴾ أي : سلام على إلياس ، والعرب تلحق النون في أسماء كثيرة وتبدلها من غيرها ، كما قالوا : إسماعيل وإسماعين ، إسرائيل وإسرائين ، وإلياس وإلياسين . ومن قرأ : ﴿ سَلامٌ على آلِ يَاسِين ﴾[٢] أي على آل محمد ، وقرأ ابن مسعود وغيره : ﴿ سَلامٌ على إدراسِين ﴾ ونقل عنه من طريق إسحاق عن عبيدة بن ربيعة عن ابن مسعود أنه قال : إلياس هو إدريس . وإليه ذهب الضحاك بن مزاحم ، وحكاه قتادة ومحمد بن إسحاق ، والصحيح أنه غيره كما تقدم . والله أعلم .

* * *

(١) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٢٩ ـ ٣٠) ، وهذا في إسناده حماد بن واقد وهو ضعيف .

(٢) هي قراءة نافع وابن عامر ويعقوب ، حجة القراآت (٦١٠ ـ ٦١١) والنشر (٢/ ٣٦٠) .

باب
ذكر[(١)] جَماعَة من أنبياء بني إسرائيل بعد موسى عليه السّلام

ثم نتبعهم بذكر داود وسليمان عليهما السلام .

قال ابن جرير في « تاريخه » : لا خلافَ بينَ أهلِ العلم بأخبار الماضين وأمور السالفين من أمتنا وغيرهم أن القيِّم[(٢)] بأمور بني إسرائيل بعد يوشع كان كالب بن يوفنا[(٣)] ـ يعني أحد أصحاب موسى عليه السلام ـ وهو زوج أخته مريم ، وهو أحد الرجلين اللذين ممن يخافون الله ، وهما يوشع وكالب ، وهما القائلان لبني إسرائيل حين نكلوا عن الجهاد : ﴿ ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة : ٢٣] قال ابن جرير[(٤)] : ثمّ من بعده كان القائم بأمور بني إسرائيل حِزْقيل بن بوذي ، وهو الذي دعا الله فأحيا الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت .

* * *

قصة حزقيل

قال الله تعالى ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٢٤٣] .

قال محمد بن إسحاق عن وهب بن مُنَبِّه : إن كالب بن يوفنا لما قبضه الله إليه بعد يوشع خلف في بني إسرائيل حِزقيل بن بوذي ، وهو ابن العجوز ، وهو الذي دعا للقوم الذين ذكرهم الله في كتابه ـ فيما بلغنا ـ ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ قال ابن إسحاق : فروا من الوباء ، فنزلوا بصعيد من الأرض فقال لهم الله : موتوا ، فماتوا جميعاً ، فحظروا عليهم حظيرة دون السباع فمضت عليهم دهور طويلة ، فمر بهم حزقيل عليه السلام فوقف عليهم متفكراً ، فقيل له : أتحب أن يبعثهم الله وأنت تنظر ؟ فقال : نعم . فأُمِر أن يدعو تلك العظام أن تكتسي لحماً ، وأن يتصل العصبُ بعضه ببعض ، فناداهم عن أمر الله له بذلك ، فقام القوم أجمعون وكبّروا تكبيرة رجلٍ واحدٍ[(٥)] .

---

(١) قوله : باب ـ ذكر ، ليس في ب ، وط .
(٢) في ط : القائم ، وهو لا يوافق نص الطبري .
(٣) تاريخ الطبري (١/ ٤٥٧) .
(٤) المصدر السابق (١/ ٤٥٧) .
(٥) اختصر ابن كثير هنا فأخل بمضمونه وقد ذكره الطبري مفصلاً في تاريخه (١/ ٤٥٧ ـ ٤٥٨) وتفسيره أيضاً (٥/ ٢٦٨).

وقال أسباط ، عن السدّي ، عن أبي مالك ، وعن أبي صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن أناس من الصحابة في قوله : ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ﴾ قالوا : كانت قرية يقال لها : دَاوَرْدَان[١] قِبَل واسط وقَع بها الطاعون فهرب عامة أهلها ، فنزلوا ناحية منها ، فهلك من بقي في القرية وسَلِم الآخرون فلم يمت منهم كثير ، فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين ، فقال الذين بقوا : أصحابُنا هؤلاء كانوا أحزم منا ، لو صنعنا كما صنعوا بقينا ، ولئن وقع الطاعون ثانية لنخرجن معهم . فوقع في قابل فهربوا وهم بضعة وثلاثون ألفاً ، حتى نزلوا ذلك المكان ، وهو واد أفيَح[٢] ، فناداهم ملك من أسفل الوادي وآخرُ من أعلاه : أن موتوا ، فماتوا حتى إذا هلكوا ، وبقيت أجسادهم مرَّ بهم نبي يقال له : حِزقيل ، فلما رآهم وقف عليهم فجعل يتفكّر فيهم ويلوي شدقيه وأصابعه ، فأوحى الله إليه : تريد أن أُريك كيف أحييهم ؟ قال : نعم . وإنما كان تفكره من قدرة الله عليهم . فقيل له : نادِ ، فنادى يا أيتها العظام إن الله يأمرك أن تجتمعي ، فجعلت العظام يطير بعضها إلى بعض حتى كانت أجساداً من عظام ، ثمّ أوحى الله إليه أن نادِ : يا أيتها العظام إن الله يأمرك أن تكتسي لحماً ، فاكتست لحماً ودماً ، وثيابها التي ماتت فيها . ثم قيل له : ناد ، فنادى : أيتها الأجساد إن الله يأمرك أن تقومي ، فقاموا . قال أسباط : فزعم منصور عن مجاهد أنّهم قالوا حين أُحيوا : سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت ، فرجعوا إلى قومهم أحياء يُعرفون أنهم كانوا موتى ، سَحْنَةُ[٣] الموت على وجوههم ، لا يلبسون ثوباً إلا عاد كفناً وسخاً[٤] حتى ماتوا بآجالهم التي كُتبت لهم[٥] .

وعن ابن عباس أنهم كانوا أربعة آلاف . وعنه : ثمانية آلاف . وعن أبي صالح : تسعة آلاف . وعن ابن عباس أيضاً : كانوا أربعين ألفاً .

وعن سعيد بن عبد العزيز : كانوا من أهل أذْرِعات[٦] . وقال ابن جريج عن عطاء : هذا مَثَل ، يعني أنه سيق مثلاً مبيناً أنه . « لن يغني حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ »[٧] ، وقول الجمهور أقوى إن هذا وقع[٨] .

---

(١) في أ وب وراوردان وفي بعض النسخ : دراوَرْدان ، وأثبتنا ما في ط . وهو موافق لما في المطبوع من تاريخ الطبري ، ومعجم البلدان ، وفيه : داوَردان : . . من نواحي شرقي واسط ، بينهما فرسخ . ثم أورد رأي ابن عباس وتفسيره للآية : ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ . . ﴾ .

(٢) الأفيح : كل موضع واسع .

(٣) السحنة : الهيئة واللون والحال .

(٤) في ب ، والطبري : دسما وفي ط : إلا عاد رسماً حتى ماتوا . والدسم : الدنس والوسخ .

(٥) تاريخ الطبري (١/ ٤٥٧ ـ ٤٥٩) .

(٦) مدينة في أطراف الشام ، تبعد عن دمشق نحو (١٠٠) كيلو متر جنوباً تعرف اليوم ب : درعا .

(٧) قطعة من حديث ، جرت مجرى المثل . تقدم تخريجها .

(٨) أورد الطبري في تفسيره (٢/ ٣٦٥ ـ ٣٦٩) ، معظم الآراء التي قيلت في تفسير هذه الآية وعددهم .

وقد روى الإمام أحمد ، وصاحبا « الصحيح » من طريق الزُّهري[١] ، عن عبد الحميد بن عبد الرحمن ابن زيد بن الخطاب ، عن عبد الله بن عبد الله بن الحارث بن نوفل ، عن عبد الله بن عباس أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى الشام حتى إذا كان بسَرْغ[٢] لقِيَه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه ، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام . فذكر الحديث ، يعني في مشاورته المهاجرين والأنصار ، فاختلفوا عليه ، فجاءه عبد الرحمن بن عوف ، ـ وكان متغيّباً ببعض حاجته ـ فقال : إن عندي من هذا علماً ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا كانَ بأرْضٍ وأنْتُم بها فَلا تَخْرُجُوا فِراراً مِنْه ، وإذا سَمِعْتُم بهِ بأرضٍ فلا تَقْدموا عَلَيه » فحمِدَ اللهَ عمرُ ثم انصرف .

وقال الإمام[٣] : حدّثنا حجاج ويزيد المعني[٤] قالا : حدثنا ابن أبي ذِئْب[٥] ، عن الزهري ، عن سالم ، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة ، أن عبد الرحمن بن عوف أخبر عُمر وهو في الشام[٦] عن النبي ﷺ : « إنّ هذا السقمَ عُذِّبَ بهِ الأُمَمُ قَبْلَكُم ، فإذا سَمِعْتُم بهِ في أرْضٍ فلا تَدْخُلُوها ، وإذا وَقَع بأرْضٍ وأنْتُم بها فَلاَ تَخْرُجُوا فِراراً مِنه » . قال : فرجع عمر من الشام . وأخرجاه من حديث مالك عن الزهري ، بنحوه[٧] .

قال محمد بن إسحاق ، ولم يذكر لنا مدة لبث حزقيل في بني إسرائيل ، ثمّ إن الله قبضه إليه ، فلما قُبض نسي بنو إسرائيل عهد الله إليهم ، وعظمت فيهم الأحداث ، وعبدوا الأوثان ، وكان في جملة ما يعبدونه من الأصنام صنم يسمونه بعلاً ، فبعث الله إليهم إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران .

قلت : لم يذكر ابن عساكر ترجمة حزقيل في « تاريخه »[٨] وقد قدّمنا قصة إلياس تبعاً لقصّة الخضر لأنهما يُقرنان في الذكر غالباً ، ولأجل أنها بعد قصة موسى في سورة الصّافات ، فتعجلنا قصته لذلك . والله أعلم .

قال محمد بن إسحاق فيما ذُكر له عن وهب بن منبه قال : ثمّ تنبأ فيهم بعد إلياس وصيُّه اليسع بن أخطوب عليه السلام .

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٩٢ و١٩٤) والبخاري : رقم (٥٧٢٩) في الطب ، باب ما يذكر في الطاعون . ومسلم رقم (٢٢١٩) في السلام ، باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها .

(٢) سَرْغ : أول الحجاز وآخر الشام بين المغيثة وتبوك ، من منازل حاج الشام معجم البلدان ، وفيه خبر عمر رضي الله عنه .

(٣) المسند (١/ ١٩٣) .

(٤) في أ : العنى . وفي ب : المغني ، بإعجام الغين . وفي ط : المفتي . وما أثبتناه عن المطبوع من مسند أحمد (١/ ١٩٣)

(٥) في ط : « ذؤيب » وهو تحريف بيّن .

(٦) في المطبوع من مسند أحمد : وهو يسير في طريق الشام .

(٧) أخرجه البخاري (٥٧٣٠) ، و(٦٩٧٣) ، ومسلم (٢٢١٩) .

(٨) قوله : ولم يذكر ابن عساكر ترجمة حزقيل في تاريخه ، زيادة من ب ، وهو كما قال .

وهذه قصّة اليسع عَليه السّلام

وقد ذكره الله تعالى مع الأنبياء في سورة الأنعام [الآية : ٨٦] في قوله : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ .

وقال تعالى في سورة ص : ﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴾ [الآية : ٤٨] .

قال إسحاق بن بشر أبو حذيفة : أخبرنا سعيد ، عن قتادة ، عن الحسن قال : كان بعد إلياس اليسع عليهما السلام ، فمكث ما شاء الله أن يمكث ، يدعوهم إلى الله مستمسكاً بمنهاج إلياس وشريعته ، حتى قبضه الله عزّ وجلّ إليه ، ثمّ خلف فيهم الخلُوف ، وعظمت فيهم الأحداث والخطايا ، وكثرت الجبابرة ، وقتلوا الأنبياء ، وكان فيهم ملك جبار[١] عنيدٌ طاغ . ويقال : إنه الذي تكفّل له ذو الكفل إن هو تاب ورجع دخل الجنة ، فسُمّي : ذا الكِفل .

قال محمد بن إسحاق : هو اليسع بن أخطوب .

وقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر في حرف الياء من « تاريخه » : اليسع وهو الأسباط بن عدي بن شوتلم بن أفراييم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل . ويقال : هو ابن عم إلياس النبي عليهما السلام . ويقال : كان مستخفياً معه بجبل قاسيون من ملك بَعْلَبَك ، ثم ذهب معه إليها ، فلما رُفع إلياس خلفه اليسع في قومه ، وتنبّاه[٢] الله بعده . ذكر ذلك عبد المنعم بن إدريس[٣] عن أبيه عن وهب بن منبه . قال : وقال غيره : وكان الأسباط[٤] ببانياس . ثم ذكر ابن عساكر قراءة من قرأ ﴿ اليسع ﴾ بالتخفيف وبالتشديد ، ومن قرأ ﴿ واللّيْسَعَ ﴾[٥] وهو اسم واحد لنبي من الأنبياء .

قلت : وقد قدمنا قصة ذي الكفل بعد قصة أيوب عليهما السلام ، لأنه قد قيل : إنه ابن أيوب . فالله أعلم .

فصلٌ

قال ابن جرير[٦] وغيره : ثم مرج أمر بني إسرائيل ، وعظمت منهم الخطوب والخطايا ، وقتلوا من

---

(١) قوله : جبار ، زيادة من ب .

(٢) في ط : ونبأه وهي أصوب . انظر مختصر تاريخ ابن عساكر (٢٨/ ٣٦) .

(٣) في ب : عبد المنعم بن إدريس بن سنان . ذكره ابن حِبان في المجروحين (٢/ ١٥٧) ، وقال : يضع الحديث على أبيه وعلى غيره من الثقات ، لا يحل الاحتجاج به ولا الرواية عنه . . . مات سنة (٢٢٨) ببغداد .

(٤) لفظ : الأسباط . سقط من ط .

(٥) حجة القراءات (٢٥٩) والنشر (٢/ ٢٦٠) .

(٦) تاريخ الطبري (١/ ٤٦٤) .

قتلوا من الأنبياء ، وسلَّط الله عليهم بدل الأنبياء ملوكاً جبّارين يظلمونهم ويسفكون دماءهم ، وسلّط الله عليهم الأعداء من غيرهم أيضاً ، وكانوا إذا قاتلوا أحداً من الأعداء يكون معهم تابوت الميثاق الذي كان في قُبة الزمان ـ كما تقدم ذِكره ـ فكانوا ينصرون ببركته وبما جعل الله فيه من السكينة ، والبقية مما ترك آل موسى وآل هارون ، فلما كان في بعض حروبهم مع أهل غزّة وعسقلان غلبوهم عليه وقهروهم على أخذه ، فانتزعوه من أيديهم . فلما علم بذلك مَلِك بني إسرائيل في ذلك الزمان مالت عنقُه فمات كمداً ، وبقي بنو إسرائيل كالغنم بلا راعٍ حتى بعث الله فيهم نبياً من الأنبياء يقال له : شمويل ، فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكاً ليقاتلوا معه الأعداء ، فكان من أمرهم ما سنذكره مما قصَّ الله في كتابه .

قال ابن جرير : فكان بين وفاة يوشع بن نون إلى أن بعث الله عزّ وجلّ شمويل بن بالي أربعمئة سنة وستون سنة . ثم ذكر تفصيلها بمدد الملوك الذين ملكوا عليهم وسماهم واحداً واحداً[١] ، تركنا ذِكرهم قصداً .

* * *

(١) تاريخ الطبري (١/ ٤٦٥) .

قصّة شمويل عليه السلام

وفيها بدء أمر داود عليه السلام[١]

هو شمويل ، ويقال له : أشمويل بن بالي بن علقمة بن حام[٢] بن اليهو بن تهو بن صوف[٣] بن علقمة بن ماحث بن عموصا بن عزريا .

قال مقاتل : وهو من ورثة[٤] هارون . وقال مجاهد : هو أشمويل بن هلفاقا[٥] ولم يرفع في نسبه أكثر من هذا ، فالله أعلم .

حكى السُّدِّي[٦] بإسناده عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة ، والثعلبي ، وغيرهم : أنه لما غلبت العمالقة من أرض غزة وعسقلان على بني إسرائيل ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وسبوا من أبنائهم جمعاً كثيراً ، وانقطعت النبوّة من سبط لاوي ، ولم يبق فيهم إلا امرأة حُبلى ، فجعلت تدعو الله عزّ وجلّ أن يرزقها ولداً ذكراً ، فولدت غلاماً ، فسمَّته أشمويل[٧] ، ومعناه بالعبرانية : إسماعيل ، أي سمع الله دعائي . فلما ترعرع بعثته إلى المسجد ، وأسلمته عند رجل صالح فيه يكون عنده ليتعلم من خيره وعبادته ، فكان عنده . فلما بلغ أشده[٨] بينما هو ليلة نائم إذا صوت يأتيه من ناحية المسجد فانتبه مذعوراً ، فظنه الشيخَ يدعوه ، فسأله أدعوتني ؟ فكره أن يُفزعه ، فقال : نعم نَمْ ، فنامَ . ثمّ ناداه الثانية فكذلك ، ثمّ الثالثة[٩] فإذا جبريل يدعوه فجاءه فقال : إن ربك قد بعثك إلى قومك . فكان من أمره معهم ما قصَّ الله في كتابه .

قال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا

---

(١) في ب : عليهما الصلاة والسلام ، وفي ط : قصة شمويل وفيها بدء أمر داود عليهما السلام .
(٢) في ط : يرخام . وهو موافق لما في تاريخ الطبري (١/ ٤٦٧) . وفي تفسير الطبري (٢/ ٣٧٣) : برحام ، بالباء الموحدة والحاء المهملة .
(٣) في تفسير الطبري (٢/ ٣٧٣) : ابن اليهو بن يهوصوق . . .
(٤) في ب : ذرية .
(٥) في بعض النسخ : هلفايا .
(٦) ونقله الطبري مفصلاً في تاريخه (١/ ٤٦٧) .
(٧) في تاريخ الطبري : سمعون .
(٨) في الطبري : فلما بلغ الغلام أن يبعثه الله نبياً . . .
(٩) في الطبري : فإن دعوتك الثالثة فلا تجبني .

مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [سورة البقرة : ٢٤٦ ـ ٢٥١] .

قال أكثر المفسرين : كان نبي هؤلاء القوم المذكورين في هذه القصة هو شمويل . وقيل : شمعون . وقيل : هما واحد . وقيل : يوشع ، وهذا بعيد ، لما ذكره الإمام أبو جعفر بن جرير في « تاريخه »(١) أن بين موت يوشع وبعثة شمويل أربعمئة سنة وستين سنة . فالله أعلم .

والمقصود : أن هؤلاء القوم لمّا أنهكتهم الحروب ، وقهرهم الأعداء ، سألوا نبيَّ الله في ذلك الزمان ، وطلبوا منه أن ينصّب لهم ملكاً يكونون تحت طاعته ليقاتلوا من ورائه ، ومعه وبين يديه الأعداء ، فقال لهم : ﴿ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي : وأيُّ شيءٍ يمنعنا من القتال ﴿ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ﴾ ، يقولون : نحن محروبون موتورون(٢) ، فحقيق لنا أن نقاتل عن أبنائنا المنهورين(٣) المستضعفين فيهم المأسورين في قبضتهم .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ . كما ذكر في آخر القصة أنه لم يجاوز النهرَ مع الملك إلا القليل ، والباقون رجعوا ونكلوا عن القتال .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾ . قال الثّعْلبي : وهو طالوت بن قيش بن

---

(١) تاريخ الطبري (١/ ٤٦٥) . وتفسيره (٢/ ٣٧٣) والقرطبي (٣/ ٢٤٣) .
(٢) في ب : محزونون مقهورون .
(٣) في ب : المنهوبين .

أبيال بن ضرار[١] بن لحوب بن أفيح بن أريش بن بنيامين[٢] بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل .

قال عكرمة والسدي : كان سقَّاءً . وقال وهب بن منبه : كان دبَّاغاً . وقيل غير ذلك[٣] ، فالله أعلم . ولهذا ﴿ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ ﴾ . وقد ذكروا أن النبوة كانت في سبط لاوي ، وأن الملك كان في سبط يهوذا ، فلما كان هذا من سبط بنيامين نفروا منه وطعنوا في إمارته عليهم ، وقالوا : ﴿ وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ ﴾ وذكروا أنه فقير لا سعة من المال معه ، فكيف يكون مثل هذا ملكاً ؟! .

﴿ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ ﴾ . قيل : كان الله قد أوحى إلى شمويل أن أيّ بني إسرائيل كان طوله على طول هذه العصا ، وإذا حضر عندك يفور هذا القرن الذي فيه من دهن القدس فهو ملكهم ، فجعلوا يدخلون ويقيسون أنفسهم بتلك العصا ، فلم يكن أحد منهم على طولها سوى طالوت ، ولما حضر عند شمويل فار ذلك القرن فدهنه منه ، وعيَّنه للملك[٤] عليهم ، وقال لهم : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ قيل : في أمر الحروب ، وقيل : بل مطلقاً ﴿ وَٱلْجِسْمِۖ ﴾ قيل : الطول . وقيل : الجمال . والظاهر من السياق أنه كان أجملهم ، وأعلمهم بعد نبيهم عليه السلام ﴿ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ ﴾ فله الحكم وله الخلق والأمر ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ وهذا أيضاً من بركة ولاية هذا الرجل الصالح عليهم ويُمْنِهِ عليهم أن يردَّ اللهُ عليهم التابوتَ الذي كان سُلب منهم وقَهرهم الأعداءُ عليه ، وقد كانوا يُنصرون على أعدائهم بسببه ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ قيل : طست من ذهب كان يُغْسَل فيه صدور الأنبياء . وقيل : السكينةُ[٥] مثل الريح الخَجُوج[٦] . وقيل : صورتها مثل الهرة إذا صرخت في حال الحرب أيقن بنو إسرائيل بالنصر .

﴿ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ ﴾ قيل : كان فيه رُضَاض[٧] الألواح وشيء من المنِّ

---

(١) في بعض النسخ : أنيال بن صرار .

(٢) في ط : طالوت بن قيش بن أفيل بن صارو بن تحورت بن أفيح بن أنيس بن بنيامين . . . وفي تاريخ الطبري : (١/ ٤٧٥) . شاول بن قيس . . . بن بحرت بن أفيح بن أيش . . .

(٣) تفسير الطبري (٢/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠) .

(٤) في ط : الملك .

(٥) قد ساق الطبري عدداً من الآراء في تأويل السكينة تفسيره (٢/ ٣٨٥) . وما بعدها .

(٦) ريح خجوج : أي شديدة المرور في غير استواء . وخَجَّتِ الريح في هبوبها تَخُجّ خُجوجاً : التوت .

(٧) الرضّ : دقُّ الشيءَ . ورُضَاضه : قِطَعُه وكسرُه .

الذي كان نزل عليهم بالتيه[(١)] ﴿ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ أي : تأتيكم به الملائكة يحملونه وأنتم ترون ذلك عياناً ليكون آيةً لله عليكم وحُجةً باهرةً على صدق ما أقوله لكم وعلى صحّة ولاية هذا الملِك الصالح عليكم ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ . وقيل : إنه لما غلب العمالقة على هذا التابوت وكان فيه ما ذكر من السكينة والبقية المباركة . وقيل : كان فيه التوراة أيضاً ، فلما استقر في أيديهم وضعوه تحت صنم لهم بأرضهم ، فلما أصبحوا إذا التابوت على رأس الصنم ، فوضعوه تحته ، فلما كان اليوم الثاني إذا التابوت فوق الصنم ، فلما تكرر هذا علموا أن هذا أمر من الله تعالى ، فأخرجوه من بلدهم وجعلوه في قرية من قراهم ، فأخذهم داء في رقابهم ، فلما طال عليهم هذا جعلوه في عجلة وربطوها في بقرتين وأرسلوهما ؛ فيقال : إن الملائكة ساقتهما[(٢)] حتى جاؤوا بهما ملأ بني إسرائيل وهم ينظرون كما أخبرهم نبيهم بذلك ، فالله أعلم على أي صفة جاءت به الملائكة . والظاهر أن الملائكة كانت تحمله بأنفسهم كما هو المفهوم[(٣)] من الآية ، والله أعلم . وإن كان الأول قد ذكره كثير من المفسرين أو أكثرهم[(٤)] .

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ﴾ . قال ابن عباس ، وكثير من المفسرين[(٥)] : هذا النهر هو نهر الأردن ، وهو المسمى بالشريعة[(٦)] ، فكان من أمر طالوت بجنوده عند هذا النهر عن أمر نبي الله له عن أمر الله له اختباراً وامتحاناً أنّ من شَرِب من هذا النهر اليوم فلا يصحبْني في هذه الغزوة ، ولا يصحبني إلا مَن لم يَطْعمْه إلا غرفة في يده . قال الله تعالى : ﴿ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ .

قال السدّي : كان الجيش ثمانين ألفاً ، فشرب منه ستةٌ وسبعونَ ألفاً ، وتبقّى معه أربعة آلاف . كذا قال[(٧)] .

وقد روى البخاري في « صحيحه » من حديث إسرائيل ، وزهير ، والثوري ، عن أبي إسحاق ، عن البَراء بن عازب قال : كنا ـ أصحابَ مُحمد ﷺ ـ نتحدث أنَّ عِدَّة أصحاب بدرٍ على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ، ولم يجاوز معه إلا بضعةَ عشرَ وثلاثمئة مؤمن[(٨)] .

---

(١) ساق الطبري عدداً من الآراء في تأويل البقية ، تفسيره (٢/ ٣٨٧ ـ ٣٨٨) .
(٢) في ب : ساقوهما وفي بعض النسخ : ساقتها .
(٣) في ط : كما هو مفهوم بالجنود من الآية ، بزيادة لفظ (الجنود) هنا وحذفه من الآية القادمة .
(٤) تفسير الطبري (٢/ ٣٨٨ ـ ٣٨٩) .
(٥) من بداية الآية الكريمة ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ ﴾ إلى قوله : وكثير من المفسرين ؛ ليس في ب .
(٦) الآراء في تأويل قوله ﴿ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ ﴾ في تفسير الطبري (٢/ ٣٩١) .
(٧) تفسير الطبري (٢/ ٢٩٢) .
(٨) الحديث في البخاري : رقم (٣٩٥٨) في المغازي ، باب عدة أصحاب بدر . وهو عند الطبري أيضاً في تفسيره (٢/ ٣٩٣) .

وقول السدّي إن عدة الجيش كانوا ثمانين ألفاً ، فيه نظر ، لأن أرض بيت المقدس لا تحتمل أن يجتمع فيها جيش مقاتلة يبلغون ثمانين ألفاً . والله أعلم[١] .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ ﴾ أي : استقلّوا أنفسَهم واستضعفُوها عن مقاومة أعدائهم بالنسبة إلى قلّتهم وكثرة عدد عدوهم . ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ يعني بها : الفرسان منهم[٢] . والفرسان أهل الإيمان والإيقان الصابرون على الجِلاد[٣] والجدال والطِّعان .

﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ طلبوا من الله أن يُفرغ عليهم الصبرَ، أي : يغمُرُهم به من فوقهم فتستقر قلوبهم ولا تقلق ، وأن يثبّت أقدامهم في مجال الحرب ومعترك الأبطال وحَومة الوغى ، والدعاء إلى النِّزال ، فسألوا التثبّت الظاهرَ والباطنَ ، وأن يُنزل عليهم النصر على أعدائهم ، وأعدائه من الكافرين الجاحدين بآياته وآلائه ، فأجابهم العظيم القدير السميع البصير الحكيم الخبير إلى ما سألوا ، وأنالهم ما إليه فيه رغبوا ، ولهذا قال : ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ أي : بحول الله لا بحولهم ، وبقوة الله ونصره لا بقوتهم وعددهم مع كثرة أعدائهم وكمال عددهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [آل عمران : ١٢٣] .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ ﴾ فيه دلالة على شجاعة داود عليه السلام ، وأنه قتله قتلاً أَذَلّ به جُنْدَهُ وكسره ، ولا أعظم من غزوة يُقتَل مَلِكُ عدوّها فيُغْنَمُ بسبب ذلك الأموال الجزيلة ، ويُؤسَر الشجعان والأقران[٤] ، وتعلو كلمة الإيمان على الأوثان ، ويُدالُ أولياء الله على أعدائه ، ويظهر الدين الحق على الباطل وأوليائه .

وقد ذكر السُّدّي فيما يرويه أن داود عليه السلام كان أصغر أولاد أبيه ، وكانوا ثلاثة عشر ذكراً ، وكان سمع طالوتَ ملك بني إسرائيل وهو يُحرّض بني إسرائيل على قتل جالوت وجنوده وهو يقول : من قتل جالوت زَوّجْتُه بابنتي ، وأشركته في ملكي ، وكان داود عليه السلام يرمى بالقَذَّافة ، وهو المقلاع ، رمياً عظيماً ، فبينا هو سائر مع بني إسرائيل إذ ناداه حَجَر أن خُذني فإنّ بي تَقْتل جالوتَ ، فأخذه . ثم حجر آخر كذلك ، ثم آخر كذلك . فأخذ الثلاثة في مِخْلاته . فلما تواجه الصفّان برز جالوتُ ودعا إلى نفسه ، فتقدَّم

---

(١) للطبري رأي في من جاوز مع طالوت النهر (٢/ ٣٩٤) .
(٢) في ب : يعني بهم الشجعان منهم .
(٣) في ب : الجهاد . والجلاد : الضرب بالسيف في القتال .
(٤) في ب : ويؤسر الشجعان والأبطال . وفي ط : ويأسر الأبطال والشجعان والأقران .

إليه داود ، فقال له : ارجع فإني أكره قتلَك . فقال : لكني أُحب قتلك ، وأخذ تلك الأحجار الثلاثة فوضَعها في القَذَّافة ، ثمّ أدارها فصارت الثلاثة حجراً واحداً ، ثمّ رمى بها جالوتَ ففلق رأسَه وفرَّ جيشُه منهزماً ، فوفى له طالوت بما وعدَه ، فزوَّجه ابنته ، وأجرى حكمه في ملكه ، وعظُم داودُ عليه السلام عند بني إسرائيل ، وأحبوه ومالوا إليه أكثر من طالوت . فذكروا أن طالوت حَسَده وأراد قتله ، واحتال على ذلك فلم يصل إليه . وجعل العلماءُ ينهون طالوتَ عن قتل داود ، فتسلّط عليهم ، فقتلهم حتى لم يبق منهم إلا القليلُ . ثمّ حصل له توبةٌ وندم وإقلاع عما سلف منه ، وجعل يُكثر من البكاء ويخرج إلى الجبَّانة فيبكي حتى يبلَّ الثرى بدموعه ، فنودي ذاتَ يوم من الجبانة : أن يا طالوت قَتَلتنا ، ونحن أحياء ، وآذيتنا ، ونحن أموات ، فازداد لذلك بكاؤه وخوفه ، واشتد وجله ، ثمّ جعل يسأل عن عالم يسأله عن أمره وهل له من توبة ، فقيل له : وهل أبقيت عالماً ؟! حتى دُل على امرأة من العابدات فأخذته فذهبت به إلى قبر يوشَع عليه السلام . قالوا : فدعتِ الله ، فقام يوشع من قبره فقال : أقامتِ القيامة ؟ فقالت : لا ، ولكن هذا طالوت يسألك هل له من توبة ؟ فقال : نعم . ينخلع من الملك ، ويذهب فيقاتل في سبيل الله حتى يُقتل . ثمّ عاد مَيْتاً . فترك الملكَ لداود عليه السلام ، وذهب ومعه ثلاثةَ عشرَ من أولاده ، فقاتلوا في سبيل الله حتى قُتلوا . قالوا : فذلك قوله : ﴿ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴾ .

هكذا ذكره ابن جرير في « تاريخه »[١] من طريق السدّي بإسناده . وفي بعض ذلك[٢] نظر ونكارة والله أعلم .

وقال محمد بن إسحاق : النبي الذي بعث فأخبر طالوت بتوبته هو اليسع بن أخطوب . حكاه ابن جرير[٣] أيضاً .

وذكر الثعلبي أنها أتت به إلى قبر أشمويل فعاتبه على ما صنع بعده من الأمور . وهذا أنسب . ولعلّه إنما رآه في النوم لا أنه قام من القبر حياً ، فإن هذا إنما يكون معجزةً لنبي ، وتلك المرأة لم تكن نبيَّةً . والله أعلم . قال ابن جرير[٤] : وزعم أهل التوراة أن مدّة ملك طالوت إلى أن قُتل مع أولاده كانت[٥] أربعين سنةً . فالله أعلم .

***

---

(١) (١/ ٤٧٣ ـ ٤٧٥) وفيه تفصيل وتوضيح كثير لما أوجزه ابن كثير هنا .

(٢) لفظ ذلك مستدرك من ب ، ومكانه فراغ في أ . وفي ط : هذا .

(٣) تاريخ الطبري (١/ ٤٧٥) .

(٤) قوله : قال ابن جرير ، سقط من ط ، والخبر في تاريخ الطبري ، كما أشار (١/ ٤٧٥) .

(٥) كانت . زيادة من أ وهي موافقة لما في الطبري . وفي ط : أربعون .

قصّة داود عليه السلام وَمَا كان في أيامه
وذكر فضائِله[١] وَشمائِله وَدَلائل نبوّته وأعلامه

هو داود بن إيشا بن عويد بن باغز[٢] بن سلمون بن نحشون بن عميناداب[٣] بن إرم بن حضرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عبد الله ونبيه وخليفته في أرض بيت المقدس .

قال محمد بن إسحاق ، عن بعض أهل العلم ، عن وهب بن منبّه : كان داود عليه السلام قصيراً ، أزرق العينين ، قليل الشعر ، طاهر القلب نقيه[٤] .

تقدم أنه لما قتل جالوت ، وكان قتله له ، فيما ذكر ابن عساكر[٥] ، عند قصر أم حكيم بقرب مرج الصُّفَّر[٦] فأحبته بنو إسرائيل ، ومالوا إليه وإلى ملكه عليهم ، فكان من أمر طالوت ما كان ، وصار الملك إلى داود عليه السلام ، وجمع الله له بين الملك والنبوة ، بين خير الدنيا والآخرة ، وكان الملك يكون في سبط ، والنبوة في آخر ، فاجتمع في داود هذا وهذا كما قال تعالى : ﴿ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي : لولا إقامة الملوك حكّاماً على الناس لأكل قويُّ الناسِ ضعيفَهم . ولهذا جاء في بعض الآثار : السلطان ظلّ الله في أرضه[٧] . وقال أمير المؤمنين عثمان بن عفان : إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .

وقد ذكر ابن جرير في « تاريخه » أن جالوت لما بارز طالوت فقال له : اخرج إلي وأخرج إليك ، فندب طالوت الناس فانتدب داود فقَتل جالوت . قال وهب بن مُنبّه : فمال الناس إلى داود حتى لم يكن لطالوت ذكر ، وخلعوا طالوت ، وولوا عليهم داود[٨] .

---

(١) في ط : ثم فضائله .

(٢) في أ وط : عابر . وفي بعض النسخ : عامر وأثبتنا ما في ب ، والطبري (١/ ٤٧٦) . وسيأتي كذلك في نسب سليمان عليه السلام .

(٣) في م : عويناداب . وفي بعض النسخ : عويناداب بن إرم بن حصرون . وأثبتنا ما في ب ، والطبري ، وسيأتي كذلك في نسب سليمان .

(٤) في ط : ونقيه . مختصر ابن منظور (٨/ ١٠٥) وتاريخ الطبري (١/ ٤٧٦) .

(٥) مختصر ابن منظور (٨/ ١٠٥) .

(٦) مرج الصفَّر : موضع إلى الجنوب من دمشق بينها وبين الجولان . معجم البلدان (الصفر ـ مرج الصفر) .

(٧) كنز العمال (١٤٥٨٠ ـ ١٤٥٨٥) والحديث رواه البيهقي في «شعب الإيمان» رقم (٧٣٧٣) وإسناده ضعيف في المرفوع .

(٨) تاريخ الطبري (١/ ٤٧٨) .

وقيل : إن ذلك كان عن أمر شمويل ، حتى قال بعضهم : إنه ولّاه قبل الوقعة . قال ابن جرير : والذي عليه الجمهور أنه إنما ولي ذلك بعد قتل جالوت والله أعلم[١] .

وروى ابن عساكر ، عن سعيد بن عبد العزيز أن قتله جالوت كان عند قصر أم حكيم ، وأن النهر الذي هناك هو المذكور في الآية . فالله أعلم .

وقال الله تعالى : ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سبأ : ١٠ ـ ١١] .

وقال تعالى : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٧٩ ـ ٨٠] .

أعانه الله على عمل الدروع من الحديد ليحصّن المقاتلة من الأعداء ، وأرشده إلى صنعتها وكيفيتها فقال : ﴿ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ﴾ أي : لا تُدِقَّ المسمارَ فيقلق[٢] ولا تُغلظه فيفصم . قاله مجاهد وقتادة والحكم وعكرمة[٣] .

قال الحسن البصري ، وقتادة ، والأعمش : كان الله قد ألان له الحديد حتى كان يفتله بيده لا يحتاج إلى نار ولا مطرقة . قال قتادة : فكان أول من عمل الدروع من زرد ، وإنما كانت قبل ذلك من صفائح .

قال ابن شوذب : كان يعمل كلّ يومٍ درعاً يبيعها بستة آلاف درهم . وقد ثبت في الحديث أن أَطْيَبَ ما أكل الرجل من كسبه ، وأن نبي الله داود كان يأكل من كسب يده[٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ [ص : ١٧ ـ ٢٠] .

قال ابن عباس ومجاهد : الأيد : القوة في الطاعة ، يعني كان ذا قوة في العبادة والعمل الصالح . قال قتادة : أُعطي قوةً في العبادة ، وفقهاً في الإسلام . قال : وقد ذُكر لنا أنه كان يقوم الليل ، ويصوم نصفَ الدهر .

وقد ثبت في « الصحيحين » أن رسول الله ﷺ قال : « أَحَبُّ الصَّلاةِ إلى اللهِ صَلاةُ داودَ وأَحَبُّ الصِّيامِ

---

(١) تاريخ الطبري (١/ ٤٧٨) .
(٢) في ط : فيغلق . وهو تصحيف . والقلق : الاضطراب وعدم الثبات .
(٣) في ب : وغيرهم . وهناك عدة أقوال في تفسير الطبري (٢٢/ ٤٧) .
(٤) الحديث عند البخاري برقم (٢٠٧٢) في البيوع ، باب كسب الرجل وعمله بيده . وفي الباب أحاديث أخرى . جامع الأصول (١٠/ ٥٧٠) .

إلى اللهِ صِيَامُ دَاودَ ، كان ينام نصفَ الليل ، ويقوم ثُلُثه . وينامُ سُدُسَه ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، ولا يفِرُّ إذا لاقى »[١] .

وقوله : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ، كما قال : ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾ أي : سبّحي معه . قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد في تفسير هذه الآية ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ أي : عند آخر النهار وأوّله ، وذلك أنه كان الله تعالى قد وهبه من الصوت العظيم ما لم يعطه أحداً ، بحيث إنه كان إذا ترنَّم بقراءة كتابه يقف الطير في الهواء يُرجِّع بترجيعه ويسبح بتسبيحه ، وكذلك الجبال تجيبه وتُسبِّح معه كلما سبَّح بُكرَةً وعَشِياً ، صلوات الله وسلامه عليه .

وقال الأَوزاعي[٢] : حدّثني عبد الله بن عامر قال : أُعطي داود من حسن الصوت ما لم يُعْطَ أحدٌ قَطّ ، حتى أن كان الطير والوحش ينعكف حوله حتى يموت عطشاً وجوعاً ، وحتى أن الأنهار لتقف .

وقال وهب بن منبه : كان لا يسمعه أحد إلا حَجَل[٣] كهيئة الرقص ، وكان يقرأ الزبور بصوت لم تسمع الآذان بمثله ، فيعكف الجن والإنس والطير والدواب على صوته حتى يهلك بعضها جوعاً .

وقال أبو عوانة الإسفراييني : حدّثنا أبو بكر بن أبي الدنيا ، حدّثنا محمد بن منصور الطوسي ، سمعت صبيحاً أنبأنا براد[٤] . (ح) قال أبو عوانة : وحدّثني أبو العباس المدني ، حدّثنا محمد بن صالح العدوي ، حدّثنا سيَّار ـ هو ابن حاتم ـ عن جعفر ، عن مالك قال : كان داود عليه السلام إذا أخذ في قراءة الزبور تفتقت العذارى . وهذا غريب .

وقال عبد الرزاق ، عن ابن جريج : سألت عطاء عن القراءة على الغناء فقال : وما بأس بذلك ، سمعت عبيد بن عُمير يقول : كان داود عليه السلام يأخذ المِعزَفة فيضرب بها فيقرأ عليها ، فترد عليه صوته . يريد بذلك أن يبكي وتبكي[٥] .

---

(١) أخرجه البخاري : رقم (٣٤٢٠) ، في الأنبياء ، باب أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، وليس فيه : « ولا يفر إذا لاقى » ، ومسلم رقم (١١٥٩) (١٨٩ ـ ١٩٠) في الصيام ، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوّت به حقاً . وفي لفظه تقديم وتأخير .

(٢) الأوزاعي هو عبد الرحمن بن عمرو بن يُحمد ، شيخ الإسلام ، وعالم أهل الشام . كان يسكن بمحلة الأوزاع ـ وهي العقيبة الآن ـ ظاهر باب الفراديس ـ وهو باب العمارة اليوم ـ ثم تحول إلى بيروت مرابطاً بها إلى أن مات رحمه الله سنة (١٥٧هـ) في سير أعلام النبلاء (٧/ ١٠٧) ومصادر ترجمته ثمة .

(٣) الحَجْل : أن يرفع رجلاً ويقفز على الأخرى من الفرح .

(٤) في بعض النسخ : سمعت صبيحاً أبا تراب .

(٥) ضبطت في ب : أن يَبكي ويُبكي .

وقال الإمام أحمد : حدّثنا عبد الرزاق ، حدّثنا مَعْمر ، عن الزهري ، عن عروة ، عن عائشة قالت : سمع رسول الله ﷺ صوت أبي موسى الأشعري وهو يقرأ فقال : « لقد أُوتي أبو مُوسَى مِنْ مَزَامِيْر آل داود »[١] . وهذا على شرط الشيخين ولم يخرجاه من هذا الوجه .

وقال أحمد[٢] : حدّثنا حسن[٣] ، حدّثنا حماد بن سلمة ، عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لقد أُعْطي أَبو مُوْسَى مِن مَزامِيْرِ داود » . على شرط مسلم .

وقد روينا عن أبي عثمان النهدي[٤] أنه قال : لقد سمعت البَرْبَط[٥] والمزمار ، فما سمعت صوتاً أحسن من صوت أبي موسى الأشعري .

وقد كان مع هذا الصوت الرخيم سريع القراءة لكتابه الزبور كما قال الإمام أحمد[٦]: حدّثنا عبد الرزاق، حدّثنا معمر، عن همام ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « خُفِّفَ عَلَى داود القِراءةُ فَكَانَ يأْمُرُ بِدَابَّتِهِ فَتُسْرَج ، فَكَانَ يَقْرَأُ القُرآنَ مِن قَبْل أَنْ تُسْرَجَ دَابَّتُهُ ، وَكَانَ لا يَأْكُلُ إلاَّ مِنْ عَمَلِ يَدَيْهِ » .

وكذلك رواه البخاري[٧] منفرداً به عن عبد الله بن محمد عن عبد الرزاق ، به . ولفظه : « خُفِّف عَلَى داودَ القرآنُ فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَوَابِّه فَتُسْرَج فَيَقْرَأُ القرآنَ قَبْلَ أَنْ تُسْرَجَ دَوَابُّه وَلاَ يَأْكُلُ إلاّ مِنْ عَمَل يديه[٨] » . ثم قال البخاري : ورواه موسى بن عقبة ، عن صفوان ـ هو ابن سليم ـ عن عطاء بن يسار ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ .

وقد أسنده ابن عساكر في ترجمة داود عليه السلام في « تاريخه » من طرق عن إبراهيم بن طهمان ، عن موسى بن عقبة . ومن طريق أبي عاصم ، عن أبي بكر السبري ، عن صفوان بن سليم ، به[٩] .

والمراد بالقرآن هاهنا الزبور الذي أنزله عليه وأوحاه إليه . وذكر رواية أشبه أن يكون محفوظاً ، فإنه كان ملكاً له أتباع ، فكان يقرأ الزبور بمقدار ما تُسرج الدواب ، وهذا أمر سريع مع التدبُّر والترنُّم والتغني

---

(١) المسند (٦/ ١٦٧) .
(٢) في مسنده (٢/ ٣٥٤) .
(٣) هو حسن بن موسى الأشيب .
(٤) في أ وط الترمذي . والصواب ما في ب . وأبو عثمان النهدي هو عبد الرحمن بن مل بن عمرو بن عدي توفي سنة (١٠٠هـ) . اللباب (٣/ ٣٣٦) .
(٥) البَرْبَط : العود .
(٦) المسند (٢/ ٣١٤) .
(٧) أخرجه البخاري برقم (٣٤١٧) في الأنبياء ، باب قوله تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ .
(٨) هكذا في أ وط وهو موافق لإحدى روايات البخاري ، وفي ب : « يده » وهي موافقة لإحدى روايات البخاري أيضاً .
(٩) مختصر تاريخ دمشق (٨/ ١٠٩) .

به على وجه التخشع ، صلوات الله وسلامه عليه . وقد قال الله تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ [الإسراء : ٥٥] والزبور كتاب مشهور ، وذكرنا في « التفسير » الحديث الذي رواه أحمد وغيره أنه أنزل في شهر رمضان ، وفيه من المواعظ والحكم ما هو معروف لمن نظر فيه .

وقوله : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ أي : أعطيناه ملْكاً عظيماً وحُكماً نافذاً . روى ابن جرير[١] ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس أن رجلين تداعيا إلى داود عليه السلام في بقر ادَّعى أحدهما على الآخر أنه اغتصبها منه ، فأنكر المدَّعى عليه ، فأرجأ أمرهما إلى الليل ، فلما كان الليل أوحى الله إليه أن يَقتل المدَّعي ، فلما أصبح قال له داود : إن الله تعالى قد أوحى إلي أن أقتلك ، فأنا قاتلك لا محالة ، فما خبرك فيما ادعيته على هذا ؟ قال : والله يا نبي الله إني لَمحق فيما ادعيت عليه ، ولكني كنت اغتلت أباه قبل هذا . فأمر به داود فقُتل ، فعظم أمرُ داود في بني إسرائيل جداً ، وخضعوا له خضوعاً عظيماً ، قال ابن عباس وهو قوله تعالى: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ أي : النبوة ، ﴿ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ ، قال شريح والشعبي وقتادة وأبو عبد الرحمن السُّلَمي وغيرهم : فصل الخطاب : الشهود والأيمان ، يعنون بذلك البيّنة على المدعي ، واليمين على من أنكر[٢] . وقال مجاهد والسّدي : هو إصابة القضاء وفهمه[٣] . وقال مجاهد : هو الفصل في الكلام وفي الحكم . اختاره ابن جرير[٤] وهذا لا ينافي ما رُوي عن أبي موسى أنه قول : أما بعد .

وقال وهب بن منبه : لما كثر الشر وشهادات الزور في بني إسرائيل أُعطي داود سلسلة لفصل القضاء ، فكانت ممدودة من السماء إلى صخرة بيت المقدس ، وكانت من ذهب ، فإذا تشاجر الرجلان في حق فأيهما كان محقاً نالها ، والآخر لا يصل إليها ، فلم تزل كذلك حتى أودع رجلٌ رجلاً لؤلؤة فجحدها منه ، واتخذ عكازاً وأودعها فيه ، فلما حضر عند الصخرة تناولها المدعي ، فلما قيل للآخر : خُذها بيدك عمد إلى العكاز فأعطاه المدعي وفيه تلك اللؤلؤة وقال : اللهم إنك تعلم أني دفعتها إليه ، ثمّ تناول السلسلة فنالها ، فأشكل أمرها على بني إسرائيل . ثمّ رفعت سريعاً من بينهم . ذكره بمعناه غير واحد من المفسرين . وقد رواه إسحاق بن بشر ، عن إدريس بن سنان ، عن وهب ، به ، بمعناه .

﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَـٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ٨٨) .
(٢) تفسير الطبري (٢٣/ ٨٩) .
(٣) تفسير الطبري (٢٣/ ٨٨) .
(٤) تفسير الطبري (٢٣/ ٨٩) .

وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ [سورة ص : ٢١ ـ ٢٥] .

قد ذكر كثير من المفسرين من السلف والخلف هاهنا قصصاً وأخباراً أكثرها إسرائيليات ، ومنها ما هو مكذوبٌ لا محالة ، تركنا إيرادها في كتابنا قصداً اكتفاءً واقتصاراً على مجرّد تلاوة القصّة من القرآن العظيم ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

وقد اختلف الأئمة في سجدة ﴿ ص ﴾ هل هي من عزائم السجود ، أو إنما هي سجدة شكر ليست من عزائم السجود ، على قولين .

قال البخاري[١] : حدّثنا محمد بن عبد الله ، حدّثنا محمد بن عبيد الطنافسي ، عن العوّام قال : سألت مجاهداً عن سجدة ﴿ ص ﴾ فقال : سألت ابنَ عباس : من أين سجدت ؟ فقال[٢] : أوما تقرأ ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ ﴾ [الأنعام : ٨٤] ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام : ٩٠] فكان داود ممن أُمِر نبيُّكم ﷺ أن يقتدي به ، فسجدها داود عليه السلام فسجدها رسول الله ﷺ .

وقد قال الإمام أحمد[٣] : حدّثنا إسماعيل ـ هو ابن علية ـ عن أيوب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه قال في السجود في ﴿ ص ﴾ : ليست من عزائم السجود . وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها .

وكذا رواه البخاري[٤] ، وأبو داود[٥] ، والترمذي[٦] ، والنسائي[٧] ، من حديث أيوب . وقال الترمذي : « حسن صحيح » .

وقال النسائي[٨] : أخبرني إبراهيم بن الحسن المِقْسَمي ، حدّثنا حجّاج بن محمد ، عن عمر بن ذَرّ ، عن أبيه ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس أن النبي ﷺ سجد في ﴿ ص ﴾ وقال : « سَجَدَها دَاودُ تَوْبَةً وَنَسْجُدُها شُكْراً » تفرد به ، ورجاله ثقات .

---

(١) البخاري رقم (٤٨٠٧) ، في تفسير سورة ﴿ ص ﴾ .
(٢) في ط : « قال » وما هنا يعضده ما في البخاري .
(٣) في مسنده (١/ ٣٦٠) .
(٤) صحيح البخاري رقم (١٠٦٩) في سجود القرآن، و(٣٤٢٢) في الأنبياء، باب ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ .
(٥) سنن أبي داود رقم (١٤٠٩) في الصلاة ، باب السجود في ﴿ ص ﴾ .
(٦) الترمذي رقم (٥٧٧) في الصلاة ، باب ما جاء في السجدة في ﴿ ص ﴾ .
(٧) في التفسير (١٩٠) .
(٨) سنن النسائي (٢/ ١٥٩) ، وهو في التفسير (٤٥٨) .

وقال أبو داود[١] : حدّثنا أحمد بن صالح ، حدّثنا ابن وهب ، أخبرني عمرو بن الحارث ، عن سعيد ابن أبي هلال ، عن عياض بن عبد الله بن سعد بن أبي سَرح ، عن أبي سعيد الخدري قال : قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر ﴿ ص ﴾ فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه فلما كان يوم آخر قرأها ، فلما بلغ السجدة تَشزَّن[٢] الناس للسجود فقال : « إنّما هي تَوْبَةُ نَبي ولكنْ رَأَيْتُكُم تَشزَّنتُم » فنزل وسجد . تفرد به أبو داود . وإسناده على شرط الصحيح .

وقال الإمام أحمد[٣] : حدّثنا عفان ، حدّثنا يزيد بن زُريع ، حدّثنا حُميد ، حدّثنا بكر ـ هو ابن عمر ـ وأبو الصديق الناجي[٤] أنه أخبره أن أبا سعيد الخدري رأى رؤيا أنه يكتب ﴿ ص ﴾ فلما بلغ (إلى) التي يسجد بها رأى الدواة والقلم وكلّ شيء بحضرته انقلب ساجداً ، قال : فقصَّها على النبي ﷺ ، فلم يزل يسجد بها بعد . تفرّد به أحمد .

وروى الترمذي[٥] وابن ماجه[٦] من حديث محمد بن يزيد بن خُنيس ، عن الحسن بن محمد بن عُبيد[٧] الله بن أبي يزيد قال : قال لي ابن جُريج : حدّثني جدك عبيد الله بن أبي يزيد عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله : إني رأيت فيما يرى النائم كأني أُصلي خلف شجرة ، فقرأت السجدةَ ، فسجدت الشجرة بسجودي ، فسمعتها تقول وهي ساجدة : اللهم اكتب لي بها عندك أجراً ، واجعلْها لي عندك ذُخراً ، وضع عنّي بها وِزراً ، واقبلها مني كما قبلت من عبدك داود ، قال ابن عباس : فرأيت النبي ﷺ قام فقرأ السجدة ثمّ سجد ، فسمعته يقول وهو ساجد كما حكى الرجل عن كلام الشجرة . ثمّ قال الترمذي : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

وقد ذكر بعض المفسرين أنه عليه السلام مكث ساجداً أربعين يوماً . وقاله مجاهد والحسن وغيرهما .

وورد في ذلك حديث مَرفوع لكنه من رواية يزيد الرقاشي ، وهو ضعيف متروك الحديث[٨] . قال

---

(١) سنن أبي داود رقم (١٤١٠) في الصلاة ، باب السجود في ﴿ ص ﴾ .

(٢) في ط : تشرف . . . تشرفتم . . والتشزُّن : التأهب والتهيؤ للشيء والاستعداد له .

(٣) المسند (٣/ ٧٨) .

(٤) في ب : وأبو بكر الصديق . وهو سهو . والناجي : نسبة إلى بني ناجية بن سامة بن لؤي . وأبو الصديق بكر بن قيس الناجي ، منهم ، بصري ، مات سنة (١٠٨هـ) . اللباب : (٣/ ٢٨٧) .

(٥) هو عند الترمذي رقم (٥٧٩) في الصلاة ، باب ما يقول في سجود القرآن ، وقال : غريب (يعني ضعيف) .

(٦) في سننه (١٠٥٣) .

(٧) في ب : « عبد الله » وهو تحريف .

(٨) في أ : متروك البداية ، وفي ط : . . الرواية . وأثبتنا ما في ب . ويزيد بن أبان الرقاشي كما قال ابن كثير ضعيف متروك الحديث . المجروحين (٣/ ٩٨) ، والضعفاء للنسائي : (١١٠) .

الله تعالى : ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ . أي : وإن له يوم القيامة لزلفى ، وهي القربة التي يقربه الله بها ويدنيه من حظيرة[١] قدسه بسببها ، كما ثبت في الحديث : « المُقْسِطُوْنَ على مَنَابِرَ مِنْ نُوْرٍ عَنْ يَمِيْنِ الرَّحْمنِ ، وَكِلْتَا يديه يمينٌ ، الذين يُقْسِطون في أَهليهم وحكمِهم وما وَلوا »[٢] .

وقال الإمام أحمد في « مسنده » : حدّثنا يحيى بن آدم ، حدّثنا فضيل ، عن عطية ، عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ أَحَبَّ النَّاسِ إلى اللهِ يَوْمَ القِيامة وأَقْرَبَهُم مِنْه مَجْلِساً إمامٌ عَادِلٌ ، وإنَّ أَبْغضَ النَّاسِ إلى اللهِ يَوْمَ القِيَامَة[٣] وأَشَدَّهُم عَذاباً إمامٌ جَائِرٌ »[٤] .

وهكذا رواه الترمذي من حديث فضيل بن مرزوق الأغرّ ، به . وقال : لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه[٥] .

وقال ابن أبي حاتم : حدّثنا أبو زرعة ، حدّثنا عبد الله بن أبي زياد ، حدّثنا سيّار ، حدّثنا جعفر بن سليمان سمعت مالك بن دينار في قوله : ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ قال : مقام داود عليه السلام يوم القيامة عند ساق العرش ، ثم يقول الله : يا داود مجّدْني اليومَ بذلك الصوت الحسن الرخيم الذي كنتَ تمجّدني به في الدنيا . فيقول : وكيف وقد سلبته ؟ فيقول : إني أرده عليك اليومَ . قال . فيرفع داود بصوت يستفرغ نعيم أهل الجنان .

﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [سورة ص : ٢٦] .

هذا خطاب من الله تعالى مع داود ، والمرادُ ولاة الأمور وحُكّام الناس ، وأمرهم بالعدل واتّباع الحق المنزّل من الله لا ما سواه من الآراء والأهواء ، وتوعّد من سلك غير ذلك وحكم بغير ذلك ، وقد كان داود عليه السلام هو المقتدى به في ذلك الوقت[٦] في العدل وكثرة العبادة وأنواع القربات ، حتى إنه كان لا يمضي ساعة من آناء الليل وأطراف النهار إلا وأهل بيته في عبادة ليلاً ونهاراً ، كما قال تعالى ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ : ١٣] .

قال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدّثنا إسماعيل بن إبراهيم بن بسام ، حدّثنا صالح المُرِّي ، عن

---

(١) في أ وب : حضيرة . . وحظيرة القدس : الجنة . اللسان .
(٢) أخرجه مسلم رقم (١٨٢٧) في الإمارة ، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر . وفي لفظه اختلاف يسير .
(٣) من قوله : وأقربهم منه . . إلى هنا سقط من ب .
(٤) المسند (٣/ ٢٢ و٥٥) .
(٥) الترمذي رقم (١٣٢٩) في الأحكام ، باب ما جاء في الإمام العادل .
(٦) في ب : الزمان .

أبي عمران الجوني ، عن أبي الجَلْد[١] قال : قرأت في مسألة داود عليه السلام أنه قال : يا رب كيف لي أن أشكرك وأنا لا أصِل إلى شكرك إلا بنعمتك ؟ قال : فأتاه الوحي « أن يا داود أليس تعلم أن الذي بك من النعم مني ؟ قال : بلى يا رب . قال : فإني أرضى بذلك منك »[٢] .

وقال البيهقي[٣] : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، أخبرنا أبو بكر بن بالويه ، حدّثنا محمد بن يونس القرشي ، حدّثنا رَوح بن عبادة ، حدّثني عبد الله بن لاحق ، عن ابن شهاب قال : قال داود : الحمد لله كما ينبغي لكرم وجهه وعزّ جلاله . فأوحى الله إليه : إنك أتعبتَ الحفَظَةَ يا داود . ورواه أبو بكر بن أبي الدنيا عن علي بن الجعد ، عن الثوري ، مثله[٤] .

وقال عبد الله بن المبارك في كتاب « الزهد »[٥] : أخبرنا سفيان الثوري ، عن رجل ، عن وهب بن منبه قال : إن في حكمة آل داود : وحق على العقل أن لا يغفل عن أربع ساعات : ساعة يناجي فيها ربّه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفضي فيها إلى إخـوانه الذين يخبرونه بعيوبه ، ويصدقونه عن نفسه ، وساعة يخلّي بين نفسه وبين لذاتها فيما يحـل ويجمل ، فإن هذه الساعة عون على هذه الساعات وإجمام للقلوب . وحق على العقل أن يعرف زمانه ، ويحفظ لسانه ، ويقبل على شأنه . وحق على العاقل أن لا يظعن إلا في إحدى ثلاث : زاد لمعاده ، ومرمة لمعاشه، ولذة من غير محرم .

وقد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا ، عن أبي بكر بن أبي خيثمة ، عن ابن مهدي ، عن سفيان ، عن أبي الأغر ، عن وهب بن منبه ، فذكره .

ورواه أيضاً عن علي بن الجعد ، عن عمر بن هيثم الرقاشي ، عن أبي الأغر ، عن وهب بن منبه ، فذكره ، وأبو الأغر هذا هو الذي أبهمه ابن المبارك في روايته . قال ابن عساكر : وقال عبد الرزاق : أخبرنا بشر بن رافع ، حدّثنا شيخ من أهل صنعاء يقال له : أبو عبد الله قال : سمعت وهب بن منبه ، فذكر مثله .

---

(١) هو جيلان بن فروة ، أبو الجلد ، بفتح الجيم . الإكمال (٣/ ١٨١) وهو في كتاب الشكر لابن أبي الدنيا صفحة (٦٧) وإسناده ضعيف ، صالح المري ، ضعيف .

(٢) لفظ منك ليس في ب . والخبر في مختصر ابن منظور (٨/ ١١٣) .

(٣) في « شعب الإيمان » رقم (٤٤١٦) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر صفحة (٨٣) ، وهو في تاريخ ابن عساكر كما في مختصره لابن منظور (٨/ ١١٣ ـ ١١٤) .

(٥) الزهد لابن المبارك ، وهو في تاريخ ابن عساكر كما في مختصره لابن منظور (٨/ ١٢٦) ، وإسناده ضعيف لجهالة شيخ سفيان .

وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة داود عليه السلام أشياء كثيرة مليحة ، منها قوله : كن لليتيم كالأب الرحيم . واعلم أنك كما تزرع كذلك تحصد .

وروى بسندٍ غريبٍ مرفوعاً قال داود : يا زارع السيئات أنت تحصد شوكها وحسكها . وعن داود عليه السلام أنه قال : مثل الخطيب الأحمق في نادي القوم كمثل المغنّي عند رأس الميت . وقال أيضاً : ما أقبح الفقر بعد الغنى ، وأقبح من ذلك الضلالة بعد الهدى . وقال : انظر ما تكره أن يذكر عنك في نادي القوم فلا تفعله إذا خلوت . وقال : لا تَعِدنَّ أخاك بما لا تنجزه له فإن ذلك عداوة ما بينك وبينه[١] .

وقال محمد بن سعد : أخبرنا محمد بن عمر الواقدي ، حدّثني هشام بن سعد ، عن عمر مولى غفرة قال : قالت اليهود لما رأت رسول الله ﷺ يتزوج النساء : انظروا إلى هذا الذي لا يشبع من الطعام ، ولا والله ماله همة إلا إلى النِّساء ، وحسدوه لكثرة نسائه ، وعابوه بذلك ، وقالوا : لو كان نبياً ما رغب في النساء . وكان أشدهم في ذلك حُيي بن أخطب ، فكذبهم الله تعالى وأخبرهم بفضل الله وسعته على نبيه صلوات الله عليه وسلامه قال سبحانه وتعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ يعني بالناسِ رسول الله ﷺ ﴿ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٥٤] يعني ما آتى الله سليمانَ بن داود ، كانت له ألفُ امرأة ، سبعمئة مهيرة[٢] وثلاثمئة سرية ، وكانت لداود عليه السلام مئة امرأة منهن امرأة أوريا أم سليمان بن داود التي تزوجها بعد الفتنة ، هذا أكثر مما لمحمد ﷺ .

وقد ذكر الكلبي نحو هذا، وأنه كان لداود عليه السلام مئة امرأة ولسليمان ألف امرأة منهن ثلاثمئة سرية .

وروى الحافظ في « تاريخه »[٣] في ترجمة صدقة الدمشقي الذي يروي عن ابن عباس من طريق الفرج بن فضالة الحمصي ، عن أبي هريرة الحمصي ، عن صدقة الدمشقي : أن رجلاً سأل ابن عباس عن الصيام ؟ فقال : لأحدثنك بحديثٍ كان عندي في التخت[٤] مخزوناً : إن شئت أنبأتك بصوم داود ، فإنه كان صوّاماً قوّاماً ، وكان شجاعاً لا يفرُّ إذا لاقى ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، وقال رسول الله ﷺ : « أَفْضَلُ الصِّيَامِ صِيَامُ دَاوُدَ » ، وكان يقرأ الزبور بسبعين صوتاً يكون فيها . وكانت له ركعة من آخر[٥] الليل يبكي فيها نفسه ، ويبكي ببكائه كلّ شيء ويصرف بصوته الهموم

---

(١) مختصر ابن منظور (٨/ ١٢٧) .
(٢) المهيرة : غالية المهر . اللسان . وهو كذلك في بعض النسخ وفي أصولنا : مهرية ، والصواب ما أثبتناه .
(٣) تاريخ دمشق (٢٤/ ٤٧) .
(٤) التخت : وعاء تحفظ فيه الثياب .
(٥) قوله : « آخر » من ب ، وهي في تاريخ دمشق الذي ينقل منه المصنف .

والحموم[١] . وإن شئت أنبأتك بصوم ابنه سليمان ، فإنه كان يصوم من أوّل الشهر ثلاثة أيام ، ومن وسطه ثلاثة أيام ، ومن آخره ثلاثة أيام ، يستفتح الشهر بصيام ، ووسطه بصيام ، ويختمه بصيام . وإن شئت أنبأتك بصوم ابن العذراء البتول عيسى ابن مريم ؛ فإنه كان يصوم الدهر ، ويأكل الشعير ، ويلبس الشعر ، يأكل ما وجد ، ولا يسأل عما فقد ، ليس له ولد يموت ولا بيت يخرب ، وكان أينما أدركه الليل صفن بين قدميه[٢] ، وقام يصلّي حتى يصبح ، وكان رامياً لا يفوته صيد يريده ، وكان يمر بمجالس بني إسرائيل فيقضي لهم حوائجهم . وإن شئت أنبأتك بصوم أمه مريم بنت عمران فإنّها كانت تصوم يوماً[٣] وتفطر يومين . وإن شئت أنبأتك بصوم النبي العربي الأمي محمد ﷺ فإنه كان يصوم من كلّ شهر ثلاثة أيام ، ويقول : « إن ذلك صوم الدهر[٤] » .

وقد روى الإمام أحمد عن أبي النضر ، عن فرج بن فضالة ، عن أبي هرم ، عن صدقة ، عن ابن عباس مرفوعاً في صوم داود[٥] .

ذكر[٦] كمّيّة حياته وَكيفيّة وفاته عليه السّلام

قد تقدم في ذكر الأحاديث الواردة في خلق آدم[٧] أن الله لما استخرج ذريته من ظهره فرأى فيهم الأنبياء عليهم السلام ، ورأى فيهم رجلاً يزهر فقال : أي ربِّ من هذا ؟ قال : هذا ابنُك داود . قال : أي ربّ كم عمره ؟ قال : ستون عاماً . قال : أي ربّ زِدْ في عمره . قال : لا ، إلا أن أزيده من عمرك . وكان عمر آدم ألفَ عام ، فزاده أربعين عاماً ، فلما انقضى عمر آدم جاءه ملكُ الموت ، فقال : بقي من عمري أربعون سنة ، ونسي آدم ما كان وهَبه لولده داود ، فأتمها الله لآدم ألف سنة ولداود مئة سنة .

رواه أحمد[٨] عن ابن عباس ، والترمذي ـ وصححه ـ[٩] عن أبي هريرة . وابن خزيمة[١٠]

---

(١) في بعض النسخ : المهموم والمحموم ، وفي تاريخ ابن عساكر : « ويضطرب لصوته المهموم والمحموم » .
(٢) في ب : . . أينما أدركته صفن ، وفي تاريخ ابن عساكر : « صفق بيديه » .
(٣) في ب : يومين .
(٤) إلى هنا انتهى النقل من تاريخ ابن عساكر .
(٥) تقدم قبل قليل مخرّجاً .
(٦) كلمة ذكر ليست في ط .
(٧) في الجزء الأول من هذا الكتاب .
(٨) مسند أحمد (١/ ٢٥١ ـ ٢٥٢) .
(٩) الترمذي رقم (٣٠٧٦) في التفسير ، باب ومن سورة الأعراف .
(١٠) لم نقف عليه في المطبوع من صحيح ابن خزيمة .

وابن حبان[١] . وقال الحاكم[٢] : على شرط مسلم . وقد تقدم ذكر طرقه وألفاظه في قصة آدم .

قال ابن جرير[٣] : وقد زعم بعض أهل الكتاب أن عمر داود كان سبعاً وسبعين سنة .

قلت : هذا غلط مردود عليهم قالوا : وكان مدة ملكه أربعين سنة . وهذا قد يُقبل نقله لأنه ليس عندنا ما ينافيه ولا ما يقتضيه .

وأما وفاته عليه السلام ، فقال الإمام أحمد في « مسنده »[٤] : حدّثنا قتيبة ، حدّثنا يعقوب بن عبد الرحمن بن محمد، عن عمرو بن أبي عمرو ، عن المطلب ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « كانَ داودُ عَلَيْهِ السَّلامُ فِيهِ غَيْرَةٌ شَدِيْدَةٌ ، فَكانَ إذا خَرَجَ أُغلقت الأبواب فَلَم يَدْخُلْ عَلى أَهْلِهِ أَحَدٌ حَتَّى يَرْجِعَ. قال : فَخَرَجَ ذاتَ يَوْمٍ وغلقت الدارُ فأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ تَطلع إلى الدَّارِ ، فإذا رَجُلٌ قائِمٌ وَسطَ الدَّارِ ، فَقالَت لِمَنْ في البيْتِ : مِنْ أَيْنَ دَخَلَ هذا الرَّجُلُ والدَّارُ مُغْلَقَةٌ ؟ واللهِ لَنَفْتَضِحَنَّ بداود . فجاءَ داودُ فإذا الرجُلُ قائِمٌ وسطَ الدَّارِ ، فقالَ لَهُ داودُ : مَنْ أَنْتَ ؟ فَقَالَ : أنا الذي لا أَهَابُ الملوكَ ولا يمتنع[٥] من الحجّاب ، فقالَ داودُ : أنتَ واللهِ إِذَنْ مَلَكُ الموْتِ ، مَرْحَباً بأمْرِ اللهِ . فَزَمَلَ دَاوُدُ مَكانَهُ حَتّى قُبِضَتْ نَفْسُه ، حتى فَرَغَ مِنْ شَأنِه . وطَلَعَتْ[٦] عَليهِ الشَّمْسُ ، فقالَ سُليمانُ لِلطَّيْر : أَظِلّي عَلَى دَاوُد ، فأَظَلَّت عَلَيه الطيرُ حتى أظلَمَتْ عَلَيهِ الأرْضُ . فقالَ سُليمانُ لِلطَّيْر : اقبضي جناحاً جناحاً » . قال أبو هريرة : يرينا رسول الله ﷺ كيف[٧] فعلت الطير ، وقبض رسول الله ﷺ بيده ، وغلبت عليه يومئذ المضرحية .

انفرد بإخراجه الإمام أحمد . وإسناده جيد قوي ، رجاله ثقات .

ومعنى قوله : « وغلبت عليه يومئذ المضرحية » أي : وغلبت على التظليل عليه المضرحية وهي الصقور الطوال الأجنحة ، وإحداها : مَضْرحي . قال الجوهري : وهو الصقر الطويل الجناح[٨] .

وقال السدي ، عن أبي مالك ، عن ابن عباس قال : مات داود نبي الله عليه السلام فجأة ، وكان بسبت ، وكانت الطير تظله .

---

(١) الإحسان (٦١٦٧) من طريق سعيد المقبري عن أبي هريرة .
(٢) المستدرك (٢/ ٣٢٥) . في التفسير .
(٣) تاريخه (١/ ٤٨٥) .
(٤) المسند (٢/ ٤١٩) . وأخرجه ابن عساكر ، كما في مختصر ابن منظور (٨/ ١٣٩) .
(٥) في ط : ولا أمنع من . وفي مسند أحمد : ولا يمتنع مني شيء .
(٦) في ط : ثم مكث حتى قبضت روحه ، فلما غسل وكفن وفرغ من شأنه طلعت عليه الشمس . . . ، وفي مسند أحمد : . . . حيث قبضت روحه . . . .
(٧) في ط : قال : قال أبو هريرة : فطفق رسول الله ﷺ يرينا كيف . . .
(٨) الصحاح (١/ ٣٨٦) ضرح .

وقال السدي أيضاً عن أبي مالك ، وعن سعيد بن جبير قال : مات داود عليه السلام يوم السبت فجأة .

وقال إسحاق بن بشر ، عن سعيد بن أبي عَروبة ، عن قتادة ، عن الحسن قال : مات داود عليه السلام وهو ابن مئة سنة ، ومات يوم الأربعاء فجأة .

وقال أبو السكن الهجري : مات إبراهيم الخليل فجأة ، وداود فجأة ، وابنه سليمان فجأة ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . رواه ابن عساكر[١] .

وروي عن بعضهم أن ملك الموت جاءه وهو نازل من محرابه ، فقال له : دعني أنزل أو أصعد . فقال : يا نبي الله نفدت[٢] السنون والشهور والآثار والأرزاق . قال : فخرَّ ساجداً على مِرْقاة من تلك المراقي ، فقبضه وهو ساجد . وقال إسحاق بن بشر : أخبرنا زافر[٣] بن سليمان ، عن أبي سليمان الفلسطيني ، عن وهب بن منبه قال : إن الناس حضروا جنازة داود عليه السلام ، فجلسوا في الشمس في يوم صائفٍ . قال : وكان شيَّع جنازته يومئذ أربعون ألف راهب عليهم البرانس سوى غيرهم من الناس ، ولم يمت في بني إسرائيل بعد موسى وهارون أحد كانت بنو إسرائيل أشد جزعاً عليه منهم على داود . قال : فأذلقهم الحر[٤] فنادوا سليمان عليه السلام أن يعجل عليهم لما[٥] أصابهم من الحر ، فخرج سليمان فنادى الطيرَ ، فأجابت ، فأمرها فأظلت[٦] الناس . قال : فتراص بعضها إلى بعض من كلّ وجه حتى استمسكت الريح فكاد الناس أن يهلكوا غماً ، فصاحوا إلى سليمان عليه السلام من الغم ، فخرج سليمانُ فنادى الطير : أن أظلي الناس من ناحية الشمس وتنَحي عن ناحية الريح ، ففعلت ، فكان الناس في ظل تهب عليهم الريح ، فكان ذلك من أول ما رأوا من ملك سليمان[٧] .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدّثنا أبو همّام الوليد بن شجاع ، حدّثني الوليد بن مسلم ، عن الهيثم بن حميد ، عن الوضين بن عطاء ، عن نصر بن علقمة ، عن جبير بن نفير ، عن أبي الدرداء قال : قال

---

(١) مختصر ابن منظور (٨/ ١٤٠) .
(٢) في أ وب : السنين . والذي في مختصر ابن منظور (٨/ ١٤٠) : نفدت الأيام والشهور والسنون والآثار والأرزاق .
(٣) في أ وط : وافر . وهو تصحيف .
وزافر بن سليمان أبو سليمان الإيادي القوهستاني ، ذكره ابن حبان في المجروحين : (١/ ٣١١ـ ٣١٢) .
(٤) في ط : فأذاقهم . وأذلقهم الحر : أجهدهم وأضعفهم وأقلقهم .
(٥) في ط : أن يعمل لهم وقاية لما . . .
(٦) في ط : أن تظل .
(٧) مختصر ابن منظور (٨/ ١٤٠ ـ ١٤١) .

رسول الله ﷺ : « لَقَد قَبَضَ اللهُ دَاودَ مِنْ بَينِ أَصْحابهِ ما فُتِنوا ولا بَدَّلوا ، وَلَقَد مَكَثَ أَصْحَابُ المسيحِ على سننهِ وهَدْيهِ مئتي سَنةٍ » .

هذا حديث غريب ، وفي رفعه نظر . والوضين بن عطاء كان ضعيفاً في الحديث[١] . والله أعلم .

* * *

(١) قوله : في الحديث والله أعلم : ليس في ب .
والوضين بن عطاء بن كنانة الخزاعي . قال ابن حجر في التقريب : صدوق ، سيء الحفظ ، ورمي بالقدر . مات سنة (١٥٦هـ) .

قصّة سليمان بن داود عليهما السّلام

قال الحافظ ابن عساكر[١] : هو سليمان بن داود بن إيشا بن عويد بن باغز بن سلمون بن نحشون بن عميناداب بن إرم بن حَضْرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، أبو الربيع ، نبي الله ابن نبي الله .

جاء في بعض الآثار أنه دخل دمشق .

قال ابن ماكولا[٢] : فارص ، بالصاد المهملة ، وذكر نسبه قريباً مما ذكره ابن عساكر .

قال الله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النمل : ١٦] أي : ورثه في النبوة والملك ، وليس المراد وراثة المال ؛ لأنه قد كان له بنون غيره[٣] ، فما كان ليخص بالمال دونهم ، ولأنه قد ثبت في الصِّحاح من غير وجه عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال : « لا نُورثُ ما تَرَكْنا فَهُوَ صَدَقَةٌ »[٤] وفي لفظ : « نَحْنُ مَعَاشِرَ الأَنْبِياءِ لا نُورث »[٥] فأخبر الصادق المصدوق أن الأنبياء لا تُورَث أموالُهم عنهم كما يورَث غيرهم ، بل تكون أموالهم صدقةً من بعدهم على الفقراء والمحاويج ، لا يخصون بها أقرباءهم ، لأن الدنيا كانت أهون عليهم وأحقر عندهم من ذلك ، كما هي عند الذي أرسلَهم واصطفاهم وفضَّلهم .

وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ ﴾ يعني أنه عليه السلام كان يعرف ما يتخاطب به الطيور بلغاتها ، ويعبِّر للناس عن مقاصدها وإراداتها . وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقي : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، أخبرنا علي بن حمشَاذ ، حدّثنا إسماعيل بن قتيبة ، حدّثنا علي بن قدامة ، حدّثنا أبو جعفر

---

(١) تاريخه (٢٢/ ٢٣٠) .

(٢) الإكمال (٧/ ٥٢) .

(٣) زاد هنا في ب : كما رواه ابن عساكر عن بعض السلف .

(٤) الحديث برواياته وطرقه أخرجه البخاري : رقم (٣٧١٢) في فضائل الصحابة ، باب مناقب قرابة رسول الله ﷺ ، ورقم (٤٠٣٤) في المغازي ، باب حديث بني النضير ، ورقم (٤٢٤٠) باب غزوة خيبر ، ورقم (٦٧٢٦ ، ٦٧٢٧ ، ٦٧٢٨ ، ٦٧٣٠) في الفرائض ، باب قول النبي ﷺ لا نورث ما تركنا صدقة ، ورقم (٧٣٠٥) في الاعتصام ، باب ما يكره من التعمق والتنازع والغلو في الدين والبدع . ومسلم (١٧٦١) ، في الجهاد ، باب قول النبي ﷺ لا نورث . وأبو داود (٢٩٧٧) في الخراج والإمارة ، باب في صفايا رسول الله ﷺ من الأموال ، والترمذي (١٦١٠) في السير ، باب ما جاء في تركة رسول الله ﷺ . ومالك في الموطأ (٢/ ٩٩٣) ، في الكلام ، باب ما جاء في تركة النبي ﷺ . والنسائي : (٧/ ١٣٢) ، وأحمد (١/ ٤ ، ٦ ، ٩ ، ١٠ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٦٠ ، ٢٠٨) و(٦/ ١٤٥ ، ٢٦٢) .

(٥) . قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » (١٢/ ٨) : وأما ما اشتهر في كتب أهل الأصول وغيرهم بلفظ (نحن معاشر الأنبياء لا نورث) فقد أنكرها جماعة من الأئمة ، وهو كذلك بالنسبة لخصوص لفظ (نحن) لكن أخرجه النسائي بلفظ (إنا معاشر الأنبياء لا نورث) .

الأسواني يعني محمد بن عبد الرحمن ، عن يعقوب القُمِّي[(١)] ، حدّثني أبو مالك قال : مرَّ سليمان بن داود بعصفور يدور حول عصفورة ، فقال لأصحابه : أتدرون ما يقول ؟ قالوا : وما يقول يا نبي الله ؟ قال : يخطُبُها إلى نفسها ويقول : زوجيني أُسْكنكِ أيَّ غُرَفِ دمشق شئت . قال سليمان عليه السلام : لأن غرف دمشق مبنية بالصخر لا يقدر أن يسكنها أحد ، ولكن كلّ خاطبٍ كذاب .

ورواه ابن عساكر عن أبي القاسم زاهر بن طاهر ، عن البيهقي ، به[(٢)] .

وكذلك ما عداها من الحيوانات وسائر صنوف المخلوقات . والدليل على هذا قوله بعد هذا من الآيات : ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي : من كلّ ما يحتاج الملك إليه من العُدَدِ والآلات ، والجنود والجيوش ، والجماعات من الجن والإنس والطيور والوحوش[(٣)] السارحات ، والعلوم والفهوم ، والتعبير عن ضمائر المخلوقات من الناطقات والصامتات . ثمّ قال : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ أي : من بارئ البريات ، وخالق الأرض والسماوات ، كما قال تعالى : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النمل : ١٧ ـ ١٩] .

يخبر سبحانه وتعالى عن عبده ونبيه وابن نبيه سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام أنه ركب يوماً في جيشه جميعه من الجن والإنس والطير ، فالجن والإنس يسيرون معه ، والطير سائرة معه تظله بأجنحتها من الحرِّ وغيره ، وعلى كلٍّ من هذه الجيوش الثلاثة وَزَعَةٌ ، أي : نقباء يردون أوله على آخره فلا يتقدم أحد عن موضعه الذي يسير فيه ولا يتأخّر عنه .

قال الله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ فأمرت وحذّرت ، واعتذرت عن سليمان وجنوده بعدم الشعور .

وقد ذكر وَهْب : أنه مرّ وهو على البساط بوادٍ بالطائف ، وأن هذه النملة كان اسمها (جرس)[(٤)] وكانت من قبيلة يقال لهم بنو الشيصبان ، وكانت عرجاء ، وكانت بقدر الذئب[(٥)] . وفي هذا كلّه نظر ، بل في هذا السياق دليل على أنه كان في موكبه راكباً في خيوله وفرسانه لا كما زعمه بعضهم من أنه كان إذ ذاك

---

(١) في ط : عن أبي يعقوب القمي .
ويعقوب بن عبد الله بن سعد القمي ، توفي بقزوين سنة (١٧٤هـ) . والقُمي ، بضم القاف ، وتشديد الميم المكسورة نسبة إلى (قُم) ، بلدة بين أصبهان وساوة ، في فارس . الأنساب (١٠/ ٢٢٨) .

(٢) تاريخه (٢٢/ ٢٣٢) .

(٣) زاد في ط : والشياطين !؟.

(٤) في تفسير ابن كثير : حرس . بالحاء المهملة . ونقل الخبر فيه عن ابن عساكر .

(٥) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٥٩) .

على البساط ، لأنه لو كان كذلك لم ينل النملَ منه شيء ولا وطْء ؛ لأن البساط كان يكون عليه جميع ما يحتاجون إليه من الجيوش والخيول والجمال والأثقال والخيام والأنعام ، والطير من فوق ذلك كله ، كما سنبينه بعد ذلك إن شاء الله تعالى .

والمقصود أن سليمان عليه السلام فهم ما خاطبت به تلك النملة لأُمَّتها من الرأي السديد والأمر الحميد ، وتبسّم من ذلك على وجه الاستبشار والفرح والسرور بما أطلعه الله عليه دون غيره . وليس كما يقوله بعض الجهلة من أن الدواب كانت تنطق قبل سليمان، وتخاطب الناس ، حتى أخذ عليهم سليمان بن داود العهدَ، وألجمها ، فلم تتكلّم مع الناس بعد ذلك ، فإن هذا لا يقوله إلا الذين لا يعلمون ، ولو كان هذا هكذا ، لم يكن لسليمان في فهم لغاتها مزية على غيره ، إذ قد كان الناس كلّهم يفهمون ذلك ، ولو كان قد أخذ عليها العهد أن لا تتكلم مع غيره وكان هو يفهمها ، لم يكن في هذا أيضاً فائدة يعوّل عليها[١] . ولهذا قال : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ ﴾ أي ألهمني وأرشدني ﴿ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ . فطلب من الله أن يقيّضه للشكر على ما أنعم به عليه ، وعلى ما خصّه به من المزيّة على غيره ، وأن ييسّر عليه العمل الصالح ، وأن يحشره إذا توفاه مع عباده الصالحين . وقد استجاب الله تعالى له .

والمراد بوالديه : داود عليه السلام وأمه ، وكانت من العابدات الصالحات ، كما قال سُنيد بن داود ، عن يوسف بن محمد بن المنكدر ، عن أبيه ، عن جابر ، عن النبي ﷺ قال : « قالَتْ أمُّ سُلَيمان بنِ داودَ : يا بُنيَّ لا تُكْثِرِ النَّوْمَ باللَّيلِ ، فإن كَثرةَ النومِ بالليلِ تَدَعُ العبدَ فَقِيراً يومَ القِيامة » . رواه ابن ماجه[٢] عن أربعة من مشايخه ، عنه ، به ، نحوه .

وقال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزُّهري : إن سليمان بن داود عليه السلام خرج هو وأصحابه يستسقون ، فرأى نملة قائمةً رافعة إحدى قوائمها تستسقي ، فقال لأصحابه : ارجعوا فقد سُقيتم ، إن هذه النملة استسقت فاستُجيب لها .

قال ابن عساكر[٣] : وقد رُوي مرفوعاً، ولم يذكر فيه سليمان، ثمّ ساقه من طريق محمد بن عزيز ، عن سلامة بن روح بن خالد ، عن عقيل ، عن ابن شهاب ، حدّثني أبو سلمة عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله

---

(١) ورد مثل هذا في تفسيره (٣/ ٣٥٨) .
وزاد هنا في ب : فأما الحديث الذي رواه الطبراني من طريق زيد بن بكر بن حبيش ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن ابن مسعود أنهم عرضوا رقبة الحمار على رسول الله ﷺ بسم الله سحنة قرنبة ملحة بحر قمطا فقال : هذه مواثيق أخذها سليمان بن داود على الهوام ، ولا أرى بها بأساً . فإنه حديث غريب ولا يخلو من نكارة . والله أعلم . وبتقدير صحته أخذ على الهوام ، وهي ذوات السموم ، وكانت العهود والمواثيق أنه لا تؤذين أحداً من البشر ، وليس المراد أن لا تخاطبي أحداً .
(٢) سنن ابن ماجه رقم (١٣٣٢) في إقامة الصلاة ، باب ما جاء في قيام الليل ، وإسناده ضعيف .
(٣) تاريخه (٢٢/ ٢٨٨) .

ﷺ يقول : « خَرجَ نبيٌّ منَ الأنبياءِ بالناسِ يَسْتَسْقونَ الله ، فإذا هُم بِنَملةٍ رافعة بَعضَ قوائِمها إلى السماء ، فقال النبي : ارجِعُوا فَقَدِ اسْتُجيْبَ لَكُم مِنْ أَجْلِ هذهِ النملةِ »[1] .

وقال السدي : أصاب الناس قحطٌ على عهد سليمان عليه السلام ، فأمر الناس فخرجوا ، فإذا بنملة قائمة على رجليها باسطة يديها وهي تقول : اللهمَّ إنا خلقٌ من خلقك ولا غناء بنا عَنْ فَضْلِكَ ، قال : فصب الله عليهم المطر .

قال تعالى : ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [النمل : ٢٠ ـ ٣٧] .

يذكر تعالى ما كان من أمر سليمان والهدهد ، وذلك أن الطيور كانت على كلِّ صنف منها مقدمون يقومون بما يطلب منهم ، ويحضرون عنده بالنوبة كما هي عادة الجنود مع الملوك ، وكانت وظيفة الهدهد ـ على ما ذكره ابن عباس وغيره ـ أنهم كانوا إذا أعوزوا الماء في القفار في حال الأسفار يجيء فينظر لهم هل بهذه البقاع من ماءٍ ، وفيه من القوة التي أودعها الله تعالى فيه أن ينظر إلى الماء تحت تخوم الأرض ، فإذا دلّهم حفروا عنه ، واستنبطوه ، وأخرجوه ، واستعملوه لحاجتهم . فلما تطلبه سليمان عليه السلام ذات يوم فقده ، ولم يجده في موضعه من محلّ خدمته ﴿ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴾ أي : ماله مفقودٌ من هاهنا أو قد غاب عن بصري فلا أراه بحضرتي ؟ ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ توعّده بنوع من العذاب اختلف المفسرون فيه ، والمقصود حاصل على كلِّ تقدير ، ﴿ أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ أي بحجّة تنجيه من هذه الورطة .

قال الله تعالى : ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ . أي : فغاب الهدهدُ غيبةً ليست بطويلةٍ ثم قدم منها

---

(١) وأخرجه الحاكم وغيره ، وهو ضعيف .

﴿ فَقَالَ ﴾ لسليمان ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ ﴾ أي : اطلعت على ما لم تطلع عليه ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ أي : بخبر صادق : ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ . يذكر ما كان عليه ملوك سبأ في بلاد اليمن من المملكة العظيمة والتبابعة المتوّجِين ، وكان المُلْك قد آل في ذلك الزمان إلى امرأة منهم ابنة ملكهم لم يُخلِّف غيرها فملّكوها عليهم .

وذكر الثعلبي وغيره أن قومها ملّكوا عليهم بعد أبيها رجُلاً ، فعمَّ به الفساد ، فأرسلت إليه تخطُبه ، فتزوّجها ، فلما دخلت عليه سقته خمراً ثم حزّت رأسه ونصبته على بابها ، فأقبل الناس عليها وملّكوها عليهم ، وهي بلقيس بنت السيرح وهو الهدهاد ، وقيل : شراحيل بن ذي جَدَن بن السيرح بن الحارث بن قيس بن صيفي بن سبأ بن يَشْجب بن يعرب بن قحطان . وكان أبوها من أكابر الملوك وكان يأبى أن يتزوج من أهل اليمن ، فيقال إنه تزوج بامرأة من الجنّ اسمها ريحانة بنت السكن ، فولدت له هذه المرأة واسمها تلقمة ويقال لها : بلقيس .

وقد روى الثَّعْلَبي[١] من طريق سعيد بن بشير ، عن قتادة ، عن النضر بن أنس ، عن بشير بن نهيك ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « كانَ أَحَدُ أَبَوي بَلْقيس جِنيّاً »[٢] . وهذا حديث غريب ، وفي سنده ضعف .

وقال الثعلبي : أخبرني أبو عبد الله بن فنجويه[٣] ، حدّثنا أبو بكر بن جرجة ، حدّثنا ابن أبي الليث ، حدّثنا أبو كريب ، حدّثنا أبو معاوية ، عن إسماعيل بن مسلم ، عن الحسن ، عن أبي بكرة قال : ذكرت بلقيس عند رسول الله ﷺ فقال : « لا يُفلِحُ قَوْمٌ ولّوا أَمْرَهُم امْرأَةً » .

إسماعيل بن مسلم هذا هو المكي : ضعيف[٤] .

وقد ثبت في « صحيح »[٥] البخاري من حديث عوف ، عن الحسن ، عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ لما بلغه أن أهل فارس ملّكوا عليهم ابنة كسرى قال : « لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ ولّوا أَمْرَهُمْ امْرَأَةً » .

---

(١) هو أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري . توفي سنة (٤٢٧هـ) .
وتفسيره : الكشف والبيان في تفسير القرآن . قال عنه الزركلي : مخطوط .
ترجمته في شذرات الذهب (٥/ ١٢٧) تحقيق محمود الأرناؤوط ـ طبع دار ابن كثير ، والأعلام (١/ ٢١٢) .
(٢) أورده القرطبي في تفسيره (١٣/ ٢١١) .
(٣) في ط : قبحوية . وهو تصحيف . وهو الحسين بن محمد بن الحسين بن عبد الله بن صالح بن شعيب بن فنجويه الثقفي الدينوري . توفي سنة (٤١٤هـ) . ترجمته في سير أعلام النبلاء (١٧/ ٣٨٣) .
(٤) المجروحين لابن حبان (١/ ١٢٠) ، والضعفاء للبخاري (١٧) ، وللنسائي (١٧) .
(٥) صحيح البخاري رقم (٤٤٢٥) في المغازي ، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر ، ورقم (٧٠٩٩) في الفتن ، باب (١٨) . وفيه : لن يفلح .

ورواه الترمذي[١] ، والنسائي[٢] من حديث حميد ، عن الحسن ، عن أبي بكرة ، عن النبي ﷺ وقال الترمذي : حسن صحيح .

وقوله : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي مما من شأنه أن تؤتاه الملوك . ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ يعني سرير مملكتها وكان مزخرفاً بأنواع الجواهر واللآلئ والذهب والحليّ الباهر .

ثمّ ذكر كفرهم بالله وعبادتهم الشمس من دون الله وإضلالَ الشيطان لهم وصدّه إياهم عن عبادة الله وحده لا شريك له ﴿ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ أي : يعلم السرائر والظواهر من المحسوسات والمعنويات ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴾ أي : له العرش العظيم الذي لا أعظم منه في المخلوقات .

فعند ذلك بعث معه سليمان عليه السلام كتابه يتضمن دعوته لهم إلى طاعة الله وطاعة رسوله ، والإنابة والإذعان إلى الدخول في الخضوع لملكه وسلطانه ، ولهذا قال لهم : ﴿ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ ﴾ أي لا تستكبروا عن طاعتي وامتثال أوامري ﴿ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ أي : واقدموا عليّ سامعين مطيعين بلا معاودة ولا مراودة . فلما جاءها الكتاب مع الطير ـ ومن ثم اتخذ الناس البطائق ، ولكن أين الثريا من الثرى ؟! تلك البطاقة كانت مع طائر سامع مطيع فاهم عالم بما يقول ويقال له ـ فذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم أن الهدهد حمل الكتاب وجاء إلى قصرها فألقاه إليها وهي في خلوة لها ، ثمّ وقف ناحية ينتظر ما يكون من جوابها عن كتابها ، فجمعت أُمراءها ووزراءها وأكابر دولتها إلى مشورتها ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴾ . ثم قرأت عليهم عنوانه أولاً ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ ﴾ ثم قرأته ﴿ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ . ثمّ شاورتهم في أمرها وما قد حل بها ، وتأدّبت معهم ، وخاطبتهم وهم يسمعون ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ تعني : ما كنت لأبتَّ أمراً إلا وأنتم حاضرون : ﴿ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ يعنون : لنا قوة وقدرة على الجلاد والقتال ومقاومة الأبطال ، فإن أردت منّا ذلك فإنا عليه من القادرين ، ﴿ و ﴾ مع هذا فـ ﴿ الأمر إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ فبذلوا لها الطاعة ، وأخبروها بما عندهم من الاستطاعة ، وفوّضوا إليها في ذلك الأمر لترى فيه ما هو الأرشد لها ولهم ، فكان رأيها أتمَّ وأسدَّ من رأيهم ، وعلمت أن صاحب هذا الكتاب لا يُغالَب ولا يُمانَع ولا يُخالَف ولا يُخادَع .

﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ تقول برأيها السديد : إن هذا الملك لو قد غلَب على هذه المملكة لم يخلص الأمر من بينكم إلا إليَّ ، ولم تكن الحدَّة الشديدة

---

(١) سنن الترمذي رقم (٢٢٦٢) في الفتن ، باب (٧٥) .
(٢) سنن النسائي (٨/ ٢٢٧) .

والسطوة البليغة إلا عليّ ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ أرادت أن تصانع عن نفسها وأهل مملكتها بهدية ترسلها وتحف تبعثها ، ولم تعلم أن سليمان عليه السلام لا يقبل منهم ـ والحالة هذه ـ صرفاً ولا عدلاً ، لأنهم كافرون وهو وجنوده عليهم قادرون . ولهذا ﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَـٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَـٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ هذا ، وقد كانت تلك الهدايا مشتملة على أمور عظيمة ، كما ذكره المفسرون[1] .

ثم قال لرسولها إليه ووافدها الذي قدم عليه ، والناس حاضرون يسمعون : ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾ يقول : ارجع بهديتك التي قدمت بها إلى من قَدْ مَنَّ بها فإن عندي مما قد أنعم الله عليّ وأسداه إليّ من الأموال والتحف والرجال ما هو أضعاف هذا ، وخير من هذا الذي أنتم تفرحون به وتفخرون على أبناء جنسكم بسببه : ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا ﴾ أي : فلأبعثنَّ إليهم بجنود لا يستطيعون دفاعهم ولا نزالهم ولا ممانعتهم ولا قتالهم ، ولأخرجنهم من بلدهم وحوزتهم ومعاملتهم ودولتهم ﴿ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾ عليهم الصّغار والعار والدمار . فلما بلغهم ذلك عن نبي الله لم يكن لهم بدٌّ من السمع والطاعة ، فبادروا إلى إجابته في تلك الساعة ، وأقبلوا صحبة الملكة أجمعين سامعين مطيعين خاضعين ، فلما سمع بقدومهم عليه ووفودهم إليه قال لمن بين يديه ممن هو مسخَّر له من الجان ما قصه الله عنه في القرآن .

﴿ قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ۝٣٨ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ۝٣٩ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ۝٤٠ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ۝٤١ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ۝٤٢ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ۝٤٣ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [النمل : ٣٨ ـ ٤٤] .

لما طلب سليمان من الجان أن يُحضِروا له عرش بلقيس ، وهو سرير مملكتها التي تجلس عليه وقت حكمها قبل قدومها عليه : ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ يعني قبل أن ينقضيَ مجلسُ حكمك ، وكان ـ فيما يقال ـ من أول النهار إلى قريب الزوال ، يتصدى لمهمات بني إسرائيل وما لهم من الأشغال ﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ أي : وإني لذو قدرة على إحضاره إليك وأمانةٍ على ما فيه من الجواهر النفيسة لديك : ﴿ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ المشهور أنه آصف بن برخيا ، وهو ابن خالة سليمان . وقيل : هو رجل من مؤمني الجان ، كان ـ فيما يقال ـ يحفظ الاسم الأعظم . وقيل : رجل من بني

(١) تفسير الطبري (١٩/ ٩٧) ، وتفسير ابن كثير (٣/ ٣٦٢ ـ ٣٦٣) .

إسرائيل ، من علمائهم ، وقيل : إنه سليمان ، وهذا غريب جداً . وضعفه السُّهَيْلي بأنه لا يصح في سياق الكلام ، قال : وقد قيل فيه قول رابع وهو جبريل : ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ ﴾ قيل معناه قبل أن تبعث رسولاً إلى أقصى ما ينتهي إليه طرفك من الأرض ثم يعود إليك . وقيل : قبل أن يصل إليك أبعد من تراه من الناس . وقيل : قبل أن يكلَّ طرفك إذا أدمت النظر به قبل أن تطبق جفنك . وقيل : قبل أن يرجع إليك طرفك إذا نظرت به إلى أبعد غاية منك ثم أغمضته وهذا أقرب ما قيل .

﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ ﴾ أي : فلما رأى عرش بلقيس مستقراً عنده في هذه المدة القريبة من بلاد اليمن إلى بيت المقدس في طرفة عين ﴿ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ ﴾ أي : هذا من فضل الله عليّ وفضله على عبيده ليختبرهم على الشكر أو خلافه ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ ﴾ أي : إنما يعود نفع ذلك عليه ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ﴾ أي : غني عن شكر الشاكرين ، ولا يتضرر بكفر الكافرين .

ثم أمر سليمان عليه السلام أن يُغيِّر حُليُّ هذا العرش ويُنكَّر لها ليختبر فهمها وعقلها ، ولهذا قال : ﴿ نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ ۝٤١ فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ ﴾ وهذا من فطنتها وغزارة فهمها ، لأنها استبعدت أن يكون عرشَها ؛ لأنها خلَّفته وراءَها بأرض اليمن ، ولم تكن تعلم أن أحداً يقدر على هذا الصنيع العجيب الغريب . قال الله تعالى إخباراً عن سليمان وقومه : ﴿ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ ۝٤٢ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴾ أي : ومنعها عبادة الشمس التي كانت تسجد لها هي وقومها من دون الله اتّباعاً لدين آبائهم وأسلافهم لا لدليل قادهم إلى ذلك ولا حداهم على ذلك .

وكان سليمان قد أمر ببناء صرح من زجاج ، وعمل في ممرِّه ماء ، وجعل عليه سقفاً من زجاج ، وجعل فيه من السمك وغيرها من دواب الماء ، وأُمِرت بدخول الصرح وسليمان جالس على سريره فيه ﴿ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ وقد قيل : إن الجن أرادوا أن يبشعوا منظرها عند سليمان ، وأن تُبدي عن ساقيها ليرى ما عليها من الشعر فينفره ذلك منها ، وخشوا أن يتزوجها لأن أمَّها من الجان فتتسلط عليهم معه .

وذكر بعضهم أن حافرها كان كحافر الدابة ، وهذا ضعيف . وفي الأول أيضاً نظر . والله أعلم . إلا أن سليمان قيل : إنه لما أراد إزالته حين عَزَم على تَزَوُّجها سألَ الإنس عن زواله فذكروا له الموسى ، فامتنعت من ذلك ، فسأل الجان فصنعوا له النُّوْرَة[١] ووضعوا له الحمَّام ، فكان أول من دخل الحمَّام ، فلما وجد مَسَّه قال : أَوَّه من عذاب أَوَّه ، أَوَّه[٢] قبل أن لا ينفع أَوَّه . رواه الطبراني مرفوعاً وفيه نظر .

وقد ذكر الثعلبي وغيره أن سليمان لما تزوجها أَقرَّها على مملكة اليمن وردّها إليه ، وكان يزورها في

---

(١) النورة : أخلاط تضاف على الكلس من زرنيخ وغيره ، ويستعمل لإزالة الشعر .

(٢) في ب : أواه من عذاب أواه أواه . .

كلّ شهرٍ مرة فيقيم عندها ثلاثة أيام ثمّ يعود على البساط . وأمر الجان فبنَوا لها ثلاثة قصور باليمن ، غمدان ، وسالحين ، وبيتون . فالله أعلم .

وقد روى ابن إسحاق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه أن سليمان لم يتزوجها ، بل زوجها بملك هَمْدان وأقرها على ملك اليمن ، وسخَّر زوبعة ملك جن اليمن فبنى لها القصور الثلاثة التي ذكرناها باليمن ، والأول أشهر وأظهر . والله أعلم .

وقال تعالى في سورة ص : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ [الآيات : ٣٠ ـ ٤٠] .

يذكر سبحانه وتعالى أنه وهب لداود سليمان عليهما السلام ، ثم أثنى عليه تعالى فقال : ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ أي : رجّاع مطيع لله .

ثم ذكر تعالى ما كان من أمره في الخيل الصافنات ، وهي التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة ، الجياد ، وهي المضمَّرة السراع[1] .

﴿ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾ يعني الشمس . وقيل : الخيل ـ على ما سنذكره من القولين ـ ﴿ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴾ قيل : مسح عراقيبها وأعناقَها بالسيوف . وقيل : مسح عنها العرق لمَّا أجراها وسابق بينها وبين يديه على القول الآخر .

والذي عليه أكثر السلف الأول ، فقالوا : اشتغل بعَرض تلك الخيول حتى خرج وقتُ العصر وغربت الشمس . رُوي هذا عن علي بن أبي طالب[2] وغيره .

والذي يُقطع به أنه لم يترك الصلاة عَمْداً من غير عذر ، اللهمَّ إلا أن يُقال : إنه كان سائغاً في شريعتهم فَأَخَّرَ الصلاة لأجل أسباب الجهاد ، وعَرْض الخيل من ذلك .

وقد ادّعى طائفة من العلماء في تأخير النبي ﷺ صلاة العصر يوم الخندق أن هذا كان مشروعاً إذ ذاك حتى نُسخ بصلاة الخوف . قاله الشافعي وغيره .

---

(١) في ب : الجياد المضمرة السرَّع . تفسير الطبري (٢٣/٩٨ ـ ٩٩) .

(٢) أورده الطبري في « تفسيره » (٢٣/٩٩) ، أن أبا الصهباء البكري سأل علي بن أبي طالب عن الصلاة الوسطى ، فقال : هي العصر ، وهي التي فتن بها سليمان بن داود .

وقال مكحول والأوزاعي : بل هو حُكم مُحْكَم إلى اليوم ؛ أنه يجوز تأخيرها بعذر القتال الشديد ، كما ذكرنا تقرير ذلك في سورة النساء عند صلاة الخوف .

وقال آخرون : بل كان تأخير النبي ﷺ صلاة العصر يوم الخندق سهواً نسيانا ، وعلى هذا فَيُحمَل فعلُ سليمان عليه السلام على هذا . والله أعلم .

وأما من قال : الضمير في قوله : ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾ عائد على الخيل ، وأنه لم يفته وقت صلاة ، وأن المراد بقوله : ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴾ يعني مسح العرق عن عراقيبها وأعناقها ، فهذا القول اختاره ابن جرير ، ورواه الوالبي عن ابن عباس في مسح العرق . ووجَّه هذا القول ابنُ جرير بأنه ما كان لِيعذِّبَ الحيوانَ بالعرقبة ، ويهلك مالاً بلا سبب ولا ذنب لها[١] .

وهذا الذي قاله فيه نظر ، لأنه قد يكون هذا سائغاً في ملّتهم . وقد ذهب بعض علمائنا إلى أنه إذا خاف المسلمون أن يظفر الكفار على شيء من الحيوانات من أغنام ونحوها جاز ذبحُها وإهلاكها لئلا يتقوّوا بها عليهم ، وعليه[٢] حُمل صنيع جعفر بن أبي طالب يومَ عَقَر فرسه بمؤته[٣] . وقد قيل : إنها كانت خيلاً عظيمة . قيل : كانت عشرة آلاف فرس . وقيل : عشرين ألفَ فرس . وقيل : كان فيها عشرون فرساً من ذوات الأجنحة .

وقد روى أبو داود في « سننه » : حدّثنا محمد بن عوف ، حدّثنا سعيد بن أبي مريم ، أخبرنا يحيى بن أيوب ، حدّثني عُمارة بن غَزيّة أن محمد بن إبراهيم حدّثه عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، عن عائشة قالت : قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أو خيبر ، وفي سَهْوَتها[٤] سِتْر ، فهبَّت الريح فكشفت ناحية الستر عن بناتٍ لعائشة لُعَب ، فقال : « ما هذا يا عائشةُ » فقالت : بناتي . ورأى بينهن فرساً له جناحان من رقاع فقال : « ما هذا الذي أرى وسْطَهنَّ » ؟ قالت : فرس . قال : « وما الذي عليه هذا » ؟ قالت : جناحان . قال : « فرسٌ له جناحان » ؟ قالت : أما سمعت أن لسليمان خيلاً لها أجنحة ؟ قالت : فضحك حتى رأيت نواجذه ﷺ[٥] .

وقال بعض العلماء : لما ترك الخيلَ لله عوَّضَه اللهُ عنها بما هو خير له منها ، وهو الريح التي كانت غُدُوُّها شهرٌ ورَواحها شهر ، كما سيأتي الكلام عليها .

---

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ١٠٠) .

(٢) في أ : لئلا ينفروا بها ، وعليه . . . وفي ط : لئلا يتقووا بها ، وعليه . . وأثبتنا ما في ب .

(٣) خبر غزوة مؤتة ، وعرقبة جعفر بن أبي طالب فرسه ، في المغازي (٢/ ٧٥٥) ، وما بعدها .

(٤) السهوة : بيت صغير منحدر في الأرض قليلاً ، شبيه بالمخدع والخزانة . وقيل : هو كالصُّفَّة تكون بين يدي البيت . وقيل : شبيه بالرف أو الطاق يوضع فيه الشيء . النهاية (٢/ ٤٣٠) .

(٥) أخرجه أبو داود : رقم (٤٩٣١) ، في الأدب : باب (٦٢) في اللعب بالبنات .

كما قال الإمام أحمد : حدّثنا إسماعيل ، حدّثنا سليمان بن المغيرة ، عن حميد بن هلال ، عن أبي قتادة وأبي الدهماء ، وكانا يكثران السفر نحو البيت قالا : أتينا على رجل من أهل البادية ، فقال البدوي : أخذ بيدي رسول الله ﷺ فجعل يعلّمني مما علّمه الله عز وجل ، وقال : « إنّكَ لا تَدَعُ شَيْئاً اتّقاءَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ إلاّ أَعْطاكَ اللهُ خَيْراً مِنْهُ »[١] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ : ذكر ابن جرير[٢] ، وابن أبي حاتم وغيرهما من المفسرين هاهنا آثاراً كثيرة عن جماعة من السلف ، وأكثرها أوْ كلُّها متلقّاة من الإسرائيليات ، وفي كثير منها نكارة شديدة . وقد نبهنا على ذلك في كتابنا « التفسير »[٣] ، واقتصرنا هاهنا على مجرّد التلاوة .

ومضمون ما ذكروه أن سليمان عليه السلام غاب عن سريره أربعين يوماً ثمّ عاد إليه . ولما عاد أمر ببناء بيت المقدس فبناه بناءً مُحْكماً . وقد قدَّمْنا أنه جدَّده ، وأن أول من جَعله مسجداً إسرائيلُ عليه السلام كما ذكرنا ذلك عند قول أبي ذر : قلت : يا رسول الله أيُّ مسجد وضع أوّل ؟ قال : « المسْجِدُ الحَرَامُ » . قلت : ثم أي ؟ قال : « مَسْجِدُ بَيْتِ المْقدِسِ » . قلت : كم بينهما ؟ قال : « أرْبَعُونَ سَنَةً »[٤] . ومعلوم أن بين إبراهيم الذي بنى المسجد الحرام وبين سليمان بن داود عليهما السلام أزيد من ألف سنة ، دع أربعين سنة ، وكان سؤاله المُلْك الذي لا ينبغي لأحد من بعده بعدَ إكماله بناء بيت المقدس كما قال الإمام أحمد ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن خزيمة ، وابن حبّان ، والحاكم ، بأسانيدهم عن عبد الله بن فيروز الديلمي ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ سُلَيمانَ لَمَّا بَنَى بَيْتَ المَقْدِسِ سَأَلَ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خِلالاً ثلاثاً فأَعْطَاهُ اثْـنَـتَيْنِ ، ونَحْنُ نَرْجُو أَنْ تَكُونَ لَنا الثَّالِثَةُ ، سَأَلَهُ حُكْماً يُصَادِفُ حُكْمَهَ فَأَعْطَاهُ إياهُ ، وسَأَلَهُ مُلْكاً لا يَنْبَغي لأحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ فأعْطَاهُ إيَّاهُ ، وسَأَلَه أيّما رَجُلٍ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ لا يُرِيْدُ إلاّ الصَّلاةَ في هذا المسْجِدِ خَرَجَ مِنْ خَطِيئَتِهِ مِثْلَ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ ، فَنَحْنُ نَرْجُو أنْ يَكُونَ اللهُ قَدْ أَعْطانا إياها »[٥] .

فأما[٦] الحكم الذي يوافق حكم الله تعالى ، فقد أثنى الله تعالى عليه وعلى أبيه في قوله : ﴿ وَدَاوُۥدَ

---

(١) المسند (٥/ ٧٨) .

(٢) تفسير الطبري (٢٣/ ١٠٠) .

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٤) وما بعدها .

(٤) أخرجه البخاري رقم (٣٤٢٥) في الأنبياء ، باب قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ﴾ .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ١٧٦) ، والنسائي (٢/ ٢٤) ، في المساجد ، باب فضل المسجد الأقصى والصلاة فيه ، وابن ماجه رقم (١٤٠٨) في إقامة الصلاة ، باب ما جاء في الصلاة في مسجد بيت المقدس . وفي لفظه اختلاف يسير . وابن خزيمة (١٣٣٤) . وابن حبان في صحيحه (١٦٣٣) والحاكم في المستدرك (١/ ٣٠ ـ ٣١) .

(٦) زاد في ب : وقد روي هذا عن صحابي آخر فقال الطبراني : حدّثنا محمد بن الحسن العسقلاني ، حدّثنا محمد بن أيوب بن سويد حدثني أبي ، حدّثنا إبراهيم بن أبي عبلة ، عن أبي الزاهرية ، عن رافع بن عمير ، سمعت =

وَسُلَيْمَنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء : ٧٨ ـ ٧٩] وقد ذكر شريح القاضي وغير واحد من السلف أن هؤلاء القوم كان لهم كرم ، فنفشت فيه غنم قوم آخرين ، أي : رعته بالليل فأكلت شجره بالكلية ، فتحاكموا إلى داود عليه السلام ، فحكم لأصحاب الكرم بقيمته ، فلما خرجوا على سليمان قال : بم حكم لكم نبي الله ؟ فقالوا : بكذا وكذا ، فقال : أما لو كنتُ أنا لما حكمت إلاّ بتسليم الغنم إلى أصحاب الكرم فيستغلّونها نتاجاً ودرّا حتى يصلح أصحاب الغنم كرم أولئك ويردوه إلى ما كان عليه ، ثمّ يتسلّموا غنمهم ، فبلغ داود عليه السلام ذلك فحكم به .

وقريب من هذا ما ثبت في « الصحيحين » من حديث أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « بينما امْرأتان مَعهما ابْناهُما ، إذْ عَدا الذِّئْبُ فأَخَذَ ابنَ إحْداهُما ، فتَنَازَعَتا في الآخَر ، فقَالَتِ الكُبْرى : إنّما ذَهَبَ بابْنِكِ . وقَالَت الصُّغْرى : بلْ إنّما ذَهَبَ بابنكِ . فتَحَاكَمتا إلى دَاودَ فَحكَم بِهِ لِلكُبْرى ، فَخرجَتا على سُليمان فقَال : ائتُوني بالسِّكِّين أَشُقُّهُ نِصْفَيْنِ لِكُلِّ واحِدَةٍ منهما[1] نِصْفُه ، فَقالَتِ الصُّغْرى : لا تَفْعَل يَرْحَمُكَ اللهُ هُوَ ابنُها فَقَضَى بِهِ لَها »[2] ولعل كلاًّ من الحُكمين كان سائغاً في شريعتهم ، ولكن ما قاله سليمان أرجح . ولهذا أثنى الله عليه بما ألهمه إياه ومدح بعد ذلك أباه فقال تعالى : ﴿ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ . ثم قال : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً ﴾ أي وسخرنا

= رسول الله ﷺ يقول : قال الله تعالى لداود عليه السلام : ابن لي بيتاً في الأرض ، فبنى داود لنفسه بيتاً قبل البيت الذي أمر به ، فأوحى الله تعالى إليه : يا داود نصبت بيتك قبل بيتي . قال : يا رب هكذا تعلمت فما قضيت من ملك استأثر ، ثم أخذ في بناء المسجد ، فلما تم السور سقط ثلثاه ، فشكا ذلك إلى الله عز وجل ، فأوحى الله إليه أنه لا يصلح أن تبني لي بيتاً . قال : أي رب ولم ؟ قال : لما جرت عليك من الدماء . قال : أي رب أو لم يكن ذلك في هواك ومحبتك ؟ قال : بلى ، ولكنهم عبادي وأنا أرحمهم . فشق ذلك عليه ، فأوحى الله لا تحزن فإني سأقضي بناءه على يدي ابنك سليمان . فلما مات داود عليه السلام أخذ سليمان في بنائه ، فلما تم قرّب القرابين وذبح الذبائح . وجمع بني إسرائيل ، فأوحى الله تعالى إليه قد أرى سرورك ببنيان بيتي فسلني أعطك . قال : أسألك ثلاث خصال : حكماً يصادق حكمك ، وملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ، ومن أتى هذا البيت لا يريد إلا الصلاة فيه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه .

قال رسول الله ﷺ : أما الثنتان فقد أعطيهما ، وأنا أرجو أن يكون قد أُعطينا الثالثة . وهذا سياق غريب وإسناد غريب . وقد أورد هذا الحديث ابن كثير في تفسيره (٤/٣٨) .

(١) في ط : منكما .

(٢) في عبارة ب اختلاف عن لفظ الحديث هاهنا .

والحديث أخرجه البخاري رقم (٣٤٢٧) في الأنبياء ، باب قول الله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ . رقم(٦٧٦٩) في الفرائض ، باب إذا ادعت المرأة ابناً . ومسلم رقم (١٧٢٠) في الأقضية ، باب بيان اختلاف المجتهدين .

لسليمان الريح عاصفة ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٩ ـ ٨٢] .

وقال في سورة ص : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ [٣٦ ـ ٤٠] .

لما تَرَكَ الخَيلَ ابتغاء وجه الله عوَّضه اللهُ منها الريح التي هي أسرع سيراً وأقوى وأعظم ولا كلفة عليه لها ، تجري بأمره رُخاءً ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ أي : حيث أراد من أيِّ البلاد . كان له بساط يركبُ عليه من أخشاب[(١)] ، بحيث إنه يسع جميع ما يحتاج إليه من الدور المبنية والقصور والخيام والأمتعة والخيول والجمال والأثقال والرجال من الإنس والجان ، وغير ذلك من الحيوانات والطيور ، فإذا أراد سفراً أو مستنزهاً أو قتالَ ملك أو أعداءً من أي بلاد الله شاء ، فإذا حمل هذه الأمور المذكورة على البساط أمر الريحَ فدخلت تحته فرفعته ، فإذا استقل بين السماء والأرض أمر الرُّخاءَ[(٢)] فسارت به ، فإن أراد أسرع من ذلك أمر العاصفة فحملته أسرع ما يكون فوضعته في أي مكان شاء ، بحيث إنه كان يرتحل في أول النهار من بيت المقدس فتغدو به الريح فتضعه بإصطخر ، مسيرة شهر ، فيقيم هناك إلى آخر النهار . ثمّ يروح من آخره فترده إلى بيت المقدس ، كما قال تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ : ١٢ ـ ١٣] .

قال الحسن البصري : كان يغدو من دمشق فينزل بإصطخر فيتغدّى بها ويذهب رائحاً منها فيبيت بكابُل ، وبين دمشق وبين إصطخر مسيرةُ شهر ، وبين إصطخر وكابُل مسيرة شهر[(٣)] .

قلتُ : قد ذكر المتكلمون على العمران والبلدان أن إصطخر بنتها الجان لسليمان ، وكان فيها قرار مملكة الترك قديماً ، وكذلك غيرها من بلدان شتى كتدمر وبيت المقدس ، وبابُ جيرون وباب البريد[(٤)] اللذان بدمشق ، على أحد الأقوال .

وأما القِطْر[(٥)] فقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة وغير واحد : هو النحاس ، وقال قتادة : وكانت باليمن أنبعها الله له . قال السدي : ثلاثة أيام فقط أخذ منها جميع ما يحتاج إليه للبنايات وغيرها .

---

(١) كذا في ب . وفي أ : مركب في أخشاب وفي ط : مركب من أخشاب . تفسير الطبري (٢٢/ ٤٨) .

(٢) أورد الطبري الأقوال في تفسير الريح الرخاء ، وفيها : السريعة الطيبة ، والمطيعة . (٢٣/ ١٠٣) .

(٣) تفسير الطبري (٢٢/ ٤٨) .

(٤) في ب : باب التومة .

(٥) في ب : عين القطر .

وقوله : ﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ أي : وسخّر الله له من الجنّ عُمّالاً يعملون له ما يشاء لا يفترون ولا يخرجون عن طاعته ، ومن خرج منهم عن الأمر عذّبه ونكلّ به . ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ ﴾ وهي الأماكن الحسنة وصدور المجالس ﴿ وَتَمَٰثِيلَ ﴾ وهي الصور في الجدران ، وكان هذا سائغاً في شريعتهم وملّتهم ﴿ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ ﴾ . قال ابن عباس : الجفنة كالجوبة من الأرض ، وعنه : كالحياض[١] . وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم[٢] . وعلى هذه الرواية يكون الجواب جمع جابية ، وهي الحوض الذي يجبىٰ فيه الماء كما قال الأعشى : [من الطويل]

تَرُوْحُ على آلِ المُحلِّقِ جَفنةٌ   كَجابيةِ السَّيْحِ العِراقيِّ يَفْهَقُ[٣]

وأما القدور الراسيات ، فقال عكرمة : أثافيها منها ، يعني أنهن ثوابت لا يزلن عن أماكنهن . وهكذا قال مجاهد وغير واحد[٤] .

ولما كان هذا بصدد إطعام الطعام والإحسان إلى الخلق من إنسان وجان قال تعالى : ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾ يعني أن منهم من قد سَخّره في البناء ، ومنهم من يأمره بالغوص في الماء لا ستخراج ما هنالك من الجواهر واللآلئ وغير ذلك مما لا يوجد إلا هنالك . وقوله : ﴿ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾ أي قد عصوا فقُيِّدوا مقرنين اثنين اثنين في الأصفاد ، وهي : القيود . وهذا كلّه من جملة ماهيأ الله وسخر له من الأشياء التي هي من تمام الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده ، ولم يكن أيضاً لمن كان قبله . وقد قال البخاري[٥] : حدّثنا محمد بن بشار ، حدّثنا محمد بن جعفر ، حدّثنا شعبة ، عن محمد بن زياد ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « إنَّ عِفرِيْتاً مِنَ الجِنِّ تَفلَّتَ عليّ البارحَةَ لِيَقْطَعَ علَيّ صَلاتي فأمْكنَني اللهُ مِنْهُ ، فأخَذْتُهُ فأرَدْتُ أنْ أرْبطَهُ إلى سَارِيَةٍ مِنْ سَوارِي المَسْجد حَتّى تَنْظُروا إليَه كُلُّكم ، فَذكَرْتُ دَعْوَةَ أخي سُلَيْمانَ ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ﴾ فَرَدَدْتُهُ خاسِئاً » .

---

(١) تفسير الطبري (٢٢/ ٤٩) .
(٢) المصدر السابق .
(٣) ديوان الأعشى : (ق٣٣/ ب٥٧ ، ص٢٧٥) . وفيه : [من الطويل]
نفى الذم عن آل المحلق جفنة   كجابية السيح العراقي تفهق
وفي ط : الشيخ . والسيح : النهر . ويفهق : يتصبب .
(٤) تفسير الطبري (٢٢/ ٤٩) .
(٥) أخرجه البخاري رقم (٣٤٢٣) في الأنبياء ، باب قول الله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ﴾ .

وكذا رواه مسلم والنسائي من حديث شعبة[١] .

وقال مسلم[٢] : حدّثنا محمد بن سلمة المرادي ، حدّثنا عبد الله بن وهب ، عن معاوية بن صالح ، حدّثني ربيعة بن يزيد ، عن أبي إدريس الخَوْلاني ، عن أبي الدرْداء قال : قام رسول الله ﷺ فصلّى ، فسمعناهُ يَقُولُ : « أعوذُ باللهِ مِنْكَ ، أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللهِ ثلاثاً ، وبَسَطَ يَدَهُ كأَنَّهُ يَتَناوَلُ شَيْئاً ، فلَمّا فَرَغَ مِنَ الصَّلاةِ قُلْنا يا رَسُولَ اللهِ سَمِعْناكَ تَقُولُ في الصلاَّةِ شَيْئاً لم نَسْمَعك تَقُوْلُهُ قَبْلَ ذلكَ ، ورأَيْناكَ بَسَطْتَ يَدَكَ . قال : « إنَّ عَدُوَّ اللهِ إبْليس جَاءَ بِشِهابٍ مِنْ نارٍ لِيَجْعَلَهُ في وَجْهي فَقُلْتُ أعُوذُ باللهِ مِنْكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ قُلْتُ أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللهِ التَّامَّةِ ، فَلَم يَسْتَأْخِر ثَلاثَ مَرَّاتٍ . ثُمَّ أَرَدْتُ أَخْذَهُ . واللهِ لَولا دَعْوَةُ أَخِيْنا سُلَيمانَ لأَصْبَحَ مُوْثَقاً يَلْعَبُ بِهِ وِلْدَانُ أَهْلِ المدِيْنَة » .

وكذا رواه النسائي عن محمد بن سلمة ، به[٣] .

وقال أحمد[٤] : حدّثنا أبو أحمد ، حدّثنا مسرَّة بن معبد ، حدثنا أبو عبيد صاحب سليمان قال : رأيت عطاء بن يزيد الليثي قائماً يُصلي ، فذهبتُ أمرُّ بين يديه ، فردّني ، ثمّ قال : حدّثني أبو سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قام فصلّى صلاةَ الصُّبح وهو خلفَه ، فقرأ ، فالتبسَتْ عليه القراءة . فلمّا فرغ من صلاته قال : « لَوْ رَأَيْتُمُوْني وإبْليس فأَهْوَيْتُ بِيَدِي فما زِلْتُ أَخْنُقُهُ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ لُعابِهِ بَيْنَ أصْبعَيَّ هاتَيْن » الإبهام والتي تليها « ولَولا دَعْوَةُ أخي سُلَيمانَ لأَصْبَحَ مَرْبُوطاً بِسَارِيةٍ مِنْ سَوارِي المسْجِدِ يَتَلاعَبُ بهِ صِبْيانُ المدِيْنة ، فَمَنِ اسْتَطاعَ مِنْكُم أنْ لا يَحُولَ بَيْنَهُ وبَيْنَ القِبْلَةِ أَحدٌ فَلْيَفْعَلْ » .

روى أبو داود[٥] منه « فَمَن اسْتَطَاع » إلى آخره ، عن أحمد بن سريج ، عن أحمد الزبيري ، به .

وقد ذكر غير واحد من السلف أنه كانت لسليمان من النساء ألف امرأة سبعمئة بمهور ، وثلاثمئة سراري ، وقيل بالعكس ثلاثمئة حرائر وسبعمئة من الإماء . وقد كان يطيق من التمتع بالنساء أمراً عظيماً جداً . قال البخاري : حدّثنا خالد بن مَخْلَد ، حدّثنا مغيرة بن عبد الرحمان ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قالَ : « قال سُلَيْمانُ بنُ دَاودَ : لأَطُوْفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى سَبْعِيْنَ امْرأَةً تَحْمِلُ كُلُّ امْرأَةٍ فارِساً يُجَاهِدُ في سَبِيْلِ اللهِ . فقالَ لَهُ صَاحِبُهُ : إنْ شاءَ اللهُ . فلم يَقُلْ ، فَلَمْ تَحْمِلْ شَيْئاً إلاّ واحِداً ساقِطاً أَحَدُ شِقَّيْهِ » . فقال النبي ﷺ : « لَوْ قَالَها لَجَاهَدُوا في سَبِيْلِ اللهِ » . وقال

(١) أخرجه مسلم رقم (٥٤١) في المساجد ، باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة ، والتعوذ منه ، والنسائي في التفسير (٤٦٠) ، وهو في سننه الكبرى (١١٤٤٠) .

(٢) صحيح مسلم رقم (٥٤٢) في المساجد ، باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة .

(٣) أخرجه في الصلاة من سننه الكبرى (٥٤٩) .

(٤) المسند (٣/ ٨٢ ـ ٨٣) .

(٥) في سننه رقم (٧٠٠) في الصلاة ، باب ما يؤمر المصلي أن يدرأ عن الممر بين يديه .

شعيب ، وابن أبي الزناد : تسعين ، وهو أصح ، تفرّد به البخاري من هذا الوجه[(١)] .

وقال أبو يعلى : حدّثنا زهير ، حدّثنا يزيد، أخبرنا هشام بن حسان، عن محمد، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قال سُلَيمانُ بنُ دَاودَ : لأَطُوفَنَّ اللَّيلةَ عَلَى مئةِ امرأةٍ كُلُّ امْرأةٍ مِنْهُنَّ تَلِدُ غُلاماً يَضْرِبُ بالسَّيْفِ في سَبِيْلِ اللهِ ، وَلَم يَقُلْ : إنْ شَاءَ اللهُ . فطافَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ على مئةِ امْرأةٍ فَلَم تَلِدْ مِنهُنَّ امْرأةٌ إلاّ امْرأةٌ وَلَدَتْ نِصْفَ إنْسَانٍ » . فقال رسول الله ﷺ : « لو قَالَ : إنْ شَاءَ اللهُ لَوَلَدَتْ كُلُّ امْرأةٍ مِنهُنَّ غُلاماً يَضْرِبُ بالسَّيْفِ في سَبِيْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ » . إسناده على شرط « الصحيح » ، ولم يخرجوه من هذا الوجه[(٢)] .

وقال الإمام أحمد : حدّثنا هُشيم ، حدثنا هشام ، عن ابن سيرين ، عن أبي هريرة قال : قال سليمان ابن داود : لأطوفن الليلة على مئة امرأة تلد كل واحدة منهن غلاما يقاتل في سبيل الله ، ولم يستثن ، فما ولدت إلا واحدة منهن بشِقّ إنسان قال : قال رسول الله ﷺ : « لَو اسْتَثْنَى لَوُلِدَ لَهُ مِئةُ غُلام . كُلُّهُم يُقَاتِلُ في سَبِيْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ » تفرد به أحمد أيضاً[(٣)] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر ، عن ابن طاووس ، عن أبيه ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قالَ سُليمانُ بنُ داودَ لأَطُوْفَنَّ اللَّيْلَةَ بمئةِ امْرأةٍ تَلِدُ كُلُّ امْرأةٍ مِنْهُنَّ غُلاماً يُقاتِلُ في سَبِيْلِ اللهِ » قال : « ونَسِيَ أنْ يَقُولَ : إنْ شَاءَ اللهُ ، فأطَافَ بِهِنَّ » قال : « فلَم تَلِدْ مِنْهُنَّ امْرأةٌ إلاّ واحِدَةٌ نِصْفَ إنْسانٍ » فقال رسول الله ﷺ : « لو قَالَ إنْ شَاءَ اللهُ لَمْ يَحْنثْ وكانَ دركاً لحاجَتِهِ »[(٤)] .

وهكذا أخرجاه في « الصحيحين » من حديث عبد الرزاق ، به ، مثله[(٥)] .

وقال إسحاق بن بشر : أخبرنا مقاتل ، عن أبي الزناد ، وابن أبي الزناد عن أبيه ، عن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة : أن سليمان بن داود كان له أربع مئة امْرأةٍ وستمئة سرية ، فقالَ يَوْماً : لأَطُوْفَنَّ اللَّيْلَةَ على ألْفِ امْرأةٍ فتَحمِلُ كُلُّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ بِفارِسٍ يُجَاهِدُ في سَبِيْلِ اللهِ ، ولَمْ يَسْتَثْنِ ، فَطَافَ عَلَيْهِنَّ فَلَمْ تَحْمِلْ واحِدَةٌ مِنْهُنَّ إلا امْرأَةٌ واحِدَةٌ مِنهُنَّ جاءَتْ بِشِقّ إنْسَانٍ . فقال النبي ﷺ : « والذي نَفْسِي بِيَدِهِ لَو اسْتَثْنَى فَقَالَ : إنْ شَاءَ اللهُ ، لَوُلِدَ لَهُ ما قالَ فُرسانٌ ، ولَجاهَدُوا في سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ » .

---

(١) صحيح البخاري رقم (٣٤٢٤) في الأنبياء ، باب قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ﴾ .

(٢) مسند أبي يعلى رقم (٦٣٤٧) .
ذكره صاحب كنز العمال (٣/ ٥٧ و٥٨ و٥٥٨)، والحديث عزاه لعدد من الأئمة، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) المسند (٢/ ٢٢٩) .

(٤) المسند (٢/ ٢٧٥) .

(٥) في البخاري رقم (٥٢٤٢) في النكاح ، باب قول الرجل لأطوفن الليلة على نسائي . ومسلم رقم (١٦٥٤) في الأيمان ، باب الاستثناء .

وهذا إسناد ضعيفٌ لحال إسحاق بن بشر فإنه مُنكَر الحديث، ولاسيما وقد خالف الروايات الصحاح[١] .

وقد كان له عليه السلام من أمور المُلك واتِّساع الدولة وكثرة الجنود وتنوُّعها مالم يكن لأحدٍ قبلَه ولا يعطيه الله أحداً بعده ، كما قال : ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ وقال : ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ .

وقد أعطاه الله ذلك بنص الصَّادق المصدوق .

ولما ذكر تعالى ما أنعم به عليه وأسداه من النعم الكاملة العظيمة إليه قال : ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي : أعط من شِئت ، واحرم من شئت ، فلا حساب عليك ، أي : تصرَّف في المال كيف شئت ، فإن الله قد سوَّغ لك كل ما تفعله من ذلك ، ولا يحاسبك على ذلك . وهذا شأن النبي المَلِك ، بخلاف العبد الرسول ، فإنّ مِنْ شأنه أن لا يُعطي أحداً ، ولا يمنع أحداً إلا بإذن الله له في ذلك . وقد خُيِّر نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه بين هذين المقامين ، فاختار أن يكون عبداً رسولاً . وفي بعض الروايات أنه استشار جبريل في ذلك فأشار إليه : أن تواضع ، فاختار أن يكون عبداً رسولاً صلوات الله وسلامه عليه . وقد جعل الله الخِلافة والمُلْك من بعده في أمته إلى يوم القيامة ، فلا تزال طائفة من أمته ظاهرين حتى تقوم الساعة . فلله الحمد والمِنَّة .

ولما ذكر تعالى ما وهبه لنبيه سليمان عليه السلام من خير الدنيا ، نبَّه على ما أعدَّه له في الآخرة من الثواب الجزيل والأجر الجميل ، والقربة التي تقرِّبه إليه والفوز العظيم والإكرام بين يديه ، وذلك يوم المعاد والحساب حيث يقول تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ .

* * *

ذكر وَفاته وكم كانت مدّة ملكه وحياته[٢]

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ [سبأ : ١٤] .

روى ابن جرير ، وابن أبي حاتم وغيرهما من حديث إبراهيم بن طهمان عن عطاء بن السائب[٣] عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « كانَ سُلَيمانُ نَبيُّ اللهِ عَلَيْه السَّلامُ إذا صَلَّى رَأَى شَجَرَةً

(١) ترجمته وما قيل فيه في المجروحين ، لابن حبان (١/ ١٣٥ ـ ١٣٧) .
(٢) في ط : وفاته ومدة ملكه وحياته .
(٣) في ب : عن عطاء بن السائب عن أبي هريرة قال . . .

نابتَةً بَيْنَ يَدَيْهِ فَيَقُولُ لَها : ما اسْمُكِ ؟ فتَقُول : كَذَا . فَيَقُولُ : لأيِّ شَيْءٍ أنْتِ ؟ فإنْ كَانَتْ لِغَرْسٍ غُرِسَتْ ، وإنْ كَانَتْ لِدَوَاءٍ أنبتت[١] فَبَيْنَمَا هُوَ يُصَلّي ذاتَ يَوْمٍ إذْ رَأَى شَجَرَةً بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ لَها : ما اسْمُكِ ؟ قالتْ : الخرُّوْب . قال : لأيّ شَيءٍ أنْتِ ؟ قالتْ : لخرابِ هذا البيْتِ . فَقَالَ سُلَيمانُ : اللّهُمّ عَمِّ عَلَى الجِنِّ مَوْتي حَتّى تَعْلَمَ الإنْسُ أنَّ الجِنَّ لا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ . فَنَحَتَها عَصاً فتَوَكّأَ عَلَيْها حَوْلاً والجِنُّ تَعْمَلُ فَأكَلَتْها الأرَضَةُ ، فتَبيَّنَتِ الإنْسُ أنَّ الجِنَّ لَوْ كانوا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ مَا لَبِثُوا حَوْلاً في العذابِ المُهِيْنِ »[٢] . قال : وكان ابن عباس يقرؤها كذلك[٣] ، قال : فشكرت الجنُّ للأرضة فكانت تأتيها بالماء .

لفظ ابن جرير[٤] . وعطاء بن السائب[٥] في حديثه نكارة[٦] .

وقد رواه الحافظ ابن عساكر من طريق سلمة بن كهيل ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس موقوفاً[٧] ، وهو أشبه بالصواب . والله أعلم .

وقال السُّدّي في خبرٍ ذَكَره عن أبي مالك ، وعن أبي صالح عن ابن عباس ، وعن مرَّة عن ابن مسعود ، وعن أناس من الصحابة : كان سليمان عليه السلام يتجرد في بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين وأقل من ذلك وأكثر ، يُدخل طعامه وشرابه ، فأدخله في المرة التي تُوُفّي فيها ، فكان بدء ذلك أنه لم يكن يوم يصبح فيه إلا نبتت في بيت المقدس شجرة فيأتيها ، فيسألُها : ما اسمك ؟ فتقول الشجرة : اسمي كذا وكذا . فيقول لها : لأي شيء نبتِّ ؟ فتقول : نبتُّ لكذا وكذا ، فيأمر بها فتقطع[٨] . فإذا كانت نبتت لغرس غرسها ، وإن كانت نبتت لدواءٍ[٩] قالت : نبتُّ دواءً لكذا وكذا ، فيجعلها كذلك . حتى نبتت شجرة يقال لها : الخرُّوبة ، فسألها : ما اسمك ؟ فقالت : أنا الخرُّوبة . فقال : ولأي شيء

---

(١) في بعض النسخ : كتبت .

(٢) الحديث في تفسير الطبري (٢٢/ ٥١) .

(٣) أي : . . ما لبثوا حولاً في العذاب المهين . تاريخ الطبري (١/ ٥٠١) وفي شواذ ابن خالويه : (١٢١) ، أن ابن عباس كان يقرأ : تُبُيِّنت . .

(٤) تفسيره (٢٢/ ٥١) . وتاريخه (١/ ٥٠١) .

(٥) في أ وب وط : الخراساني . ولا مكان لذكره هاهنا ؛ والذي في سند الحديث عند ابن جرير في تفسيره ، وتاريخه (١/ ٥٠١) ، عطاء بن السائب .

(٦) هكذا قال ولم يوضح، وعطاء بن السائب ثقة في نفسه لكنه اختلط، فحديثه قبل الاختلاط صحيح، وقد وثقه أيوب السختياني، ويحيى بن سعيد القطان، وأحمد بن حنبل، والعجلي، وابن سعد، ويعقوب بن سفيان، والنسائي، وغيرهم، وإنما ضعفه بعضهم بسبب اختلاطه. وآفة هذا الحديث أنه من رواية إبراهيم بن طهمان عن عطاء، وهو ممن روى عنه بعد الاختلاط (وينظر تحرير التقريب ٣/ ١٤ ـ ١٥) .

(٧) تاريخه (٢٢/ ٢٩٦ ـ ٢٩٧) .

(٨) من قوله : فيقول لها . . . إلى هنا ؛ زيادة من تفسير الطبري (٢٢/ ٥١) . وتاريخه (١/ ٥٠٢) .

(٩) في أ وط : دواء . وفي ب : نَبَت دواء . . . وأثبتنا لفظ الطبري .

نبتّ ؟ فقالت : نبتُّ لخراب هذا المسجد . فقال سليمان : ما كان الله ليخرِبه وأنا حيّ ، أنتِ التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس ، فنزعها وغرسها في حائط[١] له . ثم دخل المحراب ، فقام يصلي مُتّكِئاً على عصاه ، فمات ولم يعلم به الشياطين ، وهم في ذلك يعملون له ، يخافون أن يخرج فيعاقبهم . وكانت الشياطين تجتمع حول المحراب ، وكان المحراب له كُوًى بين يديه وخلفه ، فكان الشيطان الذي يريد أن يخلع يقول : ألست جليداً إن دخلت فخرجت من ذلك الجانب ، فيدخل حتى يخرج من الجانب الآخر . فدخل شيطان من أولئك فمرَّ ـ ولم يكن شيطان ينظر إلى سليمان عليه السلام وهو في المحراب إلا احترق ـ ولم يسمع صوت سليمان ، ثمّ رجع فلم يسمع ، ثمّ رجع فوقع في البيت ولم يحترق ، ونظر إلى سليمان عليه السلام قد سقط ميتاً ، فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات . ففتحوا عنه فأخرجوه ووجدوا مِنْسأته ـ وهي العصا بلسان الحبشة ـ قد أكلتها الأرضة ، ولم يعلموا منذ كم مات ، فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت منها يوماً وليلةً . ثمّ حسبوا على ذلك النحو فوجدوه قد مات منذ سنة . وهي قراءة ابن مسعود : « فمكثوا يدأبون[٢] له من بعد موته حولاً كاملاً » ، فأيقن الناس عند ذلك أن الجن كانوا يكذبون ، ولو أنهم علموا الغيب لعلموا بموت سليمان . ولم يلبثوا في العذاب سنة يعملون له ، وذلك قول الله عزّ وجل : ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ يقول : تبين أمرهم للناس أنهم كانوا يكذبونهم . ثم إن الشياطين قالوا للأرضة : لو كنتِ تأكلين الطعام لأتيناك بأطيب الطعام ، ولو كنتِ تشربين الشراب سقيناك أطيب الشراب ، ولكنا سننقل إليك الماء والطين . قال فهم ينقلون إليها ذلك حيث كانت ، قال : ألم تر إلى الطين الذي يكون في جوف الخشب فهو ما يأتيها به الشياطين تشكراً لها[٣] . وهذا فيه من الإسرائيليات التي لا تُصدّق ولا تكذّب .

وقال أبو داود في كتاب « القدر »[٤] : حدّثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدّثنا قبيصة ، حدّثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن خيثمة قال : قال سليمان بن داود عليهما السلام لملك الموت : إذا أردت أن تقبض روحي فأعلمني . قال : ما أنا أعلم بذاك منك ، إنما هي كُتب يُلقى إليَّ فيها تسميةُ من يموت .

وقال أصبغ بن الفرج وعبد الله بن وهب ، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال : قال سليمان لملَك الموت : إذا أُمرتَ بي فأعلمني . فأتاه فقال : يا سليمان قد أُمِرت بك ، قد بقيت لك سُوَيعة ، فدعا

---

(١) الحائط : البستان .
(٢) في تاريخ الطبري : يدينون .
(٣) تاريخ الطبري (١/ ٥٠٢) ، وتفسيره (٢٢/ ٥١ ـ ٥٢) .
(٤) كتاب القدر لأبي داود ، رواه عنه محمد بن أحمد بن يعقوب المتُّوثي البصري .
ذكر ذلك الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٣/ ٢٠٦) ، ولم يصل إلينا .

الشياطين فبنوا عليه صرحاً من قوارير ليس له باب ، فقام يُصلي فاتكأ على عصاه ، قال : فدخل عليه ملَك الموت فقبض روحه وهو متوكئ على عصاه . ولم يصنع ذلك فراراً من ملك الموت . قال : والجن تعمل بين يديه وينظرون إليه يحسبون أنه حي ، قال فبعث الله دابّة الأرض ـ يعني إلى مِنْسأته ـ فأكلتها حتى إذا أكلت جوف العصا ضَعُفتْ وثقُل عليها ، فخرّ ، فلما رأت الجن ذلك انفضوا وذهبوا . قال : فذلك قوله : ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾[١] .

قال أصبغ : وبلغني عن غيره أنها مكثت سنة تأكل في مِنسأته حتى خَرَّ . وقد رُوِي نحوُ هذا عن جماعة من السلف وغيرهم . والله أعلم[٢] .

قال إسحاق بن بشر ، عن محمد بن إسحاق ، عن الزهري وغيره ، إن سليمان عليه السلام عاش ثنتين وخمسين سنةً ، وكان ملكه أربعين سنة .

وقال إسحاق أخبرنا أبو روق ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : أن ملكه كان عشرين سنة . فالله أعلم .

وقال ابن جرير : فكان جميع عمر سليمان بن داود عليهما السلام[٣] نيفاً وخمسين سنة . وفي سنة أربع من ملكه ابتدأ ببناء بيت المقدس فيما ذكر[٤] .

ثمّ ملك بعده ابنه رحبعيم[٥] مدة سبع عشرة سنة فيما ذكره ابن جرير ، وقال : ثم تفرقت بعده مملكة بني إسرائيل[٦] .

* * *

(١) تفسير الطبري (٢٢/ ٥٢) .

(٢) زاد في ب : وقد استنبط بعض الأئمة من هذا أن الأنبياء عليهم السلام لا تبلى أجسادهم كما ثبت في الحديث أن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء ، رواه أبو داود رقم (١٠٤٧) من حديث أوس بن أوس بلفظ « إن الله حرَّم على الأرض أجساد الأنبياء » وهو حديث صحيح .

(٣) زاد ابن جرير هنا : فيما ذُكر .

(٤) تاريخ الطبري (١/ ٥٠٣) .

(٥) في ط : رحبعام : وفي الطبري : رُحُبْعُم .

(٦) تاريخ الطبري (١/ ٥١٧) .

باب[1]

ذكر جَماعَة من أنبيَاء بني إسرائيل عليهم السلام ممن لا يعلم وقت زمانهم على التعيين إلا أنهم بعد داود وسليمان عليهما السلام وقبل زكريا وَيحيى عليهما السّلام[2]

فمنهم :

شعيا بن أمصيا

قال محمد بن إسحاق : وكان قبل زكريا ويحيى ، وهو ممن بَشَّر بعيسى ومحمد عليهما السلام . وكان في زمانه ملك اسمه صديقة[3] على بني إسرائيل ببلاد بيت المقدس ، وكان سامعاً مطيعاً لشعيا فيما يأمره به وينهاه عنه من المصالح ، وكانت الأحداث قد عظمت في بني إسرائيل ، فمرض الملك وخرجت في رجله قَرْحة . وقصد بيت المقدس ملكُ بابل في ذلك الزمان وهو سنحاريب . قال ابن إسحاق : في ستمئة ألف راية ، وفزع الناس فزعاً عظيماً شديداً ، وقال الملك للنبي شعيا : ماذا أوحَى الله إليك في أمر سنحاريب وجنوده ؟ فقال : لم يُوْحَ إليَّ فيهم شيء بعدُ . ثمّ نزل عليه الوحي بالأمر للملك صديقة بأن يوصي ويستخلف على ملكه مَن يشاء فإنه قد اقترب أجلُه ، فلما أخبره بذلك أقبل الملكُ على القبلة فصلّى وسبّح ودعا وبكى ، فقال وهو يبكي ويتضرّع إلى الله عزَّ وجل بقلب مخلص وتوكُّلٍ وصبر : اللهمّ ربَّ الأرباب وإلّه الآلهة[4] ، يا رحمن يا رحيم[5] ، يا من لا تأخذه سِنَة ولا نوم ، اذكرني بعلمي[6] وفعلي وحسن قضائي على بني إسرائيل ، وذلك كله كان منك ، فأنت أعلم به من نفسي ، سري وإعلاني لك[7] . قال : فاستجاب الله له ورحمه . وأوحى الله إلى شعيا أن يبشّره بأنه قد رَحِم بكاءه ، وقد أخّر في أجله خمسَ عشرة سنة ، وأنجاه من عدوه سنحاريب . فلما قال له ذلك ذهب عنه الوجع وانقطع عنه الشر والحزن ، وخرّ ساجداً ، وقال في سجوده : اللهم أنت الذي تعطي المُلْكَ من تشاء ، وتنزعه ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، عالم الغيب والشهادة ، أنت الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وأنت

---

(١) ليست في ب وط .

(٢) في ط : جماعة من أنبياء بني إسرائيل بعد داود وسليمان وقبل زكريا ويحيى عليهم السلام .

(٣) في ط : حزقيا ، وكذلك في الطبري (١/ ٥٣١) ، إلا أنه نبه على أن ابن إسحاق سماه : صديقة . كما هاهنا .

(٤) زاد الطبري هاهنا : القدّوس المتقدس .

(٥) في الطبري : الرحيم ، الرؤوف الذي لا تأخذه .

(٦) في الطبري : بعملي ، وهو كذلك في بعض النسخ وهو الأصوب .

(٧) تاريخ الطبري (١/ ٥٣٢ ـ ٥٣٣) .

ترحم وتستجيب دعوة المضطرين[١] . فلما رفع رأسه أوحى الله إلى شعيا أن يأمره أن يأخذ ماء التين فيجعله على قَرحته فيشفى ويصبح قد برئ ، ففعل ذلك ، فشفي .

وأرسل الله على جيش سنحاريب الموت فأصبحوا وقد هلكوا كلُّهم سوى سنحاريب وخمسة من أصحابه ، منهم بخت نصّر ، فأرسل ملكُ بني إسرائيل فجاء بهم ، فجعلهم في الأغلال وطاف بهم في البلاد على وجه التنكيل بهم والإهانة لهم سبعين يوماً ، ويطعم كلّ واحد منهم كل يوم رغيفين من شعير . ثمّ أودعهم السجن .

وأوحى الله تعالى إلى شعيا أن يأمر الملك بإرسالهم إلى بلادهم لينذروا قومَهم ما قدْ حلَّ بهم ، فلما رجعوا جمع سنحاريب قومه وأخبرهم بما قد كان من أمرهم ، فقال لهم السحرة والكهنة : إنا أخبرناك عن شأن ربهم وأنبيائهم فلم تطعنا ، وهي أمة لا يستطيعها أحد من ربهم . فكان أمر سنحاريب مما خوفهم الله به . ثمّ مات سنحاريب بعد سبع سنين[٢] .

قال ابن إسحاق : ثم لما مات صديقة ملك بني إسرائيل مَرِج أمرُهم ، واختلطت أحداثهم ، وكثر شرهم ، فأوحى الله تعالى إلى شعيا ، فقام فيهم فوعظهم وذكّرهم . وأخبرهم عن الله بما هو أهله ، وأنذرهم بأسه وعقابه إن خالفوه وكذّبوه . فلما فرغ من مقالته عَدَوا عليه وطلبوه ليقتلوه ، فهرب منهم ، فمرَّ بشجرة فانفلقت له فدخل فيها ، وأدركه الشيطان فأخذ بهدبة ثوبه فأبرزها ، فلما رأوا ذلك جاؤوا بالمنشار فوضعوه على الشجرة فنشروها ونشروه معها . فإنا لله وإنا إليه راجعون[٣] .

***

ومنهم :

أرميَا بن حلقيا
من سبط لاوي بن يعقوب

وقد قيل : إنه الخضر . رواه الضحّاك عن ابن عباس[٤] ، وهو غريب وليس بصحيح[٥] .

قال ابن عساكر[٦] : جاء في بعض الآثار أنه وقف على دم يحيى بن زكريا وهو يفور بدمشق

---

(١) لفظ الدعاء عند الطبري في تاريخه (١/ ٥٣٣) .
(٢) تاريخ الطبري (١/ ٥٣٢ ـ ٥٣٥) .
(٣) نقل الطبري الخبر عن ابن إسحاق مفصلاً في تاريخه (١/ ٥٣٦ ـ ٥٣٧) .
(٤) ورواه كذلك وهب بن منبه . تاريخ الطبري (١/ ٣٦٦ و٥٤٧) .
(٥) وكذلك قال الطبري . تاريخه (١/ ٣٧٦) .
(٦) تاريخه (٨/ ٢٧ ـ ٢٨) .

فقال أيها الدم فتنت الناس فاسكن ، فسكن ورسب حتى غاب .

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدّثني علي بن أبي مريم ، عن أحمد بن حباب ، عن عبد الله بن عبد الرحمن قال : قال أرميا : أي ربّ أيُّ عبادك أحَبُّ إليك ؟ قال : أكثرهم لي ذِكراً ، الذين يشتغلون بذِكري عن ذكر الخلائق . الذين لا تعرض لهم وساوس الفناء ولا يُحدِّثون أنفسهم بالبقاء . الذين إذا عرض لهم عيش الدنيا قَلُّوه ، وإذا زوي عنهم سُرُّوا بذلك . أولئك أنحلهم محبتي وأعطيهم فوق غاياتهم .

***

ذكر[1] خراب بَيت المقدس

وقوله تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝٧ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴾ [الإسراء : ٢ ـ ٨] .

وقال وهب بن منبه : أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له : أرميا حين ظهرت فيهم المعاصي : أن قُم بين ظهراني قومك فأخبرهم أن لهم قلوباً ولا يفقهون ، وأعيناً ولا يبصرون ، وآذاناً ولا يسمعون ، وإني تذكَّرت صلاح آبائهم فعطفني ذلك على أبنائهم ، فسلْهم كيف وجدوا غِبَّ طاعتي ، وهل سعد أحد ممن عصاني بمعصيتي ، وهل شقي أحد ممن أطاعني بطاعتي ، إن الدوابَّ تذكر أوطانها فتنزع إليها ، وإن هؤلاء القوم تركوا الأمر الذي أكرمت عليه آباءهم والتمسوا الكرامة من غير وجهها ، أما أحبارهم فأنكروا حقي ، وأما قُرّاؤهم فعبدوا غيري ، وأما نُسّاكهم فلم ينتفعوا بما علموا ، وأما وُلاتهم فكذبوا عَليّ وعلى رُسلي . خَزنوا المكر في قلوبهم ، وعوّدوا الكذبَ ألسنتَهم . وإني أقسم بجلالي وعزتي لأهيجنَّ عليهم جيولاً[2] لا يفقهون ألسنتهم ، ولا يعرفون وجوههم ، ولا يرحمون بكاءهم ، ولأبعثن فيهم مَلِكاً جبّاراً قاسياً ، له عساكر كقطع السحاب ، ومواكب كأمثال الفجاج ، كأن خفقان راياته طيران النسور ، وكأن حمل فرسانه كَرّ العقبان ، يعيدون العمران خراباً ، ويتركون القرى وحشة ، فياويل

---

(١) كلمة ذكر ؛ ليست في ط .
(٢) الجيول ، لعله يريد الأجيال ، جمع جيل .

إيليا وسكانها كيف أذلّلهم للقتل وأسلّط عليهم السبي ، وأُعيد بعد لجب الأعراس صُراخاً ، وبعد صهيل الخيل عُواء الذِّئاب ، وبعد شرافات القصور مساكن السباع ، وبعد ضوء السرج وهج العجاج ، وبالعزِّ الذُّلَّ ، وبالنعمة العبودية ، وأبدلن نساءهم بعد الطيب التراب ، وبالمشي على الزرابي الخبب[١] ، ولأجعلن أجسادهم زبلاً للأرض ، وعظامَهم ضاحية للشمس ، ولأدوسنَّهم بألوان العذاب ، ثم لآمرنَّ السماء فتكون طبقاً من حديد والأرض سبيكة من نحاس ، فإن أُمطرت لم تنبت الأرض ، وإن أنبتت شيئاً في خلال ذلك فبِرحْمتي للبهائم ، ثمّ أحبسه في زمان الزرع ، وأرسله في زمان الحصاد ، فإن زرعوا في خلال ذلك شيئاً سلطت عليه الآفة ، فإن خلص منه شيء نزعت منه البركة ، فإن دعوني لم أجبهم ، وإن سألوا لم أعطهم ، [وإن بكَوا لم أرحمهم ، وإن تضرّعوا صرفتُ وجهي عنهم . رواه ابن عساكر بهذا اللفظ][٢] .

وقال إسحاق بن بشر : أخبرنا إدريس ، عن وهب بن منبه ، قال : إن الله تعالى لما بعث أرميا إلى بني إسرائيل ، وذلك حين عظمت الأحداث فيهم ، فعملوا بالمعاصي وقتلوا الأنبياء ، طمع بخت نصّر فيهم ، وقذف الله في قلبه ، وحدَّث في نفسه بالمسير إليهم لمَّا أراد الله أن ينتقم به منهم ، فأوحى الله إلى أرميا إني مهلك بني إسرائيل ومنتقمٌ منهم ، فَقُم على صخرة بيت المقدس يأتيك أمري ووحيي ، فقام أرميا فشق ثيابه وجعل الرماد على رأسه وخَرَّ ساجداً وقال : يا رب ودِدْتُ أمي لم تلدني حين جعلتني آخِر أنبياء بني إسرائيل فيكون خراب بيت المقدس وبوار بني إسرائيل من أجلي ، فقال له : ارفع رأسك . فرفع رأسه فبكى ثم قال : يا رب من تُسَلِّط عليهم ؟ فقال : عبدة النيران ، لا يخافون عقابي ولا يرجون ثوابي . قم يا أرميا فاستمع وحيي أخبِرْك خبرك وخبر بني إسرائيل :

من قبل أن أخلقك اخترتك ، ومن قبل أن أصوّرك في رحم أُمّك قَدَّسْتُك ، ومن قبل أن أخرجك من بطن أمك طهَّرْتُك ، ومن قبل أن تبلغ نبَّأْتُك ، ومن قبل أن تبلغ الأشدَّ اخترتُك ، ولأمر عظيمٍ اجتبيتك[٣] . فقم مع الملِك تُسدّده وترشده . فكان مع الملك يسدده[٤] ويأتيه بالوحي[٥] من الله ، حتى عظمت الأحداث ونَسُوا ما نجّاهم اللهُ به من عدوّهم سنحاريب وجنوده ، فأوحى الله إلى أرميا : قم فاقصص عليهم ما آمرك به ، وذكِّرْهم نعمتي عليهم ، وعَرِّفْهم أحْدَاثَهم . فقال أرميا : يا رب إني ضعيفٌ إن لم تقوّني ، عاجزٌ إن لم تبلّغني ، مخطِئٌ إنْ لم تسدّدْني ، مَخذولٌ إن لم تنصرني ، ذليلٌ إن لم تُعزّني . فقال الله تعالى : أَوَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الأُمُورَ كُلَّها تصدر عن مشيئتي ، وأنّ الخلقَ والأمر كله لي ، وأنّ

---

(١) الزرابي : البسط .
(٢) ليست في ب . وقد فصل الطبري الخبر في تاريخه (١/٥٤٨ ـ ٥٥٠) .
(٣) تاريخ الطبري (١/٤٥٨) .
(٤) في ب : يرشده .
(٥) في أ وط : الوحي . وأثبتنا ما في ب . وفي تاريخ الطبري . . . ويأتيه بالخبر من قبل الله فيما بينه وبين الله عز وجل .

القلوب والألسنة كلها بيدي فأقلّبُها كيف شئِتُ فتطيعني ، فأنا الله الذي ليس شيء مثلي . قامت السماوات والأرض وما فيهن بكلمتي ، وإنه لا يخلص التوحيد ولم تتم القدرة إلّا لي ، ولا يعلم ما عندي غيري ، وأنا الذي كلّمتُ البحار ففهمتْ قولي ، وأمرتها ففعلت أمري ، وحدَّدْتُ عليها حدوداً فلا تعدو حدِّي ، وتأتي بأمواجٍ كالجبال فإذا بلغت حَدّي ألبستُها مذَلَّةً لطاعتي وخوفاً واعترافاً لأمري ، وإني معكَ ولن يصل إليك شيءٌ معي ، وإني بعثتُك إلى خلقٍ عظيمٍ من خلقي لتبلِّغهم رسالاتي فتستوجب لذلك أجر منِ اتّبعك ، ولا ينقص من أجورهم شيئاً [وإن تقصر عنها تستحق بذلك مني وزر من تركته في عماية ولا ينتقص ذلك من أوزارهم شيئاً][1] انطلق إلى قومك فقُم فيهم وقل لهم : إن الله قد ذكَركم بصلاح آبائكم فلذلك استبقاكم . يا معشر أبناء الأنبياء ، كيف وجد آباؤكم مَغَبَّةَ طاعتي ؟ وكيف وجدتم مغبةَ معصيتي ؟ وهل وجدوا أحداً عصاني فسعد بمعصيتي ؟! وهل علموا أحداً أطاعني فشقي بطاعتي ؟ إن الدوابَّ إذا ذَكَرت أوطانَها الصالحة نزعت إليها ، وإن هؤلاء القوم رتعوا في مُروج الهلَكَة وتركوا الأمر الذي به أكرمتُ آباءهم ، وابتغوا الكرامة من غير وجهها .

أما أحبارهم ورهبانهم : فاتخذوا عبادي خَوَلاً[2] يتعبَّدونهم ويعملون فيهم بغير كتابي حتى أجهلوهم أمري ، وأنسَوْهم ذكري وسُنَّتي وغرُّوهم عني ، فدانَ لهم عبادي بالطاعة التي لا تنبغي إلّا لي فهم يطيعونهم في معصيتي .

وأما ملوكهم وأمراؤهم : فبطروا نعمتي وأمِنوا مكري ، وغرَّتهمُ الدنيا حتى نبذوا كتابي ونسوا عهدي ، فهم يُحرّفون كتابي ويفترون على رسُلي جرأةً منهم عليَّ وغرة بي ، فسبحان جلالي وعلوَّ مكاني وعظمة شأني هل ينبغي أن يكون لي شريك في ملكي ؟ وهل ينبغي لبشر أن يُطاع في معصيتي ؟! وهل ينبغي لي أن أخلق عباداً أجعلهم أرباباً من دوني ، أو آذن لأحد بالطاعة لأحد لا تنبغي إلا لي ؟! .

وأما قُرّاؤهم وفقهاؤهم : فيدرسون ما يتخَيَّرون فينقادون للملوك فيتابعونهم على البدع التي يبتدعون في ديني ، ويطيعونهم في معصيتي ، ويوفون لهم بالعهود الناقضة لعهدي ، فهم جَهَلَة بما يعلمون لا ينتفعون بشيء مما علِموا من كتابي .

وأما أولاد النبيين : فمقهورون ومفتونون ، يخوضون مع الخائضين ، يتمنَّون مثلَ نصري آباءهم ، والكرامةَ التي أكرمتهم بها ، ويزعمون أنه لا أحد أولى بذلك منهم ، بغير صدق منهم ولا تفكر ، ولا يذكرون كيف كان صبرُ آبائهم ، وكيف كان جهدهم في أمري حين اغترَّ المغترُّون ، وكيف بذلوا أنفسهم ودماءَهم فصبروا وصدقوا حتى عزّ أمري وظهر ديني . فتأنَّيت هؤلاء القوم لعلهم يستحيون مني

---

(١) سقطت العبارة من ط .

(٢) الخَوَل : العبيد والإماء وغيرهم من الحاشية .

ويرجعون ، فتطوَّلت عليهم وصفحت عنهم فأكثرت ومددت لهم في العمر ، وأعذرت لهم لعلهم يتذكرون . وكل ذلك أُمطر عليهم السماء وأُنبت لهم الأرض وألبسهم العافية وأظهرهم على العدو ؛ ولا يزدادون إلّا طغياناً وبُعداً مني . فحتى متى هذا ؟ أبي يسخرون ؟ أم بي يتحرَّشون ؟ أم إياي يُخادعون ؟ أم عليَّ يجترئون ؟ فإني أُقسم بعزتي لأُتيحنَّ عليهم فتنة يتحير فيها الحكيم ، ويضل فيها رأي ذوي الرأي وحكمة الحكيم ، ثم لأسلطن عليهم جباراً قاسياً عاتياً أُلبسه الهيبة وأنزع من قلبه الرأفة والرحمة ، وآليت أن يتبعه عددٌ وسوادٌ مثلُ الليل المظلم ، له فيه عساكر مثل قطع السحاب ، ومواكب مثل العجاج ، وكأن حفيف راياته طيرانُ النسور ، وحمل فرسانه كسرب العقبان[١] يعيدون العمران خراباً والقرى وحشاً ، ويعيثون في الأرض فساداً ، ويُتَبِّرون ما علوا تتبيراً ، قاسية قلوبهم لا يكترثون ولا يرقون ولا يَرحمون ولا يبصرون ، ولا يسمعون ، يجولون في الأسواق بأصوات مُرتفعة مثل زئير الأسد تقشعِرُّ من هيبتها الجلود ، وتطيش من سمعها الأحلام ، بألسنة لا يفقهونها ، ووجوه ظاهر عليها المنكر لا يعرفونها .

فوعزَّتي لأُعَطّلن[٢] بيوتهم من كتبي وقدسي ، ولأُخْلِيَن مجالسهم من حديثها ودروسها ، ولأُوحِشَن مساجدَهم من عمّارها وزوّارها الذين كانوا يتزيَّنون بعمارتها لغيري ، ويتهجَّدون فيها ويتعبَّدون لكسب الدنيا بالدين ، ويتفقّهون فيها لغير الدين ، ويتعلَّمون فيها لغير العمل . لأُبدّلن ملوكها بالعز الذل ، وبالأمن الخوف ، وبالغنى الفقر ، وبالنعمة الجوع ، وبطول العافية والرخاء أنواع[٣] البلاء ، وبلباس الديباج والحرير مَدارع الوبر والعباء ، وبالأرواح الطيبة والأدهان جِيفَ القتل ، وبلباس التيجان أطواق الحديد والسلاسل والأغلال . ثم لأعيدنَّ فيهم بعد القُصور الواسعة والحصون الحصينة الخرابَ ، وبعد البروج المشيَّدة مساكن السباع ، وبعد صَهيل الخيل عواء الذئاب ، وبعد ضوء السراج دخان الحريق ، وبعد الأنس الوحشة والقفار . ثمّ لأبدلنَّ نساءها بالأسوِرَةِ الأغلال ، وبقلائد الدر والياقوت سلاسل الحديد ، وبألوان الطيب والأدهان النقع والغبار ، وبالمشي على الزَّرابي[٤] عُبور الأسواق والأنهار والخبب إلى الليل في بطون الأسواق ، وبالخدور والستور ، الحسور عن الوجوه والسوق والأسفار والأرواح السّموم . ثمّ لأدوسنهم بأنواع العذاب حتى لو كان الكائن منهم في حَالِق[٥] لَوَصَل ذلك إليه .

إني إنما أُكرم من أكرمني ، وإنما أُهين من هانَ عليه أمري . ثمّ لآمرَنَّ السماء خلال ذلك فلتكونن

---

(١) الخبر في تاريخ الطبري (١/٥٤٨ ـ ٥٥٠) . وتفسيره (١٥/٢٩ ـ ٣٠) ، وفي بعض النسخ : كنصوب العقبان .
(٢) التعطيل : التفريغ .
(٣) في ب : ألوان .
(٤) الزّرابي : البسط . مفردها : زُربي .
(٥) الحالق : الجبل المنيف المشرف ، ولا يكون إلا مع عدم نبات . اللسان .

عليهم طبقاً من حديد ، ولآمُرَنّ الأرض فلتكونَن سبيكة من نحاس ، فلا سماء تمطر ، ولا أرض تنبت . فإن أمطرت[١] خلال ذلك شيئاً سلّطت عليهم الآفة ، فإن خلص منه شيء نزعت منه البركةَ ، وإن دَعَوني لم أجبْهم ، وإن سألوني لم أُعْطِهم ، وإن بكَوا لم أرحَمْهم ، وإنْ تَضَرَّعوا إليَّ صرفتُ وجهي عنهم ، وإن قالوا : اللهم أنت الذي ابتدأتنا وآباءنا من قبلنا برحمتك وكرامتك ، وذلك بأنّك اخترتَنا لنفسكَ ، وجعلتَ فينا نُبوَّتَك وكتابك ومساجدك ، ثم مَكَّنْتَ لنا في البلاد واستخلفتنا فيها ، وربيتنا وآباءنا من قبلنا بنعمتك صِغاراً ، وحفظتنا وإيّاهم برحمتك كباراً ، فأنتَ أوفى المُنْعِمين وإنْ غَيَّرْنا ، ولا تُبدّل وإنْ بدَّلْنا . وأن يتم نعمته وفضله ومَنَّه وطَوله وإحسانه[٢] . فإن قالوا ذلك قلت لهم : إني أبتدئ عبادي برحمتي ونعمتي ، فإن قبلوا أتممت ، وإن استزادوا زدت ، وإن شكروا ضاعَفْتُ ، وإن بدلوا غيرت ، وإذا غيّروا غضبت ، وإذا غضبتُ عذَّبْتُ وليس يقوم شيء بغضبي .

قال كعب : فقال أرميا : برحمتك أصبحْت ، أتعلّم بين يديك ، وهل ينبغي ذلك لي وأنا أذلُّ وأضعفُ مِن أن ينبغي لي أن أتكلم بين يديك ، ولكن برحمتك أبقيتني لهذا اليوم ، وليس أحد أحق أن يخاف هذا العذاب وهذا الوعيد مني بما رضيت به مني طولاً ، والإقامة في دار الخاطئين وهم يعصونك حولي بغير نكر ولا تغيير مني ، فإن تعذبني فبذنبي ، وإن ترحمني فذلك ظَنّي بك .

ثم قال : يا رب سبحانك وبحمدك وتباركتَ ربَّنا وتعاليت ، أتُهلك هذه القرية وما حولَها وهي مساكن أنبيائك ومنزل وحيك ؟ يا رب سبحانك وبحمدك وتباركت وتعاليت لمخرب هذا المسجد وما حوله من المساجد ومن البيوت التي رُفِعتْ لذكرك ؟ يا رب سبحانك وبحمدك وتباركت وتعاليت لمقتل هذه الأمة وعذابك إياهم وهم من ولد إبراهيم خليلك وأمة موسى نجيِّك وقوم داود صفيِّك ؟ . يا رب أي القرى تأمن عقوبتَك بعدُ ؟ وأي العباد يأمنون سطوتك بعد ولد خليلك إبراهيم وأُمّة نجيّك موسى وقوم خليفتك داود ، تسلط عليهم عبدة النيران ؟ قال الله تعالى : يا أرميا من عصاني فلا يستنكر نقمتي فإني أكرمت هؤلاء القوم على طاعتي ، ولو أنهم عصوني لأنزلتهم دار العاصين إلا أن أتَدارَكَهم برحمتي .

قال أرميا : يا رب اتخذتَ إبراهيم خليلاً وحفظتنا به . وموسى قَرَّبته نجياً ، فنسألك أن تحفظنا ولا تتخطفْنا ولا تسلط علينا عدوَّنا . فأوحى الله إليه : يا أرميا إني قدَّسْتُك في بطن أمك ، وأخَّرتك إلى هذا اليوم ، فلو أن قومك حفظوا اليتامى والأرامل والمساكينَ وابنَ السبيل لكنت الداعم لهم ، وكانوا عندي بمنزلة جنةٍ ناعم شجرُها ، طاهر ماؤها ، ولا يغور ماؤها ، ولا تبور ثماره ولا تنقطع . ولكن سأشكو إليك بني إسرائيل ، إني كنتُ لهم بمنزلة الداعي الشفيق أُجَنِّبهم كلَّ قَحْطٍ وكلَّ عسرة ، وأتبع بهم الخِصب

---

(١) في ب : مطرت .

(٢) في ط : وأن تتم فضلك ومَنَّكَ وطَولك وإحسانك .

حتى صاروا كباشاً ينطح بعضُها بعضاً ، فيا ويلَهم ثمّ يا ويلهم ، إنّما أُكرم من يكرمني[(١)] ، وأُهين من هان عليه أمري . إنَّ من كان قبل هؤلاء القوم من القرون يستخفون بمعصيتي ، وإن هؤلاء القوم يتبرَّعون بمعصيتي تبرُّعاً ، فيُظهرونها في المساجد والأسواق وعلى رؤوس الجبال وظلال الأشجار ، حتى عجَّت السماء إليَّ منهم ، وعجَّت الأرض والجبال ، ونفرت منها الوحوش بأطراف الأرض وأقاصيها ، وفي كل ذلك لا ينتهون ولا ينتفعون بما علموا من الكتاب .

قال : فلما بلَّغهم أرميا رسالة ربهم ، وسمعوا ما فيها من الوعيد والعذاب ، عصَوه وكذَّبوه واتّهموه وقالوا : كذبت وأعظمت على الله الفرية ، فتزعم أن الله مُعطّل أرضه ومساجدَه من كتابه وعبادته وتوحيده ، فمن يعبده حين لا يبقى له في الأرض عابدٌ ولا مسجدٌ ولا كتاب ؟! لقد أعظمت الفرية على الله واعتراك الجنون . فأخذوه وقيَّدوه وسجنوه . فعند ذلك بعث الله عليهم بختَ نصر ، فأقبل يسير بجنوده حتى نزل بساحتهم ، ثم حاصرَهم فكان كما قال تعالى : ﴿ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ ﴾ .

قال : فلما طال بهم الحصر نزلوا على حُكمه ، ففتحوا الأبوابَ وتخلَّلوا الأزِقّة ، وذلك قوله : ﴿ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ ﴾ ، وحكم فيهم حُكم الجاهلية ، وبطْشَ الجبّارين ، فقتل منهم الثلثَ ، وسبى الثلثَ ، وترك الزَّمْنَى والشيوخَ والعجائز ، ثم وطِئهم بالخيل ، وهدم بيت المقدس ، وساق الصبيان ، وأوقف النساء في الأسواق محسرات[(٢)] ، وقتل المقاتلة وخرَّب الحصون ، وهدمَ المساجد ، وحرقَ التوراة ، وسأل عن دانيال الذي كان قد كتب له الكتاب فوجدوه قد ماتَ ، وأخرج أهلُ بيته الكتاب إليه وكان فيهم دانيال بن حزقيل الأصغر[(٣)] وميشائيل وعزرائيل وميخائيل فأمضى لهم ذلك الكتاب . وكان دانيال بن حزقيل خلفاً من دانيال الأكبر ، ودخل بخت نصر بجنوده بيتَ المقدس ، ووطئ الشامَ كلَّها ، وقتل بني إسرائيل حتى أفناهم .

فلما فرغ منها انصرف راجعاً وحمل الأموال التي كانت بها ، وساق السبايا فبلغ معه عدة صبيانهم من أبناء الأحبار والملوك تسعين ألفَ غلامٍ ، وقذف الكناسات في بيت المقدس ، وذبح فيه الخنازير . وكان الغلمان سبعة آلاف غلام من بيت داود ، وأحدَ عشرَ ألفاً من سبط يوسف بن يعقوب وأخيه بنيامين ، وثمانية آلاف من سبط إيشا بن يعقوب ، وأربعة عشر ألفاً من سبط زيالون ونفتالي ابني يعقوب ، وأربعةَ عشر ألفاً من سبط دان بن يعقوب وثمانية آلاف من سبط يستاخر بن يعقوب[(٤)] وألفين من سبط زيالون بن

---

(١) في ب وط : أكرمني .
(٢) في ب وط : حاسرات .
(٣) في ب : دانيال الأصغر ابن حزقيل .
(٤) من قوله : وثمانية آلاف . . إلى هنا زيادة من ب وط .

يعقوب ، وأربعة آلاف من سبط روبيل ولاوي ، واثني عشر ألفاً من سائر بني إسرائيل[١] ، وانطلق حتى قدم أرض بابل .

قال إسحاق بن بشر : قال وهب بن منبه : فلما فعل ما فعل قيل له : كان لهم صاحب يُحذّرهُم ما أصابهم ، ويصفك وخبرك لهم ، ويخبرهم أنك تقتل مقاتلتهم وتسبي ذراريهم وتهدم مساجدهم وتحرق كنائسهم ، فكذّبوه واتّهموه وضربوه وقيّدوه وحبسوه . فأمر بخت نصر فأخرج أرميا من السجن ، فقال له : أكنتَ تُحذّر هؤلاء القوم ما أصابهم[٢] ؟ قال : نعم . قال : فإني علمتُ ذلك . قال : أَرسلني الله إليهم فكذّبوني . قال : كذّبوك وضربوك وسجنوك ؟ قال : نعم . قال : بئس القوم قومٌ كذّبوا نبيَّهم وكذّبوا رسالة ربّهم ، فهل لك أن تلحق بي فأكرمَك وأُواسيك ؟ وإن أحببت أن تقيم في بلادك فقد أمَّنْتك . قال له أرميا : إني لم أزل في أمان الله منذ كنتُ . لم أخرج منه ساعةً قَطُّ ، ولو أن بني إسرائيل لم يَخْرجوا منه لم يخافوك ولا غيرَك ، ولم يكن لك عليهم سلطانٌ . فلما سمع بخت نصر هذا القول منه تركه فأقام أرميا مكانه بأرض إيلياء[٣] .

وهذا سياق غريب . وفيه حِكم ومواعظ وأشياء مليحة ، وفيه من جهة التغريب غرابة .

وقال هشام بن محمد بن السائب الكلبي : كان بخت نصر إصبهبذاً[٤] لما بين الأهواز إلى الروم للملك على الفرس وهو لهراسب ، وكان قد بنى مدينة بلْخ[٥] التي تلقب بالخنساء ، وقاتل الترك وألجأهم إلى أضيق الأماكن ، وبعث بخت نصر لقتال بني إسرائيل بالشام ، فلما قدم الشام صالحه[٦] أهل دمشق ، وقد قيل إن الذي بعث بخت نصر إنما هو بهمن ملك الفرس بعد بشتاسب بن لهراسب ، وذلك لتعدي بني إسرائيل على رسله إليهم .

وقد روى ابن جرير ، عن يونس بن عبد الأعلى ، عن ابن وهب ، عن سليمان بن بلال ، عن يحيى بن سعيد الأنصاري ، عن سعيد بن المسيِّب : أن بخت نصر لما قدم دمشق وجد بها دماً يغلي على كبا ـ يعني القمامة ـ فسألهم ما هذا الدم ؟ فقالوا : أدركْنا آباءَنا على هذا ، وكلما ظهرَ عليه الكَبا ظهرَ . قال : فقتل على ذلك سبعين ألفاً من المسلمين وغيرهم فسكن[٧] .

---

(١) مجموع من ذكرهم هاهنا ثمانون ألفاً ، تاريخ الطبري (١/ ٥٥٣) .
(٢) من قوله : ويصفك وخبرك . . . . إلى هنا ساقط من ب بنقلة عين .
(٣) إيلياء : اسم مدينة بيت المقدس . (معجم ياقوت) .
(٤) الصَّبَهْبَذ ، والإصبهبذ : فارسي معرب ، وهو عندهم كالأمير في العرب . المعرّب : (٢١٨) ، واللسان (إصبهبذ).
(٥) معجم ياقوت : بلخ (١/ ٤٧٩) .
(٦) في ب : فصالحه .
(٧) تاريخ الطبري (٥٨٧ ـ ٥٨٨) .

وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن المسيِّب ، وقد تقدم من كلام الحافظ ابن عساكر ما يدل على أن هذا دم يحيى بن زكريا ، وهذا لا يصح ؛ لأن يحيى بن زكريا بعد بخت نصر بمدة ، والظاهر أن هذا دم نبي متقدّم ، أو دم لبعض الصالحين(١) ، أو لمن شاء الله ممن الله أعلم به .

قال هشام بن الكلبي : ثمّ قدم بخت نصر بيت المقدس فصالحه ملكها وكان من آل داود ، وصانعه عن بني إسرائيل ، وأخذ منه بخت نصر رهائن ورجع . فلما بلغ طبرية بلغه أن بني إسرائيل ثاروا على ملكهم فقتلوه لأجل أنه صالحه ، فضرب رقابَ من معه من الرهائن ، ورجَع إليهم فأخذ المدينة عَنوة ، وقتل المقاتلة وسبى الذرية(٢) .

قال : وبلغنا أنه وجد في السجن أرميا النبيَّ ، فأخرجه وقصَّ عليه ما كان من أمره إياهم وتحذيره لهم عن ذلك فكذبوه وسجنوه ، فقال بخت نصر : بئس القوم قومٌ عصَوا رسول الله . وخلّى سبيله وأحسن إليه واجتمع إليه من بقي من ضعفاء بني إسرائيل فقالوا : إنا قد أسأنا وظلمنا ونحن نتوب إلى الله عزَّ وجلَّ مما صنعنا ، فادْعُ الله أن يقبل توبتنا ، فدعا ربَّه فأوحى الله إليه أنه غيرُ فاعلٍ ، فإن كانوا صادقين فليقيموا معكَ بهذه البلدة ، فأخبرهم ما أمره الله تعالى به ، فقالوا : كيف نقيم بهذه البلدة وقد خربت وغضب الله على أهلها ؟ فأبوا أن يقيموا(٣) .

قال ابن الكلبي : ومن ذلك الزمان تفرّقت بنو إسرائيل في البلاد ، فنزلت طائفةٌ منهم الحجاز ، وطائفة يثرب ، وطائفة وادي القُرى ، وذهبت شِرْذمة منهم إلى مصر ، فكتب بخت نصر إلى ملكها يطلب منه من شرد منهم إليه ، فأبى عليه ، فركب في جيشه فقاتله وقهره وغلبه وسبى ذراريهم . ثمّ ركب إلى بلاد المغرب حتى بلغ أقصى تلك الناحية . قال : ثمّ انصرف بسبيٍ كثيرٍ من أرض المغرب ومصر وأهل بيت المقدس وأرض فلسطين والأردن ، وفي السبي دانيال .

قلت : والظاهر أنه دانيال بن حزقيل الأصغر لا الأكبر على ما ذكره وهب بن منبه . والله أعلم .

* * *

---

(١) تاريخ الطبري (١/ ٥٨٩) .
(٢) نقله الطبري (١/ ٥٣٨) ، عن ابن الكلبي . وابن الأثير في الكامل (١/ ٢٦٢) .
(٣) الطبري (١/ ٥٣٨) .

ذكر[١] شيء من خبر دَانيال علَيه السَّلام

قال ابن أبي الدنيا : حدّثنا أحمد بن عبد الأعلى الشّيباني قال : إن لم أكن سمعته من شعيب بن صفوان ، فحدّثني بعض أصحابنا عنه عن الأجلح الكِنْدي ، عن عبد الله بن أبي الهذيل قال : ضَرَّى بختُ نَصَّر أَسَدين ، فألقاهما في جُبٍّ ، وجاء بدانيال فألقاه عليهما ، فلم يهيجاه[٢] ، فمكث ما شاء الله ، ثم اشتهى ما يشتهي الآدميون من الطعام والشراب ، فأوحى الله إلى أرميا وهو بالشام إن أعدِد طعاماً وشراباً لدانيال ، فقال : يا رب أنا بالأرض المقدَّسة ودانيال بأرض بابل من أرض العراق ، فأوحى الله إليه أن أعدِد ما أمرناك به فإنا سنرسل مَن يحملُك ويحملُ ما أعددت ، ففعل ، وأرسل الله تعالى مَن حَمَلَه وحمل ما أعدَّ ، حتى وقف على رأس الجبّ ، فقال : دانيالُ ! دانيال ! فقال : من هذا ؟ قال : أنا أرميا . فقال : ما جاء بك ؟ فقال : أرسلني إليك ربُّك . قال : وقد ذكرني[٣] ربي ؟ قال : نعم . فقال دانيال : الحمد لله الذي لا ينسى مَن ذَكره . والحمد لله الذي لا يخيِّب[٤] من رجاه . والحمد لله الذي من وثق به لم يكِلْه إلى غيره . والحمد لله الذي يجزي بالإحسان إحسانا . والحمد لله الذي يجزي بالصبر نجاةً . والحمد لله الذي هو يكشف ضَرَّنا بعد كربنا . والحمد لله الذي هو يقينا حين يسوء ظننا بأعمالنا . والحمد لله الذي هو رجاؤنا حين تنقطع الحيل عنا . قال : ولم أره ذكر إيصال ما أعدَّه أرميا لدانيال من الطعام الذي أحب[٥] .

وقال يونس بن بُكَير ، عن محمد بن إسحاق عن أبي خَلْدة خالد بن دينار[٦] ، حدّثنا أبو العالية قال : لما افتتحنا تُسْتَر وجدنا في مال بيت الهرمزان سريراً عليه رجل ميت عند رأسه مصحف فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر بن الخطاب ، فدعا له كعباً فنسخه بالعربية . فأنا أول رجل من العرب قرأه ، قرأته مثل ما أقرأ القرآن هذا . فقلت لأبي العالية : ما كان فيه ؟ قال : سِيَرُكم وأمورُكم ولُحون كلامكم ، وما هو كائن بعدُ . قلت : فما صنعتم بالرجل ؟ قال : حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرّقةً ، فلما كان بالليل دفنّاه وسوّينا القبورَ كلَّها لنُعَمِّيه على الناس فلا ينبشونه . قلت : فما يرجون منه ؟ قال : كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيُمْطَرون . قلت : مَن كنتم تظنّون الرجلَ ؟ قال : رجل يقال له : دانيال .

---

(١) ليست في ط .
(٢) الكامل لابن الأثير (١/ ٢٦٦ـ٢٦٧) .
(٣) من قوله : قال : أنا أرميا . . إلى هنا ، زيادة من ب وط .
(٤) في ط : الذي يجيب .
(٥) قوله : قال ولم أره . . إلى هنا ، زيادة من ب .
(٦) كذا في ب . وهو الصواب . وفي أ وط : أبي خلدون بن دينار وهو سهو . وخالد بن دينار التميمي السعدي ، أبو خَلْدَة ، محدث صدوق ، من الطبقة الخامسة ، مشهور بكنيته . تقريب التهذيب (١/ ٢١٣) .

قلت : منذ كم وجدتموه قد مات ؟ قال : من ثلاثمئة سنة . قلت : ما تغيَّر منه شيء ؟ قال : لا ، إلا شعرات من قفاه ، إن لُحوم الأنبياء لا تُبليها الأرض ولا تأكلها السباع .

وهذا إسناد صحيح إلى أبي العالية ، ولكن إن كان تاريخ وفاته محفوظاً من ثلاثمئة سنة ، فليس بنبي بل هو رجل صالح ، لأن عيسى بن مريم ليس بينه وبين رسول الله ﷺ نبي بنص الحديث الذي في البخاري[١] ، والفترة التي كانت بينهما أربعمئة سنة . وقيل : ستمئة . وقيل : ستمئة وعشرون سنة ، وقد يكون تاريخ وفاته من ثمانمئة سنة ، وهو قريب من وقت دانيال ، إن كان كونه دانيال هو المطابق لما في نفس الأمر ، فإنه قد يكون رجلاً آخر ، إما من الأنبياء أو الصالحين ، ولكن قربت[٢] الظنون أنه دانيال ، لأن دانيال كان قد أخذه ملك الفرس فأقام عنده مسجوناً ، كما تقدم .

وقد روي بإسناد صحيح إلى أبي العالية أن طول أنفه شِبرٌ .

وعن أنس بن مالك بإسناد جيد أن طول أنفه ذراع[٣] ـ والله أعلم ـ ، فيحتمل على هذا أن يكون رجلاً من الأنبياء الأقدمين قبل هذه المدد[٤] . والله أعلم .

وقد قال أبو بكر بن أبي الدنيا في كتاب « أحكام القبور »[٥] : حدّثنا أبو بلال محمد بن الحارث بن عبد الله بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري ، حدّثنا أبو القاسم بن عبد الله ، عن أبي الأشعث الأحمري قال : قال رسول الله ﷺ : إن دانيال دعا ربّه عز وجل أن تدفنه أمّة محمد ، فلما افتتح أبو موسى الأشعري تستر ، وجده في تابوت تَضْرب عروقه ووريده ، وقد كان رسول الله ﷺ قال : « من دل على دانيال فبشّروه بالجنة » . فكان الذي دلّ عليه رجل يقال له : حُرقوص ، فكتب أبو موسى إلى عمر بخبره ، فكتب إليه عمر أنِ ادفنه وابعث إليّ حرقوص[٦] فإن النبي ﷺ بشّره الجنة .

وهذا مرسل من هذا الوجه ، وفي كونه محفوظاً نظر . والله أعلم .

---

(١) صحيح البخاري رقم (٣٤٤٢) ، في الأنبياء ، باب (٤٨) قول الله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ . ونص الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أنا أولى الناس بابن مريم ، والأنبياء أولاد عَلّات ، ليس بيني وبينه نبي » .

(٢) في ب : قويت .

(٣) في ب : والله أعلم ، ولم يرد في نهاية كلامه .

(٤) في ب : المدة .

(٥) من كتبه التي لم تطبع بعد . فيما أعلم . ومن عادة ابن أبي الدنيا أن يذكر أحاديثه بسنده الخاص مما لا يشاركه فيها أحد من أصحاب المصادر إلا ما ندر .

(٦) في ب : بحر قوص . وهو حرقوص بن زهير . أحد القادة الذين شاركوا في فتح الأهواز . تاريخ الطبري (٤/ ٧٧) .

ثم قال ابن أبي الدنيا : حدّثنا أبو بلال ، حدّثنا قاسم بن عبد الله ، عن عنبسة بن سعيد وكان عالماً قال : وجد أبو موسى مع دانيال مُصْحفاً وجَرَّة فيها ودك[1] ودراهم وخاتمه ، فكتب أبو موسى بذلك إلى عمر ، فكتب إليه عمر : أمّا المصحف فابعث به إلينا ، وأما الوَدَك فابعث إلينا منه ، ومُر مَن قِبَلَك من المسلمين يستشفون به ، واقسم الدراهم بينهم ، وأمّا الخاتم فقد نَفَلْناكَهُ .

وروى ابن أبي الدنيا من غير وجه أن أبا موسى لما وجده ذكروا له أنه دانيال التزمه وعانقه وقبّله . وكتب إلى عُمر يذكر له أمره ، وأنه وجد عنده مالاً موضوعاً قريباً من عشرة آلاف درهم ، وكان من جاء اقترض منها ، فإن ردَّها وإلاّ مرض ، وأن عنده ربعة[2] ، فأمر عُمر بأن يغسل بماءٍ وسدر[3] ، ويكفّن ويدفن ويُخفَى قبرُه فلا يعلم به أحد ، وأمر بالمال أن يرد إلى بيت المال ، وبالربعة فتحمل إليه ، ونَفَلَه خاتمه .

وروي عن أبي موسى أنه أمر أربعة من الأُسَراء فسَكَّروا نهراً ، وحفروا في وسطه قبراً فدفنه فيه ثمّ قدم الأربعة الأسراء ، فضرب أعناقهم ، فلم يعلم بمكان موضع قبره غير أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

وقال ابن أبي الدنيا : حدّثني إبراهيم بن عبد الله ، حدثنا أحمد بن عمرو بن السرح ، حدثنا ابن وهب ، عن عبد الرحمن بن أبي الزناد ، عن أبيه قال : رأيت في يد أبي بردة بن أبي موسى الأشعري خاتماً نَقْش فصّه أسدان بينهما رجل يلحسان ذلك الرجل ، قال أبو بردة : هذا خاتم ذلك الرجل الميت الذي زعم أهل هذه البلدة أنه دانيال ، أخذه أبو موسى يوم دفنه . قال أبو بردة : فسأل أبو موسى علماء تلك القرية عن نقش ذلك الخاتم فقالوا : إن الملك الذي كان دانيال في سلطانه جاءه المنجِّمون وأصحاب العلم فقالوا له : إنه يولد ليلة كذا وكذا غلام يُغور[4] ملكك ويفسده . فقال الملك : والله لا يبقى تلك الليلة غلام إلا قتلته ، إلا أنّهم أخذوا دانيال فألقوه في أجمة الأسد فبات الأسد ولبوته يلحسانه ولم يضراه ، فجاءت أمه فوجدتهما يلحسانه ، فنجاه الله بذلك حتى بلغ ما بلغ . قال أبو بردة : قال أبو موسى : قال علماء تلك القرية : فنقش دانيال صورته وصورة الأسدين يلحسانه في فص خاتمه لئلاّ ينسى نعمة الله عليه.

إسناد حسن .

***

---

(١) الودَك : الدسم .
(٢) الربعة : صندوق فيه أجزاء المصحف .
(٣) السدر : شجرة يستخدم ورقها للغسل .
(٤) في ط : يعور .

وهذا ذكر عمارة بَيت المقدس بَعدَ خرابها واجتماع الملأ من بني إسرائيل بعد تفرقهم في بقاع الأرض وشعابها[١]

قال الله تعالى في كتابه المبين وهو أصدق القائلين : ﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٩] .

قال هشام بن الكلبي : ثمّ أوحَى الله تعالى إلى أرميا عليه السلام ، فيما بلغني ، إني عامرٌ بيت المقدس فاخرج إليها فانزلها ، فخرج حتى قدمها وهي خراب فقال في نفسه : سبحان الله ، أمرني الله أن أنزل هذه البلدة ، وأخبرني أنه عامرها ، فمتى يعمرها ؟! ومتى يُحييها الله بعد موتها ؟! ثمّ وضع رأسه فنام ومعه حمارُه وسلَّة من طعام ، فمكث في نومه سبعين سنةً حتى هَلَك بخت نصر والملك الذي فوقه ، وهو لهراسب ، وكان ملكه مئة وعشرين سنة ، وقام بعده ولده بشتاسب بن لهراسب وكان موت بخت نصر في دولته ، فبلغه عن بلاد الشام أنها خراب ، وأن السباع قد كثرت في أرض فلسطين فلم يبق بها من الإنس أحد ، فنادى في أرض بابل في بني إسرائيل أن من شاء أن يرجع إلى الشام فليرجع ، وملّك عليهم رجلاً من آل داود ، وأمره أن يعمر بيت المقدس ويبني مسجدها . فرجعوا ، فعمروها ، وفتح الله لإرميا عينيه فنظر إلى المدينة كيف تُبنى وكيف تعمر ، ومكث في نومه ذلك حتى تم له مئة سنة ، ثم بعثه الله وهو لا يظن أنه نام أكثر من ساعة ، وقد عهد المدينة خراباً فلما نظر إليها عامرة آهلة قال : ﴿ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قال : فأقام بنو إسرائيل بها وردّ الله عليهم أمرهم ، فمكثوا كذلك حتى غلبت عليهم الروم في زمن ملوك الطوائف . ثمّ لم يكن لهم جماعة ولا سلطان[٢] ، يعني بعد ظهور النصارى عليهم . هكذا حكاه ابن جرير في تاريخه[٣] عنه .

وذكر ابن جرير[٤] أن لهراسب كان ملكاً عادلاً سائساً لمملكته قد دانت له العباد والبلاد والملوك والقوّاد[٥] وأنه كان ذا رأي جيد في عمارة الأمصار والأنهار والمعاقل . ثمّ لما ضعف عن تدبير المملكة بعد مئة سنة ونيف نزل عن الملك لولده بشتاسب ، فكان في زمانه ظهور دين المجوسية ، وذلك أن رجلاً

---

(١) جاء عنوان ط ، هكذا : عمارة بيت المقدس بعد خرابها واجتماع بني إسرائيل . . الأرض .

(٢) في ب : ولا سلطان ولا عز .

(٣) تاريخ الطبري (١/ ٥٣٨ ـ ٥٤٠) .

(٤) تاريخ الطبري (١/ ٥٤٠ ـ ٥٤١) .

(٥) من قوله : وذكر ابن جرير . . إلى هنا سقط من ب وط .

اسمه زردشت كان قد صحب أرميا عليه السلام فأغضبه فدعا عليه أرميا ، فبرص زردشت ، فذهب فلحق بأرض أذربيجان ، وصحب بشتاسب ، فلقنه دين المجوسية الذي اخترعه من تلقاء نفسه ـ لعنه الله ـ[١] فقبله منه بشتاسب ، وحمل الناس عليه وقهرهم وقتل منهم خلقاً كثيراً ممن أباه منهم[٢] .

ثمّ كان بعد بشتاسب بهمن بن بشتاسب وهو من ملوك الفرس المشهورين والأبطال المذكورين وقد ناب بخت نصر لكلّ واحد من هؤلاء الثلاثة وعمر دهراً طويلاً ، قبّحه الله .

والمقصود أن هذا الذي ذكره ابن جرير من أن هذا المارَّ على هذه القرية هو إرميا عليه السلام . قاله[٣] وهب بن منبه ، وعبد الله بن عبيد بن عمير وغيرهما ، وهو قوي من حيث السياق المتقدم .

وقد رُوي عن علي وعبد الله بن سلام وابن عباس والحسن وقتادة والسُّدّي وسليمان بن بريدة وغيرهم أنه عُزير[٤] . وهذا أشهر عند كثير من السلف والخلف . والله أعلم .

***

(١) سقطت من ط .

(٢) تاريخ الطبري (١/ ٥٤٠ ، ٥٦١) .

(٣) في ط : قال . تفسير الطبري (٣/ ٢٠) .

(٤) تفسير الطبري (٣/ ١٩ ـ ٢٠) وفيه : وجائز أن يكون ذلك عزيراً ، وجائز أن يكون أرميا ، ولا حاجة بنا إلى معرفة اسمه ، إذ لم يكن المقصود بالآية تعريف الخلق اسم قائل ذلك ، وإنما المقصود بها تعريف المنكرين قدرة الله على إحيائه خلقه بعد مماتهم ، وإعادتهم بعد فنائهم .

وَهذه قِصَّة العزير

قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر : هو عزير بن جروة ، ويقال بن سوريق بن عديا بن أيوب بن درزنا ابن عري بن تقي بن إيشوع[١] بن فنحاص بن العازر بن هارون بن عمران . ويقال : عزير بن سَروخا[٢] . جاء في بعض الآثار أن قبره بدمشق .

ثمّ ساق من طريق أبي القاسم البغوي عن داود بن عمرو عن حِبان بن علي عن محمد بن كُريب عن أبيه عن ابن عباس مرفوعاً « لا أدري أَلُعِنَ تُبَّعٌ أم لا[٣] ، ولا أدري أكان عزير نبياً أم لا » .

ثمّ رواه من حديث مؤمّل بن الحسن عن محمد بن إسحاق السِّجْزي ، عن عبد الرزاق عن معمر ، عن أبي ذؤيب ، عن سعيد المقبري عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه .

ثمّ روي من طريق إسحاق بن بشر ، وهو متروك[٤] ، عن جويبر ومقاتل ، عن الضحاك ، عن ابن عباس أن عزيراً كان ممن سباه بخت نصر وهو غلام حدث ، فلما بلغ أربعين سنة أعطاه الله الحكمة ، قال : ولم يكن أحد أحفظ ولا أعلم بالتوراة منه . قال : وكان يُذكَر مع الأنبياء حتى محا الله اسمه من ذلك حين سأل ربّه عن القدر[٥] . وهذا ضعيف ومنقطع ومنكر . والله أعلم .

وقال إسحاق بن بشر عن سعيد بن أبي عَروبة عن قتادة عن الحسن عن عبد الله بن سلام أن عزيراً هو العبد الذي أماته الله مئة عام ثمّ بعثه .

وقال إسحاق بن بشر : أخبرنا سعيد بن بشير ، عن قتادة ، عن كعب ، وسعيد بن أبي عَروبة ، عن قتادة ، عن الحسن ، ومقاتل وجويبر ، عن الضحاك ، عن ابن عباس وعن عبد الله بن إسماعيل السُّدّي ، عن أبيه ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، وإدريس عن جده وهب بن منبه ، قال إسحاق : كل هؤلاء حدَّثوني عن حديث عزير ، وزاد بعضهم على بعض ، قالوا بإسنادهم : إن عزيراً كان عبداً صالحاً حكيما ، خرج ذات يوم إلى ضيعة له يتعاهدها ، فلما انصرف أتى إلى خربة حين قامت الظهيرة وأصابه

---

(١) في ط ، وبعض النسخ : أسبوع .

(٢) مختصر تاريخ دمشق (١٧/ ٣٥) . وفيه اختلاف في بعض الأسماء . درتنا بن غرى بن بقي .

(٣) في ط : العين بيع . . . وهو تحريف وتصحيف . وفي بعض النسخ : (لا أدري العزير بِيع أم لا) والحديث ذكره الحافظ ابن حجر في « المطالب العالية » رقم (٣٤٧١) مختصراً وفي إسناده ضعف .

(٤) المجروحين لابن حبان (١/ ١٣٥ ـ ١٣٧) .

(٥) مختصر تاريخ دمشق (١٧/ ٣٥) .

الحر ، ودخل الخربة وهو على حماره ، فنزل عن حماره ومعه سلَّة فيها تين وسلَّة فيها عنب ، فنزل في ظل تلك الخربة وأخرج قصعة معه ، فاعتصر من العنب الذي كان معه في القصعة ، ثم أخرج خبزاً يابساً معه فألقاه في تلك القصعة في العصير ليبتل ليأكله ، ثم استلقى على قفاه وأسند رجليه إلى الحائط ، فنظر سقف تلك البيوت ورأى ما فيها وهي قائمة على عروشها وقد باد أهلها ، ورأى عظاماً بالية فقال : ﴿ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ فلم يشك أن الله يحييها ، ولكن قالها تعجُّباً ، فبعث الله ملك الموت فقبض روحه ، فأماته الله مئة عام . فلما أتت عليه مئة عام وكانت فيما بين ذلك في بني إسرائيل أمور وأحداث ، قال : فبعث الله إلى عزير مَلَكاً فخلق قلبه ليعقل[1] به ، وعينيه لينظر بهمافيعقل كيف يحيي الله الموتى . ثمّ ركَّب خلقه وهو ينظر ثمّ كَسَى عظامه اللحم والشعر والجلد ، ثمّ نفخ فيه الروح ، كلّ ذلك وهو يرى ويعقل ، فاستوى جالساً ، فقال له الملَك : كم لبثتَ ؟ قال : لبثت يوماً ، وذلك أنه كان لبث[2] صدر النهار عند الظهيرة ، وبعث في آخر النهار والشمس لم تغب ، فقال : أو بعض يوم ، ولم يتم لي يوم ، فقال له الملك : بل لبثت مئة عام ، فانظر إلى طعامك وشرابك ، يعني الطعام الخبز اليابس ، وشرابه العصير الذي كان اعتصر في القصعة فإذا هما على حالهما ، لم يتغير العصير ، والخبز يابس ، فذلك قوله : ﴿ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ يعني لم يتغير ، وكذلك التين والعنب غض لم يتغير عن شيء من حالهم ، فكأنه أنكر في قلبه ، فقال له الملك : أنكرتَ ما قلتُ لك ؟ انظر إلى حمارك ، فنظر إلى حماره قد بليت عظامه وصارت نَخِرة ، فنادى الملكُ عظامَ الحمار ، فأجابت وأقبلت من كلِّ ناحية حتى ركبه الملك ، وعزير ينظر إليه ، ثمّ ألبسها العروق والعصب ، ثمّ كساها اللحم ، ثمّ أنبت عليها الجلد والشعر ، ثم نفخ فيه الملك فقام الحمار رافعاً رأسه وأذنيه إلى السماء ناهقاً يظن القيامةَ قد قامت ، فذلك قوله : ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾ يعني : وانظر إلى عظام حمارك كيف يركب بعضها بعضاً في أوصالها حتى إذا صارت عظاماً مصوراً حماراً بلا لحم ، ثمّ انظر كيف نكسوها لحماً ، فلما تبيّن له قال : ﴿ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ من إحياء الموتى وغيره .

قال : فركب حماره حتى أتى محلّته ، فأنكره الناسُ ، وأنكر الناسَ ، وأنكر منزله ، فانطلق على وهم منه حتى أتى منزله ، فإذا هو بعجوز عمياء مقعدة قد أتى عليها مئة وعشرون سنة ، كانت أَمَةً لهم ، فخرج عنهم عزير وهي بنت عشرين سنة كانت عرفته وعقلته ، فلما أصابها الكبر أصابها الزمانة . فقال لها عزير : يا هذه أهذا منزل عزير ؟ قالت : نعم هذا منزل عزير ، فبكت وقالت : ما رأيت أحداً من كذا وكذا سنةً يذكر عزيراً وقد نسيه الناس . قال : فإني أنا عزير كان الله أماتني مئة سنة ثم بعثني . قالت : سبحان الله

---

(١) في ط : ليعقل قلبه .

(٢) في ب : نام . في مختصر ابن عساكر : كان نام في صدر النهار .

فإن عزيراً [قد فقدناه منذ مئة سنة فلم نسمع له بذكر ، قال : فإني أنا عزير . قالت : فإن عزيراً][١] رجلٌ مستجاب الدعوة يدعو للمريض ولصاحب البلاء بالعافية والشفاء ، فادع الله أن يردّ عليّ بصري حتى أراك ، فإن كنتَ عزيراً عرفتُك . قال : فدعا ربّه ومسح بيده على عينيها فصحّتا وأخذ بيدها وقال : قومي بإذن الله ، فأطلق الله رجليها فقامت صحيحة كأنما نَشِطَتْ من عقال[٢] فنظرت فقالت : أشهد أنك عزير . وانطلقت إلى محلَّة بني إسرائيل وهم في أنديتهم ومجالسهم ، وابن لعزير شيخ ابن مئة سنة وثماني عشرة سنة ، ومن بني بنيه شيوخ في المجلس ، فنادتهم فقالت : هذا عزير قد جاءكم ، فكذبوها ، فقالت : أنا فلانة مولاتكم دعا لي ربه فردَّ عليّ بصري وأطلق رجليّ ، وزعم أن الله أماته مئة سنة ثم بعثه . قال : فنهض الناس فأقبلوا إليه فنظروا إليه فقال ابنه : كان لأبي شامة سوداء بين كتفيه ، فكشف عن كتفيه فإذا هو عزير . فقالت بنو إسرائيل : فإنه لم يكن فينا أحد حفظ التوراة فيما حُدّثنا غير عزير ، وقد حرق بخت نصر التوراة ولم يبق منها شيء إلا ما حفظتِ الرجال ، فاكتبها لنا ، وكان أبوه سروخا قد دفن التوراة أيام بخت نصر في موضع لم يعرفه أحد غير عزير ، فانطلق بهم إلى ذلك الموضع فحفره فاستخرج التوراة وكان قد عفن الورق ودرس الكتاب ، قال : وجلس في ظل شجرة وبنو إسرائيل حوله فجدَّد لهم التوراة ونزل من السماء شهابان حتى دخلا جوفه فتذكَّر التوراة فجدَّدها لبني إسرائيل[٣] . فمن ثم قالت اليهود : عزير ابن الله للذي كان من أمر الشهابين وتجديده التوراة وقيامه بأمر بني إسرائيل . وكان جدَّد لهم التوراة بأرض السواد بدير حزقيل . والقرية التي مات فيها يقال لها : سايراباذ . قال ابن عباس فكان كما قال الله تعالى : ﴿ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ يعني لبني إسرائيل . وذلك أنه كان يجلس مع بنيه وهم شيوخ وهو شاب ، لأنه مات وهو ابن أربعين سنة فبعثه الله شاباً كهيئته يوم مات .

قال ابن عباس : بعث بعد بخت نصر . وكذلك قال الحسن .

وقد أنشد أبو حاتم السجستاني في معنى ما قاله ابن عباس : [من الطويل]

وأسودُ رأسٍ شابَ من قبلِه ابنُهُ ... ومن قبلِه ابنُ ابْنِه فَهْو أكْبرُ
يَرَى ابنَهُ شَيْخاً يدبُّ على عَصاً ... ولحيتُه سَوداءُ والرأسُ أشقرُ
وما لابنهِ حَيْلٌ ولا فَضْلُ قوّةٍ ... يقومُ كما يمشي الصبيّ فيعْثرُ[٤]
يَعُدُّ ابنُهُ في الناسِ تِسْعينَ حجةً ... وعشرينَ لا يجري ولا يَتَبخْترُ

---

(١) سقطت من ب بنقلة عين .
(٢) في لسان العرب ، نشط : يقال للأخذ بسرعة في أي عمل كان ، وللمريض إذا برأ .
(٣) تفسير الطبري : (٣/٢٢ ـ ٣٢) .
(٤) في ب : يمشي الصغير .

وعُمــرُ أبيــهِ أرْبَعُــون أمــرَّهــا ولابن ابنه تِسْعون في الناسِ عُبّر[١]
فما هُو في المعْقولِ إن كنتَ دارياً وإن كنتَ لا تدْري فبالجَهْل تُعذَرُ[٢]

***

فصْلٌ

المشهور أن عزيراً نبي من أنبياء بني إسرائيل ، وأنه كان فيما بين داود وسليمان ، وبين زكريا ويحيى ، وأنه لما لم يبق في بني إسرائيل من يحفظ التوراة ألهمه الله حِفظَها فسردَها على بني إسرائيل كما قال وهب بن منبه : أمر الله ملكاً فنزل بمغرفة من نور ، فقذَفها في عزير ، فنسخ التوراةَ حرفاً بحرف حتى فرغ منها[٣] .

وروى ابنُ عساكر[٤] عن ابن عباس أنه سأل عبد الله بن سلام عن قول الله تعالى ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة : ٣٠] لم قالوا ذلك ؟ فذكر له ابن سلام ما كان من كَتْبِه لبني إسرائيل التوراة من حفظه وقول بني إسرائيل : لم يستطع موسى أن يأتينا بالتوراة إلا في كتاب ، وإن عزيراً قد جاءنا بها من غير كتاب ، فرماه طوائف منهم وقالوا عزير ابن الله . ولهذا يقول كثير من العلماء : إن تواتر التوراة انقطع في زمن العزير . وهذا متجه جداً إذا كان العزير غير نبي كما قاله عطاء بن أبي رباح والحسن البصري ، فيما رواه إسحاق بن بشر عن مقاتل بن سليمان عن عطاء ، وعن عثمان بن عطاء الخراساني عن أبيه ومقاتل عن عطاء بن أبي رباح قال : كان في الفترة تسعة أشياء : بخت نصر ، وجنة صنعاء ، وجنة سبأ ، وأصحاب الأُخدود ، وأمرحاصورا ، وأصحاب الكهف ، وأصحاب الفيل ، ومدينة إنطاكية ، وأمر تُبَّع .

وقال إسحاق بن بشر : أخبرنا سعيد عن قتادة عن الحسن قال : كان أمر عزير وبخت نصر في الفترة .

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « إنَّ أَوْلَى الناسِ بابنِ مَرْيَمَ لأَنا ، إنه ليْسَ بَيني وبَيْنَهُ نبيّ »[٥] .

وقال وهب بن منبه : كان فيما بين سليمان وعيسى عليهما السلام .

---

(١) في ط : ولأن ابنه . وهو خطأ .
(٢) الخبر في مختصر ابن عساكر (١٧/ ٣٧ ـ ٤٠) . وفيه اختلاف يسير .
(٣) تفسير الطبري (١٠/ ٧٨) .
(٤) مختصر ابن عساكر (١٧/ ٤٠) وما بعدها .
(٥) في ب : أنا أولى بابن مريم وإنه . . والحديث تقدم تخريجه ص (٢٠٦) .

وقد روى ابن عساكر عن أنس بن مالك وعطاء بن السائب أن عزيراً كان في زمن موسى بن عمران ، وأنه استأذن عليه فلم يأذن له ، يعني لما كان من سؤاله عن القدر ، وأنه انصرف وهو يقول : مئة مَوتة أهون من ذُلِّ ساعة .

وفي معنى قول عزير : مئة موتة أهون من ذُلِّ ساعة قول بعض الشعراء : [من السريع]

قَد يَصْبر الحرُّ على السّيفِ ويأنَفُ الصَّبرَ على الحيْفِ
ويؤْثِرُ الموتَ على حَالةٍ يَعْجَزُ فيها عن قِرى الضّيفِ

فأما ما روى ابن عساكر وغيره عن ابن عباس ونَوْف البِكَالي[١] وسفيان الثوري وغيرهم من أنه سأل عن القدر فمحى اسمه من ذكر الأنبياء ، فهو منكر ، وفي صحته نظر ، وكأنه مأخوذ من الإسرائيليات .

وقد روى عبد الرزاق وقتيبة بن سعيد عن جعفر بن سليمان عن أبي عمران الجَوني ، عن نوف البكالي قال : قال عزير فيما يناجي ربَّه : يا رب تخلق خلقاً فتضل من تشاء وتهدي من تشاء ، فقيل له : أعرض عن هذا ، فعاد . فقيل له لتعرض عن هذا أو لأمحوَنَّ اسمك من الأنبياء ، إني لا أُسأل عما أفعل وهم يسألون . وهذا لا يقتضي وقوع ما توعد عليه لو عاد . فما عاد ، فما محي اسمه . والله أعلم .

وقد روى جماعة سوى الترمذي من حديث يونس بن يزيد عن الزهري عن سعيد وأبي سلمة عن أبي هريرة ، وكذلك رواه شعيب عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « نزل نبيٌّ من الأنبياء تحتَ شجرةٍ فلدغته نملةٌ ، فأمَر بجِهازه فأُخرِجَ من تحتها ، ثمّ أَمَرَ بها فأُحرِقَتْ بالنارِ ، فأوحى الله إليه فهلاَّ[٢] نملةً واحدةً »[٣] .

فروى إسحاق بن بشر عن ابن جريج عن عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه أنه عزير .

وكذا روي عن ابن عباس والحسن البصري أنه عزير ، فالله أعلم .

***

(١) نوف بن فَضَالة البِكالي ، ابن امرأة كعب ، شامي ، وقد كذب ابن عباس ما رواه البكالي عن أهل الكتاب . مات بعد التسعين للهجرة . تقريب التهذيب (٢/ ٣٠٩) .

(٢) في ط : مهلاً . وهو تصحيف . وفي ب : أن لدغتك نملة أحرقت أمة من الأمم . وهي رواية أخرى للحديث أخرجها البخاري رقم (٣٠١٩) في الجهاد ، باب (١٥٣) ، ومسلم رقم (٢٢٤١) (١٤٨) ، في السلام ، باب النهي عن قتل النمل .

(٣) أخرجه البخاري رقم (٣٣١٩) ، في بدء الخلق ، باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم . . ، ومسلم (٢٢٤١) (١٤٩ ، ١٥٠) ، في السلام ، باب النهي عن قتل النمل ، وأبو داود (٥٢٦٥) وابن ماجه (٣٢٢٥) ، في الأدب ، باب في قتل الذر . وأحمد (٢/ ٣١٣ ، ٤٤٩) . والنسائي (٧/ ٢١١) .
وقوله : فهلا نملة واحدة أي : فهلا عاقبت نملة واحدة هي التي قرصتك .

قصّة زكريّا ويحيى عليهما السّلام

قال الله تعالى في كتابه العزيز بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم : ١ ـ ١٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٧ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٨ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٣٩ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۝٤٠ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ [آل عمران : ٣٧ ـ ٤١] .

وقال تعالى في سورة الأنبياء : ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٨٩ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٩ ـ ٩٠] .

وقال تعالى ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الأنعام : ٨٥] .

قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر في كتابه التاريخ المشهور الحافل : زكريا بن برخيا ، ويقال : زكريا بن دان ، ويقال : زكريا بن لدن[١] بن مسلم بن صدوف بن خُشبان بن داود بن سليمان بن مسلم بن صديقة بن برخيا بن بلعاطة بن ناحور بن شلوم بن بهغاشاط بن إينامن بن رحبعام بن سليمان بن داود أبو يحيى النبي عليه السلام من بني إسرائيل . دخل البثنية[٢] من أعمال دمشق في

---

(١) في مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٩/ ٤٥) أدن .

(٢) في ط : البثينة ؛ وهو تصحيف . والبثنية : ناحية من نواحي دمشق بينها وبين أذرعات . معجم البلدان .

طلب ابنه يحيى . وقيل : إنه كان بدمشق حين قتل ابنه يحيى . والله أعلم[١] .

وقد قيل غير ذلك في نسبه ، ويقال فيه : زكريا بالمد وبالقصر . ويقال : زكرى أيضاً .

والمقصود أن الله تعالى أمر رسوله محمداً[٢] ﷺ أن يقصّ على الناس خبر زكريا عليه السلام وما كان من أمره حين وهبه الله ولداً على الكبر ، وكانت امرأته عاقراً[٣] في حال شبيبتها ، وقد أسَنَّت أيضاً ، حتى لا ييأس أحد من فضل الله ورحمته ، ولا يقنط من فضله تعالى وتقدس ، فقال تعالى : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ .

قال قتادة عند تفسيرها : إن الله يعلم القلب النقيَّ ويسمع الصوت الخفيَّ[٤] .

وقال بعض السلف : قام من الليل فنادى ربه مناداةً أسرّها عمّن كان حاضراً عنده مخافتة فقال : يا رب ، يا رب ، يا رب ! فقال الله : لبيك لبيك لبيك ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي ﴾ أي : ضعف وخار منَ الكبر ، ﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ استعارة من اشتعال النار في الحطب ، أي : غلب على سواد الشعر شيبُه ، كما قال ابن دريد في مقصورته[٥] : [من الرجز]

إمّا تَرَيْ رَأسِيَ حاكَى لَوْنُه ... طُرَّةَ صُبحٍ تَحْتَ أذيالِ الدُّجى
واشْتَعَلَ المُبْيَضُّ في مُسْودِّهِ ... مِثْلَ اشْتِعالِ النَّارِ في جَمر الغَضى
وآضَ عودُ اللَّهْوِ يَبْساً ذَاوِياً ... مِنْ بَعْدِ ما قدْ كانَ مَجَّاجَ الثَّرَى[٦]

يذكر أن الضعف قد استحوذ عليه باطناً وظاهراً ، وهكذا قال زكريا عليه السلام ﴿ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ وقوله : ﴿ وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ أي : ما دعوتني فيما أسألك إلا الإجابة . وكان الباعث له على هذه المسألة أنه لما كفل مريم بنتَ عمران بن ماثان ؛ وكان كلما دخل عليها محرابها وجد عندها فاكهة في غير أيامها ولا في أوانها ، وهذه من كرامات الأولياء ، فعلم أن الرازق للشيء في غير أوانه قادر على أن يرزقه ولداً ، وإن كان قد طعن في سنه[٧] ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ . وقوله : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا ﴾ .

---

(١) مختصر ابن منظور (٩/ ٤٥) .
(٢) ليست في ط .
(٣) في ب : مع ذلك عاقراً .
(٤) تفسير الطبري (١٦/ ٣٥) .
(٥) الأبيات مطلع مقصورته . شرح المقصورة للتبريزي (١٣ ـ ١٤) .
(٦) في شرح التبريزي : وآض روضُ . .
(٧) في ب : سنه وزمانه .

قيل : المراد بالموالي العصبة[١] ، وكأنه خاف من تصرُّفهم بعده في بني إسرائيل بما لا يوافق شرع الله وطاعته ، فسأل وجود ولد من صلبه يكون برّاً تقياً مرضياً ، ولهذا قال : ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ﴾ أي من عندك بحولك وقوتك ﴿ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي ﴾ أي في النبوة والحُكْم في بني إسرائيل ﴿ وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ يعني : كما كان آباؤه وأسلافه من ذرية يعقوب أنبياءَ ، فاجعله مثلهم في الكرامة التي أكرمتهم بها من النبوة والوحي ، وليس المراد هاهنا وراثة المال كما زعم ذلك من زعمه من الشيعة ، ووافقهم ابن جرير هاهنا ، وحكاه عن أبي صالح من السلف لوجوه : أحدها ما قدّمناه عند قوله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ ﴾ أي في النبوة والملك كما ذكرنا في الحديث المتفق عليه بين العلماء المروي في الصحاح والمسانيد والسنن وغيرها من طرق عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال : « لا نورث ما تَرَكْنا فَهُو صَدَقَةٌ »[٢] فهذا نص على أن رسول الله ﷺ لا يورث ، ولهذا منع الصدّيق أن يصرف ما يختص به في حياته ، إلى أحد من ورّاثه الذين لولا هذا النص لصرف إليهم ، وهم ابنته فاطمة وأزواجه التسع وعمه العباس رضي الله عنهم ، واحتج عليهم الصدِّيق في منعه إياهم بهذا الحديث ، وقد وافقه على روايته عن رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، والعباس بن عبد المطلب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة ، والزبير ، وأبو هريرة ، وآخرون رضي الله عنهم .

الثاني : أن الترمذي رواه بلفظ يعم سائر الأنبياء « نَحْنُ مَعَاشرَ الأنبياءِ لا نورث » وصححه[٣] .

الثالث : أن الدنيا كانت أحقر عند الأنبياء من أن يكنزوا لها[٤] أو يلتفتوا إليها أو يهمهم أمرها ، حتى يسألوا الأولاد ليحوزوها بعدهم ، فإن من لا يصل إلى قريب منازلهم في الزهادة لا يهتم بهذا المقدار أن يسأل ولداً يكون وارثاً له فيها .

الرابع : أن زكريا عليه السلام كان نجّاراً يعمل بيده ويأكل من كسبها ، كما كان داود عليه السلام يأكل من كسب يده ، والغالب ولا سيما من مثل حال الأنبياء أنه لا يجهد نفسه في العمل إجهاداً يستفضل منه ما لا يكون ذخيرة له يخلفه من بعده ، وهذا أمر بين واضح لكل من تأمله بتدبُّر وتفهُّم إن شاء الله .

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٣٦) ، وهو قول مجاهد ، وقتادة ، والسدي .

(٢) تقدم ص(١٧٦) .

(٣) لم يروه الترمذي بهذا اللفظ . قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » (١٢/ ٨) وأما ما اشتهر في كتب أهل الأصول وغيرهم بلفظ « نحن معاشر الأنبياء لا نورث » فقد أنكره جماعة من الأئمة ، وهو كذلك بالنسبة لخصوص لفظ (نحن) لكن أخرجه النسائي بلفظ « إنا معشر الأنبياء لا نورث » . أقول : وهو في الكبرى للنسائي رقم (٦٢٧٥) المؤسسة ، ورواه كذلك أحمد في المسند (٢/ ٤٦٣) وإسناده صحيح ، ورواه البخاري رقم (٤٠٣٣) ومسلم (١٧٥٨) بلفظ (لا نورث ما تركنا فهو صدقة) .

(٤) في ب : يكترثوا بها .

قال الإمام أحمد[(١)] : حدثنا يزيد ، يعني ابن هارون ، أخبرنا حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أبي رافع ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كانَ زَكرِيّا نجاراً » .

وهكذا رواه مسلم[(٢)] وابن ماجه[(٣)] من غير وجه[(٤)] عن حماد بن سلمة به .

وقوله : ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ﴾ وهذا مفسر بقوله : ﴿ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ . فلما بُشّر بالولد وتحقّق البشارة ، شرع يستعلم على وجه التعجُّب وجود الولد والحالة هذه له ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ﴾ أي كيف يوجد ولد من شيخ كبير ؟! قيل : كان عمره إذ ذاك سبعاً وسبعين سنة ، والأشبه ـ والله أعلم ـ أنه كان أسن من ذلك ﴿ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا ﴾ يعني وقد كانت امرأتي في حال شبيبتها عاقراً ولا تلد . والله أعلم . كما قال الخليل ﴿ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ [الحجر : ٥٤] . وقالت سارة : ﴿ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ۝٧٢ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴾ [هود : ٧٢ ـ ٧٣] . وهكذا أُجيب زكريا عليه السلام ، قال له الملَك الذي يوحي إليه بأمر ربه : ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ ﴾ أي هذا سهل يسير عليه ﴿ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴾ أي قُدْرَته أوجدتْك بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً ، أفلا يوجِدُ منكَ ولداً وإن كنت شيخاً[(٥)] .

وقال تعالى : ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ ومعنى إصلاح زوجته أنها كانت لا تحيض فحاضت . وقيل : كان في لسانها شيء ، أي بذاءة[(٦)] ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗ ﴾ أي : علامة على وقت تعلّق مني المرأة بهذا الولد المبشّر به ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ﴾ يقول : علامة ذلك أن يعتريك سكت لا تنطق معه ثلاثة أيام إلا رمزاً ، وأنت في ذلك سَويّ الخلق ، صحيح المزاج ، معتدل البنية . وأمر بكثرة الذِّكر في هذه الحال بالقلب واستحضار ذلك بفؤاده بالعشي والإبكار ، فلما بشّر بهذه البشارة خرج مسروراً بها على قومه من محرابه ﴿ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴾ . والوحي هاهنا هو

---

(١) المسند (٢/٢٩٦) .

(٢) صحيح مسلم رقم (٢٣٧٩) ، في الفضائل ، باب من فضائل زكريا عليه السلام .

(٣) سنن ابن ماجه رقم (٢١٥٠) ، في التجارات ، باب الصناعات .

(٤) قوله : من غير وجه ليس في ب . فمسلم رواه عن هدّاب بن خالد عن حماد . وابن ماجه عن محمد بن عبد الله الخزاعي والحجاج بن منهال ، والهيثم بن جميل ، عن حماد .

(٥) في ب : شيخاً كبيراً .

(٦) تفسير الطبري (١٧/٦٦) ، والقرطبي (١١/٣٣٦) ، وابن كثير (٣/١٩٣) .

الأمر الخفي إما بكتابة ، كما قال مجاهد والسُّدّي ، أو إشارة كما قاله مجاهد أيضاً ووهب وقتادة[١] .

قال مجاهد وعكرمة ووهب والسُّدّي وقتادة : اعتقل لسانه من غير مرض . وقال ابن زيد : كان يقرأ ويسبّح ، ولكن لا يستطيع كلام أحد .

وقوله ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ ، يخبر تعالى عن وجود الولد وفق البشارة الإلَهية لأبيه زكريا عليه السلام ، وأن الله تعالى علّمه الكتابة والحكمة وهو صغير في حال صباه . قال عبد الله بن المبارك : قال معمر : قال الصبيان ليحيى بن زكريا : اذهب بنا نلعب . فقال : ما للّعب خُلِقنا . قال : وذلك قوله : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾[٢] .

وأما قوله: ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ فروى ابن جرير[٣] عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: لا أدري ما الحنان . وعن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك : ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ أي رَحْمة من عندنا ، رحمنا بها زكريا فوهبنا له هذا الولد . وعن عكرمة ﴿ وَحَنَانًا ﴾ أي محبّة عليه . ويحتمل أن يكون ذلك صفة لتحنّن يحيى على الناس ولا سيما على أبويه، وهو محبّتهما والشفقة عليهما وبرُّه بهما .

وأما الزكاة : فهو طهارة الخلق وسلامته من النقائص والرذائل . والتقوى طاعة الله بامتثال أوامره وترك زواجره .

ثمّ ذكر برّه بوالديه وطاعته لهما أمراً ونهياً وترك عقوقهما قولاً وفعلاً فقال ﴿ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ ثم قال ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ هذه الأوقات الثلاثة أشد ما تكون على الإنسان ، فإنه ينتقل في كلّ منها من عالم إلى عالم آخر ، فيفقد الأول بعد ما كان ألفه وعرفه ، ويصير إلى آخر ، ولا يدري ما بين يديه ، ولهذا يستهل صارخاً إذا خرج من بين الأحشاء وفارق لينها وضمّها ، وينتقل إلى هذه الدار ليكابد همومها وغمّها . وكذلك إذا فارق هذه الدار ، وانتقل إلى عالم البرزخ بينها وبين دار القرار وصار بعد الدور[٤] والقصور إلى عَرَصة الأموات سكان القبور ، وانتظر هناك النفخة في الصور ليوم البعث والنشور ، فمن مسرور ومحبور ، ومن محزون ومثبور ، وما بين مجبور[٥] وكسير ، وفريق في الجنة وفريق في السّعير . ولقد أحسن بعض الشعراء حيث يقول : [من الكامل]

وَلَدتكَ أُمّكَ باكياً مُسْتَصْرِخاً ... والناسُ حولَك يَضْحكونَ سُرورا
فاحْرِصْ لنفسِك أن تكونَ إذا بَكَوا ... في يَوْمِ مَوْتِك ضاحِكاً مَسْرُورا

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٤١ ـ ٤٢) .
(٢) تفسير الطبري (١٦/ ٤٣) .
(٣) تفسيره (١٦/ ٤٣) .
(٤) في ب : بعد هذه الدار والقصور .
(٥) في ط : جبير .

ولما كانت هذه المواطن الثلاثة أشق ما تكون على ابن آدم سلَّم الله تعالى على يحيى في كلّ موطن منها فقال : ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴾ . وقال سعيد ابن أبي عَروبة ، عن قتادة أن الحسن قال : إن يحيى وعيسى التقيا ، فقال له عيسى : استغفر لي أنت خيرٌ مني ، فقال له الآخر : استغفر لي أنت خير مني ، فقال له عيسى : أنت خير مني ، سلّمتُ على نفسي ، وسلّم الله عليكَ ، فعرف والله فضلها[١] .

وأما قوله في الآية الأخرى : ﴿ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ فقيل : المراد بالحَصُور الذي لا يأتي النساء . وقيل غير ذلك وهو أشبه لقوله : ﴿ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ ﴾ . وقد قال الإمام أحمد[٢] : حدّثنا عفّان ، حدّثنا حمّاد ، أخبرنا علي بن زيد ، عن يوسف بن مِهران ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « ما من أحدٍ من ولد آدمَ إلاّ وقدْ أخطأ أو هَمَّ بخطيئة ، لَيْس يَحْيى بن زكريا ، وما ينبغي لأحدٍ يقول : أنا خَيْرٌ مِنْ يُوْنُس بن متَّى » .

علي بن زيد بن جُدْعان ، تكلم فيه غير واحدٍ من الأئمة ، وهو منكر الحديث[٣] .

وقد رواه ابن خزيمة والدارقطني من طريق أبي عاصم العبّادَاني عن علي بن زيد بن جدعان به مطولاً ، ثمّ قال ابن خزيمة : وليس على شرطنا .

وقال ابن وهب : حدثني ابن لَهِيْعة ، عن عُقَيْل ، عن ابن شهاب قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه يوماً وهم يتذاكرون فضل الأنبياء ، فقال قائل : موسى كليم الله . وقال قائل : عيسى روح الله وكلمته . وقال قائل[٤] : إبراهيم خليل الله[٥] ، فقال : أين الشهيد ابن الشهيد يلبس الوبر ويأكل الشجر مخافة الذنب . قال ابن وهب : يريد يحيى بن زكريا[٦] .

وقد رواه محمد بن إسحاق ، وهو مدلّس ، عن يحيى بن سعيد الأنصاري ، عن سعيد بن المسيب ، حدّثني ابن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « كلُّ ابن آدم يأتي يوم القيامة وله ذنْبٌ ، إلا ما كان من يحيى بن زكريا »[٧] .

---

(١) في ط : فضلهما .
(٢) المسند (١/ ٢٥٤ و٢٩٢) .
(٣) قال الحافظ الذهبي في « ميزان الاعتدال » (٣/ ١٢٨) قلت : أراه منكراً .
(٤) كذا في ب وط . وفي أ : . . . روح الله وقائل يقول . .
(٥) زاد في ب : وهم يذكرون ذلك . . .
(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٦٢). وابن لهيعة تكلّم فيه الحفاظ . لكن رواية العبادلة عنه قوية، وعبد الله بن وهب أحدهم (تنظر التفاصيل في «تحرير التقريب» ٢/ ٢٥٨)، على أن هذا الحديث من مراسيل الزهري، فهو ضعيف.
(٧) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٧٣) ، أطول من هذا من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه . وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم !

فهذا من رواية ابن إسحاق وهو من المدلّسين[١] ، وقد عنعن هاهنا .

ثمّ قد رواه عبد الرزاق عن معمر ، عن قتادة ، عن سعيد بن المسيب مرسلاً .

ثمّ رأيت ابن عساكر ساقه من طريق أبي أسامة عن يحيى بن سعيد الأنصاري . ثمّ[٢] رواه ابن عساكر من طريق إبراهيم بن يعقوب الجُوزجَاني خطيب دمشق[٣] ، حدّثنا محمد بن الأصبهاني ، وحدّثنا أبو خالد الأحمر ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب ، عن عبد الله بن عمرو قال : ما أحد إلا يلقى الله بذنب إلا يحيى بن زكريا . ثمّ تلا قوله تعالى : ﴿ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا ﴾ ثمّ رفع شيئاً من الأرض فقال : ما كان معه إلا مثل هذا ، ثمّ ذبح ذبحاً .

وهذا موقوف من هذه الطريق وكونه موقوفاً أصح من رفعه . والله أعلم .

وأورده ابن عساكر من طرق[٤] : من ذلك ما أورده من حديث إسحاق بن بشر ، وهو ضعيف[٥] ، عن عثمان بن ساج[٦] عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن معاذ عن النبي ﷺ بنحوه .

وروي من طريق أبي داود الطيالسي وغيره ، عن الحكم بن عبد الرحمن بن أبي نُعْم[٧] ، عن أبيه ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « الحسَنُ والحُسَيْن سَيِّدا شباب أَهْلِ الجَنةِ إلاّ ابني الخالة يَحيَى وعِيْسى عليهما السلام »[٨] .

وقال أبو نعيم الحافظ الأصبهاني : حدّثنا إسحاق بن أحمد ، حدّثنا إبراهيم بن يوسف ، حدّثنا أحمد ابن أبي الحَواري ، سمعت أبا سليمان يقول : خرج عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا يتماشيان فصدم يحيى امرأة ، فقال له عيسى : يا ابن خالة ، لقد أصبت اليوم خطيئة ما أظن أن تغفر لك أبداً ، قال : وما هي يا ابن خالة . قال : امرأة صدمتها . قال : والله ما شعرت بها . قال : سبحان الله بدنك معي فأين روحك ؟ قال : معلق بالعرش ، ولو أن قلبي اطمئنَّ إلى جبريل لظننتُ أني ما عرفت الله طرفة عين .

---

(١) وقال الذهبي في السير (٧/ ٣٩) : وقد أمسك عن الاحتجاج بروايات ابن إسحاق غير واحد من العلماء لأشياء ، منها : يدلس في حديثه .

(٢) زاد في ب وط : قد . والخبر في مختصر تاريخ دمشق (٢٧/ ٢٤٤) .

(٣) توفي سنة (٢٥٩هـ) . وسيترجم له المؤلف فيما بعد .

(٤) زاد في ط : عن معمر .

(٥) المجروحين والضعفاء لابن حبان (١/ ١٣٥) .

(٦) في ط : سباح . وهو خطأ . وعثمان بن عمرو بن ساج ، مولى بني أمية . قال ابن حجر : فيه ضعف . تقريب التهذيب (٢/ ١٣) .

(٧) في جميع النسخ : ابن أبي نعيم ، وهو خطأ ، والتصحيح من كتب الرجال .

(٨) وأخرجه الترمذي (٣٧٦٨) في المناقب ، باب مناقب الحسن والحسين مختصراً على « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة . وقال : هذا حديث حسن صحيح . والحديث حسن بتمامه .

فيه غرابة ، وهو من الإسرائيليات .

وقال إسرائيل ، عن أبي حصين ، عن خيثمة قال : كان عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا ابني خالة ، وكان عيسى يلبس الصوف ، وكان يحيى يلبس الوبر ، ولم يكن لواحد منهما دينار ولا درهم ولا عبد ولا أمة ولا مأوى يأويان إليه ، أين ما جنَّهما الليلُ أويا ، فلما أرادا أن يتفرقا قال له يحيى : أوصني ، قال : لا تغضب . قال : لا أستطيع إلا أن أغضب . قال : لا تقتَنِ مالاً . قال : أمّا هذه فعسى .

وقد اختلفت الروايات عن وهب بن منبه[١] : هل مات زكريا عليه السلام موتاً ، أو قتل قتلاً على روايتين : فروى عبد المنعم بن إدريس بن سنان ، عن أبيه ، عن وهب بن منبه أنه قال : هرب من قومه فدخل شجرةً ، فجاؤوا فوضعوا المنشار عليها ، فلما وصل المنشار إلى أضلاعه أنَّ ، فأوحى الله إليه لئن لم يسكن أنينُك لأقلبنَّ الأرض ومن عليها ، فسكن أنينه حتى قطع باثنتين .

وقد روي هذا في حديث مرفوع سنورده بعدُ إن شاء الله .

وروى إسحاق بن بشر ، عن إدريس بن سنان ، عن وهب أنه قال : الذي انصدعت له الشجرة هو شعيا ، فأما زكريا فمات موتاً . فالله أعلم .

وقال الإمام أحمد[٢] : حدّثنا عفّان ، حدّثنا أبو خلف موسى بن خلف ، وكان يُعدُّ من البُدَلَاء[٣] ، حدّثنا يحيى بن أبي كثير ، عن زيد بن سلام ، عن جدّه ممطور ، عن الحارث الأشعري ، أن نبي الله ﷺ قال : « إنّ الله أمَرَ يَحْيَى بنَ زَكَرِيا بخمسِ كلماتٍ أنْ يَعْمَلَ بِهنَّ وأنْ يأمُرَ بَني إسْرائيلَ أنْ يَعْملوا بهنَّ وكادَ أنْ يُبْطِئَ ، فقالَ له عِيْسى عليه السلام : إنّكَ قَدْ أُمِرْتَ بخمسِ كلماتٍ أنْ تَعملَ بهنَّ وتأمُرَ بَني إسْرائيلَ أنْ يَعْملُوا بهنَّ ، فإمّا أنْ تُبلّغهنَّ ، وإمّا أنْ أُبلّغَهنَّ . فقالَ : يا أخي إني أخشى إنْ سَبقْتَني أنْ أُعذَّبَ أو يُخْسَفَ بي . قالَ : فجمعَ يَحْيَى بني إسرائيلَ في بيتِ المقدسِ حتّى امتلأ المسجدُ ، فَقعدَ على الشرفِ ، فحمدَ اللهَ وأثنى عليهِ ثمَّ قال : إنَّ الله عزَّ وجل أمرني بخمسِ كلماتٍ أنْ أعملَ بهنَّ وآمُرَكُم أنْ تَعملُوا بهنَّ . وأوَّلُهنّ أن تعبدوا اللهَ لا تُشْرِكُوا بهِ شيئاً ، فإنَّ مَثَلَ ذلكِ مَثَلُ مَنِ اشْتَرى عَبداً مِنْ خالصِ مالِه بورِقٍ أو ذَهَبٍ ، فجعلَ يعملُ ويؤدي غلّته إلى غير سيّده ، فأيكم يَسُرُّهُ أن يكونَ عبدُهُ كذلك ؟ وأنَّ الله خَلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وآمُرُكُم بالصلاةِ فإنّ الله ينصبُ وجهَهُ قِبَلَ عَبْدِهِ ما لم يلتفتْ ، فإذا صَلّيتم فلا تلتفتوا . وآمُرُكم بالصيامِ فإنّ مَثَلَ ذلك كمثلِ رَجُل معه صرةٌ من مِسْكٍ في عصابة كلُّهم يَجدُ ريحَ المسك[٤] .

وآمُركم بالصدقة ، فإنَّ مَثل ذلك كمثل رجل أسَرَهُ العدوُّ فشدُّوا يده إلى عنقه ، وقدّموه ليضربوا

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٩/ ٥٠) .

(٢) مسند أحمد (٤/ ١٣٠ ، ٢٠٢) .

(٣) البدلاء : قوم من الصالحين كلما مات منهم أحد ، أبدل الله مكانه آخر .

(٤) زاد في ب وط : «وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك» . وهذه الزيادة غير موجودة في مسند أحمد .

عنقه ، فقال : هل لكم أن أفتديَ نفسي منكم ، فجعل يفتدي نفسَه منهم بالقليل والكثير حتى فكّ نفسه . وآمركم بذكر الله عزَّ وجلَّ كثيراً ، فإن مثل ذلك كمثل رجلٍ طلبه العدو سِراعاً في إثره ، فأتى حِصناً حصيناً فتحصّن فيه ، وإن العبدَ أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله عز وجل » .

قال : فقال رسول الله ﷺ : « وأنا آمرُكم بخمسٍ اللهُ أمَرني بهنَّ : بالجماعةِ ، والسّمعِ ، والطاعةِ ، والهجرةِ ، والجهادِفي سبيل الله . فإن مَنْ خَرجَ عن الجماعةِ قِيْد شِبرٍ فقد خَلَع ربقة الإسلام من عُنقِه إلا أنْ يرجعَ ، ومن دَعَا بدعْوَى الجاهلية فهو من جُثَى جَهَنّم[١] » . قالوا : يا رسول الله وإن صام وصلّى ؟ قال : « وإنْ صامَ وصلّى وزَعَم أنه مُسلم . ادْعوا المسلمينَ بأسمائهم بما سَمَّاهمُ اللهُ عزَّ وجلَّ المسلمينَ المؤمنينَ عباد الله عز وجل » .

وهكذا رواه أبو يعلى عن هدبة بن خالد ، عن أبان بن يزيد ، عن يحيى بن أبي كثير ، به[٢] .

وكذلك رواه الترمذي من حديث أبي داود الطيالسي[٣] وموسى بن إسماعيل[٤] ، كلاهما عن أبان بن يزيد العطار ، به .

ورواه النَّسائي[٥] عن هشام بن عمار ، عن محمد بن شعيب بن سابور ، عن معاوية بن سلاَّم ، عن أخيه زيد بن سلاَّم ، عن أبي سلاَّم ، عن الحارث الأشعري ، به .

ورواه الحاكم[٦] من طريق مروان بن محمد الطَّاطَرِي ، عن معاوية بن سلاَّم ، عن أخيه ، به . ثم قال : تفرّد به مروان الطّاطَري عن معاوية بن سلاَّم .

قلت : وليس كما قال . ورواه الطَّبَراني[٧] عن محمد بن عبدة ، عن أبي تَوْبة الربيع بن نافع[٨] عن

---

(١) قال ابن الأثير في جامع الأصول (٩/ ٥٤٧) : جُثى : جمع جُثوة ، بالضم ، وهي الشيء المجموع من جماعات جهنم ، هذا فيمن رواها مخففة . ومن رواها (جثيّ) مشددة ، فإنه أراد الذين يجثون على الركب ، واحدها (جاث) من قوله تعالى : ﴿ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾ [مريم : ٦٨] قال الهروي : وهذا أحب إلى أبي عبيد .

(٢) مسند أبي يعلى (٣/ ١٤٠ ـ ١٤٢) ، رقم (١٥٧١) .

(٣) رقم (٢٨٦٤) ، في الأمثال ، باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة ، وهو في مسند الطيالسي (١١٦١) .

(٤) رقم (٢٨٦٣) ، وصحح الترمذي الوجهين .

(٥) في ط : « ابن ماجة » وهو غلط محض، فابن ماجة لم يخرج هذا الحديث، والصواب ما أثبتنا، وهو الذي في تحفة الأشراف للمزي (٣٢٧٤). وقد أخرجه النسائي في موضعين من سننه الكبرى، أولهما في السير (٨٨٦٦)، وثانيهما في التفسير (١١٣٤٩)، وهو في كتاب التفسير المطبوع مفرداً برقم (٣٦٩) بالإسناد المذكور .

(٦) الحديث بطرق وروايات في المستدرك (١/ ١١٧ ـ ١١٨ ، ٢٣٦ ، ٤٢١) ، ولم يرد في سنده ذكر لمروان الطاطري ، ولا الكلام المنسوب له عن التفرد ، ولعل الراوي غير الحاكم ، وهو الأرجح .

(٧) في المعجم الكبير (٣٤٣٠) ومن طريقه المزي في تهذيب الكمال (٥/ ٢١٧ ـ ٢١٨) .

(٨) في ط : (نوبة) يافع . وهو تصحيف . والربيع بن نافع ، أبو توبة الحلبي ، نزيل طرسوس ، ثقة ، حجة . توفي سنة (٢٤١هـ) . تقريب التهذيب (١/ ٢٤٦) .

معاوية بن سلام عن أبي سلام عن الحارث الأشعري ، فذكر نحوه ، فسقط ذكر زيد بن سلاَّم عن أبي سلاَّم عن الحارث الأشعري فذكر نحو هذه الرواية[١] .

ثمّ روى الحافظ ابن عساكر من طريق عبد الله بن أبي جعفر الرازي ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس قال : ذُكر لنا عن أصحاب رسول الله ﷺ فيما سمعوا من علماء بني إسرائيل أن يحيى بن زكريا أرسل بخمس كلماتٍ ، وذكر نحو ما تقدّم .

وقد ذكروا أن يحيى عليه السلام كان كثيرَ الانفراد من الناس ، إنما كان يأنسُ إلى البراري ، ويأكل من ورق الأشجار ، ويرد ماء الأنهار ويتغذى بالجراد في بعض الأحيان . ويقول : من أنعم منك يا يحيى ! .

وروى ابن عساكر[٢] أن أبويه خرجا في تطلُّبه فوجداه عند بحيرة الأردن ، فلما اجتمعا به أبكاهما بكاءً شديداً لما هو فيه من العبادة والخوف من الله عز وجل .

وقال ابن وهب عن مالك عن حميد بن قيس عن مجاهد قال : كان طعام يحيى بن زكريا العشب ، وإنه كان ليبكي من خشية الله حتى لو كان القار على عينيه لخرقه .

وقال محمد بن يحيى الذهلي : حدّثنا أبو صالح ، حدّثنا الليث ، حدّثني عُقيل ، عن ابن شهاب قال : جلست يوماً إلى أبي إدريس الخولاني وهو يقص ، فقال : ألا أخبركم بمن كان أطيب الناس طعاماً ؟ فلما رأى الناس قد نظروا إليه قال : إن يحيى بن زكريا كان أطيب الناس طعاماً ، إنما كان يأكل مع الوحش كراهةَ أن يُخالط الناس في معايشهم .

وقال ابن المبارك عن وهيب بن الورد قال : فَقَدَ زكريا ابنَه يحيى ثلاثة أيام ، فخرج يلتمسه في البرية فإذا هو قد احتفر قبراً وأقام فيه يبكي على نفسه ، فقال : يا بني أنا أطلبك من ثلاثة أيام وأنت في قبرٍ قد احتفرته ، قائم تبكي فيه ؟ فقال : يا أبت ألستَ أنتَ أخبرتني أن بين الجنة والنار مفازة[٣] لا تقطع إلا بدموع البكّائين ؟ فقال له : ابكِ يا بني ، فبكيا جميعاً .

وهكذا حكاه وهب بن منبه ، ومجاهد بنحوه .

وروى [ابن عساكر] عنه أنه قال : إن أهل الجنة لا ينامون للذة ما هم فيه من النعيم ، فكذا ينبغي

---

(١) هكذا في ط والأصول التي بين أيدينا ، والعبارة مرتبكة وغير صحيحة في الوقت نفسه ، ذلك أن الطبراني قد روى هذا الحديث عن محمد بن عبدة ، عن أبي توبة ، عن معاوية ، عن زيد بن سلام عن أبي سلام ، به فلم يسقط منه « زيد بن سلام » كما في النص ، هكذا هو عنده في معجمه الكبير (٣٤٣٠) ، وفي مسند الشاميين (٢٨٧٠) ، وكذلك نقله الإمام المزي عنه في تهذيب الكمال (٥/ ٢١٧ ـ ٢١٨) فلم يعد أدنى شك أن «زيد بن سلام» مذكور في إسناده . أما الارتباك ففي قوله : « فسقط ذكر زيد بن سلام عن أبي سلام عن الحارث الأشعري » ، مع أنه ذكر قبل «عن أبي سلام عن الحارث الأشعري » ! ونحن أخوف ما نكون أن تكون هذه العبارة مقحمة على النص (بشار عواد) .

(٢) مختصر ابن منظور (٩/ ٤٩) .

(٣) كذا في ب وط . وفي أ : مقام .

للصدّيقين أن لا يناموا[١] لما في قلوبهم من نعيم المحبّة لله عز وجل . ثمّ قال : كم بين النعيمين وكم بينهما[٢] ؟ .

وذكروا أنّه كان كثير البكاء حتى أثّر البكاء في خدّيه من كثرة دموعه[٣] .

بيان سبب قتل يحيى عليه السلام[٤]

وذكروا في قتله أسباباً ، من أشهرها أن بعض ملوك ذلك الزمان بدمشق كان يريد أن يتزوّج ببعض محارمه أو من لا يحلّ له تزويجها ، فنهاه يحيى عليه السلام عن ذلك ، فبقي في نفسها منه . فلما كان بينها وبين الملك ما يحب منها استوهبت منه دم يحيى ، فوهبه لها ، فبعث إليه من قتله وجاء[٥] برأسه ودمه في طست إلى عندها . فيقال : إنها هَلَكت من فورها وساعتها[٦] .

وقيل : بل أحبته امرأة ذلك الملك وراسلته فأبى عليها ، فلما يئست منه تحيلت في أن استوهبته من الملك ، فتمنع عليها الملك ، ثمّ أجابها إلى ذلك فبعثت من قتله وأحضر إليها رأسه ودمه في طست .

وقد ورد معناه في حديث رواه إسحاق بن بشر في كتابه « المبتدا »[٧] حيث قال : أخبرنا يعقوب الكوفي ، عن عمرو بن ميمون ، عن أبيه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ ليلة أسري به رأى زكريا في السماء ، فسلَّم عليه وقال له : يا أبا يحيى خبّرني عن قتلك كيف كانَ ، ولمَ قتلك[٨] بنو إسرائيل . قال : يا محمد أخبرك أن يحيى كان خير أهل زمانه ، وكان أجملهم وأصبحهم وجهاً ، وكان كما قال الله تعالى ﴿ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا ﴾ ، وكان لا يحتاج إلى النساء ، فهويته امرأة ملك بني إسرائيل ، وكانت بَغيّةً ، فأرسلت إليه وعَصَمَهُ الله وامتنع يحيى وأبى عليها ، وأجمعت على قتل يحيى . ولهم عيد يجتمعون في كل عام ، وكانت سُنَّة الملك أن يوعد ولا يخلف ولا يكذب . قال : فخرج الملك إلى العيد ، فقامت امرأته فشيَّعته ، وكان بها معجباً ، ولم تكن تفعله فيما مضى ، فلما أن شيعته قال الملك : سليني فما سألتِني شيئاً إلا أعطيتُك . قالت : أريدُ دمَ يحيى بن زكريا ، قال لها : سليني غيره . قالت : هو ذاك . قال : هو

---

(١) في بعض النسخ لا ينامون .

(٢) كتب على حاشية الأصل : لعله : بيننا .

(٣) مختصر ابن منظور (٩/ ٤٩) .

(٤) ليس هذا العنوان في بعض النسخ .

(٥) في ب : وجاؤوا .

(٦) الخبر في تاريخ الطبري (١/ ٥٨٧) .

(٧) ذكر هذا الكتاب صاحب كشف الظنون (١٥٧٩) ، والخبر نقله ابن عساكر . مختصر ابن منظور (٩/ ٥٠ ـ ٥١) .

(٨) كذا في الأصول . وفي حاشية ب : لعله : قتل ولدك . . ولم قتله . وواضح أن قصة قتل زكريا عليه السلام بدأت مع بداية قصة قتل يحيى . فالعبارة في المتن صحيحة .

لك . قال : فبعثت جَلاوِزَتَها إلى يحيى ، وهو في محرابه يصلّي ، وأنا إلى جانبه أصلي ، قال : فذُبح في طستٍ وحُمل رأسه ودمُه إليها . قال : فقال رسول الله ﷺ : « فما بلغ من صَبْرِكَ ؟ قال : ما انفتلت من صلاتي » . قال : فلما حُمل رأسه إليها فوضع بين يديها ، فلما أمسوا خَسف الله بالملك وأهل بيته وحشمه ، فلما أصبحوا قالت بنو إسرائيل : قد غضب إلّه زَكرِيا لزكرِيا ، فتعالوا حتى نغضب لملكنا فنقتل زكريا ، قال : فخرجوا في طلبي ليقتلوني ، وجاءني النذير ، فهربت منهم ، وإبليس أمامهم يدلهم عليَّ ، فلما أن تخوّفت أن لا أُعْجِزَهم عرضَتْ لي شجرةٌ ، فنادتني وقالت : إليَّ إليَّ ، وانصدعت لي ، ودخلت فيها . قال : وجاء إبليس حتى أخذ بطرف ردائي ، والتأمتِ الشجرةُ ، وبقي طرف ردائي خارجاً من الشجرة ، وجاءت بنو إسرائيل ، فقال إبليس : أما رأيتموه دخل هذه الشجرة ؟ هذا طرف ردائه ، دخلها بسحره ، فقالوا : نحرق هذه الشجرة ، فقال إبليس : شُقّوهُ بالمنشار شقاً . قال : فَشُقِقْتُ مع الشجرة بالمنشار . قال له النبي ﷺ : « هل وَجَدْتَ لَهُ مسّاً أو وجعاً » قال : لا ، إنما وجدَتْ ذلكَ الشجرةُ التي جعل الله روحي فيها[١] .

هذا سياق غريب جداً ، وحديث عَجيبٌ ، ورفْعُهُ منكرٌ ، وفيه ما ينكر على كلّ حال ، ولم يُرَ في شيء من أحاديث الإسراء ذِكْرُ زكريا عليه السلام إلا في هذا الحديث ، وإنّما المحفوظ في بعض ألفاظ الصحيح في حديث الإسراء[٢] : « فمررت بابني الخالة يَحْيَى وعِيسى » ، وهما ابنا الخالة على قول الجمهور كما هو ظاهر الحديث ، فإن أم يحيى أَشْياعَ بنتَ عمران أختُ مريم بنت عمران . وقيل : بل أشياع وهي امرأة زكريا أم يحيى هي أخت حَنَّةَ امرأة عمران أم مريم ، فيكون يحيى ابن خالة مريم . فالله أعلم .

ثمّ اختُلف في مقتل يحيى بن زكريا : هل كان بالمسجد الأقصى ، أم بغيره على قولين ، فقال الثوري عن الأعمش ، عن شمر بن عطية قال : قتل على الصخرة التي ببيت المقدس سبعونَ نبياً منهم يحيى بن زكريا عليه السلام .

وقال أبو عبيد القاسم بن سلاّم : حدّثنا عبد الله بن صالح ، عن الليث ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب قال : قدم بخت نصَّر دمشق ، فإذا هو بدم يحيى بن زكريا يغلي ، فسأل عنه ، فأخبروه . فقتلَ على دمه سبعين ألفاً ، فسَكَنَ[٣] .

وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب ، وهو يقتضي أنه قُتل بدمشق وأنَّ قصة بخت نصَّر كانت بعد المسيح كما قاله عطاء والحسن البصري . فالله أعلم .

---

(١) في مختصر ابن منظور (١/ ٥١) : وعن وهب أن الذي انصدعت له الشجرة ودخل فيها كان أشعياء قبل عيسى وأن زكريا مات موتاً .

(٢) حديث الإسراء بطوله ورواياته في جامع الأصول (١١/ ٣٠٥) ، وتخريجه ثمة .

(٣) تفصيل الخبر في تاريخ الطبري (١/ ٥٩١) .

وروى الحافظُ ابن عساكر[١] من طريق الوليد بن مسلم ، عن زيد بن واقد قال : رأيت رأس يحيى بن زكريا حين أرادوا بناءَ مسجد دمشق أُخرِج من تحت ركن من أركان القبلة الذي يلي المحراب مما يلي الشرق ، فكانت البشرةُ والشعر على حاله لم يتغير . وفي رواية : كأنما قُتِل الساعةَ .

وذكر في بناء مسجد دمشق أنه جعل تحت العمود المعروف بعمود السكاسكة . فالله أعلم[٢] .

وقد روى الحافظ ابن عساكر في « المستقصى في فضائل الأقصى » من طريق العباس بن صبح عن مروان عن سعيد بن عبد العزيز عن قاسم مولى معاوية قال : كان ملك هذه المدينة ـ يعني دمشق ـ هداد بن هداد ، وكان قد زوج ابنه بابنة أخيه أريل ملكة صيدا ، قلت : وقد كان من جملة أملاكها سوق الملوك[٣] بدمشق ، وهو الصاغة العتيقة ، قال : وكان قد حلف بطلاقها ثلاثاً . ثمّ إنه أراد مراجعتها ، فاستفتى يحيى بن زكريا ، فقال : لا تحل لك حتى تنكح زوجاً غيرك ، فحقدت عليه ، وسألت من الملك رأس يحيى بن زكريا ، وذلك بإشارة أُمها ، فأبى عليها ، ثمّ أجابها إلى ذلك ، وبعث إليه وهو قائم يصلّي بمسجد جيرون مَنْ أتاه برأسه في صينية ، فجعل الرأس يقول له : لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره ، فأخذت المرأة الطبق فحملته على رأسها وأتت به أمها وهو يقول كذلك ، فلما تمثَّلت بين يدي أمها خُسف بها إلى قدميها[٤] ، ثم إلى حقويها . وجعلت أمها تولول والجواري يصرخن ويلطمن وجوههن ، ثمّ خُسف بها إلى منكبيها ، فأمرت أمها السياف أن يضرب عنقها لتتسلى برأسها ، ففعل . فلفظت الأرض جثتها عند ذلك ، ووقعوا في الذلّ والفناء . ولم يزل دم يحيى يفور حتى قدم بخت نصَّر ، فقتل عليه خمسةً وسبعين ألفاً . قال سعيد بن عبد العزيز : وهي دية كلّ نبي . ولم يزل يفور حتى وقف عنده أرميا عليه السلام فقال : أيها الدم أفنيت بني إسرائيل فاسكن بإذن الله . فسكن[٥] ، فرفع السيف وهرب من هرب من أهل دمشق إلى بيت المقدس ، فتبعهم إليها فقتل خلقاً كثيراً لا يُحصون كثرة ، وسبا منهم ثمّ رجع عنهم .

***

---

(١) مختصر ابن منظور (١/ ٢٥٧) .

(٢) ليس في ب . وأورده ابن منظور في مختصره (١/ ٢٥٧) .

(٣) في ب : اللؤلؤ .

(٤) زاد في ب : ثم إلى ركبتيها .

(٥) في تاريخ الطبري (١/ ٥٨٧) خبر مشابه لما هنا .

قصّة عِيسى ابن مريم عبد الله ورسوله وابن أمته عليه من الله[1] أفضل الصلاة والسّلام

قال الله تعالى في سورة آل عمران التي أنزل صدرها وهو ثلاث وثمانون آية منها في الردّ على النصارى ، عليهم لعائن الله ، الذين زعموا أن لله ولداً ، تعالى الله عما يقولون علوّاً كبيراً . وكان قد قَدِمَ وفد نجران[2] منهم على رسول الله ﷺ ، فجعلوا يذكرون ما هم عليه من الباطل من التثليث في الأقانيم ، ويدّعون بزعمهم أن الله ثالث ثلاثة ؛ وهم الذات المقدسة ، وعيسى ومريم ، على اختلاف فرقهم ، فأنزل الله عز وجل صدر هذه السورة بيّن فيها أن عيسى عبد من عباد الله خلقه وصوّره في الرحم كما صوّر غيره من المخلوقات ، وأنه خلقه من غير أبٍ كما خلق آدم من غير أب ولا أم ، وقال له : كن ، فكان ، سبحانه وتعالى . وبين أصل ميلاد أمّه مريم ، وكيف كان من أمرها ، وكيف حملت بولدها عيسى ، وكذلك بسط ذلك في سورة مريم كما سنتكلّم على ذلك كلّه بعون الله وحسن توفيقه وهدايته . فقال تعالى وهو أصدق القائلين ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴾ [٣٣ ـ ٣٧] .

يذكر سبحانه وتعالى أنه اصطفى آدم عليه السلام والخُلّص من ذريته المتَّبِعين شرعَه الملازمين طاعته ، ثمّ خصص فقال : ﴿ وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ فدخل فيهم بنو إسماعيل وبنو إسحاق . ثمّ ذكر فضل هذا البيت الطاهر الطيب وهم آل عمران ، والمراد بعمران هذا والد مريم عليها السلام . وقال محمد بن إسحاق[3] وهو عمران بن باشم بن أمون ابن ميشا بن حزقيا بن أحريق بن موثم بن عزازيا بن أمصيا بن ياوش بن احريهو بن يازم بن بهفاشاط بن إيشا بن إيان بن رحبعام بن سليمان بن داود .

وقال أبو القاسم بن عساكر : مريم بنت عمران بن ماثان بن العازر بن اليود بن اخنر بن صادوق بن عيازور بن الياقيم بن ايبود بن زريابيل بن شالتال بن [يوحينا بن برشا بن أمون بن ميشا بن

---

(١) في ط : قصة عيسى بن مريم عليه من الله . . .

(٢) سيفصل ابن كثير الحديث عن وفد نجران في الجزء الخامس ، باب الوفود .

(٣) نقل الطبري نسب عمران في تاريخه (١/ ٥٨٦) ، عن ابن إسحاق وفيه بعض خلاف من حيث اللفظ فقط . وكذلك هو في تفسيره (٣/ ١٥٧) .

حزقا][١] بن احاز بن موثام بن عزريا بن يورام بن يوشافاط ابن ايشا بن ايبا بن رحبعام بن سليمان بن داود عليه السلام[٢] . وفيه مخالفة لما ذكره محمد بن إسحاق ، ولا خلاف أنها من سلالة داود عليه السلام ، وكان أبوها عمران صاحبَ صلاة بني إسرائيل في زمانه ، وكانت أمها وهي حَنَّة بنت فاقود بن قبيل من العابدات ، وكان زكريا نبي ذلك الزمان زوج أخت مريم أشياع في قول الجمهور . وقيل : زوج خالتها أشياع فالله أعلم[٣] .

وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره[٤] أن أم مريم كانت لا تحبل ، فرأت يوماً طائراً يزقُّ فَرخاً له ، فاشتهت الولد ، فَنَذرت لله إن حملت لتجعلَنَّ ولدها مُحَرَّراً ، أي : حبيساً في خدمة بيت المقدس . قالوا : فحاضت من فورها ، فلما طَهُرت واقَعَها بعلُها ، فحملت بمريم عليها السلام ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ وقُرِئ بضم التاء[٥] ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ أي في خدمة بيت المقدس . وكانوا في ذلك الزمـان ينذرون لبيت المقدس خدّاما من أولادهم . وقولها : ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ استُدل به على تسمية المولود يوم يولد . وكما ثبت في الصحيحين[٦] عن أنس في ذهابه بأخيه إلى رسول الله ﷺ فَحنَّكَ أخاهُ وسمَّاه عبد الله .

وجاء في حديث الحسن عن سَمُرة مرفوعاً « كُلُّ غُلامٍ رَهِينَةٌ بِعَقِيْقَتِهِ تُذْبَحُ عَنْهُ يَوْمَ سَابِعِهِ ويُسَمَّى ويُحْلَقُ رَأْسُه » . رواه أحمد[٧] ، وأهل السنن[٨] ، وصحّحه الترمذي . وجاء في بعض

---

(١) ليست في ب .

(٢) تاريخ مدينة دمشق ، تراجم النساء (٣٤٣) .

(٣) تاريخ الطبري (١/ ٥٨٥) .

(٤) تفسير الطبري (٣/ ١٥٧) .

(٥) أي : وضعتُ ، وهي قراءة ابن عامر وأبي بكر ، وقرأ الباقون : وضعتْ بالسكون حجة القراءات (١٦٠ ـ ١٦١) . وقد صوب الطبري القراءة الثانية ، بسكون التاء ، تفسيره (٣/ ١٥٩) .

(٦) في البخاري : رقم (٥٥٤٢) ، في الذبائح والصيد ، باب الوسم والعلم في الصورة . ومسلم (٢١١٩) (١١٠) ، في اللباس والزينة ، باب جواز وسم الحيوان غير الآدمي في غير الوجه .
كذلك أخرجه أبو داود (٢٥٦٣) ، في الجهاد ، باب في وسم الدواب .
وللحديث روايات تشير إلى أن أنساً رضي الله عنه ذهب بولد لأم سليم ، وبعبد الله بن أبي طلحة والأحاديث مخرجة في جامع الأصول (١/ ٣٦٦ـ٣٦٩ ، و١١/ ٧٥٧) .

(٧) المسند (٥/ ٧ـ٨ ، ١٢ ، ١٧ ، ٢٢) . وفيه اختلاف يسير في بعض ألفاظه . والعقيقة : الشعر الذي يولد عليه كل مولود ، ومنه سميت الشاة التي تذبح عن المولود يوم أسبوعه : عقيقة .

(٨) أخرجه أبـو داود (٢٨٣٧) ، (٢٨٣٨) ، في الأضاحي ، باب في العقيقة ، والترمذي (١٥٢٢) و(١٥٢٢م) وابن ماجه في الذبائح (٣١٦٥) ، والنسائي (٧/ ١٦٦) في العقيقة ، وهو في سننه الكبرى (٤٥٤٦) و(٤٥٤٧) . في الأضاحي .

ألفاظه (ويُدَمَّى) بدلَ (ويسمَّى) . صححه بعضهم[(١)] . والله أعلم .

وقولها : ﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ قد استُجيب لها في هذا ، كما تقبَّل منها نذرها . فقال الإمام أحمد[(٢)] : حدّثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن الزهري ، عن ابن المسيب ، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « ما مِنْ مَوْلُوْدٍ إلاَّ والشيطانُ يَمَسُّهُ حِيْنَ يُوْلَدُ فَيَسْتَهِلُّ صَارِخاً مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ إيّاهُ إلاَّ مَرْيَمَ وابْنَها » . ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إنْ شئتم ﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ أخرجاه من حديث عبد الرزاق[(٣)] . ورواه ابن جرير[(٤)] عن أحمد بن الفرج [عن بقية][(٥)]، عن الزبيدي[(٦)] ، عن الزهري ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه .

وقال أحمد[(٧)] أيضاً: حدّثنا إسماعيل بن عمر، حدّثنا ابن أبي ذئب، عن عجلان مولى المُشْمَعِل ، عن

---

(١) هكذا قال، ولم يصححه فيما أعلم كبير أحد سوى ابن حزم، فهذا خطأ أخطأ فيه هَمَّام بن يحيى العوذي في روايته عن قتادة، وهذه الرواية في مسند أحمد (٥/ ٧ و١٧ و٢٢)، والدارمي (١٩٧٥) وأبي داود (٢٨٣٧) من رواية عفان بن مسلم وبهز بن أسد العمي وحفص بن عمر الغمري، وهم ثقات، ثلاثتهم عن هَمَّام بهذه اللفظة «ويُدَمَّى» بدلاً من «ويُسَمَّى». وقد خالفه ثلاثة من الثقات من أصحاب قتادة وهم: أبان بن يزيد العطار، وسعيد بن أبي عروبة، وشعبة بن الحجاج، فرووه «يُسَمَّى» على الصواب، فأما رواية أبان فهي عند أحمد (٥/ ١٧)، وأما رواية شعبة فهي عند أحمد أيضاً، وأما رواية سعيد، وهو من أثبت الناس في قتادة ـ كما قرره الأئمة: ابن معين، والطيالسي، وأبو حاتم وأبو زرعة الرازيان وغيرهم ـ فهي عند أحمد (٥/ ١٢) وأبي داود (٢٨٣٨)، والترمذي (١٥٢٢م) وابن ماجه (٣١٦٥) والنسائي (٧/ ١٦٦).
وأيضاً فقد رواه آخرون عن الحسن مثل رواية الجماعة، منهم إسماعيل بن مسلم المكي ـ وهو ضعيف ـ عند الترمذي (١٥٢٢)، وإياس بن دغفل وأشعث بن عبد الملك الحمراني، وهما ثقتان. وقال أبو داود عقيب رواية همام: «خولف هَمَّام في هذا الكلام، وهو وهم من همَّام، وإنما قالوا: «يُسَمَّى» فقال همام: «يُدَمَّى». قال أبو داود: وليس يؤخذ بهذا». ثم قال عقيب حديث سعيد عن قتادة: «ويُسَمَّى أصح، كذا قال سلام بن أبي مطيع عن قتادة، وإياس بن دغفل وأشعث عن الحسن». وقال ابن عبد البر: «لا يُحْتَمَل هَمَّام في هذا الذي انفرد به فإن كان حفظه، فهو منسوخ». (نقله الحافظ ابن حجر في الفتح في شرح حديث العقيقة ٥٤٧٢).
قلت: وإنما كان يفعل ذلك في الجاهلية فنسخ هذا، وتدل عليه مجموعة أحاديث منها عند ابن حبان (٥٣٠٨)، وابن ماجه (٣١٦٦)، وأبي داود (٢٨٤٣)، والحاكم (٢٣٨) وغيرها. وإنما أطلنا في هذا ونبهنا عليه لئلا يغتر به بعض الناس فيعمل به أو بما يستفاد منه (بشار).

(٢) المسند (٢/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥) .

(٣) والبخاري (٤٥٤٨) في التفسير ، ومسلم (٢٣٦٦) في الأنبياء .

(٤) تفسيره (٣/ ١٦١) .

(٥) زيادة من ب وط . وهي في تفسير الطبري كذلك .

(٦) في ط : « عن عبد الله بن الزبيدي » وهو غلط بيّن ، فلا يعرف في الرواة عن الزهري مثل هذا ، وإنما هو محمد بن الوليد الزبيدي ، وروايته عن الزهري في الصحيحين (تهذيب الكمال ٢٦/ ٤٣٠) ، وفي تفسير الطبري كما أثبتناه .

(٧) المسند (٢/ ٢٨٨) .

أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « كُلُّ مولودٍ من بني آدم يَمَسُّه الشَّيْطانُ بإصْبَعِه إلاَّ مَرْيَمَ بنتَ عِمْرانَ وابْنَها عِيْسى ».

تفرّد به من هذا الوجه .

ورواه مسلم[١] عن أبي الطاهر ، عن ابن وَهْب ، عن عمرو بن الحارث ، عن أبي يونس ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، بنحوه .

وقال أحمد[٢] : حدّثنا هشيم ، حدثنا حفص بن ميسرة ، عن العلاء ، عن أبيه ، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « كُلُّ إنْسانٍ تَلِدُهُ أُمُّهُ يَلْكزُهُ[٣] الشَّيْطَانُ في حِضْنَيْهِ[٤] إلاَّ ما كانَ مِنْ مَرْيَمَ وابْنِها . أَلَمْ تَرَ إلى الصَّبِيِّ حِيْنَ يَسْقُطُ كَيْفَ يَصْرُخُ ؟ قالُوا : بَلَى يا رسُولَ اللهِ . قالَ : ذلكَ حِيْنَ يَلْكُزُهُ الشَّيْطَانُ بِحِضْنَيه » .

وهذا على شرط مسلم ولم يخرجه من هذا الوجه .

ورواه قيس ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما مِنْ مَوْلُودٍ إلاَّ وَقَدْ عَصَرَهُ الشَّيْطَانُ عَصْرَةً أو عَصْرَتَيْنِ إلاّ عِيْسَى بنَ مَرْيَمَ ومَرْيَمَ »[٥] .

ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ .

وكذا رواه محمد بن إسحاق عن يزيد بن عبد الله بن قُسَيط ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ بأصل الحديث[٦] .

وقال الإمام أحمد[٧] : حدّثنا عبد الملك[٨] ، حدّثنا المغيرة هو ابن [عبد الرحمن] بن عبد الله الحِزَامي[٩] ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « كُلُّ بني آدمَ يَطْعَنُ الشَّيْطَانُ في جَنْبِهِ حِيْنَ يُوْلَدُ ، إلا عِيْسى بنَ مَرْيَمَ ذَهَبَ يَطْعُنُ فَطَعَنَ في الحِجَابِ » .

وهذا على شرط الصحيحين ، ولم يخرجوه من هذا الوجه .

وقوله : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ :

ذكر كثيرٌ من المفسرين أن أُمها حين وضعتها لفّتها في خروقها ثمّ خرجت بها إلى المسجد ،

---

(١) رقم (٢٣٦٦) (١٤٧) ، في الفضائل ، باب فضائل عيسى عليه السلام .
(٢) (٢/ ٣٦٨) .
(٣) اللكزُ : الدفع في الصدر بالكف .
(٤) الحِضن : الجنب . وهما حِضْنان .
(٥) أورده الطبري في تفسيره (٣/ ١٦١) .
(٦) المصدر السابق (٣/ ١٦٠) .
(٧) (٢/ ٥٢٣) .
(٨) في ب : أحمد بن عبد الرحمن . وهو سهو . وعبد الملك هو ابن عمرو كما في مسند أحمد .
(٩) المغيرة بن عبد الرحمن بن عبد الله بن خالد بن حِزام ، الحِزامي . قال ابن حجر في التقريب (٢/ ٢٧٠) : ثقة ، له غرائب ، من السابعة ، قال أبو داود : كان قد نزل عسقلان .

فسلَّمتها إلى العُبّاد الذي هم مقيمون به ، وكانت ابنة إمامهم وصاحب صلاتهم فتنازعوا فيها .

والظاهر أنّها إنّما سلَّمتها إليهم بعد رضاعها وكفالة مثلها في صغرها . ثمّ لمّا دفعتها إليهم تنازعوا في أيّهم يكفلها ، وكان زكريا نبيهم في ذلك الزمان قد أراد أن يستبدّ بها دونهم من أجل أن زوجته أختها أو خالتها على القولين ، فشاحُّوه في ذلك ، وطلبوا أن يقترع معهم ، فساعدته المقادير فخرجت قرعته غالبة لهم ، وذلك أن الخالة بمنزلة الأم . قال الله تعالى : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ أي بسبب غلبه لهم في القُرعة . كما قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٤٤] .

قالوا(١) : وذلك أن كلاً منهم ألقى قلمه معروفاً به ، ثمّ حملوها ووضعوها في موضع ، وأمروا غلاماً لم يبلغ الحنث ، فأخرج واحداً منها ، وظهر قلم زكريا عليه السلام . فطلبوا أن يقترعوا مرّة ثانية وأن يكون ذلك بأن يلقوا أقلامهم في النهر ، فأيّهم جَرى قلمُه على خلاف جرية الماء(٢) فهو الغالب ، ففعلوا ، فكان قلم زكريا هو الذي جرى على خلاف جَرية الماء ، وسارت أقلامهم مع الماء ، ثم طلبوا منه أن يقترعوا ثالثة فأيُّهم جرى قلمه مع الماء ، ويكون بقية الأقلام قد انعكس(٣) سيرها صُعُداً فهو الغالب ، ففعلوا ، فكان زكريا هو الغالب لهم ، فكفلها إذ كان أحقَّ بها شرعاً وقدراً لوجوه عديدة .

قال الله تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ قال المفسرون : اتخذ لها زكريا مكاناً شريفاً من المسجد لا يدخله سواها ، فكانت تعبد الله فيه وتقوم بما يجب عليها من سدانة البيت إذا جاءت نوبتُها ، وتقوم بالعبادة ليلَها ونهارَها ، حتى صارت يُضرب المثل بعبادتها في بني إسرائيل ، واشتهرت بما ظهر عليها من الأحوال الكريمة والصفات الشريفة ، حتى إنه كان نبي الله زكريا كلما دخل عليها موضع عبادتها يجدُ عندها رزقاً غريباً في غير أوانه ، فكان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف(٤) فيسألها أنَّى لك هذا ؟ فتقول : ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ أي رزق رَزَقَنِيْه الله ، إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب ، فعند ذلك وهنالك طمع زكريا في وجود ولدٍ من صُلبه وإن كان قد أسَنَّ وكبر ﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ . قال بعضهم : قال : يا من يرزق مريم الثمر في غير أوانه(٥) هب لي ولداً ، وإن كان في غير أوانه ، فكان من خبره وقضيته ما قدّمنا ذِكره في قصته .

---

(١) تفسير الطبري (٣/ ١٦٢) .

(٢) كذا في ب . وهو الأشبه كما سيأتي في سياق الكلام . وفي أ وط : في الماء .

(٣) في ب : انغطس . وكُتب في الحاشية : لعله : انعكس .

(٤) تفسير الطبري (٣/ ١٦٥) .

(٥) في ب : إبّانه .

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤) إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (٤٨) وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٤٢ ـ ٥١] .

يذكر سبحانه وتعالى أن الملائكة بشّرت مريمَ باصطفاء الله لها من بين سائر نساء عالمي زمانها بأنِ اختارها لإيجاد ولدٍ منها من غير أبٍ ، وبُشّرت بأن يكون نبياً شريفاً ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ ﴾ أي : في صِغره يدعوهم إلى عبادة الله وحدَه لا شريك له ، وكذلك في حال كهولته ، فدلّ على أنه يبلغ الكهولةَ ويدعو إلى الله فيها . وأُمِرَتْ بكثرة العبادة والقُنوتِ والسجودِ والركوع لتكون أهلاً لهذه الكرامة ، ولتقوم بشُكْر هذه النعمة . فيقال : إنها كانت تَقُومُ في الصلاة حتى تفطّرت قدماها ، رضي الله عنها ورحمها ورحم أمها وأباها . فقول الملائكة : ﴿ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ ﴾ أي اختارك واجْتباك ﴿ وَطَهَّرَكِ ﴾ أي من الأخلاق الرذيلة ، وأعطاك الصفات الجميلة ، ﴿ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ ، يحتمل أنه يكون المراد عالمي زمانها ، كقوله لموسى : ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [الأعراف : ١٤٤] وكقوله عن بني إسرائيل : ﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [الدخان : ٣٢] . ومعلومٌ أن إبراهيم عليه السلام أفضل من موسى ، وأن محمداً ﷺ أفضل منهما ، وكذلك هذه الأمة أفضل من سائر الأمم قبلها ، وأكثر عدداً ، وأفضل علماً ، وأزكى عملاً من بني إسرائيل وغيرهم . ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ محفوظ العموم ، فتكون أفضل نساء الدنيا(١) ممن كان قبلها ووجد بعدها ، لأنها إن كانت نبيةً ، على قول من يقول بنبوتها ونبوة سارة أم إسحاق ونبوة أم موسى محتجاً بكلام الملائكة والوحي إلى أم موسى ـ كما يزعم ذلك ابن حزم وغيره ـ فلا يمتنع على هذا أن تكون مريم أفضل من سارة وأم موسى لعموم قوله : ﴿ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ إذ لم يعارضه غيره والله أعلم .

وأما قول الجمهور كما قد حكاه أبو الحسن الأشعري وغيره عن أهل السنة والجماعة من أن النبوة مختصةٌ بالرجال ، وليس في النساء نبيّة ، فيكون أعلى مقامات مريم كما قال الله تعالى : ﴿ مَا الْمَسِيحُ

---

(١) في ب : أفضل من سائر أهل الدنيا .

ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ﴾ [المائدة : ٧٥] . فعلى هذا لا يمتنع أن تكون أفضل الصِّدِّيقات المشهورات ممن كان قبلها وممن يكون بعدها والله أعلم .

وقد جاء ذِكرها مقروناً مع آسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد رضي الله عنهن وأرضاهن .

وقد روى الإمام أحمد[١] ، والبخاري[٢] ومسلم[٣] والترمذي[٤] والنسائي[٥] من طرق عديدة عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عبد الله بن جعفر ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « خَيْرُ نِسائها مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ، وخَيْرُ نِسائِها خَدِيْجَةُ بِنْتُ خُوَيْلد » .

وقال الإمام أحمد[٦] : حدّثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن قتادة ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « حَسْبُكَ مِنْ نِساءِ العالَمِيْنَ بأرْبَعٍ : مَرْيَم بِنْت عِمْران ، وآسِية امْرأة فِرعَوْن ، وخَدِيْجَة بِنْت خُوَيْلِد وفاطِمَةُ بنت مُحَمّد » .

ورواه الترمذي[٧] عن أبي بكر بن زَنجَويه[٨] ، عن عبد الرزاق ، به ، وصححه .

ورواه ابن مردويه من طريق عبد الله بن أبي جعفر الرازي ، وابنُ عساكر من طريق تميم بن زياد ، كلاهما عن أبي جعفر الرازي ، عن ثابت ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « خَيْرُ نِساءِ العالَمينَ أَرْبَعٌ : مريمُ بنتُ عِمران ، وآسِيةُ امْرأَةُ فِرْعَون ، وخَدِيجةُ بنتُ خُوَيْلِد ، وفاطمةُ بنت محمد[٩] رسول الله » .

وقال الإمام أحمد[١٠] : حدّثنا عبد الرزاق ، حدّثنا معمر ، عن الزهري ، عن ابن المسيب قال : كان أبو هريرة يحدث أن النبي ﷺ قال : « خَيْرُ نِساءٍ رَكِبْنَ الإِبِلَ ، صالحُ نِساءِ قُرَيْشٍ ، أَحْناهُ عَلَى وَلَدٍ في صِغَرِهِ وأرْعَاهُ لِزَوجٍ في ذاتِ يدِهِ » . قال أبو هريرة : ولم تركب مريم بعيراً قط .

وقد رواه مسلم في « صحيحه »[١١] عن محمد بن رافع وعبد بن حُمَيد كلاهما عن عبد الرزاق به .

---

(١) المسند (١/ ٨٤ ، ١٣٢ ، ١٤٣) .
(٢) صحيح البخاري (٣٤٣٢) في أحاديث الأنبياء ، و رقم (٣٨١٥)، في مناقب الأنصار ، باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها .
(٣) صحيح مسلم رقم (٢٤٣٠) في فضائل الصحابة ، باب فضائل خديجة أم المؤمنين .
(٤) سنن الترمذي رقم (٣٨٧٧)، في المناقب ، باب فضل خديجة رضي الله عنها ، وقال : هذا حديث حسن صحيح .
(٥) في المناقب من سننه الكبرى (٨٣٥٤) .
(٦) مسند أحمد (٣/ ١٣٥) . وفي لفظه تقديم وتأخير .
(٧) جامع الترمذي رقم (٣٨٧٨) ، في المناقب ، باب فضل خديجة رضي الله عنها .
(٨) في ط : زانجويه ، وهو خطأ .
(٩) زاد في ط : محمد . والحديث في تاريخ دمشق ، تراجم النساء (٣٧٨) .
(١٠) مسند أحمد (٢/ ٢٧٥) .
(١١) صحيح مسلم رقم (٢٥٢٧) (٢٠١) ، في فضائل الصحابة ، باب من فضائل نساء قريش .

وقال أحمد[(١)] : حدّثنا زيد بن الحباب ، حدّثني موسى بن عُلَيّ ، سمعت أبي يقول : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « خَيرُ نِساءٍ رَكِبْنَ الإِبلَ نِساءُ قُرَيْشٍ أحْنَاهُ عَلَى وَلَدٍ في صِغَرِهِ وَأرْأفَهُ بِزَوْجٍ عَلَى قِلَّةِ ذاتِ يَدِهِ » . قال أبو هريرة : وقد علم رسول الله ﷺ أن ابنة عمران لم تركب الإبل .

تفرد به وهو على شرط الصحيح . ولهذا الحديث طرق أخر عن أبي هريرة[(٢)] .

وقال أبو يعلى الموصلي : حدّثنا زهير ، حدّثنا يونس بن محمد ، حدّثنا داود بن أبي الفرات ، عن عِلباء بن أحْمر ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : خَطَّ رَسُولُ الله ﷺ في الأرض أربعة خطوط فقال : « أتَدْرُوْنَ ما هذا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . فقال رسول الله ﷺ : « أفضلُ نِساءِ أهْلِ الجنةِ خَديجةُ بنتُ خويلد ، وفاطمةُ بنتُ محمدٍ ، ومَريَمُ بنتُ عِمران ، وآسيةُ بنتُ مُزاحم امرأةُ فرعونَ »[(٣)] .

ورواه النسائي من طرق عن داود بن أبي الفرات[(٤)] .

وقد رواه ابن عساكر من طريق أبي بكر عبد الله بن أبي داود سليمان بن الأشعث ، حدّثنا يحيى بن حاتم العسكري ، حدّثنا بشر بن مهران بن حمدان ، حدّثنا محمد بن دينار ، عن داود بن أبي هند ، عن الشعبي ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « حَسْبُكَ مِنْهُنَّ أَرْبَعُ سَيّداتِ نساء العالمين : فاطمةُ بنتُ محمد ، وخديجةُ بنتُ خويلدٍ ، وآسيةُ بنتُ مُزاحم ، ومريمُ بنتُ عمران »[(٥)] .

وقال أبو القاسم البغوي : حدّثنا وهب بن منبه ، حدثنا خالد بن عبد الله الواسطي ، عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن عائشة أنها قالت لفاطمة : أرأيتِ حين أكْبَبْتِ على رسول الله ﷺ فبكيت ثم ضحكتِ ؟ قالتْ : أخْبرني أنه مَيّتٌ من وجعه هذا فبكيت ، ثم أكْبَبتُ عليه فأخبرني أني أسرع أهله لحوقاً به ، وأني سيدةُ نساء أهل الجنة إلا مريمَ بنتَ عمران فضحكتُ[(٦)] .

وأصل هذا الحديث في الصحيح . وهذا إسناد على شرط مسلم، وفيه أنهما أفضل الأربع المذكورات[(٧)].

وهكذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد[(٨)] ، حدثنا عثمان بن محمد ، حدثنا جرير ، عن يزيد هو ابن

---

(١) في مسنده (٢/ ٥٣٦) .

(٢) في مسند أحمد (٢/ ٢٦٩ ، ٢٧٥ ، ٣١٩ ، ٣٩٣ ، ٤٤٩ ، ٤٦٩ ، ٥٠٢) .

(٣) مسند أبي يعلى (٥/ ١١٠ ، رقم ٢٧٢٢) . وهو في تراجم النساء ، تاريخ دمشق (٣٧٥) .

(٤) في ط وأ وب: «داود بن أبي هند» وهو خطأ، وقد تقدم قبل قليل في إسناد أبي يعلى على الصواب. وقد أخرجه النسائي في الفضائل من سننه الكبرى من طريق يونس بن محمد (٨٣٥٥) وأبي النعمان (٨٣٥٧) وحجاج بن منهال (٨٣٦٤)؛ ثلاثتهم عن داود بن أبي الفرات.

(٥) تاريخ دمشق ، تراجم النساء (٣٧٨) .

(٦) وأورده الطبري في تفسيره (٣/ ١٨٠ ـ ١٨١) ، مفصلاً .

(٧) انظر الروايات وتخريجها في جامع الأصول (٩/ ١٢٨) ، وما بعدها .

(٨) المسند (٣/ ٨٠) .

أبي زياد ، عن عبد الرحمن بن أبي نُعْم ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « فاطمةُ سَيِّدةُ نساءِ أهلِ الجَنَّةِ ، إلاّ ما كانَ مِنْ مَرْيَمَ بنتِ عِمران » . إسناد حسن ، وصححه الترمذي[١] ، ولم يخرجوه ، وقد روي نحوه من حديث علي بن أبي طالب ، ولكن في إسناده ضعف .

والمقصود أن هذا يدل على أن مريم وفاطمة أفضل هذه الأربع . ثمّ يحتمل الاستثناءُ أن تكون مريم أفضل من فاطمة ، ويحتمل أن يكونا على السواء في الفضيلة ، لكن ورد حديث إن صَحَّ عيَّنَ الاحتمال الأول ؛ فقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر : أخبرنا أبو الحسن بن الفراء وأبو غالب وأبو عبد الله ابنا البنّاء قالوا : أخبرنا أبو جعفر ابن المُسْلِمة أخبرنا أبو طاهر المُخَلِّص حدّثنا أحمد بن سليمان ، حدّثنا الزبير ـ هو ابن بكار ـ حدّثنا محمد بن الحسن ، عن عبد العزيز بن محمد ، عن موسى بن عقبة ، عن كريب ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « سَيِّدة نساءِ أهلِ الجنةِ مريمُ بنتُ عِمران ، ثم فاطمةُ ، ثم خديجةُ ، ثم آسيةُ امرأةُ فرعونَ » . فإن كان هذا اللفظ محفوظاً بـ« ثم » التي للترتيب فهو مبيِّنٌ لأحد الاحتمالين اللذين دلّ عليهما الاستثناء ، وتقدّم على ما تقدّم من الألفاظ التي وردت بواو العطف التي[٢] لا تقتضي الترتيب ولا تنفيه . والله أعلم .

وقد روى هذا الحديث أبو حاتم الرازي ، عن داود الجعفري[٣] ، عن عبد العزيز بن محمد ـ وهو الدَّرَاوَرْدِي ـ[٤] عن إبراهيم بن عقبة ، عن كُريب ، عن ابن عباس مرفوعاً ، فذكره بواو العطف لا « بثمَّ » التي للترتيب[٥] فخالفه إسناداً ومتناً . فالله أعلم .

فأما الحديث الذي رواه ابن مَردويه من حديث شعبة ، عن معاوية بن قرّة ، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « كمُلَ مِنَ الرجَّالِ كَثِيْرٌ ، ولَمْ يَكْمُل مِنَ النّسَاءِ إلاَّ ثَلاثٌ : مَرْيَمُ بنتُ عِمْران ، وآسيةُ امْرَأَةُ فِرعَون ، وخَدِيْجَةُ بنتُ خُوَيْلِدِ ، وفَضْلُ عائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيْدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعامِ » . وهكذا الحديث الذي رواه الجماعة[٦] إلا أبا داود من طرقٍ عن شعبة عن عمرو بن مرة ، عن مرة الهمداني ، عن

---

(١) هكذا قال، وإنما صحح الترمذي حديث «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة» (٣٧٦٨) و(٣٧٦٨م) وليس فيه الزيادة التي ذكرها المصنف. نعم، ذكر الإمام أحمد حديث الحسن والحسين وذكر الزيادة في (٣/ ٦٤)، وكذلك ذكرها النسائي في المناقب (٨٥١٤)، لكن الترمذي لم يذكرها.

(٢) في ب : الذي .

(٣) هو داود بن عبد الله بن محمد الجعفري، أبو سليمان المدني، من رجال التهذيب .

(٤) قال ابن الأثير : هذه نسبة عبد العزيز بن محمد بن عبيد ، من أهل المدينة . توفي سنة (١٨٦هـ) . وكان أبوه من (دار ابجرد) فاستثقلوا أن يقولوا : دار ابجردي ، فقالوا : دراوردي . اللباب (١/ ٤٩٦) .

(٥) في ط : الترتيبية .

(٦) حديث شعبة عن عمرو بن مرة، عن مرة، عن أبي موسى أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء من صحيحه (٣٤١١) و(٣٤٣٣)، وفي فضل عائشة (٣٧٦٩) وفي الأطعمة (٥٤١٨). وأخرجه مسلم في الفضائل (٢٤٣١)، والترمذي في=

أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « كَمُل مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ ولم يَكْمل مِنَ النِّسَاءِ إلاَّ آسِيةُ امرأةُ فِرعَون ومَرْيَمُ بنتُ عِمران وإنَّ فَضْلَ عائِشَةَ على النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيْدِ عَلَى الطَّعَامِ » ، فإنه حديث صحيح كما ترى ، اتفق الشيخان على إخراجه ، ولفظه يقتضي حَصْر الكمال في النساء في مريم وآسية ، ولعل المراد بذلك في زمانهما ، فإن كلاً منهما كفلت نبياً في حال صغره ، فآسية كفلت موسى الكليم ، ومريم كفلت ولدها عبد الله ورسوله ، فلا ينفي كمال غيرهما في هذه الأمة كخديجة وفاطمة ، فخديجة خدمت رسول الله ﷺ قبل البعثة خمس عشرة سنة ، وبعدها أزيد من عشر سنين ، وكانت له وزيرَ صِدْق بنفسها ومالها رضي الله عنها وأرضاها . وأما فاطمة بنتُ رسول الله ﷺ فإنها خُصّت بمزيد فضيلة على أخواتها ، لأنها أصيبت برسول الله ﷺ وبقيةِ أخواتها مِتن في حياة النبي ﷺ . وأما عائشة فإنّها كانت أحبَّ أزواج رسول الله ﷺ إليه ، ولم يتزوج بِكراً غيرها ، ولا يُعرف في سائر النساء في هذه الأمة ، بل ولا في غيرها ، أعلم منها ولا أفهم ، وقد غار الله لها حين قال لها أَهل الإفك ما قالوا ، فأنزل براءتها من فوق سبع سموات ، وقد عُمِّرت بعد رسول الله ﷺ قريباً من خمسين سنةً تبلّغ عنه القرآن والسُّنَّةَ ، وتفتي المسلمين ، وتصلح بين المختلفين ، وهي أشرف أمهات المؤمنين حتى خديجة بنت خويلد أم البنات والبنين في قول طائفة من العلماء السابقين واللاحقين ، والأحسن الوقف فيهما رضي الله عنهما . وما ذاك إلا لأن قوله ﷺ : « وفضلُ عائِشَة على النساءِ كَفَضْلِ الثَّرِيْدِ علَى سائرِ الطَّعامِ » يحتمل أن يكون عاماً بالنسبة إلى المذكورات [وغيرهن ، ويحتمل أن يكون عاماً بالنسبة إلى ما عدا المذكورات][1] . والله أعلم .

والمقصود هاهنا ذِكْر ما يتعلّق بمريم بنتِ عمران عليها السلام ، فإن الله طهّرها واصْطفاها على نساء عالمي زمانها ، ويجوز أن يكون تفضيلها على النساء مطلقاً ، كما قدّمنا . وقد ورد في حديثٍ أنها تكون من أزواج النبي ﷺ في الجنة هي وآسية بنت مزاحم . وقد ذكرنا في « التفسير »[2] عن بعض السلف أنه قال ذلك واستأنس بقوله : ﴿ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ [التحريم : ٥] ، قال : فالثيب آسية ، ومن الأبكار مريم بنت عمران . وقد ذكرناه في آخر سورة التحريم . فالله أعلم .

قال الطبراني[3] : حدثنا عبد الله بن ناجية ، حدثنا محمد بن سعد العَوْفي[4] حدثنا أبي حدثنا عمي

= الأطعمة (١٨٣٤)، وابن ماجه في الأطعمة أيضاً (٣٢٨٠)، والنسائي في المناقب (٧/ ٦٨) وهو في عشرة النساء من الكبرى (٨٣٥٣) و(٨٣٨١) و(٨٨٩٥) بقصة فضل عائشة .

(١) سقط من ب بنقلة عين .

(٢) هو كما قال في تفسيره : (٤/ ٣٩٠) .

(٣) في المعجم الكبير (٥٤٨٥/ ٢) .

(٤) هو أبو جعفر محمد بن سعد بن محمد بن الحسن ، العَوْفي ، من بني عوف بن سعد ، من يشكر بن بكر بن وائل ، وقيل من يشكر بن الحارث ، من قيس عيلان . كان من أهل بغداد ، توفي سنة (٢٧٦هـ) . قيل : كان لين الحديث . وقال الدار قطني : لا بأس به . أنساب السمعاني (٩/ ٨٩ ـ ٩٠) .

الحسين ، حدّثنا يونس بن نُفيع عن سعد بن جُنَادة ـ هو العَوْفي ـ ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن اللهَ زَوَّجَنِي في الجنةِ مَرْيَمَ بنتَ عِمْرانَ وامرأةَ فِرْعَوْنَ وأُخْتَ مُوسَى » .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدّثنا إبراهيم بن عرعرة ، حدّثنا عبد النور بن عبد الله ، حدّثنا يونس بن شعيب ، عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « أُشْعِرْتُ أنَّ اللهَ زَوَّجَني مَرْيَمَ بنتَ عِمْران وآسِيةَ بِنْتَ مُزاحِم وكَلْثَم أُخْتَ مُوْسى » . رواه أبو جعفر العُقَيلي[١] من حديث عبد النور به ، وزاد : « فقلت هنيئاً لك يا رسول الله » ثم قال العقيلي : وليس بمحفوظ[٢] .

وقال الزبير بن بكار : حدّثني محمد بن الحسن ، عن يعلى بن المغيرة ، عن ابن أبي روّاد قال : دخل رسول الله ﷺ على خديجة وهي في مرضها الذي توفيت فيه فقال لها : « بالكُرهِ منّي ما أرى مِنْكِ يا خديجةُ ، وقد يَجْعلُ اللهُ في الكُره خَيْراً كثيراً . أما علمتِ أنَّ اللهَ قَدْ زَوَّجَني مَعَكِ في الجَنَّةِ مَرْيَمَ بنتَ عِمران وكَلْثَمَ أختَ مُوْسى وآسيةَ امرأةَ فِرعون » قالت : وقد فعل الله بكَ ذلك يا رسول الله ؟ قال : « نعم » . قالت : بالرِّفاء والبنين[٣] .

وروى ابن عساكر[٤] من حديث محمد بن زكريا الغَلاَبي[٥] ، حدّثنا العباس بن بكار ، حدّثنا أبو بكر الهذلي[٦] ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ دخل على خديجة وهي في مرض الموت ، فقال : « يا خَدِيجةُ إذا لَقِيْتِ ضَرَائِرَكِ فَأَقْرِئيهِنَّ مِنّي السَّلامَ » قالَت : يا رسول الله وهل تزوجتَ قبلي ؟ قال : « لا ، ولكن الله زوَّجَني مريَمَ بنتَ عِمران وآسيةَ بنتَ مُزاحِم وكَلْثَمَ أختَ موسى »[٧] .

وروى ابن عساكر من طريق سُويد بن سعيد ، حدّثنا محمد بن صالح بن عمر عن الضحاك ومجاهد ، عن ابن عمر قال : نزل جبريل إلى رسول الله ﷺ بما أُرسِل به ، وجلس يُحدّث رسول الله ﷺ إذ مَرّت

---

(١) في الضعفاء الكبير (٤/ ٤٥٩) .

(٢) إسناده تالف، فإن يونس بن شعيب منكر الحديث، كما قال البخاري فيما نقله عنه العقيلي (٤/ ٤٥٩)، وعبد النور بن عبد الله هو المسمعي رافضي كذاب وضاع خبيث (ضعفاء العقيلي ٣/ ١١٤)، وانظر تفسير ابن كثير: (٤/ ٣٩٠) .

(٣) الرِّفاء : الالتئام والاتفاق والبركة والنماء . وقد نُهي أن يقال للمتزوج : بالرفاء والبنين . وكان رسول الله ﷺ إذا رفّأ الإنسانَ قال : بارك الله لك وعليك وجمع بينكما على خير .

(٤) في ترجمة مريم بنت عمران كما أشار ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٩٠) .

(٥) الغَلابي ، بفتح الغين واللام ألف المخففة : نسبة إلى غَلاب ، وهو اسم لبعض أجداد المنتسب إليه . أنساب السمعاني (٩/ ١٩٣) .

(٦) في ط : الهزلي . بالزاي . وهو خطأ . وأبو بكر الهُذَلي اسمه سُلْمى بن عبد الله بن سُلْمى ، من أهل الكوفة ، سكن البصرة . توفي سنة (١٦٧هـ) . وهو متروك الحديث .
المجروحين لابن حبان (١/ ٣٥٥) ، وتقريب التهذيب (٢/ ٤٠١) .

(٧) قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٩٠) : ضعيف .

خَديجةُ ، فقال جبريل : من هذه يا محمد ؟ قال : « هذه صِدِّيقَةُ أُمتي » . قال جبريل : معي إليها رسالة من الرب عز وجل ، يقرئها السلام ويبشّرها ببيت في الجنة من قَصَبٍ بعيد من اللهب لا نَصَب فيه ولا صَخَب . قالت : الله السلام ومنه السلام والسلام عليكما ورحمة الله وبركاته على رسول الله ، ما ذلك البيت الذي من قصب ؟ قال : لؤلؤة جوفاء بين بيت مَريم بنت عمران وبيت آسية بنت مزاحم ، وهما من أزواجي يوم القيامة . وأصل السلام على خديجة من الله وبشارتها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا وصب في الصحيح[1] ، ولكن هذا السياق بهذه الزيادات غريب جداً . وكل هذه الأحاديث في أسانيدها نظر .

وروى ابنُ عساكر من حديث أبي زُرْعة الدمشقي ، حدّثنا عبد الله بن صالح ، حدّثني معاوية ، عن صفوان بن عمرو ، عن خالد بن معدان ، عن كعب الأحبار أن معاوية سأله عن الصخرة ـ يعني صخرة بيت المقدس ـ فقال : الصخرة على نخلة ، والنخلة على نهر من أنهار الجنة ، وتحت النخلة مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم ينظمان سموط أهل الجنة حتى تقوم الساعة .

ثمّ رواه من طريق إسماعيل بن عياش[2] ، عن ثعلبة بن مسلم ، عن مسعود بن عبد الرحمن ، عن خالد بن معدان ، عن عبادة بن الصامت ، عن النبي ﷺ بمثله . وهذا منكر من هذا الوجه ، بل هو موضوع . وقد رواه أبو زرعة عن عبد الله بن صالح عن معاوية عن مسعود بن عبد الرحمن ، عن ابن عابد أن معاوية سأل كعباً عن صخرة بيت المقدس ، فذكره . قال الحافظ ابن عساكر : وكونه من كلام كعب الأحبار أشبه .

قلت وكلامُ كعب الأحبار هذا إنما تلقّاه من الإسرائيليات التي منها ما هو مكذوب مفتعل وضعه بعض زنادقتهم أو جهّالهم ، وهذا منه . والله أعلم .

* * *

(١) رواه البخاري (٧/ ١٣٣) ، في مناقب الأنصار ، باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها . ومسلم (٢٤٣٣) ، في فضائل الصحابة ، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها .

(٢) في ط . عن عياش . وهو خطأ . وإسماعيل بن عياش مترجم في سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٧٧) . وما بعدها .

ذكر ميلاد العبد الرسول عيسى ابن مَريم البتول(١)

قال الله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [مريم : ١٦ ـ ٣٧] .

ذكر تعالى(٢) هذه القصّة بعد قصّة زكريا التي هي كالمقدمة لها والتوطئة قبلها ، كما ذكر في سورة آل عمران ، قَرَن بينهما في سياق واحد ، وكما قال في سورة الأنبياء : ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٩ ـ ٩١] .

وقد تقدّم أنّ مريم لما جعلتها أمُّها محرَّرةً تخدم بيت المقدس ، وأنّه كفلها زوجُ أختها أو خالتها نبيُّ ذلك الزمان زكريا عليه السلام ، وأنه اتّخذ لها محراباً وهو المكان الشريف من المسجد لا يدخله أحد عليها سواه ، وأنها لما بلغت اجتهدت في العبادة فلم يكن في ذلك الزمان نظيرها في فنون العبادات وظهر عليها من الأحوال ما غَبَطها به زكريا عليه السلام ، وأنها خاطبتْها الملائكةُ بالبشارة لها باصطفاء الله لها وبأنه سَيَهب لها ولداً زكياً يكون نبياً كريماً طاهراً مكرَّماً مؤيداً بالمعجزات ، فتعجبت من وجود ولد من غير والدٍ لأنها لا زوج لها ، ولا هي ممن تتزوج ، فأخبرتها الملائكة بأن الله قادر على ما يشاء ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا

(١) لم يرد لفظ ذكر في ط . وزاد في ب : العذراء البتول .
(٢) في ب : يذكر سبحانه وتعالى .

﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ فاستكانت لذلك وأنابت وسلَّمت لأمر الله ، وعلمت أن هذا فيه محنةٌ عظيمةٌ لها ، فإن الناس يتكلمون فيها بسببه ، لأنهم لا يعلمون حقيقةَ الأمر ، وإنما ينظرون إلى ظاهر الحال من غير تدبُّرٍ ولا تعقُّلٍ ، وكانت إنما تخرج من المسجد في زمن حَيْضها ، أو لحاجةٍ ضروريَّةٍ لا بدَّ منها ؛ من استقاء ماءٍ أو تحصيل غذاءٍ ، فبينما هي يوماً قد خرجتْ لبعض شؤونها ﴿ فَٱنتَبَذَتۡ ﴾ أي انفردت وحدَها شرقي المسجد الأقصى إذ بعث الله إليْها الروحَ الأمين جبريل عليه السلام ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ فلما رأتْهُ ﴿ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ . قالَ أبو العالية : علمتْ أنّ التقي ذو نهيةٍ ، وهذا يردُّ قول من زعم أنه كان في بني إسرائيل رجل فاسقٌ مشهور بالفسق اسمه « تقي » فإن هذا قولٌ باطلٌ بلا دليل ، وهو من أسخف الأقوال .

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ : أي : خاطَبها الملك قائلاً إنما أنا رَسُول ربك لستُ ببشرٍ ولكني مَلَك بعثني الله إليكِ ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾ أي : ولداً زاكياً[1] ﴿ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ ﴾ أي : كيف يكون لي غلام أو يوجد لي ولد ﴿ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٌ وَلَمۡ أَكُ بَغِيًّا ﴾ أي ولستُ ذاتَ زوجٍ ، وما أنا ممن يفعلُ الفاحشةَ ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ أي فأجابها المَلَك عن تعجُّبها من وجود ولدٍ منها والحالة هذه قائلاً ﴿ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴾ أي وعَدَ أنه سيخلق منكِ غلاماً ولستِ بذاتِ بعلٍ ولا تكونين ممن تبغين ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ أي وهذا سهل[2] عليه ويسير لديه ، فإنه على ما يشاء قدير .

وقوله : ﴿ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ أي ولنجعل خلقه والحالة هذه دليلاً على كمال قُدرَتِنا على أنواع الخلْق ، فإنه تعالى خلقَ آدمَ من غير ذكرٍ ولا أنثى ، وخلق حواء من ذكرٍ بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، وخلق بقيةَ الخلق من ذكر وأنثى .

وقوله : ﴿ وَرَحۡمَةً مِّنَّاۚ ﴾ أي نرحم به العباد بأن يدعوهم إلى الله في صغره وكبره في طفولته وكهولته بأن يُفرِدوا[3] الله بالعبادة وحده لا شريك له وينزهوه[4] عن اتخاذ الصاحبة والأولاد والشركاء والنظراء والأضداد والأنداد .

وقوله : ﴿ وَكَانَ أَمۡرًا مَّقۡضِيًّا ﴾ يحتمل أن يكون هذا من تمام كلام جبريل معها ؛ يعني أن هذا أمرٌ قد قضاه الله وحَتَّمَه وقدَّره وقرَّره ، وهذا معنى قول محمد بن إسحاق ، واختاره ابن جرير[5] ولم يحك سواه . والله أعلم . ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ وَكَانَ أَمۡرًا مَّقۡضِيًّا ﴾ كنايةً عن نفخ جبريل فيها كما قال

---

(١) في ط : زكياً .

(٢) في ب : أسهل .

(٣) في ب : يفرد .

(٤) في ب وينزهه .

(٥) تفسير الطبري (١٦/٤٧) .

تعالى : ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَانَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ [التحريم : ١٢] . فذكر غيرُ واحدٍ من السلف[١] أن جِبريل نفخَ في جيبِ درعها ، فنزلت النفخة إلى فرجها فحملت من فورها كما تحمل المرأة عند جماع بعلها[٢] . ومن قال إنه نَفَخ في فمها أو إن الذي كان يخاطبها هو الروح الذي ولج فيها من فمها فقوله خلاف ما يُفهم من سياقات هذه القصّة في محالّها من القرآن ، فإن هذا السياق يدلّ على أن الذي أُرسل إليها ملكٌ من الملائكة وهو جبريل عليه السلام ، وأنه إنما نفخ فيها ولم يواجه الملك الفرج ، بل نفخ في جيبها فنزلت النفخة إلى فرجها فانسلكت فيه كما قال تعالى : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ يدلّ على أن النفخة ولجت فيه لا في فمها كما رُوي عن أُبي بن كعب ، ولا في صدرها كما رواه السدّي بإسناده عن بعض الصحابة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ ﴾ أي حملت ولدَها ﴿ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ وذلكَ لأنَّ مَرْيَم عليها السلام لمّا حملت ضاقت به ذرعاً ، وعلمت أن كثيراً من الناس سيكون منهم كلام في حقّها ، فذكر غير واحد من السّلف[٣] منهم وهب بن منبه أنها لما ظهرت عليها مخايل الحمل كان أول من فطن لذلك رَجُلٌ من عُبّاد بني إسرائيل يقال له : يوسف بن يعقوب النجار ، وكان ابن خالها ، فجعل يتعجّب من ذلك عجباً شديداً ، وذلك لما يعلم من ديانتها ونزاهتها وعبادتها ، وهو مع ذلك يراها حُبلى وليس لها زوج فعرَّض لها ذات يوم في الكلام ، فقال : يا مريم هل يكون زرع من غير بذر ؟ قالت : نعم فمن خلق الزرع الأول ! ثمّ قال : فهل يكون شجر من غير ماءٍ ولا مطر ؟ قالت : نعم ، فمن خلق الشجر الأول ! ثم قال : فهل يكون ولد من غير ذكر ؟ قالت : نعم إن الله خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى . قال لها : فأخبريني خبرك . فقالت : إن الله بشّرني ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٤٥ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٥ ـ ٤٧] . ويروى مثل هذا عن زكريا عليه السلام أنه سألها فأجابته بمثل هذا . والله أعلم .

وذكر السُّدِّي بإسناده عن الصحابة[٤] : أن مريم دخلت يوماً على أختها فقالت لها أختها : أُشْعِرْتُ أَنّي حُبلى . فقالت مريم : وشعرتُ أيضاً أني حبلى ، فاعتنقتها وقالت لها أم يحيى إني أرى ما في بطني يَسجُد لما في بطنك ، وذلك قوله : ﴿ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ ومعنى السجود هاهنا الخضوع والتعظيم كالسجود عند المواجهة للسلام كما كان في شرع مَن قَبلنا ، وكما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم . وقال أبو القاسم : قال مالك : بلغني أن عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا ابنا خالة وكان حملهما جميعاً معاً فبلغني أن أم يحيى قالت لمريم : إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك . قال مالك : أرى ذلك

(١) تفسير الطبري (٢٨/ ١١٠) .
(٢) تفسير الطبري (١٦/ ٤٨) .
(٣) أورده الطبري في تفسيره (١٦/ ٤٩) .
(٤) ذكره الطبري في تفسيره (١٦/ ٤٨) .

لتفضيل عيسى عليه السلام ، لأن الله تعالى جعله يُحيي الموتى ، ويبرىء الأكمه والأبرص . رواه ابن أبي حاتم . وروي عن مجاهد قال : قالت مريم : كنت إذا خلوت حدّثني وكلّمني ، وإذا كنت بين الناس سبَّح في بطني .

ثم الظاهر أنها حملت به تسعة أشهر كما تحمل النساء ويضعن لميقات حملهن ووضعهن ، إذ لو كان خلاف ذلك لذكر .

وعن ابن عباس وعكرمة أنها حملت به ثمانية أشهر . وعن ابن عباس[١] ما هو إلا أن حملت به فوضعته . قال بعضهم حملت به تسع ساعات ، واستأنسوا لذلك بقوله : ﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ والصحيح أن تعقيب كل شيء بحسبه لقوله : ﴿ فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ [الحج : ٦٣] . وكقوله : ﴿ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٤] . ومعلوم أن بين كل حالين أربعين يوماً كما ثبت في الحديث المتفق عليه[٢] .

قال محمد بن إسحاق : ثم شاع أمرها[٣] واشتهر في بني إسرائيل أنها حامل ، فما دخل على أهل بيت ما دخل على آل زكريا . قال : واتهمها بعض الزنادقة بيوسف الذي كان يتعبَّد معها في المسجد ، وتوارت عنهم مريم واعتزلتهم وانتبذت مكاناً قصياً .

وقوله : ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ أي فألجأها واضطرها الطلق إلى جذع النخلة ، وهو بنص الحديث الذي رواه النسائي بإسنادٍ لا بأس به عن أنس مرفوعاً[٤] ، والبيهقي بإسنادٍ صححه[٥] عن شدّاد بن أوس مرفوعاً أيضاً بيت لحم[٦] الذي بنى عليه بعضُ ملوك الروم فيما بعد على ما سنذكره ، هذا البناء المشاهد الهائل ﴿ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتن[٧] ، وذلك أنها علمت أن الناس يتهمونها ولا يصدقونها ، بل يكذبونها حين تأتيهم بغلام على يدها

---

(١) أورده الطبري في تفسيره (١٦/ ٥٠) ، والقرطبي : (١١/ ٩٢) .

(٢) أخرجه البخاري رقم (٣٢٠٨) في بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة ، وص (٣٦٣) ، رقم (٣٣٣٢) في الأنبياء ، باب خلق آدم وذريته . ومسلم رقم (٢٦٤٣) في القدر ، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه .

(٣) في ط : شاع واشتهر .

(٤) السنن (١/ ٢٢٢) ، في أول أحاديث الصلاة ، وأوله عنده : « أُتيت بدابة فوق الحمار ودون البغل . . . » وأورده المؤلف في تفسيره (٣/ ١٥٠) . في تفسير قوله تعالى : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ .

(٥) في ط : وصححه . والحديث عنده في دلائل النبوة (٢/ ٣٥٥ ـ ٣٥٧) . وأوله عنده : قلنا يا رسول الله كيف أسري بك ؟ قال : « صليت لأصحابي صلاة العتمة . . . » .

(٦) وقيل غير ذلك . تفسير الطبري (١٦/ ٥٠) .

(٧) وقال في تفسيره (٣/ ١٢٣) (ط . دار المعرفة) : فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتنة ، فإنها عرفت أنها =

مع أنها قد كانت عندهم من العابدات الناسكات المجاورات في المسجد المنقطعات إليه المعتكفات فيه ومن بيت النبوة والديانة ، فحملت بسبب ذلك من الهم ما تمنت أن لو كانت ماتت قبل هذا الحال أو كانت ﴿ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ أي لم تخلق بالكلية .

وقوله : ﴿ فَنَادَىٰهَا مَنْ تَحْتَهَا ﴾ وقرئ ﴿ مِنْ تَحْتِها ﴾ على الخفض[١] ، وفي المضمر قولان : أحدهما أنه جبريل[٢] . قاله العَوْفيُّ عن ابن عباس قال : ولم يتكلّم عيسى إلا بحضرة القوم . وهكذا قال سعيد بن جبير وعمرو بن ميمون والضحاك والسدي وقتادة . وقال مجاهد والحسن وابن زيد وسعيد بن جبير في رواية : هو ابنها عيسى . واختاره ابن جرير[٣] .

وقوله : ﴿ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ أي ناداها قائلاً لها : لا تحزني ، قد جعل ربك تحتك سرياً . قيل : النهر ، وإليه ذهب الجمهور[٤] . وجاء فيه حديث رواه الطبراني لكنه ضعيف ، واختاره ابن جرير[٥] وهو الصحيح . وعن الحسن والربيع بن أنس وابن أسلم وغيرهما أنه ابنها . والصحيح الأول لقوله : ﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ فذكر الطعام والشراب ولهذا قال : ﴿ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ . ثم قيل : كان جذع النخلة يابساً وقيل كانت نخلة مثمرة فالله أعلم . ويحتمل أنها كانت نخلة لكنها لم تكن مثمرة إذ ذاك ، لأن ميلاده كان في زمن الشتاء وليس ذاك وقت ثمر ، وقد يفهم ذلك من قوله تعالى على سبيل الامتنان ﴿ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ . قال عمرو بن ميمون ليس شيء أجود للنفساء من التمر والرُّطَب ، ثم تلا هذه الآية[٦] .

وقال ابن أبي حاتم حدّثنا علي بن الحسين ، حدّثنا شيبان ، حدّثنا مسرور بن سعيد التميمي ، حدّثنا عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي عن عروة بن رويم ، عن علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله ﷺ : « أَكْرِمُوا عَمَّتَكمُ النخْلةَ فإنها خُلِقَتْ من الطّينِ الذي خُلِقَ مِنْهُ آدمُ ، ولَيْس مِنَ الشَّجَرِ شيءٌ يُلْقَحُ غيرَها » . وقال رسول الله ﷺ : « أَطْعِمُوا نِساءَكُم الوُلَّدَ الرُّطَبَ فإنْ لَمْ يَكُنْ رُطَبٌ فتَمْرٌ ،

= ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد ، ولا يصدقونها في خبرها ، وبعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة ، تصبح عندهم ـ فيما يظنون ـ عاهرة زانية ، فقالت : يا ليتني مت قبل هذا ، أي قبل هذا الحال .

(١) قرأ أبو عمرو وابن كثير ، وابن عامر ، وأبو بكر ﴿ مَن تحتها ﴾ بفتح الميم والتاء . وقرأ الباقون بكسر الميم والتاء حجة القراءات (٤٤١) .

(٢) عدد الطبري طائفة من أصحاب هذا القول . تفسيره (١٦/ ٥١ ـ ٥٢) .

(٣) تفسيره (١٦/ ٥٢) .

(٤) تفسير الطبري (١٦/ ٥٣) .

(٥) المصدر السابق (١٦/ ٥٤) .

(٦) ذكره الطبري في تفسيره (١٦/ ٥٥) .

وليسَ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةٌ أكرمَ على اللهِ مِنْ شَجَرةٍ نَزَلَتْ تَحْتَها مَرْيَمُ بنت عمران »[١] .

وكذا رواه أبو يعلى في « مسنده »[٢] عن شيبان بن فروخ ، عن مسروق بن سعيد ، وفي رواية مسرور بن سعد ، والصّحيح مسرور بن سعيد التميمي . وأورد له ابن عدي هذا الحديث عن الأوزاعي ، به ، ثم قال : وهو منكر الحديث ولم أسمع بذكره إلا في هذا الحديث . وقال ابن حبان[٣] : يروي عن الأوزاعي المناكير الكثيرة التي لا يجوز الاحتجاج بمن يرويها[٤] .

وقوله : ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ . وهذا من تمام كلام الذي نَادَاها من تحتها قال : ﴿ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا ﴾ أي فإن رأيت أحداً من الناس ﴿ فَقُولِيٓ ﴾ له أي بلسان الحال والإشارة : ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا ﴾ أي صَمتاً ، وكان من صومهم في شريعتهم ترك الكلام والطعام ، قاله قتادة والسُّدِّي وابنُ أسلم[٥] ويدل على ذلك قوله : ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ فأما في شريعتنا فيُكْرَه للصَّائِمِ صَمْتُ يَوْمٍ إلى الليل[٦] .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ۝٢٧ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ ذكر كثير من السّلف ممن ينقل عن أهل الكتاب أنّهم لما افتقدوها من بين أظهرهم ذهبوا في طلبها ، فمروا على محلّتها والأنوار حولها ، فلما واجهوها وجدوا معها ولدها ، فقالوا لها : ﴿ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾ أي أمْراً عظيماً منكراً . وفي هذا الذي قالوه نظر مع أنه كلام ينقض أوّلَهُ آخرُه ، وذلك لأن ظاهر سياق القرآن العظيم يدل على أنها حملته بنفسها وأتت به قومها وهي تحمله . قال ابن عباس : وذلك بعد ما تعلت من نفاسها بعد أربعين يوما[٧] .

---

(١) وأخرجه ابن حبان في المجروحين (٣/ ٤٤ ـ ٤٥) . مع خلاف يسير في اللفظ .
وأورد الحديثين متصلين السيوطي في الجامع الصغير (١/ ١٨٢ ـ ١٨٣) . وضعفه .

(٢) مسند أبي يعلى : (١/ ٣٥٣) ، رقم (٤٥٥) .

(٣) الكامل في الضعفاء (٦/ ٢٤٢٥) .

(٤) المجروحين (٣/ ٤٤) .

(٥) وقاله غيرهم أيضاً . تفسير الطبري (١٦/ ٥٦ ـ ٥٧) .

(٦) قال القرطبي في تفسيره (١١/ ٩٨) : ذلك لا يجوز في شرعنا لما فيه من التضييق وتعذيب النفس، كنذر القيام في الشمس ونحوه، وعلى هذا كان نذر الصمت في تلك الشريعة لا في شريعتنا . . وقد أمر ابن مسعود من فعل ذلك بالنطق بالكلام، وهذا هو الصحيح، لحديث أبي إسرائيل . . . ومن سنتنا نحن في الصيام الإمساك عن الكلام القبيح، قال عليه الصلاة والسلام : إذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل ، فإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل : إني صائم.
وحديث أبي إسرائيل رواه البخاري عن ابن عباس قال: بينا رسول الله ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم. فسأل عنه. فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم، ويصوم، فقال رسول الله ﷺ: « مُرْهُ فليتكلّم وليستظل، وليقعد، وليتم صومهُ » فتح الباري: (١١/ ٥٨٦)، رقم (٦٧٠٤) في الأيمان والنذور، باب النذر فيما لا يملك وفي المعصية.

(٧) وهو ما قاله أيضاً ابن الكلبي . تفسير القرطبي (١١/ ٩٩) .

والمقصود أنهم لما رأَوها تحملُ معها ولدها ﴿ قَالُواْ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾ والفرْيَةُ : هي الفعْلَةُ المنكرة العظيمة من الفعال والمقال[١] . ثم قالوا لها : ﴿ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ ﴾ قيل[٢] : شَبَّهُوها بعابدٍ من عُبَّادِ زمانهم كانت تُساميه في العبادة ، وكان اسمه هارون . وقيل : شبَّهوها برجل فاجرٍ في زمانهم اسمه هارون ، قاله سعيد بن جبير . وقيل : أرادوا بهارون أخا موسى ، شبَّهوها به في العبادة . وأخطأ محمد بن كعب القرظي في زعمه أنها أخت موسى وهارون نسباً ، فإن بينهما من الدهور الطويلة ما لا يخفى على أدنى من عنده من العلم مايرده عن هذا القول الفظيع ، وكأنه غره أن في التوراة أن مريم أخت موسى وهارون ضربت بالدف يوم نجّا اللهُ موسى وقومَه وأغرق فرعونَ وملأه ، فاعتقد أن هذه هي هذه ، وهذا في غاية البُطْلان والمخالفة للحديث الصحيح مع نص القرآن كما قررناه في « التفسير »[٣] مطولاً . ولله الحمد والمنة .

وقد ورد الحديث الصحيح الدال على أنه قد كان لها أخ[٤] اسمه هارون وليس في ذكر قصّة ولادتها وتحرير أمّها لها ما يدلّ على أنها ليس لها أخ سواها والله أعلم .

قال الإمام أحمد[٥] : حدّثنا عبد الله بن إدريس ، سمعت أبي يذكره عن سماك ، عن علقمة بن وائل ، عن المغيرة بن شعبة[٦] قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران ، فقالوا : أرأيت ما تقرؤون ﴿ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ ﴾ ، وموسى قبلَ عيسى بكذا وكذا ؟! قال : فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « أَلَا أَخبَرْتَهُمْ أَنَّهُم كَانُوا يُسَمّونَ بِالأَنْبِياءِ والصَّالِحِيْنَ قَبْلَهُمْ » .

وكذا رواه مسلم[٧] ، والنسائي[٨] ، والترمذي[٩] من حديث عبد الله بن إدريس ، وقال الترمذي : حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديثه .

---

(١) في اللسان (فرا) : الفَرِيُّ : الأمر العظيم . . مفردات الراغب الأصبهاني (٣٩٣) . وتفسير الطبري (١٦/ ٥٨) .
(٢) أورد الطبري معظم ما قيل في تفسير هذه الآية (١٦/ ٥٨ ـ ٥٩) .
(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ١١٩) . والحديث الذي استدل به ابن كثير في التفسير ، قوله ﷺ : « أنا أولى الناس بابن مريم لأنه ليس بيني وبينه نبي » . وتقدم تخريج هذا الحديث (ص٢٠٦) ، (ت١٤) .
(٤) كذا في ب وط . وفي أ : على أن لها أخ . وفيه خطأ نحوي بيّن .
(٥) المسند (٤/ ٢٥٢) .
(٦) زاد في ب : عن علي ، وليست ثابتةً في مسند أحمد هذه الزيادة .
(٧) صحيح مسلم رقم (٢١٣٥) في الآداب ، باب النهي عن التكني بأبي القاسم وبيان ما يستحب من الأسماء .
(٨) في تفسيره (٣٥٥) وهو في الكبرى (١١٣١٥) .
(٩) رقم (٣١٥٥) في تفسير القرآن ، باب ومن سورة مريم .

وفي رواية : « ألا أخبرتهم أنهم كانوا يتسمون بأسماء صالحيهم وأنبيائهم » .

وذكر قتادة وغيره أنهم كانوا يكثرون من التسمية بهارون ، حتى قيل : إنه حضر بعض جنائزهم بشرٌ كثير منهم ممن يُسمى بهارون ، أربعون ألفاً[١] . فالله أعلم .

والمقصود أنهم قالوا : ﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ ﴾ ودلّ الحديث على أنها قد كان لها أخ نَسَبي اسمه هارون ، وكان مشهوراً بالدين والصلاح والخير ، ولهذا قالوا : ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴾ أي لستِ من بيتٍ هذا شيمتهم ولا سجيتهم ، لا أخوك ولا أمك ولا أبوك ، فاتهموها بالفاحشة العظمى ، ورمَوها بالداهية الدهياء . فذكر ابن جرير في تاريخه[٢] أنهم اتهموا بها زكريا وأرادوا قتله ففر منهم ، فلحقوه وقد انشقت له الشجرة فدخلها وأمسك إبليس بطرف ردائه ، فنشروه فيها كما قدمنا . ومن المنافقين من اتهمها بابن خالها يوسف بن يعقوب النجار .

فلما ضاق الحال وانحصر المجال وامتنع المقال ، عظم التوكل على ذي الجلال ، ولم يبق إلا الإخلاص والاتّكال ﴿ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ ﴾ أي : خاطبوه وكلّموه ، فإنَّ جوابَكم عليه وما تبغون من الكلام لديه . فعندها ﴿ قَالُواْ ﴾[٣] مَن كان منهم جباراً شقياً : ﴿ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴾ أي : كيف تحيلينا[٤] في الجواب على صبي صغير لا يعقل الخطاب ، وهو مع ذلك رضيع في مهده ولا يميز بين محض المخض وزبده ، وما هذا منك إلا على سبيل التهكم بنا والاستهزاء والتنقُّص لنا والازدراء ، إذاً لا تردّين علينا قولاً نطقياً ، بل تحيلين في الجواب على من كان في المهد صبياً ، فعندها ﴿ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ۝٣١ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ۝٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴾ . وهذا أولُ كلامٍ تفوه به عيسى بن مريم ، فكان أوّل ما تكلّم به أن ﴿ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ﴾ اعترف لربه سبحانه وتعالى بالعبودية ، وأن الله ربّه ، فنزه جناب الله عن قول الظالمين في زعمهم أنه ابن الله ، بل هو عبدُه ورسولُه وابنُ أَمَته ، ثم برَّأ أُمه مما نسبها إليه الجاهلون وقذفوها به ورمَوْها بسببه بقوله : ﴿ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴾ فإن الله تعالى لا يعطي النبوةَ من هو كما زعموا ـ لعنهم الله وقبّحهم ـ كما قال تعالى : ﴿ وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا ﴾ [النساء : ١٥٦] وذلك أن طائفة من اليهود في ذلك الزمان قالوا : إنها حملت به من زِنى في زمن الحيض ـ لعنهم الله ـ فبرَّأها الله من ذلك ، وأخبر عنها أنها صِدّيقة ، واتخذ ولدها نبياً مرسلاً أحدَ أولي العزم

---

(١) اختصر ابن كثير الخبر هنا ، وقد نقله كاملاً في تفسيره (٣/ ١١٩) عن تفسير الطبري (١٦/ ٥٨) ، وفيه أن من خرج في جنازة هارون الرجل الصالح ممن يسمون هارون يبلغ عددهم (٤٠) ألفاً .

(٢) (١/ ٦٠٠) .

(٣) كذا في ب وط . وهو لفظ الآية وأشبه أن يُثْبَت هاهنا . وفي أ : قال .

(٤) في أ وب وط : تحيلينا . وفي ب : على الجواب .

الخمسة[1] الكبار ، ولهذا قال : ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ وذلك أنه حيث كان دعا إلى عبادة الله وحدَه لا شريك له ، ونزّه جنابه عن النقص والعيب من اتخاذ الصاحبة والولد تعالى وتقدّس ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ وهذه وظيفة العبيد في القيام بحق العزيز الحميد بالصلاة والإحسان إلى الخليقة بالزكاة ، وهي تشمل طهارة النفوس من الأخلاق الرذيلة ، وتطهر الأموال الجزيلة بالعطية للمحاويج[2] على اختلاف الأصناف وقِرى الأضياف والنفقات على الزوجات والأرقاء والقرابات ، وسائر وجوه الطاعات وأنواع القُرُبات .

ثم قال : ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ أي : وجعلني براً بوالدتي وذلك أنه تأكّد حقها عليه لمحض جهتها ، إذ لا والد له سواها ، فسبحان من خلق الخليقة وبرأها ، وأعطى كلّ نفس هداها .

﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ أي لستُ بِفَظٍّ ولا غليظ ، ولا يصدر مني قولٌ ولا فعلٌ ينافي أمر الله وطاعته .

﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ . وهذه الأماكن[3] الثلاثة التي تقدّم الكلام عليها في قصة يحيى بن زكريا عليهما السلام .

ثمّ لما ذكر تعالى قصّته على الجلية ، وبيّن أمرَه ووضّحه وشرحه قال : ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ . كما قال تعالى بعد ذكر قصته وما كان من أمره في آل عمران : ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ [٥٨ - ٦٣] . ولهذا لما قَدِم وفد نجران[4] وكانوا ستينَ راكباً يرجع أمرُهم إلى أربعة عشر منهم ، ويؤول أمر الجميع إلى ثلاثة هم أشرافهم وساداتهم ، وهم العاقب والسّيد وأبو حارثة بن علقمة ، فجعلوا يناظرون في أمر المسيح ، فأنزل الله صدر سورة آل عمران في ذلك ، وبين أمر المسيح وابتداء خلقه وخلق أُمه من قبله ، وأمر رسوله بأن يباهِلَهم[5] إن لم يستجيبوا له ويتبعوه ، فلما رأوا عينيها وأذنيها نكلوا ونكصوا وامتنعوا عن المباهلة وعدلوا إلى المسالمة والموادعة ، وقال قائلهم ، وهو العاقب

---

(١) ليست في ب . وأولو العزم من الرسل هم : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد عليهم السلام .

(٢) المحاويج : جمع مُحْوِج وهو المعدم .

(٣) في ب : المواطن .

(٤) سيأتي تفصيل الحديث عن وفد نجران في الجزء الخامس ، باب الوفود .

(٥) المباهلة : الملاعنة ، وهو أن يجتمع القوم إذ اختلفوا في شيء فيقولوا لعنة الله على الظالم منا .

عبد المسيح : يا معشر النصارى لقد علمتم أن محمداً لنبي مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم أنه ما لاعَنَ قومٌ نبياً قط فبقي كبيرهم ولا نَبَت صغيرهم ، وإنها للاستئصال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم قد أبيتم إلّا إلفَ دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم ، فوادِعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم . فطلبوا ذلك من رسول الله ﷺ ، وسألوه أن يضرب عليهم جزية ، وأن يبعث معهم رجلاً أميناً ، فبعث معهم أبا عبيدة بن الجرَّاح . وقد بينا ذلك في تفسير آل عمران[1] وسيأتي بسط هذه القضية في السيرة النبوية[2] إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة .

والمقصود أن الله تعالى لما بين أمر المسيح قال لرسوله : ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ يعني من أنه عبد مخلوق ، من امرأة من عباد الله ، ولهذا قال : ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ أي لا يُعجزه شيء ، ولا يكربه[3] ولا يؤوده ، بل هو القدير الفعّال لما يشاء ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ هو من تمام كلام عيسى لهم في المهد ، أخبرهم أن الله ربُّه وربُّهم وإلَهُهُ وإلَهُهُم ، وأن هذا هو الصراط المستقيم .

قال الله تعالى : ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي : فاختلف أهل ذلك الزمان[4] ومَنْ بَعدهم فيه ، فمن قائل من اليهود : إنه ولد زنية ، واستمروا على كفرهم وعنادهم ، وقابلهم آخرون في الكفر فقالوا : هو الله . وقال آخرون : هو ابن الله . وقال المؤمنون : هو عبد الله ورسوله وابن أَمَتِه وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، هؤلاء هم الناجون المثابون المؤيَّدُون المنصورون ، ومَنْ خالفهم في شيء من هذه القيود فهم الكافرون الضالّون الجاهلون ، وقد توعَّدهم العلي العظيم الحكيم العليم بقوله : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

قال البخاري : حدّثنا صدقة بن الفضل ، حدّثنا الوليد ، حدّثنا الأوزاعي ، حدّثني عمير بن هانىء ، حدّثني جُنادة بن أبي أمية ، عن عبادة بن الصامت ، عن النبي ﷺ قال : « مَنْ شَهِد أنْ لا إلهَ إلاّ الله وحدَه لا شَرِيْكَ له ، وأن محمداً عبدُه ورَسُوْلُهُ ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته[5] ألقاها إلى

---

(١) في تفسيره (١/ ٣٦٨) .
(٢) في الجزء الخامس من هذا الكتاب .
(٣) كذا في ب . وفي أ وط : يكترثه .
(٤) تفسير الطبري (١٦/ ٦٤ ـ ٦٥) .
(٥) في ب : وأن عيسى روح الله وكلمته .

مريم ورُوحٌ منه ، والجنةُ حقٌّ ، والنارُ حقٌّ ، أدخله الله الجنةَ على ما كان من العمل »[١] . قال الوليد : فحدّثني عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن عمير عن جنادة ، وزاد : « من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء » .

وقد رواه مسلم[٢] عن داود بن رُشَيْد عن الوليد عن ابن جابر به . ومن طريق أخرى عن الأوزاعي به .

* * *

(١) أخرجه البخاري رقم (٣٤٣٥) ، في الأنبياء ، باب قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ ﴾ . وقول الوليد الآتي من تتمة رواية البخاري وسيكرره في الصفحة (٢٨٩) ، ت (٩) .

(٢) صحيح مسلم رقم (٢٨) في الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً .

باب بَيان أنّ الله تعالى منزّه عن الولد تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً[(١)]

قال تعالى في آخر هذه السورة : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾ أي : شيئاً عظيماً ومنكراً من القول وزوراً ﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم : ٨٨ ـ ٩٥] .

فبيّن أنّه تعالى لا ينبغي له الولد ؛ لأنه خالق كلِّ شيءٍ ومالكه ، وكلّ شيء فقير إليه ، خاضعٌ ذليلٌ لديه ، وجميع سكان السماوات والأرض عبيدُه ، وهو ربّهم ، لا إلّه إلا هو ، ولا رب سواه ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام : ١٠٠ ـ ١٠٣] .

فبين أنه خالق كلّ شيء ، فكيف يكون له ولد ، والولد لا يكون إلا بين شيئين متناسبين ، والله تعالى لا نظير له ولا شبيه له ولا عديل له ، ولا صاحبة له فلا يكون له ولد كما قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ تقرر أنه الأحد الذي لا نظير له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ﴿ الصَّمَدُ ﴾ وهو السيد الذي كمل في علمه وحكمته ورحمته وجميع صفاته ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ أي لم يوجد منه ولد ، ﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ أي : ولم يتولّد عن شيء قبله ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ أي وليس له عديلٌ ولا مكافىءٌ ولا مساوٍ ، فقطع النظير المدني والأعلى والمساوي ، فانتفى أن يكون له ولد ، إذ لا يكون الولد إلا متولّداً بين شيئين متعادلين أو متقاربين وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وقال تبارك وتعالى وتقدّس : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۘ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ

---

(١) هذه العبارة ليست في ط .

إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء : ١٧١ ـ ١٧٣] .

يَنْهى تعالى أهل الكتاب ومن شابههم عن الغلوّ والإطراء في الدين ، وهو مجاوزة الحدّ ، فالنصارى ـ لعنهم الله[١] ـ غلوا وأطروا المسيح حتى جاوزوا الحدّ ، فكان الواجب عليهم أن يعتقدوا أنه عبد الله ورسوله وابن أمته العذراء البتول التي أحصنت فرجها ، فبعث الله الملك جبريل إليها فنفخ فيها عن أمر الله نفخةً حملت منها بولدها عيسى عليه السلام ، والذي اتصل بها من الملك هي الروح المضافة إلى الله إضافةَ تشريف وتكريم ، وهي مخلوقة من مخلوقات الله تعالى ، كما يقال : بيت الله ، وناقة الله ، وعبد الله ، وكذا روح الله ، أضيفت إليه تشريفاً لها وتكريماً . وسمي عيسى بها لأنه كان بها من غير أب ، وهي الكلمة أيضاً التي عنها تخلَّق[٢] ، وبسببها وجد كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٥٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة : ١١٦ ـ ١١٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٠] .

فأخبر تعالى أن اليهود والنصارى ـ عليهم لعائن الله ـ كلٌّ من الفريقين ادّعَوا على الله شططاً ، وزعموا أن له ولداً ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، وأخبر أنهم ليس لهم مستندٌ فيما زعموه ولا فيما ائتفكوه إلاّ مجرّد القول ومشابهة من سبقهم إلى هذه المقالة الضالة ، تشابهت قلوبهم ، وذلك أن الفلاسفة ـ عليهم لعنة الله ـ زعموا أن العقل الأول صَدَر عن واجب الوجود الذي يعبّرون عنه بعلّة العلل والمبدأ الأول ، وأنه صدر عن العقل الأول عقل ثان ونفس وفلك ، ثمّ صدر عن الثاني كذلك ، حتى تناهت العقول إلى عشرة والنفوس إلى تسعة ، والأفلاك إلى تسعة ، باعتبارات فاسدة ذكروها واختيارات باردة أوردوها ، ولبسط الكلام معهم وبيان جهلهم وقلة عقلهم موضع آخر . وهكذا طوائف من مشركي العرب زعموا لجهلهم[٣] أن الملائكة بنات الله ، وأنه صاهر سروات الجن فتولّد منهما الملائكة ، تعالى الله عما يقولون وتنزّه عما يشركون ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف : ١٩] .

---

(١) في ب : عليهم لعائن الله تعالى .
(٢) في ط : خلق .
(٣) في ب : بجهلهم .

وقال تعالى : ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِنَـٰثًا وَهُمْ شَـٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَـٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الصافات : ١٤٩ ـ ١٦٠] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٢٦ ـ ٢٩] .

وقال تعالى في أول سورة الكهف ، وهي مكية : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِـَٔابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ [١ ـ ٤] .

وقال تعالى : ﴿ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بِهَـٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَـٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس : ٦٨ ـ ٧٠] .

فهذه الآيات المكّيات[1] الكريمات تشمل الردّ على سائر فرق الكَفَرة من الفلاسفة ومشركي العرب واليهود والنصارى الذين ادّعوا وزعموا ، بلا علم ، أن لله ولداً ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون المعتدون علوّاً كبيراً .

ولما كانت النصارى ـ عليهم لعنة الله المتتابعة إلى يوم القيامة ـ من أشهر من قال بهذه المقالة ، ذُكِروا في القرآن كثيراً للردّ عليهم ، وبيان تناقضهم ، وقلّة علمهم ، وكثرة جهلهم ، وقد تنوعت أقوالهم في كفرهم ، وذلك أن الباطل كثير التشعب والاختلاف والتناقض ، وأما الحق فلا يختلف ولا يضطرب . قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] . فدلّ على أن الحق يتّحد ويتّفق، والباطل يختلف ويضطرب. فطائفة من ضُلاَّلهم وجُهَّالهم زعموا أن المسيح هو الله ـ تعالى الله[2] ـ وطائفة قالوا : هو ابن الله ـ عزّ الله ـ وطائفة قالوا : هو ثالث ثلاثة ـ جل الله ـ . قال الله تعالى في سورة المائدة : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ

---

(١) ليست في ب . والآيات ، كما قال ، مكيات .

(٢) ليست في ب وط .

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة : ١٧] .

فأخبر تعالى عن كفرهم وجهلهم ، وبيّن أنه الخالق القادر على كلّ شيء ، المتصرّف في كلّ شيء ، وأنه ربُّ كلّ شيء ومليكه وإلٰهه . وقال في أواخرها : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المائدة : ٧٢ ـ ٧٥] .

حكم تعالى بكفرهم شرعاً وقَدراً ، فأخبر أن هذا صَدَرَ مِنهم مع أنّ الرسول إليهم وهو عيسى بن مريم قد بيّن لهم أنه عبدٌ مَرْبُوبٌ مخلوقٌ مُصَوَّرٌ في الرحم ، داع إلى عبادة الله وحدَه لا شريكَ له ، وتوعَّدَهم على خلاف ذلك بالنار وعدم الفوز بدار القرار والخزي في الدار الآخرة والهوان والعار[1] ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ . ثم قال سبحانه وتعالى : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ . قال ابن جرير[2] وغيره : المراد بذلك قولهم بالأقانيم[3] الثلاثة . أقنوم الأب ، وأقنوم الابن ، وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن ، على اختلافهم في ذلك ما بين الملكية واليعقوبية والنسطورية ـ عليهم لعائن الله ـ كما سنبين كيفية اختلافهم في ذلك ، ومجامعهم الثلاثة في زمن قسطنطين بن قسطس ، وذلك بعد المسيح بثلاثمئة سنة ، وقبل البعثة المحمدية بثلاثمئة سنة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ أي وما من إلٰه إلّا الله وحدَه لا شريك له ولا نظير له ولا كفء له ولا صاحبة له ولا ولد . ثمّ توعّدهم وتهدّدهم[4] فقال : ﴿ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ثم دعاهم برحمته ولُطْفه إلى التوبة والاستغفار من هذه الأمور الكبار والعظائم التي توجب النار فقال : ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ثُمَّ بَيَّنَ حَالَ المسيح وأمّه ، وأنه عبدٌ رسولٌ ﴿ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ﴾ أي : ليست بفاجرة كما يقوله اليهود ـ لعنهم الله ـ وفيه دليلٌ على أنها ليست بنبيّة كما زعمه طائفة من علمائنا ، وقوله : ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ﴾ كناية عن خروجه منهما كما يخرج من غيرهما ، أي ومَنْ كان بهذه المثابة كيف يكون إلٰهاً ، تعالى الله عن قولهم وجهلهم علواً كبيراً . وقال

---

(١) قوله : والهوان والعار ؛ ليس في ب .

(٢) تفسير الطبري (٦/٢٠٢) .

(٣) الأقانيم : الأصول . واحدها أُقنوم . قال الجوهري : وأحسبها رومية . . نقله في اللسان .

(٤) في ب : وهددهم .

السُّدِّي[١] وغيرُه : المراد بقوله : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ زعْمُهُم في عيسى وأمه أنهما إلٰهان[٢] مع الله ، يعني كما بيّن تعالى كفرَهم في ذلك بقوله في آخر هذه السورة الكريمة ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة : ١١٦ ـ ١١٨] .

يخبر تعالى أنه يسأل عيسى ابنَ مريمَ يوم القيامة على سبيل الإكرام له والتقريع والتوبيخ لعابديه ممن كذَّب عليه وافترى وزعم أنه ابن الله ، أو أنه الله أو شريكه ، تعالى الله عما يقولون ، فيسأله ـ وهو يعلم ـ أنه لم يقعْ منه ما يسأله عنه ، ولكنْ لتوبيخ من كذبَ عليه ، فيقول له : ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ ﴾ أي : تعاليت[٣] أن يكون معك شريك . ﴿ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ ﴾ أي ليس هذا يستحقه أحدٌ سواك ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ . وهذا تأدُّبٌ عظيمٌ في الخطاب والجواب ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ ﴾[٤] حين أرسلتني إليهم وأنزلت عليَّ الكتاب الذي كان يُتلى عليهم .

ثم فسّر ما قال لهم بقوله : ﴿ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ ﴾ أي : خالقي وخالقكم ، ورازقي ورازقكم ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي ﴾ أي : رفعتني إليك حين أرادوا قتلي وصلبي ، فرحمتني وخلّصتني منهم ، وألقيتَ شَبَهي على أحدهم ، حتى انتقموا منه ، فلما كان ذلك ﴿ كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

ثمّ قال على وجه التفويض إلى الربّ عزّ وجلّ والتبرّي من أهل النصرانية : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ ﴾ أي : وهُمْ يستحقون ذلك ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ . وهذا التفويض والإسناد إلى المشيئة بالشرط لا يقتضي وقوعَ ذلك ، ولهذا قال : ﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ولم يقل الغفور الرحيم .

وقد ذكرنا في « التفسير »[٥] ما رواه الإمام أحمد عن أبي ذَرٍّ أنَّ رسول الله ﷺ قام بهذه الآية الكريمة ليلةً حتى أصبح : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ وقال : « إني سألت ربي

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣) .
(٢) في ط : الإلاهان .
(٣) في ب : عن أن .
(٤) زاد في ب : أي ما قلت غير ما أمرتني به .
(٥) تفسير ابن كثير (٢/ ١٢١) .

عزَّ وجلَّ الشفاعةَ لأمتي فأعطانيها ، وهي نائلةٌ إن شاء الله تعالى لمن لا يشرك بالله شيئاً »[(١)] .

وقال : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝١٦ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝١٧ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ۝١٨ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٦ ـ ٢٠] .

وقال تعالى : ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٤ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴾ [الزمر : ٤ ـ ٥] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ۝٨١ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الزخرف : ٨١ ـ ٨٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ [الإسراء : ١١١] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ .

وثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يقول الله تعالى : شتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، يزعم أن لي ولداً وأنا الأحد الصمدُ الذي لم ألدْ ولم أُولدْ ولم يكن لي كفواً أحد »[(٢)] .

وفي الصحيح أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا أحد أصبرُ على أذى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم »[(٣)] .

ولكن ثبت في الصحيح أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ، ثم قرأ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[(٤)] [هود : ١٠٢] .

---

(١) الحديث في مسند أحمد (٥/ ١٤٩) .

(٢) الحديث بتمامه في البخاري رقم (٤٩٧٤) و(٤٩٧٥) ، في التفسير ، باب تفسير سورة الإخلاص . والنسائي (٤/ ١١٢) ، ومسند أحمد (٢/ ٣١٧ ، ٣٥٠) . من طريق أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه البخاري رقم (٦٠٩٩) ، في الأدب ، باب الصبر في الأذى ، ورقم (٧٣٧٨)في التوحيد ، باب قول الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ ، ومسلم (٢٨٠٤) في المنافقين ، باب لا أحد أصبر على أذى ، من الله عز وجل ، وأحمد (٤/ ٣٩٥ ، ٤٠١ ، ٤٠٥) . وفي لفظه اختلاف يسير عما هنا .

(٤) أخرجه البخاري رقم (٤٦٨٦) ، في التفسير ، (تفسير سورة هود) ، باب ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ ﴾ ، ومسلم (٢٥٨٣) في البر والصلة ، باب تحريم الظلم ، والترمذي (٣١١٠) في التفسير ، باب ومن سورة هود ، وابن ماجه (٤٠١٨) ، في الفتن ، باب العقوبات . وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب . . .

وهكذا قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ [الحج : ٤٨] .

وقال تعالى : ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان : ٢٤] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس : ٦٩ ـ ٧٠] .

وقال تعالى : ﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ [الطارق : ١٧] .

* * *

ذكر منشأ عِيسى ابن مريم عليهما السّلام
ومرباه في صغره وصباه وَبيان بدء الوحي إليه من الله تعالى[١]

قد تقدم أنه وُلد ببيت لحم[٢] قريباً من بيت المقدس . وزعم وهْب بن منبّه أنه ولد بمصر ، وأن مريم سافرت هي ويوسف بن يعقوب النجار وهي راكبة على حمار ليس بينها وبين الإكاف[٣] شيء . وهذا لا يصح . والحديث[٤] الذي تقدم ذكره دليل على أن مولده كان ببيت لحم كما ذكرنا ، ومهما عارضه فباطلٌ .

وذكر وهب بن منبه أنه لما وُلد خَرَّتِ الأصنام يومئذٍ في مشارق الأرض ومغاربها ، وأن الشياطين حارت في سبب ذلك حتى كَشَف لهم إبليس الكبير أمرَ عيسى ، فوجده في حجر أمه والملائكة مُحدقة به[٥] ، وأنه ظهر نجم عظيم في السماء ، وأن ملك الفرس أشفق من ظهوره ، فسأل الكهنةَ عن ذلك فقالوا : هذا لمولدِ عظيمٍ في الأرض ، فبعث رُسُلَه ومعهم ذهب ومرٌّ ولبان[٦] هدية إلى عيسى ، فلما قدموا الشام سألهم ملكها عمّا أقدمهم ، فذكروا له ذلك ، فسأل عن ذلك الوقت ، فإذا قد ولد فيه عيسى ابن مريم ببيت المقدس واشتهر أمره بسبب كلامه في المهد ، فأرسلهم إليه بما معهم وأرسل معهم من يعرفه له ليتوصل إلى قتله إذا انصرفوا عنه . فلما وصَلوا إلى مريم بالهدايا ورجعوا قيل لها : إن رسل ملك الشام إنما جاؤوا ليقتلوا ولدك فاحتملته فذهبت به إلى مصر فأقامت به حتى بلغ اثنتي عشرة سنةً ، وظهرت عليه كرامات ومعجزات في حال صغره[٧] .

فذكر منها أن الدهقان الذي نزلوا عنده افتقد مالاً من داره ، وكانت داره لا يسكنها إلا الفقراء والضعفاء والمحاويج ، فلم يدر من أخذه ، وعزَّ ذلك على مريم عليها السلام ، وشَقّ على الناس وعلى

---

(١) العنوان في ط : منشأ عيسى بن مريم عليهما السلام وبيان بدء الوحي إليه من الله تعالى .

(٢) صفحة (١٦٨) .

(٣) تاريخ الطبري (١/ ٥٩٥) . والإكاف : برذعة الحمار .

(٤) في ب : والذي . والحديث المتقدم ص (٢٤٣) . في ذكر ميلاد عيسى عليه السلام .

(٥) كذا في ط . وفي أ : تحدقه . وفي ب : تحدقها . وفي تاريخ الطبري أن إبليس رأى الملائكة محدقين بذلك المكان .

(٦) في تاريخ الطبري : أن حملة الهدايا مرُّوا بملك من ملوك الشام ، فسألهم عن معنى هذه الهدية فقالوا : تلك أمثاله : لأن الذهب هو سيد المتاع كله ، وكذلك هذا النبي هو سيد أهل زمانه . ولأن المر يُجْبَرُ به الجرح والكسر ، وكذلك هذا النبي يشفي به الله كل سقيم ومريض . ولأن اللبان ينال دخانه السماء ولا ينالها دخان غيره ، كذلك هذا النبي يرفعه الله إلى السماء لا يُرفع في زمانه أحد غيره .

(٧) تاريخ الطبري (١/ ٥٩٥) ، وما بعدها .

رب المنزل ، وأعياهم أمرها ، فلما رأى عيسى ـ عليه السلام ـ ذلك عمد إلى رجل أعمى وآخر مُقْعَد من جُملة من هو منقطع إليه ، فقال للأعمى : احمل هذا المقعد وانهض به . فقال : إني لا أستطيع ذلك . فقال : بلى ، كما فعلت أنت وهو حين أخذتما هذا المال من تلك الكُوَّة من الدار . فلما قال ذلك صدقاه فيما قال ، وأتيا بالمال ، فَعَظُم عيسى في أعين الناس وهو صغير جداً[١] .

ومن ذلك أن ابن الدهقان عمل ضيافةً للناس بسبب طهور أولاده ، فلما اجتمع الناس وأطعمهم ثمّ أراد أن يسقيهم شراباً ، يعني خمراً كما كانوا يصنعون في ذلك الزمان ، لم يجد في جِراره شيئاً ، فشق ذلك عليه ، فلما رأى عيسى ذلك منه قام فجعل يمرُّ على تلك الجرار ويمرُّ يَده على أفواهها ، فلا يفعل بجرة منها ذلك إلا امتلأت شراباً من خيار الشراب . فتعجّب الناس من ذلك جداً وعظّموه وعرضوا عليه وعلى أمه مالاً جزيلاً فلم يقبلاه ، وارتحلا قاصدين[٢] بلاد بيت المقدس[٣] . والله أعلم .

وقال إسحاق بن بشر : أخبرنا عثمان بن ساج[٤] وغيره عن موسى بن وَرْدان ، عن أبي نَضْرة ، عن أبي سعيدٍ ، وعن مكحول عن أبي هريرة قال : إن عيسى ابن مريم[٥] أول ما أطلق الله لسانه بعد الكلام الذي تكلّم به وهو طفل فمجّد الله تمجيداً لم تسمع الآذان بمثله ، لم يَدَع شمساً ولا قمراً ولاجبلاً ولا نهراً ولا عيناً إلا ذكره في تمجيده فقال : اللهم أنت القريب في علوّك ، المتعال في دُنُوِّكَ ، الرفيع على كلّ شيءٍ من خلقك . أنت الذي خَلَقتَ سبعاً في الهواء بكلماتك ، مستوياتٍ طباقاً ، أَجَبْنَ ، وهُنَّ دخانٌ من فَرَقك[٦] فأتَيْنَ طائعات لأمرك ، فيهن ملائكتُكَ يسبّحون قُدْسَك لتقديسك ، وجعلت فيهن نوراً على سواد الظلام وضياءً من ضوء الشمس بالنهار ، وجعلت فيهن الرعد المسبِّح بالحمد ، فبعزَّتك يجلو ضوءُ ظلمتك . وجعلت فيهن مصابيح يَهتدِي بهنّ في الظلمات الحيرانُ ، فتباركت اللهم في مفطور سماواتك ، وفيما دَحَوْتَ من أرضك . دحوتها على الماء فسمكتها على تيّار الموج الغامر ، فأذللتها إذلال التظاهر[٧] فذلَّ لطاعتك صعبها واستحيى لأمرك أمرُها ، وخضعت لعزتك أمواجُها ، ففجَّرْتَ فيها بعد البحور الأنهار ، ومن بعد الأنهار الجداول الصغار ، ومن بعد الجداول ينابيع العيون الغزار . ثمّ أخرجت منها الأنهار والأشجار والثمار ، ثمّ جعلت على ظهرها الجبال فوتدتها أوتاداً على ظهر الماء ، فأطاعت

(١) أورد الطبري الخبرين أكثر تفصيلاً (١/ ٥٩٧ ـ ٥٩٨) .
(٢) ليست في ب وط .
(٣) الخبر في تاريخ الطبري (١/ ٥٩٨) .
(٤) عثمان بن عمرو بن ساج ، وقد ينسب إلى جده . قال ابن حجر في التقريب (٢/ ١٣) : فيه ضعف .
(٥) ليست في ب .
(٦) الفَرَق : الفزع .
(٧) في ب : الموج المتغاير . . . . إذلال الماء المتظاهر .

أطوادها وجلمودها[١] ، فتباركت اللهمّ ، فمن يبلغ بنعْته نعتَك ، أم من يبلغ بصفته صفتك ، تنشىء[٢] السحاب ، وتفكُّ الرقاب ، وتقضي الحق وأنت خير الفاصلين . لا إلّه إلا أنت ، سبحانك أمرتَ أن نستغفر من كلّ ذنب ، لا إلّه إلا أنت ، سبحانك استترت بالسموات عن الناس . لا إلّه إلا أنت سبحانك إنما يخشاك من عبادك الأكياس . نشهد أنّك لست بإلّه استحدثناك ، ولا رب يبيد ذكره ، ولا كان معك شركاء يقضون معك فندعوهم ونَذَرُك[٣] ، ولا أعانك على خلقنا أحد فنشكّ فيك . نشهد أنك أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن لك كفواً أحد[٤] .

وقال إسحاقُ بن بشر ، عن جويبر ، ومقاتلٌ عن الضحاك ، عن ابن عباس : إن عيسى ابن مريم أمسك عن الكلام بعد إذ كلّمهم طفلاً حتى بلغ ما يبلغ الغلمان ، ثم أنطقه الله بعد ذلك الحكمة[٥] والبيان ، فأكثر اليهودُ فيه وفي أمّه من القول ، وكانوا يسمّونه ابنَ البغيَّة ، وذلك قوله تعالى : ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١٥٦] قال : فلما بلغ سبعَ سنين أسلمته أمّه في الكُتَّاب ، فجعل لا يعلِّمه المعلِّم شيئاً إلا بَدَرَه إليه[٦] ، فعلّمه (أبا جاد) ، فقال عيسى : ما أبو جاد ؟ فقال المعلِّم : لا أدري . فقال عيسى : كيف تعلِّمني ما لا تدري ؟ فقال المعلِّم : إذاً فعلِّمني ! فقال له عيسى : فقم من مجلسك . فقام ، فجلس عيسى محلَّه ، فقال : سلني . فقال المعلِّم : ما أبو جاد ؟ فقال عيسى : الألف آلاء الله . باء : بهاء الله . جيم[٧] : بهجة الله وجماله[٨] . فَعجِب المعلِّم من ذلك ، فكان أول من فسَّر أبا جاد[٩] .

ثم ذكر أن عثمان سأل رسول الله ﷺ عن ذلك فأجابه على كلِّ كلمةٍ كلمة بحديث طويل موضوع لا يسأل ولا يتمادى[١٠] .

وهكذا روى ابن عدي من حديث إسماعيل بن عياش عن إسماعيل بن يحيى عن ابن أبي مُلَيْكَة عمّن حَدَّثه ، عن ابن مسعود ، وعن مِسْعَر بن كِدَام ، عن عطية ، عن أبي سعيدٍ ، رفع الحديث في دخول

---

(١) في ب وجلمدها . والجلمد والجلمود : الصخر .
(٢) في ب وط : تنشر .
(٣) في ط : ولا كان معك شركاء فندعوهم ونذكرك .
(٤) الدعاء في مختصر تاريخ ابن عساكر (٢٠/ ٩٠) ، مختصراً . عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة .
(٥) في ب : بالحكمة ، وكذلك في مختصر ابن عساكر .
(٦) يقال بدره الأمرَ ، وبدر إليه : إذا عَجِل إليه .
(٧) في ط : والباء . . والجيم .
(٨) في مختصر ابن عساكر : زاد في غيره : دال : الله الدائم .
(٩) مختصر ابن عساكر : (٢٠/ ٩٣) .
(١٠) في ب : لا يسأل فيه . والحديث أورده ابن عساكر . مختصره (٢٠/ ٩٣) .

عيسى إلى الكُتَّاب وتعليمه المعلم معنى حروف أبي جاد ، وهو مطوّل لا يُفْرَحُ به[١] .

ثم قال ابن عدي : وهذا الحديث باطلٌ بهذا الإسناد ، لا يرويه غير إسماعيل .

وروى ابن لَهِيْعَة عن عبد الله بن هبيرة قال : كان عبد الله بن عمرو يقول : كان عيسى بن مريم وهو غلامٌ يلعب مع الصبيان ، فكان يقول لأحدهم : تريد أن أخبرك ما خبأت لك أمك ؟ فيقول : نعم . فيقول : خبأت لك كذا وكذا . فيذهب الغلام منهم إلى أمه فيقول لها : أطعميني ما خبأت لي . فتقول : وأي شيءٍ خبأت لك ؟ فيقول : كذا وكذا . فتقول له : من أخبرك ؟ فيقول : عيسى ابن مريم . فقالوا : والله لئن تركتم هؤلاء الصبيان مع ابن مريم ليُفْسِدَنَّهم . فجمعوهم في بيتٍ وأغلقوا عليهم ، فخرج عيسى يلتمسهم ، فلم يجدهم ، فسمع ضوضاءهم في بيت ، فسأل عنهم ، فقالوا : إنما هؤلاء قردة وخنازير ، فقال : اللهم كذلك ، فكانوا كذلك . رواه ابن عساكر[٢] .

وقال إسحاق بن بشر عن جويبر ، ومقاتلٌ عن الضحاك عن ابن عباس قال : وكان عيسى يرى العجائب في صباه إلهاماً من الله ، ففشا ذلك في اليهود ، وترعرع عيسى ، فهمَّتْ به بنو إسرائيل ، فخافت أمّه عليه ، فأوحى الله إلى أمّه أن تنطلق به إلى أرض مصر ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾[٣] [المؤمنون : ٥٠] .

وقد اختلف السلف والمفسرون في المراد بهذه (الربوة) التي ذكر الله من صفتها أنها ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ ، وهذه صفةٌ غريبةُ الشكل ، وهي أنها ربوة ، وهو المكان المرتفع من الأرض الذي أعلاه مستوٍ يقرُّ عليه وارتفاعه متسعٌ ، ومع علوّه فيه عيون[٤] الماء ، (معين) وهو الجاري السارح على وجه الأرض ، فقيل : المراد المكان الذي وَلَدت فيه المسيح ، وهو نخلة بيت المقدس ولهذا ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ [مريم : ٢٤] ، وهو النهر الصغير في قول جمهور السّلف[٥] . وعن ابن عباس بإسناد جيد أنها أنهار دمشق [فلعلّه أراد تشبيه ذلك المكان بأنهار دمشق][٦] . وقيل ذلك بمصر كما زعمه من زعمه من أهل الكتاب ومن تلقَّاه عنهم والله أعلم .

وقيل : هي الرملة[٧] .

---

(١) أخرجه ابن عدي في ترجمة إسماعيل بن يحيى بن عبيد الله التيمي من الكامل (١/ ٢٩٩) .

(٢) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ٩٢) .

(٣) تاريخ الطبري (١/ ٥٩٧) . ومختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ٩٤) .

(٤) في ب عين من الماء .

(٥) في تفسير الطبري (١٦/ ٥٣) . عدة آراء في تفسير (السري) .

(٦) ليست في ب .

(٧) أي : الربوة . تفسير الطبري (١٨/ ٢٠ ـ ٢١) .

وقال إسحاق بن بشر : قال لنا إدريس ، عن جدّه وهب بن منبه قال : إن عيسى لما بلغ ثلاث عشرة سنة أمره الله أن يرجع من بلاد مصر إلى بيت إيليا ، قال : فقدم عليه يوسف ابن خال أمّه ، فحملهما على حمار حتى جاء بهما إلى إيليا ، وأقام بها حتى أحدث الله له الإنجيل ، وعلّمه التوراة ، وأعطاه إحياء الموتى وإبراء الأسقام ، والعلم بالغيوب مما يدَّخرون في بيوتهم ، وتحدّث الناس بقدومه ، وفزعوا لما كان يأتي من العجائب ، فجعلوا يعجبون منه ، فدعاهم إلى الله ، ففشا فيهم أمره[1] .

***

(١) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ٩٤) .

[بَيان نزول الكتب الأربعة ومواقيتها][١]

قال[٢] أبو زرعة الدمشقي : حدّثنا عبد الله بن صالح ، حدّثني معاوية بن صالح عمّن حدّثه قال : أُنزلت التوراة على موسى في ست ليال خلون من شهر رمضان . ونزل الزبور على داود في اثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان . وكذلك بعد التوراة بأربع مئة سنة واثنتين وثمانين سنة . وأنزل الإنجيل على عيسى ابن مريم في ثمانية عشرة ليلة خلت من رمضان . بعد الزبور بألف عام وخمسين عاماً . وأنزل الفرقان على محمد ﷺ في أربع وعشرين من شهر رمضان . وقد ذكرنا في « التفسير »[٣] عند قوله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ [سورة البقرة : ١٨٥] الأحاديث الواردة في ذلك ، وفيها أن الإنجيل أنزل على عيسى ابن مريم عليه السلام في ثماني عشرة ليلة خلت من شهر رمضان .

وذكر ابن جرير في « تأريخه »[٤] أنه أنزل عليه وهو ابن ثلاثين سنةً ، ومكث حتى رفع إلى السماء وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

وقال إسحاق بن بشر : وأخبرنا سعيد بن أبي عَروبة ، عن قتادة ، ومقاتلٌ عن قتادة ، عن عبد الرحمن بن آدم ، عن أبي هريرة قال : أوحى الله عزّ وجل إلى عيسى ابن مريم : يا عيسى جُـدَّ في أمري ولا تَهِن ، واسمع وأطع . يا ابن الطاهرة البِكر البَتُوْل إنك من غير فحل ، وأنا خلقتك آيةً للعالمين ، إياي فاعبد ، وعليَّ فتوكل ، خُذِ الكتاب بقوة ، فَسِّر لأهل السريانية[٥] بلِّغ من بين يديك أني أنا الحق[٦] الحي القائم الذي لا أزول . صَدِّقوا النبيَّ الأميَّ العربيَّ صاحبَ الجملِ والتاجِ ـ وهي العمامة[٧] ـ والمِدْرَعة[٨] والنعلين والهِراوة ـ وهي القضيب ـ الأنجلَ[٩] العينين ، الصلتَ الجبين[١٠] ، الواضحَ الخدّين ، الجعدَ الرأس ، الكثَّ اللحية ، المقرونَ الحاجبين ، الأقْنَى[١١] الأنف ، المفلَّجَ

---

(١) زيادة من ط . وهو في حاشية أ . ولم يرد في ب .
(٢) في أ و ب : وقال .
(٣) (١/ ٢١٥) وما بعدها . والخبر في مختصر ابن عساكر (٢٠/ ٩٥) .
(٤) (١/ ٥٩٨) .
(٥) قوله : السريانية ، زيادة من ب ، وهي كذلك في مختصر ابن عساكر .
(٦) ليست في ب .
(٧) يقولون : إن العمائم هي تيجان العرب . اللسان (عمم) .
(٨) المدرعة : ثوب من صوف .
(٩) النَّجَلُ : سعة العينين .
(١٠) الصلت : الواضح الجبين ، البارز المستوي .
(١١) قنا الأنف : ارتفاع أعلاه ، واحديداب وسطه ، وضيق المنخرين .

الثنايا ، البادي العَنْفَقَة[١] ، الذي كأن عنقه إبريق فضة ، وكأن الذهب يجري في[٢] تراقيه ، له شعرات من لَبّته[٣] إلى سُرَّته ، تجري كالقضيب ، ليس على بطنه ولا على صدره شعر غيره ، شثن[٤] الكف والقدم ، إذا التفتَ التفتَ جميعاً ، وإذا مشى كأنما يتقلّع من صخر ويتحدّر من صَبَب[٥] . عرَقه في وجهه كاللؤلؤ ، وريح المسك يَنْفَحُ منه ، ولم يُرَ قبلَه ولا بعده مثلُه . الحسنَ القامة ، الطيّبَ الريح ، نَكّاحَ النساء ، ذا النسل القليل ، إنما نسله من مباركةٍ لها بيت ـ يعني في الجنة ـ من قصب لا نصب فيه ولا صخب[٦] ، تكفله يا عيسى في آخر الزمان ، كما كفل زكريا أمك ، له منها فَرَحان مستشهدان ، وله عندي منزلة ليست لأحد من البشر . كلامه القرآن ، ودينه الإسلام ، وأنا السلام ، طوبى لمن أدرك زمانه وشهد أيامه وسمع كلامه[٧] .

قال[٨] عيسى : يا رب وما طوبى ؟ قال : غرس شجرة[٩] أنا غرستها بيدي ، فهي للجنان كلّها ، أصلها من رضوان ، وماؤها من تَسْنيم ، وبردها برد الكافور ، وطعمها طعم الزنجبيل ، وريحها ريح المسك ، مَنْ شرب منه[١٠] شربة لم يظمأ بعدها أبداً . قال عيسى : يا رب اسقني منها . قال : حرامٌ على النبيين أن يشربوا منها حتى يشرب ذلك النبي ، وحرام على الأمم أن يشربوا منها حتى تشرب منها أمة ذلك النبي . قال : يا عيسى أرفعك إليّ . قال : ربِّ ولم ترفعني ؟ قال : أرفعك ، ثم أُهبِطُك في آخر الزمان لترى من أمة ذلك النبي العجائب ، ولتعينهم على قتال اللعين الدجّال . أُهبطك في وقت صلاةٍ ، ثمّ لا تصلي بهم لأنها أمةٌ[١١] مرحومة ، ولا نبي بعد نبيهم .

وقال هشام بن عمار ، عن الوليد بن مسلم ، عن عبد الرحمن بن يزيد ، عن أبيه : إن عيسى قال : يا رب أنبئني عن هذه الأمة المرحومة . قال : أمّة أحمد ، هم علماء حكماء كأنهم أنبياء ، يرضون مني بالقليل من العطاء ، وأرْضى منهم باليسير من العمل ، وأدخلهم الجنة بلا إلّه إلا الله . يا عيسى هم أكثر

---

(١) العنفقة : شعيرات بين الشفة السفلى والذقن .
(٢) في ب : من .
(٣) اللبة : المنحر من الرقبة .
(٤) شثن الكف : خشونته وغلظه .
(٥) الصبب : تصوب نهر أو طريق يكون في حدور .
(٦) في ب : لا صخب فيه ولا نصب . والنصَب : التعب .
(٧) مختصر ابن عساكر (٢٠/ ٩٥ ـ ٩٦) .
(٨) زاد في ط . عنواناً وهو في حاشية أ . ولم يرد في ب ، وهو : بيان شجرة طوبى ما هي .
(٩) زاد في ب : في الجنة .
(١٠) في ب : منها ، والتسنيم : قيل هو ماء في الجنة .
(١١) قوله : أمة . ليست في ط . والخبر تتمة للسابق في مختصر ابن عساكر (٢٠/ ٩٦) .

سكان الجنة ؛ لأنه لم تذِلّ ألسنُ قوم قط بلا إلَه إلا الله كما ذلّت ألسنتهم ، ولم تذلّ رقابُ قومٍ قط بالسجود كما ذلّت به رقابهم . رواه ابن عساكر[١] .

وروى ابن عساكر[٢] من طريق عبد الله بن بديل العقيلي ، عن عبد الله بن عَوْسَجة قال : أوحى الله إلى عيسى ابن مريم : أنزلني من نفسك كهمّك ، واجعلني ذخراً لك في مَعادك ، وتقرَّب إليَّ بالنوافل أُحببك ، ولا تَوَلَّ غيري فأخذلَك . اصبر على البلاء ، وارض بالقضاء ، وكن لمسرتي فيك ، فإن مسرتي أن أُطاع فلا أُعصى ، وكن مني قريباً ، وأحي ذِكري بلسانك ، ولتكن مودَّتي في صدرك ، تيقّظ من ساعات الغفلة ، واحكم في لطيف الفطنة ، وكن لي راغباً راهباً ، وأمِتْ قلبَك في الخشية لي ، وراعِ الليل لحقِّ مسرَّتي ، وأظْمِ نهارَك ليوم الريِّ عندي . نافس في الخيرات جهدَك ، واعترف بالخير حيث توجهت ، وقم في الخلائق بنصيحتي ، واحكم في عبادي بعدلي ، فقد أنزلت عليك شفاء وسواس الصدور من مرض النسيان ، وجلاء الأبصار من عَشَا الكلال . ولا تكن حَلْسا[٣] كأنك مقبوض ، وأنت حي تنفس . يا عيسى ابن مريم ما آمنت بي خليقةٌ إلا خشعت ، ولا خشعت لي إلا رَجَت ثوابي ، فأُشهدكَ أنها آمنة من عقابي ما لم تغيِّر أو تبدِّل سنَّتي . يا عيسى ابن مريم البِكْرِ البَتُول ، ابْكِ على نفسِكَ أيامَ الحياةِ بُكاءَ مَنْ ودَّعَ الأهلَ وقَلَى الدنيا وتَرَكَ اللذات لأهلها وارتفعت رغبته فيما عند إلَهه ، وكن في ذلك تُلين الكلامَ وتفشي السلام . وكن يقظان إذا نامت عيون الأبرار ، حذار ما هو آتٍ من أمر المعاد وزلزال شدايد الأهوال قبل أن لا ينفع أهل ولا مال ، واكحل عينك بمُلْمُول[٤] الحزن إذا ضحك البطّالون ، وكن في ذلك صابراً محتسباً ، وطوبى لك إن نالك ما وعدتُ الصابرين . زَجِّ من الدنيا بالله[٥] ، يوم بيوم ، وذق مذاقه ما قد هرب منك أين طعمه ؟ وما لم يأتك كيف لذته ، فزجّ من الدنيا بالبُلْغة[٦] ، وليكفك منها الخشن الجَشِيب[٧] ، قد رأيت إلى ما يصير . اعمل على حساب فإنك مسؤول ولو رأت عينك[٨] ما أعددت لأوليائي الصالحين ذاب قلبك وزهَقَت نفسك .

وقال أبو داود في كتاب « القدر »[٩] : حدّثنا محمد بن يحيى بن فارس ، حدّثنا عبد الرزاق ، حدّثنا

---

(١) مختصر ابن عساكر (٢٠/ ٩٦) .

(٢) مختصر ابن عساكر (٢٠/ ٩٧) .

(٣) العشا : سوء البصر ، أو العمى . والحلس : الملازم الذي لا يبرح مكانه .

(٤) في الأصل : بملول . وهو سهو . والمُلْمُول : المكحال يكتحل به .

(٥) تزجى بالشيء : اكتفى به .

(٦) البلغة : ما يكفي لسد الحاجة ولا يفضل عنها .

(٧) في ط : الجثيث . وهو خطأ . والجشيب : الخشن الغليظ البشع من كل شيء .

(٨) في ط : عيناك .

(٩) من كتب أبي داود التي لم تصل إلينا .

معمر عن الزهري عن ابن طاووس عن أبيه قال : لقي عيسى ابن مريم إبليس فقال : أما علمت أنه لن يصيبك إلا ما كتب لك ، قال إبليس : فارق بذروة هذا الجبل فتردّى منه فانظر تعيش[١] أم لا ، فقال ابن طاووس عن أبيه . فقال عيسى : أما علمت أن الله قال : لا يجرِّبني عبدي فإني أفعل ما شئت . وقال الزهري : العبد لا يبتلي ربَّه ، ولكنَّ الله يبتلي عبدَه[٢] .

قال أبو داود : حدّثنا أحمد بن عبدة ، أخبرنا سفيان ، عن عمرو ، عن طاووس قال : أتى الشيطانُ عيسى ابن مريم فقال : أليس تزعم أنك صادقٌ ؟ فأْتِ هُوَّةً فألقِ نفسَك . قال : ويلك أليس قال الله : يا ابن آدم لا تسألني هلاكَ نفسك فإني أفعل ما أشاء .

وحدّثنا أبو توبة الربيعُ بن نافع ، حدّثنا حسين بن طلحة ، سمعت خالد بن يزيد قال : تعبُّد الشيطان مع عيسى عشر سنين ، أو سنتين ، أقام يوماً على شفير جبل ، فقال الشيطان : أرأيت إن ألقيتُ نفسي هل يصيبني إلا ما كُتب لي ؟ قال : إني لست بالذي أبتلي ربي ، ولكن ربي إذا شاء ابتلاني ، وعرفه أنه الشيطان ففارقه[٣] .

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدّثنا شريح بن يونس ، حدّثنا علي بن ثابت ، عن خطاب[٤] بن القاسم ، عن أبي عثمان قال : كان عيسى عليه السلام يصلي على رأس جبل ، فأتاه إبليس فقال : أنت الذي تزعم أن كل شيء بقضاء وقدرٍ ؟ قال : نعم . قال : ألقِ نفسَك من هذا الجبل وقل : قُدِّرَ عليّ . فقال : يا لعين ! اللهُ يختبِرُ العبادَ ، وليس العبادُ يختبرون الله عز وجل[٥] .

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدّثنا الفضل بن موسى البصري ، حدّثنا إبراهيم بن بشّار ، سمعت سفيان بن عيينة يقول : لقي عيسى ابن مريم إبليس ، فقال له إبليس : يا عيسى ابن مريم الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنك تكلّمت في المهد صبياً . ولم يتكلّم فيه أحد قبلك ، قال : بل الربوبية للإلّه الذي أنطقني ثمّ يميتني ثمّ يحييني . قال : فأنت الذي بلغ من عِظَم ربوبيتك أنك تحيي الموتى ؟ قال : بل الربوبية لله الذي يحيي ويُميت من أحييتُ ثم يحييه ، قال : والله إنك لإلّه في السماء وإلّه في الأرض . قال : فَصَكَّه جبريلُ صكةً بجناحه[٦] فما تناهى[٧] دون قرون الشمس ، ثمّ صكّه أخرى بجناحه فما تناهى دون العين الحامية ،

---

(١) في ط : هل تعيش .
(٢) الخبر في مختصر ابن عساكر (٢٠/٩٨) .
(٣) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/٩٨) .
(٤) كذا في ب . وفي أ . وط : الخطاب .
(٥) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/٩٨) .
(٦) في ط : بجناحيه .
(٧) في ط : فما تباها .

ثم صكّه أخرى فأدخله بحار السابعة فأساخه ، وفي رواية فأسلكه فيها حتى وجد طعم الحمأة[١] ، فخرج وهو يقول : ما لقي أحدٌ من أحد ما لقيتُ منك يا ابن مريم[٢] .

وقد روي نحو هذا بأبسط منه من وجه آخر ، فقال الحافظ أبو بكر الخطيب : أخبرني أبو الحسن بن رزقويه ، أخبرنا أبو بكر أحمد بن سندي[٣] ، حدّثنا أبو محمد الحسن بن علي القطان[٤] ، حدّثنا إسماعيل بن عيسى العطار ، أخبرنا علي بن عاصم ، حدّثني أبو سلمة سويد عن بعض أصحابه قال : صلّى عيسى ببيت المقدس ، فانصرف ، فلما كان ببعض العقبة عرض له إبليس ، فاحتبسه ، فجعل يعرض عليه ويكلّمه ويقول له : إنه لا ينبغي لك أن تكون عبداً ، فأكثر عليه . وجعل عيسى يحرص على أن يتخلّص منه ، فجعل لا يتخلّص منه ، فقال له فيما يقول : لا ينبغي لك يا عيسى أن تكون عبداً . فقال : فاستغاث عيسى بربّه ، فأقبل جبريل وميكائيل ، فلما رآهما إبليس كَفَّ ، فلما استقرا[٥] معه على العقبة اكتنفا عيسى ، وضرب جبريلُ إبليس بجناحه فقذفه في بطن الوادي . قال : فعاد إبليس معه وعلم أنهما لم يؤمرا بغير ذلك ، فقال لعيسى : قد أخبرتك أنه لا ينبغي أن تكون عبداً ، إنَّ غَضَبَكَ ليس بغضب عبد ، وقد رأيت ما لقيت منك حين غضبت ، ولكن أدعوك إلى أمر هو لك ؛ آمر الشياطين فليطيعوك ، فإذا رأى البشر الشياطين أطاعوك عبدوك ، أما إني لا أقول أن تكون إلّهاً ليس معه إلّه ، ولكن الله يكون إلّهاً في السماء وتكون أنت إلّهاً في الأرض . فلما سمع عيسى ذلك منه استغاث بربّه وصرخَ صرخةً شديدةً ، فإذا إسرافيل قد هَبَطَ ، فنظر إليه جبريل وميكائيل ، فكفّ إبليس ، فلما استقر معهم ضرب إسرافيلُ إبليسَ بجناحه فَصَكَّ به عَيْنَ الشمسِ ، ثمّ ضربه ضربة أخرى فأقبل إبليس يهوي ، ومر بعيسى وهو بمكانه فقال : يا عيسى لقد لقيت فيك اليوم تعباً شديداً ، فَرُمي به في عين الشمس فوجد سبعة أملاك عند العين الحامية[٦] ، قال : فَغَطّوه ، فجعل كلّما خرج[٧] غطّوه في تلك الحمأة ، قال : والله ما عاد إليه بعد[٨] .

---

(١) في ط : فخرج منها . والحمأة : الطين الأسود المنتن .

(٢) الخبر في مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ٩٨) .

(٣) في ط : «سبدي» وهو تصحيف، والتصحيح من تاريخ الخطيب (٥/ ٣٠٤) (ط. الدكتور بشار) ومادة «السندي» من أنساب السمعاني، قال الخطيب: «حدثنا عنه ابن رزقويه بكتاب «المبتدأ» تصنيف أبي حذيفة البخاري وبغيره» وذكر سماعه من الحسن القطان .

(٤) هو المعروف بابن علويه المتوفى سنة ٢٩٨هـ، كما في تاريخ الخطيب (٨/ ٣٦٧ ـ ٣٦٨) .

(٥) في ط . . . استقر . وفي مختصر تاريخ دمشق : فلما استقر معهم على العقبة .

(٦) في ب : الخامسة .

(٧) كذا في ب . وأ وط صرخ .

(٨) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ٩٨) .

قال : وحدّثنا إسماعيل العطار ، حدّثنا أبو حُذيفة[١] قال : واجتمع إليه شياطينه فقالوا : سيدَنا لقد لقيت تعباً . قال : إن هذا عبدٌ معصوم ليس لي عليه من سبيل ، وسأضلّ به بشراً كثيراً ، وأبثّ فيهم أهواءً مختلفة ، وأجعلهم شيعاً ، ويجعلونه وأمَّه إلّهين من دون الله[٢] .

قال : وأنزل الله فيما أيّدَ بِهِ عيسى وعَصَمه من إبليس قرآناً ناطقاً بذكر نعمته على عيسى فقال : ﴿ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ ﴾ يعني إذ قَوَّيْتُك بروح القُدُس يعني جبريل ﴿ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ ﴾ . . . الآية كلها [المائدة : ١١٠] ، وإذ جعلتُ المساكين لكَ بِطانةً وصحابةً وأعواناً ترضى بهم ، وصحابةً وأعواناً يَرضَون بك هادياً وقائداً إلى الجنة ، فذلك ـ فاعلم ـ خُلُقان عظيمان من لقيني بهما فقد لقيني بأزكى الخلائق وأرضاها عندي . وسيقول لك بنو إسرائيل : صُمنا فلم يُتقَبَّل صيامُنا ، وصلّينا فلم تُقبل صلاتُنا ، وتصدَّقنا فلم تُقبل صدقاتنا ، وبكينا بمثل حنين الجمال فلم يُرْحَم بكاؤنا ، فقل لهم : ولم ذلك ، وما الذي يمنعني إنْ ذَاتُ يدي قلَّتْ ، أَوَلَيْسَ خزائنُ السموات والأرض بيدي أُنْفق منها كيف أشاء ؟! وإن البخل لا يعتريني[٣] أولست أَجْوَدَ من سُئل ، وأوسع من أعطى ، أو إن رحمتي ضاقت ، وإنما يتراحم المتراحمون بفضل رحمتي ، ولولا أن هؤلاء القوم يا عيسى ابن مريم عدّوا أنفسهم بالحكمة التي تورث في قلوبهم ما استأثروا به الدنيا أثره على الآخرة لعرفوا من أين أُتُوا ، وإذاً لأيقنوا أن أنفسهم هي أعدَى الأعداء لهم ، وكيف أقبل صيامهم وهم يتقوَّون عليه بالأطعمة الحرام ؟! وكيف أقبل صلاتهم وقلوبهم تركن إلى الذين يحاربونني ويستحلُّون محارمي ؟! وكيف أقبل صدقاتهم وهم يغصبون الناس عليها فيأخذونها من غير حلّها ؟! يا عيسى إنما أجزي عليها أهلها . وكيف أرحم بكاءهم وأيديهم تقطرُ من دماءِ الأنبياء ! ازددت عليهم غضباً . يا عيسى وقضيت يوم خلقتُ السمواتِ والأرضَ أنه من عبدني وقال فيكما بقولي أن أجعلهم جيرانك في الدار ورفقاءك في المنازل ، وشركاءك في الكرامة . وقضيت يوم خلقت السمواتِ والأرضَ أنه من اتخذك وأمَّك إلّهين من دون الله أن أجعلهم في الدركِ الأسفل من النار ، وقضيت يوم خلقت السموات والأرض أني مثبت هذا الأمر على يدي عبدي محمد ، وأختم به الأنبياء والرسل ، ومولده بمكة ، ومهاجره بِطَيْبَةَ ، وملكه بالشام . ليس بفظٍّ ولا غليظٍ ولا صَخّاب[٤] في

---

(١) هو إسحاق بن بشر بن محمد، أبو حذيفة البخاري المتوفى سنة ٢٠٦هـ، وصاحب كتاب «المبتدأ» أحد الكذابين المشهورين، قال الخطيب: «حدث عن . . . وخلق من أئمة أهل العلم أحاديث باطلة» (تاريخه ٧/ ٣٣٧) .

(٢) ليست في ب . والخبر تتمة للسابق في مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ٩٩) .

(٣) في ب : أو إن البخل يعتريني .

(٤) كذا في ب . وفي أ وط : سخاب ، وهو من الصخب أيضاً .
تاج العروس (سخب) ، وفي أساس البلاغة : يقال : وهو صخاب في الأسواق .

الأسواق ، ولا مُزر[١] بالفحش ، ولا قَوَّال بالخنا ، أسدّده لكلّ أمر جميل ، وأهب له كلّ خُلُق كريم ، وأجعل التقوى ضميرَه ، والحكمَ معقوله ، والوفاءَ طبيعته ، والعدلَ سيرته ، والحقَّ شريعته ، والإسلامَ مِلَّته . اسمُه محمد ، أهدي به بعد الضلالة ، وأُعلّم به بعد الجهالة ، وأُغني به بعد العائلة ، وأرفع به بعد الضَّعَة ، أهدي به ، وأفتح به بين آذان صم وقلوب غُلف وأهواء مختلفة متفرّقة . أجعل أمته خيرَ أمّةٍ أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، إخلاصاً لاسمي وتصديقاً لما جاءت به الرسل . ألهمهم التسبيح والتقديس والتهليل في مساجدهم ومجالسهم وبيوتهم ومتقلّبهم ومثواهم ، يصلّون لي قياماً وقعوداً وركّعاً وسجوداً ، ويقاتلون في سبيلي صفوفاً وزحوفاً ، قُرُباتهم دماؤهم ، وأناجيلهم في صدورهم ، وقربانهم في بطونهم ، رهبانٌ بالليل ، ليوث في النهار ، ذلك فضلي أُوتيه من أشاء ، وأنا ذو الفضل العظيم[٢] .

وسنذكر ما يصدّق كثيراً من هذا السياق . مما سنورده من سورتي المائدة والصف إن شاء الله ، وبه الثقة .

وقد روى أبو حذيفة إسحاق بن بشر بأسانيده عن كعب الأحبار ووهب بن منبه وابن عباس وسلمان الفارسي ، دخل حديثُ بعضهم في بعض قالوا : لما بُعث عيسى ابن مريم وجاءهم بالبينات ، جعل المنافقون والكافرون من بني إسرائيل يعجبون منه ويستهزئون به ، فيقولون : ما أكل فلانٌ البارحة ؟ وما ادّخَر في منزله ؟ فيخبرهم ، فيزداد المؤمنون إيماناً والكافرون والمنافقون شكّاً وكفراناً ، وكان عيسى مع ذلك ليس له منزل يأوي إليه ، إنما يسيح في الأرض ليس له قرار ولا موضع يُعرف به ، فكان أول ما أحيا من الموتى أنه مرَّ ذات يوم على امرأة قاعدةٍ عند قبرٍ وهي تبكي ، فقال لها : مالك أيتها المرأة ؟ فقالت : ماتت ابنة لي لم يكن لي ولد غيرها ، وإني عاهدت ربي أن لا أبرح من موضعي هذا حتى أذوق ما ذاقت من الموت أو يحييها الله لي[٣] فأنظر إليها ، فقال لها عيسى : أرأيتِ إن نظرتِ إليها أراجعة أنت ؟ قالت : نعم . قالوا : فصلّى ركعتين ، ثمّ جاء فجلس عند القبر ، فنادى يا فلانة قومي بإذن الرحمن فاخرجي ، قال : فتحرّك القبر ، ثمّ نادى الثانية فانصدع القبر بإذن الله ، ثمّ نادى الثالثة فخرجت وهي تنفض رأسها من التراب ، فقال لها ما بطَّأ بكِ عني[٤] ؟ فقالت : لمَّا جاءتني الصيحة الأولى بَعثَ الله لي مَلَكاً فركَّبَ خَلْقي ، ثمّ جاءتني الصيحة الثانية فرجّع إليّ روحي ، ثمّ جاءتني الصيحة الثالثة فخِفت أنها

---

(١) في مختصر تاريخ دمشق : ولا متزين بالفحش . وفي بعض النسخ المطبوعة : ولا يتَّزر .
(٢) مختصر تاريخ دمشق : (٢٠/ ٩٩ ـ ١٠٠) .
(٣) كذا في ب ط . وفي أ : يهيئها . وقوله : لي ليس في ب .
(٤) في ط : أبطأ وكلاهما صحيح . يقال أبطأ به ، وبطّأ به .
وفي ب : ما بدا لك فقالت .

صيحةُ القيامة فشاب رأسي وحاجباي وأشفار عينيّ من مخافة القيامة ، ثمّ أقبلت على أمها فقالت : يا أُمَّاه ما حملك على أن أذُوقَ كَرْبَ الموت مرّتين ، يا أُمَّاه اصبري واحتسبي فلا حاجة لي في الدنيا ، يا روحَ اللهِ وكلمتَهُ ، سل ربي أن يردّني إلى الآخرة ، وأن يهوّن عليَّ كرب الموت ، فدعا ربّه ، فقبضها إليه واستوت عليها الأرض . فبلغ ذلك اليهود فازدادوا عليه[1] غضباً .

وقدّمنا في عقيب قصّة نوح[2] أن بني إسرائيل سألوه أن يحيي لهم سام بن نوح ، فدعا الله عز وجل وصلّى لله[3] فأحياه الله لهم ، فحدّثهم عن السفينة وأمرها ، ثمّ دعا فعاد تراباً .

وقد روى السُّدّي عن أبي صالح ، وأبي مالك عن ابن عباس في خبر ذكره ، وفيه أن ملكاً من ملوك بني إسرائيل مات وحمل على سريره ، فجاء عيسى عليه السلام ، فدعا الله عز وجل ، فأحياه الله عز وجل فرأى الناس أمراً هائلاً ومنظراً عجيباً ، قال الله تعالى وهو أصدق القائلين ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة : ١١٠ ـ ١١١] .

يذكّره تعالى بنعمته عليه وإحسانه إليه في خَلْقه إياه من غير أبٍ ، بل من أُمٍّ بلا ذَكَرٍ ، وجَعْلِهِ له آيةً للناس ودلالة على كمال قدرته تعالى ، ثمّ إرساله بعد هذا كلّه ﴿ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ ﴾ في اصطفائها واختيارها لهذه النعمة العظيمة ، وإقامة البرهان على براءتها مما نسبها إليه الجاهلون ، ولهذا قال : ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ وهو جبريل بإلقاء روحه إلى أمه ، وقرنه معه في حال رسالته ومدافعته عنه لمن كفر به ﴿ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ أي تدعو الناس إلى الله في حال صغرك في مهدك وفي كهولتك ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ أي الخط والفهم ، نص عليه بعض السلف[4] ﴿ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي ﴾ أي تصوّره وتشكّله من الطين على هيئته[5] عن أمر الله له بذلك ﴿ فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي ﴾ أي بأمري ، يؤكّد تعالى بذكْرِ الإِذْن له في ذلك لرفع التوهّم .

وقوله : ﴿ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ ﴾ قال بعض السلف : وهو الذي يولد أعمى ولا سبيل لأحد من الحكماء

---

(١) ليست في ب . والخبر في مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٠١ ـ ١٠٢) .
(٢) في الجزء الأول .
(٣) زاد في ب : ركعتين .
(٤) تفسير الطبري (٧/ ٨٣) .
(٥) في ب : هيئة الطير .

إلى مداواته . ﴿ وَٱلْأَبْرَصَ ﴾ هو الذي لا طِبّ فيه ، بل قد مرض بالبرص وصار داؤه عُضالاً . ﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أي من قُبُورهم أحياءً بإذني .

وقد تقدم ما فيه دلالة على وقوع ذلك مراراً متعددةً مما فيه كفاية .

وقوله : ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ وذلك حين أرادوا صلبه ، فرفعه الله إليه وأنقذه من بين أظهرهم صيانة لجنابه الكريم عن الأذى ، وسلامة لهم من الردى .

وقوله : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ قيل : المراد بهذا الوحي وحْي إلهامٍ ، أي : أرشدهم الله إليه ودلهم عليه كما قال : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ [النحل : ٦٨] . ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ [القصص : ٧] . وقيل : المراد وحي بواسطة الرسول وتوفيق في قلوبهم لقبول الحق ، ولهذا استجابوا قائلين ﴿ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾[1] .

وهذا من جملة نِعم الله على عبده ورسوله عيسى ابن مريم أن جعل له أنصاراً وأعواناً وحواريين[2] ينصرونه ويدعون معه إلى عبادة الله وحدَه لا شريك له ، كما قال تعالى لعبده محمد ﷺ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٢ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٦٢ ـ ٦٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٤٨ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٤٩ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝٥٠ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٥١ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝٥٢ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٣ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٨ ـ ٥٤] .

كانت معجزة كلّ نبي في زمانه بما يناسب أهلَ ذلك الزمان ، فذكروا أن موسى عليه السلام كانت معجزته مما يناسب أهل زمانه ، وكانوا سحرةً أذكياء ، فبُعِثَ بآياتٍ بهرتِ الأبصار وخضعت لها الرقاب ، ولما كان السحرةُ خبيرين بفنون السحر وما ينتهي إليه ، وعاينوا ما عاينوا من الأمر الباهر الهائل

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ٨٣) .

(٢) قوله : وحواريين . ليست في ط .

الذي لا يمكن صدوره إلاّ عَمَّنْ أيده الله وأجرى الخارق على يديه تصديقاً له ، أسلموا سراعاً ولم يتلعثموا[١] .

وهكذا عيسى ابن مريم بُعث في زمن الطبائعية الحكماء ، فأُرسل بمعجزات لا يستطيعونها ولا يهتدون إليها ، وأنّى لحكيم إبراء الأكْمَه الذي هو أسوأ حالاً من الأعمى والأبرص والمجذوم ومن به مرضٌ مزمن ؟! وكيف يتوصل أحدٌ من الخلق إلى أن يقيم الميت من قبره ؟! هذا مما يعلم كلُّ أحد أنه معجزة دالة على صدق من قامت به وعلى قدرة من أرسله .

وهكذا محمد ﷺ وعليهم أجمعين بُعث في زمن الفصحاء البلغاء ، فأنزل الله عليه القرآن العظيم الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] فلفظه معجز تحدّى به الإنس والجن أن يأتوا بمثله[٢] ، أو بعشر سور من مثله[٣] ، أو بسورة[٤] ، وقطع عليهم بأنهم لا يقدرون لا في الحال ولا في الاستقبال (فإن لم يفعلوا ولن يفعلوا) وما ذاك إلا لأنه كلام الخالق عز وجل ، والله تعالى لا يشبهه شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله .

والمقصود أن عيسى عليه السلام لما أقام عليهم الحجج والبراهين استمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم وطغيانهم ، فانتدب له من بينهم طائفة صالحة ، فكانوا له أنصاراً وأعواناً قاموا بمتابعته ونصرته ومناصحته ، وذلك حين هَمَّ به بنو إسرائيل ووشَوا به إلى بعض ملوك ذلك الزمان ، فعزموا على قتله وصلبه ، فأنقذه الله منهم ورفعه إليه من بين أظهرهم ، وألقى شبهه على أحد أصحابه ، فأخذوه فقتلوه وصلبوه وهم يعتقدونه عيسى ، وهم في ذلك غالطون وللحق مكابرون ، وسَلَّم لهم كثيرٌ من النصارى ما ادّعوه ، وكلا الفريقين في ذلك مخطئون . قال تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ إلى أن قال بعد ذلك : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ

---

(١) التلعثم : الانتظار .

(٢) قال الله تعالى في سورة الإسراء (٨٨) : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ .

(٣) قال عز وجل في سورة هود (١٣) : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ .

(٤) قال تبارك وتعالى في سورة البقرة (٢٣ ـ ٢٤) : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٣ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴾ [الصف : ٦ ـ ١٤] فعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بني إسرائيل ، وقد قام فيهم خطيباً فبشَّرهم بخاتم الأنبياء الآتي بعدَه ، ونوَّه باسمه ، وذكر لهم صفته ليعرفوه ويتابعوه إذا شاهدوه ، إقامةً للحُجَّة عليهم وإحساناً من الله إليهم كما قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

قال محمد بن إسحاق : حدّثني ثور بن يزيد ، عن خالد بن مَعدان ، عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا : يا رسول الله ، أخبرنا عن نفسك . قال : « دعوة أبي إبراهيم ، وبُشْرَى عيسى . ورأتْ أمّي حِيْنَ حَمَلتْ بي كأنّه خَرَجَ منها نورٌ أضاءَتْ لَهُ قُصورُ بُصْرَى من أرضِ الشامِ »[١] .

وقد رُوي عن العِرْباض[٢] بن سارية وأبي أمامة عن النبي ﷺ نحو هذا[٣] ، وفيه « دعوة إبراهيم وبشرى عيسى » وذلك أن إبراهيم لما بنى الكعبة قال : ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ الآية : [البقرة : ١٢٩] . ولما انتهت النبوة في بني إسرائيل إلى عيسى قام فيهم خطيباً ، فأخبرهم أن النبوة قد انقطعت عنهم ، وأنها بعده في النبي العربي الأميِّ خاتم الأنبياء على الإطلاق أحمد ، وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم الذي هو من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهم السلام . قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصف : ٦] يحتمل عود الضمير إلى عيسى عليه السلام ، ويحتمل عوده إلى محمد ﷺ، ثمّ حَرَّض تعالى عباده المؤمنين على نُصرة الإسلام وأهله ، ونُصرةِ نبيه ومؤازرته ومعاونته على إقامة الدين ونشر الدعوة فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ﴾ أي من يساعدني[٤] في الدعوة إلى الله ﴿ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ ﴾ وكان ذلك في قرية يُقال لها : الناصرة ، فَسُمّوا بذلك النصارى . قال الله تعالى : ﴿ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ ﴾ [الصف : ١٤] ، يعني لما دعا عيسى بني إسرائيل وغيرهم إلى الله تعالى ، منهم مَن آمن ، ومنهم

---

(١) هو في السيرة (١/ ١٧٥) . ومن طريقه أخرجه الطبري في تفسيره ، والحاكم (٢/ ٦٠٠) والبيهقي في الدلائل (١/ ٨٣) وإسناده صحيح .

(٢) في ب : «روى العرباض ، وعن أبي أمامة» . وحديث العرباض بن سارية أخرجه أحمد (٤/ ١٢٧) ومن طريقه أبو نعيم في الدلائل (١٠)، والبخاري في تاريخه الكبير (٦/ ٦٨) وابن حبان (٦٤٠٤)، والبيهقي في الدلائل (٢/ ١٣٠) وغيرهم، وفيه سعيد بن سويد الكلبي مجهول الحال، وذكر الحافظ ابن حجر في تعجيل المنفعة (ص١٥٢) أن البخاري قال: لم يصح حديثه هذا ، أقول : ولكن للحديث شواهد وطرق يقوى بها ، منها الذي قبله .

(٣) حديث أبي أمامة أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٢٦٢) ، وإسناده ضعيف . أقول : ويشهد له الذي قبله .

(٤) في ب : مساعدي .

من كفر ، وكان ممن آمن به أهل أنطاكية بكمالهم ، فيما ذكره غير واحد من أهل السير والتواريخ والتفسير[١] . بعث إليهم رسلاً ثلاثة أحدهم شمعون الصفا ، فآمنوا واستجابوا ، وليس هؤلاء هم المذكورين في سورة « يس » لما تقدم[٢] تقريره في قصّة أصحاب القرية، وكفر آخرون من بني إسرائيل وهم جمهور اليهود ، فأيّد الله من آمن به على مَن كفر فيما بعد ، وأصبحوا ظاهرين عليهم قاهرين لهم كما قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ الآية : [آل عمران : ٥٥] فكل من كان إليه أقرب كان عالياً لمن[٣] دونه ، ولما كان قول المسلمين فيه هو الحق الذي لا شك فيه ، من أنه عبد الله ورسوله ، كانوا ظاهرين على النصارى الذين غَلوا فيه وأطروه وأنزلوه فوق ما أنزله الله به ، ولما كان النصارى أقرب في الجملة مما ذهب إليه اليهود ـ عليهم لعائن الله ـ كان النصارى قاهرين لليهود في أزمان الفترة إلى زمن الإسلام وأهله .

* * *

(١) تفسير الطبري (٢٨/ ٥٩) ، وتاريخه (١/ ٦٠٣) ، وتفسير القرطبي (١٨/ ٩٠) .
(٢) في الجزء الأول .
(٣) في أ وط : فمن . وأثبت ما في ب .

ذكر خبر المائدة

قال الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة : ١١٢ ـ ١١٥] .

قد ذكرنا في « التفسير »[(١)] الآثار الواردة في نزول المائدة عن ابن عباس ، وسلمان الفارسي ، وعمار بن ياسر ، وغيرهم من السّلف . ومضمون ذلك أن عيسى عليه السلام أمر الحواريّين بصيام ثلاثين يوماً ، فلما أتمّوها سألوا من عيسى إنزال مائدة من السماء عليهم ليأكلوا منها ، وتطمئن بذلك قلوبهم أنّ الله قد تقبّل صيامهم وأجابهم إلى طلبتهم ، وتكون لهم عيداً يفطرون عليها يوم فطرهم ، وتكون كافية لأولهم وآخرهم ، لغنيِّهم وفقيرهم . فوعظهم عيسى في ذلك ، وخاف عليهم أن لا يقوموا بشكرها ولا يؤدوا حقّ شروطها ، فأبوا عليه إلاّ أن يسأل لهم ذلك من ربّه عزّ وجلّ . فلما لم يقلعوا عن ذلك قام إلى مُصَلاّه ، ولبس مسحاً من شعر ، وصفّ بين قدميه ، وأطرقَ رأسه ، وأسبل عينيه بالبكاء ، وتضرّع إلى الله في الدعاء والسؤال أن يجابوا إلى ما طلبوا ، فأنزل الله تعالى المائدة من السماء والناس ينظرون إليها تتحدر بين غمامتينِ ، وجعلت تدنو قليلاً قليلا ، وكلّما دنت سأل عيسى ربَّه عز وجل أن يجعلها رحمةً لا نقْمةً ، وأن يجعلها بركة وسلامة ، فلم تزل تدنو حتى استقرت بين يدي عيسى عليه السلام وهي مُغَطّاة بمنديل ، فقام عيسى فكشف عنها وهو يقول : (بسم الله خير الرازقين) ، فإذا عليها سبعة من الحيتان ، وسبعة أرغفة . وبُقُول وخلّ . ويُقال : ورمان وثمار ، ولها رائحةٌ عظيمة جدّاً ، قال الله لها : كوني ، فكانت . ثمّ أمرهم بالأكل منها ، فقالوا : لا نأكل حتى تأكل ، فقال : إنكم الذين ابتدأتم السؤال لها ، فأبوا أن يأكلوا منها ابتداءً ، فأمر الفقراءَ والمحاويج والمرضى والزَّمْنَى[(٢)] ، وكانوا قريباً من ألف وثلاثمئة ، فأكلوا منها ، فَبَرِىء كلُّ مَنْ به عاهة أو آفة أو مرض مزمن ، فندم الناس على ترك الأكل منها لما رأوا من إصلاح حال أولئك . ثمّ قيل : إنها كانت تنزل كلّ يوم مرّة ، فيأكل الناس منها ، يأكل آخرهم كما يأكل أولهم ، حتى قيل : إنها كان يأكل منها نحو سبعة آلاف . ثمّ كانت تنزل يوماً بعد يوم ، كما كانت

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/١١٦) ، وفي تفسير الطبري (٧/ ٨٤ ـ ٨٥) . ومختصر تاريخ دمشق (٢٠/١٠٦) وما بعدها .

(٢) في ب : والناس . والزمنى : المبتلون .

ناقة صالح يشربون لبنها يوماً بعد يوم . ثمّ أمر الله عيسى أن يقصرها على الفقراء أو المحاويج دون الأغنياء ، فشَقّ ذلك على كثير من الناس ، وتكلّم منافقوهم في ذلك ، فرفعت بالكُلّية ، ومسخ الذين تكلّموا في ذلك خنازير .

وقد روى ابن أبي حاتم وابن جرير جميعاً : حدّثنا الحسن بن قَزَعَة الباهلي ، حدّثنا سُفيان بن حبيب ، حدّثنا سعيد بن أبي عَروبة ، عن قَتادة ، عن خِلاس[١] ، عن عمار بن ياسر ، عن النبي ﷺ قال : « نزلت المائدة من السماء خُبز ولحم ، وأُمروا أن لا يخونوا ولا يدّخروا ولا يرفعوا لغد[٢] فخانوا وادّخروا ورفعوا فَمُسخوا قِردَة وخنازير »[٣] .

ثمّ رواه ابن جرير عن بندار[٤] ، عن ابن أبي عدي ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن خِلاس ، عن عمار ، موقوفاً ، وهذا أصح[٥] .

وكذا رواه من طريق سماك، عن رجل من بني عجل ، عن عمار موقوفاً[٦] . وهو الصواب والله أعلم .

وخلاس عن عمار منقطع[٧] ، فلو صح هذا الحديث مرفوعاً لكان فيصلاً في القصة ، فإن العلماء اختلفوا في المائدة : هل نزلت أم لا . فالجمهور أنّها نزلت ، كما دلّت عليه هذه الآثار ، وكما هو المفهوم من ظاهر سياق القرآن ، ولا سيّما قوله : ﴿ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ كما قرره ابن جرير[٨] . والله أعلم .

وقد روى ابن جرير[٩] بإسناد صحيح إلى مجاهد ، وإلى الحسن بن أبي الحسن البصري أنهما قالا : لم تنزل ، وإنهم أبوا نزولها حين قال : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ . ولهذا قيل : إن النصارى لا يعرفون خبرَ المائدة ، وليس مذكوراً في كتابهم ، مع أن خبرها مما تتوفَّر الدواعي على نقله . والله أعلم .

---

(١) في تفسير الطبري : جلاس بن عمرو . بالجيم، وهو تصحيف . وخِلاس بن عمرو الهَجَري ثقة . من رجال التهذيب .

(٢) كذا في ط ، وفي تفسير الطبري . وهو الأشبه . وفي أ : أن لا يخونوا بغد ولا يدخروا . . وفي ب : أن لا يخونوا ولا يدخروا لغد فخانوا . . . وفي مختصر تاريخ دمشق : أن لا يخبؤوا ولا يدخروا ولا يرفعوا لغد . . .

(٣) تفسير الطبري (٧/ ٨٧) . وأورده عن عمار في مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٠٧) .

(٤) هو محمد بن بشار بن عثمان العبدي البصري . ثقة . توفي سنة (٢٥٢هـ) . تقريب التهذيب (٢/ ١٤٧) .

(٥) تفسير الطبري (٧/ ٨٧) .

(٦) المصدر السابق .

(٧) هكذا قال، وفي قوله نظر، فقد ذكر سماعه من عمار إمام أهل الصنعة محمد بن إسماعيل البخاري في تاريخه الكبير (٣/ الترجمة ٧٦٤)، وأبو زرعة الرازي (كما في الجرح والتعديل ٣/ الترجمة ١٨٤٤)، وناهيك بهما، ولذلك قال الحافظ ابن حجر في التقريب: «وقد صح أنه سمع من عمار» (وانظر التعليق على تهذيب الكمال ٨/ ٣٦٧) .

(٨) تفسيره (٧/ ٨٨) .

(٩) المصدر السابق .

وقد تقصينا الكلام على ذلك في « التفسير »[١] فليُكْتَب من هناك . ومن أراد مراجعته فلينظره من ثَمَّ . ولله الحمد والمنة .

فصْلٌ

قال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدّثنا رجل سقط اسمه ، حدّثنا حجاج بن محمد ، حدّثنا أبو هلال محمد بن سليمان ، عن بكر بن عبد الله المزني[٢] قال : فقد الحواريون عيسى[٣] ، فقيل لهم : توجَّه نحو البحر ، فانطلقوا يطلبونه ، فلما انتهوا إلى البحر إذا هو يمشي على الماء ، يرفعه الموج مرة ويضعه أخرى ، وعليه كساء مُرتدٍ بنصفه ومؤتزر بنصفه ، حتى انتهى إليهم ، فقال له بعضهم ـ قال أبو هلال : ظننت أنه من أفاضلهم ـ : ألا أجيء إليك يا نبي الله ؟ قال : بلى . قال : فوضع إحدى رجليه على الماء ، ثمّ ذهب ليضع الأخرى فقال : أَوّه ، غرقت يا نبي الله ! فقال : أرني يدك يا قصير الإيمان ، لو أن لابن آدم من اليقين قدر شعيرة مشى على الماء[٤] .

ورواه أبو سعيد بن الأعرابي ، عن إبراهيم بن أبي الجحيم ، عن سليمان بن حرب ، عن أبي هلال ، عن بكر ، بنحوه .

ثم قال ابن أبي الدنيا : حدّثنا محمد بن علي بن الحسن بن سفيان ، حدّثنا إبراهيم بن الأشعث ، عن الفضيل بن عياض قال : قيل لعيسى بن مريم : يا عيسى بأي شيء تمشي على الماء ؟ قال : بالإيمان واليقين . قالوا : فإنا آمنا كما آمنت وأيقنا كما أيقنت ، قال : فامشوا إذاً . قال : فمشوا معه في الموج ، فغرقوا ، فقال لهم عيسى : ما لكم ؟ فقالوا : خِفنا الموج . قال : ألا خفتم ربّ الموج . قال : فأخرجهم ، ثمّ ضرب بيده إلى الأرض فقبض بها ثمّ بسطها ، فإذا إحدى يديه ذهب ، وفي الأخرى مَدَر[٥] أو حصى ، فقال : أيهما أحلى في قلوبكم ؟ قالوا : هذا الذهب . قال : فإنهما عندي سواء[٦] .

وقدَّمنا في قصة يحيى بن زكريا[٧] عن بعض السلف أن عيسى عليه السلام كان يلبس الشعر ويأكل من

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/١١٩) .
(٢) هو أبو عبد الله البصري . قال ابن حجر : ثقة . ثبت . جليل . من الثالثة ، مات سنة ست ومئة . تقريب التهذيب (١/١٠٦) .
(٣) في ب وط : نبيهم عيسى .
(٤) أورده ابن منظور في مختصر تاريخ دمشق (٢٠/١١٢) .
(٥) المدر : التراب المتلبّد .
(٦) الخبر في مختصر تاريخ دمشق (٢٠/١١٣) .
(٧) ص (٢١٦) من هذا الجزء .

ورق الشجر ، ولا يأوي إلى منزل ولا أهل ولا مال ولا يدّخر شيئاً لغد . قال بعضهم : كان يأكل من غزل أمه ، صلوات الله وسلامه عليه .

وروى ابن عساكر[١] عن الشعبي أنه قال : كان عيسى عليه السلام إذا ذكر عنده الساعة صاح ويقول : لا ينبغي لابن مريم أن تذكر عنده الساعة ، ويسكت .

وعن عبد الملك بن سعيد بن بحر أن عيسى كان إذا سمع الموعظة صرخ صراخ الثكلى[٢] .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا مَعْمَر ، حدّثنا جعفر بن بُرْقَان[٣] أن عيسى كان يقول : اللهم إني أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره ، ولا أملك نفع ما أرجو ، وأصبح الأمر بيد غيري ، وأصبحت مرتَهناً بعملي ، فلا فقير أفقر مني ، اللهم لا تشمتْ بي عدوي ، ولا تَسُؤْ بي صديقي ، ولا تجعل مصيبتي في دِيني ، ولا تسلط عليَّ من لا يرحمني[٤] .

وقال الفُضيل بن عياض ، عن يونس بن عُبيد : كان عيسى يقول : لا نصيب[٥] حقيقة الإيمان حتى لا نبالي من أَكَلَ الدنيا[٦] .

وقال الفضيل : وكان عيسى يقول : فكَّرت[٧] في الخلق ، فوجدت من لم يُخلق أغبط عندي ممن خُلق[٨] .

وقال إسحاق بن بشر ، عن هشام بن حسان ، عن الحسن قال : إن عيسى رأس الزاهدين ، يؤمُّ الزاهدين يوم[٩] القيامة . قال : وإن الفرّارين بذنوبهم ، يُحشَرون يوم القيامة مع عيسى[١٠] .

قال : وبينما عيسى يوماً نائم على حجر قد توسّده ، وقد وجد لذة النوم ، إذ مرّ به إبليس فقال :

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١١٣) .
(٢) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١١٣) .
(٣) في الأصل : بلقان . وهو تحريف . وأثبت ما في مختصر ابن منظور ، وجعفر بن بُرقان الكلابي ، أبو عبد الله الرقي ، من الطبقة السابعة . قال ابن حجر : صدوق ، يهم في حديث الزهري . التقريب (١/ ١٢٩) . توفي سنة (١٥٠هـ) .
(٤) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١١٣) .
(٥) في ب ، ومختصر تاريخ دمشق : لا يصيب أحد .
(٦) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١١٣) .
(٧) في ب : تفكرت .
(٨) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١١٤) .
(٩) قوله : يؤم الزاهدين : ليس في ب وط . ومختصر تاريخ دمشق .
(١٠) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١١٤) .

يا عيسى ألست تزعم أنك لا تريد شيئاً من عرض الدنيا ! فهذا الحجر من عرض الدنيا . فقام فأخذ الحجر ورمى به إليه وقال : هذا لك مع الدنيا[١] .

وقال معتمر بن سليمان : خرج عيسى على أصحابه وعليه جُبَّة صوف وكساءٌ وتُبَّان[٢] حافياً باكياً شعِثاً ، مصفرّ اللون من الجوع ، يابس الشفتين من العطش . فقال : السلام عليكم يا بني إسرائيل ، أنا الذي أنزلتُ الدنيا منزلتها بإذن الله ، ولا عجب ولا فخر ، أتدرون أين بيتي ؟ قالوا : أين بيتك يا روح الله ؟ قال : بيتي المساجد ، وطيبي الماء ، وإدامي الجوع ، وسراجي القمر بالليل ، وصلاتي في الشتاء مشارق الشمس ، وريحاني بُقُول الأرض ، ولباسي الصوف ، وشعاري خوف رب العزة ، وجلسائي الزَّمنى[٣] ، والمساكين ، أُصبح وليس لي شيء ، وأمسي وليس لي شيء[٤] ، وأنا طيّب النفس غير مكترث ، فمن أغنى مني وأربح ! رواه ابن عساكر[٥] .

وروى في ترجمة محمد بن الوليد بن أبان بن حيان أبي الحسن العقيلي المصري : حدّثنا هانيء بن المتوكل الإسكندراني ، عن حَيْوة بن شُريح ، حدّثني الوليد بن أبي الوليد ، عن شُفَي بن ماتع[٦] ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : أوحى الله تعالى إلى عيسى : أن يا عيسى انتقل من مكان إلى مكان لئلا تُعرف فتؤذى ، فوعزتي وجلالي لأزوجنّك ألفَ حوراء ، ولأولمنَّ عليك أربعمئة عام[٧] .

وهذا حديث غريب رفعه ، وقد يكون موقوفاً من رواية شُفَي بن ماتع عن كعب الأحبار أو غيره من الإسرائيليين . والله أعلم .

وقال عبد الله بن المبارك ، عن سفيان بن عيينة ، عن خلف بن حَوشب قال : قال عيسى للحواريين : كما ترك لكم الملوك الحكمة ، فكذلك فاتركوا لهم الدنيا[٨] .

وقال قتادة : قال عيسى عليه السلام : سلوني فإني ليّن القلب ، وإني صغير عند نفسي .

وقال إسماعيل بن عياش ، عن عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر قال : قال عيسى للحواريين : كلوا

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١١٤) .
(٢) التبان : سراويل صغير يستر العورة فقط .
(٣) الزمنى : المرضى المبتلون بدوام المرض .
(٤) قوله : وأمسي وليس لي شيء . سقط من ب .
(٥) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١١٦ ـ ١١٧) .
(٦) في ط : سفي بن نافع . وفيه تصحيف وتحريف . وشُفَي بن ماتع الأصبحي ممن رووا عن أبي هريرة ، وهو من الطبقة الثالثة ، توفي في خلافة هشام بن عبد الملك . ووثقه ابن حجر . تقريب التهذيب (١/ ٣٥٣) .
(٧) مختصر تاريخ دمشق (٢٣/ ٢٩٨) .
(٨) أورده ابن منظور في مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١١٧) ، عن سفيان بن عيينة .

خبز الشعير ، واشربوا الماء القَراح ، واخرجوا من الدنيا سالمين آمنين ، بحق ما أقول لكم : إن حلاوة الدنيا مرارة الآخرة ، وإن مرارة الدنيا حلاوة الآخرة ، وإن عباد الله ليسوا بالمتنعّمين ، بحق ما أقول لكم إن شركم عالم يؤثر هواه على علمه ، يود أن الناس كلّهم مثله[١] .

ورُوي نحوه عن أبي هريرة[٢] .

وقال أبو مصعب ، عن مالك أنه بلغه أن عيسى كان يقول : يا بني إسرائيل عليكم بالماء القَراح والبقل البَرّي ، وخبز الشعير ، وإياكم وخبز البُرّ ، فإنكم لن تقوموا بشكره[٣] .

وقال ابن وهب ، عن سليمان بن بلال ، عن يحيى بن سعيد قال : كان عيسى يقول : اعبروا الدنيا ولا تَعْمُروها . وكان يقول : حب الدنيا رأس كلّ خطيئة ، والنظر يزرع في القلب الشهوة .

وحكى وُهَيب بن الوَرْد مثله ، وزاد : ورُبّ شهوةٍ أورثت أهلها حُزناً طويلاً[٤] .

وعن عيسى عليه السلام : يا ابن آدم الضعيف ، اتقّ الله حيثما كنت ، وكن في الدنيا ضيفاً ، واتخذ المساجد بيتاً ، وعلّم عينك البكاء ، وجسدك الصبر ، وقلبك التفكر ، ولا تهتم برزق غد فإنها خطيئة[٥] .

وعنه عليه السلام أنه قال : كما أنه لا يستطيع أحدكم أن يتّخذ على موج البحر داراً فلا يتخذ الدنيا قراراً[٦] .

وفي هذا يقول سابق البربري[٧] : [من البسيط]

لكُم بيوتٌ بمستَنِّ السُّيوفِ وهَلْ   يُبنَى على الماءِ بيتٌ أُسُّه مَدَرُ

وقال سفيان الثوري : قال عيسى بن مريم : لا يستقيم حبُّ الدنيا وحبُّ الآخرة في قلب مؤمن ، كما لا يستقيم الماء والنار في إناءٍ[٨] .

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١١٨) .
(٢) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١١٨) .
(٣) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١١٨) .
(٤) المصدر السابق (٢٠/ ١١٩) .
(٥) الخبر في مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١١٨) ، وهو عن عتبة بن يزيد .
(٦) المصدر السابق (٢٠/ ١٢٠) .
(٧) هو أبو سعيد سابق بن عبد الله ، شاعر أموي ، سكن الرقة ، ووفد على عمر بن عبد العزيز . واتصف شعره بالزهد والموعظة . توفي نحو سنة (١٠٠هـ) .
والبربري : لقب له ، وليس نسبة إلى البربر . ترجمته في مختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٨٠) خزانة الأدب (٩/ ٥٣٢) والأعلام (٣/ ٦٩) .
(٨) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٢٠) .

وقال إبراهيم الحربي ، عن داود بن رُشيد ، عن أبي عبد الله الصوفي قال : قال عيسى[١] : طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر ؛ كلّما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله[٢] .

وعن عيسى عليه السلام : إن الشيطان مع الدنيا ، ومَكْرُهُ[٣] مع المال ، وتزيينه مع الهوى ، واستمكانه عند الشهوات[٤] .

وقال الأعمش ، عن خيثمة : كان عيسى يصنع الطعام لأصحابه ويقوم عليهم ويقول : هكذا فاصنعوا بالقرى[٥] .

وبه قالت امرأة لعيسى عليه السلام : طوبى لحِجْر [حملك ولثدي أرضعك . فقال : طوبى لمن قرأ كتاب الله واتبعه .

وعنه : طوبى][٦] لمن بكى من ذكر خطيئته ، وحفظ لسانه ، ووسعه بيته[٧] .

وعنه : طوبى لعين نامت ولم تحدِّث نفسها بالمعصية ، وانتبهت إلى غير إثم[٨] .

وعن مالك بن دينار قال : مرّ عيسى وأصحابه بجيفة ، فقالوا : ما أنتن ريحَها ! فقال : ما أبيض أسنانَها ، لينهاهم عن الغيبة[٩] .

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا الحسين بن عبد الرحمن ، عن زكريا بن عدي قال : قال عيسى بن مريم : يا معشر الحواريين ارضوا بدَنيِّ الدُّنيا مع سلامة الدين كما رضي أهل الدنيا بِدَنيِّ الدين مع سلامة الدنيا . قال زكريا : وفي ذلك يقول الشاعر : [من البسيط]

أرى رِجالاً بأدنى الدِّينِ قَدْ قَنِعوا ... ولا أَراهُم رَضُوا في العَيْشِ بالدّونِ
فاستَغْنِ بالدينِ عنْ دنيا الملوكِ كما ... اسْتغنَى الملوكُ بدُنياهُم عنِ الدِّينِ[١٠]

---

(١) في هامش ب : لعله : مثل .
(٢) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٢٠) .
(٣) في ط . وفكره من المال .
(٤) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٢٠) .
(٥) في ب : تصنعوا بالفقراء . وفي ط : فاصنعوا بالقرى .
والخبر في مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٢١) ، ونصه : إذا صنع الطعام ، فدعا القرّاء ، قام عليهم ثم قال : هكذا فافعلوا بالقراء .
(٦) سقطت من ب بنقلة عين . والخبر في مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٢١) .
(٧) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٢١) .
(٨) المصدر السابق .
(٩) المصدر السابق (٢٠/ ١٢٢) .
(١٠) أورده ابن منظور في مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٢٣ ـ ١٢٤) .

وقال أبو مصعب ، عن مالك : قال عيسى ابن مريم عليه السلام : لا تكثروا الحديث بغير ذكر الله فتقسوَ قلوبكم ، فإن القلب القاسي بعيدٌ من الله ولكن لا تعلمون . ولا تنظروا في ذنوب العباد كأنكم أرباب ، وانظروا فيها كأنكم عبيد ، فإنما الناس رجلان معافى ومبتلًى ، فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية[١] .

وقال الثوري : سمعت أبي يقول ، عن إبراهيم التيمي قال : قال عيسى لأصحابه : بحقٍّ أقول لكم : من طلب الفردوس فخبز شعير له[٢] والنوم في المزابل مع الكلاب كثير[٣] .

وقال مالك بن دينار : قال عيسى : إن أكل الشعير مع الرَّماد ، والنوم على المزابل مع الكلاب لقليل في طلب الفردوس .

وقال عبد الله بن المبارك : أخبرنا سفيان ، عن منصور ، عن سالم بن أبي الجعد قال : قال عيسى : اعملوا لله ولا تعملوا لبطونكم ، انظروا لهذه الطير تغدو وتروح لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها ، فإن قلتم : نحن أعظم بطوناً من الطير ، فانظروا إلى هذه الأباقر[٤] من الوحوش والحمر فإنها تغدو وتروح لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها[٥] .

وقال صفوان بن عمرو ، عن شريح بن عبيد الله ، عن يزيد بن ميسرة قال : قال الحواريون للمسيح : يا مسيح الله انظر إلى مسجد الله ما أحسنه ، قال : آمين آمين بحقٍّ أقول لكم : لا يترك الله من هذا المسجد حجراً قائماً إلا أهلكه بذنوب أهله ، إن الله لا يصنع بالذهب ولا بالفضة ولا بهذه الأحجار التي تعجبكم شيئاً ، إنّ أحبّ إلى الله منها القلوب الصالحة ، وبها يعمرُ الله الأرض ، وبها يخرب الله الأرض إذا كانت على غير ذلك[٦] .

وقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر في « تاريخه » : أخبرنا أبو منصور أحمد بن محمد الصوفي ، أخبرتنا عائشة بنت الحسن بن إبراهيم الوَرْكانية[٧] ، قالت : حدّثنا أبو محمد عبد الله بن عمر بن عبد الله بن الهيثم إملاءً ، حدّثنا الوليد بن أبان إملاءً ، حدّثنا أحمد بن جعفر الرازي ، حدّثنا سهل بن

---

(١) المصدر السابق (٢٠/ ١٢٤) .
(٢) قوله : له . زيادة من ب ، وهي كذلك في مختصر ابن منظور .
(٣) زاد في ب : في حقه . والخبر في مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٢٤) .
(٤) في ط : الأباقير . وفي مختصر ابن منظور : الأنافر .
(٥) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٢٤) .
(٦) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٢٨) .
(٧) الوركانية : نسبة إلى محلة بأصبهان . وعائشة بنت الحسن هذه عالمة واعظة ، توفيت سنة (٤٦٣هـ) . اللباب (٣/ ٣٦١) .

إبراهيم الحنظلي ، حدّثنا عبد الوهاب بن عبد العزيز ، عن المعتمر ، عن ليث ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : مرّ عيسى عليه السلام على مدينة خربة فأعجبه البنيان ، فقال : أي ربّ مُر هذه المدينة أن تجيبني . فأوحى الله إلى المدينة : أيتها المدينة الخربة جاوبي عيسى . قال : فنادت المدينة عيسى : حبيبي وما تريد مني ؟ قال : ما فعل أشجارك ؟ وما فعل أنهارك ؟ وما فعل قصورك ؟ وأين سكانك ؟ قالت : حبيبي جاء وعد ربك الحق ، فيبست أشجاري ، ونشفت أنهاري ، وخربت قصوري ، ومات سكاني . قال : فأين أموالهم ؟ فقالت : جمعوها من الحلال والحرام موضوعة في بطني ، لله ميراث السموات والأرض . قال : فنادى عيسى عليه السلام : تعجَّبت[١] من ثلاثة أناس : طالب الدنيا والموت يطلبه ، وباني القصور والقبر منزله ، ومن يضحك ملء فيه والنار أمامه . ابنَ آدم لا بالكثير تشبع ، ولا بالقليل تقنع ، تجمع مالك لمن لا يحمدك ، وتقدم على رب لا يعذرك ، إنما أنت عبد بطنك وشهوتك ، وإنما يُملأ بطنك إذا دخلت قبرك . وأنت يا ابن آدم ترى حشد مالك في ميزان[٢] غيرك .

هذا حديث غريب جداً ، وفيه موعظة حسنة فكتبناه لذلك .

وقال سفيان الثوري ، عن أبيه ، عن إبراهيم التيمي قال : قال عيسى عليه السلام : يا معشر الحواريين اجعلوا كنوزكم في السماء ، فإن قلب الرجل حيث كنزه[٣] .

وقال ثور بن يزيد ، عن عبد العزيز بن ظبيان قال : قال عيسى ابن مريم : من تعلّم وعَلِم وعمل دُعي عظيماً في ملكوت السماء[٤] .

وقال أبو كريب : روي أن عيسى عليه السلام قال : لا خير في علم لا يَعْبُر معك الوادي ويعبر بك النادي[٥] .

وروى ابن عساكر بإسناد غريب عن ابن عباس مرفوعـاً : أن عيسى قام في بني إسرائيل فقال : يا معشر الحواريين لا تحدِّثوا بالحكمة[٦] غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ، والأمور ثلاثة : أمرٌ تبيَّن رشده فاتبعوه ، وأمر تبين غيُّه فاجتنبوه ، وأمر اختلف عليكم فيه ، فردُّوا علمه إلى الله عز وجل[٧] .

---

(١) كذا في ب ، ومختصر ابن منظور ، وهو الأشبه بالصواب . وفي أ وط : فعجبت .
(٢) في ب : ميراث . وفي مختصر ابن منظور (٢٠/١٢٨ ـ ١٢٩) . ترى حسد مالك في ميزان غيرك .
(٣) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/١٢٩) .
(٤) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/١٢٩) .
(٥) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/١٢٩) ، وفيه : ولا يعمر بك النادي .
(٦) كذا في ب ، وهو موافق لما في مختصر تاريخ دمشق . وفي أ وط : بالحكم .
(٧) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/١٢٩ ـ ١٣٠) .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا مَعْمَر ، عن رجل ، عن عِكرمة قال : قال عيسى : لا تطرحوا اللؤلؤ إلى الخنزير ، فإن الخنزير لا يصنع باللؤلؤ شيئاً ، ولا تعطوا الحكمة من لا يريدها ، فإن الحكمة خير من اللؤلؤ ، ومن لا يريدها شر من الخنزير[١] .

وكذا حكى وهب وغيره عنه . وعنه أنه قال لأصحابه : أنتم ملح الأرض ، إذا فسدتم فلا دواء لكم ، وإن فيكم خصلتين من الجهل : الضحك من غير عُجب ، والصُّبْحة من غير سهر[٢] .

وعنه أنه قيل له : من أشد الناس فتنة ؟ قال : زلّة العالم . فإن العالم إذا زلَّ يزلُّ بزلَّته عالم كثير[٣] .

وعنه أنه قال : يا علماء السوء جعلتم الدنيا على رؤوسكم ، والآخرة تحت أقدامكم ، قولكم شفاءٌ وعملكم داءٌ ، مَثَلكم مثل شجرة الدفلى[٤] تُعْجِبُ من رآها وتَقْتُلُ مَنْ أَكَلَها[٥] .

وقال وهب : قال عيسى : يا علماء السوء جلستم على أبواب الجنة فلا تدخلونها ، ولا تَدَعون المساكين يدخلونها ، إن شر الناس عند الله عالم يطلب الدنيا بعلمه[٦] .

وقال مكحول : التقى يحيى وعيسى ، فصافحه عيسى وهو يضحك ، فقال له يحيى : يا ابن خالة مالي أراك ضاحكاً كأنك قد أمنت ؟! فقال له عيسى : مالي أراك عابساً كأنك قد يئست . فأوحى الله إليهما إن أحبكما إليّ أبشُّكما بصاحبه[٧] .

وقال وهب بن منبه : وقف عيسى هو وأصحابه على قبر وصاحبه يُدلّى فيه ، فجعلوا يذكرون القبر وضيقه ، فقال : قد كنتم فيما هو أضيق منه من أرحام أمهاتكم ، فإذا أحب الله أن يوسّع وَسَّع[٨] .

وقال أبو عمر الضرير : بلغني أن عيسى كان إذا ذكر الموت تفطّر جلده دماً .

والآثار في مثل هذا كثيرة جداً . وقد أورد الحافظ ابن عساكر[٩] منها طرفاً صالحاً اقتصرنا منها على هذا القدر . والله الموفق للصواب .

* * *

(١) وهو في مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٣٠) .
(٢) المصدر السابق . والصبحة : نوم الغداة .
(٣) المصدر السابق .
(٤) الدفلى : شجر مرّ ، أخضر حسن المنظر ، لا يأكله شيء ، وهو من السموم .
(٥) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٣١) .
(٦) المصدر السابق .
(٧) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٣٤) .
(٨) المصدر السابق .
(٩) مختصره لابن منظور (٢٠/ ٨٢ ـ ١٥٤) .

ذكر[١] رفع عيسى عليه السلام إلى السماء
في حفظ الربّ وبيانِ كذب اليهود والنصارى عليهم لعائن الله في دعوى الصلب

قال الله تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [آل عمران : ٥٤ ـ ٥٥] .

وقال تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ١٥٥ ـ ١٥٩] فأخبر تعالى أنه رفعه إلى السماء بعدما توفاه بالنوم ، على الصحيح المقطوع به ، وخلّصه ممن كان أراد أذيّته من اليهود الذين وشَوا به إلى بعض الملوك الكفَرة في ذلك الزمان .

قال الحسن البصري ، ومحمد بن إسحاق : كان اسمه داود بن نودا[٢] ، فأمر بقتله وصلبه ، فحصروه في دارٍ ببلد بيت[٣] المقدس ، وذلك عشية الجمعة ليلة السبت ، فلما حان وقت دخولهم ، أُلقي شبهه على بعض أصحابه الحاضرين عنده ، ورُفع عيسى من رَوْزَنة[٤] من ذلك البيت إلى السماء وأهل البيت ينظرون ، ودخل الشُّرَط فوجدوا ذلك الشاب الذي أُلقي عليه الشبه ، فأخذوه ظانّين أنّه عيسى ، فصلبوه ووضعوا الشوك على رأسه إهانةً له ، وسلَّم لليهود عامةُ النصارى الذين لم يشاهدوا ما كان من أمر عيسى أنه صُلب ، وضَلوا بسبب ذلك ضلالاً مبيناً كثيراً فاحشاً بعيداً . وأخبر تعالى بقوله : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ أي بعد نزوله إلى الأرض في آخر الزمان قبل قيام الساعة ، فإنه ينزل ويقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ويضع الجزية ، ولا يقبل إلا الإسلام كما بيَّنا ذلك ، بما ورد فيه من الأحاديث عند تفسير هذه الآية الكريمة من سورة النساء[٥] ، وكما سنورد ذلك مستقصًى في كتاب الفتن

---

(١) ليست في ط .
(٢) في مختصر تاريخ دمشق : بوذا . الخبر ثمة (٢٠/ ١٣٥) .
(٣) في ب : ببلد في بيت . وفي ط : ببيت المقدس .
(٤) ليست في ط . والروزنة : الكوة ، أو الخرق في أعلى السقف .
(٥) تفسير ابن كثير .

والملاحم[١] عند أخبار المسيح الدجّال ، فنذكر ما ورد في نزول المسيح المهدي عليه السلام من ذي الجلال لقتل المسيح الدجال الكذاب الداعي إلى الضلال ، وهذا ذكر ما ورد في الآثار في صفة رفعه إلى السماء .

قال ابن أبي حاتم : حدّثنا أحمد بن سنان ، حدّثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه وفي البيت اثنا عشر رجلاً منهم من الحواريين ، يعني فخرج عليهم من عين في البيت ، ورأسه يقطر ماءً ، فقال : إنّ منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي ، ثمّ قال : أيّكم يُلقى عليه شبهي فيُقتل مكاني فيكون معي في درجتي؟ فقام شاب من أحدثهم سناً، فقال له : اجلس . ثمّ أعاد عليهم ، فقام الشاب ، فقال : اجلس . ثمّ أعاد عليهم ، فقام الشاب ، فقال : أنا ، فقال : أنت ، هو ذاك ، فأُلقي عليه شبه عيسى ، ورُفع عيسى من رَوْزَنةٍ في البيت إلى السماء . قال : وجاء الطلب من اليهود ، فأخذوا الشبه ، فقتلوه ، ثمّ صلبوه ، فكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به ، وافترقوا ثلاث فرق ، فقالت طائفة : كان الله فينا ما شاء ، ثمّ صعد إلى السماء ، هؤلاء اليعقوبية، وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء ثمّ رفعه الله إليه ، وهؤلاء النسطورية . وقالت فرقة : كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء المسلمون . فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها ، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ . قال ابن عباس : وذلك قوله تعالى : ﴿ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴾[٢] [الصف : ١٤] .

وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس على شرط مسلم .

ورواه النسائي عن أبي كُريب ، عن أبي معاوية ، به نحوه .

ورواه ابن جرير ، عن سَلْم[٣] بن جُنادة ، عن أبي معاوية .

وهكذا ذكر غير واحد من السلف . وممن ذكر ذلك مطولاً محمد بن إسحاق بن يسار قال : وجَعَل عيسى عليه السلام يدعو الله عز وجل أن يؤخّر أجله ، يعني ليبلّغ الرسالة ويكمل الدعوة ويكثر الناس الدخول في دين الله ، قيل : وكان عنده من الحواريين اثنا عشر رجلاً : فطرس[٤] ، ويعقوب بن زبدا ، ويحنس أخو يعقوب ، واندرابيس ، وابن قلما ، ومتى ، وتوماس ، ويعقوب بن خلفايا ،

---

(١) في آخر هذا الكتاب .
(٢) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/١٣٨) .
(٣) في ب : ابن خزيمة . وفي ط : مسلم بن جنادة . وهو تحريف . وسَلْم بن جنادة بن سلم السُّوائي ، أبو السائب الكوفي وثقه ابن حجر في التقريب (١/ ٣١٣) . توفي سنة (٢٥٤هـ) .
والخبر أورده ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٨/ ٦٠) .
(٤) حصل في أسماء الحواريين تصحيف وتحريف كثير بين المطبوع ونسخنا . وكذلك في تفسير الطبري (٦/ ١١) .

وتراوسيس ، وقنانيا ، ويودس ، وزكريا يوطا ، وهذا هو الذي دلّ اليهود على عيسى .

قال ابن إسحاق : وكان فيهم رجل آخر اسمه سرجس كتمته النصارى ، وهو الذي أُلقي شبه المسيح عليه فصُلِب عنه . قال : وبعض النصارى يزعم أن الذي صُلب عن المسيح وأُلقي عليه شبهه هو يودس بن زكريا يوطا . والله أعلم .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس : استخلف عيسى شمعون ، وقتلت اليهود يوذا[١] الذي ألقي عليه الشبه[٢] .

وقال أحمد بن مروان : حدثنا محمد بن الجهم قال : سمعت الفَرَّاء[٣] يقول في قوله : ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٤] قال : إن عيسى غاب عن خالته زماناً فأتاها ، فقام رأس الجالوت اليهودي ، فضرب على عيسى حتى اجتمعوا على باب داره ، فكسروا الباب ، ودخل رأس جالوت[٤] ليأخذ عيسى ، فطمس الله عينيه عن عيسى[٥] ، ثمّ خرج إلى أصحابه فقال : لم أره . ومعه سيف مسلولٌ ، فقالوا : أنت عيسى . وألقى الله شبه عيسى عليه ، فأخذوه فقتلوه وصلبوه . فقال جلَّ ذِكْرُه : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْۚ ﴾ [النساء : ١٥٧] .

وقال ابن جرير[٦] : حدّثنا ابن حميد ، حدّثنا يعقوب القُمِّي ، عن هارون بن عنترة ، عن وهب بن منبه قال : أتى عيسى ومعه سبعة عشر من الحواريين في بيت ، فأحاطوا بهم ، فلما دخلوا عليهم صوَّرهم[٧] الله كلّهم على صورة عيسى ، فقالوا لهم : سَحَرْتمونا ، لتُبْرِزُنَّ إلينا[٨] عيسى أو لنقتلنّكم جميعاً ، فقال عيسى لأصحابه : من يشتري منكم[٩] نفسه اليوم بالجنة ؟ فقال رجل منهم : أنا ، فخرج إليهم فقال : أنا عيسى ، وقد صوَّره الله على صورة عيسى ، فأخذوه فقتلوه وصلبوه ، فمن ثَم شُبّه لهم وظنوا أنهم قد قتلوا عيسى . وظنت النصارى مثل ذلك أنه عيسى ، ورَفَعَ اللهُ عيسى من يومه ذلك .

---

(١) في ط : يودس . وفي مختصر تاريخ دمشق بوذا .
(٢) الخبر في مختصر تاريخ دمشق (٢٠/١٣٩) .
(٣) معاني القرآن (١/٢١٨) . وفيه اختلاف عما هاهنا .
(٤) في ب : الجالوت . وكذلك في مختصر تاريخ دمشق .
(٥) في ب : فوقع يمشي ثم خرج . .
(٦) تفسيره (٦/١٠) .
(٧) كذا في ط . وهو موافق لما في تفسير الطبري . وفي أ : عليه صورهم .
وفي ب : عليه صوره .
(٨) في ب : ليبرز لنا . وفي تفسير الطبري : لتبرزن لنا .
(٩) قوله : منكم ، زيادة من ب وط . وفي تفسير الطبري نفسه منكم .

قال ابن جرير[١] : وحدّثنا المثنى ، حدّثنا إسحاق ، حدّثنا إسماعيل بن عبد الكريم ، حدّثني عبد الصمد بن مَعْقِل أنه سمع وَهْباً يقول : إن عيسى ابن مريم لما أعلمه الله أنه خارج من الدنيا ، جَزِعَ من الموت وشقَّ عليه ، فدعا الحواريين وصنع لهم طعاماً ، فقال : احضُروني الليلة فإن لي إليكم حاجةً ، فلما اجتمعوا إليه من الليل عشّاهم وقام يخدمهم ، فلما فرغوا من الطعام أخذ يغسل أيديهم ويوضئهم بيده[٢] ، ويمسح أيديهم بثيابه ، فتعاظموا ذلك وتكارهوه ، فقال : ألا من ردّ عليّ شيئاً الليلة[٣] مما أصنع فليس مني ولا أنا منه ، فأقرّوه حتى إذا فرغ من ذلك قال : أمَّا ما صنعت بكم الليلة مما خدمتكم على الطعام وغسّلت أيديكم بيدي ، فليكن لكم بي أسوة فإنكم ترون أني خيركم فلا يتعظّم بعضكم على بعض ، وليبذل بعضكم نفسه لبعض[٤] كما بذلت نفسي لكم ، وأما حاجتي الليلة التي استعنتكم عليها فتدعون لي الله وتجتهدون في الدعاء أن يؤخر أَجَلي ، فلما نصبوا أنفسهم للدّعاء وأرادوا أن يجتهدوا أخذهم النوم حتى لم يستطيعوا دعاءً ، فجعل يوقظهم ويقول : سبحان الله أما تصبرون لي ليلة واحدة تعينوني فيها ؟ فقالوا : والله ما ندري مالنا ! والله لقد كنّا نسمر فنكثر السّمر وما نطيق الليلة سمراً ، وما نريد دعاءً إلا حِيْل بيننا وبينه ! فقال : يَذهب الراعي وتتفرّق الغنم ، وجعل يأتي بكلام نحو هذا ينعى به نفسه .ثمّ قال : الحق ليكفرن بي أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات ، وليبيعني أحدكم بدراهم يسيرة وليأكلنّ ثمني . فخرجوا وتفرّقوا ، وكانت اليهود تطلبه ، فأخذوا شمعون أحد الحواريين فقالوا : هذا من أصحابه ، فجحد وقال : ما أنا بصاحبه ، فتركوه . ثمّ أخذه آخرون فجحد كذلك ، ثمّ سمع صوتَ ديك فبكى وأحزنه . فلما أصبح أتى أحد الحواريين إلى اليهود ، فقال : ما تجعلون لي إن دللتُكم على المسيح ؟ فجعلوا له ثلاثين درهماً ، فأخذها ودلّهم عليه ، وكان شبّه عليهم قبل ذلك ، فأخذوه واستوثقوا منه وربطوه بالحبل ، وجعلوا يقودونه ويقولون : أنت كنت تُحيي الموتى وتنتهر الشيطان[٥] وتبرىء المجنون ، أفلا تنجي[٦] نفسك من هذا الحبل ، ويبصقون عليه ، ويلقون عليه الشوك حتى أَتَوا به الخشبة التي أرادوا أن يصلبوه عليها ، فرفعه الله إليه وصلَبوا ما شُبّه لهم ، فمكث سبعاً . ثم إن أمه والمرأة التي كان يداويها عيسى فأبرأها الله من الجنون جاءتا تبكيان حيث كان المصلوب ، فجاءهما عيسى فقال : عَلامَ تبكيان ؟ قالتا : عليك . فقال : إني قد رفعني الله إليه ولم يُصِبْني إلاّ خير ، وإن هذا شيء شُبّه لهم .

---

(١) تفسيره (٦/ ١٠ ـ ١١) . والخبر في مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٣٦) .
(٢) كذا في ط . وهو موافق لما في تفسير الطبري . وفي أ وب أخذ يوضئهم ويغسل أيديهم بيده .
(٣) كذا في ط . وهو موافق لما في تفسير الطبري . وفي ب . شيئاً عليَّ . وفي أ : الليلة شيئاً .
(٤) في ط . وتفسير الطبري لبعض نفسه .
(٥) كذا في ط . وتفسير الطبري . وفي أ : وتنهر الشياطين .
(٦) كذا في ب . وط . وتفسير الطبري . وفي أ : تفتكّ .

فأُمِرَا الحواريين أن يَلقوني إلى مكان كذا وكذا ، فلقوه إلى ذلك المكان أحد عشر ، وفَقَد الذي كان باعه ودلَّ عليه اليهود فسأل عنه أصحابَه ، فقالوا : إنه ندم على ما صنع فاختنق وقَتَل نفسه . فقال لو تاب لتاب الله عليه . ثمّ سألهم عن غلام كان يتبعهم يقال له : يحيى ، فقال : هو معكم فانطلقوا فإنه سيصبح كلّ إنسان منكم[1] يحدّث بلغة قومٍ فلينذرهم وليدْعُهم .

وهذا إسناد غريب عجيب ، وهو أصحّ مما ذكره النصارى لعنهم الله من أن المسيح جاء إلى مريم وهي جالسة تبكي عند جذعة فأراها أماكن المسامير من جسده ، وأخبرها أن روحه رفعت ، وأن جسده صلب . وهذا بُهت وكذب واختلاق وتحريف وتبديل ، وزيادة باطلة في الإنجيل على خلاف الحقّ ومقتضى النقل[2] .

وحكى الحافظ ابن عساكر من طريق يحيى بن حبيب فيما بلغه أن مريم سألت من بيت الملك بعد ما صُلب المصلوب بسبعة أيام ، وهي تحسب أنّه ابنها أن ينزل جسده ، فأجابهم إلى ذلك ، ودُفن هنالك . فقالت مريم لأم يحيى : ألا تذهبين بنا نزور قبر المسيح ؟ فذهبتا ، فلما دنتا من القبر قالت مريم لأم يحيى : ألا تستترين ؟ فقالت : وممن أستتر ؟ فقالت : من هذا الرجل الذي هو عند القبر . فقالت أم يحيى : إني لا أرى أحداً ، فرجت مريم أن يكون جبريلَ ، وكانت قد بعد عهدها به ، فاستوقفت أمَّ يحيى وذهبت نحو القبر ، فلما دنت من القبر قال لها جبريل ، وعرفته : يا مريم أين تريدين ؟ فقالت : أزور قبر المسيح فأسلّم عليه وأحدث[3] عهداً به . فقال : يا مريم إن هذا ليس المسيح ، إن الله قد رفع المسيحَ وطهَّره من الذين كفروا ، ولكن هذا الفتى الذي أُلقي شبهه عليه وصُلِبَ وقُتِلَ مكانه . وعلامة ذلك أن أهله قد فقدوه فلا يدرون ما فعل . فهم يبكون عليه ، فإذا كان يوم كذا وكذا فأْتي غيضة كذا وكذا فإنك تلقَيْن المسيح . قال : فرجعت إلى أختها وصعد جبريل فأخبرتها عن جبريل وما قال لها من أمر الغيضة . فلما كان ذلك اليوم ذهبت فوجدت عيسى في الغيضة ، فلما رآها أسرع إليها فأكبَّ عليها ، فقبَّل رأسها وجعل يدعو لها كما كان يفعل ، وقال : يا أُمَّه إن القوم لم يقتلوني ، ولكنَّ الله رفعني إليه وأذن لي في لقائك ، والموت يأتيك قريباً ، فاصبري واذكري الله كثيراً . ثمّ صعد عيسى فلم تلقه إلا تلك المرة حتى ماتت .

قال : وبلغني أن مريم بقيت بعد عيسى خمس سنين وماتت ولها ثلاث وخمسون سنة رضي الله عنها وأرضاها .

وقال الحسن البصري : كان عمر عيسى عليه السلام يومَ رُفع أربعاً وثلاثين سنة .

---

(١) قوله : منكم . زيادة من ط . وتفسير الطبري .
(٢) في ب : الدليل .
(٣) في ب : وأحدثه .

وفي الحديث : « إنَّ أهلَ الجنة يدخلونها جُرداً مُرداً مكحّلين أبناء ثلاث وثلاثين »[١] .

وفي الحديث الآخر على ميلاد عيسى وحُسْنِ يوسف[٢] .

وكذا قال حماد بن سلمة ، عن علي بن زَيْد[٣] ، عن سعيد بن المسيب أنه قال : رُفع عيسى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة .

فأما الحديث الذي رواه الحاكم في « مستدركه » ويعقوب بن سفيان الفسوي في « تاريخه »[٤] عن سعيد بن أبي مريم ، عن نافع عن يزيد ، عن عمارة بن غَزيّة ، عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان ، أن أمَّه فاطمة بنت الحسين حدّثته أن عائشة كانت تقول : أخبرتني فاطمة أن رسول الله ﷺ أخبرها[٥] أنه لم يكن نبي كان بعده نبي إلا عاش الذي بعده نصف عمر الذي كان قبله ، وأنه أخبرني أن عيسى بن مريم عاش عشرين ومئة سنة ، فلا أراني إلا ذاهب على رأس ستين . هذا لفظ الفسوي ، فهو حديث غريب[٦] .

قال الحافظ ابن عساكر : والصحيح أن عيسى لم يبلغ هذا العمر ، وإنما أراد به مدة مقامه في أمته كما روى سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة قال : قالت فاطمة : قال لي رسول الله ﷺ : إن عيسى بن مريم مكث في بني إسرائيل أربعين سنة[٧] . وهذا منقطع .

وقال جرير والثوري عن الأعمش عن إبراهيم : مكث عيسى في قومه أربعين عاماً .

ويروى عن أمير المؤمنين علي أن عيسى عليه السلام رُفع في ليلة الثاني والعشرين من رمضان ، وتلك الليلة في مثلها توفي علي بعد طعنه بخمسة أيام[٨] .

وقد روى الضحاك عن ابن عباس أن عيسى لما رُفع إلى السماء جاءته سحابة فدنت منه حتى جلس عليها ، وجاءته مريم فودَّعته وبكت ، ثمّ رُفع وهي تنظر ، وألقى إليها عيسى برداً له وقال : هذا علامة ما بيني وبينك يوم القيامة ، وألقى عمامته على شمعون ، وجعلت أُمُّه تودعه بإصبعها تشير بها إليه حتى

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٤٥) ، في صفة الجنة ، باب ما جاء في سن أهل الجنة ، وأحمد في المسند (٥/ ٢٤٣) . من طريق معاذ بن جبل رضي الله عنه .
وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب ، وبعض أصحاب قتادة رووا هذا عن قتادة مرسلاً ولم يسندوه .

(٢) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٤٢) .

(٣) في ط : « يزيد » محرف ، وهو علي بن زيد بن جُدعان ، ضعيف ، من رجال التهذيب .

(٤) لعل الحديث ورد في القسم المفقود من كتابه « المعرفة والتاريخ » لأن المطبوع منه يبدء بسنة (١٣٥هـ) .

(٥) قوله : أخبرها ، زيادة من ب وط .

(٦) زاد في ب جداً . والخبر مفصلاً أورده ابن عساكر . مختصر تاريخه (٢٠/ ١٤١ ـ ١٤٢) .

(٧) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٤٢) .

(٨) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٤١) .

غاب عنها ، وكانت تحبّه حباً شديداً ، لأنه توفر عليها حُبُّه من جهتي الوالدين ، إذْ لا أبَ له ، وكانت لا تفارقه سَفَراً ولا حضراً . فكانت كما قال بعض الشعراء :

وكُنتُ أرى كالموْتِ من بَينِ ساعةٍ فكيفَ بِبَيْنٍ كانَ مَوْعِدَه الحَشْرُ

وذكر إسحاق بن بِشْر ، عن مجاهد بن جبر[١] أن اليهود لمَّا صَلبوا ذلك الرّجل الذي شُبّه لهم ، وهم يحسبونه المسيح ، وسَلّم لهم أكثر النصارى بجهلهم ذلك ، تسلّطوا على أصحابه بالقتل والضرب والحبس ، فبلغ أمرهم إلى صاحب الروم ، وهو ملك دمشق في ذلك الزمان ، فقيل له : إن اليهود قد تسلّطوا على أصحاب رجلٍ كان يذكر لهم أنه رسول الله ، وكان يُحيي الموتى ، ويبرىء الأكمه والأبرص ، ويفعل العجائب ، فَعَدَوا عليه فقتلوه وأهانوا أصحابه وحبسوهم ، فبعث ، فجيء بهم وفيهم يحيى بن زكريا وشمعون وجماعة ، فسألهم عن أمر المسيح ، فأخبروه عنه ، فبايعهم في دينهم ، وأعلى كلمتهم ، وظهر الحق على اليهود ، وعلت كلمة النصارى عليهم ، وبعث إلى المصلوب فوضع عن جذعه ، وجيء بالجذع الذي صُلب عليه ذلك الرجل فعظَّمه[٢] .

فمن ثَمَّ عَظَّمتِ النصارى الصليبَ ، ومن هاهنا دخل دين النصرانية في الروم[٣] .

وفي هذا نظر من وجوه :

أحدها : أن يحيى بن زكريا نبيٌّ لا يُقرُّ على أن المصلوب عيسى ، فإنه معصوم يعلم ما وقع على جهة الحق .

الثاني : أن الروم لم يدخلوا في دين المسيح إلا بعد ثلاثمئة سنة ، وذلك في زمان قسطنطين بن قسطن[٤] باني المدينة المنسوبة إليه على ما سنذكره .

الثالث : أنّ اليهود لما صلبوا ذلك الرجل ثمّ ألقوه بخشبته ، جعلوا مكانه مطرحاً للقمامة والنجاسة[٥] وجِيف الميتات والقاذورات ، فلم يزل كذلك حتى كان في زمان قسطنطين المذكور ، فعمدت أُمُّه هيلانة الحرّانية الفندقانية ، فاستخرجته من هنالك معتقدة أنه المسيح ، ووجدوا الخشبة التي صُلب عليها المصلوب ، فذكروا أنه ما مسّها ذو عاهة إلا عوفي . فالله أعلم أكان هذا أم لا ، وهل كان هذا لأن ذلك

---

(١) في الأصول والمطبوع : جبير ، وهو تصحيف ، ومجاهد بن جبر ، هو مجاهد بن جبر ، أبو الحجاج المخزومي مولاهم المكي التابعي إمام في التفسير والعلم .
(٢) المصدر السابق (٢٠/ ١٣٩) .
(٣) مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٣٩ ـ ١٤٠) .
(٤) في ب : بن قسطنطين وفي بعض النسخ : قسطسن .
(٥) في ب : والكناسة .

الرجل الذي بذل نفسه كان رجلاً صالحاً أو كان هذا محنة وفتنة لأمّة النصارى في ذلك اليوم حتى عظَّموا تلك الخشبة وغَشَّوها بالذهب واللآلىء ، ومن ثمّ اتخذوا الصلبانات وتبرّكوا بشكلها وقبّلوها لعنهم الله وأمرت أم الملك هيلانة فأزيلت تلك القمامة وبُني مكانها كنيسة هائلة مزخرفة بأنواع الزينة ، فهي هذه المشهورة اليوم ببلد بيت المقدس التي يقال لها : القمامة باعتبار ما كان عندها ، ويسمونها : القيامة يعنون التي يقوم جسد المسيح منها . ثمّ أمرت هيلانة بأن توضع قمامة البلد وكناسته وقاذوراته على الصخرة التي هي قِبلة اليهود ، فلم يزل كذلك حتى فتح عمر بن الخطاب بيت المقدس ، فكنس عنها القمامة بردائه ، وطهرها من الأخباث والأنجاس ، ولم يضع المسجد وراءها ولكن أمامها حيث صلّى رسول الله ﷺ ليلة الإسراء بالأنبياء ، وهو الأقصى .

* * *

ذكر[١] صِفة عيسى عليه السلام وشمائله وفضائله

قال الله تعالى : ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ﴾ [المائدة: ٧٥].

قيل : سُمِّي المسيح لمسحه الأرض ، وهو سياحته فيها وفراره بدينه من الفتن في ذلك الزمان لشدّة تكذيب اليهود له وافترائهم عليه وعلى أمّه عليهما السلام .

وقيل : لأنه كان ممسوح القدمين[٢] .

وقال تعالى : ﴿ وقفَّيْنا علَىٰ آثارِهم[٣] بعيسىٰ بنِ مَرْيَمَ وآتَيْناهُ الإنْجِيْلَ فيهِ هُدىً ونُورٌ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ [البقرة : ٨٧] .

والآيات في ذلك كثيرةٌ جداً .

وقد تقدم[٤] ما ثبت في (الصحيحين)[٥] : « ما من مولود إلا والشيطان يطعن في خاصرته حين يولد فيستهلّ صارخاً إلا مريم وابنها ذهب يطعن فطعن في الحجاب » .

وتقدم[٦] حديث عُمير بن هانىء عن جنادة عن عبادة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من شهد أن لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبدُه ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » . رواه البخاري وهذا لفظه ، ومسلم[٧] .

---

(١) ليست في ط .

(٢) وثمة أقوال أخرى أوردها الأصفهاني في معجمه مفردات ألفاظ القرآن (٤٨٨) .

(٣) زاد في ط : برسلنا قفينا وهو التباس بالآية الكريمة الأخرى ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد : ٢٧] .

(٤) ص ٢٣١ .

(٥) في البخاري : رقم (٣٢٨٦) في بدء الخلق ، باب صفة إبليس وجنوده . ورقم (٣٤٣١) في الأنبياء ، باب قوله تعالى ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ ﴾ . ورقم (٤٥٤٨) في التفسير ، باب ﴿ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ . وأخرجه مسلم (٢٣٦٦) في الفضائل ، باب فضائل عيسى عليه السلام .
والاستهلال : صياح المولود عند الولادة . وقوله : فطعن في الحجاب ، أي : في المشيمة وهي التي يكون فيها المولود جامع الأصول (٨/ ٥٢٢ ـ ٥٢٣) .

(٦) صفحة ٢٥٠ . عن البخاري فقط .

(٧) صحيح مسلم رقم (٢٩) في الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة .

وروى البخاري[١] ومسلم[٢] من حديث الشعبي ، عن أبي بُرْدة بن أبي موسى ، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أدّبَ الرجلُ أَمَتَهُ فأحْسَنَ تأديبها ، وعلّمها فأحسن تعليمها ، ثمّ أعتقها ، فتزوّجها ؛ كان له أجران . وإذا آمن بعيسى ابن مريم ، ثم آمن بي فله أجران . والعبد إذا اتّقى ربّه وأطاع مواليه فله أجران » هذا[٣] لفظ البخاري .

وقال البخاري[٤] : حدثنا إبراهيم بن موسى ، أخبرنا هشام عن معمر ، « ح » وحدّثني محمود ، حدّثنا عبد الرزاق ، أخبرنا مَعْمَر ، عن الزُّهري ، أخبرني سعيد بن المسيِّب ، عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : « لَيلَةَ أُسْرِيَ بي لقيتُ موسى » قال : فنعته فإذا رَجُلٌ حَسِبْتُهُ قال مُضطرب رَجِلُ الرأس كأنه من رجال شنوءة . قال : « ولقيت عِيسى »فنعته النبي ﷺ فقال : « رَبْعَةٌ أَحْمَرُ كأَنّما خَرَجَ مِن دِيماس » يعني : الحمّام « ورأيتُ إبراهيمَ وأنا أَشْبَهُ ولده به » . الحديث .

وقد تقدم في قصتي إبراهيم[٥] وموسى[٦] .

ثم قال : حدّثنا محمد بن كثير ، أخبرنا إسرائيل ، عن عثمان بن المغيرة ، عن مجاهد ، عن ابن عمر قال : قال النبي ﷺ : « رأيتُ عِيسى وموسى وإبراهيم ، فأمّا عيسى فأحمرُ جَعْدٌ عريضُ الصَّدْر . وأما موسَى فآدمُ جَسِيْمٌ سَبِطٌ ، كأنّه من رِجال الزُّطِّ » تفرّد به البخاري[٧] .

وحدّثنا إبراهيم بن المنذر ، حدّثنا أبو ضَمْرة ، حدّثنا موسى بن عُقْبة ، عن نافع قال : قال عبد الله بن عمر : ذكر النبي ﷺ يوماً بينَ ظَهْراني الناسِ المسيحَ الدجّالَ فقال : « إنَّ اللهَ لَيْسَ بأعورَ إلاّ أنَّ المسيحَ

---

(١) صحيح البخاري رقم (٩٧) ، في العلم ، باب تعليم الرجل أمته وأهله ، ورقم (٢٥٤٤) و(٢٥٤٧) في العتق ، باب فضل من أدب جاريته وعلمها ، ورقم (٣٠١١) ، في الجهاد ، باب فضل من أسلم من أهل الكتابين ، ورقم (٣٤٤٦) في أحاديث الأنبياء، ورقم (٥٠٨٣) ، في النكاح ، باب اتخاذ السراري ، ومن أعتق جارية ثم تزوجها .

(٢) صحيح مسلم رقم (١٥٤) ، في الإيمان ، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ .

(٣) هذا ، زيادة من ط . وثمة اختلاف بين لفظ البخاري والنص هنا .

(٤) صحيح البخاري رقم (٣٤٣٧) في الأنبياء ، باب قول الله ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ ﴾ .
وكذلك هو فيه رقم (٣٣٩٤) في الأنبياء ، باب قول الله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾ من طريق إبراهيم بن موسى وحده . والرَّبْعة : المربوع . قال ابن حجر في الفتح (٦/ ٤٨٤) : والمراد أنه ليس بطويل جداً ولا قصير جداً ، بل وسط . والمراد بقوله : كأنما خرج من ديماس : أن يصفه بصفاء اللون ونضارة الجسم وكثرة ماء الوجه .

(٥) في الجزء الأول من هذا الكتاب .

(٦) في هذا الجزء ص (٥) .

(٧) صحيح البخاري رقم (٣٤٣٨) في الأنبياء ، باب قول الله ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ ﴾ .
والسبط : الذي ليس بجعد ، من صفات الشَّعر . والزُّط : جنس من السودان ، وقيل : هم نوع من الهنود ، وهم طوال الأجسام مع نحافة فيها . فتح الباري (٦/ ٤٨٥) .

الدجَّالَ أعورُ العينِ اليمنى كأنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طافِية . وأراني الليلةَ عِنْدَ الكَعْبَةِ في المنامِ فإذا رَجُلٌ آدَمُ كأحْسَنِ ما يُرى من أُدْمِ الرِّجالِ ، تَضْرِبُ لِمَّتُهُ بَينَ مَنْكِبَيْهِ ، رَجِلُ الشَّعْرِ ، يَقْطُرُ رأسُه ماءً ، واضعاً يديهِ على مَنْكِبي رَجُلَيْنِ ، وهُو يطوفُ بالبيت ، فقلتُ : من هذا ؟ فقالوا : المسيحُ بنُ مريمَ . ثُمَّ رأيتُ رَجُلاً وراءَهُ جَعْداً قَطَطاً أعْورَ عينِ اليُمْنَى كأشْبَهِ من رأيْتُ بابنِ قَطَنٍ ، واضعاً يدَه على مَنكبي رَجُل يطوفُ بالبيتِ ، فقلتُ : مَن هذا ؟ فقالوا : المسيحُ الدَّجَّال »[١] .

ورواه مسلم[٢] من حديث موسى بن عقبه به[٣] .

ثمّ قال البخاري : تابعه عُبيد الله ، عن نافع[٤] . ثمّ ساقه من طريق الزُّهري عن سالم [عن] ابن عمر . قال الزهري : وابن قَطَن رجل من خزاعة هلك في الجاهلية[٥] .

فبين صلوات الله وسلامه عليه صفة المسيحَيْنِ مسيحِ المهدي ومسيحِ الضلالة ، ليُعرَفَ هذا إذا نَزَل فيؤمن به المؤمنون ، ويُعرَف الآخر فيحذره الموحِّدون .

وقال البخاري[٦] : حدَّثنا عبد الله بن محمد ، حدّثنا عبد الرزاق ، أخبرنا مَعْمَر ، عن همام بن منبّه ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « رأى عيسى ابن مريم رجلاً يسرق ، فقالَ له : أسَرَقْتَ ؟ قال : كلاّ والذي لا إله إلا هو . فقال عيسى : آمنت بالله وكذّبْتُ عيني » .

وكذا رواه مسلم عن[٧] محمد بن رافع عن عبد الرزاق .

وقال أحمد[٨] : حدّثنا عفان ، حدّثنا حمّاد بن سلمة ، عن حُميد الطويل ، عن الحسن وغيره ، عن أبي هريرة قال : ولا أعلمه إلا عن النبي ﷺ قال : « رأى عيسى رَجُلاً يَسْرِقُ فقالَ : يا فلان أسرقت ؟ فقال : لا والله ما سرقت . فقال : آمنتُ باللهِ وكذَّبْتُ بصري » .

---

(١) رواه البخاري : رقم(٣٤٣٩) (٣٤٤٠) في الأنبياء ، باب قول الله ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ ﴾ .
وقوله : طافية : أي بارزة . وآدم : أسمر . واللمّة : شعر الرأس إذا جاوز الأذنين . ورجِل الشعر : أي قد سرحه ودهنه . والقطط : شدة جعودة الشعر .
(٢) صحيح مسلم رقم (١٦٩) ، في الإيمان ، باب ذكر المسيح بن مريم والمسيح الدجال .
(٣) به ، زيادة من ب .
(٤) في ط . عبد الله بن نافع . وهو خطأ .
(٥) صحيح البخاري رقم (٣٤٤١) . في الأنبياء ، باب ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ ﴾ .
(٦) صحيح البخاري رقم (٣٤٤٤) . في الأنبياء ، باب قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ ﴾ .
(٧) قوله : مسلم عن ، سقط من ط . والحديث في صحيح مسلم ، رقم(٢٣٦٨) ، في الفضائل ، باب فضائل عيسى عليه السلام .
(٨) المسند (٢/ ٣٨٣) .

وهذا يدلّ على سجيّةٍ طاهرة ، حيث قدّم حلف ذلك الرجل ، فظنَّ أن أحداً لا يحلف بعظمة الله كاذباً ، على ما شاهده منه عياناً ، فقبل عُذره ، ورجع على نفسه فقال : آمنت بالله ، أي : صدَّقْتُكَ ، وكذّبت بصري لأجل حلفك .

وقال البخاري[١] : حدّثنا محمد بن يوسف ، حدّثنا سُفيان ، عن المغيرة بن النعمان ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « تُحْشَرُونَ حُفاةً عُراةً غُرْلاً » ثمّ قرأ ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] فأوّلُ الخلقِ يُكْسَى إبراهيم ، ثمّ يُؤْخَذُ برجالٍ من أصحابي ذات اليمين وذات الشمال ، فأقول : أصحابي ! فيقال : إنّهم لن يزالوا مرتدّين على أعقابهم منذ فارقتَهُم . فأقول كما قال العبدُ الصالحُ عيسى ابنُ مريم ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة : ١١٧ ـ ١١٨] .

تفرّد به دون مسلم من هذا الوجه .

وقال[٢] أيضاً : حدّثنا عبد الله بن الزبير الحُمَيدي ، حدّثنا سفيان ، سمعت الزُّهْري يقول : أخبرني عُبَيد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس سمع عُمر يقول على المنبر : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « لا تُطْروني كما أطْرتِ النَّصارى عيسى ابنَ مريم ، فإنما أنا عبدٌ ، فَقُولُوا : عَبْدُ اللهِ ورسولُه » .

وقال البخاري[٣] : حدّثنا مسلم بن[٤] إبراهيم ، حدّثنا جرير بن حازم ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « لم يَتكلَّمْ في المهدِ إلاّ ثلاثةٌ : عيسى ، وكانَ في بني إسرائيل رجلٌ يقال له جُرَيج يُصَلِّي إذْ جاءته[٥] أُمُّهُ فدعتْه ، فقال : أُجِيْبُها أو أُصَلّي ؟ فقالت : اللهم لاتُمِتْهُ حَتّى تُريه وجوهَ الموساتِ . وكان جُريجٌ في صَوْمَعةٍ ، فتعرَّضت[٦] له امرأة وكلَّمته فأبى ، فأتت راعياً فأمكنته من نفسها ، فولدت غلاماً ، [فقيل لها : ممن ؟][٧] قالت : من جريج . فأتَوْه وكَسروا صومعته ، فأنزلوه وسبّوه . فتوضّأ وصلّى ، ثمّ أتى الغلامَ فقالَ : من أبوك يا غلام ؟ قال : فلانٌ الراعي . قالوا : أنبني صومعتَكَ من ذهب ؟ قال : لا ، إلا من طين . وكانتِ امرأةٌ تُرضعُ ابناً لها في بني إسرائيل ، فمرَّ بها رجلٌ

(١) صحيح البخاري رقم (٣٤٤٧) ، في الأنبياء ، باب قول الله تعالى ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ ﴾ .
(٢) صحيح البخاري رقم(٣٤٤٥) ، في الأنبياء ، باب ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ ﴾ .
(٣) صحيح البخاري رقم (٣٤٣٦) ، في الأنبياء ، باب قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ ﴾ .
(٤) قوله : مسلم بن سقط من ط .
(٥) في البخاري : كان يصلي فجاءته .
(٦) كذا في ب . وهو موافق لرواية البخاري ، في م وط « فعرضت » .
(٧) ليست في البخاري .

راكبٌ ذُو شَارَةٍ . فقالتْ : اللهمَّ اجعل ابني مثلَه ، فترك ثديَها وأقبلَ على الراكِب فقال : اللهم لا تجعلْني مثلَه . ثم أقْبلَ عَلى ثَدْيها يَمُصُّه . قال أبو هريرة : كأني أنظر إلى النبي ﷺ يمص أصبعه . « ثم مُر بأَمَةٍ ، فقالتْ : اللهم لا تجعل ابني مثلَ هذه . فتركَ ثديَها فقال : اللهم اجعلني مثلَها . فقالت : لم ذلك ؟ فقالت : الراكبُ جبَّارٌ من الجبابرة ، وهذه الأمَةُ يقولون سَرَقَتْ وزَنَتْ[1] ولم تفعل » .

وقال البخاري[2] : حدثنا أبو اليَمان، حدثنا شُعيب، عن الزهري، أخبرني أبو سَلَمة أن أبا هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أنا أَوْلى الناسِ بابنِ مَرْيَم ، والأنبياءُ أولادُ عَلاَّتٍ ، ليس بيني وبينه نبي » .

تفرد به البخاري من هذا الوجه .

ورواه ابن حِبَّان في « صحيحه » من حديث أبي داود الحَفَرِي[3] ، عن الثوري ، عن أبي الزناد ، عن أبي سَلَمة ، عن أبي هريرة .

وقال أحمد[4] : حدّثنا وكيع ، حدّثنا سفيان ـ هو الثوري ـ عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا أَوْلَى الناسِ بِعيسى عليه السلام ، والأنبياءُ إخْوةٌ أولادُ عَلاَّتٍ ، ولَيْس بيني وبين عِيسى نبي » .

وهذا إسناد صحيح على شرطهما ولم يخرجوه من هذا الوجه .

وأخرجه أحمد[5] عن عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه .

وأخرجه ابن حبان من حديث عبد الرزاق نحوه[6] .

وقال أحمد[7] : حدّثنا يحيى ، عن ابن أبي عَرُوبة ، حدّثنا قتادة ، عن عبد الرحمن بن آدم ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « الأنبياءُ إخْوةٌ لِعَلّات . ودِينُهم واحدٌ وأُمَّهاتُهم شَتّى . وأنا أَوْلى الناسِ بِعِيْسَى ابنِ مَرْيَم لأنَّه لم يَكُنْ بَيني وبَيْنه نبيٌّ ، وإنَّه نازِلٌ ، فإذا رأَيْتُموهُ فاعْرِفُوه ، فإنهُ رَجُلٌ مربوعٌ إلى الحُمْرةِ والبياضِ ، سَبط ، كأنَّ رأسَهُ يَقْطُرُ وإنْ لَم يُصِبْهُ بَلَلٌ بَيْن مُمَصَّرتَيْن[8] ، فيكسر الصليبَ ، ويَقْتُلُ

---

(١) في البخاري : سرقتِ زنيتِ .
(٢) صحيح البخاري رقم (٣٤٤٢) في الأنبياء ، باب قول الله تعالى : ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ ﴾ .
(٣) هو عمر بن سعد بن عبيد أبو داود الحفَري ، ثقة عابد . توفي سنة(٢٠٣هـ) وقيل (٢٠٦هـ) . والحَفَري : نسبة إلى محلة بالكوفة . تقريب التهذيب (٢/ ٥٦) ، واللباب (١/ ٣٧٥) ، والحديث في الإحسان (٦١٩٥) .
(٤) المسند (٢/ ٤٦٣) .
(٥) مسند أحمد (٢/ ٣١٩) .
(٦) الإحسان (٦١٩٤) .
(٧) المسند (٢/ ٤٣٧) .
(٨) في ط : مخصرتين، وهو تحريف، والممصرة من الثياب : التي فيها صفرة خفيفة . النهاية لابن الأثير (٤/ ٣٣٦) .

الخِنزير ، ويَضَعُ الجِزْيَةَ ، ويُعَطِّلُ المِلَلَ ، حتى يهلك في زمانه المِلَل كلُّها غير الإسلام ، ويُهلك اللهُ في زمانه المسيحَ الدجَّالَ الكذابَ ، وتقع الأَمنة في الأرض حتى ترتع الإبل مع الأسد جميعاً ، والنمورُ مع البقر ، والذئابُ مع الغنم ، ويلعبُ الصبيان والغلمان بالحيات لا يضر بعضهم بعضاً ، فيمكثُ ما شاءَ اللهُ أنْ يمكثَ ، ثمّ يُتَوفَّى ، فَيُصَلِّي عليه المسلمونَ ويدفنونَه » .

ثمّ رواه أحمد[١] عن عفّان ، عن همام ، عن قتادة ، عن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة ، فذكر نحوه ، وقال : « فيمكث أربعين سنةً . ثُمَّ يُتَوفّى ويصلّي عليه المسلمون » .

ورواه أبو داود عن هُدبة بن خالد ، عن همام بن يحيى[٢] ، به نحوه .

وروى هشام بن عروة عن صالح مولى أبي هريرة ، عنه أن رسول الله ﷺ قال : « فيمكث في الأرض أربعين سنة » . وسيأتي بيانُ نزولِه عليه السلام في آخر الزمان في كتاب الملاحم[٣] ، كما بسطنا ذلك أيضاً في « التفسير » عند قوله تعالى في سورة النّساء[الآية : ١٥٩] : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾[٤] ، وقوله : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ الآية[٥] [الزخرف : ٦١] ، وأنَّه ينزل على المنارة البَيضاءِ بدمشق ، وقد أقيمت صلاةُ الصبح ، فيقول له إمام المسلمين : تقدَّم يا روح الله فَصَلِّ ، فيقول : لا ، بعضُكم على بعضٍ أمراء تكرمة الله هذه الأمة ، وفي رواية : فيقول له عيسى : إنما أُقيمت الصلاةُ لكَ ، فيُصلي خلفه . ثمّ يركبُ ومعه المسلمون في طلب المسيح الدجال ، فيلحقه عند باب لُدّ ، فيقتله بيده الكريمة . وذكرنا أنه قَويَ الرجاءُ حِيْنَ بُنيت هذه المنارةُ الشرقيةُ بدمشق التي هي من حِجارة بيض ، وقد بنيت[٦] أيضاً من أموال النصارى حين حَرقوا التي هدمت وما حولها ، فينزل عليها عيسى ابن مريم عليه السلام ، فيقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ولا يقبل من أحدٍ إلاّ إلاسلام ، وأنه يخرج[٧] من فج الرَّوْحاء حاجاً أو معتمراً أو لِيُثَنِّيهما ، ويقيم أربعين سنة ، ثمّ يموت فيدفن فيما قيل في الحجرة النبوية عند رسول الله ﷺ وصاحبيه .

وقد ورد في ذلك حديث ذكره ابن عساكر[٨] في آخر ترجمة[٩] المسيح عليه السلام في كتاب عن

---

(١) المسند (٢/٤٠٦) .

(٢) سنن أبي داود (٤٣٢٤) ، ومن هذا الوجه أخرجه ابن حبان أيضاً (٦٨٢١) .

(٣) في الجزء الأخير من هذا الكتاب . وهناك تخريج الأحاديث الواردة في ذلك .

(٤) تفسير ابن كثير(١/٥٧٨) وما بعدها .

(٥) التفسير (٤/ ١٣١) وما بعدها .

(٦) أشار ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٨٣) إلى أن المنارة المذكورة بنيت سنة إحدى وأربعين وسبعمئة .

(٧) كذا في ب . وفي أ وط : يحج . وفج الروحاء : بين مكة والمدينة .

(٨) مختصر ابن منظور (٢٠/ ١٥٤) .

(٩) كذا في ط : وفي بعض النسخ : بعثة . وفي ب قصة .

عائشة[١] مرفوعاً أنه يدفن مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعُمر في الحجرة النبوية . ولكن لا يصح إسناده .

وقال أبو عيسى الترمذي[٢] : حدّثنا زيد بن أخزم الطائي ، حدّثنا أبو قتيبة سَلْم[٣] بن قتيبة ، حدّثني أبو مودود المدني ، حدّثنا عثمان بن الضحاك ، عن محمد بن يوسف بن عبد الله بن سلام ، عن أبيه ، عن جدّه قال : مكتوب في التوراة صفة محمد ، وعيسى ابن مريم عليهم السلام يُدفن معه . قال أبو مَوْدُود : وقد بقي من البيت موضع قبر . ثمّ قال الترمذي : هذا حديث حسن[٤] . كذا قال : والصواب : الضحاك بن عثمان المدني .

وقال البخاري : هذا الحديث لا يصح عندي ولا يُتابَع عليه .

وروى البخاري[٥] عن يحيى بن حماد ، عن أبي عوانة ، عن عاصمٍ الأحول ، عن أبي عثمان النَّهْدي ، عن سلْمان قال : الفترة ما بين عيسى ومحمد ﷺ ستمئة سنة .

وعن قتادة : خمسمئة وستون سنة[٦] . وقيل : خمسمئة وأربعون سنة[٧] .

وعن الضحاك : أربعمئة وبضع وثلاثون سنة[٨] .

والمشهور ستمئة سنة[٩] . ومنهم من يقول ستمئة وعشرون سنة بالقمرية لتكون ستمئة بالشمسية . والله أعلم .

وقال ابن حِبّان في صحيحه[١٠] : (ذِكْرُ المدة التي بقيت فيها أُمة عيسى على هديه) : حدّثنا أبو يعلى ، حدّثنا أبو هَمام ، حدّثنا الوليد بن مسلم ، عن الهيثم بن حميد ، عن الوَضِيْن بن عطاء ، عن نصر بن علقمة ، عن جبير بن نُفَير ، عن أبي الدرداء قال : ؛ قال رسول الله ﷺ : « لقد قَبَضَ الله داودَ من

---

(١) قوله : عن عائشة ، زيادة من ط . وهو كذلك في مختصر تاريخ دمشق ، وفي ب : في آخر ترجمة المسيح وفيه أنه . .

(٢) سنن الترمذي رقم (٣٦١٧) ، في المناقب ، باب (١) في فضل النبي ﷺ وهو في مختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٥٤) وإسناده ضعيف .

(٣) في ط : مسلم ، وهو تحريف . ولم يرد الاسم في ب . وسلم بن قتيبة الشَّعيري صدوق . توفي سنة (٢٠٠هـ) أو بعدها . تقريب التهذيب (١/ ٣١٤) .

(٤) في السنن : « حسن غريب » ، وهو الصواب الذي نص عليه المزي في التحفة (٥٣٣٦) .

(٥) صحيح البخاري رقم (٣٩٤٨) ، في مناقب الأنصار باب إسلام سلمان الفارسي رضي الله عنه .

(٦) أورده ابن حجر في فتح الباري (٧/ ٢٧٧) . في شرح الأحاديث السابقة .

(٧) قال الكلبي ، كما في فتح الباري (٧/ ٢٧٧) .

(٨) المصدر السابق .

(٩) قوله : وقيل خمسمئة . . . إلى هنا . سقط من ب بنقلة عين .

(١٠) الإحسان (١٤/ ٦٢٣٦) .

بين أصحابه فما فُتنوا ولا بدلوا ، ولقد مكث أصحاب المسيح على سُنته وهديه مئتي سنة » . وهذا حديث غريب جداً وإن صَحَّحه ابن حِبَّان .

وذكر ابن جرير عن محمد بن إسحاق أن عيسى عليه السلام قبل أن يُرفع وصَّى الحواريين بأن يدعوا الناس إلى عبادة الله وحـده لا شريك له ، وعَيَّن كلَّ واحد منهم إلى طائفة من الناس في إقليم من الأقاليم من الشام والمشرق وبلاد المغرب ، فذكروا أنه أصبح كل إنسان منهم يتكلم بلغة الذين أرسله المسيح إليهم .

وذكر غير واحد أن الإنجيل نقله عنه أربعة : لوقا ومتّى ومرقس ويوحنا ، وبين هذه الأناجيل الأربعة تفاوتٌ كثير بالنسبة إلى كل نسخة ونسخة ، وزيادات كثيرة ، ونقص بالنسبة إلى الأخرى ، وهؤلاء الأربعة منهم اثنان ممن أدرك المسيحَ ورآه وهما متّى ويوحنا ، ومنهم اثنان من أصحاب أصحابه وهما مرقس ولوقا . وكان ممن آمن بالمسيح وصدَّقه من أهل دمشق رجل يقال له ضينا ، وكان مختفياً في مغارة داخل الباب الشرقي قريباً من الكنيسة المصلبة خوفاً من بولص اليهودي ، وكان ظالماً غاشماً مبغضاً للمسيح ولِما جاء به ، وكان قد حلق رأسَ ابن أخيه حين آمن بالمسيح وطاف به في البلد ثمّ رَجَمه حتى مات رحمه الله . ولما سمع بولص أن المسيح عليه السلام قد توجه نحو دمشق جَهَّز بغاله[1] وخرج ليقتله ، فتلقاه عند كوكبا[2] ، فلما واجه أصحاب المسيح جاء إليه مَلَكٌ فضرب وجهه بطرف جناحه فأعماه . فلما رأى ذلك وقع في نفسه تصديق المسيح ، فجاء إليه واعتذر مما صنع وآمن به ، فَقَبِل منه ، وسأله أن يمسح عينيه ليردَّ اللهُ عليه بصرَه ، فقال : اذهب إلى ضينا عندك بدمشق في طرف السوق المستطيل من المشرق فهو يدعو لك . فجاء إليه ، فدعا له فرّد عليه بصره وحسن إيمان بولص بالمسيح عليه السلام أنه عبد الله ورسوله ، وبُنيت له كنيسة باسمه ، فهي كنيسة بولص المشهورة بدمشق من زمن فَتَحها الصحابة رضي الله عنهم حتى خربت في الزمان الذي سنورده[3] ، إن شاء الله تعالى .

***

(١) في ب : العساكر .
(٢) في معجم البلدان : كوكب : . . . اسم قلعة على الجبل المطل على مدينة طبرية . .
(٣) في ب : سنورده فيما بعد .

فصلٌ

اختلف أصحاب المسيح عليه السلام بعد رفعه إلى السماء فيه على أقوال ، كما قاله ابن عباس وغيره من أئمة السلف ، كما أوردناه عند قوله : ﴿ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴾ [الصف : ١٤] قال ابن عباس وغيره[١] قال قائلون منهم : كان فينا عبد الله ورسوله فرفع إلى السماء . وقال آخرون[٢] منهم : كان فينا ابن الله فرفعه إليه . وقال آخرون : كان الله فينا فارتفع إلى السماء ، فالأول هو الحق ، والقولان الآخران كفر عظيم كما قال : ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [مريم : ٣٧] .

وقد اختلفوا في نقل الأناجيل على أربعة أقاويل ما بين زيادة ونقصان وتحريف وتبديل ، ثمّ بعد المسيح بثلاثمئة سنة حدثت فيه الطامّة العظمى والبلية الكبرى ؛ اختلف البتاركة الأربعة وجميع الأساقفة والقساوسة[٣] والشمامسة والرهابين في المسيح على أقوال متعدّدة لا تنحصر ولا تنضبط ، واجتمعوا وتحاكموا إلى الملك قسطنطين باني القسطنطينية وهم المجمع الأول ، فصار الملك إلى قول أكثر فرقة اتفقت على قول من تلك المقالات فسموا الملكية[٤] ودَحَض من عداهم وأبعدهم . وتفرّدت[٥] الفرقة التابعة لعبد الله بن اديوس الذي ثبت على أن عيسى عبد من عباد الله ورسول من رسله ، فسكنوا البراري والبوادي ، وبَنَوا الصوامع والديارات والقَلّايات[٦] ، وقنعوا بالعيش الزهيد ، ولم يخالطوا أولئك الملل والنحل . وبنت الملكية الكنائس الهائلة ، عمدوا إلى ما كان من بناء[٧] اليونان فحوّلوا محاريبها إلى الشرق وقد كانت إلى الشمال إلى الجدْي .

***

---

(١) زاد في ب : من أئمة التفسير .

(٢) كذا في ب ، وهو موافق لما أورده ابن كثير قبل قليل (ص٢٨٧) ولما جاء في تفسيره (٤/ ٣٦٢) ، وتفسير الطبري (٢٨/ ٦٠) . وفي العبارة التالية اختلاف . ففي أ : كان فينا فارتفع إلى السماء ، فالأول . . . وفيه نقص . وفي ط : هو الله ، وقال آخرون هو ابن الله ، فالأول . . . وفيه نقص أيضاً .

(٣) في أ : والقساقسة . ولم يسمع هذا الجمع لـ (قس) .

(٤) كذا في ب . وفي أ وط الملائكة .

(٥) في ب : وتفرقت .

(٦) القلّايات : جمع قلّاية ، كالصومعة . وقيل هي قَلِيَّة . لسان العرب : (قلي) .

(٧) في ب : من كنائس .

(١) وبنى الملك قسطنطين بيتَ لحم على محلِّ مولد المسيح ، وبَنَتْ أُمُّه هَيلانة القُمامةَ ، يعني على قبر المصلوب ، وهم يُسلّمون لليهود أنه المسيح . وقد كفرت(٢) هؤلاء وهؤلاء ، ووضعوا القوانين والأحكام ، ومنها مخالف للعتيقة التي هي التوراة ، وأحلُّوا أشياء هي حرام بنص التوراة ، ومن ذلك الخنزير ، وصلّوا إلى الشرق ولم يكن المسيح صلّى إلا إلى صخرة بيت المقدس ، وكذلك جميع الأنبياء بعد موسى . ومحمد خاتم النبيين صلى إليها بعد هجرته إلى المدينة ستة عشر أو سبعةَ عشر شهراً ، ثمّ حُوِّل إلى الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل . وصوَّروا الكنائس ولم تكن مصورة قبل ذلك ، ووضعوا العقيدة التي يحفظها أطفالهم ونساؤهم ورجالهم التي يُسمُّونها بالأمانة ، وهي في الحقيقة أكبر الكفر والخيانة ، وجميع الملكية والنسطورية أصحاب نسطورس أهل المجمع الثاني ، واليعقوبية أصحاب يعقوب البرادعي أصحاب المجمع الثالث يعتقدون هذه العقيدة ويختلفون في تفسيرها . وها أنا أحكيها وحاكي الكفر ليس بكافر لأنبّه على ما فيها من ركّة الألفاظ وكثرة الكفر والخبال المفضي بصاحبه إلى النار ذات الشواظ ، فيقولون عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة(٣) :

نؤمن بإلّه واحد(٤) ، ضابط الكل ، خالق السموات والأرض كل ما يُرى ، وكل ما لا يرى ، وبربٍّ واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل(٥) الدهور ، نور من نور ، إلّه حق من(٦) إلّه حق ، مولود غير مخلوق ، مساوٍ للأب في الجوهر الذي كان به كلّ شيء من أجلنا نحن البشر ، ومن أجل خلاصنا نزل السماء وتجسَّد من روح القدس ومن مريم العذراء ، وتأنس وصلب على عهد ملاطس النبطي ، وتألَّم وقبر ، وقام في اليوم الثالث كما في الكتب ، وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الأب ، وأيضاً فسيأتي بجسده ليدبّر الأحياء والأموات ، الذي لافناء لملكه(٧) ، وروح القدس الربّ المحيي(٨) المنبثق من الأب والابن مسجود له ، وبمجد الناطق في الأنبياء كنسبة

---

(١) وُضِع في ط عنوان في الوسط : بيان بناء بيت لحم والقمامة . وهو ليس في متن أ ، بل كتب في الحاشية . وليس في ب .

(٢) في ب : كذب .

(٣) عليهم لعائن الله . . . سقطت من ط .

(٤) في ب : واحد أب .

(٥) في ب : كل الدهور .

(٦) في ب : ابن .

(٧) في ب : الذي رد بوحي بملكه وبروح . . .

(٨) في ب : المنجي .

واحدة جامعة مقدسة بهولية ، واعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا وأنه حي قيامة الموتى وحياة الدهر العتيد كونه آمين[١] .

* * *

(١) زاد في ب هنا : وقد أنشد الشيخ شهاب الدين القَرَافي في كتابه « الرد على النصارى » لبعضهم يرد عليهم في قولهم بصلب المسيح وتسليمهم ذلك إلى اليهود مع دعواهم أنه ابن الله ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً .

عجباً للمسيح بين النصارى ... وإلى أي والد نسبوه
أسلموه إلى اليهود وقالوا ... إنهم بعد قتله صلبوه
فإذا كان ما يقولون حقاً ... وصحيحاً فأين كان أبوه
حين خلّى ابنه رهين الأعادي ... أتراهم أرضوه أو أغضبوه
فلئن كان راضياً بأذاهم ... فاحمدوهم لأنهم وافقوه
ولئن كان ساخطاً فاتركوه ... واعبدوهم لأنهم غلبوه

كتاب أخبار الماضين[١]

من بني إسرائيل وغيرهم إلى آخر زمن الفترة ، سوى أيام العرب وجاهليتهم ، فإنا سنورد ذلك بعد فراغنا من هذا الفصل إن شاء الله تعالى .

قال الله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴾ [طه : ٩٩] .

وقال : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف : ٣] .

خبر ذي القرنين

قال الله تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾ [الكهف : ٨٣ ـ ٩٨] .

ذكر الله تعالى ذا القرنين هذا ، وأثنى عليه بالعدل ، وأنه بلغ المشارقَ والمغاربَ ، وملك الأقاليم ، وقَهَرَ أهلها ، وسار فيهم بالمَعْدِلة التامة ، والسلطان المؤيَّد المظفَّر المنصور القاهر المقسط .

والصحيح أنه كان ملكاً من الملوك العادلين[٢] ، وقيل : كان نبياً . وقيل : رسولا[٣] . وأغربَ من

---

(١) في ب : الأمم الماضية .

(٢) هذا هو قول علي رضي الله عنه كما أورده السهيلي في الروض الأنف (٢/ ٥٩) .

(٣) هذه الأقوال مفصلة في تفسير الطبري (١٦/ ٨) ، وتفسير ابن كثير (٣/ ١٠٠) ، والروض الأنف (٢/ ٥٩) .

قال : ملَكا[١] من الملائكة . وقد حُكي هذا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فإنه سمع رجلاً يقول لآخر : يا ذا القرنين ، فقال : مَهْ ! ما كفاكم أن تتسمَّوا بأسماء الأنبياء حتى تسمَّيتم بأسماء الملائكة . ذكره السهيلي[٢] .

وقد رَوَى وكيعٌ ، عن إسرائيل ، عن جابر ، عن مجاهد ، عن عبد الله بن عمرو قال : كان ذو القرنين نبياً .

ورَوَى الحافظُ ابنُ عساكر من حديث أبي محمد بن أبي نصر ، عن أبي إسحاق بن إبراهيم بن محمد بن أبي ذؤيب ، حدّثنا محمد بن حماد ، أخبرنا عبد الرزاق ، عن معمر ، عن ابن أبي ذئب ، عن المَقْبُري ، عن أبي هُريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا أدْري أَتُبَّعٌ كانَ لَعِيناً أمْ لاَ ، ولا أدْري الحدُودُ كَفَّاراتٌ لأَهْلِها أمْ لا ، ولا أدري ذو القرنين نبياً كان أم لا »[٣] .

وهذا غريب من هذا الوجه .

وقال إسحاق بن بشر ، عن عثمان بن السَّاج ، عن خُصَيْف[٤] ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : كان ذو القرنين مَلِكا صالحاً ، رضي الله عملَه ، وأثنى عليه في كتابه ، وكان منصوراً ، وكان الخضِر وزيره .

وذكروا أن الخضر عليه السلام كان على مقدمة جيشه ، وكان عنده بمنزلة المشاور الذي هو من الملك بمنزلة الوزير في اصطلاح الناس اليوم .

وقد ذكر الأزرقي وغيره أن ذا القرنين أسلم على يدي إبراهيم الخليل ، وطاف معه بالكعبة المكرمة هو وإسماعيل عليه السلام .

وروي عن عُبيد بن عمير وابنه عبد الله وغيرهما أن ذا القرنين حجَّ ماشياً ، وأن إبراهيم لما سمع بقدومه تلقّاه ودعا له ووصّاه[٥] ، وأن الله سخّر[٦] لذي القرنين السحابَ يحمله[٧] حيث أراد . والله أعلم .

---

(١) في ب : كان ملكاً .

(٢) الروض الأنف (٢/ ٦٠) .

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٧٤) ، في السنة ، باب في التخيير بين الأنبياء باختصار وفيه « عزير » بدلاً من ذي القرنين . وهو في مختصر تاريخ دمشق (٨/ ٢١٥) .

(٤) هو خُصَيْف بن عبد الرحمن ، أبو عون الخِضْرِمي ، الأموي ، مولاهم الجزري الحرّاني ، رمي بالإرجاء ، وفيه كلام . توفي سنة سبع وثلاثين ومئة ، وقيل غير ذلك . سير أعلام النبلاء (٦/ ١٤٥) .

(٥) في ط : ورضاه . وفيها تحريف وتصحيف .

(٦) في ب : يسخر .

(٧) في ب : السحابة تحمله .

واختلفوا في السبب الذي سُمِّي به ذا القرنين . فقيل : لأنه كان له في رأسه شبه القرنين . قال وهب بن منبه : كان له قرنان من نحاس في رأسه ، وهذا ضعيف ؛ [قال][١] : وقال بعض أهل الكتاب : لأنه ملك فارس والروم .

وقيل : لأنه بلغ قرني الشمس غرباً وشرقاً ، وملك ما بينهما من الأرض . وهذا أشبه من غيره ، وهو قول الزهري[٢] .

وقال الحسن البصري : كانت له غديرتان من شعر يطأ فيهما ، فسمي ذا القرنين .

وقال إسحاق بن بشر ، عن عبد الله بن زياد بن سمعان ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جدّه أنّه قال : دعا ملكاً جباراً إلى الله فضربه على قرنه فكسره ورضّه . ثمّ دعاه فدقّ قرنه الثاني فكسره ، فسُمّي ذا القرنين .

وروى الثوري عن حبيب بن أبي ثابت ، عن أبي الطُّفيل ، عن علي بن أبي طالب أنه سُئِل عن ذي القرنين فقال : كان عبداً ناصحَ اللهَ[٣] فناصَحَه ، دعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات ، فأحياه الله فدعا قومَه إلى الله ، فضربوه على قرنه الآخر فمات ، فسُمّي ذا القرنين .

وهكذا رواه شعبة عن القاسم[٤] بن أبي بَزَّة ، عن أبي الطفيل ، عن علي ، به .

وفي بعض الروايات عن أبي الطفيل ، عن علي قال : لم يكن نبياً ولا رسولاً ولا مَلِكاً ، ولكن كان عبداً صالحاً[٥] .

وقد اختُلِف في اسمه : فروى الزبير بن بَكّار ، عن ابن عباس : كان اسمه عبد الله بن الضحاك بن معد[٦] .

وقيل : مصعب[٧] بن عبد الله بن قَنّان بن منصور بن عبد الله بن الأزد بن غَوث[٨] بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن قحطان .

---

(١) زيادة يستوجبها الكلام وهي مثبتة في تفسيره (٣/ ١٠٠ ـ ١٠١) . وتفسير الطبري (١٦/ ٨) .
(٢) الروض الأنف (٢/ ٥٩) .
(٣) في ب : ناصحاً إلى الله . والخبر في الروض الأنف (٢/ ٥٩) .
(٤) زيادة من ب . والخبر في تفسير الطبري (١٦/ ٨) بهذا السند .
(٥) الروض الأنف (٢/ ٥٩) .
(٦) الروض الأنف (٢/ ٦٠) .
(٧) في المحبر (٣٦٥) : الصعب بن قرين .
(٨) في ط : عون .

وقد جاء في حديث أنه كان من حمير ، وأمه رومية[١] ، وأنه كان يقال له : ابن الفيلسوف ؛ لعقله .

وقد أنشد بعض الحميريين في ذلك شعراً يفخر[٢] بكونه أحد أجداده فقال : [من الكامل]

قَد كانَ ذو القرنَيْنِ جَدّي مُسْلماً مَلِكاً تـديـن لـه الملـوكُ وتَحشِـدُ
بلـغَ المشـارقَ والمغـاربَ يَبتغـي أسبـابَ أمـرٍ مِـنْ حَكيـمٍ مُـرشِـدِ
فرأى مغيبَ الشّمسِ عندَ غُروبها في عيْنِ ذي خُلْبٍ وثَأْطٍ حِرْمِدِ[٣]
مِـن بعـدِهِ بلقيـسُ كـانـتْ عمّتـي مَلَكَتهُـمُ حتّـى أتـاهـا الهـدهـدُ[٤]

قال السهيلي : وقيل كان اسمه مرزبان بن مَرْذَبة[٥] . ذكره ابن هشام . وذكر ابن هشام في موضع آخر أن اسمه الصعب بن ذي مراثد ، وهو أول التبابعة ، وهو الذي حكم لإبراهيم[٦] في بئر السبع .

وقيل : إنه أفريدون بن أثفيان الذي قتل الضحَّاك ، وفي خطبة قُس : يا معشر إياد بن الصعب ، ذو القرنين ، ملك الخافقين ، وأذل الثقلين ، وعمر ألفين . ثم كان ذلك كلحظة عين[٧] ، ثم أنشد ابن هشام للبيد[٨] : [من الكامل]

والصّعبُ ذو القَرنَيْنِ أصبحَ ثاوياً بالحنوِ في جَدَثٍ ـ أُميم ـ مقيم[٩]

وذكر الدارقطني وابن ماكولا أن اسمه هرمس ، ويقال : هرويس بن قيطون بن رومى بن لنطى بن كشلوخين بن يونان[١٠] بن يافث بن نوح ، فالله أعلم .

---

(١) تاريخ الطبري (١/ ٥٧٤) وفي الروض الأنف (٢/ ٥٩) : وكانت أمه زنجية .

(٢) في ط : يفتخر . والقائل هو تبع أبو كرب كما في التيجان ١٢ (ص١٢١) والنص من قصيدة طويلة في التيجان (١٢١ ـ ١٢٤) . وثمة بعض خلاف في رواية الشعر ، ولم يرد البيت الأخير (الهدهد) فيها . وهو مختلف الروي ولعله من قصيدة ثانية .

(٣) الخُلْب : الطين والحمأة ، والثأط : كذلك . والحِرْمِد : الطين الأسود .

(٤) في ب : من بعد بلقيس وكانت عمتي .

(٥) في ط : مرزبة ، بالزاي . والذي في الروض الأنف (٢/ ٥٩) : ايمه مرزبي بن مرذبة بذال مفتوحة اسم أبيه وزاي في اسمه .

(٦) الروض الأنف (٢/ ٥٩) .

(٧) المصدر السابق .

(٨) نسب ابن هشام البيت للأعشى ، وكذلك نقله عنه السهيلي في الروض الأنف (٢/ ٥٩) ، وابن كثير ، هنا . والبيت ليس في ديوان الأعشى (تح . محمد محمد حسين) . وهو للبيد في ديوانه (ص١٠٩) . من قصيدة مطلعها :

سفهاً عذلتِ وقلت غيرَ مليم وبُكـاك قِـدْمـاً غيـرُ جِـدٍّ حكيـمِ

(٩) في ط : أشم مقيما . . وهو خطأ . وأميم مرخم أميمة . والحنو : موضع .

(١٠) ليست في ب .

وقال إسحاق بن بشر ، عن سعيد بن بشير ، عن قَتادة قال : اسكندر هو ذو القرنين ، وأبوه أول القياصرة ، وكان من ولد سام بن نوح عليه السلام[١] .

فأما ذو القرنين الثاني ، فهو اسكندر بن فيلبس بن مصريم بن هرمس بن هردس[٢] بن ميطون بن رومي بن لنطى بن يونان بن يافث بن يونة بن شرخون بن رومة بن شرفط بن توفيل بن رومي بن الأصفر بن يقز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل ـ كذا نسبه الحافظ ابن عساكر في « تاريخه »[٣] ـ المقدوني اليوناني المصري باني إسكندرية الذي يؤرخ بأيامه الروم ، وكان متأخراً عن الأول بدهرٍ طويلٍ كان هذا متأخراً[٤] قبل المسيح بنحو من ثلاثمئة سنة ، وكان أرطاطاليس الفيلسوف وزيره ، وهو الذي قتل دارا بن دارا وأذلّ ملوك الفرس وأوطأ أرضهم .

وإنما نبَّهنا عليه لأن كثيراً من الناس يعتقد أنهما واحد ، وأن المذكور في القرآن هو الذي كان أرطاطاليس وزيره ، فيقع بسبب ذلك خطأ كبير ، وفساد عريض طويل كثير ، فإنّ الأول كان عبداً مؤمناً صالحاً ، وملِكاً عادلا ، وكان وزيره الخضر ، وقد كان نبياً ، على ما قررناه قبل هذا .

وأما الثاني فكان مشركاً ، وكان وزيره فيلسوفاً ، وقد كان بين زمانيهما أزيد من ألفي سنة . فأين هذا من هذا ! لا يستويان ولا يشتبهان إلا على غبيٍّ لا يعرف حقائق الأمور . فقوله تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ﴾ كان سببه أن قريشاً سألوا اليهود عن شيء يمتحنون به علم رسول الله ﷺ فقالوا لهم : سلوه عن رجل طوّافٍ في الأرض ، وعن فتية خرجوا لا يُدرَى ما فعلوا ، فأنزل الله تعالى قصّة أصحاب الكهف وقصّة ذي القرنين[٥] . ولهذا قال ﴿ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾ أي من خبره وشأنه ، ﴿ ذِكْرًا ﴾ أي خبراً نافعاً كافياً في تعريف أمره وشرح حاله ، فقال : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾ أي وسَّعْنا مملكته في البلاد ، وأعطيناه[٦] من آلات المملكة ما يستعين به على تحصيل ما يحاوله من المهمّات العظيمة والمقاصد الجسيمة .

قال قتيبة ، عن أبي عَوَانة ، عن سِماك ، عن حَبيب بن حماد ، قال : كنت عند علي بن أبي طالب ، وسأله رجل عن ذي القرنين كيف بلغ المشرق والمغرب ، فقال له : سُخِّرَ له السّحاب ، ومُدَّت له الأسباب ، وبُسط له في النور . وقال : أَزيدُك ؟ فسكت الرجلُ ، وسكت عليٌّ رضي الله عنه .

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٨/ ٢١٣) .
(٢) ليست في ط .
(٣) تاريخ دمشق (١٧/ ٣٣٠) .
(٤) ليست في ط .
(٥) وقيل إن الذين سألوه هم اليهود . تفسير الطبري (١٦/ ٧) وأسباب النزول للواحدي (٢٢٥) .
(٦) في ب : وآتيناه .

وعن أبي إسحاق السَّبِيعي ، عن عمرو بن عبد الله الوادعي ، سمعت معاوية يقول : ملك الأرض أربعة : سليمان بن داود النبي عليهما السلام ، وذو القرنين ، ورجلٌ من أهل حلوان ، ورجلٌ آخر . فقيل له : الخضر ؟ قال : لا[١] .

وقال الزبير بن بكار : حدثني إبراهيم بن المنذر ، عن محمد بن الضحاك ، عن أبيه ، عن سفيان الثوري قال : بلغني أنه مَلك الأرضَ كلَّها أربعة : مؤمنان وكافران ، سليمان النبي ، وذو القرنين ، ونُمرود ، وبخت نصَّر[٢] . وهكذا قال سعيد بن بشير سواء .

وقال إسحاق بن بشر ، عن سعيد بن أبي عَروبة ، عن قتادة ، عن الحسن قال : كان ذو القرنين ملك بعد النمرود ، وكان من قصته أنّه كان رجُلاً مسلماً صالحاً ، أتى المشرق والمغرب ، مدّ الله له في الأجل ، ونصره حتى قهر البلاد واحتوى على الأموال ، وفتح المدائن ، وقتل الرجال ، وجال في البلاد والقلاع ، فسار حتى أتى المشرق والمغرب ، فذلك قول الله : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾ أي خبراً ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾ أي : علماً بطلب أسباب المنازل .

قال إسحاق : وزعم مُقاتل أنّه كان يفتح المدائن ويجمع الكنوز ، فمن اتبعه على دينه وشايعه[٣] عليه وإلا قتله[٤] .

وقال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جُبير وعِكرمة وعُبيد بن يعلى والسُّدِّي وقتادة والضحاك : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾ يعني علماً[٥] .

وقال قتادة ومَطَر الورَّاق[٦] : معالم الأرض ، ومنازلها ، وأعلامها ، وآثارها .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعني تعليم الألسنة ، كان لا يغزو قوماً إلا حدّثهم بلغتهم .

والصحيح أنه يعم[٧] كلّ سبب يتوصّل به إلى نيل مقصوده في المملكة وغيرها ، فإنه كان يأخذ من كلّ إقليم من الأمتعة والمطاعم والزاد ما يكفيه ويعينه على أهل الإقليم الآخر .

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٨/ ٢١٥) .
(٢) المصدر السابق .
(٣) في ب : وسار معه ، وفي ط : وتابعه .
(٤) مختصر تاريخ دمشق (٨/ ٢١٧) .
(٥) تفسير الطبري (١٦/ ٨ ـ ٩) .
(٦) في ب ومطرف . وكذلك هو في تفسير ابن كثير (٣/ ١٠١) .
ومطر بن طهمان الوراق السلمي مات سنة (١٢٥هـ) . تقريب التهذيب (٢/ ٢٥٢) .
(٧) في ب : تعلم .

وذكر بعض أهل الكتاب أنه مكث ألفاً وستمئة سنة يجوب الأرض ويدعو أهلها إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وفي كلّ هذه المدّة نظر . والله أعلم .

وقد روى البيهقي ، وابن عساكر حديثاً متعلّقا بقوله ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ مطولاً جداً ، وهو منكر جداً . وفي إسناده محمد بن يونس الكُدَيْمي ، وهو مُتَّهم[١] فلهذا لم نكتبه لسقوطه عندنا . والله أعلم .

وقوله : ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ أي طَريقاً ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ ﴾ يعني من الأرض ، انتهى إلى حيث لا يمكن أحداً أن يجاوزه ووقف على حافة البحر المحيط الغربي الذي يقال له : أُوقيانوس الذي فيه الجزائر المسماة بالخالدات التي هي مبتدأ الأطوال على أحد قولي أرباب الهيئة ، والثاني من ساحل هذا البحر كما قدّمنا . وعنده شاهد مغيب الشمس فيما رآه بالنسبة إلى مشاهدته ﴿ تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ والمراد بها البحر في نظره ، فإن من كان في البحر أو على ساحله يرى الشمسَ كأنها تطلع من البحر وتغرب فيه ، ولهذا قال : ﴿ وَجَدَهَا ﴾ أي في نظره ، ولم يقل : فإذا هي تغرب في عين حمئةٍ ، أي ذات حمأة . قال كعب الأحبار[٢] : وهو الطين الأسود . وقرأه بعضهم ﴿ حامية ﴾[٣] . فقيل : يرجع إلى الأول ، وقيل من الحرارة ، وذلك من شدة المقابلة لوهج ضوء الشمس وشعاعها .

وقد روى الإمام أحمد[٤] ، عن يزيد بن هارون ، عن العوّام بن حَوْشَب ، حدثني مولى لعبد الله بن عمرو ، عن عبد الله قال : نظر رسول الله ﷺ : إلى الشمس حين غابت فقال : « في نار الله الحامية ، لولا ما يَزَعُها من أمر الله لأحْرقَتْ ما على الأرض » فيه غرابة ، وفيه رجل مُبهم لم يُسَمَّ ، ورفْعُه فيه نظر ، وقد يكون موقوفاً من كلام عبد الله بن عمرو ، فإنه أصاب يوم اليرموك زامِلتين من كتب المتقدّمين ، فكان يحدِّث منها[٥] . والله أعلم .

ومن زعم من القصاص أن ذا القرنين جاوز مغرب الشمس وصار يمشي بجيوشه في ظلمات مُدداً طويلة فقد أخطأ وأبعدَ النجعة . وقال ما يخالف العقل والنقل .

* * *

---

(١) ترجمته في المجروحين والضعفاء (٢/ ٣١٢) وفيه : ولعله قد وضع أكثر من ألف حديث .

(٢) زيادة من ط .

(٣) هي قراءة ابن عامر وحمزة والكسائي وأبي بكر . حجة القراءات لابن زنجلة : (٤٢٨ ـ ٤٢٩) ، وتفسير الطبري (٩/١٦) .

(٤) المسند (٢/٢٠٧) .

(٥) في ب : منهما .

[بَيان طلب ذي القرنين عين الحياة][(١)]

وقد ذكر ابن عساكر[(٢)] من طريق وكيع ، عن أبيه ، عن معتمر بن سليمان ، عن أبي جعفر الباقر ، عن أبيه زين العابدين خبراً مطولاً جداً فيه أن ذا القرنين كان له صاحب من الملائكة يقال له : رناقيل[(٣)] ، فسأله ذو القرنين : هل تعلم في الأرض عيناً يقال لها : عين الحياة ؟ فذكر له صِفةَ مكانها . فذهب ذو القرنين في طلبها ، وجعل الخَضِرَ على مقدّمته ، فانتهى الخضِر إليها في وادٍ في أرض الظلمات ، فشرب منها ، ولم يهتد ذو القرنين إليها .

وذكر اجتماع ذي القرنين ببعض الملائكة في قصرٍ هناك ، وأنه أعطاه حجراً ، فلما رَجَع إلى جيشه سأل العلماءَ عنه ، فوضعوه في كِفَّة ميزان ، وجعلوا في مقابلته[(٤)] ألف حجر مثله فوزنها ، حتى سأل الخضرَ ، فوضع قباله حجراً وجعل عليه حفنة من تراب فرجح به[(٥)] ، وقال : هذا مَثَلُ ابن آدم لا يشبع حتى يوارى بالتراب ، فسجد له العلماء تكريماً له وإعظاماً . والله أعلم .

ثمّ ذكر تعالى أنه حكّمه في تلك الناحية ﴿ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ [الكهف : ٨٦ ـ ٨٧] أي فيجتمع عليه عذاب الدنيا والآخرة ، وبدأ بعذاب الدنيا لأنه أزجرُ عند الكافر . ﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ فبدأ بالأهَمِّ وهو ثواب الآخرة ، وعطف عليه الإحسان منه إليه ، وهذا هو العدل والعلم والإيمان ، قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ أي سَلك طريقاً راجعاً من المغرب إلى المشرق ، فيقال : إنه رجع في ثنتي عشرة[(٦)] سنة ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾ أي : لَيسَ لَهُم بُيُوتٌ ولا أكْنانٌ[(٧)] يَسْتَتِرُونَ بها من حرّ الشمس . قال كثيرٌ من العلماء[(٨)] : ولكن كانوا يأوون إذا اشتد عليهم الحرُّ إلى أسراب قد اتخذوها في الأرض شبهَ القبور . قال الله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾ أي ونحن نعلم ما هو عليه ونحفظه ونكلؤه بحراستنا في مسيره ذلك كلّه من مغارب الأرض إلى مشارقها .

وقد رُوي عن عُبيد بن عمير وابنه عبد الله وغيرهما من السلف أن ذا القرنين حجَّ ماشياً ، فلما سمع

---

(١) زيادة من ط . ومن حاشية الأصل .
(٢) مختصر تاريخ دمشق (٨/ ٢٢٠ ـ ٢٢٤) .
(٣) في مختصر تاريخ دمشق : زيافيل . وكذلك هو في الروض الأنف (٢/ ٥٩) .
(٤) زيادة من ب وط .
(٥) في ب : فرجحته .
(٦) في ط : عشر ، وهو خطأ . والقول منسوب إلى سعيد بن جبير في مختصر تاريخ دمشق(٨/ ٢١٧) .
(٧) الكِنّ والكِنان : البيت ، وما يقي ويستر ، جمعه : أكنان وأكِنَّة .
(٨) تفسير الطبري (١٦/ ١٢) .

إبراهيمُ الخليل بقدومه تلقّاه ، فلما اجتمعا دعا له الخليل ، ووصّاه بوصايا ، ويقال : إنه جيء بفرس ليركبها فقال : لا أركبُ في بلد فيه الخليل ، فسخَّر اللهُ له السحابَ ، وبشّره إبراهيم بذلك ، فكانت تحمله إذا أراد[١] .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ يعني غُشما . يُقال : إنهم هم التُّركُ أبناء عم يأجوج ومأجوج ، فذكروا له أن هاتين القبيلتين قد تعدوا عليهم وأفسدوا في بلادهم وقطعوا السُّبُل عليهم ، وبذلوا له حَمْلا ، وهو الخراج (على أن يقيم بينهم وبينهم حاجزاً يمنعهم من الوصول إليهم فامتنع من أخذ الخراج)[٢] اكتفاءً بما أعطاه الله تعالى من الأموال الجزيلة .

﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ ثمّ طلب منهم أن يجمعوا له رجالاً وآلاتٍ ليبني بينهم وبينهم سداً ، وهو الردم بين الجبلين ، وكانوا لا يستطيعون الخروج إليهم إلا من بينهما ، وبقية ذلك بحارٌ مُغرِقة وجبالٌ شاهقةٌ ، فبناه كما قال الله تعالى من الحديد والقَطر ، وهو النحاس المذاب ، وقيل : الرصاص ، والصحيح الأول ، فجعل بَدَل اللَّبِن حديداً ، وبدلَ الطِّين نحاساً ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ أي يَعلو عليه بسلالم ولا غيرها ﴿ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ أي بمعاول ولا فؤوس ولا غيرها ، فقابل الأسهلَ بالأسهل ، والأشد بالأشد .

﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾ أي : قَدَّر اللهُ وجودَه ليكون رحمةً منه بعباده أن يمنع بسببه عدوان هؤلاء القوم على مَن جاورهم في تلك المحلة ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي ﴾ أي : الوقت الذي قدّر خروجهم على الناس في آخر الزمان ﴿ جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ﴾ أي : مُساوياً للأرض ، ولا بد من كون هذا ، ولهذا قال : ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ . كما قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ ﴾ الآية [الأنبياء : ٩٦ ـ ٩٧] . ولذا قال هاهُنا : ﴿ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ يَعني يوم فتح السدِّ على الصحيح[٣] ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴾ .

وقد أوردنا الأحاديث المرويّة في خروج يأجوج ومأجوج في « التفسير »[٤] ، وسنوردها إن شاء الله في كتاب الفتن والملاحم من كتابنا هذا إذا انتهينا إليه بحول الله وقوته وحسن توفيقه ومعونته وهدايته[٥] .

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٨/ ٢١٧) .

(٢) سقطت من ب بنقلة عين .

(٣) عند الطبري أقوال متعددة في تفسير هذه الآية ، تفسيره (١٦/ ٢٣ ـ ٢٥) .

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ١٩٥) ، عند تفسير قوله تعالى في سورة الأنبياء : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ .

(٥) زاد في ب : وإنه المستعان .

قال أبو داود الطيالسي ، عن الثوري : بلغنا أن أَوَّلَ من صافح ذو القرنين[١] .

وروي عن كعب الأحبار أنه قال لمعاوية : إن ذا القرنين لما حضرته الوفاة أوصى أمَّه إذا هو مات أن تصنع طعاماً وتجمع نساء أهل المدينة وتضعه بين أيديهن وتأذن لهن فيه إلا من كانت ثَكْلَى فلا تأكل منه شيئاً ، فلما فعلت ذلك لم تضع واحدة منهن يدَها فيه ، فقالت لهن : سبحان الله كلكنَّ ثَكْلى ؟ فقلن : إي والله ما منا (إلا من أثكَلتْ . فكان ذلك تسلية لأمه)[٢] .

وذكر إسحاق بن بشر عن عبد الله بن زياد عن بعض أهل الكتاب وصية ذي القرنين وموعظة أمه موعظة بليغة طويلة ، فيها حكم وأمور نافعة ، وأنه مات وعمره ثلاثة آلاف سنة . وهذا غريب .

قال ابن عساكر[٣] : وبلغني من وجه آخر أنه عاش ستاً وثلاثين سنةً . (وقيل كان عمره ثنتين وثلاثين سنة . وكان بعد داود بسبعمئة سنة وأربعين سنة)[٤] . وكان بعد آدم بخمسة آلاف ومئة وإحدى وثمانين سنة . وكان ملكه ست عشرة سنة[٥] . وهذا الذي ذكره إنما ينطبق على الإسكندر الثاني لا الأول ، وقد خلط في أول الترجمة وآخرها بينهما ، والصواب التفرقة كما ذكرنا اقتداءً بجماعة من الحفّاظ . والله أعلم .

وممن جعلهما واحداً الإمام عبد الملك بن هشام راوي السيرة[٦] ، وقد أنكر ذلك عليه الحافظ أبو القاسم السُّهيلي[٧] ، رحمه الله ، إنكاراً بليغاً ، ورد قوله رداً شنيعاً ، وفرَّق بينهما تفريقاً جيداً كما قدمنا ، قال : ولعل جماعة من الملوك المتقدمين تسمَّوا بذي القرنين تشبُّهاً بالأول . والله أعلم .

***

(١) تاريخ ابن عساكر (١٧/ ٣٥٨) .
(٢) سقطت من ب . والخبر في تاريخ ابن عساكر (١٧/ ٣٥٨) .
(٣) تاريخ ابن عساكر (٧/ ٣٦١) .
(٤) سقطت من ب بنقلة عين .
(٥) تاريخ ابن عساكر (٧/ ٣٦١) .
(٦) السيرة (١/ ٣٠٧) .
(٧) الروض الأنف (٢/ ٥٩) .

ذكر أُمَّتَيْ يأجوج ومأجوج

وصفاتهم وما ورد من أخبارهم وصفة السد

هم من ذرية آدم بلا خلاف نعلمه، ثمّ الدليل على ذلك ما ثبت في «الصحيحين»[1] من طريق الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول اللهُ تعالى يومَ القيامة: يا آدمُ قُمْ فَابْعثْ بَعْثَ النارِ من ذُرّيّتك. فيقولُ: يا ربِّ وما بعْثُ النار؟ فيقولُ: من كُلِّ ألفٍ تسعمئةٍ وتسعةٌ وتسعونَ إلى النارِ، وواحدٌ إلى الجنة، فحينئذٍ يَشيبُ الصغيرُ، وتَضَعُ كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها، وتَرَى النَّاسَ سُكَارى وما هُمْ بِسُكَارى ولكِنَّ عذابَ اللهِ شَدِيْدٌ. قالوا: يا رسول الله أيُّنا ذلك الواحدُ؟ فقال رسول الله ﷺ: أبشروا فإن منكم واحداً، ومن يأجوج ومأجوج ألفاً». وفي رواية: فقال: «أبشروا فإن فيكم أُمَّتين ما كانتا في شيء إلا كثَّرتاه» أي غلبتاه كثرةً، وهذا يدلّ على كثرتهم، وأنهم أضعاف الناس مراراً عديدة.

ثمّ هم من ذرية نوح، لأن الله تعالى أخبر أنه استجاب لعبده نوح في دعائه على أهل الأرض بقوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]. وقال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت: ١٥]. وقال: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧].

وتقدم[2] في الحديث المروي في «المسند»[3] و«السنن»[4] أن نوحاً وُلد له ثلاثة، وهم سام، وحام ويافث، فسام أبو العرب، وحام أبو السودان، ويافث أبو الترك. فيأجوج ومأجوج طائفةٌ من الترك وهم مثل[5] المغول، وهم أشدّ بأساً وأكثر فساداً من هؤلاء، ونسبتهم إليهم كنسبة هؤلاء إلى غيرهم. وقد قيل: إن الترك إنما سموا بذلك حين بنى ذو القرنين السدَّ وألجأ يأجوج ومأجوج إلى ما وراءه، فبقيت منهم طائفة لم يكن عندهم كفسادهم فتركوا[6] من ورائه. فلهذا قيل لهم الترك.

---

(١) في البخاري رقم(٤٧٤١)، في التفسير، باب تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾، ومسلم (٣٧٩)، في الإيمان، باب قوله: «يقول الله لآدم: أخرج بعث النار من كل ألف تسعمئة وتسعة وتسعين».

(٢) في الجزء الأول من هذا الكتاب، في قصة نوح عليه السلام.

(٣) مسند أحمد(٥/٩و١١)، من طريق سَمُرة بن جندب عن رسول الله ﷺ.

(٤) الترمذي، رقم(٣٢٣٠) و(٣٢٣١) في التفسير، باب ومن سورة الصافات، رقم (٣٩٣١) في المناقب، باب مناقب في فضل العرب، وحسّنه الترمذي، وإسناده ضعيف.

(٥) كذا في ب وهو أشبه بالصواب. وفي أ وط: مغل.

(٦) في ب: فنزلوا. وهو تصحيف وتحريف.

ومن زعم أن يأجوج ومأجوج خُلقوا من نطفة آدم حين احتلم ، فاختلطت بترابٍ ، فَخُلِقوا من ذلك ، وأنهم ليسوا من حواء ، فهو قول حكاه الشيخ أبو زكريا النووي[١] في شرح مسلم وغيره ، وضَعَّفوه ، وهو جدير بذلك ، إذ لا دليل عليه ، بل هو مخالف لما ذكرناه من أن جميع الناس اليوم من ذرية نوح بنص القرآن .

وهكذا من زعم أنهم على أشكال مختلفة وأطوال متباينة جدًّا ؛ فمنهم من هو كالنخلة السحوق . ومنهم من هو غاية في القصر . ومنهم من يفترش أذناً من أذنيه ويتغطى بالأخرى ، فكل هذه أقوال بلا دليل ورجم بالغيب بغير برهان[٢] .

والصحيح أنهم من بني آدم ، وعلى أشكالهم وصفاتهم . وقد قال النبي ﷺ : « إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً . . . ثمّ لم يزل الخلق ينقص حتى الآن »[٣] . وهذا فيصل في هذا الباب وغيره .

وما قيل من أن أحدهم لا يموت حتى يرى من ذريته ألفاً ، فإن صَحَّ في خبرٍ قُلنا به ، وإلا فلا نردُّه ، إذ يحتمله العقل ، والنقل أيضاً قد يرشد إليه . والله أعلم . بل قد ورد حديث مصرّح بذلك إن صَحَّ ، قال الطبراني : حدّثنا عبد الله بن محمد بن العباس الأصبهاني ، حدّثنا أبو مسعود أحمد بن الفرات ، حدّثنا أبو داود الطيالسي ، حدّثنا المغيرة ، عن مسلم ، عن أبي إسحاق ، عن وهب بن جابر ، عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال : « إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم ، ولو أُرْسِلوا لأفسدوا على الناس معايِشَهم ، ولن يموتَ منهم رَجُلٌ إلاّ تَرَكَ من ذُرِّيته ألفاً فصاعداً ، وإن من ورائهم ثلاثَ أُمَم : تاويل وتاريس ومنسك » . وهو حديث غريب جدًّا وإسناده ضعيف . وفيه نكارة شديدة .

وأما الحديث الذي ذكره ابن جرير في « تاريخه »[٤] أن رسول الله ﷺ ذهب إليهم ليلة الإسراء فدعاهم إلى الله فامتنعوا من إجابته ومتابعته ، وأنه دعا تلك الأمم التي هناك (تارس وتاويل ومنسك) فأجابوه فهو حديث موضوع ، اختلقه أبو نعيم عمر بن الصبح[٥] أحد الكذّابين الكبار الذين اعترفوا بوضع الحديث . والله أعلم .

---

(١) نقله أيضاً ابن حجر في فتح الباري : (٦/ ٣٨٦) .
والنووي : هو يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحزامي النووي الحوراني ، توفي سنة (٦٧٦هـ) وله مؤلفات كثيرة . منها كتابه : المنهاج في شرح صحيح مسلم . وهو مطبوع .

(٢) تفسير الطبري (١٦/ ١٦) .

(٣) الحديث بتمامه في البخاري : رقم (٦٢٢٧) في أول باب الاستئذان ، ومسلم (٢٨٤١) ، في الجنة ، باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير .

(٤) تاريخ الطبري (١/ ٧٠) .

(٥) انظر تهذيب التهذيب (٧/ ٤٦٣) .

فإن قيل : فكيف دلّ الحديث المتفق عليه أنهم فداء المؤمنين يوم القيامة ، وأنهم في النار ولم يُبعثْ إليهم رُسُلٌ ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ١٥] (فالجواب أنهم لا يُعذَّبون إلا بعد قيام الحجّة عليهم والإعذار إليهم كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾)[١] فإن كانوا في زمن[٢] الذي قبل بعث[٣] محمد ﷺ قد أتتهم رسلٌ منهم ، فقد قامت على أولئك الحجّة ، وإن لم يكن قد بعث الله إليهم رسُلاً ، فهم في حكم أهل الفترة ، ومن لم تبلغه الدعوة ، وقد دلَّ الحديث المرويُّ من طُرُق عن جماعة من الصحابة عن رسول الله ﷺ أن من كان كذلك يُمتحَنُ في عَرَصَات القيامةِ ، فمن أجابَ الداعي دخَلَ الجَنَّةَ ، ومن أبى دَخلَ النار . وقد أوردنا الحديث بطرقه[٤] وألفاظه وكلام الأئمة عليه عند قوله : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ .

وقد حكاه الشيخ أبو الحسن الأشعري إجماعاً عن أهل السنة والجماعة ، وامتحانهم لا يقتضي نجاتهم ولا ينافي الإخبار عنهم بأنهم من أهل النار ، لأن الله يُطلع رسوله ﷺ على ما يشاء من أمر الغيب ، وقد أطلعه على أن هؤلاء من أهل الشقاء ، وأن سجاياهم تأبى قَبولَ الحق والانقياد له ، فهم لا يجيبون الداعي إلى يوم القيامة ، فيُعلَم من هذا أنهم كانوا أشدّ تكذيباً للحق في الدنيا لو بلغهم فيها ، لأن في عرصات القيامة ينقاد خلقٌ ممن كان مكذِّباً في الدنيا ، فإيقاع الإيمان هنالك لما يشاهد من الأهوال أولى وأحرى منه في الدنيا ، والله أعلم .

كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ١٢] . وقال تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ [مريم : ٣٨] . وأما الحديث الذي فيه أن رسول الله ﷺ دعاهم ليلة الإسراء فلم يُجيبوا ، فإنه حديث منكَرٌ ، بل موضوع ، وضعه عمر بن الصبح .

وأما السَّدُّ ، فقد تقدّم أن ذا القرنين بناه من الحديد والنُّحاس ، وساوَى به الجبالَ الصم[٥] الشامخات الطوال ، فلا يُعرفُ على وجه الأرض بناءٌ أجلّ منه ولا أنفع للخلق منه في أمر دنياهم . قال البخاري : وقال رجل للنبي ﷺ : رأيتُ السد . قال : « وكَيْفَ رَأَيْتَهُ » ؟ قالَ : مثل البُرْدِ المحبَّر . فقال : « رأيته هكذا » . ذكره البخاري[٦] معلقاً بصيغة الجزم ، ولم أَرَه مُسْنَداً من وجه متصل أرتضيه ، غير أن ابن جرير

---

(١) سقطت من ب : بنقلة عين .
(٢) في ب : الزمن .
(٣) في ب : بعثة .
(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٨ ـ ٣٢) .
(٥) في ب : الشم .
(٦) رواه البخاري (٦/ ٣٨١) في الأنبياء ، معلقاً أول باب قصة يأجوج ومأجوج .

رواه في « تفسيره »[(١)] مرسَلاً فقال : حدّثنا بِشر ، حدثنا يزيد ، حدثنا سعيد ، عن قتادة قال : ذُكر لنا أن رجلاً قال : يا رسول الله قد رأيتُ سد يأجوج ومأجوج ، قال : « انعتْه لي » . قال : كالبُردِ المحبَّر طريقة سواد وطريقة حمراء . قال : « قد رأيته » .

وقد ذُكر أن الخليفة الواثق[(٢)] بعث رسلاً من جهته ، وكتب لهم كتباً إلى الملوك يوصلونهم من بلاد إلى بلاد حتى ينتهوا إلى السد فيكشفوا عن خبره ، وينظروا كيف بناه ذو القرنين على أي صفة ؟ فلما رجعوا أخبروا عن صفته وأن فيه باباً عظيماً ، وعليه أقفال ، وأنه بناءٌ محكمٌ شاهقٌ منيفٌ جدّاً ، وأن بقية اللَّبِن الحديد والآلات في برج هناك ، وذكروا أنه لا يزال هناك حرس لتلك الملوك المتاخمة لتلك البلاد ، ومحلّته في شرقي الأرض في جهة الشمال في زاوية الأرض الشرقية الشمالية ، ويقال : إن بلادهم متسعة جداً ، وإنهم يقتاتون بأصناف من المعايش من حراثة وزراعة واصطياد من البر ومن البحر ، وهم أمم وخلق لا يعلم عددَهم إلا الذي خلقهم .

فإن قيل : فما الجمع بين قوله تعالى : ﴿ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ وبين الحديث الذي رواه البخاري[(٣)] ومسلم[(٤)] عن زينب بنت جحش أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : استيقظ رسول الله ﷺ من نوم محمرّاً وجهه وهو يقول : « لا إلّه إلا الله ، ويلٌ لِلعربِ من شرٍّ قَدِ اقْتربَ ، فُتِحَ اليومَ من ردمِ يأجوج ومأجوج مثلُ هذه » وحلّق تسعين[(٥)] . قلت : يا رسول الله ! أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم إذا كَثُرَ الخَبَثُ » .

وأخرجاه في « الصحيحين »[(٦)] من حديث وهيب عن ابن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « فُتِحَ اليومَ من رَدْمِ يأجوجَ ومأجوجَ مثلُ هذه » وعقد تسعين .

فالجواب : أما على قول من ذهب إلى أن هذا إشارة إلى فتح أبواب الشر والفِتن ، وأن هذا استعارة محضة ، وضرْبُ مثلٍ ، فلا إشكال .

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٢٠) .
(٢) هو هارون بن محمد بن هارون الرشيد . ولي الخلافة سنة ٢٢٧هـ وتوفي سنة ٢٣٢هـ .
(٣) صحيح البخاري رقم (٣٣٤٦) في الأنبياء ، باب قصة يأجوج ومأجوج ، ورقم (٣٥٩٨)في المناقب ، باب علامات النبوة في الإسلام ، ورقم(٥٢٩٣) في الطلاق باب الإشارة في الطلاق والأمور ، ورقم(٧٠٥٩) . في الفتن ، باب قول النبي ﷺ ويلٌ للعرب من شرٍّقد اقترب ، ورقم (٧١٣٥) باب يأجوج ومأجوج .
(٤) صحيح مسلم رقم (٢٨٨٠) في الفتن ، باب اقتراب الفتن .
(٥) قال ابن حجر في فتح الباري : عقد التسعين : أن يجعل طرف السبابة اليمنى في أصلها ويضمها ضماً محكماً بحيث تنطوي عقدتاها حتى تصير مثل الحية المطوقة (١٣/ ١٠٨) .
(٦) في البخاري رقم (٧١٣٦) في الفتن ، باب يأجوج ومأجوج .
ومسلم رقم (٢٨٨١) في الفتن ، باب اقتراب الفتن . واللفظ لمسلم .

وأما على قول من جَعل ذلك إخباراً عن أمرٍ محسوس كما هو الظاهر المتبادر ، فلا إشكال أيضاً ، لأن قوله : ﴿ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ أي : في ذلك الزمان ، لأن هذه صيغة خبر ماضٍ فلا ينفي وقوعُه فيما يستقبل بإذن الله لهم في ذلك قدراً ، وتسليطهم عليه بالتدريج قليلاً قليلاً حتى يتم الأجل وينقضي الأمر المقدور فيخرجون كما قال الله تعالى : ﴿ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٩٦] ولكن الحديث الآخر أشكل من هذا ، وهو ما رواه الإمام أحمد في « مسنده »[١] قائلاً : حدّثنا رَوْح ، حدّثنا سعيد بن أبي عَرُوبة ، عن قتادة ، حدّثنا أبو رافع ، عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : « إن يأجوج ومأجوج ليَحْفِرُنَّ السدّ كلّ يومٍ حتى إذا كادوا يرونَ شعاعَ الشمسِ قالَ الذي عَلَيهم : ارجِعُوا فستحفرونه غداً ، فيعودون إليه كأشد ما كان ، حتى إذا بلغت مدّتُهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس ، حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاعَ الشمس قال الذي عليهم : ارجعوا فستحفرون غداً إن شاء الله ، ويستثني ، فيعودون إليه وهو كهيئته يوم تركوه ، فيحفرونه ويخرجون على الناس ، فيستقون[٢] المياه وتتحصن الناس منهم[٣] في حصونهم ، فيرمون بسهامهم إلى السماء فترجع وعليها كهيئة الدم ، فيقولون : قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء ، فيبعث الله عليهم نغفاً[٤] في أقفائهم فيقتلهم بها » ، قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسُ محمدٍ بيده إن دوابَّ الأرض لتسمن وتشكر شكراً من لحومهم ودمائهم » . رواه أحمد[٥] أيضاً عن حسن بن موسى عن سفيان عن قتادة .

وهكذا رواه ابن ماجه[٦] من حديث سعيد عن قتادة ، إلا أنه قال : حدّث أبو رافع . ورواه الترمذي[٧] من حديث أبي عوانة عن قتادة به ، ثم قال : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

فقد أخبر في هذا الحديث أنهم كل يوم يلحسونه حتى يكادوا ينظرون[٨] شعاع الشمس من ورائه لرقّته ، فإن لم يكن رفع هذا الحديث محفوظاً . وإنما هو مأخوذ عن كعب الأحبار ، كما قاله بعضهم ، فقد استرحنا من المؤونة ، وإن كان محفوظاً ، فيكون محمولاً على أن صنيعهم هذا يكون في آخر الزمان

---

(١) المسند (٢/ ٥١٠) .

(٢) في المسند : فينشفون .

(٣) قوله : منهم ، زيادة من ب والمسند .

(٤) النَّغَفُ : دودٌ يكون في أنوف الإبل والغنم ، واحدتها : نَغَفَةٌ . النهاية لابن الأثير .

(٥) المسند (٢/ ٥١١) .

(٦) سنن ابن ماجه رقم (٤٠٨٠) ، في الفتن ، باب فتنة الدجال وخروج عيسى وخروج يأجوج ومأجوج، إسناده صحيح، ولكن في رفعه نكارة، ولعله من كلام كعب ، كما يعنيه المصنف وينظر التعليق على ابن حبان (١٤/ حديث ٦٨٢٩).

(٧) سنن الترمذي رقم (٣١٥٣) في تفسير القرآن ، باب ومن سورة الكهف .

(٨) في ط : ينذرون . .

عند اقتراب خروجهم ، كما هو المروي عن كعب الأحبار ، أو يكون المراد بقوله : ﴿ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ أي : نافذاً منه ، فلا ينفي أن يلحسوه ولا ينفذوه . والله أعلم .

وعلى هذا فيمكن الجمع بين هذا وبين ما في « الصحيحين » عن أبي هريرة « فُتح اليومَ من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه » وعقد تسعين ، أي : فتح فتحاً نافذاً فيه . والله أعلم .

* * *

قصّة أصحاب الكهف

قال الله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٩ - ٢٦] .

كان سبب نزول قصّة أصحاب الكهف وخبر ذي القرنين ما ذكره محمد بن إسحاق في « السيرة »(١) وغيره أن قريشاً بعثوا إلى اليهود يسألونهم عن أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ ويسألونه عنها ليختبروا ما يجيب به فيها ، فقالوا : سلوه عن أقوام ذهبوا في الدهر فلا يُدرَى ما صنعوا ، وعن رجل طوّافٍ في الأرض ، وعن الروح . فأنزل الله تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾ [الإسراء : ٨٥] . ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى

(١) السيرة النبوية (٢٠٢) .

ٱلْقَرْنَيْنِ ﴾ [الكهف : ٨٣] ، وقال هاهنا ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ أي ليسوا بعجب عظيم بالنسبة إلى ما أطلعناك عليه من الأخبار العظيمة والآيات الباهرة والعجائب الغريبة .

والكهف : هو الغار في الجبل . قال شُعيب الجَبَائي[١] : واسم كهفهم حَيزم .

وأما الرَّقيم ، فعن ابن عباس أنه قال : لا أدري ما المراد به . وقيل : هو الكتاب المرقوم فيه أسماؤهم وما جرى لهم ، كُتِبَ من بعدهم ، اختاره ابن جرير[٢] وغيره . وقيل : هو اسم الجبل الذي فيه كهفهم . قال ابن عباس وشعيب الجَبَائي واسمه بنجلوس[٣] . وقيل : هو اسم وادٍ عند كهفهم . وقيل : اسم قرية هنالك . والله أعلم .

قال شعيب الجَبَائي : واسم كلبهم حَمران .

واعتناء اليهود بأمرهم ومعرفة خبرهم يدل على أن زمانهم متقدِّم على ما ذكره بعض المفسرين أنهم كانوا بعد المسيح ، وأنهم كانوا نصارى . والظاهر من السياق أن قومهم كانوا مشركين يعبدون الأصنام . قال كثير من المفسرين[٤] والمؤرخين وغيرهم كانوا في زمن ملك يقال له : دقيانوس ، وكانوا من أبناء الأكابر . وقيل : من أبناء الملوك . واتفق اجتماعهم في يوم عيدٍ لقومهم، فرأوا مايتعاطاه قومُهم من السجود للأصنام والتعظيم للأوثان ، فنظروا بعين البَصِيرة ، وكشف الله عن قلوبهم حجابَ الغفلة ، وألهَمَهم رشدهم ، فعلموا أن قومهم ليسوا على شيء ، فخرجوا عن دينهم ، وانتموا إلى عبادة الله وحدَه لا شريك له . ويقال : إن كل واحد منهم لما أوقع الله في نفسه ما هداه إليه من التوحيد انحاز عن الناس ، واتفق اجتماع هؤلاء الفتية في مكانٍ واحد ، كما صحّ في البخاري[٥] « الأرْواحُ جُنودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعارَفَ مِنها ائتَلَفَ وما تناكَرَ مِنها اخْتَلَفَ » ، (فكلٌّ منهم سأل الآخر عن أمره وعن شأنه فأخبره ما هو عليه ، واتفقوا على الانحياز عن قومهم)[٦] والتبرّي منهم ، والخروج من بين أظهرهم ، والفرار بدينهم منهم ، وهو المشروع حال الفِتن وظهور الشرور .

قال الله تعالى ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ﴾ أي : بدليلٍ ظاهرٍ على ما ذهبوا إليه وصاروا من الأمر عليه

(١) الجَبَائي : نسبة إلى جَبَاء ، جبل باليمن .
(٢) تفسير الطبري (١٥/ ١٣١ ـ ١٣٢) .
(٣) كذا في الأصول ، وفي تفسير أيضاً . وفي ط : بنا جلوس .
(٤) تفسير الطبري (٥١/ ١٣٢) وما بعدها .
(٥) رواه البخاري معلقاً رقم (٣٣٣٦) ، في الأنبياء ، باب الأرواح جنود مجندة ، وقد وصله البخاري في الأدب المفرد ، وقد وصله مسلم رقم (٢٦٣٨) وأبو داود رقم (٤٨٣٤) وغيرها .
(٦) سقطت من ب .

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ أي وإذ فارقتموهم في دينهم وتبرَّأتم مما يعبدون من دون الله ، وذلك لأنهم كانوا يشركون مع الله كما قال الخليل : ﴿ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴾ [الزخرف : ٢٦ ـ ٢٧] وهكذا هؤلاء الفتية قالوا بعضهم بعضاً[١] : إذ قد فارقتم قومكم في دينهم[٢] فاعتزلوهم بأبدانكم لتسلموا منهم أن يوصِلوا إليكم شراً ﴿ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ أي : يُسْبلْ عَلَيكُم ستره وتكونوا تحت حفظه وكنفه ويجعل عاقبةَ أمركم إلى خيرٍ ، كما جاء في الحديث « اللهُمَّ أحسن عاقِبَتَنا في الأُمورِ كُلِّها ، وأَجِرْنا مِن خزي الدُّنيا ومِن عذابِ الآخرة »[٣] .

ثمّ ذكر تعالى صفة الغار الذي أووا إليه ، وأن بابه موجَّه إلى نحو الشمال ، وأعماقه إلى جهة القبلة ، وذلك أنفع الأماكن أن يكون المكان قبلياً وبابه نحو الشمال ، فقال : ﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ ﴾ وقُرِئ[٤] ﴿ تَزْوَرُّ عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال ﴾ فأخبر أن الشمس ـ يعني في زمن الصيف وأشباهه ـ تشرق أوّل طلوعها في الغار في جانبه الغربي ، ثم تشرع في الخروج منه قليلاً قليلاً ، وهو ازورارُها ذاتَ اليمين[٥] فترتفع في جو السماء وتتقلص عن باب الغار ، ثم إذا تضيَّفت للغروب تشرع في الدخول فيه من جهته الشرقية قليلاً قليلاً إلى حين الغروب ، كما هو المشاهد بمثل هذا المكان ، والحكمة في دخول الشمس إليه في بعض الأحيان أن لا يفسد هواؤه ﴿ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أي : بقاؤهم على هذه الصفة دهراً طويلاً من السنين لا يأكلون ولا يشربون ولا تتغذّى أجسادهم في هذه المدة الطويلة من آيات الله وبرهان قدرته العظيمة .

﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ ﴾ قال بعضهم : لأن أعينهم مفتوحة لئلا تفسد بطول الغمض .

﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ ﴾ قيل : في كل عام يتحوَّلون مرةً من جنب إلى جنب ، ويحتمل أكثر من ذلك . فالله أعلم .

﴿ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ ﴾ (قال شُعيب الجَبائي : اسم كلبهم حَمْران. وقال غيره: الوصيد)[٦]:

---

(١) كذا العبارة في أ وب : قالوا بعضهم بعضاً . وفي ط : قال بعضهم إذ . وهو الأصح .

(٢) في ب : دينكم .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ١٨١) من حديث بسر بن أرطاة عن رسول الله ﷺ، وبسر مختلف في صحبته، والصحيح أنه ولد قبل وفاة النبي ﷺ بسنتين، وذكر ابن معين أنه كان رجل سوء، وقال ابن عدي: مشكوك في صحبته، وله أفعال قبيحة معروفة وينظر تحرير التقريب (١/ ١٦٩)، فالثابت أنه لم يسمع النبي ﷺ .

(٤) هي قراءة ابن عامر . الحجة لابن زنجلة (٤١٣) .

(٥) في ب : الشمال وهو سهو .

(٦) سقطت من ب بنقلة عين .

أُسْكُفَّةُ الباب[١] . والمراد أن كلبهم الذي كان معهم وصَحِبَهم حال انفرادهم من قومهم لزمهم ولم يدخل معهم إلى الكهف ، بل رَبَض على بابه ووضع يديه على الوصيد ، وهذا من جملة أدبه ومن جملة ما أُكرِموا به ، فإن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ، ولما كانت التبعية مؤثرة حتى كان في كلب هؤلاء صار باقياً معهم ببقائهم ، لأن من أحبَّ قوماً سَعِد بهم ، فإذا كان هذا في حق كلبٍ فما ظنك بمن تبع أهل الخير وهو أهل للإكرام .

وقد ذكر كثير من القصاص والمفسرين لهذا الكلب نبأً وخبراً طويلاً أكثره متلقّى من الإسرائيليات ، وكثير منها كَذِبٌ ومما لا فائدة فيه ، كاختلافهم في اسمه ولونه[٢] .

وأما اختلاف العلماء في محلّة هذا الكهف ، فقال كثيرون : هو بأرض أيْلة . وقيل : بأرض نينوى . وقيل : بالبلقاء . وقيل : ببلاد الروم ، وهو أشبه والله أعلم .

ولما ذكر الله تعالى ما هو الأنفع من خبرهم والأهم من أمرهم ، ووصف حالهم حتى كأن السامع راءٍ والمخبر مشاهِدٌ لصفة كهفهم ، وكيفيتهم في ذلك الكهف ، وتقلّبهم من جنب إلى جنب ، وأن كلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ، قال : ﴿ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ﴾ أي : لِما عليهم من المهابة والجلالة في أمرهم الذي صاروا إليه . ولعلّ الخطاب هاهنا لجنس الإنسان المخاطَب لا بخصوصية الرسول ﷺ ، كقوله : ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ﴾ [التين : ٧] أي : أيّها الإنسان ، وذلك لأن طبيعة البشرية تنفر من رؤية الأشياء المهيبة غالباً ، ولهذا قال : ﴿ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ﴾ ودلَّ على أن الخبر ليس كالمعاينة ، كما جاء في الحديث[٣] ، لأن الخبر قد حصل ولم يحصل الفرار ولا الرعب .

ثمّ ذكر تعالى أنه بعثهم من رقدتهم بعد نومهم بثلاثمئة سنة وتسع سنين ، فلما استيقظوا قال بعضهم لبعض : ﴿ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ ﴾ أي : بدراهمكم هذه ، يعني التي معهم ، إلى المدينة ، ويقال : كان اسمها دفسوس ، ﴿ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا ﴾ أي : أطيب مالاً ﴿ فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ ﴾ أي : بطعام تأكلونه ، وهذا من زهدهم وورعهم ﴿ وَلۡيَتَلَطَّفۡ ﴾ أي في دخوله إليها ﴿ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ١٩ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴾ أي : إن عُدتم في ملتهم بعد إذ أنقذكم الله منها ، وهذا كله لظنهم أنهم رقدوا يوماً أو بعضَ يومٍ أو أكثر من ذلك ، ولم يحسِبوا أنهم قَدْ رقدوا أَزْيَدَ من ثلاثمئة سنة ،

---

(١) أُسْكفَّة الباب : خشبته التي يوطأ عليها ، وقيل عتبته .
(٢) تفسير الطبري (٥/١٤٢) .
(٣) رواه أحمد في مسنده رقم (١٨٤٢) و(٢٤٤٧) وابن حبان رقم (٦٢١٣) وهو حديث صحيح .

وقد تبدَّلت الدول أطواراً عديدةً ، وتغيَّرت البلاد ومن عليها ، وذهب أولئك القرن الذين كانوا فيهم ، وجاء غيرُهم ، وذهبوا وجاء غيرهم ، ولهذا لما خرج أحدُهم وهو تيذوسيس[١] فيما قيل ، وجاء إلى المدينة متنكراً لئلا يعرفه أحد من قومه فيما يحسبه تنكرت له البلاد واستنكره من يراه من أهلها واستغربوا شكله وصفته ودراهمه ، فيقال : إنهم حملوه إلى متولِّيهم وخافوا من أمره أن يكون جاسوساً أو تكون له طوية[٢] يخشون من مضرتها فيقال : إنه هرب منهم . ويقال : بل أخبرهم خبرَه ومن معه وما كان من أمرهم ، فانطلقوا معه ليُريهم مكانَهم ، فلما قربوا من الكهف دخل إلى إخوانه فأخبرهم حقيقَة أمرهم ومقدار ما رقدوا ، فعلموا أن هذا أمرٌ قدَّره الله ، فيقال : إنهم استمرُّوا راقدين ، ويقال : بل ماتوا بعد ذلك .

وأما أهل البلدة[٣] فيقال : إنهم لم يهتدوا إلى موضعهم من الغار ، وعمَّى الله عليهم أمرهم ، ويقال : لم يستطيعوا دخوله حِسّاً ، ويقال : مهابةً لهم[٤] .

واختلفوا في أمرهم : فقائلون يقولون : ﴿ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ﴾ أي : سدُّوا عليهم بابَ الكهف لئلا يخرجوا أو لئلا يصلَ إليهم ما يؤذيهم . وآخرون ، وهم الغالبون على أمرهم ، قالوا : ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ أي : معبداً يكون مباركاً لمجاورته هؤلاء الصالحين[٥] . وهذا كان شائعاً فيمَن كان قبلنا ، فأما في شَرْعنا ، فقد ثبت في « الصحيحين » عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لَعَنَ اللهُ اليهودَ والنصارَى اتّخذُوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ » يُحذِّرُ ما فعلوا[٦] .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ ﴾ (فمعنى أعثرنا : أطلعنا على أمرهم الناس . قال كثير من المفسرين : ليعلم الناسُ أن المعاد حقٌّ وأن الساعة

---

(١) كذا في الأصول . وقد ذكر ابن جرير في تفسيره (١٥/١٤٣و ١٤٤) . أن تيذوسيس هو الملك الذي كان حاكماً وقتئذٍ ، أما الفتى الذي أرسله أصحابه من الكهف فهو يمينحا . كما ذكر وفي بعض النسخ : يمليخا .

(٢) في ط : صولة . وهو تحريف .

(٣) في ب : القرية .

(٤) تفسير الطبري (١٥/ ١٤٢) . وما بعدها .

(٥) أشار الطبري إلى أن قائلي هذا الرأي مختلف فيهم ، فقيل : هم المسلمون ، وقيل : هم الكفار . تفسيره (١٥/ ١٤٩) .

(٦) أخرجه البخاري : برقم (٤٣٥ ـ ٤٣٧) ، في الصلاة ، باب (٥٥) (الصلاة في البيعة) ، ورقم (١٣٣٠) ، في الجنائز ، باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور ، ورقم (١٣٩٠) باب ما جاء في قبر النبي ﷺ ، من طريق عائشة رضي الله عنها . ومسلم (٥٣٠) و(٥٣١) في المساجد ، باب النهي عن بناء المساجد على القبور ، وقوله : يحذّر ما فعلوا . ورد في فتح الباري (١/ ٥٣٢) وفيه . وقوله : يحذر ما صنعوا جملة أخرى مستأنفة من كلام الراوي ، كأنه سئل عن حكمة ذكر ذلك في ذلك الوقت فأجيب بذلك .

لا ريب)[١] فيها إذا علموا أن هؤلاء القوم رقدوا أزيد من ثلاثمئة سنة ثمّ قاموا كما كانوا من غير تغير منهم ، فإن من أبقاهم كما هُم قادرٌ على إعادة الأبدان وإن أكلتها الديدان ، وعلى إحياء الأموات وإن صارت أجسامهم وعظامهم رُفاتاً ، وهذا مما لا يشك فيه المؤمنون[٢] ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] .

هذا ويحتمل عود الضمير في قوله : ﴿ لِيَعْلَمُوٓاْ ﴾ إلى أصحاب الكهف ، إذ علْمُهم بذلك من أنفسهم أبلغ من علم غيرهم بهم . ويحتمل أن يعود على الجميع . والله أعلم .

ثمّ قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ ﴾ فذكر اختلافَ الناس في كميتهم ، فحكى ثلاثة أقوال وضعّف الأوّلَيْنِ وقرّر الثالثَ ، فدلّ على أنه الحقُّ ، إذ لو قيل غير ذلك لحكاه ، ولو لم يكن هذا الثالث هو الصحيح لوهَّاه ، فدلّ على ما قلناه[٣] . ولمَّا كان النزاع في مثل هذا لا طائل تحته ولا جدوى عنده أرشد نبيه ﷺ إلى الأدب في مثل هذا الحال إذا اختلف الناس فيه أن يقول : الله أعلم . ولهذا قال : ﴿ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ .

وقوله : ﴿ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ ﴾ أي : من الناس . ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا ﴾ أي : سَهلا ، ولا تتكلف أعمال الجدال في مثل هذا الحال ولا تَسْتَفْتِ في أمْرِهم أحداً من الرجال . ولهذا أبهَم الله تعالى عدَّتهم في أوّلِ القِصة فقال : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ ﴾ ولو كان في تعيُّن عدَّتهم كبير فائدة لذكرها عالم الغيب والشهادة .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ أدب عظيم أرشده الله تعالى إليه وحَثّ خلقه عليه ، وهو ما إذا قال أحدهم : إني سأفعل في المستقبل كذا ، فيشرع له أن يقول : إن شاء الله ، ليكون ذلك تحقيقاً لعزمه ، لأن العبدَ لا يعلم ما في غدٍ ، ولا يدري أهذا الذي عَزَم عليه مقدَّرٌ أم لا ، وليس هذا الاستثناء تعليقاً وإنما هو الحقيقي ، ولهذا قال ابن عباس إنه يصح إلى سنة[٤] ولكن قد يكون في بعض المحال لهذا ، ولهذا كما تقدّم في قصّة سليمان عليه السلام[٥] حين قال : لأطوفنَّ الليلةَ على سبعين[٦] امرأةً تلد كل

---

(١) سقطت من ب بنقلة عين .

(٢) تفسير الطبري (١٥/ ١٤٩) ، وتفسير ابن كثير (٣/ ٧٧) .

(٣) وهذا رأي ابن عباس رضي الله عنه . كما في تفسير الطبري (١٥/ ١٥٠) ، وابن كثير (٣/ ٧٨) .

(٤) أي يصح أن يستثني ولو تذكر إلى سنة ، وقول ابن عباس في الرجل يحلف ، قال له أن يستثني ولو إلى سنة . أورده الطبري في تفسيره (١٥/ ١٥١) ، وابن كثير (٣/ ٧٩) .

(٥) تقدم في الصفحة (١٩١) من هذا الجزء . وتخرج الحديث ثمة .

(٦) في ب : تسعين ، وهي رواية أيضاً .

واحدة[١] منهنَّ غلاماً يقاتل في سبيل الله . فقيل له : قل : إن شاء الله ، فلم يقل ، فطاف فلم تلد منهن إلا امرأةٌ واحدةٌ نصف إنسان . قال رسول الله ﷺ : « والذي نَفْسِي بِيَدِهِ لو قالَ : إنْ شَاءَ اللهُ ، لم يَحْنَثْ وكانَ دركاً لحاجته » .

وقوله : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ وذلك لأن النسيان قد يكون من الشيطان ، فذِكْرُ الله يطرده عن القلب فيذكر ما كان قد نسيه .

وقوله : ﴿ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ أي : إذا اشْتبه أمرٌ وأشكَلَ حالٌ والتبس أقوالُ الناس في شيءٍ فارغب إلى الله يُيسّره لك ويسهّله عليك .

ثمّ قال تعالى : ﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴾ . لما كان في الإخبار بطول مدة لبثهم فائدة عظيمة ذَكَرها تعالى ، وهذه التسع المزيدة بالقمرية وهي لتكميل ثلاثمئة شمسية ، فإن كل مئة قمرية تنقص عن الشمسية ثلاث سنين . ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ﴾ أي : إذا سُئِلْتَ عن مثل هذا وليس عندك في ذلك نقلٌ ، فرُدَّ الأمرَ في ذلك إلى الله عزَّ وجلَّ ﴿ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي هو العالم بالغيب فلا يُطلع عليه إلا من شاء من خلقه ﴿ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ﴾ يعني أنه يضع الأشياء في مَحالّها لعلمه التام بخلقه وبما يستحقونه .

ثم قال : ﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ أي : ربك المنفرد بالملك والمتصرف[٢] وحدَه لا شريك له .

* * *

(١) في ب : امرأة .

(٢) في ط : المنصرف . وهو تصحيف .

قصة الرجلين المؤمن والكافر

قال الله تعالى في سورة الكهف بعد قصة أهل الكهف : ﴿ ۞وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ﴿٣٢﴾ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ﴾ إلى قوله : ﴿ هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ﴾ [الآيات : ٣٢ ـ ٤٤] .

قال بعض الناس : هذا مثل مضروب ولا يلزم أن يكون واقعاً . والجمهور أنه أمرٌ قد وقع .

وقوله : ﴿ ۞وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا ﴾ يعني لكفارِ قُريش في عَدَم اجتماعهم بالضعفاء والفقراء وازدرائهم بهم وافتخارهم عليهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾ [يس : ١٣] . كما قدّمنا[١] الكلام على قصَّتهم قبل قصة موسى عليه السلام .

والمشهور أن هذين كانا رجلين مصطحبين ، وكان أحدُهما مؤمناً والآخر كافراً ، ويقال : إنه كان لكل منهما مالٌ ، فأنفق المؤمن مالَه في طاعة الله ومرضاته ابتغاء وجهه ، وأما الكافر فإنه اتّخذ له بستانين ، وهما الجنتان المذكورتان في الآية على الصفة والنعت المذكور ، فيهما أعنابٌ ونخيل تحفّ تلك الأعناب والزروع في ذلك[٢] ، والأنهار سارحةٌ هاهنا وهاهنا للسقي والتنزُّه ، وقد استوثقت فيهما الثمار ، واضطربت فيهما الأنهار ، وابتهجت الزروع والثمار ، وافتخر مالكُهما على صاحبه المؤمن الفقير قائلاً له : ﴿ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴾ أي أوسع[٣] جناناً . ومرادُه أنّه خيرٌ منه ، ومعناه : ماذا أغنى عنكَ إنفاقُك ما كنتَ تملكُه في الوجه الذي صرفتَه فيه ؟! كان الأولى بكَ أن تفعل كما فعلتُ لتكونَ مثلي ، فافتخر على صاحبه ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ ﴾ أي : وهو على غير طريقةٍ مرضية . قال : ﴿ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ﴾ وذلك لِما رأى من اتّساع أرضِها وكثرة مائها وحُسن نبات أشجارِها ، ولو قد بادت كلُّ واحدةٍ من هذه الأشجار لاستخلف مكانها أحسن منها ، وزروعها دارةٌ لكثرة مياهها .

ثمّ قال : ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ ﴾ فوَثِقَ بزهرةِ الحياة الدنيا الفانية وكذّب بوجود الآخرة الباقية الدائمة . ثمّ قال : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ﴾ أي : وَلَئن كان ثَمَّ آخرةٌ ومعادٌ فلأجدنَّ هنالكَ خيراً من هذا ، وذلك لأنه اغترَّ بدنياه واعتقد أن الله لم يعطه ذلك فيها إلاّ لحبّهِ له وحظوته عنده ،

(١) في آخر الجزء الأول من هذا الكتاب .
(٢) في ب : والزرع في خلال ذلك . .
(٣) زاد في ب : وأينع .

كما قال العاص بن وائل فيما قصَّ الله من خبره وخبر خبَّاب بن الأرت[١] في قوله : ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴾ [مريم : ٧٧ ـ ٧٨] .

وقال تعالى إخباراً عن الإنسان إذا أنعم الله عليه : ﴿ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [فصلت : ٥٠] .

وقال قارون ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ أي : لعلم الله بي أنّي أستحقه ، قال الله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [القصص : ٧٨] .

وقد قدمنا الكلام على قصته في أثناء قصّة موسى[٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ : ٣٧] .

وقال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٥ ـ ٥٦] .

ولما اغتر هذا الجاهل بما خُوِّل به في الدنيا فجحد الآخرة وادّعى أنها إن وجدت لَيَجدنَّ عند ربّه خيراً مما هو فيه . وسمعَه صاحبُه يقول ذلك قال له ﴿ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ ﴾ أي : يجادله : ﴿ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾ أي : أَجَحَدْتَ[٣] المَعَادَ وأنت تعلم أن الله خلقك من تراب ، ثمّ من نطفة ، ثمّ طوّرك[٤] أطواراً حتى صِرت رجلاً سوياً سميعاً بصيراً ، تعلم وتبطش وتفهم ، فكيف أنكرت المعاد والله قادرٌ على البداءة . ﴿ لَّـٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى ﴾ أي : لكن أنا أقول بخلاف ما قلتَ ، وأعتقد خلافَ معتقدكَ ﴿ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ أي : لا أعبد سِواه ، وأعتقد أنه يبعث الأجساد بعد فنائها ، ويعيد الأموات ، ويجمع العظام الرُّفات ، وأعلم أنَّ الله لا شريك له في خلقه ولا في ملكه ، ولا إله غيره .

ثم أرشده إلى ما كان الأولى به أن يسلكه عند دخول جنته فقال : ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ ولهذا يُسْتحَب لكلِّ من أعجبه شيءٌ من ماله أو أهله أو حاله أن يقول كذلك ، وقد ورد فيه حديثٌ مرفوعٌ ، في صحته نظر .

---

(١) تفصيل الخبر وسبب نزول هذه الآية في تفسير الطبري (١٦/ ٩١) .
(٢) في أول هذا الجزء .
(٣) في ب : جحرت .
(٤) في ط : صورك .

قال أبو يعلى الموصلي : حدَّثنا جَرَّاح بن مَخْلد[١] ، حدّثنا عمر بن يونس[٢] ، حدّثنا عيسى بن عون ، حدّثنا عبد الملك بن زرارة ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أنعَمَ اللهُ على عبدٍ نِعمةً من أهْلٍ أو مالٍ أو ولدٍ فيقُولُ : ما شاءَ اللهُ لا قوةَ إلا بالله ، فيرى فيه آفة دون الموت »[٣] . وكان يتأول هذه الآية ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ قال الحافظ أبو الفتح الأزدي : عيسى بن عون عن عبد الملك بن زُرارة عن أنس لا يصح .

ثمّ قال المؤمن للكافر : ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾ أي : في الدار الآخرة ﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ . قال ابن عباس ، والضحّاك ، وقتادة : أي : عذاباً من السماء[٤] . والظاهر أنه المطر المزعج الباهر الذي يَقْتلِعُ زروعها وأشجارها ﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ وهو الترابُ الأملس الذي لا نبات فيه[٥] ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا ﴾ وهو ضد المَعِين السارح ﴿ فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴾ يعني فلا تقدر على استرجاعه .

قال الله تعالى : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ ﴾ أي : جاءه أمرٌ أحاط بجميع حواصله وخَرَّب جنته ودمَّرها ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ أي : خربت بالكُلّية فلا عودَة لها ، وذلك ضد ما كان عليه أَمَّل حيث قال[٦] : ﴿ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ وندم على ما كان سلف منه من القول الذي كفر بسببه بالله العظيم فهو يقول : ﴿ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ﴾ أي : لم يكن أحد يتدارك ما فرط من أمره ، وما كان له قدرة في نفسه على شيءٍ من ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ [الطارق : ١٠] وقوله : ﴿ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ﴾ . ومنهم من يبتدئ بقوله : ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ﴾ وهو حَسَنٌ أيضاً لقوله ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢٦] فالحكم الذي لا يُرَدُّ

---

(١) الجراح بن مخلد العجلي ، ثقة ، من الطبقة العاشرة ، توفي نحو سنة (٢٠٥هـ) . تقريب التهذيب (١/١٢٦) .

(٢) في ط : عمرو بن يوسف . وفي أ : عمر بن يوسف . وأثبت ما في ب ، وهو موافق لما في تفسير المؤلف (٣/ ٨٤) ، وعمر بن يونس اليمامي ، من الطبقة التاسعة ، وهو ثقة ، توفي بعيد المئتين ، قيل سنة (٢٠٦هـ) . سير أعلام النبلاء (٩/ ٤٢٢) ، وتقريب التهذيب (٢/ ٦٤) . ولعله التبس بعمرو بن يوسف مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه . الجرح والتعديل (٦/ ٢٦٩) .

(٣) رواه أبو يعلى والبيهقي في شعب الإيمان ، من حديث أنس ، وفيه ضعف .

(٤) تفسير الطبري (١٠/ ١٦٣) .

(٥) وقيل غير ذلك . تفسير الطبري (١٥/ ١٦٣) .

(٦) في ب : ما كان أمل منها حيث . . .

ولا يُمانَع ولا يُغالَب في تلك الحال ، وفي كل حال لله الحق . ومنهم من رفع ﴿ ٱلْحَقِّ ﴾ جعله صفةً للوَلاية ، وهما متلازمتان[١] .

وقوله : ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ [أي : معاملته خيرٌ لصاحبها ثواباً ، وهو الجزاء ، وخير عُقبا][٢] . وهو العاقبة في الدنيا والآخرة .

وهذه القصّة تضمنت أنه لا ينبغي لأحد أن يركن إلى الحياة الدنيا ، ولا يغترّ بها ولا يثق بها ، بل يجعل طاعةَ الله والتوكُّلَ عليه في كلّ حال نصب عينيه . وليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يديه .

وفيها : أن من قدَّم شيئاً على طاعة الله والإنفاق في سبيله عُذِّب به ، وربما سُلب منه معاملة له بنقيض قصده .

وفيها : أن الواجب قبول نصيحة الأخ المشفق ، وأن مخالفته وبال ودَمار على من رد النصيحة الصحيحة .

وفيها : أن الندامةَ لا تنفع إذا حانَ القدر ونفذ الأمر الحتم ، بالله المستعان وعليه التكلان .

* * *

(١) قراءة الرفع لأبي عمرو والكسائي ، وقرأ الباقون بالكسر ، ورجح الطبري قراءة الكسر . تفسير الطبري (١٥/ ١٦٤) ، وحجة القراءات (٤١٨ ـ ٤١٩) ، والنشر (٢/ ٣١١) .

(٢) زيادة من ط . سقطت من أ و ب . بنقلة عين .

قصّة أصحاب الجنّة

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم : ١٧ ـ ٣٣] .

وهذا مثل ضربه الله لكفار قريش فيما أنعم به عليهم من إرسال الرسول العظيم الكريم إليهم ، فقابلوه بالتكذيب والمخالفة[١] ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾ [إبراهيم : ٢٨ ـ ٢٩] . قال ابن عباس : هم كفار قريش ، فضرب تعالى لهم مثلاً بأصحاب الجنة المشتملة على أنواع الزروع والثمار التي قد انتهت واستحقت أن تُجذَّ وهو الصرام ، ولهذا قال ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا۟ ﴾ فيما بينهم ﴿ لَيَصْرِمُنَّهَا ﴾ أي : ليجذّنها وهو الاستغلال ﴿ مُصْبِحِينَ ﴾ [أي : وقت الصبح][٢] حيث لا يراهم فقيرٌ ولا محتاج فيعطوه شيئاً ، فحلفوا على ذلك ، ولم يستثنوا في يمينهم ، فعجّزهم الله وسلّط عليها[٣] الآفة التي أحرقتها وهي السفعة التي اجتاحتها ولم تُبقِ بها شيئاً يُنْتَفع به ، ولهذا قال : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴾ أي : كالليل الأسود المنصرم من الضياء ، وهذه معاملة بنقيض المقصود .

﴿ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴾ أي : فاستيقظوا من نومهم فنادى بعضُهم بعضاً قائلين : ﴿ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴾ أي باكروا إلى بستانكم فاصرموه قبل أن يرتفع النهار ويكثر السُؤّال ﴿ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴾ أي يتحدثون فيما بينهم خِفْيةً قائلين : ﴿ لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴾ أي : اتفقوا على هذا واشتوروا عليه ﴿ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴾ أي : انطلقوا مُجدِّين في ذلك قادرين عليه مضمرين على هذه[٤] النية الفاسدة . وقال عِكْرمة والشَّعْبي : ﴿ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ ﴾ أي : غضب على[٥] المساكين[٦] . وأبعد السُّدِّي في قوله : أن اسم

---

(١) زاد في ب : له .
(٢) ليست في ب .
(٣) في ب : عليهم .
(٤) في ب : . . . . عليه مصممين مصرين على هذه . .
(٥) في ب : من .
(٦) وقيل غير ذلك . تفسير الطبري (٢٩/ ٢٠ ـ ٢١) ، وأمالي القالي (١/ ٧ ـ ٨) .

حرثهم[١] حرد ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا ﴾ أي : وصلوا إليها ونظروا ما حصل[٢] بها وما قد صارت إليه من الصفة المنكرة بعد تلك النضرة والحُسْن والبهجة ، فانقلبت بسبب النية الفاسدة ، فعند ذلك ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴾ أي : قد تهنا[٣] عنها وسلكنا غير طريقها . ثمّ قالوا : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أي : بل عوقبنا بسبب سوء قصدنا وحُرِمنا بركة حَرْثنا .

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ ، قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : هو أعدلهم وخيرهم[٤] ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ قيل : تستثنون ، قاله مجاهد والسُّدِّي وابن جرير[٥] . وقيل : تقولون خيراً بدل ما قلتم من الشر .

﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴾ ، فندموا حيث لا ينفع[٦] واعترفوا بالذنب بعد العقوبة وذلك حيث لا ينجع .

وقد قيل : إن هؤلاء كانوا إخوةً وقد ورثوا هذه الجنة من أبيهم وكان يتصدّق منها كثيراً ، فلما صار أمرها إليهم استهجنوا أمر أبيهم وأرادوا استغلالها من غير أن يعطوا الفقراء شيئاً ، فعاقبهم الله أشد[٧] العقوبة ، ولهذا أمر الله تعالى بالصدقة من الثمار وحَثَّ على ذلك يوم الجذاذ كما قال تعالى : ﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾ [الأنعام : ١٤١] ثمّ قيل : كانوا من أهل اليمن من قرية يقال لها : ضَرَوَان[٨] . وقيل : من أهل الحبشة . والله أعلم[٩] .

قال الله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ﴾ أي : هكذا نعذّب من خالف أمرنا ولم يعطف على المحاويج من خلقنا ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾ أي أعظم وأحكم من عذاب الدنيا ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

وقصة هؤلاء شبيه بقوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [النحل : ١١٢ ـ ١١٣] قيل : هذا مثل مضروب لأهل مكة ، وقيل[١٠] : هم أهل مكة أنفسهم ضربهم مثلاً لأنفسهم ولا ينافي ذلك . والله أعلم .

---

(١) في تفسير ابن كثير : (٤/٤٠٦) : اسم قريتهم حرد .
(٢) في ب : ونظروا إلى ما . . . ، وفي ط : ما حل .
(٣) في ط : نهينا .
(٤) تفسير الطبري (٢٩/٢٢) .
(٥) المصدر السابق .
(٦) زاد في ط : الندم .
(٧) في ب : هذه العقوبة .
(٨) ضروان : بليدة قرب صنعاء . (معجم البلدان) .
(٩) انظر تفسير الطبري (٢٩/١٩) ، وتفسير النيسابوري على حاشيته ، وتفسير المؤلف (٤/٤٠٦) .
(١٠) زاد في ب : أنفسهم .

قصّة أصحاب أيلة الذين اعتدوا في سبتهم

قال الله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ [الأعراف : ١٦٣ ـ ١٦٦] .

وقال تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [٦٥ ـ ٦٦] .

وقال تعالى في سورة النساء : ﴿ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [٤٧] .

قال ابن عباس ومُجاهد وعِكْرمة وقَتادة والسُّدِّي وغيرُهم : هم أهل أيلة[١] . زاد ابن عباس بين مَدْين والطُّور[٢] .

قالوا : وكانوا متمسِّكين[٣] بدين التوراة في تحريم السبت في ذلك الزمان ، فكانت الحِيْتان قد أَلِفَتْ منهم السكينة في مثل هذا اليوم ، وذلك أنه كان يحرَّم عليهم الاصطياد فيه ، كذلك جميع الصنائع والتجارات والمكاسب ، فكانت الحِيْتان في مثل يوم السبت يكثر غشيانها لمحلَّتهم من البحر ، فتأتي من هاهنا وهاهنا ظاهرةً آمنةً مسترسلةً ، فلا يهيجونها ولا يذعرونها ، ﴿ وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ﴾ وذلك لأنهم كانوا يصطادونها فيما عدا السبت .

قال الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم ﴾ أي : نختبرهم بكثرة الحِيْتان في يوم السبت ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي : بسبب فسقهم المتقدِّم .

فلما رأوا ذلك احتالوا على اصطيادها في يوم السبت بأن نصبوا الحبال والشباك والشُّصُوص[٤] وحفروا الحُفَر التي يجري معها الماء إلى مصانع قد أعدوها إذا دخلها السمك لا يستطيع أن يخرج منها ، ففعلوا ذلك في يوم الجمعة ، فإذا جاءت الحيْتان مُسترسلةً يوم السبت علقت بهذه المصايد ، فإذا خرج

---

(١) معجم البلدان . وهي التي تسمى اليوم إيلات ، على الشاطىء الشمالي للبحر الأحمر جنوب فلسطين .
(٢) تفسير الطبري (١/ ٢٦٢) .
(٣) في ب : مستمسكين .
(٤) الشُّصوص ، مفردها : شِصّ : وهي حديدة عقفاء يصاد بها السمك .

سبتُهم أخذوها ، فغضب الله عليهم ولَعَنَهم لِمَا احتالوا على خلاف أمره وانتهكوا محارمه بالحيل التي هيظاهرة للناظر ، وهي في الباطن مخالفةٌ مَحضَةٌ ، فلما فعل ذلك طائفةٌ منهم افترق الذين لم يفعلوا فرقتين : فرقة أنكروا عليهم صنيعهم هذا واحتيالهم على مخالفة الله وشرعه في ذلك الزمان ، وفرقة أخرى لم يفعلوا ولم ينهوا بل أنكروا على الذين نهوا وقالوا : ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ يقولون[١] : ما الفائدة في نهيكم هؤلاء وقد استحقوا العقوبةَ لا محالة ، فأجابتهم الطائفة المنكرة بأنْ قالوا : ﴿ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ أي : فيما أَمَرَنا به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فنقوم به خوفاً من عذابه ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي : ولعلّ هؤلاء يتركون ما هُم عليه من هذا الصنيع فيقيهم الله عذابه ويعفو عنهم إذا هم رَجَعوا واستمعوا .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ ﴾ أي : لم يلتفتوا إلى مَن نهاهم عن هذا الصنيع الشنيع الفظيع ﴿ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ ﴾ وهم الفرقة الآمرة بالمعروف والناهية[٢] عن المنكر ﴿ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ وهم المرتكبون الفاحشة ﴿ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ ﴾ وهو الشديد المؤلم الموجع ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ . ثم فَسَّر العذاب الذي أصابهم بقوله : ﴿ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ . وسنذكر ما ورد من الآثار عن ذلك[٣] .

والمقصود هنا أن الله تعالى أخبر أنه أهلكَ الظالمين ، ونجّى المؤمنين المنكرِين ، وسكت عن الساكتين . وقد اختلف فيهم العلماءُ على قولين : فقيل : هم[٤] من الناجين . وقيل : إنهم من الهالكين . والصحيح الأول عند المحقّقين ، وهو الذي رَجَع إليه ابن عَبَّاس إمامُ المفسرين ، وذلك عند[٥] مناظرة مولاه عِكرمة ، فكساه من أجل ذلك حُلَّةً سَنِيَّةً تكرمةً .

قلت : وإنما لم يُذكَروا مع الناجين لأنهم وإن كرهوا ببواطِنهم تلك الفاحشةَ إلا أنهم كان ينبغي لهم أن يحملوا ظواهرهم بالعمل المأمور به من الإنكار القولي الذي هو أوسط المراتب الثلاث التي أعلاها الإنكار باليد ذات البَنان ، وبعدَها الإنكار القولي باللسان ، وثالثها الإنكار بالجَنان ، فلما لم يُذكَروا نجوا مع الناجين ، إذ لم يفعلوا الفاحشة بل أنكروا[٦] .

---

(١) زاد في ب : لهم .
(٢) في ب : والناهون .
(٣) كذا في ب ، وهو الأشبه بالصواب . وفي أ وط : الآيات في .
(٤) في ط : إنهم .
(٥) كذا في ب : وهو مناسب لما في تفسير المؤلف (٢/٢٥٨) . وفي أ وط : عن .
(٦) في ط : أنكروها .

وقد روَى عبد الرزاق ، عن ابن جُرَيج ، عن رجل ، عن عِكرمة ، عن ابن عباس[(١)] ، وحكى مالك ، عن ابن رومان ، وشيبانُ عن قتادة وعطاء الخراساني ما مضمونه أن الذين ارتكبوا هذا الصنيع اعتزلهم بقيةُ أهل البلد ، ونهاهم من نهاهم منهم ، فلم يقبلوا ، فكانوا يبيتون وحدَهم ، ويغلقون بينهم وبينهم أبواباً حاجزاً لما كانوا يترقبون من هلاكهم ، فأصبحوا ذاتَ يوم وأبوابُ ناحيتهم مغلقة لم يفتحوها ، وارتفع النهار واشتد الضحاء ، فأمر بقية أهل البلد رجلاً أن يصعد على سلالم ويشرف عليهم من فوقهم ، فلما أشرف عليهم إذا هم قِردة لها[(٢)] أذناب يتعاوون ويتعادون ، ففتحوا عليهم الأبواب فجعلت القردة تعرف قراباتهم ولا يعرفهم قراباتهم ، فجعلوا يلوذون بهم ويقول لهم الناهون : ألم ننهكم عن صنيعكم ؟ فتشير القردة برؤوسها أنْ نعم. ثمّ بكى عبد الله بن عباس وقال : إنا لَنَرى مُنكراتٍ كثيرةً ولا نُنكرها ولا نقول فيها شيئاً[(٣)] .

وقال العَوْفي[(٤)] عن ابن عباس : صار شباب القرية قردة وشيوخها خنازير .

وروى ابن أبي حاتم[(٥)] من طريق مجاهد عن ابن عباس أنهم لم يعيشوا إلا فُوَاقاً[(٦)] ثمّ هلكوا ما كان لهم نسل . وقال الضحاك عن ابن عباس[(٧)] : إنه لم يعش مسخ قط فوق ثلاثة أيام ، ولم يأكل هؤلاء ولم يشربوا ولم ينسلوا .

وقد استقصينا الآثار في ذلك في تفسير سورة البقرة والأعراف[(٨)] . ولله الحمد والمنة .

وقد روى ابن أبي حاتم[(٩)] وابن جرير[(١٠)] من طريق ابن أبي نَجيح ، عن مجاهد أنه قال : مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة وخنازير ، وإنما هو مَثَلٌ[(١١)] ضربه الله ﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾ [الجمعة : ٥] وهذا صحيح إليه ، وغريب منه جداً ، ومخالف لظاهر القرآن ، ولما نصّ عليه غير واحد من السلف والخلف . والله أعلم .

---

(١) قوله : عن ابن عباس ليس في ب . والذي في تفسير المؤلف : جئت ابن عباس .
(٢) في ب : لهم .
(٣) تفسير المؤلف (٢/٢٥٨) .
(٤) العَوْفي ، هو عطية بن سعيد بن جنادة العَوْفي ، الجَدَلي الكوفي أبو الحسن ، صدوق يخطىء كثيراً ، وكان مدلساً « التقريب » رقم (٤٦١٦) .
(٥) تفسير القرآن العظيم (١/٢٠٩) .
(٦) الفُواق : ترديد الشهقة العالية ، وما يأخذ الإنسان عند النزع .
(٧) قوله : أنهم لم يعيشوا . . . إلى هنا . زيادة من ب وط . سقطت من أ بنقلة عين .
(٨) تفسير ابن كثير (١/١٠٥ ـ ١٠٦هـ ٢/٢٥٧) .
(٩) تفسير القرآن العظيم (١/٢٠٩) .
(١٠) تفسير الطبري (١/٢٦٣) .
(١١) في ب . . قردة وإنما هذا مثل .

قصّة ﴿ أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾ [يس : ١٣] تقدَّم ذِكْرُها[١] قَبْلَ قِصَّة مُوسى عليه السلام .

قصّة سبأ : سيأتي ذكرها[٢] في أيام العرب إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة .

قصّة قارون ، وقصّة بلعام : تقدّمتا[٣] في قصّة موسى .

وهكذا قصّة الخضر وقصّة فرعون والسَّحرة كلّها في ضمن[٤] قصّة موسى .

وقصّة البقرة تقدَّمت[٥] في قصّة موسى .

وقصّة ﴿ ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ ﴾ [البقرة : ٢٤٣] . في قصّة حزقيل[٦] .

وقصّة ﴿ ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ ﴾ [البقرة : ٢٤٦] في قصّة شمويل[٧] .

وقصّة الذي ﴿ مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ ﴾ [البقرة : ٢٥٩] في قصّة عُزَيْر[٨] .

* * *

(١) في الجزء الأول من هذا الكتاب .
(٢) (ص٤٠٥) من هذا الجزء .
(٣) (ص١٠٤) من هذا الجزء .
(٤) (ص٨٦ و١٢٩) من هذا الجزء .
(٥) (ص٨٤) من هذا الجزء .
(٦) (ص١٥١) من هذا الجزء .
(٧) (ص١٥٦) من هذا الجزء .
(٨) (ص٢١١) من هذا الجزء .

قصّة لقمان

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ [لقمان : ١٢ ـ ١٩] .

هو لقمان بن عنقاء بن سدون . ويقال : لقمان بن ثاران ، حكاه السهيلي عن ابن جرير والقتيبي . قال السهيلي : وكان نُوبيّاً من أهل أَيْلَة .

قلت : وكان رجلاً صالحاً ذا عبادةٍ وعبارةٍ وحكمةٍ عظيمةٍ . ويقال : كان قاضياً في زمان داود عليه السلام . فالله أعلم .

وقال سفيان الثوري ، عن الأشعث ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : كان[١] عبداً حبشياً نجاراً[٢] .

وقال قتادة ، عن عبد الله بن الزبير : قلت لجابر بن عبد الله : ما انتهى إليكم في[٣] شأن لقمان ؟ قال : [كان قصيراً أفطس من النوبة .

وقال يحيى بن سعيد الأنصاري ، عن سعيد بن المسيِّب قال][٤] : كان لقمان من سودان مصر[٥] . ذو مشافر أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة .

وقال الأوزاعي : حدّثني عبد الرحمن بن حرملة قال : جاء أسود إلى سعيد بن المسيِّب يسأله ، فقال

---

(١) زاد في ب : لقمان .
(٢) الخبر في تفسير الطبري (٢١/ ٤٣) ، وليست فيه كلمة نجار ، والظاهر أنها جاءت من رواية أخرى سترد بعد قليل .
(٣) في ب : من . والخبر في تفسير المؤلف (٣/ ٤٤٣) .
(٤) سقطت من ب بنقلة عين .
(٥) تفسير الطبري (٢١/ ٤٣) .

له سعيد : لا تحزن من أجل أنك أسود فإنه كان من أخير الناس ثلاثة من السودان ، بلال ومِهْجع[١] مولى عمر ، ولقمان الحكيم كان أسود نوبياً ذا مشافر[٢] .

وقال الأعمش ، عن مجاهد : كان لقمان عبداً أسود عظيم الشفتين مشقق القدمين ، وفي رواية مصفَّح القدمين[٣] .

وقال عمرو[٤] بن قيس : كان عبداً أسود غليظ الشفتين مصفَّح القدمين ، فأتاه رجل وهو في مجلس أناس يحدّثهم ، فقال له : ألستَ الذي كنتَ ترعى معي الغنم في مكان كذا وكذا[٥] ؟ قال : نعم . قال : فما بلغ بك ما أرى ؟ قال : صِدْقُ الحديث ، والصمتُ عما لا يعنيني . رواه ابن جرير[٦] عن ابن حُميد عن الحكم عنه .

وقال ابن أبي حاتم : حدّثنا أبو زرعة ، حدّثنا صفوان ، حدّثنا الوليد ، حدّثناعبد الرحمن بن يزيد[٧] ابن جابر قال : إن الله رفع لقمان الحكيم لحكمته ، فرآه رجلٌ كان يعرفه قبل ذلك فقال : ألست عبد بني فلان الذي كنت ترعى[٨] بالأمس ؟ قال : بلى . قال : فما بلغ بك ما أرى ؟ قال : قَدَرُ الله ، وأداء الأمانة ، وصِدْقُ الحديث ، وترك ما لا يعنيني[٩] .

وقال ابن وهْب : أخبرني عبد الله بن عياش القِتْبَاني[١٠] ، عن عمر مولى غفرة[١١] قال : وقف رجل

---

(١) قال النووي : استشهد يوم بدر . تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ١٥) .
(٢) تفسير الطبري (٢١/ ٤٣) .
(٣) المصدر السابق .
(٤) في ط : عمر .
(٥) قوله : وكذا زيادة من ب وط .
(٦) تفسيره (٢١/ ٤٤) .
(٧) في ط : أبي يزيد ، وهو خطأ . وفي تفسير المؤلف (٣/ ٤٤٣) : عن جابر ، وهو خطأ أيضاً .
وعبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، أبو عتبة الأزدي الداراني ، إمام ، حافظ ، فقيه ، ولد في خلافة عبد الملك بن مروان ، وتوفي سنة (١٥٣هـ) وقيل (١٥٤هـ) . وقد روى عنه الوليد بن مسلم . ترجمته ومصادرها في سير أعلام النبلاء (٧/ ١٧٦) .
(٨) في ط : عبد بن . . . ترعى غنمي . . . ، وفي ب : عبدي فلان . . . ترد غنمي .
(٩) تفسير المؤلف (٣/ ٤٤٣) .
(١٠) القتباني ، بكسر القاف وسكون التاء : نسبة إلى قِتبان ، بطن من رُعين نزلوا مصر .
وعبد الله بن عياش بن عباس القتباني أبو حفص توفي سنة (١٧٠هـ) .
تقريب التهذيب (١/ ٤٣٩) واللباب (٣/ ١٤) .
(١١) في ط : عفرة ، بالعين ، وهو تصحيف .

على لقمان الحكيم فقال : أنت لقمان ؟ أنت عبد بني الحسحاس[١] ؟! قال : نعم . قال : فأنت راعي الغنم الأسود ؟ قال : أمّا سَوادي فظاهر ، فما الذي يعجبك من أمري ؟ قال : وطْءُ الناس بساطَك ، وغشيهم بابَكَ ، ورضاهم بقولك . قال : يا ابن أخي إن صنعتَ[٢] ما أقول لك كنتَ كذلك . قال : ما هو[٣] ؟ قال لقمان : غَضِّي بصري ، وكَفّي لساني ، وعِفَّةُ مطعمي ، وحفظي فرجي ، وقيامي بعدَّتي ، ووفائي بعهدي ، وتكرمتي ضيفي ، وحفظي جاري ، وتركي ما لا يعنيني ، فذاك الذي صيّرني كما ترى[٤] .

وقال ابن أبي حاتم : حدّثنا أبي ، حدّثنا ابن فضيل ، حدّثنا عمرو بن واقد ، عن عبدة بن رباح ، عن ربيعة ، عن أبي الدرداء أنه قال يوماً[٥] ، وذَكَر لقمانَ الحكيم فقال : ما أوتي ما أوتي[٦] عن أهل ولا مالٍ ولا حَسَب ولا خصال ، ولكنه كان رجلاً صمصامة[٧] سِكِّيتاً ، طويل التفكر ، عميق النظر ، لم ينم نهاراً قط ، ولم يره أحد يبزق ولا يتنخَّع[٨] ولا يبول ولا يتغوَّط ولا يغتسل ولا يعبث ولا يضحك ، وكان لا يعيد منطقاً نطقه إلا أن يقول حكمة يستعيدها إياه أحدٌ ، وكان قد تزوَّج وولد له أولاد فماتوا فلم يبك عليهم ، وكان يغشى السلطان ويأتي الحكّام لينظر ويتفكّر ويعتبر ، فبذلك أوتي ما أوتي[٩] .

ومنهم من زعم أنه عُرضت عليه النبوة فخاف أن لا يقوم بأعبائها فاختار الحكمة لأنها أسهل عليه . وفي هذا نظر والله أعلم . وهذا مروي[١٠] عن قتادة كما سنذكره .

وروى ابن أبي حاتم وابن جرير[١١] من طريق وكيع عن إسرائيل عن جابر الجُعْفي عن عكرمة أنه قال : كان لقمان نبياً . وهذا ضعيف لحال الجُعْفي[١٢] .

---

(١) في ط : النحاس .
(٢) في تفسير المؤلف : صغيت إلى ما أقول .
(٣) ليست في ب .
(٤) تفسير المؤلف (٣/ ٤٤٣) .
(٥) قوله : يوماً ، زيادة من ب وط . وهي ثابتة في تفسيره أيضاً .
(٦) سقطت من ط .
(٧) في ط : ضمضامة . وهو تصحيف . ورجل صمصامة : مصمم .
(٨) في ط : يتنحنح . والتنخُّع : رمي ما يخرج من الصدر عن طريق الفم .
(٩) تفسير المؤلف (٣/ ٤٤٤) .
(١٠) في ب : يروى . وسيأتي الخبر مفصلاً بعد قليل .
(١١) تفسير الطبري (٢١/ ٤٤) .
(١٢) جابر بن يزيد الجُعفي ، أبو يزيد ، من أهل الكوفة ، كان سبئياً ، تكلموا فيه . توفي سنة (١٢٨هـ) . والجُعفي : نسبة إلى قبيلة جعفي بن سعد العشيرة من مذحج . المجروحين (١/ ٢٠٨) ، واللباب (١/ ٢٨٤) .

والمشهور عن الجمهور أنه كان حكيماً ولياً ولم يكن نبياً . وقد ذكره الله تعالى في القرآن فأثنى عليه وحكى من كلامه فيما وَعَظَ به [ولده الذي هو أحبُّ الخلق إليه ، وهو أشفق الناس عليه ، فكان من أول ما وَعَظَ به][١] أن قال : ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ . فنهاه عنه وحذّره منه . وقد قال البخاري[٢] : حدّثنا قُتيبة ، حدّثنا جرير ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله قال : لما نزلت : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ [الأنعام : ٨٢] شقَّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا : أيّنا لم يلبس[٣] إيمانه بظلم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنه ليس بذاك ، ألم تسمع إلى قول لقمان : ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ » .

ورواه مسلم من حديث سُليمان بن مِهران الأعمش[٤] به .

ثم اعترض تعالى بالوصية بالوالدين وبيان حقهما على الولد وتأكّده ، وأمر بالإحسان إليهما حتى ولو كانا مشركَيْن ، ولكن لا يطاعان على الدخول في دينهما ، إلى أن قال مُخبراً عن لقمان فيما وعظ به ولده : ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ ينهاه عن ظلم الناس ولو بحبَّةِ خردلٍ ، فإن الله يسأل عنها ويحضرها حوزة الحساب ويضعها في الميزان كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [النساء : ٤٠] وقال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : ٤٧] وأخبره أن هذا الظلم ولو كان في الحَقارة كالخردلة ، ولو كان في جوف صخرةٍ صَمَّاء لا بابَ لها ولا كُوَّة ، أو لو كانت ساقطةً في شيءٍ من ظلمات الأرض أو السموات في اتساعهما وامتداد أرجائهما ، لعلم اللهُ مكانها ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ أي : عِلْمُه دقيقٌ فلا يخفى عليه الذَّرُّ مما تراءى للنواظر أو توارى ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] وقال : ﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [النمل : ٧٥] وقال ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ : ٣] .

---

(١) سقطت من ب بنقلة عين .

(٢) صحيح البخاري رقم (٤٧٧٦) ، في التفسير ، (سورة لقمان) .
كذلك أورده من غير طريق قتيبة عن جرير ، برقم (٣٢) في الإيمان ، باب ظلم دون ظلم ، ورقم (٣٤٢٨ و٣٤٢٩) في الأنبياء ، باب قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ ، ورقم (٤٦٢٩) في التفسير ، باب ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ .

(٣) في ب : يظلم وهو سهو .

(٤) صحيح مسلم رقم (١٢٤) في الإيمان ، باب صدق الإيمان وإخلاصه .

وقد زعم السُّدِّي في خبره عن الصحابة أن المراد بهذه الصخرة[١] الصخرة التي تحت الأرضين السبع ، وهكذا حكي عن عطية العَوْفي[٢] وأبي مالك والثوري والمِنْهال بن عمرو وغيرهم ، وفي صحة هذا القول من أصله نظر .

ثمّ إن في هذا هو المراد نظر آخر ، فإن هذه الآية نَكِرة غير معرفة فلو كان المراد بها ما قالوه لقال : فتكن في الصخرة ، وإنما المراد فتكن[٣] في صخرة أي صخرة كانت ، كما قال الإمام أحمد : حدّثنا حسن بن موسى ، حدّثنا ابن لَهِيْعة ، حدّثنا دَرَّاج ، عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد الخدري ، عن رسول الله ﷺ قال[٤] : « لو أَنَّ أحدَكُم يَعمَلُ في صَخْرَةٍ صَمَّاءَ ليس لها بابٌ ولا كُوَّةٌ لَخَرَجَ عملُه للناسِ كائِناً ما كان »[٥] .

ثم قال ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي : أَدِّها بجميع واجباتها من حدودها وأوقاتها وركوعها وسجودها وطمأنينتها وخشوعها وما شرع فيها ، واجتنب ما نُهي عنه فيها .

ثم قال : ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ أي : بجَهْدك وطاقتك أي إن استطعت باليد فباليد ، وإلاّ فبلسانك ، فإن لم تستطع فبقلبك . ثمّ أمر بالصبر فقال : ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ﴾ وذلك أن الآمرَ بالمعروف والناهي عن المنكر في مظنة أن يُعادَى ويُنال منه ، ولكن له العاقبة ، ولهذا أمره بالصبر على ذلك ، ومعلوم أن عاقبة الصبر الفرج .

وقوله : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [أي : إن أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر وصبرك على الأذية من عزائم الأمور][٦] التي لا بد منها ولا مَحيد عنها .

وقوله : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جُبير والضحّاك ويزيد بن الأصَمّ وأبو الجوزاء وغير واحد[٧] : معناه لا تتكبّر على الناس وتميِّل خدّك حال كلامك لهم وكلامهم لك على وجه التكبّر عليهم والازدراء لهم . قال أهل اللغة[٨] : وأصلُ الصَّعَر داءٌ يأخذ الإبل في

(١) الأقوال في المراد بالصخرة في تفسير الطبري (٢١/ ٤٦ ـ ٤٧) وتفسير ابن كثير : (٣/ ٤٤٦) .
(٢) العَوْفي : هو عطية بن سعد العوفي ، الجدلي ، صدوق يخطىء كثيراً ، وكان مدلساً .
(٣) في ب : فتكون .
(٤) في ب : أنه قال .
(٥) مسند أحمد (٣/ ٢٨)، وإسناده ضعيف لضعف ابن لهيعة وَدرّاج أبي السمح، وهم من القصاص المصريين .
(٦) سقطت من ب وط .
(٧) تفسير الطبري (٢١/ ٤٧) .
(٨) لسان العرب (صعر) .

أعناقها فتلتوي رؤوسُها فشبّه به الرجل المتكبّر الذي يميل وجهه إذا كلّم الناس أو كلّموه على وجه التعاظم[١] عليهم .

قال أبو طالب في شعره : [من الطويل]

وكُنّـا قـديمـاً لا نُقِـرُّ ظُـلامـةً إذا ما ثَنَوا صُعْرَ الخُدودِ نُقيْمُها

وقال عمرو بن حُنَي[٢] التغلَبي : [من الطويل]

وكنّـا إذا الجبّـار صَعَّـر خـدَّه أَقمنـا لَـهُ مـن مَيْلـهِ فتقـوّمـا[٣]

وقوله : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ ينهاه عن التبختر في المِشية على وجه العظمة والفخر على الناس ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٧] ، يعني لستَ بسرعة مشيك تقطع البلاد في مشيتك هذه ، ولست بدقّك الأرضَ برجلك تخرِق الأرض بوطئك عليها ، ولست بتشامخك وتعاظُمك وترفُّعك تبلغ الجبال طولاً ، فاتّئد على نفسك ، فلست تعدو قدرك .

وقد ثبت في الحديث « بينما رجلٌ يمشي في بُردَيه يَتَبَخْتَرُ فيهما إذ خَسَفَ اللهُ به الأرضَ ، فهو يَتَجَلْجَلُ[٤] فيها إلى يوم القيامة »[٥] . وفي الحديث الآخر : « وإياكَ وإسْبال الإزارِ فإنَّها مِن المَخِيلَة والمخيلة لا يحبُّها الله »[٦] . كما قال في هذه الآية : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ . ولما نهاه عن الاختيال في المشي أمره بالقصد فيه ، فإنه لا بدَّ له أن يمشي ، فنهاه عن الشر وأمره بالخير ، فقال : ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ ﴾ أي : لا تتباطأ مُفرِّطاً ولا تسرع إسراعاً مُفْرِطاً ، ولكن بين ذلك قواما ، كما قال تعالى : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان : ٦٣] .

---

(١) في ط : التعظم .
(٢) القول وبيت عمرو سقط من ب .
وعمرو بن حُني فارس شاعر جاهلي . اختُلِف في اسمه واسم أبيه ، وفي وجوده أصلاً . انظر ترجمته ضمن شعراء تغلب للمحقق .
(٣) البيت بهذه الرواية فتقوما ، الأولى أن ينسب للمتلمس ، من قصيدة أصمعية له رقمها (٩٢) .
أما الذي ينسب إلى عمرو بن حني فهو برواية فتقوَّمِ ، وهو من أبيات مطلعها :
ألا تستحـي منـا ملـوك وتتقـى محـارمنـا لا يُبـأُ الـدم بـالـدمِ
شعر عمرو بن حني في ديوان شعراء تغلب ، للمحقق (٢/ ٣٢٧) .
(٤) في ط : يتجلل .
(٥) أخرجه البخاري : رقم (٥٧٩٠) ، في اللباس ، باب من جرّ ثوبه من الخيلاء ، ومسلم (٢٠٨٨) ، في اللباس ، باب تحريم التبختر في المشي مع إعجابه بثيابه ، وفي اللفظ بعض اختلاف .
(٦) أخرجه أحمد (٤/ ٦٥ و٥/ ٣٧٧) ، وهو صحيح .

ثمّ قال : ﴿ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَ ﴾ يعني إذا تكلّمت فلا تتكلّف رفع صوتك ، فإن أرفع الأصوات وأنكرها صوت الحمير .

وقد ثبت في « الصحيحين »[(١)] الأمر بالاستعاذة عند سماع صوت الحمير بالليل ، فإنها رأت شيطاناً ، ولهذا نُهي عن رفع الصوت حيث لا حاجة إليه ولا سيما عند العُطاس ، فيستحب خفضُ الصوت وتخميرُ الوجه كما ثبت به الحديث من صنيع رسول الله ﷺ[(٢)] . فأما رفع الصوت بالأذان وعند الدعاء إلى الفئة للقتال ، وعند الإهلال[(٣)] ونحو ذلك فذلك مشروع .

فهذا مما قصّه الله تعالى عن لقمان عليه السلام[(٤)] في القرآن من الحِكَم والوصايا النافعة الجامعة للخير المانعة من الشر . وقد وردت آثار كثيرة في أخباره ومواعظه وقد كان له كتاب يؤثر عنه يسمى مجلة[(٥)] لقمان . ونحن نذكر من ذلك ما تيسر إن شاء الله تعالى .

قال الإمام أحمد : حدّثنا علي بن إسحاق[(٦)] أخبرنا ابن المبارك أخبرنا سفيان ، أخبرني نَهْشل بن مجمّع[(٧)] الضبي ، عن قَزَعَة عن ابن عمر قال : أخبرنا رسول الله ﷺ قال : « إنَّ لُقمانَ الحكيمَ كانَ يَقُولُ : إنَّ اللهَ إذا استُودع شيئاً حفظه »[(٨)] .

وقال ابن أبي حاتم : حدّثنا أبو سعيد الأشج ، حدّثنا عيسى بن يونس عن الأوْزاعي ، عن موسى بن سليمان ، عن القاسم بن مُخَيْمرة[(٩)] أن رسول الله ﷺ قال : « قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني إياك

---

(١) أخرجه البخاري : رقم (٣٣٠٣) في بدء الخلق ، باب خير مال المسلم غنم يتبع بها شَعف الجبال ، ومسلم (٢٧٢٩) في الذكر والدعاء ، باب استحباب الدعاء عند صياح الديك ، وكذلك أخرجه أبو داود (٥١٠٢) في الأدب ، باب ما جاء في الديك والبهائم ، والترمذي (٣٤٥٩) في الدعوات ، باب ما يقول إذا سمع نهيق الحمار .

(٢) أخرجه أبو داود (٥٠٢٩) في الأدب ، باب في العطاس ، والترمذي (٢٧٤٥) في الأدب ، باب ما جاء في خفض الصوت وتخمير الوجه عند العطاس ، من حديث أبي هريرة قال : كان رسول الله ﷺ إذا عطس وضع يده أو ثوبه على فيه ، وخفض أو غض بها صوته ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) في ط : الإهلاك وهو خطأ . وفي ط : ذلك فذلك .

(٤) في ب : رضي الله عنه .

(٥) في ب وط : بحكمة . والمجلة : صحيفة يكتب فيها ، والصحيفة فيها الحكمة . وقيل : كل كتاب عند العرب مجلّة . لسان العرب (جلل) .

(٦) لم يرد علي بن إسحاق في سند الحديث في المسند ، ففيه : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان . .

(٧) في ط : نهيك بن يجمع وفيه تحريف وتصحيف . ونهشل بن مجمع الضبي الكوفي من رجال التهذيب .

(٨) مسند أحمد (٢/ ٨٧) رقم (٥٦٠٦) وإسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح سوى نهشل بن مجمع وهو ثقة، وثقه ابن معين وأبو داود ويعقوب بن سفيان. ولا نعلم فيه جرحاً (تحرير التقريب ٤/ ٢٥) .

(٩) القاسم بن مُخيمرة ، أبو عروة الهمْداني ، نزيل دمشق ، محدث ثقة ، توفي سنة مئة للهجرة . سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٠١) .

والتقنُّعَ فإنه مَخُوفة بالليل ومذمّة بالنهار »[١] .

وقال أيضاً : حدثنا أبي ، حدثنا عمرو بن عثمان[٢] حدثنا ضمرة حدثنا السري بن يحيى قال قال لقمان لابنه : يا بني إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك .

وحدثنا أبي ، حدثنا عبدة بن سليمان أخبرنا ابن المبارك أخبرنا عبد الرحمن المسعودي ، عن عون بن عبد الله قال : قال لقمان لابنه : يا بني إذا أتيتَ نادي قومٍ فارمهم بسهم الإسلام ، يعني السلام ، ثم اجلس في ناحيتهم فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا ، فإن أفاضوا في ذكر الله فأجِل سهمك معهم ، وإن أفاضوا في غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم .

وحدّثنا أبي ، حدّثنا عمرو بن عثمان ، حدّثنا ضَمرة ، عن حفص بن عمر قال : وضع لقمان جراباً من خَردلٍ إلى جانبه ، وجعل يَعظُ ابنَهُ وعظة ويُخرج خَردلةً ، حتى نَفِدَ الخردل ، فقال : يا بني وعظتك موعظةً لو وُعِظها جبلٌ تفطَّرَ . قال : فتفطّر ابنه .

وقال أبو القاسم الطبراني : حدّثنا يحيى بن عبد الباقي المصِّيْصي ، حدّثنا أحمد بن عبد الرحمن الحرَّاني ، حدّثنا عثمان بن عبد الرحمن الطَّرَائفي[٣] حدّثنا أبين بن سفيان[٤] المقدسي ، عن خليفة بن سلاّم ، عن عطاء بن أبي رباح ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « اتّخذِوا السُّودان فإنَّ ثَلاثَةً منهم من سادات أهل[٥] الجنة : لُقمان الحكيم ، والنجاشي ، وبلال المؤذن[٦] » قال الطبراني : يعني الحبشي . وهذا حديث غريب بل منكر .

وقد ذكر له الإمام أحمد في كتاب « الزهد » ترجمة ذكر فيها فوائد مهمة جمة ، فقال[٧] : حدّثنا وكيع ، حدّثنا سفيان ، عن رجل ، عن مجاهد ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ [لقمان : ١٢] قال : الفقه والإصابة في غير نبوة[٨] . وكذا روي عن وهب بن منبه .

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٤٧) . وكذلك باقي الأخبار واردة فيه .

(٢) في ط : عمارة وهو خطأ .

(٣) عثمان بن عبد الرحمن الحرَّاني الطرائفي ، لُقب بذلك لأنه كان يتبع طرائف الحديث ويرويها عن قوم ضعاف . اللباب (٢/ ٢٧٨) .

(٤) في ط : عن ابن سفيان ، وهو خطأ . وأَبْيَن بن سفيان المقدسي شيخ أكثر رواته من الضعفاء . المجروحين لابن حبان (١/ ١٧٩) .

(٥) في ب : من سادات الجنة ، وفي ط : من أهل الجنة .

(٦) أورده ابن حبان في المجروحين (١/ ١٨٠) . وفيه : هذا متن باطل لا أصل له .

(٧) الزهد (٢٦٦) .

(٨) ذكره الطبري في تفسيره (٢١/ ٤٣) من طريق آخر .

وحدّثنا وكيع ، حدّثنا سفيان عن أشعث ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : كان لقمان عبداً حبشياً[١] .

وحدّثنا أسود[٢] ، حدّثنا حماد ، عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب أن لقمان كان خياطاً .

وحدثنا سيَّار[٣] ، حدّثنا جعفر ، حدّثنا مالك يعني ابن دينار قال : قال لقمان لابنه : يا بني اتخذ طاعة الله تجارة تأتك الأرباح من غير بضاعة .

وحدّثنا يزيد[٤] ، حدّثنا أبو الأشهب عن محمد بن واسع قال : كان لقمان يقول لابنه : يا بني اتق الله ولا تُري الناس أنك تخشى الله ليكرموك بذلك وقلبك فاجر .

وحدّثنا يزيد بن هارون ووكيع قالا[٥] : حدّثنا أبو الأشهب ، عن خالد الربَّعي قال : كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً ، فقال له سيده : اذبح لي شاة ، فذبح له شاة ، فقال : ائتني بأطيب مضغتين فيها ، فأتاه باللسان والقلب . فقال : أما كان فيها شيء أطيب من هذين ؟ قال : لا . قال : فسكت عنه ما سكت ، ثم قال له : اذبح لي شاةً ، فذبح له شاة ، فقال له : ألق أخبثها مضغتين ، فرمى باللسان[٦] والقلب ، فقال : أمرتك أن تأتيني بأطيبها مضغتين فأتيتني باللسان والقلب ، وأمرتك أن تلقي أخبثها مضغتين فألقيت اللسان والقلب ! ، فقال له : إنه ليس شيء أطيب منهما إذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خبثا[٧] .

وحدّثنا داود بن رُشَيد ، حدّثنا ابن المبارك ، حدّثنا معمر ، عن أبي عثمان رجلٍ من أهل البصرة يقال له : الجعد أبو عثمان ، قال : قال لقمان لابنه : لا ترغب في ودِّ الجاهل فيرى أنك ترضى عمله ، ولا تَهاوَن بمقْت الحكيم فيزهده فيك[٨] .

وحدّثنا داود بن أسيد، حدّثنا إسماعيل بن عياش، عن ضمضم بن زرعة، عن شُريح بن عبيد الحضرمي، عن عبد الله بن زيد قال: قال لقمان: ألا إن يد الله على أفواه الحكماء، لا يتكلّم أحدُهم إلا ما هيَّأ الله له[٩] .

---

(١) هكذا قال ، والذي في كتاب الزهد (٢٦٥) أنه من رواية حكَّام الرازي ، عن سعيد الزبيدي ، عن مجاهد . وانظر تفسير الطبري : (٢١/٤٣) .
(٢) الزهد ، رقم (٢٦٧) .
(٣) الزهد ، رقم (٢٦٨) .
(٤) الزهد ، رقم (٢٦٩) .
(٥) الزهد ، رقم (٢٧٠) .
(٦) في ب : فألقى اللسان ، وما أثبتناه هو الذي في كتاب «الزهد» لأحمد .
(٧) وهو في تفسير الطبري (٢١/٤٣ ـ ٤٤) .
(٨) لم أقف عليه في المطبوع من الزهد .
(٩) كذلك .

وحدّثنا عبد الرزاق ، سمعت ابن جُريج قال : كنت أقنّع رأسي بالليل ، فقال لي عمرو[١] : أما علمت أن لقمان قال : القناع بالنهار مذلَّة معذرة ، أو قال معجزة بالليل ، فلِمَ تقنع رأسك بالليل ؟ قال : قلت له : إن لقمان لم يكن عليه دَين[٢] .

وحدّثني حسن بن الجنيد[٣] ، حدّثنا سفيان ، قال : قال[٤] لقمان لابنه : يا بُني ما ندمت على السكوت[٥] قط ، وإن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب .

وحدّثنا عبد الصمد ووكيع قالا : حدّثنا أبو الأشهب[٦] ، عن قتادة أن لقمان قال لابنه : يا بُنيَّ اعتزل الشرّ يعتزلك ، فإنَّ الشر للشر خُلِق .

وحدّثنا أبو معاوية ، حدّثنا هشام بن عروة ، عن أبيه قال : مكتوب في الحكمة : يا بُني إياك والرغَب فإن الرغَب كلّ الرغب يبعد القريب من القريب ويزيل الحلم[٧] كما يزيل الطرب . يا بُني إياك وشدّة الغضب ، فإن شدّة الغضب ممحقة لفؤاد الحكيم .

قال الإمام أحمد : حدّثنا عبد الرحمن بن مهدي ، حدّثنا نافع بن عمر[٨] ، عن ابن أبي مُليكة ، عن عبيد بن عمير قال : قال لقمان لابنه وهو يعظه : يا بُني اختر المجالس على عينك ، فإذا رأيت المجلس يذكر فيه الله عز وجل فاجلس معهم ، فإنك إن تكُ عالماً ينفعك علمُك ، وإن تك غبيّاً يعلّموك ، وإن يطّلع الله عليهم برحمة تصبك[٩] معهم . يا بني لا تجلس في المجلس الذي لا يذكر الله فيه[١٠] ، فإنك إن تك عالماً لا ينفعك علمُك ، وإن تك غَبيّاً يزيدوك غُبِيّاً[١١] ، وإن يطّلع الله إليهم[١٢] بعد ذلك بسخط يصبك معهم . يا بني لا تغبطوا[١٣] امرأً رحب الذراعين يسفك دماء المؤمنين ، فإن له عند الله قاتلاً لا يموت .

---

(١) في ب : فقال عمرو . وفي ط : عمر . . .
(٢) لم أقف عليه في المطبوع من الزهد .
(٣) الزهد ، رقم (٢٧١) .
(٤) من ب ، وهي في الزهد لأحمد .
(٥) في ب : الصمت .
(٦) أخرجه في الزهد من زيادات عبد الله عن أحمد بن حنبل ، عن ابن المبارك ، عن أبي الأشهب (رقم ٢٧٢) .
(٧) في ط : الحكم .
(٨) في ب : نافع عن ابن عمر ، وهو سهو . ونافع بن عمر بن عبد الله إمام حافظ ، ثبت . حدّث عن ابن مليكة وغيره . توفي سنة (١٦٩هـ) . سير أعلام النبلاء : (٧/ ٤٣٣) .
(٩) في ط : تصيبك وهو خطأ .
(١٠) في ب : فيه الله .
(١١) يقال : فيه غَبْوَةٌ ، وغُبُوَّة ، وغُبِيٌّ : أي غفلة .
(١٢) في ب : عليهم .
(١٣) في ب : ويا بني لا تغبطن .

وحدّثنا أبو معاوية[١] ، حدّثنا هشام بن عُروة ، عن أبيه قال : مكتوب في الحكمة [بني لتكن كلمتك طيبة ، وليكن وجهك بسطاً تكن أحبَّ إلى الناس ممن يعطيهم العطاء .

وقال : مكتوب في الحكمة][٢] أو التوراة : الرفق رأس الحكمة .

وقال : مكتوب في التوراة : كما تَرْحَمون تُرحَمون .

وقال : مكتوب في الحكمة : كما تزرعون تحصدون .

وقال : مكتوب في الحكمة : أحبَّ خليلك وخليل أبيك .

وحدّثنا عبد الرزاق عن مَعْمَر عن أيوب عن أبي قِلابة قال : قيل للقمان : أي الناس أَصْبَر ؟ قال : صبر لا يتبعه أذى . قيل : فأي الناس أعلم ؟ قال : من ازداد من علم الناس إلى علمه . قيل : فأي الناس خيرٌ ؟ قال : الغني . قيل : الغنيّ من المال ؟ قال : لا ولكن الغنيَّ الذي إذا التُمِس عنده خيرٌ وُجد ، وإلا أغنى نفسه عن الناس[٣] .

وحدّثنا سفيان[٤] ، هو ابن عيينة قال : قيل للقمان : أي الناس شر ؟ قال : الذي لا يبالي أن يراه الناس مسيئاً .

وحدّثنا أبو عبد الصمد[٥] عن مالك بن دينار قال : وجدت في بعض الحكمة : يبدد الله عظامَ الذين يتكلّمون بأهواء الناس . ووجدت فيها : لا خير لك في أن تُعلّم ما لم تعلم ولما تعمل[٦] بما قد علمت ، فإن مَثَلَ ذلك مَثَلُ رجل احتطب حطباً فحزم حزمةً ثمّ ذهب يحملها فعجز عنها فضم إليها أخرى .

وقال عبد الله بن أحمد : حدّثنا الحكم بن أبي زهير ، وهو الحكم بن موسى ، حدّثنا الفرج بن فضالة ، عن أبي سعيد قال : قال لقمان لابنه : يا بني لا يأكل طعامك إلا الأتقياء ، وشاور في أمرك العلماء .

وهذا مجموع ما ذكره الإمام أحمد في هذا الموضع[٧] . وقد قدّمنا من الآثار كثيراً لم يروها ، كما أنه ذكر أشياء ليست عندنا . والله أعلم .

---

(١) الزهد ، رقم (٢٧٣) .
(٢) سقطت من ب بنقلة عين .
(٣) لم أقف عليه في المطبوع من الزهد .
(٤) الزهد ، رقم (٢٧٤) .
(٥) سقطت من ط .
(٦) في ب : ما لا تعلم ولم تعمل .
(٧) في ط : هذه المواضع .

وقال ابن أبي حاتم : حدّثنا أبي ، حدّثنا العباس بن الوليد ، حدّثنا زيد بن يحيى بن عبيد الخزاعي ، حدّثنا سعيد بن بشير ، عن قتادة قال : خَيَّر الله لقمان الحكيم بين النبوة والحكمة ، فاختار الحكمة على النبوة ، قال فأتاه جبريل وهو نائم فذرَّ عليه الحكمة ، قال : فأصبح ينطق بها . قال سعيد : فسمعت[١] قتادة يقول : قيل للقمان : كيف اخترت الحكمة على النبوة وقد خيّرك ربُّك ؟ فقال : إنه لو أرسل إليَّ بالنبوة عزمةً لرجوت فيه الفوز منه ، ولكنت أرجو أن أقوم بها ، ولكن خيَّرني ، فخِفْت أن أضعُفَ عن النبوة ، فكانت الحكمة أحبَّ إليَّ[٢] .

وهذا فيه نظر ، لأن سعيد بن بشير عن قتادة قد تكلّموا فيه[٣] . والذي رواه سعيد بن أبي عَرُوبة عن قتادة في قوله : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ [لقمان : ١٢] قال : يعني الفقه في الإسلام[٤] ، ولم يكن نبياً ولم يُوحَ إليه[٥] . وهكذا نصّ على هذا غير واحد من السّلف ، منهم مجاهد وسعيد بن المسيب وابن عباس . والله أعلم .

***

(١) في ط : سمعت .
(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٤٤) .
(٣) قال ابن حبان : يروي عن قتادة ما لا يتابع عليه . المجروحين : (١/ ٣١٥) .
(٤) في ط : والإسلام .
(٥) تفسير الطبري (٢١/ ٤٣) .

قصّة أصحاب الأخدود

قال الله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ [البروج : ١ - ١٠] .

قد تكلّمنا على ذلك مستقصى في تفسير هذه السورة[١] ولله الحمد .

وقد زعم محمد بن إسحاق أنهم كانوا بعد مبعث المسيح ، وخالفه غيره فزعموا أنهم كانوا قبله .

وقد ذكر غير واحد أن هذا الصنيع مكرر في العالم مراراً في حق المؤمنين من الجبارين الكافرين ، ولكنْ هؤلاء المذكورون في القرآن قد ورد فيهم حديث مرفوع ، وأثر أورده ابن إسحاق ، وهما متعارضان وها نحن نوردهما لنوقف عليهما[٢] .

قال الإمام أحمد[٣] : حدّثنا عفان[٤] ، حدّثنا حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال : « كان مَلِك فيمن كان قبلكم ، وكان له ساحرٌ ، فلما كبر الساحرُ قال للملك : إني قد كَبرتْ سني ، وحَضَرَ أجلي ، فادفعْ إليَّ غلاماً فلأُعلمه السحرَ ، فدفع إليه غلاماً ، فكان يعلمه السحرَ ، وكان بين الساحر وبين الملك[٥] راهب ، فأتى الغلام على الراهب ، فسمع من كلامه ، فأعجبه نحوه وكلامُه ، وكان إذا أتى الساحرَ ضربه وقال : ما حبسك ؟ وإذا أتى أهله ضربوه وقالوا : ما حبسك ؟ فشكا ذلك إلى الراهب ، فقال : إذا أراد الساحر أن يضربك فقل حبسني أهلي ، وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل : حبسني الساحر . قال : فبينما[٦] هو ذات يوم إذ أتى على دابة فظيعة عظيمة قد حَبَستِ الناسَ فلا يستطيعون أن يجوزوا ، فقال : اليومَ أعلم أمرُ الساحر أحبُّ إلى الله أم أمرُ الراهب . قال : فأخذ حَجَراً فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس ، ورماها فقتلها ومضى ، فأخبر الراهب بذلك ، فقال : أي بني أنت أفضلُ مني ، وإنك

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٩١) وما بعدها .
(٢) في ط : لتقف .
(٣) في المسند (٦/ ١٧) .
(٤) في ط : سقط « عفان » من السند .
(٥) في ط وأ: « وكان بين الملك وبين الساحر ». وما أثبتناه من ب ، وهو موافق لما في المسند الذي ينقل منه المصنف.
(٦) في ط وأ : « فبينا » وما هنا من ب ، وهو الموافق للمسند .

ستُبْتَلَى فإن ابتُلِيت فلا تدل عليَّ . فكان الغلام يُبرئ الأكمه والأبرصَ وسائر الأدواء ويشفيهم الله على يديه[١] وكان جليسٌ للملك فعمي ، فسمع به ، فأتاه بهدايا كثيرة ، فقال : اشفني ولك ما هاهنا أجْمَع . فقال : ما أنا أشفي أحداً ، إنما يشفي الله عز وجل ، فإن آمنت به دعوت الله فشفاك[٢] . فآمن ، فدعا الله فشفاه . ثم أتى الملكَ ، فجلس منه نحو ما كان يجلس ، فقال له الملك : يا فلان من ردّ عليك بَصَرَك ؟ فقال : ربي . قال : أنا . قال : لا ربي وربُّك الله . قال : ولك ربٌّ غيري ؟ قال : نعم ، ربي وربك الله . فلم يزل يعذبه حتى دلّ على الغلام ، فأتى به فقال : أي بني ! بَلَغَ من سحرك أن تُبرئ الأكمه والأبرص ، وهذه الأدواء ؟! قال ما أشفي أنا أحداً[٣] إنما يشفي الله عز وجل . قال : أنا . قال : لا . قال : أولك ربٌّ غيري ؟ قال : ربي وربك الله . قال : فأخذه أيضاً بالعذاب ، ولم يزل به حتى دَلَّ على الراهب ، فأتي بالراهب[٤] فقال : ارجع عن دينك . فأبى . فوضع المنشار في مَفْرِق رأسه حتى وقع شِقَّاهُ . وقال للأعمى : ارجع عن دينك . فأبى . فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شِقَّاه . وقال للغلام : ارجع عن دينك . فأبى . فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا . وقال : إذا بلغتم ذروته[٥] فإن رجع عن دينه ، وإلا فدهدهوه[٦] ، فذهبوا به ، فلما علوا الجبل قال : اللهم اكفنيهم بما شئت . فرجف بهم الجبل فدُهدِهوا أجمعون . وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك فقال : ما فعل أصحابك ؟ فقال : كفانيهم الله . فبعث به مع نفر في قُرْقُوْر[٧] فقال : إذا لججتم البحر فإن رجع عن دينه ، وإلا فغرِّقوه[٨] في البحر ، فلججوا به البحر ، فقال الغلام : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فغرقوا أجمعون ، وجاء الغلام حتى دخل على الملك فقال : ما فعل أصحابك ؟ فقال : كفانيهم الله . ثم قال للملك : إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرُك به ، فإن أنتَ فعلتَ ما آمرك به قتلتني ، وإلا فإنك لا تستطيع قتلي . قال : وما هو ؟ قال : تجمعُ الناسَ في صعيد واحدٍ ، ثم تصلبني على جذع ، وتأخذ سهماً من كنانتي ، ثم قل : بسم الله ربّ الغلام ، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني ، ففعل ووضع السهم في كبد القوس ثمّ رماه وقال : بسم الله ربّ الغلام ، فوقع[٩] السهم في صدغه ، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات ، فقال الناس :

---

(١) قوله : الله على يديه ليس في ب ، ولا في المسند .

(٢) في ط : ودعوت . شفاك .

(٣) ليست في ب .

(٤) في ط : الراهب .

(٥) في ب : ذروة الجبل .

(٦) زاد في المسند : من فوقه . والدهدهة : الدحرجة .

(٧) كذا في المسند . وهو الصواب . وفي أ ، وب ، وط ، قرقرة . والقرقور : السفينة .

(٨) في ط : فأغرقوه .

(٩) في ب : فوضع . وهو موافق لما في المسند .

آمنا بربِّ الغلام آمنا بربِّ الغلام . فقيل للملك : أرأيت ما كنت تحذر ، فقد والله نزل بك ، قد آمن الناس كلُّهم ، فأمر بأفواه السكك فخدّت[١] فيها الأخاديد ، وأضرمت فيها النيران ، وقال : من رجع عن دِينه فدعوه ، وإلا فأقحموه فيها . وقال : فكانوا يتعادون فيها ويتواقعون ، فجاءت امرأة بابن لها تُرضعه ، فكأنها تقاعست أن تقع في النار ، فقال الصبي : اصبري يا أماه فإنك على الحق » .

كذا رواه الإمام أحمد . ورواه مسلم[٢] والنسائي[٣] من حديث حماد بن سلمة . زاد النسائي وحماد بن زيد كلاهما عن ثابت ، به . ورواه الترمذي[٤] من طريق عبد الرزاق ، عن مَعْمَر ، عن ثابت ، بإسناده نحوه ، وجَوَّد إيراده كما بسطنا ذلك في « التفسير »[٥] .

وقد أورد محمد بن إسحاق هذه القصة على وجه آخر[٦] فقال : حدثني يزيد بن زياد ، عن محمد بن كعب ، وحدثني أيضاً بعضُ أهل نجران ، عن أهلها أن أهل نجران كانوا أهل شِرْك يعبدون الأوثان ، وكان في قرية من قراها قريباً من نجران ـ ونجران هي القرية العظمى التي إليها جِماع أهل تلك البلاد ـ ساحرٌ يعلّم غلمان أهل نجران السحر ، فلما نزلها فيميون[٧] ، ولم يسموه لي بالاسم الذي سماه ابن مُنَبِّه ، قالوا : رجل نزلها ، فابتنى خيمةً بين نجران وبين تلك القرية التي فيها الساحر ، وجعل أهلُ نجران يرسلون غلمانهم إلى ذلك الساحر [يعلمهم السحر][٨] . فبعث الثامرُ ابنه عبد الله مع غلمان أهل نجران ، فكان إذا مَرَّ بصاحب الخيمة أعجبه ما يرى من عبادته وصلاته ، فجعل يجلس إليه ويسمع منه حتى أسلم ، فوحَّد الله وعبدَه ، وجعل يسأله عن شرائع الإسلام ، حتى إذا فقه فيه جعل يسأله عن الاسم الأعظم ، وكان يَعْلَمُهُ ، فكتمه إياه وقال له : يا ابن أخي إنك لن تحمله ، أخشى ضعفك عنه . والثامر أبو عبدالله[٩] لا يظن إلا أن ابنه[١٠] يختلف إلى الساحر كما يختلف الغلمان ، فلما رأى عبدُ الله أن صاحبه قد ضنَّ به عنه وتَخوَّف ضعفه فيه ، عمد إلى قِداح فجمعها ، ثمّ لم يُبقِ لله اسماً يعلمه إلا كَتَبه في قدح ،

---

(١) في ط : فحفر . والسكك : الطرق .

(٢) صحيح مسلم رقم (٣٠٠٥) ، في الزهد ، باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام .

(٣) في التفسير (٦٨١)، وهو فيه من سننه الكبرى (١١٦٦١) عن حماد بن سلمة، وفي السير (٨٦٣٣)، وفي عمل اليوم والليلة (٦١٤) عن حماد بن زيد .

(٤) سنن الترمذي رقم (٣٣٤٠) في التفسير ، باب ومن سورة البروج .

(٥) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٩٤) . وقال هناك: قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي: فيحتمل أن يكون من كلام صهيب الرومي، فإنه كان عنده علم من أخبار النصارى .

(٦) الروض الأنف (١/ ٤٧) وما بعدها .

(٧) في ط : فيمون . وهو تحريف .

(٨) ليست في ب .

(٩) سقطت من ط . وهي في نص السيرة لابن إسحاق .

(١٠) زاد في ط : عبد الله .

لكل اسم قدح ، حتى إذا أحصاها أوقدَ ناراً ثمّ جعل يقذفها فيها[١] قدَحاً قدحاً ، حتى إذا مرَّ بالاسم الأعظم قذف فيها بقدحه ، فوثب القدح حتى خرج منها لم تضرّه شيئاً ، فأخذه ثم أتى به صاحبه فأخبره أنه قد علم الاسم الأعظم الذي قد كتمه ، فقال : وما هو ؟ قال : كذا وكذا . قال : وكيف[٢] علمته ؟ فأخبره بما صنع . قال : أي ابن أخي ، قد أصبتَه فأمسِك على نفسك ، وما أظن أن تفعل . فجعل عبد الله بن الثامر إذا دخل نجران لم يَلْقَ أحداً به ضُرٌّ إلاّ قال : يا عبد الله أتوحِّد اللهَ وتدخل في ديني وأدعو الله لك فيعافيك مما[٣] أنت فيه من البلاء . فيقول[٤] : نعم ، فيوحّد الله ويُسلم ، ويدعو[٥] الله فيشفى ، حتى لم يبق بنجران أحد به ضُر إلاّ أتاه فاتَّبعه على أمره . ودعا له فعوفي ، حتى رُفع شأنُه إلى ملك نجران ، فدعاه فقال : أفسدتَ عليّ أهلَ قريتي وخالفتَ ديني ودينَ آبائي لأُمثِّلنَّ بك . قال : لا تقدر على ذلك . فجعل يُرسل به إلى الجبل الطويل ، فيُطرح على رأسه ، فيقع إلى الأرض ما به بأس ، وجعل يبعث به إلى مياه بنجران بحور لا يُلقى فيها شيء إلاّ هَلَك فيُلقى به فيها فيخرج ليس به بأس . فلما غلبه قال له عبد الله بن الثامر إنك[٦] والله لا تقدر على قتلي حتى توحِّد اللهَ فتؤمنَ بما آمنتُ به ، فإنك إن فعلتَ سُلِّطتَ عليّ فقتلتني[٧] . قال : فوحَّد اللهَ ذلك الملك ، وشهد شهادة عبد الله بن الثامر ، ثمّ ضربه بعصاً في يده فشجه شجةً غيرَ كبيرة فقتله ، وهلك الملك مكانه . واستجمع أهلُ نجران على دين عبد الله بن الثامر ، وكان على ما جاء به عيسى ابن مريم من الإنجيل وحُكمه ، ثمّ أصابهم ما أصاب أهلَ دينهم من الأحداث[٨] . فمن هنالك كان أصل دين النصرانية بنجران .

قال ابن إسحاق : فهذا حديث محمد بن كعب وبعض أهل نجران عن عبد الله بن الثامر . فالله أعلم أي ذلك كان .

قال[٩] : فسار إليهم ذو نُواس بجنده ، فدعاهم إلى اليهودية ، وخيَّرهم بين ذلك أو القتل ، فاختاروا القتلَ فخدَّ[١٠] الأخدود ، وحرق بالنار ، وقتل بالسيف ، ومثَّل بهم . فقتل منهم قريباً من عشرين ألفاً ،

(١) ليست في ط .
(٢) زاد في ب : قد .
(٣) في ط : عما .
(٤) قوله : فيقول . . . . على أمره ، سقط من ط .
(٥) زاد في ب : له ، وهو موافق لما في الروض الأنف .
(٦) ليست في ط .
(٧) في ب : فتقتلني .
(٨) في ط : الأحزاب .
(٩) ابن إسحاق . وهو تتمة للخبر السابق في الروض الأنف (١ / ٥١) .
(١٠) في ط : فخدوا . . وفي الروض الأنف : فخد لهم .

ففي ذي نواس وجُنده أنزل الله على رسوله ﷺ ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴾ .. الآيات [البروج : ٤ ـ ٥] . وهذا يقتضي أنَّ هذه القصة غير ما وقع في سياق مُسلم . وقد زعم بعضُهم أن الأخدود وقع في العالم كثيراً كما قال ابن أبي حاتم : حدَّثنا أبي ، حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا صفوان ، عن عبد الرحمن بن جبير قال : كان الأخدود في اليمن زمان تُبَّع ، وفي القسطنطينية زمان قسطنطين حين صرف النصارى قبلتهم عن دين المسيح والتوحيد ، فاتخذ[1] أَتُّونا وألقى فيه النصارى الذين كانوا على دين المسيح والتوحيد . وفي العراق في أرض بابل في زمان بخت نصّر حين صَنَع الصنمَ وأمر الناس فسجدوا له ، فامتنع دانيال وصاحباه عزريا ومشايل ، فأوقد لهم أتّونا وألقى فيها الحطب والنار ، ثم ألقاهما فيه فجعلها الله عليهم برداً وسلاماً وأنقذهم منها ، وألقى فيها الذين بغوا عليه وهم تسعة رهط[2] ، فأكلتهم النار .

وقال أسباط عن السُّدِّي في قوله : ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴾ [البروج : ٤] قال : كان الأخدود ثلاثة : خد بالشام ، وخد بالعراق ، وخد باليمن . رواه ابن أبي حاتم .

وقد استقصيت ذكر أصحاب الأخدود والكلام على تفسيرها في سورة البروج[3] ولله الحمد والمنة .

* * *

---

(١) كذا في ب . وفي أ وط : واتخذ .
(٢) في ب : من رهطه .
(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٩١) وما بعدها . وزاد في ب : من التفسير .

باب[١]

بَيان الإذن في الرواية والتحديث عن أخبَار بني إسرَائيل

قال الإمام أحمد : حدّثنا عبد الصمد ، حدّثنا همّام ، حدثنا زيد ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : « حدِّثوا عنّي ولا تَكْذِبُوا عَلَيَّ ، ومَنْ كَذَبَ عليَّ مُتَعَمّداً فَلْيتبوّأ مقعدَهُ من النارِ . وحدّثوا عن بني إسرائيل ولا حَرَج »[٢] .

وقال أيضاً : حدّثنا عفان ، حدّثنا همام ، أخبرنا زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي ﷺ قال : « لا تكتُبوا عنّي شيئاً غيرَ القرآن ، فمن كتبَ عني شيئاً غيرَ القرآن فليمْحُه » وقال : « حدّثوا عن بني إسرائيل ولا حَرَج . حدّثوا عني ولا تكذبوا عليَّ »[٣] . قال : « ومن كذب عليَّ » . قال همام[٤] أحسبه قال : « متعمداً فليتبوأ مقعده من النار »[٥] .

وهكذا رواه مسلم[٦] والنَّسائي[٧] من حديث همام .

ورواه أبو عوانة الأسْفَرَاييني ، عن أبي داود السجستاني ، عن هُدْبَة ، عن همام ، عن زيد بن أسلم به . ثم قال : قال أبو داود : أخطأ فيه همام هو[٨] من قول أبي سعيد . كذا قال .

وقد رواه الترمذي[٩] عن سفيان ، عن وكيع ، عن سفيان بن عُيَينة ، عن زيد بن أسلم ببعضه[١٠] مرفوعاً . فالله أعلم .

قال الإمام أحمد : حدّثنا الوليد بن مسلم ، أخبرنا الأَوزاعي ، حدّثنا حسان بن عطية ، حدّثني

---

(١) في ب وط : بيان . وسقطت لفظة التحديث من ط .
(٢) المسند (٣/ ٤٦) وفيه : فقد تبوّأ .
(٣) ليست في المسند .
(٤) زيادة من ب وط . وهي موافقة لما في المسند .
(٥) المسند (٣/ ٥٦) .
(٦) صحيح مسلم (٣٠٠٤) في الزهد ، باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم .
(٧) في سننه الكبرى (٨٠٠٨) .
(٨) في ط : وهو .
(٩) جامع الترمذي (٢٥٦٦) في العلم، باب ما جاء في كراهته كتابة العلم .
(١٠) هو قوله : « استأذنا النبي ﷺ في الكتابة فلم يأذن لنا » ، وقال الترمذي عقبه : « وقد روي هذا الحديث من غير هذا الوجه أيضاً عن زيد بن أسلم ، رواه همام عن زيد بن أسلم » .

أبو كبشة السَّلُولي ، أن عبد الله بن عمرو بن العاص حدّثه أنه سمع رسول الله ﷺ يعني يقول : « بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومَن كَذَب عليَّ متعمداً[١] فليتبوأ مقعده من النار »[٢] .

ورواه أحمد أيضاً عن عبد الله بن نمير وعبد الرزاق ، كلاهما عن الأوزاعي[٣] ، به .

وهكذا رواه البخاري[٤] عن أبي عاصم النبيل ، عن الأوزاعي ، به .

وكذا رواه الترمذي عن بُنْدار عن أبي عاصم . ثم رواه عن محمد بن يحيى الذُّهلي ، عن محمد بن يوسف الفِرْيابي[٥] عن عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان عن حسان بن عطية[٦] وقال : حسن صحيح[٧] .

وقال أبو بكر البزَّار : حدّثنا محمد بن المثنى أبو موسى ، حدّثنا هشام بن معاوية ، حدّثنا أبي ، عن قتادة ، عن أبي حسان ، عن عبد الله بن عمرو قال : كان نبي الله ﷺ يحدثنا عامة ليلة عن بني إسرائيل حتى نصبح ، ما نقوم فيها إلا لعظم صلاة[٨] [ورواه أبو داود[٩] ، عن محمد بن مثنى . ثمّ قال البزار : حدّثنا محمد بن مثنى ، حدثنا عفان ، حدثنا أبو هلال ، عن قتادة ، عن أبي حسان ، عن عمران بن حصين ، قال : كان رسول الله ﷺ يحدثنا عامة ليلة عن بني إسرائيل لا يقوم إلا لعظم صلاةٍ][١٠] .

قال البزار : وهشام أحفظ من أبي هلال ، يعني أن الصواب عن عبد الله بن عمرو لا عن عمران بن حصين . والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدّثنا يحيى ـ هو القطان ـ عن محمد بن عمرو ، حدّثنا أبو سلمة ، عن أبي هريرة ، عن النبي[١١] ﷺ « حدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج »[١٢] إسناد[١٣] صحيح ولم يخرّجوه .

---

(١) ليست في ب . وهي واردة في مسند أحمد .
(٢) المسند (٢/ ١٥٩) .
(٣) المسند (٢/ ٢٠٢) .
(٤) صحيح البخاري رقم (٣٤٦١) في الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل .
(٥) في ط : العرياني وهو تصحيف . والفريابي نسبة إلى فارياب ، بلدة بنواحي بلخ . اللباب (٢/ ٤٢٧) .
(٦) زاد في ب : حدثني أبو كبشة السلولي عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، أنه سمع به . وهو موافق لما في الترمذي ، لكن إيراده هنا فيه تكرار .
(٧) سنن الترمذي : (٢٦٦٩) في العلم ، باب ما جاء في الحديث عن بني إسرائيل .
(٨) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٩١، ٨/ ٢٦٤). من حديث عمران بن حصين، وقال: رواه البزار وأحمد والطبراني في الكبير، وإسناده صحيح. وقال أيضاً: وفي رواية: يعني الفريضة المكتوبة. وعُظْم الشيء: أكثره ومعظمه.
(٩) سنن أبي داود رقم (٣٦٦٣) في العلم ، باب الحديث عن بني إسرائيل ، وهو حديث صحيح .
(١٠) زيادة من ب وط .
(١١) زاد في ط : قال .
(١٢) المسند (٢/ ٤٧٤) .
(١٣) في ب : إسناده .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدّثنا أبو خيثمة ، حدّثنا وكيع ، حدّثنا ربيع بن سعد الجعفي ، عن عبد الرحمن بن سابط ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « حدثوا عن بني إسرائيل فإنه قد كان فيهم الأعاجيب » . ثم أنشأ يحدث ﷺ قال : « خرجت طائفة من بني إسرائيل حتى أتوا مقبرة من مقابرهم ، فقالوا : لو صلَّينا ركعتين ودعونا الله عزَّ وجلَّ فيخرج لنا رجلاً قد مات نُسائِله يحدّثنا عن الموت ، ففعلوا ، فبينما هم كذلك إذ أطلع رجل رأسه من قبر[١] من تلك القبور ، بين عينيه أثر السجود ، فقال : يا هؤلاء ! ما أردتم إلي ؟ فقد مِتُّ منذ مئة عام فما سكنتْ عني حرارة الموت حتى الآن ، فادعوا الله أن يُعيدني كما كنتُ »[٢] .

وهذا حديث غريب ، إذا تقرر جواز الرواية عنهم فهو محمول على ما يمكن أن يكون صحيحاً ، فأما ما يعلم أو يظن بطلانه لمخالفته الحق الذي بأيدينا عن المعصوم ، فذاك متروك مردود لا يعرَّج عليه ، ثم مع هذا كله لا يلزم من جواز روايته أن تعتقد صحته ، لما رواه البخاري[٣] قائلاً : حدّثنا محمد بن بشار[٤] ، حدّثنا عثمان بن عمر ، حدّثنا علي بن المبارك ، عن يحيى بن أبي كثير ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذّبوهم وقولوا آمنّا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم وإلَهنا وإلَهكم واحد ونحن له مسلمون » . تفرّد به البخاري من هذا الوجه .

وروى الإمام أحمد[٥] من طريق الزُّهري عن [ابن][٦] أبي نملة الأنصاري عن أبيه أنه كان جالساً عند رسول الله ﷺ ، إذ جاء[٧] رجل من اليهود فقال : يا محمد هل تتكلّم هذه الجنازة ؟ فقال رسول الله ﷺ : « الله أعلم » . فقال اليهودي : أنا أشهد أنها تتكلّم . فقال رسول الله ﷺ : « إذا حَدَّثَكُم أهل الكتاب[٨]

---

(١) ليست في ب .

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٩١) باختصار ، وقال : رواه البزار عن شيخه جعفر بن محمد بن أبي وكيع ، عن أبيه ، ولم أعرفهما ، وبقية رجاله ثقات .

(٣) صحيح البخاري رقم (٤٤٨٥) في التفسير ، باب ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا ﴾ ، ورقم (٧٣٦٢) في الاعتصام ، باب قول النبي ﷺ : « لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء » ، ورقم (٧٥٤٢) في التوحيد ، باب ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها من كتب الله بالعربية .

(٤) في ط : يسار وهو تصحيف . وسقط عمر من السند في ب .

(٥) المسند (٤/ ١٣٦) .

(٦) زيادة من ب ، وهي موافقة لما في المسند . وأبو نملة الأنصاري صحابي مختلف في اسمه ، فقيل هو عمار ، وقيل : عمرو ، وقيل عمارة . من الأوس شهد أحداً . تقريب التهذيب (٢/ ٤٨٢) .

(٧) في ط : فقال إذا جاء . . وهو خطأ .

(٨) زاد في ب : بشيء .

فلا تصدّقوهم ولا تكذّبوهم ، وقولوا : آمنا بالله وكتبه ورسله ، فإن كان حقاً لم تكذبوهم ، وإن كان باطلاً لم تصدّقوهم » . تفرّد به أحمد .

وقال الإمام أحمد[١] : حدّثنا سُريج[٢] بن النعمان ، حدّثنا هشيم ، أخبرنا مجالد ، عن الشعبي عن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب[٣] أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه على النبي ﷺ ، قال : فغضب وقال : « أمتهوّكون فيها يا ابن الخطاب ؟! والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء[٤] نقية ، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحقٍّ فتكذبوا به ، أو بباطل فتصدقوا به ، والذي نفسي بيده[٥] لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلاّ أن يتبعني » . تفرد به أحمد ، وإسناده على شرط مسلم .

فهذه الأحاديث دليل على أنهم قد بدّلوا ما بأيديهم من الكتب السماوية وحرّفوها وأوّلوها ووضعوها على غير مواضعها ، ولا سيما ما يبدونه من المغربات التي لم يحيطوا علماً بها[٦] ، وهي بلغتهم ، فكيف يعبّرون عنها بغيرها ؟ ولأجل هذه وقع في تعريبهم خطأ كبيرٌ ووهْم كثيرٌ مع مالهم من القصود[٧] الفاسدة والآراء الباردة ، وهذا يتحققه من نظر في كتبهم التي بأيديهم وتأمّل ما فيها من سوء التعبير وقبيح التبديل والتغيير ، وبالله المستعان وهو نعم المولى ونعم النصير .

وهذه التوراة التي يُبْدونها ويُخفُون منها كثيراً فيما ذكروه فيها تحريف[٨] وتبديل وتغيير وسوء تعبير يعلم[٩] من نظر فيها وتأمّل ما قالوه وما[١٠] أبدوه وما أخفوه ، وكيف يسوغون عبارة فاسدة البناء والتركيب ، باطلة من حيث معناها وألفاظها . وهذا كعب الأحبار من أجود من ينقل عنهم ، وقد أسلم في زمن عمر ، وكان ينقل شيئاً عن[١١] أهل الكتاب ، فكان عمر رضي الله عنه يستحسن بعض ما ينقله لما

---

(١) المسند (٣/ ٣٨٧) .

(٢) في ط : شريح وهو تصحيف . وسُريج بن النعمان بن مروان الجوهري ، أبو الحسن البغدادي ، من كبار الطبقة العاشرة ، توفي سنة (٢١٧هـ) . ترجمته في سير أعلام النبلاء (١٠/ ٢١٩) .

(٣) زاد في ب : في كتاب .

(٤) كذا في ب ، وهو موافق لما في المسند ، وفي أ وط : به لقد جئتكم به . . . والتهوّك : كالتهور ، وهو الوقوع في الأمر بغير روية .

(٥) كذا في ب ، وهو موافق لما في المسند . وفي أ وط . به .

(٦) في ط : بها علماً .

(٧) في ط : المقاصد . وفي حاشية الأصل : لعله المقاصد .

(٨) في ب : من تحريف .

(٩) في ب : يعلمه .

(١٠) ليست في ب .

(١١) زاد في ب كتب .

يصدقه من الحق وتأليفاً لقلبه، فتوسع كثير من الناس في أخذ ما عنده ، وبالغ أيضاً[١] هو في نقل تلك الأشياء التي كثير منها ما لا يساوي مداده ، ومنها ما هو باطل لا محالة ، ومنها ما هو صحيح لما يشهد له الحق[٢] الذي بأيدينا .

وقد قال البخاري[٣] : وقال أبو اليمان : حدّثنا شعيب ، عن الزهري ، أخبرني حُميد بن عبد الرحمن أنه سمع معاوية يحدّث رَهْطاً من قريش بالمدينة . وذَكر كعبَ الأحبار ، فقال : « إن كان من أصدق هؤلاء المحدّثين الذين يُحدّثون عن أهل الكتاب، وإن كنا ـ مع ذلك ـ لَنَبْلُو عليه الكذب » يعني من غير قصد منه .

وروى البخاري[٤] من حديث الزُّهري ، عن عُبيد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس أنه قال : « كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزلَ الله على رسوله أحدَثُ الكتب بالله تقرؤونه محضاً لم يُشب ، وقد حدَّثكم أن أهل الكتاب بدّلوا كتابَ الله وغيّروه ، وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا : هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أُنزل عليكم » .

وروى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود أنه قال : لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل . والله أعلم .

***

(١) في ب : هو أيضاً .
(٢) في ب : من الحق .
(٣) صحيح البخاري رقم (٧٣٦١) ، في الاعتصام ، باب قول النبي ﷺ : « لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء » .
(٤) رقم (٧٣٦٣) .

قصّة جريج أحد عُبّاد بني إسرَائيل

قال الإمام أحمد[١] : حدّثنا وهب بن جرير ، حدّثني أبي ، سمعت محمد بن سيرين يحدّث عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لم يَتكلّم في المهد إلاّ ثلاثةٌ : عيسى ابنُ مريم » . قال : « وكان في[٢] بني إسرائيل رجلٌ عابد يُقال له جُريج ، فابتنى صومعةً وتعبّد فيها . قال : فذكر بنو إسرائيل عبادةَ جريج ، فقالت بَغِيٌّ منهم : لئن شئتم لأفتننّه . فقالوا : قد شئنا ذاك . قال : فأتته ، فتعرَّضت له ، فلم يلتفت إليها . فأمكنت نفسَها من راعٍ كان يُؤوي غنمه إلى أصل صومعة جُريج ، فحملت ، فولدت غلاماً ، فقالوا : ممن ؟ قالت : من جريج . فأتوه ، فاستنزلوه ، فشتموه وضربوه وهدموا صومعته ، فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : إنك زنيتَ بهذه البغيّ فولدت غلاماً . فقال : وأين هو ؟ قالوا : هو هذا . قال : فقام ، فصلّى ودعا ، ثمّ انصرف إلى الغلام فطعنه بإصبعه ، فقال : بالله يا غلام من أبوك ؟ فقال : أنا[٣] ابن الراعي . فوثبوا إلى جريج فجعلوا يقبّلونه ، وقالوا : نبني صومعتَك من ذهب . قال : لا حاجة لي في ذلك ، ابنوها من طين كما كانت .

قال : وبينما امرأة في حجرها ابن لها تُرضعه ، إذ مرَّ بها راكبٌ ذو شارة . فقالت : اللهم اجعل ابني مثلَ هذا . قال : فترك ثَدْيَها وأقبل على الراكب فقال : اللهم لا تجعلني مثلَه . قال : ثمّ عاد إلى ثديها فمصَّه . قال أبو هريرة : فكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي صنيعَ الصبيّ ووضع إصبعه في فيه يمصُّها . ثمّ مُرّ[٤] بأَمَة تُضْرَبُ فقالت : اللهم لا تجعل ابني مثلَها . قال : فترك ثديَها وأقبل على الأَمَة فقال : اللهم اجعلني مثلها . قال : فذاك حين تراجعا الحديث ، فقالت : حَلْقى[٥] . مرَّ الراكب ذو الشارة ، فقلتُ : اللهم اجعل ابني مثلَه ، فقلتَ : اللهم لا تجعلني مثله . ومُرَّ[٦] بهذه الأمَةِ فقلتُ : اللهم لا تجعل ابني مثلَها . فقلتَ : اللهم اجعلني مثلها ! فقال : ياأُمَّاه إن الراكب ذا[٧] الشارة جبَّارٌ من الجبابرة ، وإن هذه الأمَة يقولون : زنت ، ولم تزنِ ، وسرقت ولم تسرق ، وهي تقول : حسبي الله » .

---

(١) المسند (٢/ ٣٠٧) .
(٢) في ب : من .
(٣) زيادة من ب وط ، وهي موافقة لما في المسند .
(٤) في ط : مرت .
(٥) في ط : خلفي ، وهو تصحيف . وقولها : حلقى : أي :حلقك الله حلقاً ، قال السندي : المعروف في اللغة بالتنوين ، لكن اشتهر على الألسنة بلا تنوين .
(٦) في ط : مررت .
(٧) في أ. وب . وط : ذو . وهو خطأ .

وهكذا[١] رواه البخاري في أحاديث الأنبياء[٢] ، وفي المظالم[٣] عن مسلم بن إبراهيم . ومسلم في كتاب الأدب[٤] عن زهير بن حرب عن يزيد بن هارون ، كلاهما عن جرير بن حازم ، به . طريق أخرى وسياق آخر .

قال الإمام أحمد[٥] : حدّثنا يحيى بن سعيد ، حدّثنا سليمان بن المغيرة ، حدّثنا حُميد بن هلال ، عن أبي رافع ، عن أبي هريرة عن النبي[٦] ﷺ قال : « كان جُريج يتعبّد في صومعته »[٧] قال : « فأتته أُمُّه فقالت : يا جريج أنا أمك وكلمني » . قال : وكان أبو هريرة يصف كيف كان رسول الله ﷺ وضع يده على حاجبه الأيمن ، قال : « وصادفَتْه يُصلّي . قال : يا ربّ أمي وصلاتي ، فاختارَ صلاتَه ، [فرجعتْ . ثمّ أتته فصادفته يُصلي ، فقالت : يا جريج أنا أمك فكلّمني . فقال : يا رب أمي وصلاتي ، فاختار صلاتَه . فقالت : اللهم هذا جريج ، وإنه ابني وإني كلمته فأبى أن يكلمني][٨] ، اللهم فلا تمته حتى تُريه الموسمات . ولو دعت عليه أن يفتتن لافتتن . قال : وكان راعٍ يأوي إلى ديره ، فخرجت امرأة ، فوقع عليها الراعي ، فولدت غلاماً ، فقيل : ممن هذا ؟ فقالت : هو من صاحب الدير . فأقبلوا بفؤوسهم ومساحيهم[٩] ، وأقبلوا إلى الدير فنادوه ، فلم يكلمهم ، فأقبلوا يهدمون ديره ، فنزل إليهم ، فقالوا : سل هذه المرأة . قال : أراه تَبَسَّم ، قال : ثمّ مسح رأس الصبي فقال : من أبوك ؟ قال : راعي الضأن . قالوا : يا جريج نبني ما هدمنا من ديرك بالذهب والفضة . قال : لا ، ولكن أعيدوه كما كان . ففعلوا » .

ورواه مسلم[١٠] في الاستئذان عن شيبان بن فروخ عن سليمان بن المغيرة ، به .

سياق آخر : قال الإمام أحمد[١١] : حدّثنا عفان ، حدّثنا حماد ، أخبرنا[١٢] ثابت ، عن أبي رافع ،

---

(١) في ب : وهذا .

(٢) صحيح البخاري رقم (٣٤٣٦) ، باب قول الله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ .

(٣) صحيح البخاري رقم (٢٤٨٢) ، باب إذا هدم حائطاً فليبن مثله .

(٤) صحيح مسلم رقم (٢٥٥٠) . في ب البر والصلة والآداب ، باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها .

(٥) في المسند (٢/ ٤٣٣ ـ ٤٣٤) .

(٦) لم يرفع الحديث إلى النبي ﷺ في مسند أحمد ، والظاهر أن هذا من إضافات المصنف إن صحت النسخ لأن الحديث في حقيقته مرفوع .

(٧) كذا في ب وط . وهو موافق لما في المسند . وفي أ صومعة .

(٨) سقطت من ب .

(٩) المسحاة : أداة تقشر بها الأرض وتجرف .

(١٠) مسلم (٢٥٥٠) .

(١١) المسند (٢/ ٣٨٥) .

(١٢) في ب : وحدثنا .

عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « كان في بني إسرائيل رجل يقال له : جريج ، كان يتعبّد في صومعته ، فأتته أمه ذات يوم ، فنادته فقالت : أي جريج أي بُني أشرِف عليَّ أكلمكَ أنا أمُّك أشرِفْ عليَّ ، فقال : أي ربي صلاتي وأمي ، فأقبل على صلاته ، ثم عادت فنادته مراراً ، فقالت : أي جريج أي بُني أشرِف عليَّ . فقال : أي رب صلاتي وأمي فأقبل على صلاته . فقالت : اللهم لا تُمته حتى تريه المومسة . وكانت راعية ترعى غنماً لأهلها ، ثم تأوي إلى ظل صومعته ، فأصابت فاحشةً فحملت فأُخِذَت . وكان من زنى منهم قُتل . فقالوا : ممن ؟ قالت : من جريج صاحب الصومعة ، فجاؤوا بالفؤوس والمرور فقالوا ؛ أي جريج أي مراءٍ ، انزل ، فأبى وأقبل على صلاته يصلّي ، فأخذوا في هدم صومعته . فلما رأى ذلك نزلَ فجعلوا في عنقه وعنقها حبلاً ، فجعلوا[١] يطوفون بهما في الناس ، فوضع أصبعه على بطنها فقال : أي غلام من أبوك ؟ فقال[٢] : أبي فلان راعي الضأن . فقبّلوه وقالوا : إن شئت بنينا لك صومعتك من ذهب وفضة ، قال : أعيدوها كما كانت » .

وهذا سياق غريب ، وإسناده على شرط مسلم ، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب من هذا الوجه .

فهؤلاء ثلاثة تكلّموا في المهد : عيسى ابن مريم عليه السلام ، وقد تقدم الكلامُ على قصته[٣] ، وصاحب جُريج ابن البغي من الراعي كما سمعت ، واسمه يابوس كما ورد مصرّحاً به في صحيح البخاري[٤] ، والثالث ابن المرأة التي كانت ترضعه فتمنَّت له أن يكون كصاحب الشارة الحسنة فتمنى أن يكون كتلك الأمة المتهومة بما هي بريئة منه وهي تقول : حسبي الله ونعم الوكيل ، كما تقدم في رواية محمد بن سيرين عن أبي هريرة مرفوعاً .

وقد رواه الإمام أحمد[٥] عن هَوذة عن عوف الأعرابي عن خِلَاس عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بقصة هذا الغلام الرضيع ، وهو إسنادٌ حسن .

وقال البخاري[٦] : حدّثنا أبو اليمان ، حدّثنا شعيب ، حدّثنا أبو الزناد ، عن عبد الرحمن الأعرج ، حدّثه أنه سمع أبا هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ قال : « بينما[٧] امرأة ترضع ابنها إذ مرّ بها راكب وهي ترضعه ، فقالت : اللهم لا تُمت ابني حتى يكون مثل هذا . فقال : اللهم لا تجعلني مثله . ثمّ رجع في

---

(١) ليست في ب .
(٢) في ب : قال وهذا موافق لما في المسند .
(٣) في ب : كلامه .
(٤) صحيح البخاري رقم (١٢٠٦) ، في العمل في الصلاة ، باب إذا دعت الأم ولدها في الصلاة .
(٥) المسند (٢/ ٣٩٥) .
(٦) رقم (٣٤٦٦) ، في أحاديث الأنبياء ، باب (٥٤) .
(٧) في ب : بينا ، وهو موافق لرواية البخاري .

الثدي ومرّ بامرأة تُجرّر ويلعب بها ، فقالت : اللهم لا تجعل ابني مثل هذه[١] . فقال : اللهم اجعلني مثلها . فقال : أما الراكب فإنه كافر . وأما المرأة فإنهم يقولون : إنها[٢] تزني ، وتقول : حسبي الله ، ويقولون : تسرق ، وتقول : حسبي الله » .

وقد ورد في من تكلّم في المهد أيضاً شاهد يوسف كما تقدّم ، وابن ماشطة آل فرعون[٣] . والله أعلم .

* * *

(١) في ب : مثلها ، وهو موافق لرواية البخاري .

(٢) في ب : لها ، وهو موافق لرواية البخاري .

(٣) ليست في ب . وتقدم خبر ابن الماشطة في هذا الجزء .

قصّة برصيصا

وهي عكس قضية[١] جُريج فإن جُريجاً عُصم ، وذلك[٢] فتن .

قال ابن جرير : حدثني يحيى بن إبراهيم المسعودي ، أخبرنا أبي ، عن أبيه ، عن جدّه ، عن الأعمش ، عن عمارة ، عن عبد الرحمن بن يزيد ، عن عبد الله بن مسعود في هذه الآية : ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الحشر : ١٦ ـ ١٧] . قال ـ ابن مسعود ـ وكانت امرأة ترعى الغنم ، وكان لها إخوة أربعة ، وكانت تأوي بالليل إلى صومعة راهب ، قال : فنزل الراهب ، ففجر بها ، فحملت ، فأتاه الشيطان فقال له : اقتلها ثمّ ادفنها ، فإنك رجل تُصَدَّقُ ويُسمع قولُك . فقتلها ثمّ دفنها . قال : فأتى الشيطان إخوتها في المنام فقال لهم : إن الراهب صاحب الصومعة فجر بأختكم فلما أحبلها قتلها ثمّ دفنها في مكان كذا وكذا . فلما أصبحوا قال رجلٌ منهم : والله لقد[٣] رأيت البارحة رؤيا ما أدري أقُصُّها عليكم أم أترك ؟ قالوا : لا بل قُصَّها علينا . قال : فقصها . فقال الآخر : وأنا والله لقد رأيت ذلك . فقال الآخر : وأنا والله لقد رأيت ذلك . قالوا : فوالله ما هذا إلا لشيء . فانطلقوا فاستَعْدوا ملكَهم على ذلك الراهب ، فأتوه فأنزلوه . ثمّ انطلقوا به ، فأتاه الشيطان فقال : إني أنا[٤] أوقعتك في هذا ، ولن ينجيك منه غيري ، فاسجُد لي سجدةً واحدةً وأُنجيكَ مما أوقعتُك فيه . قال : فسجد له ، فلما أتوا به ملكهم تبرّأ منه ، وأُخِذَ فقُتل[٥] . وهكذا روي عن ابن عباس وطاووس ومقاتل بن حَيّان نحو ذلك[٦] .

وقد رُوي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بسياق آخر ، فقال ابن جرير[٧] : حدثنا خَلّاد بن أسلم ، حدثنا النَّضْرُ بن شُمَيل أخبرنا شُعْبة ، عن أبي إسحاق ، سمعت عبد الله بن نَهيك ، سمعت علياً يقول : إن راهباً تعبَّد ستين سنةً ، وإن الشيطان أراده فأعياه ، فعمد إلى امرأةٍ فَأَجَنَّها[٨] ولها

---

(١) في ب : قصة .
(٢) في ب : وذاك .
(٣) في ب : لقد والله .
(٤) في ب : أنا الذي . . . وهو موافق لما عند ابن جرير .
(٥) تفسير الطبري (٢٨/ ٣٣) .
(٦) قوله : وهكذا روي . . . إلى هنا ، زيادة من ب وط . والرواية من طريق ابن عباس وطاووس في تفسير الطبري (٨/ ٣٣ ـ ٣٤) .
(٧) تفسير الطبري (٢٨/ ٣٣) .
(٨) في ب : فأحبلها .

إخوة ، فقال لإخوتها : عليكم بهذا القس فَيُداويها ، قال : فجاؤوا بها إليه ، فداواها . وكانت عنده ، فبينما هو يوماً عندها إذ أعجبته ، فأتاها ، فحملت ، فعمد إليها فقتلها ، فجاء إخوتُها . فقال الشيطان للراهب : أنا صاحبك إنك أعييتني ، أنا صنعتُ هذا بك فأطعني أُنْجِكَ مما صنعتُ بك ، اسجُد لي سجدةً ، فسجد له فلما سجد له[١] قال إني بريءٌ منك إني أخاف الله رب العالمين . فذلك قوله : ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

* * *

(١) قوله : فلما سجد له ، زيادة من ب ، وهي موافقة لما عند ابن جرير .

قصة الثلاثة الذين أووا إلى الغار فانطبق عليهم فتوسلوا إلى الله بصالح أعمالهم ففرّج عنهم

قال الإمام البخاري[١] : حدّثنا إسماعيل بن خليل ، أخبرنا علي بن مُسْهِر ، عن عُبيد الله بن عمر ، عن نافع ، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « بينما ثلاثةُ نَفَرٍ ممّن كانَ قبلَكم يمشونَ ، إذ أصابَهم مطرٌ ، فأوَوا إلى غارٍ ، فانطبقَ عليهم . فقال بعضُهم لبعض : إنه واللهِ يا هؤلاء لا يُنجيكُم إلا الصِّدق ، فليدْعُ كلُّ رجلٍ منكم بما يَعلمُ أنَّه صدَقَ فيه . فقال واحدٌ منهم[٢] : اللهمّ إنْ كُنتَ تعلمُ أنّه كانَ لي أجيرٌ عَمِلَ لي على فَرَقٍ من[٣] أرُز ، فذهب وتركه ، وأني عَمدتُ إلى ذلك الفَرَق فزرعته ، فصار من أمره أني اشتريتُ منه بَقَراً ، وأنه أتاني يطلب[٤] أجره ، فقلت : اعمد إلى تلك البقر فسُقْها . فقال لي : إنما لي عندك فَرَق من أرز . فقلت له : اعمد إلى تلك البقر فإنها من ذلك الفَرَق ، فساقها . فإن كنتَ تعلمُ أني فعلتُ ذلك من خَشيتك ففرّج عنا . فانساخَت[٥] عنهم الصخرةُ . فقال الآخر : اللهم إنْ كنتَ تعلم كان لي أبَوان شيخانِ كبيران ، وكنت آتيهما كلَّ ليلةٍ بلبن غنم لي فابطأتُ ليلةً ، فجئت وقد رقدا وأهلي وعيالي يتضاغَون[٦] من الجوع ، وكنتُ لا أسقيهم حتى يشربَ أبواي ، فكرهتُ أن أُوقظَهما ، وكرهت أن أدعهما فَيَسْتَكِنّا لشربتهما ، فلم أزل أنتظر حتى طلع الفجر ، فإن كنتَ تعلم أني فعلتُ ذلك من خَشيتك ففرّج عنّا ، فانساخت عنهم الصخرة حتى نظروا إلى السماء . فقال الآخر : اللهمّ إنْ كنتَ تعلمُ أنه كانتْ لي ابنةُ عمٍّ مِنْ أحَبّ الناسِ إليَّ وأنّي راودتُها عن نفسها ، فأبَتْ إلاّ أن آتِيَها بمئة دينار ، فطلبتُها حتى قدرتُ ، فأتيتُها بها ، فدفعتُها إليها ، فأمكنتني من نفسها ، فلما قعدتُ بين رجليها قالت : اتقِ الله ولا تَفضَّ الخاتَمَ إلا بحقّه ، فقمت وتركتُ المئة دينار . فإن كنتَ تعلم أني فعلتُ ذلك من خَشيتك ففرّج عنّا . ففرَّج الله عنهم فخرجوا[٧] » .

---

(١) ثمة خلاف في نسخة ب عما هاهنا ، ففيها الحديث الذي رواه البخاري من طريق عبد الله بن عمر رضي الله عنهما رقم (٢٢٧٢) في الإجارة ، باب من استأجر أجيراً فترك أجره . .

(٢) كذا في البخاري ، وفي أ : أحدهم ، وفي ط : واحداً منهم .

(٣) زيادة من ط ، وهي موافقة لما في البخاري . والفَرَق : مكيال محدد .

(٤) كذا في ط والبخاري . وفي أ : فطلب .

(٥) انساخت : انشقت .

(٦) الضغاء : الصياح ببكاء .

(٧) صحيح البخاري رقم (٣٤٦٥) ، في أحاديث الأنبياء ، باب حديث الغار .

ورواه[١] مسلم عن سويد بن سعيد ، عن علي بن مُسْهِر[٢] ، به .

وقد رواه الإمام أحمد[٣] منفرداً به عن مروان بن معاوية ، عن عُمَر بن حمزة بن عبد الله بن عمر ، عن سالم ، عن أبيه ، عن النبي ﷺ ، بنحوه .

ورواه الإمام أحمد[٤] من حديث وهْب بن مُنَبِّه ، عن النعمان بن بشير ، عن النبي ﷺ بنحو من هذا السياق ، وفيه زيادات .

ورواه البزّار من طريق أبي إسحاق عن رجل من بَجيلة عن النعمان بن بشير مرفوعاً مثله[٥] .

ورواه البزّار في مسنده من حديث ابن حبيش[٦] عن علي بن أبي طالب عن النبي ﷺ بنحوه[٧] .

* * *

(١) في ط : رواه .

(٢) صحيح مسلم رقم (٢٧٤٣) في الذكر والدعاء ، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال .

(٣) المسند (٢/ ١١٦) .

(٤) المسند (٤/ ٢٧٤) .

(٥) كشف الأستار (٣١٧٨) .

(٦) في أ وط : « أبي حنتش » وما أثبتناه في ب وهو الصواب ، فالمعروف أن زر بن حبيش هو أحد الرواة عن علي رضي الله عنه كما في كتب الرجال . . سير أعلام النبلاء (٤/ ١٦٧) ، وتهذيب التهذيب (٧/ ٣٣٥) .

(٧) وذكره ابن قدامة في كتاب التوابين (٦٩) ، وللشيخ عبد القادر الأرناؤوط تعليق مطوّل عليه ، فلينظر ثمة .

خبَر الثلاَثة الأعمى وَالأبرص وَالأقرع

روى البخاري[١] ومسلم[٢] من غير وجه عن هَمَّام بن يحيى ، عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة ، حدثني عبد الرحمن بن أبي عَمْرة ، أن أبا هريرة حدَّثه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن ثلاثةً في بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى أراد الله[٣] أن يَبْتَليهم ، فَبعث[٤] إليهم مَلَكاً ، فأتى الأبرصَ ، فقال له : أي شيء أحبّ إليك ؟ قال : لونٌ حسن وجلدٌ حسنٌ ، قد قَذِرَني الناسُ . قال : فمسحه فذهب عنه فأُعطي لَوناً حسناً وجلداً حسنا . فقال : أي المال أحب إليك ؟ قال : الإبل ـ أو قال : البقر ، شك[٥] في ذلك أن الأبرص والأقرع قال أحدهما الإبل وقال الآخر البقر ـ فأعطي ناقة عشراء ، فقال : يُبارَك لكَ فيها . قال : وأتى الأقرَع فقال[٦] : أي شيء[٧] أحب إليك ؟ قال : شَعرٌ حسنٌ ويَذْهَبُ عني هذا[٨] ، قد قَذِرَني الناس . فمسحَه فذهب وأُعطيَ شَعراً حسناً . قال أي المال أحب إليك ؟ قال : البقر ، فأعطاه بقرةً حاملاً وقال : يُبارَك لك فيها . قال[٩] : وأتى الأعمى فقال : أي شيء أحب إليك ؟ قال يردُّ اللهُ إليَّ بَصري . فأبصِرُ به الناسَ . قال : فمسحه ، فرد الله إليه بصره[١٠] . قال : فأي المال أحب إليك ؟ قال : الغنم . فأعطاه شاةً والداً فأُنتِج هذان ، ووُلِّدَ هذا ، فكان لهذا وادٍ من الإبل ، ولهذا وادٍ من البقر[١١] ، ولهذا وادٍ من الغنم ثم[١٢] إنه أتى الأبرصَ في صورته وهيئته ، فقال : رجلٌ مِسكين تقطَّعت بي الحِبال في سَفري فلا بلاغَ اليوم[١٣] إلا بالله ثم بك ، أسألك ـ بالذي أعطاك اللون الحسن والجِلْد الحسن والمال ـ بعيراً أتبلّغ

---

(١) صحيح البخاري رقم (٣٤٦٤) ، أحاديث الأنبياء ، باب حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل ، ورقم (٦٦٥٣) ، في الأيمان والنذور ، باب لا يقول ما شاء الله وشئت .

(٢) صحيح مسلم رقم (٢٩٦٤) في أول الزهد .

(٣) في ط : وأعمى وأقرع بدا الله .

(٤) في ط : فبعث الله .

(٥) في ط : هو شك ، وهي رواية البخاري .

(٦) زاد في ط : له .

(٧) كذا في ب : وهو لفظ البخاري . وفي أ وط : المال .

(٨) في ب : هذا عني .

(٩) ليست في ب . وكذلك في البخاري .

(١٠) من قوله : يرد الله . . إلى هنا زيادة من ب وط والبخاري ، سقطت من الأصل .

(١١) في ب : بقر ، وهي رواية البخاري .

(١٢) زيادة من ط . موافقة للفظ البخاري .

(١٣) في ب : لي اليوم . والحبال : الوسائل والأسباب .

عليه في سفري . فقال له : إن الحقوق كثيرةٌ . فقال له : كأني أعرفُك ! ألم تكن أبرصَ يَقْذَرُكَ الناس فقيراً فأعطاك الله عزَّ وجلَّ ؟ فقال : لقد ورثتُ لكابرٍ[١] عن كابر . فقال : إن كنتَ كاذباً فصيّركَ الله إلى ما كنتَ . وأتى الأقرعَ في صورته وهيئته ، فقال له مثل ما قال لهذا ، فردّ عليه مثلَ ما ردَّ عليه هذا . فقال : إن كنتَ كاذباً فصيّرك الله إلى ما كنتَ . وأتى الأعمى في هيئته وصورته ، فقال : رجلٌ مسكين وابنُ سبيل ، وتقطّعت بي الحِبال في سفري ، فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثمّ بك ، أسألك بالذي ردَّ عليك بصرك شاةً أتبلّغ بها في سفري . فقال : قد كنتُ أعمى فردّ الله إليَّ بَصري ، وفقيراً فقد أغناني[٢] فخذ ما شئت[٣] فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله عزّ وجلّ . فقال : أمْسك مالَكَ فإنما ابتُليتم ، فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك » .

هذا لفظ البخاري[٤] في أحاديث بني إسرائيل .

* * *

---

(١) في ب : كابراً ، وهو لفظ مسلم .

(٢) زيادة من ب وط . وهي موافقة للفظ البخاري .

(٣) زاد في ب : واترك ما شئت وهو لفظ مسلم . وفيه : ودع .

(٤) وهو أقرب إلى لفظ مسلم .

حديث الذي استلف من صَاحبه ألف دينار فأدّاها

قال الإمام أحمد : حدّثنا يونس بن محمد ، حدّثنا ليث ، عن جعفر بن ربيعة ، عن عبد الرحمن بن هُرْمُز ، عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ أنه ذكر « أنَّ رجلاً من بني إسرائيل سأل بعضَ بني إسرائيل أن يُسلفه ألفَ دينارٍ ، فقال : ائتني بشهداء أُشهدهم . قال : كفى بالله شهيداً . قال : ائتني بكفيلٍ . قال : كفى بالله كفيلاً . قال : صدقتَ . فدفعها إليه إلى أجَلٍ مُسمّى ، فخرج في البحر ، فقضى حاجته ، ثم التمس مركباً يقدمُ عليه للأجل الذي أجله فلم يجد مركباً ، فأخذ خشبة فنقرها وأدخل فيها ألفَ دينار وصحيفة معها إلى صاحبها ، ثمّ زَجَّجَ موضعها ، ثمّ أتى بها البحر ، ثمّ قال : اللهم إنك علمتَ أني استسلفت فلاناً ألفَ دينارٍ ، فسألني كفيلاً فقلتُ : كفى بالله كفيلاً فرضي بذلك ، وسألني شهيداً فقلت : كفى بالله شهيداً فرضي بذلك ، وإني قد جَهِدتُ أن أجد مركباً أبعثُ إليه بالذي أعطاني فلم أجد مركباً ، وإني استودعتكها ، فرمى بها في البحر حتى وَلَجتْ فيه ، ثمّ انصرف وهو في ذلك يطلب مركباً إلى بلده ، فخرج الرجلُ الذي كان أسلفه ينظرُ لعلَّ مركباً يجيئه بماله ، فإذا بالخشبة التي فيها المال ، فأخذها لأهله حطباً ، فلما كسرها وجد المال والصحيفةَ ، ثمّ قدم الرجل الذي كان تسلَّف منه ، فأتاه بألف دينارٍ وقال : والله ما زلتُ جاهداً في طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركباً قبل الذي أتيت فيه . قال : هل كنتَ بعثتَ إليَّ بشيء ؟ قال : ألم أُخبرْكَ أني لم أجد مركباً قبل هذا الذي جئت فيه . قال : فإن الله أدّى عنكَ الذي بعثتَ في الخشبة ، فانصرفْ بألفكَ راشداً » .

هكذا رواه الإمام أحمد مسنداً[١] . وقد علّقه البخاري في غير موضعٍ من « صحيحه »[٢] بصيغة الجزم عن الليث بن سعد ، وأسنده في بعضها عن عبد الله بن صالح كاتب الليث عنه[٣] . والعجب من الحافظ أبي بكر البزار كيف رواه في مسنده عن الحسن بن مدرك عن يحيى بن حماد عن أبي عَوانة عن عمر بن سلمة عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه . ثم قال : لا يُروى إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد .

***

(١) المسند (٢/ ٣٤٨ـ٣٤٩) .
(٢) صحيح البخاري رقم (١٤٩٨) (٢٢٩١) ، و(٢٤٠٤) و(٢٤٣٠) و(٢٧٣٤) وفي الكفالة ، باب الكفالة في القرض والديون بالأبدان وغيرها ، ورقم (٦٢٦١) في الاستئذان ، باب بمن يُبدأ في الكتاب .
(٣) البخاري (٢٠٦٣) .

قصة أخرى شبيهة بهذه[١] في الصّدق وَالأمانة

قال البخاري : حدّثنا إسحاق بن نصر ، حدّثنا عبد الرزاق ، عن مَعْمر ، عن همّام بن مُنبِّه ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « اشترى رجلٌ من رجلٍ عقاراً له ، فوجد الرجلُ الذي اشترى العقار في عقاره جرَّة فيها ذهب ، فقال له الذي اشترى العقار : خُذْ ذهبَك مني إنما اشتريتُ منكَ الأرض ولم أبْتَع منك[٢] الذهب . فقال الذي له الأرض : إنما بعتُك الأرضَ وما فيها . فتحاكَما إلى رجلٍ ، فقال الذي تحاكما إليه : ألَكُما ولَد ؟ قال أحدهما لي غلام ، وقال الآخر : لي جارية . قال أَنْكِحوا الغلام الجارية وأنفِقوا[٣] على أنفسهما منه ، وتصدقا » .

هكذا روى البخاري[٤] هذا الحديث في أخبار بني إسرائيل . وأخرجه مسلم[٥] عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق ، به .

وقد رُوي أن هذه القصة وقعت في زمن ذي القرنين . وقد كانَ قبل بني إسرائيل بدهور متطاولة . والله أعلم .

قال إسحاق بن بشر[٦] في كتابه « المبتدأ » عن سعيد بن أبي عَروبة ، عن قتادة ، عن الحسن : إن ذا القرنين كان يتفقّد أمور[٧] ملوكه وعماله بنفسه ، وكان لا يطّلع على أحدٍ منهم خيانة إلا أنكر ذلك عليه ، وكان لا يقبل ذلك حتى يطّلع هو بنفسه . قال : فبينما هو يسير متنكراً في بعض المدائن ، فجلس إلى قاضٍ من قضاتهم أياماً لا يختلف إليه أحد في خصومةٍ ، فلما أن طال بذي القرنين ولم يطَّلع على شيء من أمر ذلك القاضي ، وهَمَّ بالانصراف ، إذا هو برجلين قد اختصما إليه ، فادّعى أحدهما فقال : أيها القاضي إني اشتريتُ من هذا داراً وعمرتها ووجدت فيها كنزاً ، وإني دعوته إلى أخذه فأبى عليَّ . فقال له القاضي ما تقول ؟ قال : ما دفنتُ ولا علمت[٨] به فليس هو لي ولا أقبضُه منه . قال المدّعي : أيها القاضي مُر من يقبضه فيضعه حيث أحببتَ . فقال القاضي : تَفِرُّ من الشر وتُدخلني فيه ، ما أنصفتني ،

---

(١) في ط : « بهذه القصة » .
(٢) زيادة من ب وط ، وهي موافقة للفظ البخاري .
(٣) كذا في ب وط . وهو موافق لما في البخاري . وفي أ : انكحا . . وانفقا .
(٤) صحيح البخاري رقم (٣٤٧٢) ، في أحاديث الأنبياء ، باب (٥٤) .
(٥) صحيح مسلم رقم (١٧٢١) في الأقضية ، باب استحباب إصلاح الحاكم بين الخصمين .
(٦) إسحاق بن بشر بن محمد ، أبو حُذيفة ، مؤرخ ، ولد ببلخ ، واستوطن بخارى . توفي سنة (٢٠٦هـ) . وكتابه المبتدأ منه جزء مخطوط في المكتبة الظاهرية . الأعلام (١/ ٢٩٤) .
(٧) زاد في ب : مملكته . . .
(٨) في ط : وما .

وما أظن هذا في قضاء الملك . فقال القاضي : هل لكما في[1] أمرٍ أنصف مما دعوتماني إليه ؟ قالا : نعم . قال للمدعي : ألكَ ابنٌ ؟ قال : نعم . وقال للآخر : ألك ابنة ؟ قال : نعم . قال : اذهبا فزوّج ابنتك من ابن هذا وجهزاهما[2] من هذا المال وادفعا فضل ما بقي إليهما يعيشان به فتكونا قد حمِّلتا[3] بخيره وشره . فعجب ذو القرنين حين سمع ذلك ، ثم قال للقاضي : ما ظننت أن في الأرض أحداً يفعل مثل هذا ، أو قاضٍ يقضي بمثل هذا ؟ فقال القاضي وهو لا يعرفه : وهل أحد يفعل غير هذا ؟ قال ذو القرنين : نعم . قال القاضي : فهل يُمطَرُون في بلادهم ؟! فعجب ذو القرنين من ذلك وقال : بمثل هذا قامت السموات والأرض .

***

قصّة أخرى

قال البخاري[4] : حدّثنا محمد بن بشار ، حدّثنا محمد بن أبي عدي ، عن شعبة ، عن قتادة ، عن أبي الصّدِّيق[5] الناجي ، عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي ﷺ قال : « كان في بني إسرائيل رجلٌ قتل[6] تسعةً وتسعين إنساناً ، ثمّ خرج يسأل ، فأتى راهباً ، فسأله ، فقال : هل من توبةٍ[7] ؟ قال : لا . فقتله . فجعل يسأل ، فقال له رجل : ائت قرية كذا وكذا ، فأدركه الموتُ فناءَ بصدره نحوها ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فأوحى الله إلى هذه أن تقرَّبي ، وأوحى إلى هذه أن تَباعدي ، وقال : قيسوا ما بينهما ، فوُجد إلى هذه أقرب بشبرٍ ، فغُفر له » .

هكذا رواه هاهنا مختصراً . وقد رواه مسلم[8] عن بندار ، به . ومن حديث شعبة ، ومن وجه آخر عن قتادة ، به مطولاً .

***

---

(١) ليست في ط .
(٢) كذا في ب ، وفي أ : وجهزوهما . وفي ط : وجهزهما .
(٣) في ط : فتكونا ملياً .
(٤) صحيح البخاري رقم (٣٤٧٠) في أحاديث الأنبياء ، باب (٥٤) .
(٥) في ب : أبي بكر الصديق وهو سهو . وأبو الصدّيق هو بكر بن عمرو الناجي ، ثقة من الطبقة الثالثة ، مات سنة (١٠٨هـ) . تقريب التهذيب (١/١٠٦) .
(٦) كذا في ب وط . والبخاري ومسلم . وفي أ زاد : قد .
(٧) كذا في ب وط والبخاري . وفي أ فسأله هل له توبة .
(٨) صحيح مسلم رقم (٢٧٦٦) في التوبة ، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله .

حديث آخر :

قال البخاري[(١)] : حدّثنا علي بن عبد الله ، حدّثنا سفيان ، حدّثنا أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة قال : صلّى بنا [رسول الله ﷺ صلاة الصبح ، ثمّ أقبل على الناس بوجهه][(٢)] فقال : « بينما رجلٌ يسوق بقرةً إذ ركبها فضربها فقالت : إنا لم نخلق لهذا ، إنّما خلقنا للحَرث . فقال الناس : سبحان الله بقرةٌ تكَلَّمُ ؟! فقال : فإني أومِنُ بهذا أنا وأبو بكر وعمر وما هما[(٣)] ثمَّ . قال وبينما رجل في غنمه إذ عدا الذئب فذهب منها بشاة ، فطلبه[(٤)] حتى كأنه استنقذها منه ، فقال له الذئب : هذا ! استنقذتَها منّي ، فمن لها يوم السَّبُع[(٥)] ، يوم لا راعي لها غيري ؟ فقال الناس : سبحان الله ذئب يتكلّم . قال : فإني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر وما هما[(٦)] ثَمَّ » .

قال[(٧)] : وحدّثنا علي قال : حدّثنا[(٨)] سفيان ، عن مِسْعَر ، عن سعد بن إبراهيم ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ بمثله .

وقد أسنده البخاري في المزارعة عن علي بن المديني[(٩)] . ومسلم[(١٠)] عن محمد بن عباد كلاهما عن سفيان بن عيينة ، وأخرجاه من طريق شعبة ، كلاهما عن مِسْعَر به . وقال الترمذي : حسن صحيح[(١١)] .

---

(١) (٦/ ٥١٢) ، رقم (٣٤٧١) في أحاديث الأنبياء ، باب (٥٤) .
(٢) ليست في ط .
(٣) كذا في ب وط والبخاري . وفي أ : وهاهما .
(٤) في ط : فطلب .
(٥) يوم السبع : قيل هو يوم القيامة ، وردوه بأن هذا لا يصلح مع تتمة الحديث . قيل : السبع : الذعر والفزع . وقيل : أراد عند الفتن يتركها الناس هملاً . وقيل : يوم السبع عيد كان لهم في الجاهلية يلهون به وينشغلون عن ماشيتهم النهاية في غريب الحديث (٢/ ٣٣٦ ـ ٣٣٧) .
(٦) كذا في ب وط . والبخاري . وفي أ : وهاهما .
(٧) أي البخاري (٦/ ٥١٢) .
(٨) قوله : علي ، قال : حدثنا ، سقطت من أ . وهي في ب وط . والبخاري .
(٩) هكذا وقع عند المصنف ، والذي في المطبوع من صحيح البخاري أن حديث المزارعة (٢٣١٤) إنما هو عن محمد بن بشار عن غندر عن شعبة فقط . والظاهر أن المصنف قد نقل ذلك من كتاب « تحفة الأشراف » لشيخه المزي إذ جاء فيه : « خ في المزارعة عن محمد بن بشار عن غندر عن شعبة . وعن علي عن سفيان عن مسعر ، كلاهما عن سعد بن إبراهيم به » (١٠/ ٣٤٦) رقم (١٤٩٥١) ط . د. بشار .
(١٠) ليست في ب . والحديث بطرقه في صحيح مسلم ، رقم (٢٣٨٨) ، في فضائل الصحابة ، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه .
(١١) جامع الترمذي (٣٦٧٧) و(٣٦٩٥) .

[وأخرج مسلم الطريق الأول من حديث سفيان بن عيينة وسفيان الثوري كلاهما عن أبي الزناد][١] .

حديث آخر :

قال البخاري : حدّثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدّثنا إبراهيم بن سعد[٢] ، عن أبي ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « إنه قد[٣] كان فيما مضى قبلَكم من الأمم مُحدَّثون وإنّه وإنْ كان في أمتي هذه منهم فإنه عمرُ بن الخطاب »[٤] . لم يخرجه مسلم من هذا الوجه[٥] .

وقد روي عن إبراهيم بن سعد عن أبي سلمة عن عائشة[٦] رضي الله عنها .

حديث آخر :

قال البخاري[٧] : حدّثنا عبد الله بن مَسْلمة ، عن مالك ، عن ابن شهاب ، عن حُميد بن عبد الرحمن أنه« سمع معاوية بنَ أبي سفيان ـ عام حجَّ ـ على المنبر ، وتناول[٨] قُصَّةً من شعرٍ كانتْ في يدِ حَرَسيّ[٩] فقال : يا أهل المدينة أين علماؤكم ؟ سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن مثلِ هذه ويقول : إنما هَلَكَتْ بنو إسرائيل حين اتخذها نساؤهم » .

وهكذا رواه مسلم[١٠] وأبو داود[١١] من حديث مالك . وكذا رواه معمر ويونس وسفيان بن عيينة عن الزهري بنحوه .

وقال الترمذي : حديث صحيح[١٢] .

وقال البخاري : حدّثنا آدم ، حدّثنا شعبة ، حدّثنا عمرو بن مُرَّة ، قال : سمعت سعيد بن المسيِّب

---

(١) ليست في ب ، وهي في صحيح مسلم رقم (٣٦٧٧) في المناقب ، باب (١٧) .
(٢) كذا في ب ، والبخاري . وفي أ وط : عن سعد ، وهو سهو .
(٣) سقطت من ط .
(٤) صحيح البخاري رقم (٣٤٦٩) ، في أحاديث الأنبياء ، باب (٥٤) . ورواه أيضاً من طريق يحيى بن قزعة عن إبراهيم بن سعد رقم (٣٦٨٩) في فضائل الصحابة ، باب مناقب عمر بن الخطاب .
(٥) الحديث بطرق أخرى في صحيح مسلم (٢٣٩٨) في فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر بن الخطاب رضي الله عنه .
(٦) لابن حجر قول في سند هذا الحديث في الفتح (٧/ ٥٠) .
(٧) صحيح البخاري رقم (٣٤٦٨) ، في الأنبياء باب (٥٤) .
(٨) في ط : فتناول .
(٩) القُصَّة : هي شعر الناصية ، والخصلة منه . والحرسيّ : منسوب إلى الحرس ، وهو واحد الحراس .
(١٠) صحيح مسلم رقم (٢١٢٧) في اللباس والزينة ، باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة .
(١١) سنن أبي داود رقم (٤١٦٧) في الترجل ، باب صلة الشعر .
(١٢) الترمذي رقم (٢٧٨١) في الأدب ، باب ما جاء في كراهية اتخاذ القُصَّة .

قال : قدم معاوية بن أبي سُفيان المدينة آخر قَدْمةٍ قَدِمها ، فخطبنا ، فأخرج من كُمّه كُبَّةَ شعرٍ وقال : « ما كنت أَرى أحداً يفعل هذا غير اليهود ، إن النبي ﷺ سمّاه الزُّوْرَ ، يعني الوصال في الشعر » . تابعه غُنْدَر عن شعبة[١] .

والعجب أن مسلماً رواه من غير وجه عن غُندر عن شعبة[٢] . ومن حديث قتادة عن سعيد بن المسيب[٣] ، به[٤] .

حديث آخر :

قال البخاري : حدّثنا سعيد بن تَلِيْدٍ ، حدّثنا ابنُ وهب قال[٥] أخبرني جرير بن حازم ، عن أيوب ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « بينما كلبٌ يَطِيفُ بِرَكِيَّةٍ كادَ يقتله العطشُ ، إذ رأته امرأة بغي[٦] من بغايا بني إسرائيل ، فنزعت مُوْقَها ، فسقته ، فَغُفِرَ لها به »[٧] .

ورواه مسلم عن أبي الطاهر بن السَّرْح عن ابن وهب ، به[٨] .

حديث آخر :

قال البخاري[٩] : حدّثني عبد الله بن محمد بن[١٠] أسماء ، حدّثنا جويرية ، عن نافع ، عن عبد الله ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « عُذِّبَتِ امرأةٌ في هِرَّةٍ سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار ، فلا[١١] هي أطعمتها ولا سقتها إذ حبستها ، ولا هي تركتها تأكل من خَشَاش الأرض » .

وكذا رواه مسلم عن عبد الله بن محمد بن أسماء ، به[١٢] .

---

(١) صحيح البخاري (٣٤٨٨) في الأنبياء .
(٢) رواه عن أبي بكر من أبي شيبة ، ومحمد بن المثنى العنزي ، ومحمد بن بشار ، ثلاثتهم عن غندر (٢١٢٧) (١٢٣) في اللباس .
(٣) مسلم (٢١٢٧) (١٢٤) .
(٤) زيادة من ب وط .
(٥) زيادة من ط . موافقة للفظ البخاري .
(٦) ليست في ط . ولا في البخاري .
(٧) صحيح البخاري رقم (٣٤٦٧) في الأنبياء ، باب (٥٤) .
(٨) صحيح مسلم رقم (٢٢٤٥) في السلام ، باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها . والموق : الخف .
(٩) صحيح البخاري (٣٤٨٢) في الأنبياء .
(١٠) قوله : محمد بن . . . زيادة من ب . موافقة لنص البخاري .
(١١) في ب : لا .
(١٢) صحيح مسلم رقم (٢٢٤٢) في الحيوان ، وفي الأدب ، جميعاً بالإسناد نفسه .

حديث آخر :

قال الإمام أحمد[١] : حدّثنا عثمان بن عمر ، حدّثنا المُسْتَمِرُّ بن الريّان ، حدّثنا أبو نَضْرة ، عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال : « كان في بني إسرائيل امرأة قصيرةٌ ، فصنعتْ رِجلين من خشب ، فكانت تمشي بين امرأتين قصيرتين . واتخذت خاتماً من ذهب ، وحشت تحت فَصِّه أطيب الطيب والمسك[٢] ، فكانت إذا مرت بالمجلس حركَّته فَنَفَح رِيحه » .

رواه مسلم من حديث المستمر وخُليد بن جعفر كلاهما عن أبي نضرة عن أبي سعيد مرفوعاً قريباً[٣] منه .

وقال الترمذي : حديث حَسَن صحيح[٤] .

حديث آخر :

قال البخاري : حدّثنا آدم ، حدّثنا شعبة ، عن منصور ، سمعت رِبْعي بن حِرَاش يحدّث عن أبي مسعود[٥] قال : قال النبي ﷺ : « إن ممّا أدركَ الناسُ من كلام النبوة الأُولى[٦] : إذا لم تستحِ فاصنعْ ما شئتَ » . تفرّد به البخاري[٧] دون مسلم .

وقد رواه بعضهم عن ربعي[٨] عن حذيفة مرفوعاً وموقوفاً أيضاً[٩] . والله أعلم .

حديث آخر :

قال الإمام أحمد[١٠] : حدّثنا هاشم بن القاسم ، حدّثنا عبد الحميد ـ يعني ابن بهرام ـ حدّثنا شَهْر بن حَوْشَب قال : قال أبو هريرة[١١] : بينما رجلٌ وامرأةٌ له في السلف الخالي لا يقدران على شيء ، فجاء

---

(١) المسند (٣/ ٤٠) .
(٢) في ب : المسك بلا واو . وكذلك هو في المسند .
(٣) صحيح مسلم رقم (٢٢٥٢) في الألفاظ ، باب استعمال المسك وأنه أطيب الطيب .
(٤) في ط وأ : « صحيح » وما أثبتناه من ب ، وهو الذي في الترمذي رقم (٩٩١) ، في الجنائز ، باب في ما جاء في المسك للميت ، وكذلك نقله المزي في التحفة (٤٣١١) .
(٥) كذا في ب ، وهو موافق لنص البخاري ، وفي أ وط : ابن وهو سهو .
(٦) ليست في ب . وكذلك في البخاري .
(٧) صحيح البخاري رقم (٣٤٨٤) ، في الأنبياء ، باب (٥٤) .
(٨) زاد في ط : ابن حراش .
(٩) تنظر تحفة الأشراف (٩٩٨٢) .
(١٠) المسند (٢/ ٤٢١) .
(١١) زاد في ط : قال قال رسول الله ، وما هنا هو الذي في المسند .

الرجل من سَفَره ، فدخل على امرأته جائعاً قد أصابته مَسْغَبَةٌ شديدة فقال لامرأته : أعندك[١] شيء ؟ قالت : نعم أبشر ، أتاك رزق الله . فاستحثَّها فقال : ويحك أبتغي إن كان عندك شيء . قالت : نعم هُنيّة[٢] نرجو رحمة الله . حتى إذا طال عليه الطَّول[٣] قال : ويحك قومي فابتغي إن كان عندك شيء فأتيني به فإني قد بلغت[٤] وجهدت . فقالت : نعم الآن ينضج التنّور فلا تعجل . فلما أن سَكَتَ عنها ساعة وتحيَّنَتْ أيضاً أن يقول لها ، قالت مِن عِند نفسها : لو قُمتُ فنظرتُ إلى تنّوري . فقامت فوجدت تنورَها ملآن من جُنُوب الغنم [ورحاها تطحن ، فقامت إلى الرحى فنفضتها واستخرجت ما في تنورها من جُنُوب الغنم][٥] . قال أبو هريرة : فوالذي نفس أبي القاسم بيده عن قول محمد ﷺ لو أخذت ما في رَحْيَيْها ولم تنفضها لطحنتها[٦] إلى يوم القيامة .

وقال أحمد[٧] : حدّثنا ابن عامر ، حدّثنا أبو بكر ، عن هشام ، عن محمد ، عن أبي هريرة قال : دخل رجل على أهله ، فلما رأى ما بهم من الحاجة خرج[٨] إلى البرِّيَّة ، فلما رأت امرأته[٩] قامت إلى الرَّحى فوضعتها ، وإلى التنور فَسَجَرته ، ثمّ قالت : اللهم ارزقنا . فنظرت فإذا الجَفْنَةُ قد امتلأت . قال : وذهبت إلى التنور فوجدته ممتلئاً . قال : فرجع الزوج قال : أصبتم بعدي شيئاً ؟ قالت امرأته : نعم من ربنا ، ثم قامت إلى الرَّحى فرفعتها[١٠] . فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : « أما إنه لو لم ترفعها لم تزل تدور إلى يوم القيامة » .

قال : شهدت النبي ﷺ وهو يقول : والله لأَن يأتيَ أحدُكم بحزمة حطبٍ[١١] ثمّ يحمله فيبيعه فيستعفف منه خيرٌ له من يأتي رجلاً فيسأله .

* * *

(١) هكذا في ب وهو الموافق لما في المسند .
(٢) في ط : هنيئة . والهُنَيّة : تصغير هَنَة : القليل من الوقت .
(٣) في ط . المطال . وفي حاشية أ : في نسخة : المطال .
(٤) زاد في ط : الجهد .
(٥) ليست في ب ، وهي في مسند أحمد . وجنوب الغنم : جمع جَنْب ، يريد جنب الشاة ، أي أنه كان في التنور جنوب كثيرة لا جنب واحد . النهاية في غريب الحديث (١/ ٣٠٤) .
(٦) من ب ، وهي رواية أحمد .
(٧) مسند أحمد (٢/ ٥١٣) .
(٨) كذا في ب وط . وهو موافق لما في المسند . وفي أ : فرجع .
(٩) زاد في ط : مالقي . وليست في المسند ، وفي حاشية أ : أنها رواية نسخة أخرى .
(١٠) في ط : من ربنا فرفعتها إلى الرحى ثم قامت فذكر . وفي ب : قام الرجل فرفعها .
(١١) في ب : بحطب . وفي المسند : صبيراً .

قِصّة المَلِكَيْنْ التائبين

قال الإمام أحمد[١] : حدّثنا يزيد بن هارون ، حدّثنا المسعودي ، عن سِمَاك بن حرب ، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود ، عن أبيه قال : بينما رجل فيمن كان قبلكم كان في مملكته فتَفَكَّر[٢] ، فعلم أن ذلك منقطع عنه ، وأن ما هو[٣] فيه قد شغله عن عبادة ربه ، فانْسابَ ذاتَ ليلة من قصره فأصبح[٤] في مملكة غيره ، وأتى ساحل البحر ، فكان به يضرب اللَّبِنَ بالأجر فيأكل ويتصدَّق بالفضل . ولم يزل كذلك حتى رقي أمرُه إلى مَلِكِهم ، فأرسل إليه ، فأبى أن يأتيه ، فركب إليه الملكُ ، فلما رآه ولّى هارباً ، فركض في أثره فلم يدركه ، فناداه : يا عبد الله إنه ليس عليك منّي بأس . فقام حتى أدركه فقال له : من أنت ، رحمك الله ؟ فقال : أنا فلان بن فلان صاحب مملكة كذا وكذا ، تَفَكَّرْتُ[٥] في أمري فعلمت أن[٦] ما أنا فيه منقطع ، وأنه قد شغلني عن عبادة ربي ـ عز وجل ـ فتركته وجئتُ هاهنا أعبدُ ربّي . فقال له : ما أنت بأحوجَ لما صنعتَ منّي . قال : فنزل عن دابّته ، فسيَّبها وتبعه ، فكانا جميعاً يعبدان الله عزَّ وجلَّ فَدَعَوا اللهَ أن يُميتهما جميعاً ، فماتا . قال عبد الله : فلو كنتُ بِرُمَيلة[٧] مصر لأريتُكم قبورَهما بالنعتِ الذي نعتَ لنا رسول الله ﷺ .

حديث آخر :

قال البخاري[٨] : حدّثنا أبو الوليد ، حدّثنا أبو عَوانة ، عن قتادة ، عن عقبة بن عبد الغافر ، عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال[٩] : « إن رجلاً كان قَبْلَكُم رَغَسَه[١٠] الله مالاً ، فقال لبنيه لما حُضِر : أيَّ أبٍ كنتُ لكم ؟ قالوا : خيرَ أب . قال : فإني لم أعمل خيراً قَطُّ ، فإذا مِتُّ فاحرقوني ثمّ اسحقوني ثمّ ذرُّوني

---

(١) المسند (١/ ٤٥١) ، وإسناده ضعيف لاختلاط المسعودي، ويزيد ممن سمع منه بعد الاختلاط .

(٢) من ب : وهي كذلك في المسند .

(٣) ليست في ب .

(٤) من ب ، وهو الذي في المسند .

(٥) من ب ، وكذلك في المسند .

(٦) في ب : فعلمت ما أنا .

(٧) في ط : برملية .

(٨) صحيح البخاري رقم (٣٤٧٨) ، في الأنبياء ، باب (٥٤) . والذي في نسخة ب رواية أخرى للحديث من طريق عبد الله بن محمد ، وهي في البخاري رقم (٣٤٨١) ، وستأتي الإشارة إليه في آخر الحديث .

(٩) ليست في ب وط .

(١٠) رَغَسَه : كثّر مالَه ، وأعطاه .

في يوم عاصف . ففعلوا . فجمعه الله عزَّ وجلَّ فقال : ما حملك ؟ فقال : مخافتك . فتلقاه برحمته » .

ورواه في مواضع أخر ، ومسلم من طرق عن قتادة ، به[١] . ثمّ رواه البخاري ومسلم من حديث ربْعي بن حِراش ، عن حذيفة عن النبي ﷺ بنحوه[٢] . [ومن حديث الزهري عن حُميد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه][٣] .

حديث آخر :

قال البخاري[٤] : حدّثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدّثنا إبراهيم بن سعد ، عن ابن شهاب ، عن عُبَيد الله بن عبد الله بن عُتبة ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ[٥] قال : « كان رجل يُداين الناس فكان[٦] يقول لفتاه : إذا أتيت معسراً فتجاوز عنه لعلَّ الله أن يتجاوز عنا . قال : فلقي اللهَ فتجاوز عنه » .

وقد رواه في مواضع أخر[٧] ، ومسلم من طريق الزهري ، به[٨] .

حديث آخر :

قال البخاري[٩] : حدّثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدثني مالك ، عن محمد بن المُنْكَدِر ، [وعن أبي النضر مولى عمر بن عبيد الله ، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه أنه سمعه يسأل أسامة بن زيد : ماذا سمعتَ من رسول الله ﷺ في الطاعون ؟ قال أسامة : قال رسول الله ﷺ : « الطاعونُ رِجْسٌ أُرسلَ على طائفةٍ من بني إسرائيل وعلى][١٠] من كان قبلكم ، فإذا سمعتم به بأرضٍ فلا تَقْدَموا عليه ، وإذا وقع بأرضٍ وأنتم فيها فلا تخرجوا فِراراً منه » . قال أبو النضر : « لا يُخرِجكم إلا فِراراً منه » .

---

(١) البخاري (٦٤٨١) في الرقاق و(٧٥٠٨) في التوحيد . ومسلم (٢٧٥٧) (٢٨) في التوبة .

(٢) هكذا قال، ولم يخرجه مسلم، إنما تفرد به البخاري وحده، فرواه في الرقاق (٦٤٨٠)، وفي الأنبياء (٣٤٥٢) و(٣٤٨٠) و(٣٤٧٩) .

(٣) زيادة من ب وط ، وهذا الطريق في الأنبياء من البخاري (٣٤٨١)، وفي التوبة من صحيح مسلم (٢٧٥٦) (٢٥) و(٢٧٥٦) (٢٦) .

(٤) صحيح البخاري رقم (٣٤٨٠) في الأنبياء ، باب (٥٤) .

(٥) في ط وأ : « عن النبي ﷺ » وما أثبتناه من ب وهو الذي في البخاري وهو المصدر الذي ينقل منه المصنف .

(٦) زيادة من ب وط والبخاري .

(٧) صحيح البخاري رقم (٢٠٧٨) في البيوع ، باب من أنظَر معسراً .

(٨) صحيح مسلم رقم (١٥٦٢) في المساقاة ، باب فضل إنظار المعسر .

(٩) زيادة من ب وط . والحديث عند البخاري رقم (٣٤٧٣) ، في الأنبياء ، باب (٥٤) . وورد الحديث في نسخة ب من طريق آخر ، ورواية أخرى هي في البخاري أيضاً رقم (٣٤٧٤) ، وستأتي بعد هذا .

(١٠) زيادة من البخاري .

ورواه مسلم[(١)] من حديث مالك ، ومن طرق أخر ، عن عامر بن سعد ، به .

حدّثنا موسى بن إسماعيل ، حدّثنا داود بن أبي الفرات ، حدّثنا عبد الله بن بُرَيدة ، عن يحيى بن يَعْمَر ، عن عائشة قالت : سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون فأخبرني « أنه عذابٌ يبعثه الله على من يشاء من عباده ، وأن الله جعله رحمة[(٢)] للمؤمنين ، ليس من أحد يقَعُ الطاعون فيمكث في بلده صابراً محتسباً يعلم أن لا يصيبه إلا ما كتبَ الله له، إلا كان له مثلُ أجرِ شهيد » . تفرّد به البخاري[(٣)] عن مسلم من هذا الوجه .

حديث آخر :

قال البخاري[(٤)] : حدّثنا قتيبة ، حدّثنا ليثٌ ، عن ابن شهاب ، عن عُروة ، عن عائشة ، (أن قريشاً أهمهم شأن[(٥)] المخزومية التي سرقت ، فقالوا : من يكلّم فيها رسول الله ﷺ ؟ [فقالوا : ومن يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد حِبُّ رسول الله ﷺ][(٦)] فكلّمه أسامةُ . فقال : « أتشفع في حدٍّ من حدود الله ؟! » ثمّ قام فاختطب ، ثمّ قال : « إنما أهلك[(٧)] الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيفُ أقاموا عليه الحدَّ . وايمُ اللهِ لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

وأخرجه بقية الجماعة من طرق عن الليث بن سعد ، به[(٨)] .

حديث آخر :

وقال البخاري : حدّثنا آدم ، حدّثنا شعبة ، حدّثنا عبد الملك بن مَيْسرة ، سمعت النَّزَّال بن سَبْرَة الهلالي ، عن ابن مسعود قال : سمعت رجلاً قرأ آية[(٩)] وسمعتُ رسول الله ﷺ يقرأ خلافَها ، فجئت به إلى رسول الله ﷺ فأخبرته ، فعرفت في وجهه الكراهية فقال[(١٠)] : « كلاكما محسن ، ولا تختلفوا

---

(١) صحيح مسلم رقم (٢٢١٨) في السلام ، باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها .

(٢) زيادة من ب وط . والبخاري .

(٣) صحيح البخاري رقم (٣٤٧٤) في الأنبياء ، باب (٥٤) .

(٤) صحيح البخاري رقم (٣٤٧٥) في الأنبياء ، باب (٥٤) .

(٥) زاد في ب : المرأة . وكذلك هو في البخاري .

(٦) سقطت من ب بنقلة عين .

(٧) في ط : فخطب . وهلك .

(٨) أخرجه مسلم رقم (١٦٨٨) في الحدود ، باب قطع السارق الشريف وغيره . والترمذي رقم (١٤٣٠) ، في الحدود ، باب ما جاء في كراهية أن يشفع في الحدود . وأبو داود (٤٣٧٣) في الحدود ، باب في الحد يُشفع فيه . وابن ماجه (٢٥٤٧) في الحدود ، باب الشفاعة في الحدود ، والنسائي (٨/ ٧٢ ـ ٧٥) .

(٩) زيادة من البخاري .

(١٠) في ط : وقال . وكذلك هي في البخاري .

فإن من[١] قبلكم اختلفوا فهلكوا » . تفرّد به البخاري[٢] دون مسلم .

حديث آخر :

قال البخاري : حدّثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدّثنا إبراهيم بن سعد[٣] عن صالح ، عن ابن شهاب قال : قال أبو سلمة بن عبد الرحمن : أن أبا هريرة قال : إن رسول الله ﷺ قال : « إن اليهود والنصارى[٤] لا يصبغون فخالفوهم » . تفرّد[٥] به دون مسلم . وفي سنن أبي داود[٦] : « صلّوا في نعالكم خالفوا اليهود » .

حديث آخر :

قال البخاري[٧] : حدّثنا علي بن عبد الله ، حدّثنا سفيان ، عن عمرو ، عن طاووس ، عن ابن عباس : سمعت عمر يقول : قاتلَ الله فلاناً ألم يعلم أن رسول الله ﷺ قال : « لَعَنَ الله اليهودَ ، حُرِّمَت عليهم الشحومُ فَجَمَلوها[٨] . فباعوها » رواه مسلم من حديث ابن عيينة . ومن حديث عمرو بن دينار[٩] ، به . ثمّ قال البخاري : (تابعه أبو جابر وأبو هريرة عن النبي ﷺ) .

ولهذا الحديث طرقٌ كثيرة[١٠] . وسيأتي في باب الحِيَل من كتاب الأحكام[١١] إن شاء الله ، وبه الثقة .

حديث آخر :

قال البخاري[١٢] : حدّثنا عِمْران بن مَيْسَرة ، حدّثنا عبد الوارث ، حدّثنا خالد ، عن أبي قلابة ، عن أنس بن مالك قال : (ذَكَرُوا النارَ والناقوسَ فَذَكَروا اليهود والنصارى ، فأُمِر بلالٌ أنْ يَشْفَعَ الأذان وأن يوتر

---

(١) زاد في ط : كان . وكذلك هي في البخاري .
(٢) صحيح البخاري رقم (٣٤٧٦) في الأنبياء ، باب (٥٤) .
(٣) ليست في ب وط .
(٤) ليست في ب .
(٥) صحيح البخاري رقم (٣٤٦٢) في الأنبياء باب ما ذكر عن بني إسرائيل . والمراد بالصبغ هنا : صبغ شيب اللحية والرأس .
(٦) رقم (٦٥٢) في الصلاة ، باب الصلاة في النعل .
(٧) صحيح البخاري رقم (٣٤٦٠) في الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل .
(٨) جَمَلوها : أي أذابوها .
(٩) صحيح مسلم رقم (١٥٨٢) في المساقاة . باب تحريم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام .
(١٠) جامع الأصول (١/ ٤٥٠) وما بعدها .
(١١) هو كتاب : الأحكام الكبير للمصنف ، وليس هو في هذا الكتاب .
(١٢) صحيح البخاري رقم (٦٠٣) في الأذان .

الإقامة . وأخرجه بقية الجماعة من حديث أبي قلابة عبد الله بن زيد الجَرْمي ، به[١] .

والمقصود من هذا مخالفة أهل الكتاب في جميع شعارهم ، فإن رسول الله ﷺ لما قدم المدينةَ كان المسلمون يتحيَّنون وقت الصلوات بغير دَعوة إليها ، ثمّ أمرَ من ينادي فيهم وقت الصلاة : (الصلاة جامعة) ، ثمّ أرادوا أن يدعوا إليها بشيء يعرفه الناس ، فقال قائلون : نضربُ بالناقوس . وقال آخرون : نوري بالنار[٢] ، فكرهوا ذلك لمشابهة أهل الكتابين[٣] فأُري عبد الله بن زيد بن عبد ربّه الأنصاري في منامه الأذان ، فقصَّها على رسول الله ﷺ فأمر بلالاً فنادى به[٤] ، كما هو مبسوط في موضعه من باب الأذان في كتاب الأحكام .

حديث آخر :

قال البخاري[٥] : حدّثنا بشر بن محمد ، أخبرنا عبد الله ، أخبرنا مَعْمَر ويونس عن الزُّهْري ، أخبرني عُبَيد الله بن عبد الله ، أن عائشة وابن عباس قالا : لما نُزِلَ برسول الله ﷺ طَفِق يطرَحُ خميصةً على[٦] وجهه، فإذا اغتمَّ كشفها عن وجهه فقال: « وهو كذلك، لعنةُ الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ. يُحذِّر ما صنعوا ». وهكذا رواه في غير موضع[٧]، ومسلم[٨] من طُرُقٍ عن الزهري ، به.

حديث آخر :

قال البخاري[٩] : حدّثنا سعيد بن أبي مريم ، حدّثنا أبو غسان ، قال: حدثني[١٠] زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي سعيد أن النبي ﷺ قال : « لتَتَّبِعُنَّ سَنَن من[١١] قبلكم شِبراً بشبرٍ وذراعاً بذراع

---

(١) أخرجه مسلم (٣٧٨) في الصلاة ، باب الأمر بشفع الأذان وإيتار الإقامة . وأبو داود (٥٠٨) في الصلاة ، باب في الإقامة ، والترمذي (١٩٣) في الصلاة ، باب ما جاء في إفراد الإقامة . وابن ماجه (٧٢٩) و(٧٣٠) في الأذان والسنة ، باب إفراد الإقامة ، والنسائي (٢/ ٣) في الصلاة .

(٢) في ط : وقال آخر نوري ناراً .

(٣) في ب وط : الكتاب .

(٤) جامع الأصول (٥/ ٢٦٩) .

(٥) صحيح البخاري رقم (٣٤٥٣) في الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل .

(٦) في أ وب : « خميصة له » . وما هنا من ط ، وهو الموافق لصحيح البخاري .

(٧) أخرجه البخاري في الصلاة من صحيحه (٤٣٥ و٤٣٦) ، وفي المغازي (٤٤٤٣ و٤٤٤٤) ، وفي اللباس (٥٨١٥).

(٨) صحيح مسلم رقم (٥٢٩ ـ ٥٣١) ، في المساجد ، باب النهي عن بناء المساجد على القبور .

(٩) صحيح البخاري رقم (٣٤٥٦) في الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل .

(١٠) زيادة من ب وط موافقة لما في صحيح البخاري . وفي ب : أبو غسان حدثني .

(١١) زاد في ب : كان .

حتى لو سَلكوا جُحْرَ ضَبٍّ لسلكتموه » فقلنا : يا رسول الله اليهودَ والنصارى ؟ قال النبي ﷺ : « فَمَنْ » ؟ .

وهكذا رواه مسلم من حديث زيد بن أسلم ، به[١] .

والمقصود من هذا الإخبارُ عما يقع من الأقوال والأفعال[٢] المنهيّ عنها شرعاً مما يشابه أهل الكتاب قبلنا . إن الله ورسوله ينهيان عن مشابهتهم في أقوالهم وأفعالهم حتى ولو كان قصد المؤمن خيراً[٣] ، لكنه تَشبَّه ، فَفِعْله[٤] في الظاهر فعلُهم ، وكما نهى عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها لئلا تشابه المشركين الذين يسجدون للشمس حينئذٍ ، وإن كان المؤمن لا يخطر بباله شيء من ذلك بالكُلّية ، وهكذا قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ١٠٤] . فكان الكفار يقولون للنبي ﷺ في كلامهم معه : راعنا ، أي : انظر إلينا ببصرك واسْمَع كلامَنا ، ويقصدون بقولهم : راعنا ، من الرُّعُونَةِ ، فنهى المؤمنين أن يقولوا ذلك وإنْ كان لا يخطر ببال أحد منهم هذا أبداً[٥] . فقد روى الإمام أحمد[٦] ، والترمذي[٧] ، من حديث عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال : « بُعِثْتُ بالسيف بين يدي الساعة حتى يُعبدَ اللهُ وحدَه لا شريكَ له ، وجعل رزقي تحت ظلّ رُمحي ، وجعل الذلّة والصَّغَار على من خالف أمري . ومن تَشبَّه بقوم فهو منهم » . فليس للمسلم أن يتشبه بهم ، لا في أعيادهم ولا مواسمهم ولا عباداتهم[٨] ، لأن الله تعالى شرَّف هذه الأمة بخاتم الأنبياء الذي شرع له الدين العظيم القويم الشامل الكامل الذي لو كان موسى بن عمران الذي أُنزلت[٩] عليه التوراة ، وعيسى بن مريم الذي أنزل عليه الإنجيل حَيّين لم يكن لهما شرع متَّبَع ، بل لو كانا موجودين ، بل وكل الأنبياء لما ساغ لواحدٍ منهم أن يكون على غير هذه الشريعة المطهَّرة المشرَّفة المكرَّمة المعظَّمة ، فإذا كان الله تعالى قد مَنَّ علينا بأن جعلنا من أتباع محمد ﷺ فكيف يَليق بنا أن نتشبَّه بقومٍ قد ضلُّوا من قبل وأضلُّوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ، قد

---

(١) صحيح مسلم رقم (٢٦٦٩) ، في العلم ، باب اتباع سنن اليهود والنصارى .
(٢) في ب : من الأفعال والأقوال .
(٣) في ب : الخير .
(٤) في ب : يشبه فعله .
(٥) تفسير الطبري (١/ ٣٧٣) وما بعدها .
(٦) المسند (٢/ ٥٠ ، ٩٢) .
(٧) لم أقف على الحديث في سنن الترمذي . وهو في الجامع الصغير (١/ ٤٢٧) ، من رواية أحمد وأبي يعلى والطبراني في الكبير .
(٨) في ب : لا في عباداتهم ولا في مواسمهم ولا أعيادهم . وفي ط : ولا في عباداتهم .
(٩) في ب : أنزل .

بدّلوا دينهم وحرَّفوه وأوَّلوه حتى صار كأنه غير ما شُرِع لهم أولاً . ثمّ هو بعد ذلك كلّه منسوخ والتمسك[١] بالمنسوخ حرامٌ لا يَقْبَلُ اللهُ منه قليلاً ولا كثيراً ، ولا فرق بينه وبين الذي لم يُشْرَع بالكلية . والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

حديث آخر :

قال البخاري[٢] : حدّثنا قُتيبة ، حدَّثنا اللَّيثُ ، عن نافع ، عن ابن عمر ، عن رسول الله ﷺ قال : « إنما أجَلُكم في أجل من خَلا[٣] من الأمم كما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس . وإنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجُلٍ استعملَ عُمَّالاً فقال : مَن يَعملُ لي إلى نصفِ النهار على قيراطٍ قيراطٍ ؟ فعملت اليهود إلى نصف النهار على قيراطٍ قيراطٍ . ثمّ قال : مَن يعملُ لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراطٍ قيراطٍ ؟ فعملت النصارى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراطٍ قيراطٍ . ثمّ قال : مَن يعمل لي من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين ؟ ألا فأنتم الذين يعملون من صلاة العصر إلى مغرب الشمس[٤] على قيراطين قيراطين . ألا لكم الأجرُ مرَّتين . فغضب اليهودُ والنصارى ، فقالوا : نحن أكثر عملاً وأقلُّ عطاءً ؟ قال الله تعالى : هل ظُلِمتم من حقّكم شيئاً ؟ فقالوا : لا . قال : فإنه فَضْلي أوتيه من شئت[٥] » .

وهذا الحديث فيه دليل على أن مدّة هذه الأمة قصيرةٌ بالنسبة إلى ما مضى من مدد الأمم قبلها ، لقوله : « إنما أجلكم في أجل من خلا من الأمم قبلكم كما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس » ، فالماضي لا يعلمه إلا الله ، كما أن الآتي لا يعلمه إلا هو ، ولكنه قصيرٌ بالنسبة إلى ما سبق ، ولا اطّلاع لأحدٍ على تحديد ما بقي إلا الله عزَّ وجلَّ كما قال الله تعالى : ﴿ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأعراف : ١٨٧] ، وقال : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴾ [النازعات : ٤٢ ـ ٤٤] . وما يذكره بعض الناس من الحديث المشهور عند العامة من أنه عليه السلام لا يؤلف تحت الأرض ، فليس له أصل في كتب الحديث ، وورد حديث فيه[٦] أن الدنيا جمعة من جمع الآخرة . وفي صحته نظر .

والمراد من هذا التشبيهِ بالعمالِ تفاوتُ أجورِهم ، وأن ذلك ليس منوطاً بكثرة العمل وقِلّته ، بل بأمور أُخَرَ معتبرةٍ عند الله تعالى ، وكم من عملٍ قليلٍ أجدى ما لا يجديه العمل الكثير ، هذه ليلة القدر العمل

---

(١) في ب : والعمل .

(٢) صحيح البخاري رقم (٣٤٥٩) ، في الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل .

(٣) زاد في ط : من قبلكم ، وليست في البخاري .

(٤) في ط : إلى المغرب .

(٥) في ط : من أشاء ، وما أثبتناه موافق لرواية البخاري .

(٦) من ب ، وفي ط : فيه حديث .

فيها أفضل من عبادة ألف شهر سواها . وهؤلاء أصحاب محمد ﷺ أنفقوا في أوقاتٍ لو أنفقه غيرُهم من الذهب مثل أُحُدٍ ما بلغ مُدَّ أَحَدِهم ولا نَصيفه[١] من تمر . وهذا رسول الله ﷺ بعثه الله على رأس أربعين سنة[٢] من عمره ، وقَبَضَه وهو ابن ثلاثٍ وستين[٣] على المشهور ، وقد برز في هذه المدة التي هي ثلاث وعشرون سنةً في العلوم النافعة والأعمال الصالحة على سائر الأنبياء قبله ، حتى على نوحٍ الذي لبث في قومه ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى عبادة الله وحدَه لا شريك له ، ويعمل بطاعة الله ليلاً ونهاراً ، صباحاً ومساءً ، صلواتُ الله وسلامُه عليه وعلى سائر الأنبياء أجمعين . فهذه الأمة إنما شُرِّفت وتضاعف ثوابُها ببركة سيادة نبيّها وشرفِه وعَظَمته ، كما قال الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الحديد : ٢٨ ـ ٢٩] .

***

فصل

وأخبارُ بني إسرائيل كثيرةٌ جداً في الكتاب وفي السنة[٤] النبوية ، ولو ذهبنا نتقصَّى ذلك لطال الكتابُ ، ولكن ذكرنا ما ذكره الإمام أبو عبد الله البخاري في هذا الكتاب[٥] ، ففيه مَقنَعٌ وكفايةٌ ، وهو تذكرة وأُنموذج لهذا الباب والله أعلم .

وأما الأخبار الإسرائيلية فيما يذكره كثيرٌ من المفسرين والمؤرخين ، فكثيرةٌ جداً ، ومنها ما هو صحيح موافق لما وقَعَ ، وكثيرٌ منها بل أكثرُها مما يذكره القصّاص مكذوبٌ مفترًى وضعه زنادقتُهم وضُلاَّلُهم ، وهي ثلاثة أقسام : منها ما هو صحيح ، لموافقته ما قصَّه اللهُ في كتابه أو أخبرَ به رسولُ الله ﷺ . ومنها ما هو معلوم البُطلان ؛ لمخالفته كتاب الله وسُنة رسوله . ومنها ما يحتمل الصدق والكذب ، فهذا الذي

---

(١) النصيف : النصف ، وقيل مكيال دون المد . وكلام المؤلف هنا مأخوذ من حديث رواه البخاري : رقم (٣٦٧٣) ، في فضائل الصحابة ، باب قول النبي ﷺ : « لو كنت متخذاً خليلاً » . ولفظه : « لا تسبوا أصحابي ، فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نَصِيفَهُ » . ورواه مسلم (٢٥٤٠) و(٢٥٤١) في فضائل الصحابة ، باب تحريم سب الصحابة .

(٢) ليست في ب .

(٣) زاد في ب : سنة .

(٤) في ط : والسنة .

(٥) صحيح البخاري (٦/ ٤٩٤) ، وما بعدها ، في الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ، ولم يأت به كله .

أُمِرنا بالتوقف فيه فلا نصدقه ولا نكذبه كما[1] ثبت في الصحيح : « إذا حدَّثكم أهل الكتاب فلا تُصَدِّقوهم ولا تُكَذِّبوهم ، وقولوا : آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم » . وتجوز روايته مع هذا الحديث المتقدم « وحدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج »[2] .

***

(١) في ب : لما .

(٢) تقدم في الصفحة (٢٣٥) ، عند حديث المؤلف عن بيان الإذن في الرواية والتحديث عن أخبار بني إسرائيل .

ذكر[١] تحريف أهل الكتاب وتبديلهم أديانهم

أما اليهود فقد أنزل الله عليهم التوراة على يدي موسى بن عمران عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٥٤].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ ﴾ [الأنعام: ٩١].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الصافات: ١١٧ ـ ١١٨].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤].

فكانوا يحكمون بها وهم متمسكون بها بُرهةً من الزمن، ثمّ شرعوا في تحريفها وتبديلها وتغييرها وتأويلها وإبداء ما ليس منها، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٨].

فأخبر تعالى أنّهم يفسّرونها ويتأوّلونها ويضعونها على غير مواضعها، وهذا ما لا خلاف فيه بين العلماء؛ وهو أنّهم يتصرّفون في معانيها ويحملونها على غير المراد، كما بدّلوا حُكْم الرجمِ بالجلد والتحميم[٢]، مع بقاء لفظ الرجم فيها، وكما أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدَّ[٣]، مع أنهم مأمورون بإقامة الحد والقطع على الشريف والوضيع.

فأما تبديل ألفاظها فقال قائلون: بأنها جميعها بُدِّلت. وقال آخرون: لم تبدل، واحتجّوا بقوله تعالى: ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة: ٤٣] وقوله: ﴿ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ ... الآية [الأعراف: ١٥٧] وبقوله: ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٣].

---

(١) ليست في ط.

(٢) التحميم: تسويد الوجه حتى يصبح كالفحمة.

(٣) تقدم هذا في حديث رسول الله ﷺ ص (٣٨٠).

وبقصة[(١)] الرجم ، فإنهم كما ثبت في « الصحيحَين »[(٢)] عن ابن عمر ، وفي « صحيح » مسلم عن البَراء بن عازب[(٣)] وجابر بن عبد الله[(٤)] ، وفي « السنن » عن أبي هريرة[(٥)] وغيره لمَّا تحاكموا إلى رسول الله ﷺ في قصّة اليهودي واليهودية اللذين زنيا فقال لهم : « ما تجدون في التوراة في شأن الرجم ؟ » فقالوا : نفضحهم ويُجلدون . فأمرهم رسول الله ﷺ بإحضار التوراة ، فلما جاؤوا بها وجعلوا يقرؤونها ويكتمون آيةَ الرجم التي فيها ، ووضع عبد الله بن صوريا يده على آية الرجم وقرأ ما قبلها وما بعدها ، فقال له رسول الله ﷺ : « ارفع يَدكَ يا أعور » . فرفع يده فإذا فيها آية الرجم ، فأَمَرَ رسولُ الله ﷺ برجمها وقال : « اللهمَّ إني أوَّلُ من أحيا أمرك إذ أماتوه » وعند أبي داود[(٦)] أنهم لما جاؤوا بها نَزَعَ الوِسادةَ من تحته فوضعها تحتها[(٧)] وقال : « آمنتُ بكَ وبمَن أنزلَكَ » . وذكر بعضُهم أنه قام لها ، ولم أقف على إسناده . والله أعلم .

فهذا كلّه يُشْكِلُ على ما يقوله كثيرٌ من المتكلّمين وغيرِهم : إن التوراة انقطع تواترها في زمن بُخت نصّر ولم يبقَ من يحفظها إلا العُزَيْر ، ثمّ العزير[(٨)] إن كان نبياً فهو معصومٌ والتواتر إلى المعصوم يكفي ، اللهمّ إلا أن يُقال إنها لم تتواتر إليه . لكِنْ بعده زكريا ويحيى وعيسى وكلّهم كانوا متمسكين بالتوراة ، فلو لم تكن صحيحةً معمولاً بها لما اعتمدوا عليها وهم أنبياء معصومون .

ثم قد[(٩)] قال الله تعالى فيما أنزل على رسوله محمد خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع الأنبياء منكراً على اليهود في قصدهم الفاسد ، إذ عدلوا عمّا يعتقدون صحَّته عندهم ، وأنهم مأمورون به حتماً إلى التحاكم إلى رسول الله ﷺ وهم يعاندون ما جاء به . لكنْ لمَّا كان في زعمهم ما قد يوافقهم على

---

(١) في ب : وبقضية .

(٢) في البخاري رقم (١٣٢٩) ، في الجنائز ، باب الصلاة على الجنائز بالمصلى والمسجد ، ورقم (٣٦٣٥) ، في المناقب ، باب قوله تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ . ورقم (٤٥٥٦) ، في التفسير ، باب قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ ﴾ ورقم (٦٨١٩) في الحدود ، باب الرجم في البلاط ، ورقم (٦٨٤١) باب أحكام أهل الذمة وإحصانهم إذا زنوا ، ورقم (٧٣٣٢) في الاعتصام ، باب ما ذكر النبي ﷺ وحض على اتفاق أهل العلم ، ورقم (٧٥٤٣) في التوحيد ، باب ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها .
ومسلم (١٦٩٩) ، في الحدود ، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنى .

(٣) صحيح مسلم رقم (١٧٠٠) .

(٤) صحيح مسلم رقم (١٧٠١) .

(٥) في سنن أبي داود (٤٤٥٠) و(٤٤٥١) ، في الحدود ، باب في رجم اليهوديين .

(٦) سنن أبي داود رقم (٤٤٤٩) .

(٧) تحت التوراة .

(٨) تقدمت قصته .

(٩) ليست في ب .

ما ابتدعوه[١] من الجلد والتحميم المصادم لما أمر الله به حتماً وقالوا : إنْ حكم لكم بالجلد والتحميم فاقبلوه وتكونون قد اعتذرتم بحكم نبي لكم عند الله يوم القيامة ، وإن لم يحكم لكم بهذا بل بالرجم فاحذروا أن تقبلوا منه . فأنكر اللهُ تعالى عليهم في هذا القصد الفاسد الذي إنما حملهم عليه الغرضُ الفاسد وموافقة الهوى لا الدين الحق فقال : ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ . . . الآية [المائدة : ٤٣ ـ ٤٤] . ولهذا لمّا[٢] حكم بالرجم قال : « اللهم إني أوّل من أحيى أمرك إذْ أماتوه » ، وسألهم ما حَمَلَهُم على هذا ؟ ولمَ تركوا أمر الله الذي بأيديهم ؟ فقالوا : إن الزنى[٣] قد كثر في أشرافنا ولم يمكنَّا أن نقيمه عليهم ، وكنا نرجم من زنى من ضعفائنا ، فقلنا : تعالوا إلى أمر نصف نفعله مع الشريف والوضيع ، فاصطلحنا على الجلد والتحميم ، فهذا من جملة تحريفهم وتبديلهم وتغييرهم وتأويلهم الباطل . وهذا إنما فعلوه في المعاني مع بقاء لفظ الرجم في كتابهم كما دلّ عليه الحديث المتفق عليه ، فلهذا قال من قال هذا من الناس إنه لم يقع تبديلهم إلا في المعاني ، وإن الألفاظ باقيةٌ وهي حجة عليهم ، إذ لو أقاموا ما في كتابهم جميعه لقادهم ذلك إلى اتباع الحق ومتابعة الرسول محمد ﷺ كما قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ . . الآية وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ۚ ﴾ . . الآية [المائدة : ٦٦] . وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ ﴾ . . . الآية [المائدة : ٦٨] . وهذا المذهب ، وهو القول بأن التبديل إنما وقع في معانيها لا في ألفاظها ، حكاه البخاري عن ابن عباس في آخر كتابه « الصحيح » وقرّر عليه ولم يردَّه . وحكاه العلامة فخر الدين الرازي في « تفسيره » عن أكثر المتكلمين .

[٤]وذهب فقهاء الحنفية إلى أنه لا يجوز للجنب مَسُّ التوراة وهو مُحْدِث . وحكاه الحنّاطي في « فتاويه » عن بعض أصحاب الشافعي ، وهو غريب جداً . وذهب آخرون من العلماء إلى التوسُّط في هذين القولين ، منهم شيخُنا الإمام العلامة أبو العباس بن تَيْمِية ـ رَحِمَه اللهُ ـ فقال : أمّا من ذهب إلى أنها

---

(١) في ب : ابتدعوا .
(٢) ليست في ط .
(٣) ليست في ب .
(٤) زاد في ط عنواناً لهذه الفقرة : ليس للجنب لمس التوراة . وهو مكتوب في حاشية أ ، وليس له ذكر في متنها أو في ب .

كلّها مبدَّلة من أولها إلى آخرها ولم يبق منها حرفٌ إلا بدَّلوه فهذا بعيدٌ ، وكذا من قال لم يبدَّل شيء منها بالكلّية بعيدٌ أيضاً ، والحق أنه دخلها تبديلٌ وتغيير ، وتصرفوا في بعض ألفاظها بالزيادة والنقص ، كما تصرّفوا في معانيها ، وهذا معلوم عند التأمل ، ولبسطه موضع آخر ، والله أعلم ، كما في قوله في قصة الذبيح : اذبح ابنك وحيدك ، وفي نسخة : بكرك إسحاق ، فلفظة إسحاق مُقحَمة مزيدة بلا مرية ، لأن الوحيد وهو البكر إسماعيل ، لأنه وُلِدَ قبل إسحاق بأربع عشرة[١] سنة ، فكيف يكون الوحيد البكر إسحاق . وإنما حَمَلَهم على ذلك حَسَدُ العرب أن يكون إسماعيلُ هو الذبيح[٢] ، فأرادوا أن يذهبوا بهذه الفضيلة لهم ، فزادوا ذلك في كتاب الله افتراءً على الله وعلى رسوله ﷺ وقد اغتر بهذه الزيادة خلقٌ كثير من السلف والخلف ، ووافقوهم على أن الذبيح إسحاق ، والصحيحُ الذبيحُ[٣] إسماعيل كما قدَّمنا ، والله أعلم . وهكذا في توراة السامرة في العشر الكلمات زيادة الأمر بالتوجه إلى الطور في الصلاة ، وليس ذلك في سائر نسخ اليهود والنصارى .

وهكذا يوجد الزبور[٤] المأثور عن داود عليه السلام مختلفاً كثيراً ، وفيه أشياء مزيدة ملحقة فيه[٥] وليست منه ، والله أعلم .

قلت : وأما ما بأيديهم من التوراة المعرَّبة فلا يشكُّ عاقلٌ في تبديلها وتحريف كثير من ألفاظها ، وتغيير القصص والألفاظ والزيادات والنقص البيّن الواضح ، وفيها من الكذب البيِّن والخطأ الفاحش شيءٌ كثيرٌ جداً ، فأما ما يتلونه بلسانهم ويكتبونه بأقلامهم فلا اطّلاع لنا عليه ، والمظنونُ بهم أنهم كَذَبةٌ خَوَنة يكثرون الفِرْية على الله ورسله وكتبه .

وأما النصارى ، فأناجيلهم الأربعة من طريق مرقس ولوقا ومَتّى ويوحنا أشد اختلافاً وأكثر زيادةً ونقصاً ، وأفحش تفاوتاً من التوراة . وقد خالفوا أحكام التوراة والإنجيل في غير ما شيءٍ قد شرَّعوه لأنفسهم ، فمن ذلك صلاتهم إلى الشرق ، وليست منصوصاً عليها ولا مأموراً بها في شيء من الأناجيل الأربعة . وهكذا تصويرهم كنائسهم ، وتركهم الختان ، ونقلهم صيامهم إلى زمن الربيع ، وزيادته إلى خمسين يوماً ، وأكلِهم الخنزير ، ووضعهم الأمانة الكبيرة ، وإنما هي الخيانة الحقيرة ، والرهبانية وهي ترك التزويج لمن أراد التعبُّدَ وتحريمه عليه ، وكتبهم القوانين التي وضعتها لهم الأساقفة الثلاثمئة والثمانية عشر ، فكل هذه الأشياء ابتدعوها ووضعوها في أيام قسطنطين بن قسطن باني القسطنطينية ، وكان زمنه

---

(١) في ط : عشر وهو خطأ .

(٢) في ب : أن يكون أبوهم هو الذبيح .

(٣) في ب : أن الذبيح .

(٤) في ط : في الزبور .

(٥) في ب : مزيدة وليست . . .

بعد المسيح بثلاثمئة سنة ، وكان أبوه أحدَ ملوك الروم ، وتزوّج أمَّه هيلانة في بعض أسفاره للصيد من بلاد حَرَّان ، وكانت نصرانيةً على دين الرهابين المتقدمين ، فلما وُلِدَ لها منه قسطنطين المذكور تعلّم الفلسفة ومهر[١] فيها وصار فيه ميل بعض الشيء إلى النصرانية التي أُمُّه عليها ، فعظَّم القائمين بها بعض الشيء ، وهو على اعتقاد الفلاسفة . فلما مات أبوه واستقلَّ هو في المملكة ، سار في رعيته سيرةً عادلة ، فأحبَّه الناس ، وساد فيهم ، وغلب على ملك الشام بأسره مع الجزيرة ، وعظُم شأنه وكان أول القياصرة .

ثمّ اتفق اختلافٌ في زمانه بين النصارى ومنازعةٌ بين[٢] بترك الإسكندرية أكصندروس وبين رجل من علمائهم يقال له : عبد الله بن أريوس ، فذهب أكصندروس إلى أن عيسى ابن الله ، تعالى الله عن قوله ، وذهب ابن أريوس إلى أن عيسى عبد الله ورسوله ، واتَّبعه على هذا طائفة من النصارى واتفق الأكثرون الأخسرون على قول بتركهم ، ومُنع ابن أريوس من دخول الكنيسة هو وأصحابه ، فذهب يستعدي على أكصندروس وأصحابه إلى الملك قسطنطين ، فسأله الملك عن مقالته ، فَعَرَضَ عليه عبد الله بن أريوس ما يقول في المسيح من أنه عبد الله ورسوله ، واحتج على ذلك فمال[٣] إليه وجنح إلى قوله ، فقال له قائلون : فينبغي أن تبعث إلى خصمه فتسمع كلامه . فأَمَر الملكُ بإحضاره ، وطلب من سائر الأقاليم كلَّ أسقف وكل من عنده علم[٤] في دين النصرانية ، وجمع البتاركة الأربعة من القدس وأنطاكية ورومية والإسكندرية ، فيقال : إنهم اجتمعوا في مدة سنة وشهرين ما يزيد على ألفي أسقف ، فجمعهم في مجلس واحد وهو المجمع الأول من مجامعهم الثلاثة المشهورة وهم مختلفون اختلافاً[٥] متبايناً منتشراً جداً . فمنهم الشرذمة على المقالة التي لا يوافقهم أحد من الباقين عليها فهؤلاء خمسون على مقالة . وهؤلاء ثمانون على مقالة أخرى . وهؤلاء عشرة على مقالة أخرى[٦] وأربعون على أخرى ومئة على مقالة ، ومئتان على مقالة ، وطائفة على مقالة ابن أريوس ، وجماعة على مقالة أخرى . فلما تفاقم أمرهم وانتشر اختلافهم[٧] حار فيهم الملك قسطنطين ، مع أنه سيء الظن بما عدا دين الصابئين من أسلافه اليونانيين ، فعمد إلى أكثر جماعة منهم على مقالة من مقالاتهم فوجدهم ثلاثمئة وثمانية عشر أسقفاً قد اجتمعوا على مقالة أكصندروس ، ولم يجد طائفةً بلغت عِدّتهم ، فقال : هؤلاء أَوْلى بنصرِ قولِهم لأنهم أكثر الفِرَق ، فاجتمع بهم خصوصاً ووضع سيفه وخاتمه إليهم وقال : إني رأيتكم أكثر الفرق قد اجتمعتم على مقالتكم

---

(١) كذا في ب . وفي أ وط : وبهر .
(٢) زاد في ب : وقعت بين .
(٣) في ط : فحال وهو تحريف .
(٤) ليست في ط .
(٥) زاد في ب : كثيراً .
(٦) ليست في ب وط .
(٧) في ب : خلافهم .

هذه فأنا أنصرها وأذهب إليها ، فسجدوا له . وطلب منهم أن يضعوا له كتاباً في الأحكام ، وأن تكون الصلاة إلى الشرق لأنها مطلع الكواكب النيّرة ، وأن يصوروا في كنائسهم صوراً[١] لها جثث ، فصالحوه على أن تكون في الحيطان ، فلما توافقوا على ذلك أخذ في نصرهم ، وإظهار كلمتهم ، وإقامة مقالتهم ، وإبعاد مَن خالفهم ، وتضعيف رأيه وقوله ، فظهر أصحابه بجاهِه على مخالفيهم ، وانتصروا عليهم ، وأمربناء الكنائس على دينهم وهم الملكية نِسبةً إلى دين الملك ، فَبُني في أيام قسطنطين بالشام وغيرها في المدائن والقُرى أزيدَ من اثني[٢] عشر ألف كنيسة ، واعتنى الملك ببناء بيت لحم ، يعني على مكان مولد المسيح ، وبَنَت أُمُّه هَيلانة قُمامةَ بيت المقدس على مكان المصلوب الذي زعمت اليهود والنصارى بجهلهم وقلة علمهم أنه المسيح عليه الصلاة والسلام ، ويقال : إنه قتل من أعداء أولئك وخَدَّ لهم الأخاديد في الأرض ، وأجَّج فيها النار وأحرقهم بها كما ذكرناه في سورة[٣] البروج ، وعظم دين النصرانية وظهر أمره جداً بسبب الملك قسطنطين . وقد أفسده عليهم فساداً لا صلاح[٤] له ولا نجاح معه ولا فلاح عنده . وكثرت أعيادهم بسبب عظمائهم ، وكثرت كنائسهم على أسماء عُبَّادهم . وتفاقم كفرهم ، وغلظت مصيبتهم ، وتخلَّد ضلالهم ، وعظم وَبَالُهم ، ولم يهد الله قلوبَهم ولا أصلح بَالهم ، بل صرف قلوبَهم عن الحق وأحال[٥] عن الاستقامة حالهم[٦] .

ثم اجتمعوا بعد ذلك مَجْمَعَيْن في قضية النسطورية واليعقوبية ، وكل فرقة من هؤلاء تكفّر الأخرى وتعتقد تخليدَهم في نار جهنم ، ولا يرى مجامعتهم في المعابد والكنائس ، وكلهم يقول بالأقانيم الثلاثة : أقنوم الأب ، وأقنوم الابن ، وأقنوم الكلمة . ولكن بينهم اختلاف في الحلول والاتحاد فيما بين اللاهوت والناسوت هل تدرَّعه أو حلَّ فيه أو اتّحد به ، واختلافهم في ذلك شديد ، وكفرهم بسببه غليظ ، وكلهم على الباطل إلا من قال من الأريوسية أصحاب عبد الله بن أريوس إن المسيح عبد الله ورسوله ، وابن أَمَتِه ، وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه . كما يقول المسلمون فيه سواء . ولكن لما استقر أمر الأريوسية على هذه المقالة ، تسلّط عليهم الفرق الثلاثة بالإبعاد والطرد حتى قلّوا فلا يُعرَف اليوم منهم أحد فيما يعلم . والله أعلم .

***

---

(١) في أ : صور وهو خطأ .
(٢) في أ ، وب ، وط : اثنتي ، وهو خطأ .
(٣) في ب : في تفسير سورة .
(٤) في ط : لا إصلاح .
(٥) في ط : وأمال .
(٦) زيادة من ب .

كتاب الجامع لأخبار الأنبياء المتقدمين

قال الله تعالى : ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ الآية [البقرة : ٢٥٣] .

وقال تعالى : ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ١٦٣ ـ ١٦٥] .

وقد روى ابن حِبّان في « صحيحه » ، وابن مَردويه في « تفسيره » ، وغيرهمامن طريق إبراهيم بن هشام ، عن يحيى بن محمد الغساني الشامي ، وقد تكلّموا فيه ، حدثني أبي ، عن جَدّي ، عن أبي إدريس ، عن أبي ذر قال : قلت : يا رسول الله كم الأنبياء ؟ قال : « مئة ألف وأربعة وعشرون ألفاً » قلت : يا رسول الله كم الرسل منهم ؟ قال : « ثلاثمئة وثلاثة عشر ، جم غفير » قلت : يا رسول الله مَن كان أوّلهم ؟ قال : « آدم » . قلت : يا رسول الله نبي مرسل ؟[1] قال : « نَعم خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، ثم سوّاه قبلاً » ثم قال : يا أبا ذر أربعة سريانيون : آدم وشيث ونوح وخنوخ ، وهو إدريس ، وهو أول من خط بالقلم . وأربعة من العرب : هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر . وأول نبي من بني إسرائيل موسى ، وآخرهم عيسى ، وأول النبيين آدم ، وآخرهم نبيك » .

وقد أورد هذا الحديث أبو الفرج بن الجوزي في « الموضوعات »[2] .

وقد رواه ابن أبي حاتم من وجه آخر فقال : حدّثنا محمد بن عوف ، حدّثنا أبو المغيرة ، حدّثنا مُعان بن رفاعة ، عن علي بن يزيد ، عن القاسم ، عن أبي أمامة ، قال : قلت : يا رسول الله كم الأنبياء ؟ قال : « مئة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ، الرسل[3] من ذلك ثلاثمئة وخمسة عشر جماً غفيراً » .

---

(١) رواه ابن حبان رقم (٣٦١) وأحمد في المسند (٥/ ١٧٨ و١٧٩) من حديث أبي ذر ، وأحمد (٥/ ٢٦٦) من حديث أبي أمامة مطولاً ، وهو ضعيف جداً بطوله . ورواه مختصراً ابن حبان (٦١٩٠) والطبراني في (الأوسط) رقم (٤٠٥) وهو صحيح في عدد الرسل ، وكم كان بينه وبين نوح ، وزيادة عدد الأنبياء ، ضعيف ، ولكن له متابعات ، فهو حديث حسن بطرقه .

(٢) وليس كذلك ، وقد رد عليه الحافظ ابن حجر في (تخريج الكشاف) (٤/ ١١٤) .

(٣) ليست في ب .

وهذا أيضاً من هذا الوجه ضعيف ، فيه ثلاثةٌ من الضعفاء : معان[١] ، وشيخه ، وشيخ شيخه[٢] .

وقد قال الحافظ أبو يعلى الموصلي : حدّثنا أحمد بن إسحاق أبو عبد الله الجوهري البصري ، حدّثنا مكي بن إبراهيم ، حدثنا موسى بن عُبيدة الرَّبَذي[٣] ، عن يزيد الرَّقَاشي ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « بعثَ اللهُ ثمانيةَ آلاف نبي ، أربعةُ آلاف إلى بني إسرائيل ، وأربعة آلاف إلى سائر الناس » .

موسى وشيخه[٤] ضعيفان أيضاً .

وقال أبو يعلى أيضاً : حدّثنا أبو الربيع ، حدّثنا محمد بن ثابت العبدي ، حدّثنا معبد بن خالد الأنصاري ، عن يزيد الرقاشي ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « كان فيمن خلا من إخواني من الأنبياء ثمانية آلاف نبي ، ثمّ كان عيسى ، ثمّ كنت أنا » .

يزيد الرقاشي ضعيفٌ .

وقد رواه الحافظ أبو بكر الإسماعيلي ، عن محمد بن عثمان بن أبي شَيبة ، حدّثنا أحمد بن طارق ، حدّثنا مسلم بن خالد ، حدّثنا زياد بن سعد ، عن محمد بن المنكدر ، عن صفوان بن سليم ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « بُعثت على أثر ثمانية آلاف نبي ، منهم أربعة آلاف من بني إسرائيل » .

وهذا إسناد لا بأس به ، لكني لا أعرف حال أحمد بن طارق هذا . والله أعلم .

حديثٌ آخر :

قال عبد الله بن الإمام أحمد : وجدت في كتاب أبي بخطه : حدّثني عبد المتعالي بن عبد الوهاب ، حدّثنا يحيى بن سعيد الأموي ، حدّثنا مجالد ، عن أبي الوداك قال : قال أبو سعيد : هل تقر الخوارج بالدجّال ؟ قال : قلت : لا . فقال : قال رسول الله ﷺ : « إني خاتم ألف نبي أو أكثر ، وما بعث الله نبياً يُتبع إلا وحذّر أمته منه ، وإني قد بُيِّن لي فيه ما لم يُبيَّن لأحد منهم ، وأنه أعور ، وأن ربكم ليس بأعور ،

---

(١) مُعان بن رفاعة الدمشقي ، منكر الحديث ، يروي مراسيل كثيرة ، ويحدّث عن أقوام مجاهيل . المجروحين (٣/ ٣٦) .

(٢) قال ابن حبان هو ضعيف جداً. المجروحين (٢/ ١١٠) في ترجمة علي بن يزيد، ولكن يشهد له الذي قبله فهو حسن.

(٣) في ط : اليزيدي ، وهو تصحيف وتحريف . وموسى بن عُبيدة بن نِسطاس الرَّبذي ، أبو عبد العزيز ، متوفى سنة (١٥٣هـ) . فاضل من خيار العبّاد نسكاً وصلاحاً ، إلا أنه بطل الاحتجاج به . المجروحين (٢/ ٢٣٤) .
والحديث في مسند أبي يعلى (٧/ ١٥٩ ـ ١٦٠) رقم (٤١٣٢) .

(٤) يزيد بن أبان ، أبو عمرو الرقاشي ، من أهل البصرة ، أحد العبّاد البكّائين ، إلا أنه ضعيف ، كما قال ابن كثير . المجروحين (٣/ ٩٨) .

وعينه اليمنى عوراء جاحظة لا تخفى كأنها نخامة في حائط مجصص ، وعينه اليسرى كأنها كوكب درّي . معه من كلّ لسان ، ومعه صورة الجنة خضراء يجري فيها الماء ، وصورة النار سوداء تدخن »[١] .

وهذا حديث غريب .

وقد روي عن جابر بن عبد الله ، فقال الحافظ أبو بكر البزّار : حدّثنا عمرو بن علي ، حدّثنا يحيى بن سعيد ، حدّثنا مجالد ، عن الشعبي ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لخاتم ألف نبي أو أكثر ، وإنه ليس منهم نبي إلا وقد أنذر قومه الدجال ، وإنه قد تبيَّن لي فيه ما لم يتبيَّن لأحدٍ منهم ، وإنه أعور ، وإن ربكم ليس بأعور »[٢] .

وهذا إسناد حسنٌ[٣] ، وهو محمول على ذكر عدد من أنذر قومه الدجال من الأنبياء . لكن في الحديث الآخر « ما من نبي إلا وقد أنذر أمته الدجال » فالله أعلم .

وقال البخاري : حدّثنا محمد بن بشّار ، حدّثنا محمد بن جعفر ، حدّثنا شُعبة ، عن فُرات ، قال : سمعت أبا حازمٍ قال : قاعدْتُ أبا هريرة خمسَ سنين فسمعتُه يحدّث عن النبي ﷺ قال : « كانت بنو إسرائيل تَسُوسُهم الأنبياء ، كلما هلك نبي خلفه نبي ، وإنه لا نبي بعدي ، وسيكون خُلَفاء فيَكْثُرون » . قالوا : فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : « فُوا ببيعةِ الأوّل فالأول ، أعطوهم حقَّهم ، فإن الله سائلُهم عما استرعاهم »[٤] .

وكذا رواه مسلم[٥] عن بُندار ، ومن وجهٍ آخر عن فُرات ، به ، نحوه .

وقال البخاري[٦] : حدّثنا عمر بن حفص ، حدّثنا أبي ، حدّثني الأعمش ، حدّثني شَقيق قال : قال عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء ضَربه قومُه فأدمَوه وهو يمسحُ الدمَ عن وجهه ويقول : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون .

ورواه[٧] مسلم[٨] من حديث الأعمش ، به نحوه .

---

(١) مسند أحمد (٣/ ٧٩) . بخلاف يسير في لفظه ومجالد هو ابن سعيد ، وهو ضعيف .
(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٣٤٧) .
(٣) هكذا قال وفيه مجالد بن سعيد وهو ضعيف .
(٤) البخاري رقم (٣٤٥٥) ، في الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل .
(٥) صحيح مسلم رقم (١٨٤٢) في الإمارة ، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول .
(٦) صحيح البخاري رقم (٣٤٧٧) ، في الأنبياء ، باب (٥٤) .
(٧) في ط . رواه .
(٨) صحيح مسلم رقم (١٧٩٢) ، في الجهاد والسير ، باب غزوة أحد .

وقال الإمام أحمد[١] : حدّثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن زيد بن أسلم ، عن رجل ، عن أبي سعيد الخدري قال : وضع رجلٌ يده اليمنى[٢] على النبي ﷺ فقال : والله ما أُطيق أن أضع يدي عليكَ من شدة حُمّاك . فقال النبي ﷺ : « إنا معشرَ الأنبياء يُضاعَفُ لنا البلاءُ كما يُضاعف لنا الأجر ، إن كان النبيُّ من الأنبياء ليُبتلَى بالقمل حتى يقتله ، وإن كان النبي من الأنبياء ليبتلى بالفقر حتى يأخذ العبَاءة فيجوّبها ، وإن كانوا ليفرحون بالبلاء كما يفرحون بالرخاء » . هكذا رواه الإمام أحمد من طريق زيد بن أسلم عن رجل عن أبي سعيد .

وقد رواه ابن ماجه[٣] عن دُحَيم عن ابن أبي فُدَيك ، عن هشام بن سعد ، عن زيد بن أسْلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي سعيد ، فذكره .

وقال الإمام أحمد[٤] : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، عن[٥] عاصم بن أبي النجود ، عن مصعب بن سعد ، عن أبيه قال : قلت : يا رسول الله أيُّ الناس أشد بلاءً ؟ قال : « الأنبياء . ثم الصالحون . ثم الأمثل فالأمثل من الناس ، يُبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صَلابةٌ ، زِيْدَ في بلائه ، وإن كان في دينه رقَّة خُفِّف عليه ولا يزال[٦] البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وما عليه خطيئة » .

ورواه الترمذي[٧] والنسائي[٨] ، وابن ماجه[٩] من حديث عاصم بن أبي النجود[١٠] . وقال الترمذي : حسن صحيح .

وتقدم[١١] في الحديث : « نحن معشر الأنبياء أولادُ عَلَّات ديننا واحد وأمهاتنا شتى » . والمعنى أن شرائعهم وإن اختلفت في الفروع ونَسخَ بعضُها بعضاً حتى انتهى الجميع إلى ما شرع الله لمحمد ﷺ وعليهم أجمعين ، إلا أن كل نبي بعثه الله ، فإنما دينه الإسلام وهو التوحيد أن يعبد الله وحده لا شريك له كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

---

(١) المسند (٣/ ٩٤) في سنده جهالة الرجل ولكن يشهد له ما بعده .
(٢) ليست في ب ، ولا في المسند .
(٣) سنن ابن ماجه رقم (٤٠٢٤) ، في الفتن ، باب الصبر على البلاء ، وهو حديث صحيح .
(٤) المسند (١/ ١٧٢) .
(٥) في ط : بن ، وهو خطأ .
(٦) في ب : ما يزال ، وكذلك في المسند .
(٧) سنن الترمذي رقم (٢٣٩٨) في الزهد ، باب ما جاء في الصبر على البلاء ، وهو حديث صحيح .
(٨) في الطب من سننه الكبرى (٧٤٨١) .
(٩) سنن ابن ماجه رقم (٤٠٢٣) ، في الفتن ، باب الصبر على البلاء ، وهو حديث صحيح .
(١٠) زاد في ب : به .
(١١) تقدم ص (٢٩٩) .

وقال تعالى : ﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٤٥] . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ الآية [النحل : ٣٦] .

فأولاد العَلاَّت أن يكون الأب واحداً ، والأمهات متفرِّقات ، فالأب بمنزلة الدين وهو التوحيد ، والأمهات بمنزلة الشرائع في اختلاف أحكامها كما قال تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة : ٤٨] . وقال : ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ [الحج : ٦٧] . وقال : ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ [البقرة : ١٤٨] . على أحد القولين في تفسيرها[١] .

والمقصود أن الشرائع وإن تنوعت في أوقاتها ، إلا أنَّ الجميع آمرةٌ بعبادة الله وحدَه لا شريك له ، وهو دين الإسلام الذي شرعه الله لجميع الأنبياء ، وهو الدين الذي لا يقبل الله غيرَه يوم القيامة كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٨٥] . وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٠ ـ ١٣٢] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾ الآية [المائدة : ٤٤] . فدين الإسلام هو عبادة الله وحدَه لا شريك له ، وهو الإخلاص له وحده دون ما سواه ، والإحسان أن يكون على الوجه المشروع في ذلك الوقت المأمور به ، ولهذا لا يقبلُ اللهُ من أحد عملاً بعد أن بَعث محمداً ﷺ إلا[٢] على ما شرعه له كما قال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] . وقال تعالى : ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام : ١٩] . وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾ [هود : ١٧] . وقال رسول الله ﷺ : « بُعِثْتُ إلى الأحمرِ والأسود » . قيل أراد العرب والعجم . وقيل الإنس والجن[٣] . وقال ﷺ : « والذي نفسي بيده لو أصبحَ فيكم موسى ثمّ اتَّبعتُمُوهُ وتركتُموني لضللتم »[٤] والأحاديث في هذا كثيرة جداً .

والمقصود أن « إخوة العلات » أن يكونوا من أبٍ واحد وأمهاتهم شتّى ، مأخوذٌ من شُرب العَلَل بعد النَّهَل . وأما إخوة الأخياف فعكس هذا أن تكون أمهم واحدة من آباء شتى . وإخوة الأعيان فهم الأشقاء من أب واحد وأم واحدة . والله سبحانه وتعالى أعلم .

---

(١) تفسير المؤلف (١/ ١٩٤) .
(٢) سقطت من ب وط .
(٣) النهاية في غريب الحديث (١/ ٤٣٧) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٤٧١) من طريق عبد الله بن ثابت .

وفي الحديث الآخر : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركنا فهو صدقة »[١] وهذا من خصائص الأنبياء أنهم لا يورثون ، وما ذاك إلا لأن الدنيا أحقرُ عندهم من أن تكون مخلَّفة عنهم ، ولأن توكُّلهم على الله عز وجل في ذراريهم أعظم[٢] وأشد وآكد من أن يحتاجوا معه إلى أن يتركوا لورثتهم من بعدهم ما لا يستأثرون به عن الناس ، بل يكون جميع ما تركوه صدقةً لفقراء الناس ومحاويجهم وذوي خلَّتهم . وسنذكر جميع ما يختص بالأنبياء عليهم السلام مع خصائص نبينا ﷺ وعليهم أجمعين في أول كتاب النكاح من كتاب الأحكام الكبير حيث ذكره الأئمةُ من المصنِّفين اقتداءً بالإمام أبي عبد الله الشافعي رحمة الله عليه وعليهم أجمعين .

وقال الإمام أحمد[٣] : حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن زيد بن وهب ، عن عبد الرحمن ابن[٤] عبد ربِّ الكعبة قال : انتهيت إلى عبد الله بن عمرو وهو جالس في ظلّ الكعبة ، فسمعته يقول : بينا نحن مع رسول الله ﷺ في سفر إذ نزل منزلاً فَمِنا من يَضْرب خباءه ، ومنّا مَن هو في جَشْرة[٥] ، ومنّا من ينتضلُ ، إذ نادى مناديه : الصلاة جامعةً ، قال : فاجتمعنا . قال : فقام رسول الله ﷺ فخطبنا فقال : « إنه لم يكن نبي قبلي إلّا دلّ أمته على خير ما يعلمه لهم ، وحذَّرهم ما يعلمه شراً لهم ، وإن أمتكم هذه جعلت عافيتها في أولها ، وإن آخرها سيصيبها بلاءٌ شديد وأمور ينكرونها ، تجيء فتن يرقق[٦] بعضها بعضاً ، تجيء الفتنة فيقول المؤمن : هذه مهلكتي . ثمّ تنكشف . ثم تجيء الفتنة فيقول المؤمن : هذه . ثم تنكشف . فمن سرَّه منكم أن يُزَحْزَح عن النار وأن يدخل الجنة فلتدركه منيَّتُه[٧] وهو مؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه ، ومن بايع إماماً فأعطاه صفقةَ يدِه وثمرةَ قلبه فليطعه ما استطاع ، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عُنق الآخر » . قال فأدخلت رأسي من بين الناس فقلت : أُنشدك بالله أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال : فأشار بيده إلى أذنيه وقال : سمعتْه أذناي ووعاه قلبي . قال : فقلت : هذا ابن عمك ـ يعني معاوية ـ يأمرنا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل وأن نقتل أنفسنا ، وقد قال الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ ﴾ [النساء : ٢٩] قال : فجمع يديه فوضعهما على جبهته ثمّ نكس هُنيهة ، ثمّ رفع رأسه فقال : أطِعْه في طاعة الله ، واعصه في معصية الله .

---

(١) تقدم تخريجه .
(٢) زيادة من ب وط .
(٣) المسند (٢/ ١٦١) .
(٤) في ط : أن ، وهو خطأ .
(٥) الجَشْرة : قوم يخرجون بدوابهم إلى المرعى ويبيتون مكانهم ، ولا يأوون إلى البيوت . النهاية في غريب الحديث (١/ ٢٧٣) . والمناضلة : المراماة بالنشاب .
(٦) كذا في ب ، والمسند . وفي أ وط : يريق .
(٧) في ب وط : موتته . وأشار في حاشية أ إلى هذه الرواية .

ورواه أحمد أيضاً عن وكيع ، عن الأعمش ، به . وقال فيه : « أيها الناس إنه لم يكن نبي قبلي إلاّ كان حقاً عليه أن يدل أمته على ما يعلمه خيراً لهم وينذرهم ما يعلمه شراً لهم » وذكر تمامه بنحوه[١] .

وهكذا رواه مسلم[٢] ، وأبو داود[٣] ، والنسائي[٤] ، وابن ماجه[٥] من طُرقٍ عن الأعمش ، به .

ورواه مسْلم أيضاً من حديث الشعبي[٦] عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة ، عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ بنحوه[٧] .

***

---

(١) المسند (٢/ ١٩١) .

(٢) صحيح مسلم رقم (١٨٤٤) (٤٦) ، في الإمارة ، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء .

(٣) سنن أبي داود رقم (٤٢٤٨) ، في الفتن ، باب ذكر الفتن ودلائلها .

(٤) سنن النسائي (٧/ ١٥٣) .

(٥) سنن ابن ماجه رقم (٣٩٥٦) ، في الفتن ، باب ما يكون من الفتن .

(٦) صحيح مسلم (١٨٤٤) (٤٧) .

(٧) هذا آخر الجزء الثامن من تصنيف ابن كثير رحمه الله . وجاء في نسخة أ : آخر الجزء الثامن من خط المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب أخبار العرب . وكان الفراغ من تتمة هذا المجلد في سابع عشر شوال سنة (. . ؟؟ . .) من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام بدمشق المحروسة على يد أفقر عباد الله وأحوجهم إلى رحمته وعفوه وغفرانه ولطفه وكرمه إسماعيل الدرعي الشافعي الأنصاري غفر الله تعالى له وختم له بخير ، ولأحبابه ولإخوانه ولمشايخه ، ولجميع المسلمين والصلاة والسلام على محمد خير خلقه وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .

ذكر أخبار العرب

[١]قيل : إن جميع العرب ينتسبون إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام والتحية والإكرام . والصحيح المشهور أن العرب العارِبة قبل إسماعيل ، وقد قدّمنا أن العرب العاربة منهم عاد وثمود وطَسَم وجَديس وأميم وجرهم والعماليق وأمم آخرون لا يعلمهم إلا الله ، كانوا قبل الخليل عليه الصلاة والسلام ، وفي زمنه أيضاً . فأما العرب المستعربة ، وهم عرب الحجاز ، فمن ذرّية إسماعيل بن إبراهيم[٢] عليهما السلام . وأما عرب اليمن ، وهم حِمْيَر ، فالمشهور أنهم من قحطان ، واسمه مهزم ، قاله ابن ماكولا[٣] ، وذكروا أنهم كانوا أربعة إخوة : قحطان ، وقاحط ، ومقحط ، وفالغ[٤] . وقحطان بن هود[٥] . وقيل : هو هُود . وقيل : هود[٦] أخوه . وقيل : من ذريته . وقيل : إن قحطان من سُلالة إسماعيل ، حكاه ابن إسحاق[٧] وغيره . فقال بعضهم : هو قحطان بن [الهميسع بن تيمن بن قيذر بن نبت][٨] بن إسماعيل . وقيل غير ذلك في نسبه إلى إسماعيل . والله أعلم .

[وقد ترجم البخاري في « صحيحه » على ذلك فقال : (باب نسبة اليمن إلى إسماعيل عليه السلام)][٩] حدّثنا مُسَدَّد ، حدّثنا يحيى ، عن يزيد بن أبي عبيد ، حدّثنا سَلَمة رضي الله عنه قال : خَرَج رسول الله ﷺ على قوم من أسلم يتناضَلُون بالسوق[١٠] فقال : « ارموا بني إسماعيل وأنا مع بني فلان » ـ لأحد الفريقين ـ فأمسكوا بأيديهم ، فقال : « مالكم »[١١] قالوا : وكيف نرمي وأنت مع بني فلان . فقال : « ارموا وأنا معكم كلّكم » .

انفرد به البخاري[١٢] . وفي بعض ألفاظه : « ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً ، ارموا وأنا مع ابن الأدرع » . فأمسك القوم فقال : « ارموا وأنا معكم كلكم » .

---

(١) في ب : كتاب أخبار العرب .
(٢) سقطت من ب .
(٣) ونقله أيضاً السهيلي في الروض الأنف (١/ ١٩) .
(٤) زاد في ب : ويقال .
(٥) انظر نسب قحطان في : نسب معد (١/ ١٣١) ، وجمهرة النسب لابن حزم (٧ ـ ٨) .
(٦) ليست في ب .
(٧) السيرة (١/ ٥) .
(٨) سقطت من ط .
(٩) سقط من ب بنقلة عين .
(١٠) كذا في البخاري ، وب ، وفي أ وط : بالسيوف .
(١١) في البخاري ، وب : مالهم .
(١٢) صحيح البخاري رقم (٣٥٠٧) ، في المناقب .

قال البخاري : وأسلم بن أفصى بن حارثة بن عمرو بن عامر من خزاعة ، يعني وخزاعة فرقة ممن كان تمزق من قبائل سبأ حين أرسل الله عليهم سيل العرم ، كما سيأتي بيانه ، وكانت الأوس والخزرج منهم ، وقد قال لهم عليه الصلاة والسلام : « ارموا بني إسماعيل »[١] فدلّ على أنهم من سلالته ، وتأوله آخرون على أن المراد بذلك جنس العرب ، لكنه تأويل بعيد ، إذ هو خلاف الظاهر بلا دليل . لكن الجمهور على أن العرب القحطانية من عرب اليمن وغيرهم ليسوا من سلالة إسماعيل ، وعندهم أن جميع العرب ينقسمون إلى قسمين : قحطانية وعدنانية ، فالقحطانية شعبان : سبأ وحضرموت ، والعدنانية شعبان أيضاً : ربيعة ومضر ابنا نزار بن معد بن عدنان ، والشعب الخامس وهم قضاعة[٢] مختلف فيهم ، فقيل : إنهم عدنانيون . قال ابن عبد البر : وعليه الأكثرون ، ويروى هذا عن ابن عباس وابن عُمر وجبير بن مطعم ، وهو اختيار الزبير بن بكار ، وعمه مصعب الزبيري ، وابن هشام . وقد ورد في حديث قضاعة بن معدّ ، ولكنه لا يصح . قاله ابن عبد البر وغيره[٣] . ويقال : إنهم لن يزالوا في جاهليتهم وصدر من الإسلام ينتسبون إلى عدنان ، فلما كان في زمن خالد بن يزيد بن[٤] معاوية ، وكانوا أخواله ، انتسبوا إلى قحطان ، فقال في ذلك أعشى بني[٥] ثعلبة في قصيدة له : [من البسيط]

أبلغْ قضاعةَ في القِرطاس أنهمُ   لـولا خـلائـفُ آلِ الله مـا عُتقـوا

قالت قضاعةُ : إنا من ذوي يمنٍ   واللهُ يعلـم مـا بـرّوا ومـا صَـدقـوا

قِـد ادّعـوا والـداً مـا نـالَ أمّهـمُ   قـد يعلمـون ولكـنْ ذلـكَ الفَـرَق

وقد ذكر أبو عمرو السهيلي[٦] أيضاً من شعر العرب ما فيه إقذاع في تغيير[٧] قضاعة في انتسابهم إلى اليمن ، والله أعلم .

---

(١) أورده ابن حجر في شرح الحديث السابق .

(٢) نسب معد (٢/ ٥٥١) ، وجمهرة النسب لابن حزم (٨) . والإنباه على قبائل الرواه ، لابن عبد البر (٣١) .

(٣) ليست في ب .

(٤) قوله : يزيد بن . زيادة من ب وط . وخالد هذا أحد العلماء الحكماء ، اشتغل بالطب والكيمياء والنجوم . واختلفوا في سنة وفاته . فقيل سنة (٨٥هـ) وقيل (٩٠هـ) . وفيات الأعيان (٢/ ٢٢٤) ، والأعلام (٢/ ٣٠٠) .

(٥) في أ وط : بن . وهو ميمون بن قيس ، الشاعر الجاهلي المشهور . من قبيلة قيس بن ثعلبة ، يقال له : أعشى قيس ، وأعشى بني ثعلبة ، والأعشى الكبير .
والأبيات القادمة ليست في ديوانه المطبوع بتحقيق الدكتور محمد محمد حسين .

(٦) الروض الأنف (١/ ٢٣ ـ ٢٤) .

(٧) كذا في ب ، وهو الصواب يؤيده ما جاء في الروض من أشعار . وفي أ : إبداع . وفي ط : إبداع في تفسير .

والقول الثاني : أنهم من قحطـان ، وهو قول ابن إسحاق[١] ، والكلبي[٢] ، وطائفة من أهل النسب.

قال ابن إسحاق : وهو قضاعة بن مالك بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وقد قال بعض شعرائهم ، وهو عمرو بن مرة ، صحابي[٣] له حديثان : [من الرجز]

يـا أيُّهـا الـداعـي ادْعُنـا وأَبشـرِ ... وكـــنْ قُضـــاعيـــاً ولا تُنَـــزِّرِ

نحنُ بنو الشيخ الهجانِ الأزهر ... قضـاعـةَ بـنِ مـالـكِ بـنِ حِمْيَـرِ

النسب المعروف غير المنكر[٤]

قال بعض أهل النسب : هو قضاعة بن مالك بن عمر بن مرَّة بن زيد بن حمير . وقال ابن لَهِيْعَة ، عن معروف بن سويد ، عن أبي عشابة محمد بن موسى[٥] ، عن عقبة بن عامر قال : قلت يا رسول الله أما نحن من معد ؟ قال : « لا » . قلت : فمن نحن ؟ قال : « أنتم قضاعة بن مالك بن حِمير » .

قال أبو عمر بن عبد البر : ولا يختلفون أن جُهينة بن زيد بن أسود بن أسلم بن عمران بن الحاف بن قضاعة قبيلة عقبة بن عامر الجُهني[٦] . فعلى هذا قضاعة في اليمن في حمير بن سبأ ، وقد جمع بعضهم بين هذين القولين بما ذكره الزبير بن بكار وغيره من أن قضاعة امرأة من جرهم تزوجها مالك بن حِمير فولدت له قضاعة ، ثم خلف عليها معد بن عدنان وابنها صغير ، وزعم بعضهم أنه كان حملا فنسب إلى زوج أمه كما كانت عادة كثير منهم ينسبون الرجل إلى زوج أمه . والله أعلم .

وقال محمد بن سَلاَّم البصري النسابة : العرب ثلاثة جراثيم : العدنانية ، والقحطانية ، وقضاعة . قيل له : فأيهما أكثر ، العدنانية أو القحطانية ؟ فقال : ما شاءت قضاعة إن تيامنت فالقحطانية أكثر ، وإن تعددت[٧] فالعدنانية أكثر ، وهذا يدل على أنهم يتلوَّمون في نسبهم ، فإن صحّ حديثُ ابن لهيعة

---

(١) السيرة (١/ ١٠) .
(٢) نسب معد (٢/ ٥٥١) .
(٣) ترجمته في الإصابة (٣/ ١٥) ، رقم (٥٩٦١) . وأورد له البيتين الثالث والرابع (نحن بنو الشيخ . .) والخبر أورده السهيلي في الروض الأنف (١/ ٢٣) ، وأورد الأبيات الأربعة الأولى ، ونقل عن الزبير قوله : الشعر لأفلح بن اليعبوب . تهذيب السيرة لابن هشام (١/ ١١) .
(٤) زاد في ط بيتاً سادساً ، وهو : في الحجر المنقوش تحت المنبر ، وهو في السيرة : (١/ ١١) .
(٥) كذا في أ وط . وفي ب : عن أبي عُشَّانة حَي بن يُوْمن ، ولعله الأشبه بالصواب . فلم أقف على ترجمة لأبي عشابة . وحي بن يومن ، من رجال الطبقة الثالثة ، توفي سنة (١١٨هـ) . تقريب التهذيب (١/ ٢٠٨) .
والخبر أورده السهيلي في الروض (١/ ٢٣) دون سنده .
(٦) الإنباه على قبائل الرواه (٣٢) .
(٧) كذا في ب . وهو الصواب . وفي أ وط : تعددنت .

المقدَّم[١] فهو دليل على أنهم من القحطانية والله أعلم .

وقد قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] . قال علماء النسب : يقال : شعوب ، ثمّ قبائل ، ثمّ عمائر ، ثمّ بطون ، ثمّ أفخاذ ، ثمّ فصائل ، ثمّ عشائر ، والعشيرة[٢] أقرب الناس إلى الرجل[٣] وليس بعدها شيء .

ولنبدأ أولاً بذكر القحطانية ، ثم نذكر بعدهم عرب الحجاز وهم العدنانية وما كان من أمر الجاهلية ليكون ذلك متّصلاً بسيرة رسول الله ﷺ إن شاء الله تعالى وبه الثقة .

وقد قال البخاري : (باب ذكر قحطان)[٤] حدّثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدّثنا سليمان بن بلال ، عن ثور بن زيد ، عن أبي الغَيْث[٥] ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « لا تقومُ الساعةُ حتّى يخرجَ رجلٌ من قحطان يَسوقُ الناس بعصاه » .

وكذا رواه مسلم ، عن قتيبة ، عن الدَّرَاوَرْدِي ، عن ثور بن زيد ، به[٦] .

قال السهيلي[٧] : وقحطان أول من قيل له : أبيت اللعن ، وأول من قيل له : أنعم صباحاً .

وقال الإمام أحمد[٨] : حدّثنا أبو المغيرة ، عن حَريز[٩] حدّثني راشد بن سعد المَقْرَائي[١٠] ، عن أبي حَيٍّ[١١] ، عن ذي مِخْبَر[١٢] ، أن رسول الله ﷺ قال : « كان هذا الأمر في حمير ، فنزعه الله منهم

---

(١) في ب : المتقدم .

(٢) في ط : فالعشيرة .

(٣) سبائك الذهب (ص٧) .

(٤) صحيح البخاري (٦/ ٥٤٥) ، رقم (٣٥١٧) ، في المناقب .

(٥) في ط . المغيث . وهو خطأ .

(٦) صحيح مسلم رقم (٢٩١٠) ، في الفتن ، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء .

(٧) الروض الأنف (١/ ١٩) .

(٨) المسند (٤/ ٩١) .

(٩) في ط : جرير ، وهو تصحيف . وحريز هو ابن عثمان الرَّحَبي الحمصي ، توفي سنة ثلاث وستين ومئة . تقريب التهذيب (١/ ١٥٩) .

(١٠) المقرائي ، فتح الميم وسكون القاف . كذا ضبطه ابن حجر في تقريب التهذيب (١/ ٢٤٠) . وضبطت بضم الميم ، ضبط قلم في ب . وكذلك بضمها في (اللباب) ، وقال : نسبة إلى قرية بالشام . أقول : ومُقرى كَحُبلى : قرية على مرحلة من صنعاء .

(١١) هو شداد بن حي . تقريب التهذيب (١/ ٣٤٧) .

(١٢) كذا في ب ، ومسند أحمد : مخمر . وفي أ وط : فجر . قال في التقريب :
ذو مِخْبَر ، بكسر أوله وسكون المعجمة وفتح الموحدة ، وقيل : بدلها ميم ، الحبشي ، صحابي ، نزل الشام ، =

فجعله في قريش » . (وس ي ع ودال ي ه م) . قال عبد الله كان هذا[١] في كتاب أبي [مقطع][٢] وحيث حدّثنا به تكلم به على الاستواء ، يعني : « وسيعود إليهم » .

* * *

= وهو ابن أخي النجاشي (١/ ٢٣٩) .

(١) في ب : هكذا كان في . . وفي المسند : وكذا كان في .

(٢) زيادة من المسند .

قِصّة سَبأ

قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [سبأ : ١٥ ـ ١٩] .

قال علماء النسب ، منهم محمد بن إسحاق[١] : اسم سبأ عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان . قالوا : وكان أول من سبى في[٢] العرب فسُمّي سبأ لذلك[٣] ، وكان يقال [له : الرائش لأنه كان يُعطي الناس الأموالَ من متاعه . قال السهيلي : ويقال][٤] إنه أول من تَتَوَّج[٥] . وذكر بعضهم أنه كان مسلماً ، وكان له شعر بشَّرَ فيه بقدوم[٦] رسول الله ﷺ ، فمن ذلك قوله[٧] : [من الوافر]

سَيَملِكُ بعدَنا مُلْكاً عظيماً ... نبيٌّ لا يرخِّص في الحرامِ
ويملِك بعدَه مِنهم ملوكٌ ... يدينون العبادَ بغيرِ ذام
ويملِك بعدَهم منا ملوكٌ ... يَصِيْر الملكُ فينا باقتسام
ويملك بعدَ قحطانٍ نبيٌّ ... تقيّ جَبينِه خيرُ الأنام
يُسمى أحمداً يا ليتَ أني ... أُعمّر بعدَ مبعثِه بعام
فأعضدُه وأحبُوه بنصري ... بكلّ مدجّج وبكلّ رام
متى يظهرْ فكونوا نَاصِرِيه ... ومَنْ يلقاهُ يُبلغْه سلامي

(١) السيرة (١/ ١٠) .
(٢) في ط : من .
(٣) مروج الذهب (٢/ ٧١) ، والبدء والتاريخ (٣/ ١٣١) . ونهاية الأرب للنويري (١٥/ ٢٩١) . وقال السهيلي في الروض (١/ ١٩) : ولست من هذا الاشتقاق على يقين ، لأن سبأ مهموز ، والسبي غير مهموز .
(٤) سقطت العبارة من ب بنقلة عين . والذي في نهاية الأرب للنويري (١٥/ ٢٩٢) : أن الذي لقب بالرائش هو الحارث بن شداد .
(٥) الروض الأنف (١/ ١٩) .
(٦) كذا في ب ، وهو اللفظ الأنسب . وفي أ وط : بوجود .
(٧) أورد النويري في نهاية الأرب (١٥/ ٢٩٢) بيتين .
وواضح أن هذه الأبيات مصنوعة منحولة ، وقد تكررت فيها الضرائر الشعرية .

حكاه ابن دحية[١] في كتابه « التنوير في مولد البشير النذير » .

وقال الإمام أحمد : حدّثنا أبو عبد الرحمن ، حدّثنا ابن لَهِيْعة ، عن عبد الله بن هُبيرة عن عبد الرحمن[٢] بن وعلة ، سمعت عبد الله بن عباس يقول : إن رجلاً سأل النبي ﷺ عن سبأ : ما هو أرجل أم امرأة أم أرض ؟ قال : « بل هو رجل ولد[٣] عشرة ، فسكن اليمن منهم ستة ، وبالشام منهم أربعة . فأما اليمانيون فمذحج وكندة والأزد والأشعريون وأنمار وحمير . وأما الشامية فلخم وجذام وعاملة وغسان »[٤] . وقد ذكرنا في « التفسير »[٥] أن فروة بن مُسَيك الغطيفي هو السائل عن ذلك ، كما استقصينا طرق هذا الحديث وألفاظه هناك . ولله الحمد .

والمقصود أن سبأ يجمع هذه القبائل كلّها وقد كان فيهم التبابعة[٦] بأرض اليمن ، واحدهم تُبَّع . وكان لملوكهم تيجان يلبَسُونها وقت الحكم ، كما كانت الأكاسرة ملوك الفرس يفعلون ذلك ، وكانت العرب تسمي كلّ من ملك اليمن مع[٧] الشحر وحضرموت تُبَّعاً ، كما يسمون من ملك الشام مع الجزيرة قيصر ، ومن ملك الفرس كسرى ، ومن ملك مصر كافراً[٨] فرعون ، ومن ملك الحبشة النجاشي ، ومن ملك الهند بَطْلَيْمُوس . وقد كان من جملة ملوك حمير بأرض اليمن بلقيس . وقد قدَّمْنا قصتها مع سليمان عليه السلام ، وقد كانوا في غبطة عظيمة وأرزاق دارَّة وثمار وزروع كثيرة ، وكانوا مع ذلك على الاستقامة والسداد وطريق الرشاد ، فلما بدَّلوا نعمة الله كفراً أحلُّوا قومهم دار البوار .

قال محمد بن إسحاق ، عن وهب بن منبه : أرسل الله إليهم ثلاثة عشر نبياً[٩] . وزعم السُّدِّي أنه أرسل إليهم اثني عشر ألف نبي . فالله أعلم .

والمقصود أنهم لما عدلوا عن الهدى إلى الضلال ، وسجدوا للشمس من دون الله ، وكان ذلك في زمان بلقيس وقبلها أيضاً ، واستمر ذلك فيهم حتى أرسل الله عليهم سيل العرم كما قال تعالى : ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾ [سبأ : ١٦ ـ ١٧] .

---

(١) هو عمر بن الحسن بن علي ، ابن دحية الكلبي ، أديب مؤرخ مغربي ، أقام بمصر وتوفي فيها سنة (٦٣٣هـ) . الأعلام (٥/ ٤٤) ومصادر ترجمته ثمة .

(٢) قوله : ابن هبيرة عن عبد الرحمن ، زيادة من ب ومسند أحمد .

(٣) زاد في ب : له .

(٤) مسند أحمد (١/ ٣١٦) .

(٥) تفسير المؤلف (٣/ ٥٣١) ، وكذلك ذكره الطبري في تفسيره (٢٢/ ٥٣) .

(٦) زاد في ب : وهم ملوك حمير .

(٧) اليمن مع سقطت من ب .

(٨) سقطت من ط .

(٩) وأورده الطبري في تفسيره (٢٢/ ٥٤) .

ذكر غير واحد من علماء السلف والخلف من المفسرين[١] وغيرهم أن سدَّ مأرب كان صنعته أن المياه تجري من بين جبلين ، فعمدوا في قديم الزمان فسدّوا ما بينهما ببناء محكم جداً حتى ارتفع الماء فحكم على أعالي الجبلين ، وغرسوا فيهما البساتين والأشجار المثمرة الأنيقة ، وزرعوا الزروع الكثيرة . ويقال : كان أول من بناه سبأ بن يعرب ، وسلّط إليه سبعين وادياً يفد إليه ، وجعل له ثلاثين فرضة يخرج منها الماء ، ومات ولم يكمل بناؤه ، فكمَّلته حمير بعده ، وكان اتِّساعه فرسخاً في فرسخ ، وكانوا في غبطة عظيمة وعيش رغيد وأيام طيبة ، حتى ذكر قتادة وغيره أن المرأة كانت تمر بالمكتل على رأسها فتمتلىء من الثمار ما[٢] يتساقط فيه مَن نضجه وكثرته ، وذكروا أنه لم يكن في بلادهم شيء من البراغيث ولا الدواب المؤذية لصحّة هوائهم ، وطيب فنائهم ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ [سبأ : ١٥] . وكما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧] . فلما عبدوا غيرَ الله وبطروا نعمته وسألوا بعد تقارب ما بين قراهم وطيب ما بينهـا من البساتين وأمْن الطرقات سألوا أن يباعد بين أسفارهم ، وأن يكون سفرهم في مشاقٍّ وتعب ، وطلبوا أن يبدِّلوا بالخير شراً[٣] ، كما سأل بنو إسرائيل بدل المن والسـلوى البقول والقِثّاء والفوم والعدس والبصـل ، فسلبوا تلك النعمة العظيمة والحسنة العميمة بتخريب البلاد والشتات على وجوه العباد كما قال تعالى : ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ .

قال غير واحد[٤] : أرسل الله على أصل السدِّ الفار ، وهو الجرذ ، ويقال الخُلْد ، فلما فطِنوا لذلك أرصدوا عندهم السنانير فلم تغن شيئاً إذ قد حُمَّ القدر ولم ينفع الحذر ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴾ [القيامة : ١١] فلما تحكَّم في أصله الفساد سقط وانهار ، فسلك الماء القرار وتقطعت[٥] تلك الجداول والأنهار ، وانقطعت تلك الثمار ومادت[٦] تلك الزروع والأشجار ، وتبدَّلوا بعدها برديء الأشجار والأثمار كما قال العزيز الجبّار ﴿ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ ﴾ [قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : هو الأراك ، وثمره البرير ، وأثل][٧] : وهو الطرفاء[٨] . وقيل : يشبهه وهو حطب لا ثمر له : ﴿ وَشَيْءٍ مِّن

(١) تفسير الطبري (٢٢/ ٥٥) .
(٢) في ب : بما .
(٣) في ب : الشر . وفي أ : كما سألوا بنو . . وهي لغة رديئة .
(٤) تفسير الطبري (٢٢/ ٥٦) .
(٥) في ط : فقطعت .
(٦) في ب : وبادت .
(٧) سقطت العبارة من ب بنقلة عين . وقد أورد الطبري في تفسيره (٢٢/ ٥٦) مجمل الآراء في تفسير الآية .
(٨) المصدر السابق ، عن ابن عباس وقتادة .

سِدۡرٖ قَلِيلٖ ﴾ وذلك لأنه لما كان يثمر النَّبق كان قليلاً مع أنه ذو شوك كثير وثمره بالنسبة إليه كما يقال في المثل : لحم جمل غث على رأس جبل وعر لا سهل فيُرتقى ولا سمين فينتقى[١] . ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ﴾ أي : إنما نعاقب هذه العقوبة الشديدة من كفر بنا وكذّب رسلَنا وخالف أمرنا وانتهك محارمنا .

وقال تعالى : ﴿ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ ﴾ وذلك أنهم لما هلكت أموالهم وخربت بلادهم احتاجوا أن يرتحلوا منها وينتقلوا عنها ، فتفرَّقوا في غَور البلاد ونجدها أيدي سبأ شَذَر مَذَر ، فنزلت طوائف منهم الحجاز ؛ ومنهم خزاعة نزلوا ظاهر مكة ، وكان من أمرهم ما سنذكره . ومنهم الأوس والخزرج ، نزلوا بيثرب وهي[٢] المدينة النبوية[٣] اليوم ، فكانوا أول من سكنها ، ثم نزلت عندهم ثلاث قبائل من اليهود : بنو قينقاع ، وبنو قريظة ، وبنو النضير ، فحالفوا الأوس والخزرج ، وأقاموا عندهم ، وكان من أمرهم ما سنذكره . ونزلت طائفة أخرى منهم الشام ، وهم الذين تنصَّروا فيما بعد ، وهم غسان وعاملة وبهراء ولخم وجذام وتنوخ وتغلب وغيرهم ، وسنذكرهم عند ذكر فتوح الشام في زمن الشيخين رضي الله عنهما .

قال محمد بن إسحاق[٤] : حدّثني أبو عبيدة قال : قال الأعشى بن قيس بن ثعلبة ، وهو ميمون بن قيس[٥] . [من المتقارب]

وفي ذاكَ للمؤْتَسي أُسْوةٌ ... ومأربُ عَفَّى عليها العَرِمْ[٦]

رُخام بَنَتْه لهم حِميرٌ ... إذا جاءَ موَّارُه لم يرم[٧]

فأَروى الزّروع وأعنَابها ... على سَعَةٍ ماؤُهم إذ قَسَم

فصاروا أيادِيَ لا يقدِرو ... ن على شُربِ طفلٍ إذا ما فُطِم[٨]

---

(١) هو جزء من حديث أم زرع الطويل ، رواه البخاري رقم (٥١٨٩) ومسلم رقم (٢٤٤٨) وقد شرحه شرحاً مطولاً في رسالة القاضي عياض .

(٢) قوله : الأوس و. . إلى هنا ، زيادة من ب .

(٣) في ط : المنورة .

(٤) السيرة (١/ ١٤) . وفيه : قال أعشى بني قيس بن ثعلبة . . وهذا هو الصحيح الأعلى .

(٥) ديوانه (ص٩٣) من القصيدة الرابعة ، ومطلعها : [من المتقارب]

أتهجر غانية أم يُلمْ ... أم الحبلُ واهٍ بها مُنجذِمْ

وقالها يمدح قيس بن معد يكرب .

(٦) في ط . ومأرم وهو سهو . وفي الديوان : قفّى .

(٧) في الديوان : إذا جاءه ماؤهم لم يرِم .

(٨) في ب : لا يقدرون منه على شرب طفل إذا ما فطم ، وعليه يختل الوزن . وأثبت ما في ط . وفي أ . سقطت لفظة=

وقد ذكر محمد بن إسحاق في كتاب « السيرة »[١] أن أول من خرج من اليمن قبل سيل العرم عمرو بن عامر اللخمي ، ولخم هو ابن عدي بن الحارث بن أزد[٢] بن زيد بن هميسع بن عمرو بن عريب بن يشجب بن زيد بن كهلان بن سبأ . ويقال : لخم بن عدي بن عمرو بن سبأ ، قاله ابن هشام[٣] . قال ابن إسحاق[٤] : وكان سبب خروجه من اليمن فيما حدّثني أبو زيد الأنصاري أنه رأى جرذاً يحفر في سدِّ مأرب الذي كان يحبس عنهم[٥] الماء فيصرفونه حيث شاؤوا من أرضهم ، فعلم أن لا بقاء[٦] للسدِّ على ذلك ، فاعتزم على النُّقلة عن اليمن ، وكاد قومه ، فأمر أصغر ولده إذا أغلظ له[٧] ولطمه أن يقوم إليه فيلطمه ، ففعل ابنه ما أُمِر[٨] به . فقال عمرو : لا أقيم ببلد لَطَم وجهي فيه أصغرُ ولدي . وعرض ماله[٩] . فقال أشرافٌ مِن أشراف اليمن : اغتنموا غضبة عمرو ، فاشتروا منه أمواله ، وانتقل في ولده وولد ولده . وقالت الأزد : لا نتخلّف عن عمرو بن عامر ، فباعوا أموالهم وخرجوا معه فساروا حتى نزلوا بلاد عكٍّ مجتازين يرتادون البلدان[١٠] فحاربتهم عك ، فكانت حربهم سجالاً . ففي ذلك يقول[١١] عباس بن مرداس : [من الطويل]

وعكّ بن عدنانَ الّذين تلعّبوا   بغسّانَ حتى طُرِّدوا كلَّ مَطْرِدِ

قال : فارتحلوا عنهم ، فتفرَّقوا في البلاد[١٢] فنزل آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام ، ونزل الأوس والخزرج يثرب ، ونزلت خزاعة مَرّاً[١٣] ، ونزلت أزد السراة السراة ، ونزلت أزد عُمان عُمان ، ثم أرسل الله تعالى على السدّ السيل فهدمه ، وفي ذلك أنزل الله هذه الآيات .

= (إذا ما) وفي الديوان : [من المتقارب]

فطاروا سراعاً وما يقدرو   ن منه لشرب صبي فطم

(١) (١/ ١٣) .
(٢) في ط : أزد .
(٣) السيرة (١/ ١٢) .
(٤) السيرة (١/ ١٣) .
(٥) في ط : عليهم .
(٦) في ط : أنه لا بقاء .
(٧) في ط : عليه .
(٨) في ب وط : أمره .
(٩) في ط : أمواله .
(١٠) زيادة من ط .
(١١) في ط : قال . والبيت في السيرة (١/ ٩) والروض الأنف (١/ ٢٠) .
(١٢) في ب : في البلدان . وكذا في السيرة .
(١٣) مَرّ : موضع على خمسة أميال من مكة . معجم البلدان .

وقد رُوي عن السُّدِّي قريب من هذا . وعن محمد بن إسحاق في روايته أن عمرو بن عامر كان كاهناً . وقال غيره : كانت امرأته طريفة بنت الخير الحميرية كاهنة ، فأخبرت بقرب هلاك بلادهم وكأنهم رأوا شاهد ذلك في الفأر الذي سلَّط على سدِّهم ففعلوا ما فعلوا والله أعلم . وقد ذكرتُ قصته مطولة عن عكرمة فيما رواه ابن أبي حاتم في « التفسير »[١] .

فصل

وليس جميع سبأ خرجوا من اليمن لما أُصيبوا بسيل العرم ، بل أقام أكثرهم بها ، وذهب أهل مأرب الذين كان لهم السدُّ فتفرَّقوا في البلاد ، وهو مقتضى الحديث المتقدم عن ابن عباس أن جميع قبائل سبأ لم يخرجوا من اليمن ، بل إنما تشاءم منها أربعة ، وبقي باليمن ستة وهم : مذحج وكندة والأزد[٢] وأنمار والأشعريون ـ وأنمار هو أبو خثعم وبجيلة ـ وحمير فهؤلاء ست قبائل من سبأ أقاموا باليمن واستمر فيهم الملك والتابعة حتى سلبهم[٣] ذلك ملك الحبشة بالجيش الذي بعثه صحبة أميريه أبرهة وأرياط نحواً من سبعين سنة ، ثم استرجعه سيف بن ذي يزن الحميري وكان ذلك قبل مولد رسول الله ﷺ بقليل ، كما سنذكره مفصَّلاً قريباً إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة وعليه التكلان .

ثم بعث[٤] رسول الله ﷺ إلى أهل اليمن عليّاً وخالد بن الوليد ، ثم أبا موسى الأشعري ، ومعاذ بن جبل ، وكانوا يدعون إلى الله تعالى ويبيِّنون لهم الحجج ثمّ[٥] تغلَّب على اليمن الأسود العنسي ، وأخرج نوّاب رسول الله ﷺ منها ، فلما قُتِل الأسود استقرت اليد الإسلامية عليها في أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، كما سنبين ذلك بعد البعثة إن شاء الله تعالى .

* * *

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٣٣) .

(٢) زيادة من ب ، وتفسير المؤلف (٣/ ٥٣١) لأن أنماراً هو أبو خثعم وبجيلة . جمهرة ابن حزم (٤٨٤) ، وعلى ما ورد في المتن يكون عدد القبائل خمسة لا ستة .

(٣) زاد في ب : بعد .

(٤) في ط : أرسل .

(٥) في ب : حتى .

قِصّة رَبيعة بن نصر بن أبي حَارثة بن عمرو بن عَامِر

المتقدِّم ذِكره اللخمي ، كذا ذكره ابن إسحاق[(١)] . وقال السهيلي[(٢)] . ونسَّابُ اليمن تقول : نصر بن ربيعة ، وهو ربيعة[(٣)] بن نصر بن الحارث بن نمارة بن لخم[(٤)] . وقال الزبير بن بكار : ربيعة بن نصر بن مالك[(٥)] بن شَعوذ بن مالك بن عُجم بن عمرو بن نمارة بن لخم ، ولخم أخو جذام ، وسمي لخماً لأنه لَخَم أخاه[(٦)] على خدِّه ، أي : لطمه ، فعضّه الآخر في يده فَجَذَمها ، فَسُمّي جُذاماً[(٧)] . وكان ربيعة أحد ملوك حمير التبابعة ، وخبره مع شِق وسَطيح الكاهنين ، وإنذارهما بوجود رسول الله ﷺ .

أما سَطيح : فاسمه ربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب بن عدي بن مازن بن غسان[(٨)] .

وأما شق فهو ابن صعب[(٩)] بن يشكر بن رُهْم بن أَفْرَك بن قسر[(١٠)] بن عبقر بن أنمار بن نزار ،ومنهم من يقول : أنمار بن أراش بن لحيان بن عمرو بن الغوث بن نابت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ .

ويقال : إن سطيحاً كان لا أعضاء له ، وإنما كان مثل السطيحة ، ووجهه في صدره وكان إذا غضب انتفخ وجلس .

وكان شِق نصفَ إنسان ، ويقال : إن خالد بن عبد الله القسري كان من سلالته[(١١)] . وذكر

---

(١) السيرة (١/ ١٥) .

(٢) عبارة السهيلي في الروض (١/٢٦ ـ ٢٧) : وبعضهم يقول فيه : نصر بن ربيعة ، وهو في قول نساب اليمن : ربيعة بن نصر بن الحارث بن نمارة بن لخم . . .

(٣) سقطت من ط .

(٤) كذا في ط . وهو موافق لما في الروض الأنف . وفي أ وب : . . الحارث بن ربيعة بن نصر . وهو سهو .

(٥) ليست في ب .

(٦) في أ وب : لطم أخاه . وهو سهو . واللخم : اللطم . وفي ط : لخم أخاه : أي لطمه . وقال ابن دريد في الاشتقاق (٣٧٦) : واشتقاق لخم من الغِلَظ والجفاء .

(٧) كذا في ط . وهو موافق لما نقله السهيلي عن الزبير . وفي أ وب : فعضه الآخر في يده فجذمها وكان. . .

(٨) كذا نسبه ابن إسحاق . وفيه خلاف عما ذكره ابن الكلبي في نسب معد (١/ ٤٧٧) ، وابن دريد في الاشتقاق (٤٨٧) وابن حزم في الجمهرة (٣٧٤) .

(٩) كذا في ط . وهو موافق لما في السيرة ، وجمهرة ابن حزم (٣٨٨) . وفي أ وب : أصعب .

(١٠) في ط : قيس ، وهو تحريف .

(١١) في ط : ابن عبد الله بن القسري كان سلالته . وخالد القسري هو أحد خطباء العرب وأجوادهم ، أمير العراقين . قُتل في أيام الوليد بن يزيد بعد سنة (١٢٠هـ) . الأعلام (٢/ ٢٩٧) .

السهيلي[١] أنهما ولدا في يوم واحد ، وكان ذلك يوم ماتت طريفة بنت الخير الحميرية ، ويقال : إنها تفلت في فم كلٍّ منهما فورثا[٢] الكهانة عنها ، وهي امرأة عمرو بن عامر المتقدِّم ذِكره . والله أعلم .

قال محمد بن إسحاق[٣] : وكان ربيعة بن نصر ملك اليمن بين أضعاف ملوك التبابعة ، فرأى رؤيا هائلة[٤] هالته وفظِع بها[٥] ، فلم يدع كاهناً ولا ساحراً ولا عائفاً ولا مُنجّماً من أهل مملكته إلا جمعه إليه ، فقال لهم : إني قد رأيت رؤيا هالتني وفظِعت بها فأخبروني بها وبتأويلها . فقالوا : اقصُصْها علينا نخبرْك بتأويلها . فقال : إني إن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم بتأويلها لأنه لا يعرف تأويلها إلا مَن عرفها قبل أن أخبره بها . فقال له رجل منهم : فإن كان الملك يريد هذا فليبعث إلى شِق وسَطيح فإنه ليس أحدٌ أعلم منهما فهما يخبرانه بما سأل عنه . فبعث إليهما ، فقدم إليه سَطيح قبل شِق ، فقال له : إني قد[٦] رأيت رؤيا هالتني وفظِعت بها ، فأخبِرْني بها ، فإنك إن أصبتَها أصبتَ تأويلَها . فقال : أَفْعَلُ . رأيت حُمَمة خرجتْ من ظُلْمة[٧] . فوقعت بأرض تهَمة . فأكلت منها كلَّ ذاتِ جُمْجُمة . فقال له الملك : ما أخطأتَ منها شيئاً يا سطيح ، فما عندك في تأويلها ؟ قال : أحلف بما بين الحرَّتين من حَنَش لتهبطنّ أرضَكُم الحَبَش ، فليملكنّ ما بين أَبْيَن إلى جُرَش . فقال له الملك : يا [٨]سطيح إن هذا لنا لَغائظٌ موجعٌ ، فمتى هو كائن ، أفي زماني أم بعده ؟ فقال : لا[٩] بل بعده بحين ، أكثر من ستين أو سبعين[١٠] ، يمضين من السنين . قال : أفيدوم ذلك من سلطانهم[١١] أم ينقطع ؟ قال : بل ينقطع لبضع وسبعين من السنين ، ثم يُقتلون ويخرجون منها هاربين . قال : ومن يلي ذلك من قتلهم وإخراجهم ؟ قال : يليه[١٢] إرم ذي يَزَن ، يخرج عليهم من عَدَن ، فلا يترك منهم أحداً باليمن[١٣] . قال : أفيدوم ذلك من سلطانه أم

---

(١) الروض الأنف (١/ ٢٧) .
(٢) في ط : فورث .
(٣) السيرة (١/ ١٥) .
(٤) ليست في ب .
(٥) فظع بالأمر : اشتد عليه . وفي ب : فلم يترك كاهناً .
(٦) ليست في ب .
(٧) الحممة : أراد الفحمة . وقال السهيلي (١/ ٢٨) : أي من ظُلْمة ، وذلك أن الحممة قطعة من نار ، وخروجها من ظلمة يشبه خروج عسكر الحبشة من أرض السودان .
(٨) زاد في ب : وأبيك يا سطيح .
(٩) زاد في ط : وأبيك .
(١٠) زاد في أ : سنة ، ولا يستقيم هذا من السجعة ، والمعنى .
(١١) في ب : ملكهم ، وكذلك في السيرة والروض الأنف .
(١٢) كذا في ب . وهو موافق لما في السيرة . وفي أ وط : يليهم .
(١٣) في ب : أحداً منهم باليمن . وهو موافق لما في السيرة والروض الأنف .

ينقطع ؟ قال : بل ينقطع . قال : ومن يقطعه ؟ قال : نبي زكي ، يأتيه الوحي ، من قبل العلي . قال : وممن هذا النبي ؟ قال : رجل من ولد غالب بن فِهْر بن مالك بن النضر ، يكون الملك في قومه إلى آخر الدهر . قال : وهل للدهر من آخر ؟ قال : نعم ، يومٌ[١] يُجمع فيه الأولون والآخرون ، يَسعد فيه المحسنون ويشقى فيه المسيئون . قال : أحقٌّ ما تخبرني ؟ قال : نعم ، والشَّفقِ والغسقِ ، والفلق إذا اتّسق ، إن ما أنبأتك به لحق .

قال ثمّ قدم عليه شِق ، فقال[٢] له كقوله لسطيح ، وكتمه ما قال سطيحٌ لينظر أيتّفقان أم يختلفان . قال : نعم ، رأيتَ حُمَمة ، خرجت من ظُلمة ، فوقعت بين روضة وأكَمة ، فأكلت منها كلَّ ذاتِ نسمة . فلما قال له ذلك عرف أنهما قد اتفقا ، وأن قولهما واحدٌ ، إلّا أن سَطيحاً قال : وقعت بأرض تهمة ، فأكلت منها كل ذات جُمْجُمة . وقال شق : وقعت بين روضة وأكمة ، فأكلت منها كلّ ذات نسمة . فقال له الملك : ما أخطأت يا شق منها شيئاً ، فما عندك في تأويلها ؟ فقال : أحلف بما بين الحرتين من إنسان . لينزلنَّ أرضَكُم السودان، فليغلِبُنَّ على كل طَفْلَةِ البَنان ، وليملكن ما بين أَبْيَن إلى نَجران . فقال له الملك : وأبيك يا شق إن هذا لنا لغائظ موجعٌ ، فمتى هو كائن ، أفي زماني أم بعده ؟ قال : لا بل بعده بزمان . ثم يستنقذكم منهم عظيمٌ ذو شأن ، ويذيقهم أشد الهوان . قال : ومن هذا العظيم الشأن ؟ قال : غلام ليس بدَني ولا مُدَن[٣] يخرج عليهم[٤] من بيت ذي يَزَن . قال : أفيدوم سلطانه أم ينقطع ؟ قال : بل[٥] ينقطع برسول مرسل، يأتي بالحق والعدل ، بين[٦] أهل الدين والفضل ، يكون الملك في قومه إلى يوم الفصل . قال : وما يوم الفصل ؟ قال : يوم يُجزَى فيه الوُلاة ، يدعى فيه من السماء بدعوات ، تسمع منها الأحياء والأموات ، ويجمع الناس فيه للميقات ، يكون فيه لمن اتقى الفوز والخيرات . قال : أحقٌّ ما تقول ؟ قال : إي وربِّ السماء والأرض ، وما بينهما من رفْعٍ وخفض ، إن ما أنبأتك به لحقٌّ[٧] ما فيه أَمْض .

قال ابن إسحاق : فوقع في نفس[٨] ربيعة بن نصر ما قالا ، فجهز بنيه وأهل بيته إلى العراق بما

---

(١) يوم . زيادة من ط . موافقة لنص السيرة .
(٢) ليست في ب .
(٣) قال السهيلي ، عن الفراهيدي : المدن : الذي جمع الضعف مع الدناءة .
(٤) ليست في ب .
(٥) في ب : لا بل .
(٦) كذا في ب ، وهو موافق لما في السيرة والروض الأنف . وفي أ وط : من .
(٧) زيادة من ب وط . موافقة لنص السيرة . والأمض : الشك والريب ، والباطل .
(٨) في ب : قلب .

يصلحهم وكتب لهم[١] إلى ملك من ملوك فارس يقال له : سابور بن خُرَّزاذ ، فأسكنهم الحِيرة[٢] .

قال ابن إسحاق : فمن بقية ولد[٣] ربيعة بن نصر النعمانُ بن المنذر بن النعمان بن المنذر بن عمرو بن عدي بن ربيعة بن نصر . يعني الذي كان نائباً على الحِيرة لملوك الأكاسرة ، وكانت العرب تَفِدُ إليه وتمتدحه . وهذا الذي قاله محمد بن إسحاق من أن النعمان بن المنذر من سلالة ربيعة بن نصر قاله أكثر الناس . وقد روى ابن إسحاق[٤] أن امير المؤمنين عمر بن الخطاب لما جيء بسيف النعمان بن المنذر سأل جُبير بن مُطْعِم عنه ممن كان ، فقال : من أشلاء قُنُص بن معد بن عدنان . قال ابن إسحاق : فالله أعلم أي ذلك كان .

***

(١) زيادة من ب . موافقة لنص السيرة .

(٢) زاد في ب : قال أبو القاسم السهيلي : ليس في ملوك الفرس من اسمه خرزاذ ، فإنهم من ولد أزدشير بن بابك ـ وهو أولهم ـ إلى يزدجرد ، يعني ابن شهريار بن أبرويز بن هرمز بن أنوشروان ، وأسماؤهم محفوظة ، ليس فيهم من اسمه خرزاذ ، ولعل خرزاذ هذا نائب له ، أو ملك من ملوك الطوائف ، فإن زمان ربيعة بن نصر كان في زمانهم . والله أعلم . وكانت ملوك الطوائف في زمن المسيح وقبله وبعده ، وكان الذي فرّق شملهم إسكندر بن فيليبس المقدوني كما غلب على دارا بن دارا وتزوج ابنته من بعده ، ففرق شملهم لئلا ينتظم لواحد منهم أمر ، وكان كل ملك يتبعه طائفة من الناس على قطر من الأرض ، منهم عرب ، ومنهم فرس ، وغيرهم . واستمر الأمر كذلك قريباً من خمسمئة سنة . ثم قام بعدهم بنو ساسان بن بهمن بن أسفيديار بن بشتاسب . وكان أردشير وبعده ابنه سابور الذي خرب الحصن وأخذه من الساطرون . وهذا القول مأخوذ ـ كما سلف ـ من السهيلي (١/ ٣٠ ـ ٣١) بتصرف .

(٣) زيادة من ب وط . والسيرة .

(٤) السيرة (١/ ١٢) .

قصّة تُبَّع أَبي كرب تُبَّان أسعد
ملك اليمن مع أهل المدينة[١] ، وكيف أراد غزو البيت الحرام ،
ثمّ شرَّفه وعظَّمه وكساه الحُلل ، فكان أوّل من كساه

قال ابن إسحاق[٢] : فلما هلك ربيعة بن نصر ، رجع مُلْك اليمن كلُّه إلى حسّان بن تُبَّان أسعد أبي كَرب ـ وتُبَّان أسعد تبع الآخر ـ بن كلكيكرب[٣] بن زيد ، وزيد تُبَّع الأول بن عمرو ذي الأَذْعار بن أبرهة ذي المنار بن الرائش بن عدي بن صيفي بن سبأ الأصغر بن كعب كَهْف[٤] الظُّلْم بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جُشَم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قطَن بن عَرِيْب بن زهير بن أنس[٥] بن الهَمَيْسع بن العَرَنجج ، والعَرَنجج هو حِمير بن سبأ الأكبر بن يَعْرُب بن يَشْجُب بن قحطان . قال عبد الملك بن هشام : سبأ بن يشجب[٦] بن يعرب بن قحطان[٧] .

قال ابن إسحاق : وتُبَّان أسعد أبو كَرِب هو الذي قدم المدينة ، وساق الحبرين[٨] من اليهود إلى اليمن ، وعمر البيت الحرام وكساه ، وكان ملكه قبل [مُلْك][٩] ربيعة بن نصر[١٠] ، وكان قد جعل طريقه ـ حين رجع من غزوة بلاد المشرق ـ على المدينة[١١] ، وكان قد مر بها في بَدْأَته فلم يَهِجْ أهلَها ، وخلَّف بين أظهرهم ابناً له ، فقُتِل غِيْلة ، فقدِمَها وهو مُجمع لإخرابها واستئصال أهلها وقطع نخلها ، فَجَمَعَ له

---

(١) جاء العنوان في ط : قصة تبع أبي كرب مع أهل المدينة ، وكيف . . . .

(٢) السيرة (١/ ١٩) .

(٣) في ب : كلكيرب . وفي السيرة : كُلي كرب . وأشار المحقق إلى أن أصل المخطوط : كليككرب . وفي الروض الأنف (١/ ٣٤) : وكلكي كرب اسم مركب . وقال السهيلي أيضاً (١/ ٦) : والكرب : هو الفلاح (بالحميرية) وقد تقدم أبو كرب ، فمعناه على هذا : أبو الفلاح . قاله ابن هشام في غير هذا الكتاب . وكذلك تقدم كلكي كرب ، ولا أدري ما كلكي .

(٤) كذا في ط . وهو موافق لما في السيرة . وفي أ . وب : بن كهف .

(٥) في السيرة ، والروض الأنف : أيمن .

(٦) ليست في ب .

(٧) شرح السيرة (١/ ٢٠) .

(٨) في أ : الحرير ، وهو تحريف .

(٩) زيادة من ب وط . والسيرة .

(١٠) زاد في ب : قال ابن هشام : وهو الذي يقال له : [من المديد]

ليت حظي من أبي كرب   أن يَسُـد خيـره خبلـه

قال ابن إسحاق وهذه الزيادة في السيرة (١/ ٢٠) .

(١١) في ب : حين أقبل من المشرق على المدينة . وكذا في السيرة .

هذا الحيُّ من الأنصار ورئيسُهم عَمْرو بن طَلحة[١] أخو بني النجّار ، ثم أحد بني عمرو بن مبذول ، واسم مَبْذول[٢] : عامر بن مالك بن النجار ، والنجار هو[٣] : تيم الله بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج بن حارثة ابن ثعلبة بن[٤] عمرو بن عامر .

وقال ابن هشام : عمرو بن طَلّة هو عمرو بن معاوية بن عمرو بن عامر بن مالك بن النجار ، وطَلَّة أُمُّه ، وهي بنت عامر بن زُرَيق[٥] الخزرجية .

قال ابن إسحاق[٦] : وقد كان رجل من بني عدي بن النجار ، يقال له : أحمر ، عدا على رجل من أصحاب تُبَّع[٧] وَجَدَه يَجُدُّ عَذْقاً[٨] له فضربه بمنجله فقتله ، وقال : إنما التمر لمن أَبَّرَهُ[٩] ، فزاد ذلك تُبعاً حنقاً عليهم ، فاقتتلوا . فتزعَم الأنصارُ أنهم كانوا يقاتلونه بالنهار ويَقْرُونه[١٠] بالليل ، فيعجبه ذلك منهم ، ويقول : والله إن قومنا لكرام . وحكى ابن إسحاق عن الأنصار أن تُبَّعاً إنما كان حنقه على اليهود أنهم منعوهم منه .

قال السهيلي[١١] : ويقال إنه إنما جاء لنصرة الأنصار أبناءِ عمه على اليهود الذين نزلوا عندهم في المدينة على شروط فلم يفوا بها واستطالوا عليهم[١٢] . والله أعلم .

قال ابن إسحاق: فبينا تُبَّع على ذلك من حربهم[١٣] إذ جاءه حَبْران من أحْبار اليهود من بني قُريظة[١٤] ،

---

(١) في أ وط : طلحة . وهو سهو . وسيذكره صحيحاً بعد قليل .
(٢) كذا في ب ، وط . والسيرة . وفي أ : واسمه .
(٣) في ب ، وط : واسم النجار : تيم وكذا في السيرة .
(٤) ليست في ط .
(٥) زاد في ب : ابن عبد حارثة بن مالك بن غضْب بن جشم بن الخزرج . وكذلك في السيرة .
(٦) السيرة (١/ ٢١) وتاريخ الطبري (٢/ ١٠٥) .
(٧) زاد في ب : حين نزل بهم فقتله ، وذلك أنه . . وكذلك في السيرة .
(٨) العَذْق : النخلة . والجد : القطع .
(٩) أَبَّرَه : أصلحه .
(١٠) القرى إطعام الضيف .
(١١) الروض الأنف (١/ ٣٥) .
(١٢) في الروض : واستضاموهم .
(١٣) في ط : قتالهم . وكذلك في السيرة .
(١٤) زاد في ب : وقريظة والنضير والنحّام وعمرو ـ وهو هَدَل ـ بن الخزرج بن الصريح بن التوءمان بن السبط بن اليسع بن لاوي بن خير بن النحام بن منحوم بن عاد بن عود بن هارون بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب ، وهو إسرائيل بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن ﷺ . وكذلك في السيرة ، مع خلاف يسير .

عالمان راسخان ، حين سمعا بما يُريد من إهلاك المدينة وأهلها ، فقالا[(١)] له : أيها الملك لا تفعلْ فإنك إن أبيت إلا ما تريد حِيْل بينك وبينها ، ولم نأمن عليك عاجل[(٢)] العقوبة . فقال لهما : ولم ذلك ؟ قالا : هي مُهاجَرُ نبيّ يخرج من هذا الحرَم من قُريش في آخر الزمان ، تكون دارَه وقرارَه . فتناهى عن ذلك[(٣)] ورأى أن لهما علماً ، وأعجبه ما سمع منهما ، فانصرف عن المدينة واتّبعهما على دينهما[(٤)] .

قال ابن إسحاق : وكان تُبَّع وقومُه أصحاب أوثان يعبدونها ، فوجَّه[(٥)] إلى مكة ، وهي طريقه إلى اليمن ، حتى إذا كان بين عُسْفان وأَمَج[(٦)] أتاه نفرٌ من هذيل بن مُدْركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان فقالوا له : أيها الملك ألا ندلك على بيت مال داثرٍ أَغْفَلَتْه الملوكُ قبلكَ ، فيه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة ؟ قال : بلى . قالوا : بيتٌ بمكة يعبده أهله ويصلّون عنده . وإنما أراد الهذليون هلاكَه بذلك لما عرفوا من هلاك مَنْ أراده من الملوك وبَغَى عنده . فلما أجمع لما قالوا[(٧)] أرسلَ إلى الحَبْرَيْن فسألهما عن ذلك . فقالا له : ما أراد القومُ إلّا هلاكَك وهلاكَ جُنْدك ، ما نعلم بيتاً لله عز وجل اتخذه[(٨)] في الأرض لنفسِه غيرَه ، ولئن فعلتَ ما دعوك إليه لتهلكن وليهلكن مَن معك جميعاً . قال : فماذا تأمرانني أن أصنع إذا أنا قدِمْتُ عليه ؟ قالا : تصنع عنده ما يصنع أهلُه ، تطوفُ به وتعظّمه وتكرّمه ، وتَحلق رأسَك عنده ، وتَذَلّلُ[(٩)] له حتى تخرج من عنده . قال : فما يمنعكما أنتما من ذلك ؟ قالا : أما[(١٠)] والله إنه لبيت أبينا إبراهيم ، عليه السلام ، وإنه لكَما أخبرناك ، ولكنّ أهلَه حَالُوا بيننا وبينه بالأوثان التي نصبوها[(١١)] حوله وبالدماء التي يهريقون عنده ، وهم نَجَس أهل شرك ، أو كما قالا له . فعرف نُصْحَهما وصِدْقَ حديثهما ، وقرَّب النفرَ من هُذيل فقطع أيديهم وأرجلَهم ، ثم مضى حتى قدم

---

(١) في ط : فقالوا .
(٢) في ط : جل .
(٣) زيادة من السيرة .
(٤) زاد في ب : فقال خالد بن عبد العزى بن غزية بن عمرو بن عبيد بن غوث بن غنم بن مالك بن النجار يفخر بعمرو بن طلة : [من المديد]

أصحا أم قد نهى ذكره أم قضى من لذة وطره

إلى انتهاء الأبيات . والقول مع الأبيات في السيرة (١/ ٢٢) .
(٥) في ط : فتوجه . وكذلك في السيرة .
(٦) عُسفان : موضع ، على مرحلتين من مكة ، وهو حد تهامة . وأَمَج : بلد من أعراض المدينة .
(٧) في ب : سمع ما قالوا .
(٨) زيادة من ب وط . والسيرة .
(٩) في ب : وتتذلل . وفي السيرة : وتذل .
(١٠) ليست في ب .
(١١) في ب : نصبوا .

مكة ، فطاف بالبيت ، ونحر عنده ، وحلق رأسه ، وأقام بمكة ستة أيام ـ فيما يذكرون ـ ينحر بها للناس ويُطِعم أهلَها ويسقيهم العسل . وأُرِيَ في المنام أن يَكسو البيتَ ، فكساه الخَصَفَ[(١)] ثم أُرِيَ في المنام أن يكسوه أحسن من ذلك ، فكساه المعافِريَّ[(٢)] ، ثم أُرِيَ أن يكسوه أحسن من ذلك . فكساه المُلاءَ والوصائل[(٣)] ، فكان تُبع ـ فيما يزعمون ـ أولَ من كسا البيتَ وأوصى به وُلاتَه من جُرْهم ، وأمرهم بتطهيره وأن لا يُقرّبوه دماً ولا مِيتة ولا مِئْلاة ـ وهي المحايض[(٤)] ـ وجعل له باباً ومفتاحاً . ففي ذلك قالت سُبَيْعة بنت[(٥)] الأحَبِّ تُذَكّر ابنَها خالد بن عبدِ مناف بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب وتنهاه عن البغي بمكة ، وتذكر له ما كان من أمر تُبّع فيها : [من مجزوء الكامل]

أبُنَـــيّ لا تَظِلـــمْ بمكـ ـــةَ لا الصغيـرَ ولَا الكَبيـرْ
واحفَـظْ محـارِمَهـا بُنَـ ـــيّ ولا يغـرَّنْـك الغَـروزْ
أبنـــيّ مـــن يَظلـمْ بمكـ ـــةَ يلـقَ أطـرافَ الشُّـرور
أبُنـــيّ يُضـرَبْ وجهُـه ويلـحْ بخـدّيـهِ السَّعير[(٦)]
أبنـــيّ قـــد جـــرّبتُهـــا فـوجدتُ ظـالمَهـا يَبـور[(٧)]
اللهُ آمَنهـــا ومـــا بُنيـتْ بِعَـرْصَتها قُصـور
واللهُ آمَـــن طَيـــرَهـــا والعُصْمُ تامَنُ في ثَبِير[(٨)]
ولقـــدْ غـــزَاهـــا تُبّـــع فكَســا بنيّتهــا الحبيـــر
وأذلّ ربـــي مُلْكَـــه فيهــا فــأوفــى بــالنّــذُور
يمشـــي إلَيهـــا حـــافيـــاً بفِنــائهــا ألفــا بعيـــر

(١) الخصف : حصر تنسج من خوص النخل ومن الليف .
(٢) في ط ، وب ، والسيرة : المعافر . والمعافري : ثوب منسوب إلى معافر ، وهو رجل ، ثم أصبح علماً على الثوب دون نسبة ، فيقال : معافري .
(٣) قوله : فكساه الملاء والوصائل . سقط من ب . والملاء : ج ملاءة ، وهي الملحفة . والوصائل : ثياب مخططة يمنية يوصل بعضها إلى بعض .
(٤) المحايض : ج محيضة ، وهي خرقة الحيض .
(٥) في ب : بنت الأحب بن زبينّة بن جذيمة بن عوف بن مضر بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس عيلان ، وكانت عند عبد مناف بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ، لابن أبي منبه يقال له خالد ، تعظم عليه حرمة مكة ، وتنهاه عن البغي فيها ، وتذكره وتذلله لها وما صنع بها . وقريب منه في السيرة .
(٦) في ط : ويلج ، وفي ب : بحرمته .
(٧) يبور : يهلك .
(٨) العصم : الوعول ، لأنها تعتصم بالجبال . وثبير : جبل بمكة .

ويظـــلّ يُطعـــمُ أهلَهـــا لحـمَ المهـارَى والجـزَور[١]
يسقيهـــمُ العسَـــلَ المصفـ ـفى والرَّحِيضَ من الشّعير[٢]
والفيـــلُ أهلـــكَ جيشَـــه يُـرمـون فيهـا بـالصّخـور
والملْـك فـي أقصَـى البـلا دِ وفي الأعاجمِ والخُزير[٣]
فـاسمـع إذا حُـدّثـت وافْـ ـهَمْ كيفَ عـاقبـةُ الأُمـور[٤]

قال ابن إسحاق : ثم خرج تُبَّع متوجّهاً إلى اليمن بمن مَعه من جنوده[٥] وبالحَبْرَين ، حَتَى إذا دخل اليمن ، دعا قومه إلى الدخول فيما دخل فيه ، فأبَوْا عليه حتى يحاكموه[٦] إلى النار التي كانت باليمن .

قال ابن إسحاق : حدّثني أبو مالك بن ثعلبة بن أبي[٧] مالك القُرَظي ، قال[٨] : سمعتُ إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله يحدِّث أن تُبَّعاً لما دنا من اليمن ليَدْخلها حالت حِمْير بينه وبين ذلك وقالوا : لا تدخلها علينا وقد خالفت[٩] ديننا ، فدعاهم إلى دينه وقال : إنه خيرٌ من دينكم . قالوا : تُحاكمنا[١٠] إلى النار ؟ قال : نعم . قال : وكانت باليمن ـ فيما يزعم أهل اليمن ـ نارٌ تحكم بينهم فيما يختلفون فيه ؛ تأكل[١١] الظالم ولاتضر المظلوم ، فخرج قومُه بأوثانهم وما يتقرّبون به في دينهم ، وخرج الحَبْرَان بمصاحفهما في أعناقهما متقلّدين حتى قعدوا للنار عند مخرجها الذي تخرج منها ، فخرجت النارُ إليهم ، فلما خرجت[١٢] نحوهم حادوا عنها وهابوها ، فزجرهم[١٣] من حَضَرهم من الناس وأمروهم بالصبر لها ، فصبروا حتى غَشِيَتْهم ، فأكلت الأوثانَ وما قرّبوا معها ، ومَن حمل ذلك من رجال حمير ، وخرج الحَبران بمصاحفهما في أعناقهما تَعْرَق جباهُهما لم[١٤] تضرهما ،

---

(١) المهارى : الإبل النجيبة .
(٢) الرحيض : المنقّى والمصفّى .
(٣) في ط : والخزور . وفي ب : والجزير . والخزير : أمة من العجم .
(٤) كذا في ب وط ، والسيرة . وفي أ : خافهم إذا . . .
(٥) في ط : الجنود .
(٦) في ب : تحاكموا .
(٧) ليست في ب .
(٨) زيادة من ب ، وط ، والسيرة .
(٩) في ب وط : فارقت . وكذلك في السيرة .
(١٠) في ب : حاكمنا . وفي السيرة : فحاكمنا .
(١١) في ط : تأخذ .
(١٢) في ب ، وط : أقبلت . وكذلك في السيرة .
(١٣) في ب : فزبرهم . وفي السيرة : فزبرهم . والزبر : المنع والنهي . وذمرهم : حضهم وشجعهم .
(١٤) في ط : ولم .

فأصفقت[١] عند ذلك حمير على دينه[٢] ، فمن هنالك وعن ذلك كان أصل اليهودية باليمن .

قال ابن إسحاق : وقد حدّثني مُحدِّث أن الحَبْرَيْن ومَن خرج من حِمْير إنما اتَّبعوا النار ليردُّوها ، وقالوا : من ردّها فهو أولى بالحق ، فدنا منها رجال حِمير بأوثانهم ليردُّوها ، فدنت منهم لتأكلهم ، فحادوا عنها ولم يستطيعوا ردّها ، ودنا[٣] منها الحَبْران بعد ذلك وجعلا يتلوان التوراة وتنكص[٤] عنهما حتى رداها إلى مخرجها الذي خرجت منه ، فأصفقت عند ذلك حِمير على دينهما . والله أعلم أي ذلك كان .

قال ابن إسحاق : وكان رِئام بيتاً لهم يعظِّمونه وينحرون عنده ويكلَّمون منه[٥] إذ كانوا على شركهم . فقال الحبران لِتُبّع : إنما هو شيطان يفتنهم بذلك[٦] فَخَلِّ بيننا وبينه . قال : فشأنكما به . فاستخرجا منه فيما يزعم أهل اليمن كلباً أسود ، فذبحاه ، ثم هَدَما ذلك البيت ، فبقاياه اليوم كما ذُكر لي بها آثار[٧] الدماء التي كانت تهراق عليه[٨] .

وقد ذكرنا في التفسير الحديث الذي ورد عن النبي ﷺ : « لا تسبوا تُبّعاً فإنّه قد كان أسلم »[٩] قال السهيلي[١٠] : ورَوى معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لا تسبُّوا أسعد الحميري فإنه أوّل من كسا الكعبة »[١١] .

قال السهيلي[١٢] : وقد قال تُبَّع حين أخبره الحبران عن رسول الله ﷺ شعراً : [من المتقارب]

شهـدْتُ علـى أحمـدٍ أنـه ... رسـولٌ مـنَ الله بـاري النسـم
فلـو مُـدَّ عمـري إلـى عُمـره ... لكنـتُ وزيـراً لـه ، وابـنَ عـم
وجـاهـدت بـالسيـف أعـداءَه ... وفرّجتُ عن صدرِه كلَّ هم[١٣]

---

(١) في ب : فأصفقت حمير عند ذلك . . . وأصفقوا على الأمر : اجتمعوا عليه .
(٢) في ط : دينهما . وعبارة ط . بعد هذا . فمن هنالك كان أصل . . . .
(٣) في ط : فدنا .
(٤) في ط : وهي تنقص .
(٥) في ط : فيه .
(٦) زيادة من ط . والسيرة .
(٧) في ب : كما ذكر فيه آثار . . .
(٨) زاد في ب هاهنا قوله : ثم صار الملك فيما بعد . . . اليمامة . وسيأتي هذا بعد قليل في أ وط .
(٩) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٣٤٠) ، عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه ، وهو حديث صحيح .
(١٠) الروض الأنف (١/ ٣٦) .
(١١) ذكره السيوطي في « الدر المنثور » (٦/ ٣١) من رواية ابن مردويه ، والله أعلم به .
(١٢) الروض الأنف (١/ ٣٥) .
(١٣) كذا في ط ، وهو موافق لنص السهيلي : وفي أ وب : (عن وجهه) . وفي ب : (كل غم) .

قال : ولم يزل هذا الشعر تتوارثه الأنصار ويحفظونه بينهم ، وكان عند أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه وأرضاه .

قال السهيلي[١] : وروى ابن أبي الدنيا في كتاب القبور أن قبراً حُفر بصنعاء ، فوُجد فيه امرأتان معهما[٢] لوحٌ من فضة مكتوب فيه بالذهب[٣] ، وفيه : هذا قبر لَميس وحُبّى ابنتي تُبّع ماتتا وهما تشهدان أن لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له[٤] ، وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما .

ثم صار الملك فيما بعد إلى حسان بن تُبّان أسعد ، وهو أخو اليمامة الزرقاء التي صُلبت على باب مدينة جَوّ ، فسميت من يومئذ اليمامة .

قال ابن إسحاق[٥] : فلما ملك ابنه حسان بن أبي كرب تبّان أسعد سار بأهل اليمن يريد أن يطأ بهم[٦] أرض العرب وأرض الأعاجم ، حتى إذا كان[٧] ببعض أرض العراق[٨] كرهت حِمير وقبائل اليمن السير معه ، وأرادوا الرجعة إلى بلادهم وأهليهم ، فكلّموا أخاً له يقال له : عمرو ، وكان معه في جيشه ، فقالوا له : اقتل أخاك حسان ونملّكك علينا، وترجع بنا إلى بلادنا . فأجابهم . فاجتمعوا[٩] على ذلك إلا ذا رُعين الحِميري فإنه نهى عَمراً عن ذلك ، فلم يقبل منه ، فكتب ذو رعين رُقعة فيها هذان البيتان : [من الوافر]

أَلا مَـن يَشْتـري سَهَـراً بنـومٍ   سعيـدٌ مَـن يبيـتُ قَـريـرَ عَيْـن
فإما حِمْيَرٌ غدَرتْ وخانَت   فمعذرةُ الإلّه لِذي رُعَين[١٠]

[١١]ثمّ استودعها عمراً . فلما قَتَل عمرٌو أخاه حسان ورجع إلى اليمن ، مُنع منه النوم ، وسُلّط عليه السهر ، فسأل الأطباء والحُزاة[١٢] من الكهّان والعرّافين عما به ، فقيل له : إنه والله ما قَتلَ رجلٌ أخاه قط

---

(١) الروض الأنف (١/ ٣٦) . وفي ط : (وذكر) .
(٢) زيادة من ط ، والروض الأنف .
(٣) في ط : مكتوب بالذهب ، وفيه .
(٤) زيادة من ط موافقة لنص السهيلي .
(٥) السيرة (١/ ٢٨) .
(٦) زيادة من ب ، وط . موافقة لنص السيرة .
(٧) في ط : كانوا . وكذلك في السيرة .
(٨) زاد في ب : قال ابن هشام : بالبحرين فيما ذكر لي بعض أهل العلم . وهو كذلك في شرح السيرة .
(٩) كذا في ب ، وط . وهو موافق لنص السيرة ، والذي في أ : . . وأهليهم ، فاتفقوا مع أخيه عمرو على أن يقتله ويملكون عليهم ، وأصفقوا على ذلك .
(١٠) تاريخ الطبري (٢/ ١١٥)، ومجمع الأمثال (١/ ٧٣) . وهذه الأبيات أصبحت تضرب لمن غمط النعمة وكره العافية .
(١١) زاد في ب : كلاماً هو من تمام نص السيرة الذي تصرف به قليلاً المؤلف في نسخة أ وط .
(١٢) في ط : والحذّاق . وهو أصوب .

أو ذا رَحم بغياً[١] إلا ذهب نومه وسُلِّط عليه السهر ، فعند ذلك جعل يقتل كل[٢] من أمره بقتل أخيه[٣] ، فلما خلص إلى ذي رُعين قال له : إن لي عندك براءة . قال : وما هي ؟ قال : الكتاب الذي دفعتُه إليك . فأخرجه فإذا فيه البيتان ، فتركه ورأى أنه قد نصحه . وهلك عمرو ، فمرج أمرُ حمير عند ذلك وتفرَّقوا .

* * *

وثُوْبُ لخنيعة ذي شناتر على ملك اليمن

وقد ملكها سبعاً وعشرين سنة . قال ابن إسحاق[٤] : فوثب عليهم رجل من حمير لم يكن من بيوت الملك يقال له : لَخْنِيْعَة ينوف ذو شَناتر ، فَقَتَل خيارَهم ، وعبث ببيوت أهل المملكة منهم[٥] ، وكان مع ذلك امرأ فاسقاً يعمل عَمل قوم لوط ، فكان يرسل إلى الغلام من أبناء الملوك فيقع عليه في مَشْرَبة[٦] له قد صنعها لذلك لئلا يَملِك بعد ذلك ، ثم يَطْلعُ من مشربته تلك إلى حرسه ومن حَضَر من جنده قد[٧] أخذ مِسواكاً فجعله في فِيه ليُعْلِمهم أنه قد فرغ منه . حتى بعث إلى زُرْعة ذي نواس بن تُبان أسعد أخي حسن وكان صبياً صغيراً حين قُتل أخوه حسان ، ثمّ شبَّ غلاماً جميلاً وسيماً ذا هيئةٍ[٨] وعقلٍ ، فلما أتاه رسوله عرف ما يريد منه ، فأخذ سكّيناً حديداً[٩] لطيفاً ، فخبّأه بين قدميه[١٠] ونعله ، ثمّ أتاه ، فلما خلا معه وَثَب إليه ، فواثبه ذو نواس فَوَجَأه حتى قَتَله ، ثُمّ حزَّ رأسه فوضعه في الكُوَّة التي كان يُشرف منها ، ووضع مسواكه في فيه ، ثمّ خرج على الناس فقالوا له : ذا نواس أَرُطَبٌ أَمْ يَباس ؟ فقال : سَلْ نحماس[١١]

---

(١) زاد في ب : على مثل ما قتلت أخاك عليه . وهو موافق لنص السيرة .
(٢) زيادة من ب وط . وكذلك في السيرة .
(٣) زاد في ب : من أشراف اليمن . وكذلك في السيرة .
(٤) السيرة (١/ ٢٩) . وقد سقط العنوان ومطلع هذا المقطع من ب تاريخ الطبري (٢/ ١١٧) .
(٥) زاد في ب : فقال قائل من حمير شعراً : [من الطويل]

تقتل أبناها وتنفي سراتها ... وتبني بأيديها لها الذل حمير
تدمر دنياها بطيش حلومها ... وما ضيعت من دينها فهو أكثر
كذاك القرون قبل ذاك بظلمها ... وإسرافها تأتي الشرورَ فتخسر

والنص هو من تمام نص السيرة .
(٦) المشربة : الغرفة المرتفعة .
(٧) في ب : وقد .
(٨) كذا في ط ، والسيرة ، وهو موافق للمعنى ، وفي أ وب : هيبة .
(٩) في ط : جديداً وهو تصحيف .
(١٠) كذا في ب ، وهو الأشبه بالصواب ، وموافق لنص السيرة . وفي أ وط : قدميه .
(١١) في السيرة : نخماس وأشار السهيلي إلى أنه يمكن أن يكون هو الصواب . وفيه أنه النحماس في لغتهم : الرأس . =

اسْتَرطُبان ذو نواس ، استرطبان لا باس ، فنظروا إلى الكُوَّة فإذا رأس لَخنيعة مقطوع ، فخرجوا في أثر ذي نواس حتى أدركوه ، فقالوا : ما ينبغي أن يملكنا غيرُك إذ أَرَحْتنا من هذا الخبيث ، فملّكوه عليهم ، واجتمعت[١] عليه حمير وقبائل اليمن ، فكان آخر ملوك حمير ، وتَسَمَّى يوسف ، فأقام في مُلكه زماناً .
وبنجران[٢] بقايا من أهل دين عيسى بن مريم عليه السلام على الإنجيل ، أهل[٣] فضل واستقامة من أهل دينهم ، لهم رأسٌ يقال له : عبد الله بن الثامر[٤] .

ثمّ ذكر ابن إسحاق[٥] سبب دخول أهل نجران في دين النصارى ، وأن ذلك كان على يدي رَجُل يقال له : فَيْمِيُون كان من عُبّاد النصارى بأطراف الشام ، وكان مجاب الدعوة ، وصَحِبه رجلٌ يقال له : صالح ، فكانا[٦] يتعبَّدان يوم الأحد ، ويعمل فيميون بقية الجمعة في البناء ، وكان يدعو للمرضى والزَّمْنَى[٧] وأهلِ العاهات فيشفون ، ثمّ استأسره وصاحِبَه بعضُ الأعراب ، فباعوهما بنجران ، فكان الذي اشترى فَيْميون يراه إذا قام في مُصَلّاه بالبيت الذي هو فيه في الليل يمتلىء عليه البيت نوراً ، فأعجبه ذلك من أمره ، وكان أهل نجران يعبدون نخلة طويلة يعلِّقون عليها حُليَّ نسائهم ويعكفون عندها ، فقال فيميون لسّيده : أرأيتَ إن دعوتُ الله على هذه الشجرة فَهَلَكَتْ أتعلمون أن الذي أنتم عليه باطل ؟ قال : نعم . فجمع له أهل نجران ، وقام فيميون إلى مُصَلّاه ، فدعا الله عليها ، فأرسل الله عليها قاصفاً[٨] فجعفها من أصلها ورماها إلى الأرض ، فاتَّبعه أهل نجران على دين النصرانية ، وحملهم على شريعة الإنجيل حتى حدثت فيهم الأحداث التي دخلت[٩] على أهل دينهم بكل أرض ، فمن هنالك كانت النصرانية بنجران من أرض العرب .

= وأورد الأصفهاني الخبر بشكل يوضح المراد من هذه العبارة ، وفيه أن الحراس يصيحون بالخارج : أرطب أم يباس ، فلما خرج ذو نواس صاحوا : زرعة يا ذا نواس ، أرطب أم يباس؟ فقال : ستعلم الأحراس ، أاست ذي نواس رطب أم يباس (الأغاني ـ ثقافة ٢٢/ ٣٤٦) .

(١) كذا في ط . وفي أ : وأجمعت . وفي ب : فملكوه واجتمعت .

(٢) هذا من تتمة كلام ابن إسحاق .

(٣) كذا في ب وط ، والسيرة . وفي أ : فيهم فضل .

(٤) زاد في ب : وكان موقع أهل ذلك الدين بنجران ، وهي بأوسط أرض العرب في ذلك الزمان وسائر العرب كلها أهل أوثان يعبدونها ، وأن رجلاً من بقايا أهل ذلك الدين يقال له فيمون . وهذه تتمة كلام ابن إسحاق ، وآخره : يقال له فيميون وقع بين أظهرهم فحملهم عليه ، فدانوا به . . تاريخ الطبري (٢/ ١٢١) .

(٥) السيرة (١/ ٣١) . وما بعدها .

(٦) في ط : فكان ، وهو خطأ .

(٧) الزمنى : الذين يطول مرضهم ولا يشفون منه .

(٨) زاد في ب : ريحاً قاصفاً . والجعف : القلع .

(٩) في ب : حلت .

ثمّ ذكر ابن إسحاق قصة عبد الله بن الثامر[١] حين تنصَّر على يدي فيميون ، وكيف قتله وأصحابه ذو نواس ، وخَدَّ لهم الأخدود ـ وقال ابن هشام : وهو الحفر المستطيل في الأرض مثل الخندق[٢] ـ وأجّج فيه النار وحرقهم بها ، وقتل آخرين حتى قَتَل قريباً من عشرين ألفاً ، كما قدّمنا ذلك مبسوطاً في أخبار بني إسرائيل ، وكما هو مستقصى في تفسير سورة ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴾ من كتابنا « التفسير »[٣] ولله الحمد .

***

ذكر خروج المُلْك باليمن من حِميَر وصيرورته إلى الحبشة السودان[٤]

كما أخبر بذلك شِقٌّ وسَطيح الكاهنان . وذلك أنه لم ينج من أهل نجران إلا رجلٌ واحدٌ[٥] يقال له دوس ذو ثعلبان على فَرَس له ، فَسَلك الرمْلَ[٦] ، فأعجزهم ، فمضى على وجهه ذلك حتى أتى قيصرَ صاحب الروم[٧] ، فاستنصره على ذي نواس وجنوده ، وأخبره بما بلغ منهم ، وذلك لأنه نصراني على دينهم . فقال له : بعدت بلادك منا ، ولكن سأكتب لك إلى ملك الحبشة ، فإنه على هذا الدين ، وهو أقرب إلى بلادك . فكتب إليه يأمره بنصره والطلب بثأره . فقَدِم دَوْس على النجاشي بكتاب قيصر ، فبعث معه سبعين ألفاً من الحبشة ، وأمَّر عليهم رجلاً منهم يقال له : أرياط ومعه في جنده أبرهة الأشرم ، فركب أرياطُ البحرَ حتى نزل ساحل[٨] اليمن ، ومعه دوس ، وسار إليه ذو نواس في حِمْير ومَن أطاعه من قبائل اليمن . فلما التقوا انهزم ذو نواس وأصحابه ، فلما رأى ذو نواس ما نزل به وبقومه وجه فرسه في البحر ، ثم ضربه فدخل فيه فخاض به ضَحْضاح[٩] البحر حتى أفضى به إلى غَمْرِه فأدخله فيه[١٠] ، فكان آخر العهد به ، ودخل أرياط اليمن فملكها[١١] .

---

(١) السيرة (١/ ٣٤) .
(٢) السيرة (١/ ٣٦) .
(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٩١) .
(٤) في ط : خروج الملك باليمن من حمير إلى الحبشة السودان .
(٥) تفصيل الخبر في السيرة (١/ ٣٧) ، وتاريخ الطبري (٢/ ١٢٥) .
(٦) كذا في ب وط ، وهو موافق لنص السيرة . وفي أ : الرجل .
(٧) في ط : ملك . وكذلك في السيرة .
(٨) في ط : بساحل .
(٩) الضحضاح من الماء : الذي يظهر منه القعر .
(١٠) كذا في ب ، وهو موافق لنص السيرة ، وأقرب إلى المعنى . وفي أ : غمرة فأدخله فيها . . وفي ط : غمره . . والغَمْر : الماء الكثير .
(١١) في ب وط : وملكها .

وقد ذكر ابن إسحاق هاهنا[١] أشعاراً للعرب فيما وقع من هذه الكائنة الغريبة ، وفيها فصاحة وحلاوة وبلاغة وطلاوة ، ولكن تركنا إيرادها خشية الإطالة ، وخوف الملالة . وبالله المستعان .

***

ذكر خروج أبرهة الأشرم على أرياط
واختلافهما ، واقتتالهما ، وصيرورة ملك اليمن إلى أبرهة بعد قتله أرياط[٢]

قال ابن إسحاق[٣] : فأقام أرياط بأرض اليمن سنين[٤] في سلطانه ذلك ، ثمّ نازعه أبرهة حتى تفرقت الحبشة بينهما[٥] . فانحاز إلى كل منهما طائفةٌ ، ثم[٦] سار أحدهما إلى الآخر . فلما تقارب الناس أرسل أبرهة إلى أرياط إنك لا تصنع[٧] بأن تلقى الحبشةُ بعضُها ببعض حتى تفنيها شيئاً شيئاً[٨] ، فابرُزْ لي وأبرُزُ لك ، فأيّنا أصاب صاحبه انصرف إليه جنده ، فأرسل إليه أرياط : أنصفتَ . فخرج إليه أبرهة وكان رجلاً قصيراً لحِيماً[٩] وكان ذا دين في النصرانية ، وخرج إليه أرياط ، وكان رجلاً جميلاً عظيماً طويلاً وفي يده حَربةٌ له ، وخلف أبرهة غلام يقال له : عَتَوْدَة يمنع ظهرَه ، فرفع أرياط الحربة فضرب أبرهة يريد يافوخَه ، فوقعت الحربة على جبهة أبرهة فشرمت حاجبه وعينه وأنفه[١٠] وشفته ، فبذلك سُمي أبرهة الأشرم . وحمل عَتَودة على أرياط من خلف أبرهة فقتله ، وانصرف جند أرياط إلى[١١] أبرهة . فاجتمعت عليه الحبشة باليمن ، وَوَدَى[١٢] أبرهةُ أرياطَ . فلما بلغ ذلك النجاشي [ملك الحبشة الذي بعثهم إلى اليمن][١٣] غضب غضباً شديداً على أبرهة ، وقال : عَدَا عَلَى أميري فقتله بغير أمري ، ثمّ حَلَف

---

(١) السيرة (١/ ٣٨) وما بعدها .

(٢) نقص العنوان في ط عما هاهنا ، وهو ثمة : خروج أبرهة الأشرم على أرياط واختلافهما . قال ابن إسحاق . .

(٣) السيرة (١/ ٤١) . وانظر تاريخ الطبري (٢/ ١٢٨) .

(٤) كذا في ب وط . وهو موافق لنص السيرة . وفي أ : سنتين .

(٥) في ط : عليهما . وكذلك في السيرة .

(٦) في ب : إلى كل واحد منهما أناس منهم ثم .

(٧) في ط : لن تضيع .

(٨) في ب : بشيء .

(٩) اللحيم : الكثير لحم الجسد .

(١٠) في ب : أنفه وعينه .

(١١) في أ : على .

(١٢) في ب : ووارى . ووداه : دفع ديته .

(١٣) سقطت من ب .

أن[١] لا يدع أبرهة حتى يطأ بلاده ويجزَّ ناصيته ، فحلق أبرهة رأسَه وملأ جُراباً من تراب اليمن ثم بعث به إلى النجاشي ، ثم كتب إليه : أيها الملك إنما كان أرياط عبدك وأنا عبدُك ، فاختلفنا في أمرك ، وكلٌّ طاعتُه لك ، إلا أني كنت أقوى على أمر الحبشة وأضبط لها وأسوس منه . وقد حَلَقْتُ رأسي كله حين بلغني قسمُ الملك ، وبعثت إليه بجراب تراب[٢] من أرضي ليضعه تحت قدميه[٣] فيبرَّ قسمه فيّ . فلما انتهى ذلك إلى النجاشي رضي عنه وكتب إليه أن اثبت بأرض اليمن حتى يأتيك أمري ، فأقام أبرهة باليمن[٤] .

***

ذكر سَبب قصد أبرهة بالفيل مكّة ليخرب الكعبة فأهلكه الله عاجلاً غير آجل ، كما قال سبحانه وتعالى[٥] :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ [الفيل : ١ ـ ٥] .

قيل : أول من ذلَّل الفِيَلة إفريدون بن أثفيان[٦] الذي قَتَل الضحّاك ، قاله الطبري[٧] . وهو أول من اتخذ للخيل السرج . وأما أول من سخَّر الخيل وركبها فطهمورث[٨] وهو الملك الثالث من ملوك الدنيا . ويقال : إن أول من ركبها إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، ويحتمل أنه أول من ركبها من العرب . والله تعالى أعلم .

ويقال : إن الفيل مع عظمة خلقه يَفْرَقُ[٩] من الهر . وقد احتال بعض أمراء الحروب في قتال

---

(١) ليست في ط .
(٢) كذا في ب وط . وهو موافق للسيرة . وفي أ : من تراب اليمن من أرضي .
(٣) في ط : قدمه .
(٤) زاد في ب : وحكى السهيلي أن النجاشي بعث أرياط بعد أبرهة شفقاً عليه ينصره في طاعته ، فخالفه أبرهة وامتنع أن يسلم اليمن إليه ، فاقتتلا ، فلما قتل عتودة أرياط قال له أبرهة : تَمَنَّ عليَّ . قال : أريد أن لا تُزفَّ امرأة بكر في اليمن أو غيرها إلا جيء بها إلي قبله فأقضي وطري منها ، ثم أردها إليه . فأجابه إلى ذلك . فلما طال على أهل اليمن ذلك قتلوا عتودة غيلة ، فلم يعنفهم أبرهة ، ولم يطلبهم بدمه .
(٥) الذي في ط : سبب قصد أبرهة بالفيل مكة ليخرب الكعبة . ألم تر . .
(٦) ليست في ب .
(٧) تاريخه (١/ ٢١٤) ، وخبر قتل الضحاك ثمة .
(٨) تاريخ الطبري (١/ ١٧٢) .
(٩) في ب : عظم خلقه يهرب . والفَرَق : الخوف والفزع .

الهنود بإحضار سنانير[١] إلى حومة الوغى فنفرت الفيلة .

قال ابن إسحاق[٢] : ثمّ إن أبرهة بنى القُلَّيْس بصنعاء ، كنيسةً[٣] لم يُرَ مثلُها في زمانها بشيء من الأرض ، وكتب إلى النجاشي إني قد بنيت لكَ كنيسةً لم يُبْنَ مثلُها لملك كان قبلك ، ولست بمنته حتى أصرف إليها حجَّ العرب .

فذكر السهيلي[٤] أن أبرهة استذلَّ أهل اليمن في بناء هذه الكنيسة الخسيسة ، وسخَّرهم فيها أنواعاً من السّخر . وكان من تأخر عن العمل حتى تطلع الشمس يقطع يده لا محالة . وجعل ينقل إليها من قصر بلقيس رُخاماً وأحجاراً وأمتعة عظيمة ، وركّب فيها صلباناً من ذهب وفضة . وجعل فيها منابر من عاج وأبنُوس ، وجعل ارتفاعها عظيماً جداً ، واتساعها باهراً . فلما هلك أبرهة بعد ذلك وتفرقت[٥] الحبشة كان من يتعرض لأخذ شيء من بنائها وأمتعتها أصابته الجنُّ بسوءٍ . وذلك لأنها كانت مبنية على اسم صنمين ـ كُعَيْب وامرأته ـ وكان طول كلّ منهما ستين ذراعاً . فتركها أهل اليمن على حالها . فلم تزل كذلك إلى زمن السفاح أول خلفاء بني العباس ، فبعث إليها جماعة من أهل العزم والحزم والعلم فنقضها حجراً حجراً ، واندثرت إلى يومك هذا[٦] .

قال ابن إسحاق : فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة إلى النجاشي ، غضب رجلٌ من النَّسَأَة[٧] من كنانة الذين ينسؤون شهر الحرام إلى الحل بمكة أيام الموسم كما قررنا ذلك عند قوله : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ﴾ . . . . الآية[التوبة : ٣٧] قال ابن إسحاق : فخرج الكناني حتى أتى القُلَّيس ، فقعد فيه ، أي أَحْدث حيث لا يراه أحدٌ ، ثم خرج فلحق بأرضه . فأُخْبِر أبرهةُ بذلك . فقال : من صنع هذا ؟ فقيل له : صنعه رجلٌ من أهل هذا البيت الذي تحجّه العرب بمكة لما سمع بقولك إنك تريد أن تصرف حج العرب إلى بيتك هذا ، فغضب ، فجاء ، فقعد فيه . أي إنه ليس لذلك أهل . فغضب أبرهة عند ذلك ، وحلف ليسيرنَّ إلى البيت حتى يهدمه . ثمّ أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت . ثم سار وخرج معه بالفيل ، وسمعت بذلك العرب ، فأعظموه وفظعُوا به ، ورأوا جهاده حقاً عليهم حين سمعوا بأنه يريد هَدْم الكعبة بيت الله

---

(١) السنانير : مفردها سنور .

(٢) السيرة (١/ ٤٣) .

(٣) في ب : فبنى الكنيسة .

(٤) في ب : وقد ذكر والخبر في الروض الأنف (١/ ٦٣) .

(٥) في ط : بعد ذلك أبرهة . . . وفي ب : وتمزقت الحبشة .

(٦) في ط : ودرست آثارها إلى يومنا هذا .

(٧) قال ابن إسحاق : النسأة : الذين كانوا ينسؤون ـ أي يؤخرون ـ الشهور على العرب في الجاهلية ، فيحلون الشهر من الأشهر الحرم ، ويحرمون مكانه الشهر من أشهر الحل ، ليواطئوا عدّة ما حرم الله ، ويؤخرون ذلك الشهر . السيرة (١/ ٤٣) .

الحرام . فخرج إليه رجلٌ وكان من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له : ذو نَفْر ، فدعا قومَه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام(١) وما يريد من هدمه وإخرابه ، فأجابه من أجابه إلى ذلك ، ثم عَرَض له فقاتله . فَهُزِم ذو نَفْر وأصحابه ، وأُخِذَ له ذو نفر فَأُتي به أسيراً ، فلما أراد قتله قال له ذو نفر : يا أيها الملك لا تقتلني فإنه عسى أن يكون بقائي معك خيراً لك من القتل ، فتركه من القتل وحبسه عنده في وثاق ، وكان أبرهة رجلاً حليماً ، ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له ، حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له نُفيل بن حبيب الخثْعمي في قبيلَتي خَثْعم ، وهما شَهْران وناهس ومن تَبِعه من قبائل العرب ، فقاتله ، فهزمه أبرهة ، وأُخِذَ له نُفيل أسيراً ، فأُتي به ، فلما هَمَّ بقتله قال له نفيل : أيها الملك(٢) لا تقتلني فإني دليلك بأرض العرب ، وهاتان يداي لك على قبيلتي خثعم ـ شهران وناهس ـ بالسمع والطاعة . فخلّى سبيله وخرج به معه يدله . حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن مُعَتِّب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف في رجال ثقيف ، فقالوا له : أيها الملك إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون ، ليس لك عندنا(٣) خلاف . وليس بيتنا هذا البيت الذي تريد ـ يعنون اللات ـ إنما تريد البيت الذي بمكة ، ونحن نبعث معك من يدلك عليه . فتجاوز عنهم .

قال ابن إسحاق : واللات بيت لهم بالطائف ، كانوا يعظّمونه نحوَ تعظيم الكعبة . قال فبعثوا معه أَبا رِغال يدلُّه على الطريق إلى مكة . فخرج أبرهة ومعه أبو رغال حتى أنزله بالمغمِّس(٤) . فلما أنزله به مات أبو رغال هنالك ، فَرَجَمَتْ قبرَه العربُ ، فهو القبر الذي يَرْجُم الناسُ بالمغمّس .

وقد تقدّم في قصّة ثمود أن أبا رغال كان رجُلاً منهم ، وكان يمتنع بالحرم ، فلما خرج منه أصابه حَجَرٌ فقتله ، وأن رسول الله ﷺ قال لأصحابه : « وآية ذلك أنه دُفن معه غصنان من ذهب »(٥) ، فحفروا فوجدوهما . قال : وهو أبو ثقيف .

قلت : والجمع بين هذا وبين ما ذَكَر ابنُ إسحاق أن أبا رغال هذا المتأخر وافق اسمه اسم جده الأعلى ، رجمته الناس كما رجموا قبر الأول أيضاً والله أعلم . وقد قال جرير(٦) : [من الوافر]

إذا ماتَ الفَرَزْدَقُ فارْجُموه كرجمِكُمُ لقبرِ أبي رِغَالِ

الظاهر أنه الثاني .

---

(١) زيادة من ب ، وط . موافقة لنص السيرة . وفي ط : وما يريده .
(٢) زيادة من ط ، موافقة لنص السيرة .
(٣) في ب ، وط : ليس عندنا لك .
(٤) في ب : المغمس . وهو موضع بطريق الطائف إلى مكة .
(٥) أخرجه أبو داود في سننه : (٣٠٨٨) ، في الخراج والإمارة ، باب نبش القبور العادية وإسناده ضعيف .
(٦) ليس في ديوانه ، بتحقيق الدكتور نعمان طه .

قال ابن إسحاق : فلما نزل أبرهة المغمِّس بَعَث رجلاً من الحبشة يقال له : الأسود بن مقصود على خيل له حتى انتهى إلى مكة . فساق إليه أموال أهل تِهامة من قُريش وغيرهم . وأصاب فيها مئتي بعير لعبد المطلب بن هاشم ـ وهو يومئذ كبير قُريش وسيِّدها ـ فهمَّت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم[١] بقتاله . ثم عرفوا أنه لا طاقة لهم به ، فتركوا ذلك . وبَعث أبرهة حُنَاطَة الحميري إلى مكة ، وقال له : سَلْ عن سيّد أهل هذا البلد وشريفهم ، ثمّ قل له : إن الملك يقول إني لم آت لحربكم ، إنما جئت لهدم هذا البيت ، فإن لم تعرضوا دونه[٢] بحرب ، فلا حاجة[٣] لي بدمائكم ، فإن هو لم يرد حربي فائتني به . فلما دخل حُناطة مكّة سأل عن سيد قريش وشريفها ، فقيل له : عبد المطلب بن هاشم . فجاءه ، فقال له ما أمره به أبرهة . فقال له عبد المطلب : والله ما نريد حربه ، ومالنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم عليه السلام ـ أو كما قال ـ فإن يمنعه منه فهو حَرَمُه وبيته[٤] ، وإن يُخَلِّ بينه وبينه فوالله ما عندنا دَفْعٌ عنه . فقال له[٥] حُنَاطة : فانطلق معي إليه فإنه قد أمرني أن آتيه بك . فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه ، حتى أتى العسكر ، فسأل عن ذي نَفْر ـ وكان له صديقاً ـ حتى دخل عليه وهو في محبسه ، فقال له : يا ذا نفر هل عندك من غَناء فيما نزل بنا ؟ فقال له ذو نفر : وما غَناء رجل أسير بيدي ملك ينتظر أن يقتله غُدوّاً أو عشيّاً ؟ ما عندي غَناء في شيء مما نزل بك ، إلا أن أُنَيْساً سائسَ الفيل صديق لي ، فسأرسل إليه فأوصيه[٦] بك وأعظم عليه[٧] حقك ، وأسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلمه بما بدا لك ، ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك . فقال : حسبي . فبعث ذو نفر إلى أنيس فقال له : إن عبد المطلب سيد قريش وصاحب عين مكة ، يُطعم الناس بالسهل ، والوحوشَ في رؤوس الجبال ، وقد أصاب له الملك مئتي بعير[٨] ، فاستأذِنْ له عليه وانفعْه عنده بما استطعت . قال : أَفْعَلُ . فكلّم أنيس أبرهة ، فقال له : أيها الملك هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك ، وهو صاحب عين مكة ، وهو الذي يطعم الناس بالسهل ، والوحوشَ في رؤوس الجبال ، فائذن له عليك فليكلمك في حاجته . قال[٩] : فأذن له أبرهة . وكان عبد المطلب أوسَم الناس وأعظمهم

---

(١) في ب : ومن كان من أكابر الحرم .
(٢) في ط : لنا دونه .
(٣) في ب : له .
(٤) في ب : بيته وحرمه .
(٥) ليست في ب .
(٦) في ب وط : وأوصيه .
(٧) زيادة من ب ، وط ، موافقة لنص السيرة .
(٨) في عبارة ب هاهنا بعض التصرف مما يخالف الأصل ونص السيرة ، ولا جديد في ذلك .
(٩) ليست في ط . وفيه : فأذن له أبرهة قال وكان . . .

وأجملهم[١] ، فلما رآه أبرهة أجلَّه وأكرمه عن[٢] أن يجلسه تحته ، وكره أن تراه الحبشة يجلسه معه[٣] على سرير ملكه ، فنزل أبرهة عن سريره[٤] فجلس على بساطه وأجلسه إلى[٥] جانبه ، ثم قال لترجمانه : قل له : حاجتك[٦] ؟ فقال له ذلك الترجمان[٧] ، فقال : حاجتي أن يرد عليّ الملك مئتي بعير أصابها لي . فلما قال له ذلك ، قال أبرهة لترجمانه : قل له : لقد[٨] كنتَ أعجبتني حين رأيتك ، ثم قد زهدتُ فيك حين كلمتني . أتكلّمني في مئتي بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لأهدمه[٩] لا تكلّمني فيه !؟ فقال له عبد المطلب : إني أنا ربُّ الإبل ، وإن للبيت ربّاً سيمنعه . فقال : ما كان ليمتنع مني . قال : أنت وذاك[١٠] . فردّ على عبد المطلب إبلَه .

قال ابن إسحاق : ويقال إنه كان قد دخل مع عبد المطلب على أبرهة يَعْمَر بن نُفاثة بن عدي بن الدِّيل ابن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، سيد[١١] بني بكر ، وخويلد بن وائلة سيد[١٢] هذيل ، فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت، فأبى عليهم ذلك[١٣]، فالله أعلم أكان ذلك أم لا[١٤].

فلما انصرفوا عنه انصرف عبد المطلب إلى قريش ، فأخبرهم الخبر ، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرُّز في رؤوس الجبال[١٥] . ثمّ قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفرٌ من قريش

(١) في ب : وأجملهم وأعظمهم .
(٢) زيادة من ب ، وط . والسيرة .
(٣) في ب : يجلس على .
(٤) قوله : منزل . . سريره . ليس في ب .
(٥) في ط : وأجلسه معه عليه إلى . . وكذلك في السيرة .
(٦) في ب : ما حاجتك .
(٧) زيادة من ب ، وط . والسيرة .
(٨) في ب : قد . وكذلك في السيرة .
(٩) في ب : لهدمه . وكذلك في السيرة .
(١٠) عبارة ب بعد هذا : قال : وكان فيما زعم أهل العلم قد ذهب مع عبد المطلب إلى أبرهة ـ حين بعث إليه حناطة ـ يعمر بن نفاثة . . وكذلك في السيرة .
(١١) في ب : وهو يومئذ سيد . . وكذلك في السيرة .
(١٢) في ب : الهذلي ، وهو يومئذ . . وكذلك في السيرة .
(١٣) ليست في ب . وكذلك في السيرة .
(١٤) زاد في ب : فرد أبرهة الإبل على عبد المطلب التي أصاب له . ومثله في السيرة .
(١٥) في ب : في شَعَف الجبال والشعاب تخوفاً عليهم معرة الجيش . ثم . . . . ومثله في السيرة .
والتحرّز : التمنع . وشعف الجبال : رؤوسها . والشعاب : المواضع الخفية بين الجبال . ومعرة الجيش : شدته .

يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده. وقال عبد المطلب ـ وهو آخذ بحلقةباب[١] الكعبة ـ: [م الكامل]

لا هُــمَّ إنّ العبــدَ يمـ ــنع رَحْلَه فامنَعْ حِلالك[٢]
لا يَغلِبَـــنَّ صَليبُهـــم وَمِحَالُهم غَدْواً مِحالَك[٣]

قال ابن هشام: هذا ما صح عندي[٤] له منها.

وقال ابن إسحاق[٥]: ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة، وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شَعَف الجبال يتحرَّزون[٦] فيها ينتظرون ما أبرهةُ فاعلٌ. فلما[٧] أصبح أبرهة تهيّأ لدخول مكة، وهيأ فِيلَه، وعبّى جيشه، وكان اسم الفيل محموداً، فلما[٨] وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نُفيل بن حبيب حتى قام إلى جنب الفيل، ثم أخذ بأذنه فقال: ابرُك محمود وارجع راشداً من حيث جئت[٩]، فإنك في بلد الله الحرام، وأرسل[١٠] أذنه. فبرك الفيل.

قال السهيلي[١١]: أي سقط إلى الأرض، وليس من شأن الفيلة أن تبرك. وقد قيل إن منها ما يبرك كالبعير، فالله أعلم.

وخرج نُفيل بن حبيب يشتد حتى أصعد الجبل. وضربوا الفيل ليقوم فأبى، فضربوا رأسه

---

(١) كذا في ب، وط، وهو موافق لنص السيرة. وفي أ: بباب.
(٢) في ط: رحالك. والحِلال: جماعة البيوت، ومتاع البيت.
(٣) غدواً: أي غداً.
وزاد في ط بيتاً آخر: [من الرجز]
إن كنـــت تـــاركهـــم وقبـ ـلتنـا فـأمـر مـا بـدا لـكْ
وهو في السيرة زيادة عن الواقدي.
(٤) ليست في ط. ولا في نص السيرة.
(٥) زاد في ب: قال ابن إسحاق: وقال عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي:
لا هـم أَخز الأسود بـن مقصـودْ الآخـذَ الهجمـة فيهـا التقليـدْ
بيـن حـراء وثبيـر فـالبيـدْ يحبسهـا وهـي أولات التطـريـدْ
فضمهـا إلـى طمـاطـم سـود أخفـره يـا رب وأنـت محمـود
قال ابن هشام: هذا ما صح له منها.. وهذا من تمام نص السيرة.
(٦) في ب: فتحرزوا.
(٧) زاد في ب: فاعل بمكة إذا دخلها، فلما... وكذلك في السيرة.
(٨) في ب: وأبرهة مجمع لهدم البيت ثم الانصراف إلى اليمن. فلما.. وكذلك في السيرة.
(٩) في ط: أتيت.
(١٠) في ب: ثم أرسل. وكذلك في السيرة.
(١١) قول السهيلي سقط من ب. وهو في الروض (١/ ٧١).

بالطَّبَرْزين[١] ليقوم فأبى ، فأدخلوا محاجنهم[٢] في مَرَاقّه فبزغوه بها ليقوم ، فأبى . فوجّهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول . ووجّهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك . ووجّهوه إلى مكة فبرك . وأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبَلَسان[٣] ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها ، حجرٌ في منقاره وحجران في رجليه ، أمثال الحِمَّص والعدس ، لا تصيب منهم أحداً إلا هَلَكَ ، وليس كلهم أصابت ، وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق التي منها جاؤوا . ويسألون عن نُفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق إلى اليمن ، فقال نفيل[٤] في ذلك : [من الوافر]

ألا حُيّيتِ عنّا يا رُدَينا ... نَعِمناكُم معَ الإصباحِ عَيْنا

رُدَيْنةُ لو تَرين ولا تَرُيْه ... لَدى جَنْبِ المحصَّبِ ما رأينا[٥]

إذاً لعذَرْتِني وحَمِدْتِ أمري ... ولَم تأسَيْ علَى ما فاتَ بَيْنا

حَمِدتُ الله إذْ أبصَرْتُ طَيراً ... وخِفْتُ حِجارةً تُلقَى علَينا[٦]

فكلُّ القَومِ يسألُ عن نُفَيل ... كأنّ عليّ للحُبْشانِ دَينا[٧]

قال ابن إسحاق[٨] : فخرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون [بكل مَهْلَك][٩] على كل مَنْهل . وأُصيب أبرهة في جسده ، وخرجوا به معهم يسقط أنْملة [أُنملة][١٠] ، كلما سقطت أُنملة أتبعتها منه مِدَّة تَمُثُّ[١١] قيحاً ودماً حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر . فما مات حتى انصدَع صدرُه

---

(١) الطبرزين : آلة من حديد . والطبر ، بالفارسية : الفأس . وفي المعرب للجواليقي (٢٢٨) : والطبرزين : فارسي . وتفسيره : فأس السرْج . لأن فرسان العجم تحمله معها يقاتلون به .

(٢) في ب ، وط : محاجن لهم . ومثله في السيرة . والمحجن : عصا معوجة ، وقد يجعل في طرفها حديد . ومراقّه : أسفل بطنه . وبزغوه : أدموه .

(٣) الخطاطيف : جمع خُطّاف ، وهو طائر أسود . والبلسان : لعلها الزرازير .

(٤) في ب ، زيادة : فقال نفيل بن حبيب حين رأى ما أنزل الله بهم من نقمته : [من الرجز]

أيـن المفر والإلـه الطـالـب ... والأشرم المغلوب ليس الغالب

قال ابن هشام : قوله : ليس الغالب ، عن غير ابن إسحاق . وهذا من تمام نص السيرة .

(٥) في ب ، وط : لو رأيت . وكذلك في السيرة . وفي ط : ولا . . ومثله في السيرة . والمحصب : موضع فيما بين مكة ومنى .

(٦) في ب : أن أبصرت . وفي أ : ترمى . وأثبت ما في ب ، وط . لموافقته ما في السيرة .

(٧) في ط : وكل . وكذلك في السيرة .

(٨) ليست في ب .

(٩) زيادة من ط ، توافق نص السيرة .

(١٠) زيادة من ب ، وط ، والسيرة . وقوله : يسقط أنملة أنملة ، أي ينتثر جسمه . الروض الأنف (١/ ٧٤) .

(١١) تمث : ترشح . والمدة : ما يجتمع في الجرح من القيح .

[عن قلبه][١] فيما يزعمون .

قال ابن إسحاق[٢] : حدثني يعقوب بن عُتبة أنه حُدِّث أن أول ما رؤيت الحصْبة والجُدَري بأرض العرب ذلك العام ، وأنه أول ما رؤي بها مرائر الشجر الحرمل والحنظل والعُشَر[٣] ذلك العام .

قال ابن إسحاق : فلما بعثَ اللهُ محمداً ﷺ كان مما يعد[٤] الله على قريش من[٥] نعمته عليهم وفضله ما ردّ عنهم من أمر الحبشة لبقاء أمرهم ومدتهم فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ [الفيل : ١ ـ ٥] .

ثم شرع ابن إسحاق وابن هشام يتكلمان على تفسير هذه السورة والتي بعدها[٦] . وقد بسطنا القول في ذلك في كتابنا « التفسير »[٧] بما فيه كفاية إن شاء الله تعالى . وله الحمد والمنة .

قال ابن هشام : الأبابيل : الجماعات ، ولم تتكلم لها العرب بواحد علمناه[٨] . قال وأما السِّجّيل ، فأخبرني يونس النحوي وأبو عُبيدة أنه عند العرب : الشديد الصلب . قال : وزعم بعض المفسرين أنهما كلمتان بالفارسية جعلتهما العرب كلمة[٩] واحدة ، وأنهما[١٠] (سَنْجُ) و (جِل)[١١] فالسنج : الحجر ، والجل : الطين . يقول الحجارة[١٢] من هذين الجنسين الحجر والطين . قال : والعَصْفُ : ورق الزرع الذي لم يقصَّب .

وقال الكسائي : سمعت بعض النحويين يقول : واحد الأبابيل إبّيل[١٣] . وقال كثيرون من السلف : الأبابيل : الفِرق من الطير التي يتبع بعضها بعضاً من هاهنا وهاهنا .

---

(١) زيادة من ب ، وط ، والسيرة .
(٢) قول ابن إسحاق هذا إلى آخر الآية سقط من ب .
(٣) العشر : شجر مر له صمغ ولبن . من فصيلة الحنظل والحرمل .
(٤) في ب ، وط : يعدد .
(٥) زيادة من ب ، وط ، والسيرة .
(٦) السيرة (١/ ٥٥) .
(٧) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٤٨) ، وما بعدها .
(٨) كذا في ط . وهو موافق لنص السيرة . وفي أ وب : ولم تتكلم العرب بواحدة .
(٩) ليست في ب .
(١٠) في ط : وأنها .
(١١) في المعرّب : قال ابن قتيبة : السجيل بالفارسية : (سنك) و(كل) أي : حجارة وطين . (١٨١) .
(١٢) زيادة من ط . والسيرة .
(١٣) أورد الطبري في تفسيره (٣٠/ ١٩١) وما بعدها معظم الآراء التي جاءت في تفسير هذه الكلمة .

وعن ابن عباس كان لها خراطيم كخراطيم الطير ، وأكُفٌّ كأكفِّ الكلاب .

وعن عكرمة كانت رؤوسها كرؤوس السباع ، خرجت عليهم من البحر ، وكانت خضراً . وقال عبيد بن عمير : كانت سُوداً بحرية في مناقيرها وأكفها الحجارة .

وعن ابن عباس : كانت أشكالها كعنقاء مُغرب[1] .

وعن ابن عباس كان أصغر حجر منها كرأس الإنسان ، ومنها ما هو كالإبل . وهكذا ذكره يونس بن بكير عن ابن إسحاق . وقيل : كانت صغاراً . والله أعلم .

وقال ابن أبي حاتم : حدّثنا أبو زرعة ، حدّثنا عبد الله بن محمد بن أبي شيبة[2] ، حدّثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن أبي سفيان ، عن عُبيد بن عُمير قال : لما أراد الله أن يُهلك أصحابَ الفيل بعث عليهم طيراً أنشئت من البحر أمثال الخطاطيف ، كل طير منها يحمل ثلاثة أحجار مجزّعة[3] ، حجرين في رجليه وحجراً في منقاره ، قال : فجاءت حتى صفت على رؤوسهم . ثم صاحَت وأَلْقت ما في رجليها ومناقيرها . فما يقع حجر على رأس رجل إلّا خرج من دبره . ولا يقع على شيء من جسده إلّا خرج من الجانب الآخر . وبعث الله رِيحاً شديدةً فضربت الحجارة فزادتها شدة ، فأهلكوا جميعاً .

وقد تقدّم أن ابن إسحاق قال : وليس كلّهم أصابته الحجارة ، يعني بل رَجَع منهم راجعون إلى اليمن حتى أَخْبروا أهلَهم بما حلّ بقومهم من النّكال .

وذكروا أن أبرهة رجع وهو يتساقط أُنملة أنملة ، فلما وصل إلى اليمن انصَدَع صدرُه فمات ، لعنه الله[4] .

وروى ابن إسحاق قال : حدّثني عبد الله بن أبي بكر ، عن عمْرة[5] ، عن عائشة قالت : لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعْميَيْن مُقْعَدَين يستطعمان .

وتقدم أن سائس الفيل كان اسمه أُنيسا ، فأما قائده فلم يُسم . والله أعلم .

---

(١) عنقاء مغرب ، يضرب بها المثل في الشيء الذي يُسمَع به ولا يُرى ، يقال : (أعز من عنقاء مغرب) . ثمار القلوب (٤٥٠) .

(٢) في أ وط : محمد بن عبد الله بن أبي شيبة . وأثبت ما في ب ، فهو الصواب ومثله في تفسير المؤلف (٤/ ٥٥١) وأبو زرعة روى عن عبد الله بن محمد ، وعبد الله أخذ عن أبي معاوية . سير أعلام النبلاء (١١/ ١٢٢ ـ ١٢٣) .

(٣) سقطت من ط . والمجزعة : المقطعة .

(٤) ذكره ابن إسحاق في السيرة (١/ ٥٤) .

(٥) كذا في ب ، وهو موافق لنص السيرة ، وهو الصواب . وفي أ . وط : سمرة وهو تحريف . وعمرة هي ابنة عبد الرحمن بن سعد بن زرارة ، كما في السيرة (١/ ٥٧) .

وذكر النقّاش[(١)] في « تفسيره » أن السيل احتمل جُثَثَهم فألقاها في البحر .

قال السهيلي[(٢)] : وكانت قصة الفيل في المحرم من[(٣)] سنة ست وثمانين وثمانمئة[(٤)] من تاريخ[(٥)] ذي القرنين .

قلت : وفي عامها ولد رسول الله ﷺ على المشهور . وقيل : كان قبل مولده بسنين ، كما سنذكر إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة .

ثم ذكر ابن إسحاق[(٦)] ما قالته العرب من الأشعار في هذه الكائنة العظيمة التي نَصَرَ اللهُ فيها بيتَه الحرام الذي يُريد أن يشرّفه ويعظّمه ويطهّره ويوقّره ببعثة محمد ﷺ وما يشرع له من الدين القويم الذي أحد أركانه الصلاة ، بل عماد دينه ، وسيجعل قبلته إلى هذه الكعبة المطهّرة . ولم يكن ما فعله بأصحاب الفيل نُصْرَةً لقريش إذ ذاك على النصارى الذين هم الحبشة ، فإن الحبشة إذ ذاك كانوا أقرب لها[(٧)] من مشركي قريش ، وإنما كان النصر للبيت الحرام ، وإرهاصاً وتوطئة لبعثة محمد ﷺ .

فمن ذلك ما قاله عبد الله بن الزِّبَعْرَى السهمي[(٨)] : [من الكامل]

فَتَنَكّلوا عن بطنِ مكّة إنّها ... كانتْ قديماً لا يُرام حَريْمُها[(٩)]

لم تُخلَق الشِّعرى لياليَ حُرّمت ... إذْ لا عزيزَ من الأنامِ يرومُها

سائلْ أميرَ الحُبْشِ عنها ما رأى ... فلسوفَ يُنبي الجاهلينَ عليمُها[(١٠)]

ستّون ألفاً لم يَؤوبوا أرضَهم ... بلْ لم يعشْ بعدَ الإيابِ سَقيمُها

كانتْ بها عاد وجُرْهُم قبلَهم ... واللهُ من فوقِ العبادِ يُقيمها[(١١)]

---

(١) هو محمد بن الحسن بن محمد بن زياد الموصلي ، أبو بكر ، النقاش ، علّامة ، مفسر ، شيخ القراء . له عدة كتب . ولد سنة (٢٦٦هـ) وتوفي سنة (٣٥١هـ) . ترجمته في سير أعلام النبلاء (١٥/ ٥٧٣) .
(٢) الروض الأنف (١/ ٧٢) عن تفسير النقاش .
(٣) في ط : أول المحرم وهو موافق لنص السهيلي .
(٤) في الروض الأنف : سنة اثنتين وثمانين .
(٥) زيادة من ط ، توافق نص السهيلي .
(٦) السيرة (١/ ٥٧) .
(٧) في ب : أقرب حالاً .
(٨) أحد شعراء الدعوة الإسلامية . توفي سنة (١٥هـ) . والأبيات في ديوانه (٤٩) .
(٩) في ط ، وديوان ابن الزبعرى : تنكلوا وعلى هذه الرواية يصاب البيت بالوقص .
(١٠) في الديوان ، والسيرة : الجيش . . . ولسوف .
(١١) سقط هذا البيت من ب .

ومن ذلك قول أبي قيس بن الأسلت الأنصاري المدني[١] : [من المتقارب]

ومِنْ صُنعهِ يومَ فيلِ الحبُو ... شِ إذْ كلّما بعثُوه رَزَم[٢]
محاجنهم تحتَ أقرابه ... وقدْ شَرَموا أنفَه فانخرَم[٣]
وقد جَعلوا سوْطَه مِغْولاً ... إذا يَمّموه قَفاهُ كُلِم[٤]
فولّى وأَدبَرَ أدراجَه ... وقدْ باءَ بالظلم من كان ثَم
فأرسل من فوقهم حاصباً ... فلفّهمُ مثلَ لفّ القُزُم[٥]
تحثّ على الصّبر أحبارُهم ... وقد ثأَجوا كثُؤاجِ الغَنَم[٦]

ومن ذلك قول أبي الصلت ربيعة[٧] بن أبي ربيعة وهب بن علاج الثقفي . قال ابن هشام : ويروي لابنه أمية[٨] ابن أبي الصلت : [من الخفيف]

إن آياتِ ربّنا باقياتٌ ... ما يُمارِي فيهنّ إلا الكَفُور[٩]
خلَق الليلَ والنهارَ فكلٌّ ... مستبينٌ حسابُهُ مقدور
ثم يجلو النهارَ ربٌّ رحيم ... بِمَهَاةٍ شُعاعُها مَنشورُ[١٠]
حَبسَ الفيلَ بالمغمّس حتّى ... صَارَ يحبو كأنه مَعْقُورُ[١١]
لازماً حَلْقَة الجِرانِ كما قُطْـ ... ـر من ظهرِ كَبْكَبٍ مَحْدُور[١٢]

---

(١) أبو قيس صيفي بن عامر الأسلت شاعر جاهلي حكيم ، أدرك النبي ولقيه وتريث في إعلان إسلامه ، ومات قبل أن يسلم في السنة الأولى للهجرة .
والأبيات في ديوانه (٩٠) بتحقيق د . حسن محمد باجودة .
وقال ابن هشام : والقصيدة أيضاً تروى لأمية بن أبي الصلت . السيرة (١/ ٥٩) .
والأبيات في ديوان أمية (٤٩٢) بتحقيق أستاذنا د . عبد الحفيظ السطلي .
(٢) رزم البعير والرجل : إذا كان لا يقدر على النهوض إعياءً أو هزالاً .
(٣) المحاجن : العصي المعوجة كالصولجان . والأقراب : مفردها قُرْب ، وهو الخاصرة .
(٤) المغول : سيف دقيق غمده كالسوط . وكُلم : جُرح .
(٥) في أ ، ب يلفهم وأثبت رواية ط ، والديوان والسيرة ، فهي أولى وأقرب للمعنى . والحاصب : ريح شديدة تحمل التراب . والقُزُم : مفردها قَزَم ، وهو اللئيم الدنيء الصغير الجثة .
(٦) في ب ، وط ، والديوان : تحض . والثؤاج : صياح الغنم .
(٧) ليست في السيرة . وفي اسم أبي الصلت خلاف . ديوان أمية (٣٣) .
(٨) في ط : ويروي لأمية : والأبيات في ديوان أمية (٣٩١) وتخريجها ثمة .
(٩) في ط ، والسيرة ، والديوان : ثاقبات .
(١٠) المهاة : الشمس .
(١١) المغمس : موضع في طرف الحرم . والعقر : أن تقطع إحدى قوائم البعير قبل نحره كيلا يشرد عند النحر .
(١٢) في ط : قد من صخر . والجِران : باطن العنق . وقُطّر : ألقي من علو على قطره، أي جانبه . وكبكب : جبل بمكة خلف عرفات .

حـولَـه مـن ملـوك كِنـدة أبطـا　　　لٌ ملاويثُ في الحروب صُقُور[(١)]
خَلَّفـوه ثـم ابـذَعَـرُّوا جَميعـاً　　　كُلُّهـم عَظْـمُ سـاقـهِ مَكْسـور[(٢)]
كـلُّ دِيـنٍ يـومَ القيامـة عنـدَ اللّـ　　　ـه إلّا ديـنَ الحنيفـةِ بُـورُ

ومن ذلك قول أبي قيس بن الأسلت[(٣)] أيضاً : [من الطويل]

فقُـومـوا فَصَلّـوا ربَكـم وتمسحـوا　　　بأركانِ هذا البيت بين الأخاشبِ[(٤)]
فعِنـدكـمُ منـهُ بـلاءٌ مُصَـدَّق　　　غـداة أبي يكسـوم هـادي الكتـائـب
كتيبتُـه بـالسهـلِ تَمشـي ورَجْلُـه　　　على القاذفاتِ في رؤوسِ المناقب[(٥)]
فلما أتاكم نصرُ ذي العرش ردَّهم　　　جنودُ المليكِ بين سَافٍ وحاصبِ[(٦)]
فـولَّـوا سِراعـاً هـاربيـن ولـم يـؤب　　　إلى أهله مِلحُبْش غيرُ عصائبِ[(٧)]

ومن ذلك قول عبد[(٨)] الله بن قيس الرُّقَيّات في عظمة البيت وحمايته بهلاك من أراده بسوءٍ : [من الخفيف]

كـادَهُ الأشْـرَم الـذي جـاءَ بـالفيـ　　　ـلِ فَـوَلّـى وجَيْشُـه مَهْـزُومُ[(٩)]
واستهلـت عَليهـمُ الطَّيْـرُ بـالجنـ　　　ـدَلِ حتّـى كـأنّـه مَـرْجُـومُ[(١٠)]
ذاكَ مَـن يَغْـزُهُ مـن النـاسِ يَـرْ　　　جع وهو فَلٌّ من الجيوشِ ذميم[(١١)]

قال ابن إسحاق[(١٢)] وغيره : فلما هلك أبرهة مَلَكَ الحبشة بعده ابنُه يَكْسوم . ثم من بعده أخوه

---

(١) الملاويث : الأشداء ، مفردها : مَلاث ، أو مِلْوَث .
(٢) ابذعروا : تفرقوا .
(٣) ديوانه ص (٦٩) من قصيدة مطلعها :
أيـا راكبـاً إمّـا عَـرَضْـتَ فبلغَـنْ　　　مغلغلـةً عنـي لـؤي بـن غـالـب
(٤) الأخاشب : جبال بمكة .
(٥) القاذفات : أعالي الجبال البعيدة . والمناقب : جمع منقبة ، وهي الطريق في رأس الجبل . ورواية أ : المقانب وهي بعيدة ، فالمقانب : الذئاب .
(٦) السافي : أراد الذي غطّاه التراب . والحاصب : الذي أصابته الحجارة .
(٧) ملحبش : أي من الحبش . والعصائب : الجماعات .
(٨) في ط : عبيد . وقيل في اسمه : عبد الله وعبيد الله ، وهو شاعر قريش في العصر الأموي . توفي سنة (٨٥هـ) . والأبيات في ديوانه ص (١٩٢) . عن السيرة .
(٩) في ب : لأبرهة الأشرم . ولا يستقيم بها الوزن .
(١٠) الجندل : الحجارة .
(١١) فَلٌّ : منهزم .
(١٢) السيرة (١/ ٦١) .

مسروق بن أبرهة ، وهو آخر ملوكهم . وهو الذي انتزع سيف بن ذي يَزَن الحِميري المُلْكَ مِن يده بالجيش الذين قَدِم بهم من عند كسرى أنوشروان ، كما سيأتي بيانهُ .

وكانت قِصّة الفيل في المحرم سنة ست وثمانين وثمانمئة من تاريخ[١] ذي القرنين ، وهو الثاني إسكندر بن فلبس المقدوني الذي يُؤرِّخ له الروم ، ولما هَلَك أبرهة وابناه ، وباد[٢] مُلك الحبشةِ عن اليمن ، هُجِر القُلَّيس الذي كان بناه أبرهة وأراد صرف حج العرب إليه لجهله[٣] وقِلّة عقله . وأصبح يباباً لا أنيس به . وكان قد بناه على صَنمين[٤] ، وهما كُعيب وامرأته ، وكانا من خَشَب طول كل منهما ستون ذراعاً في السماء ، وكانا مصحوبين من الجان ، ولهذا كان لا يتعرَّض أحدٌ إلى أخذ شيءٍ من بناء القُلّيس وأمتعته إلا أصابوه بسوءٍ . فلم يزل كذلك إلى أيام السفّاح أول خلفاء بني العباس ، فذُكر له أمره وما فيه من الأمتعة والرُّخام الذي كان أبرهة نقله إليه من صرح بلقيس الذي كان باليمن ، فبعث إليه من خربه حَجَراً حجراً ، وأخذ جميع ما فيه من الأمتعة والحواصل . هكذا ذكره السهيلي[٥] . والله أعلم .

***

ذكر خروج المُلْك عَن الحبشة وَرجوعه إلى سيف بن ذي يَزَن الحِمْيَري كما أخبر بذلك الكاهنان لربيعة بن نصر اللخمي[٦]

قال محمد إسحاق[٧] رحمه الله : فلما هلك أبرهةُ مَلَكَ الحبشةَ يكسومُ بن أبرهة ، وبه كان يكنى ، فلما هلك يَكسومُ مَلَكَ اليمنَ في الحبشة[٨] أخوه مسروقُ بن أبرهة .

قال : فلما طال البلاءُ على أهل اليمن ، خرج سيفُ بن ذي يزن الحميري[٩] ، وهو سيف بن ذي يزن بن ذي أصبح بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن العرنجج ، وهو حمير سبأ ـ وكان سيف يكنى

---

(١) زيادة من ط .
(٢) في ط : وزال .
(٣) في ب : بجهله ، وسقطت أيضاً كلمة : وأصبح . من ب .
(٤) في ب : على اسم صنمين .
(٥) الروض الأنف (١/ ٦٣) .
(٦) ورد العنوان في ط . مختصراً خروج الملك عن الحبشة ورجوعه إلى سيف بن ذي يزن .
(٧) السيرة (١/ ٦١) وما بعدها .
(٨) في ب : ملك الحبشة أخوه . وفي ط : من الحبشة .
(٩) في السطرين القادمين تقديم وتأخير في ب .

أبا مرة ـ حتى قدم على قيصر ملك الروم فشكى إليه ما هو فيه ، وسأله أن يخرجهم عنه ويليهم[١] ويخرج إليهم من سائر[٢] الروم فيكون له ملك اليمن ، فلم يُشكِه . فخرج حتى أتى النعمان بن المنذر ، وهو عامل كسرى على الحيرة وما يليها من أرض العراق ، فشكا إليه أمرَ الحبشة ، فقال له النعمان : إن لي على كسرى وِفادة في كل عام ، فأقم عندي حتى يكون ذلك ، ففعل . ثم خرج معه فأدخله على كسرى ، وكان يجلس في إيوان مجلسه الذي فيه تاجه[٣] وكان تاجه مثل القُنْقُل العظيم ـ فيما يزعمون ـ يضرب فيه الياقوت والزبرجد واللؤلؤ بالذهب والفضة ، معلقاً بسلسلة من ذهب في رأس طاقة في[٤] مجلسه ذلك ، وكانت عنقه لا تحمل تاجه ، إنما يُسْتَرُ بالثياب[٥] حتى يجلس في مجلسه ذلك[٦] ، ثم يُدخِلُ رأسَه في تاجه ، فإذا استوى في مجلسه كُشِفَ عنه الثيابُ فلا يـراه أحد[٧] لم يره قبلَ ذلك إلّا برك هيبةً له . فلما دخل عليه سيف بن ذي يزن بَـرَك . قال ابن هشام : حدثني أبو عبيدة أن سيفاً لما دخل عليه[٨] طأطأ رأسه ، فقال الملك : إن هذا الأحمق يدخل عليَّ من هذا الباب الطويل ثم يطأطئ رأسَه ! فقيل ذلك لسيف . فقال : إنما فعلتُ هذا لهمي لأنه يضيق عنه كل شيء[٩] . قال ابن إسحاق ثم قال : أيها الملك غَلَبنا على بلادنا الأغربة . قال كسرى : أيُّ الأغربة ؛ الحبشة أم السند ؟ قال : بل الحبشة ، فجئتك لتنصرني ويكونَ ملك بلادي لك . فقال له كسرى : بَعُدَت بلادك مع قلة خيرها ، فلم أكن لأورّط جيشاً من فارس بأرض العرب ، لا حاجة لي بذلك ، ثم أجازه بعشرة آلاف درهم وافٍ[١٠] وكساه كسوة حسنة ، فلما قبض ذلك[١١] سيف ، خرج فجعل ينثر تلك الورِق للناس ، فبلغ ذلك الملك ، فقال إن لهذا لشأنا[١٢] ، ثم بعث إليه فقال : عمدت إلى حِباء الملك تنثرُه للناس ؟! قال : وما أصنع بهذا ؟

---

(١) في أ : عن ويلهم ويخرج . وفي ط : ويلهم ، وأثبت ما في ب .

(٢) في ط : شاء من .

(٣) زيادة من ط . وفي ب : الذي تاجه مثل القنقل . والقنقل : المكيال الضخم ، واسم تاج لكسرى (المحيط) . الروض الأنف (١/ ٨٢) .

(٤) كذا في ب ، وط . وفي أ من .

(٥) في ب : يستتر بالثياب . وفي ط : يستر عليه بالثياب .

(٦) زاد في ب : قال الخليل : القنقل : شجر له ثمر عظام .

(٧) في ب : كشفت الثياب عنه فلا يراه رجل .

(٨) قوله : سيف بن ذ . . . إلى هنا زيادة من ب ، وكذلك النص في السيرة (١/ ٦٣) .

(٩) كذا في ط . وهو موافق لنص السيرة . وفي أ : فعلت ذلك لهمتي . .
وفي ب : فعلت ذلك لهمي لأني تضيق علي كل شيء . وقوله : قال ابن إسحاق ليس في ط .

(١٠) وفى الدرهمُ المثقالَ : عَدَلَه . وفي ب : ورق .

(١١) زاد في ط : منه .

(١٢) زاد في ب : عظيماً .

ما[١] جبال أرضي التي جئتُ منها إلا ذهبٌ وفضة ، يُرَغِّبُه فيها ، فجمع كسرى مرازبته ، فقال لهم[٢] : ما ترون في أمر هذا الرجل وما جاء له ؟ فقال قائل : أيّها الملك ، إن في سجونك رجالاً قد حبستهم للقتل ، فلو أنك بعثتَهم معه ، فإن يهلكوا كان ذلك الذي أردت بهم ، وإن ظفروا كان ملكاً ازددْتَه ، فبعث معه كسرى مَن كان في سجونه ، وكانوا ثمانمئة رجل ، واستعمل عليهم وَهْرز ، وكان ذا سنّ فيهم ، وأفضلَهم حسباً وبيتاً ، فخرجوا في ثمان سفائن[٣] ، فغرقت سفينتان ووصل إلى ساحل عدن ست سفائن ، فجمع سيف إلى وَهْرز من استطاع من قومه ، وقال له : رِجلي ورجلك[٤] حتى نموت جميعاً أو نظفر جميعاً . فقال له وَهْرز : أنصفتَ . وخرج إليه مسروقُ بن أبرهة ملك اليمن ، وجمع إليه جندَه ، فأرسل إليهم وهرز ابناً له ليقاتلهم فيختبر قتالَهم ، فقُتِل ابنُ وهرز ، فزاده ذلك حَنَقاً عليهم ، فلما تواقف الناس على مصافهم قال وَهْرز : أَروني مِلِكَهم . فقالوا له : أترى رجلاً على الفيل عاقداً تاجه على رأسه ، بين عينيه ياقوتة حمراء ؟ قال : نعم . قالوا : ذلك ملكهم . فقال : اتركوه . قال[٥] : فوقفوا طويلاً ، ثم قال : عَلَامَ هو ؟ قالوا : [قد تحوّل على الفرس . قال : اتركوه . فتركوه طويلاً . ثم قال : عَلامَ هو ؟ قالوا :][٦] على البغلة . قال وهرز : بنتُ الحمار ! ذلّ وذلَّ مُلكُه ، إني سأرميه فإن[٧] رأيتم أصحابه لم يتحركوا فاثبتوا حتى أوذنكم ، فإني قد أخطأتُ الرجلَ ، وإن رأيتمُ القومَ قد استداروا به ولاثوا[٨] فقد أصبتُ الرجلَ فاحملوا عليهم . ثم وَتَرَ قوسه ـ وكانت فيما يزعمون لا يوترها غيرُه من شدتها ـ وأمر بحاجبَيه فعصّبا له ، ثم رماه ، فَصَكَّ الياقوتةَ التي بين عينيه ، وتغلغلت النُّشَّابة في رأسه حتى خرجت من قفاه ، ونُكِس عن دابته ، واستدارت الحبشةُ ولاثت به[٩] ، وحملت عليهم الفرس ، وانهزموا[١٠] فقُتِلوا وهَرَبوا في كل وجه ، وأقبلَ وَهْرز ليدخلَ صنعاء ، حتى إذا أتى بابها قال : لا تدخل رايتي مُنَكَّسةً أبداً ، اهدموا هذا[١١] الباب فهدم ، ثم دخلها ناصباً رايته . فقال سيف بن ذي يزن[١٢] : [من مجزوء الوافر]

---

(١) زيادة من ب ، وكذلك في السيرة . وفي ط : بحباك .
(٢) زيادة من ط . وكذلك في السيرة .
(٣) في ب : سفن . وكلا الجمعين صحيح .
(٤) في ب : مع رجلك . وكذلك في السيرة . وسقط من ب قوله : أو نظفر جميعاً .
(٥) ليست في ب . ولا في السيرة .
(٦) سقطت من ب .
(٧) كذا في ب ، وط ، والسيرة . وفي أ : فإذا .
(٨) في ب ، والسيرة : ولاثوا به . ولاثوا به : اجتمعوا حوله .
(٩) في ب : به ولاثت .
(١٠) في ط : فانهزموا .
(١١) ليست في ب ، والسيرة .
(١٢) زاد في ط ، والسيرة : الحميري . والأبيات في السيرة (١/ ٦٥) والروض الأنف (١/ ٨٤) .

يظـن النـاسُ بـالملْكيـ ـنِ أنهمـا قـد التـأمـا
ومـن يسمـعْ بـلأمِهمـا فـان الخطـب قـد فَقِمـا[١]
قتلنـا القَيْـلَ مسـروقـاً وروّينـا الكثيـبَ دمـا
وإن القيـلَ قيـل النـا سِ وهـرز مُقْسِـم قَسَمـا
يـذوق مُشَعْشَعـاً حتـى يُفـيءَ السبـيَ والنَّعمـا

ووفدت العرب من الحجاز وغيرها على سيف يهنئونه بعود المُلْك إليه ، وامتدحوه . فكان من جملة من[٢] وفَدَ من قريش ، وفيهم عبد المطلب بن هاشم ، فبشّره سيف برسول الله ﷺ وأخبره بما يعلم[٣] من أمره ، وسيأتي ذلك مفصّلاً في باب البشارات به عليه الصلاة والسلام .

قال ابن إسحاق[٤] : وقال أبو الصلت بن أبي ربيعة[٥] الثقفي ، قال ابن هشام ويروى لابنه أمية[٦] :

لِيطلبِ الوِترَ أمثالُ ابن ذي يَزَن ريَّم في البحرِ للأعداءِ أحوالا[٧]
يمَّمَ قيصر لما حانَ رحلته فلم يجد عندَه بعضَ الذي سالا[٨]
ثم انثنى نحو كسرى بعدَ عاشرةٍ من السنين يهين النفسَ والمالا[٩]
حتى أتى ببني الأحرارِ يَحملُهم إنك عَمْري لقد أسرعتَ قَلقالا[١٠]
لله درُّهمُ من عصْبةٍ خرجوا ما إن أرى لهمُ في الناسِ أمثالا
غُلباً مرازبةً بِيضاً أساورةً أُسْداً تُربّبُ في الغَيْضات أشبالا[١١]
يرمُون عَنْ شُدُفٍ كأنها غُبُط بزَمْجَرٍ يُعجِل المرميَّ إعجالا[١٢]

---

(١) كذا في ط ، والسيرة . والروض الأنف وفي أ : ملامهما . وفي ب : كلاهما .
(٢) زيادة من ب ، وط . يستقيم بها المعنى .
(٣) في ب : يكون .
(٤) السيرة (١/ ٦٥) .
(٥) في أ ، وب : أمية وهو سهو .
(٦) في ط : ويروى لأمية بن أبي الصلت ، وكذلك نص السيرة . والأبيات في ديوان أمية : (٤٥٣) ، رجح الدكتور السطلي أنها منحولة .
(٧) في ديوان أمية : ليطلب الثأر . وريّم : زاد في السير .
(٨) في أ : لقيصر . وفي ط : قيصراً .
(٩) هذا البيت لم يرد في أ وب . وهو في السيرة والديوان . وط .
(١٠) قلقل في الأرض قلقلة وقلقالاً : ضرب فيها .
(١١) الغُلْب : مفردها أغلب ، وهو الغليظ الرقبة . والمرازبة : مفردها مرزبان وهو عند الفرس الفارس الشجاع . والأساورة : مفردها إسوار ، وهو القائد من الفرس . وتُربّب : تُربّي . والغيضات : جمع غيضة ، وهي الأجمة .
(١٢) في ط : سُدُف بالسين المهملة . والشدُف : القسي الفارسية ، واحدتها شَدْفاء . والغُبط : جمع غبيط ، وهو =

أرسلتَ أُسداً على سود الكلابِ فقد أضحى شريدُهمُ في الأرضِ فُلّالا[١]

فاشربْ هنيئاً عليكَ التاجُ مرتفقاً في رأس غمدان داراً منك محلالا[٢]

واشربْ هنيئاً فقد شَالتْ نعامتُهم وأسبلِ اليومَ في بُردَيْك إسبالا[٣]

تلكَ المكارمُ لا قعبانِ من لَبنٍ شِيْبا بماءٍ فعادا بَعْدُ أبوالا[٤]

يقال : إن غمدان قصرٌ باليمن ، بناه يَعرب بن قحطان وأكمله[٥] بعده واحتله وائلة بن حِمير بن سبأ . ويقال : كان ارتفاعه عشرين طبقةً . فالله أعلم[٦] .

قال ابن إسحاق : وقال عدي بن زيد الحِميري[٧] وكان أحد بني تميم : [من المنسرح]

ما بَعدَ صنعاءَ كان يَعْمُرُها وُلاةُ مُلْكٍ جَزْلٌ مَواهِبُها

رفعها من بَنى لَدَى قَزَعِ الـ ـمُزْنِ وتَنْدَى مِسْكاً مَحارِبُها[٨]

مَحْفوفَة بالجبالِ دون عُرَى الـ كائدِ ما تُرتَقَى غواربُها[٩]

يأنَسُ فيها صوتُ النُّهام إذا جاوبَها بالعشيّ قاصِبُها[١٠]

ساقتْ إليها الأسبابُ جُنْدَ بني الـ أحرارِ فُرْسَانُها مَواكبها

وفَوَّزتْ بالبغال تُوسَقُ بالـ ـحَتْفِ وتَسعى بها توالبُها[١١]

حتى رآها الأقوالُ من طرفِ الـ ـمَنْقَل مُخْضَرَّةً كتائبها[١٢]

= الرحل . شبه القسي الفارسية بخشب الرحل . والزمجر : الهام .

(١) أراد بسود الكلاب : الأحباش . وفلال : مهزومون .

(٢) في ب : مرتفعاً . ومرتفقاً : متكئاً . والمحلال : التي يكثر فيها الحلول والإقامة .

(٣) شالت نعامتهم : هلكوا وتفرقوا .

(٤) القعب : القِدح الضخم . وشِيبا : خُلِطا .

(٥) في ط : وملكه .

(٦) هذا المقطع ليس في ب .

(٧) في ط : الحميري . وهو سهو . والأبيات من قصيدة في ديوان عدي ص (٤٥) وما بعدها (تح . المعيبد . وط . العراق ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥م) .

(٨) في الديوان : يرفعها . والقزع : قطع من السحاب صغار متفرقة . والمحارب : الغرف المرتفعة .

(٩) في الديوان : الكيد فيها ترقى . وقواه : دون عرى الكائد : يريد عرى السماء وأسبابها . الروض الأنف (١/ ٨٦) . والغوارب : الأعالي .

(١٠) النهام : ذكر البوم . والقاصب : الذي يزمر بالقصب .

(١١) فوّزت بالبغال : ركبت المفاوز أي الصحاري . ووسق البعير : حمله . وتوسق بالحتف : أي تحمل بالحتف . والتوالب : جمع تولب وهو ولد الحمار .

(١٢) في ط : يراها . وطرف المنقل : أعالي الحصون . والأقوال : جمع قَيل ، وهو الملك من ملوك حِمير . وقوله : =

يــومَ ينــادون آل بــربَــرَ والـ يكسُــومَ لا يُفْلِحَــنْ هَــاربُهــا[١]
فكان يوماً باقي الحديثِ وزا لــتْ أُمَّــةٌ ثــابَــتْ مَــرَاتبهــا[٢]
وبُــدِّل الفيــجُ بــالـزرافـة والأ يــام خُــونٌ جَــمٌّ عجــائبهــا[٣]
بعـــدَ بنـــي تُبَّـــعٍ نَخَــاوِرَةٍ قــدِ اطْمــأنَّــتْ بهــا مَــرازِبهــا[٤]

قال ابن هشام[٥] : وهذا الذي عنى سطيحٌ بقوله : يليه إرم ذي يزن ، يخرج عليهم من عدن ، فلا يترك منهم أحداً باليمن[٦] . والذي عنى شِقٌّ بقوله : غلام ليس بدني ولا مدن يخرج من بيت ذي يزن .

قال ابن إسحاق : وأقام وهرز والفرس باليمن ، فمن بقية ذلك الجيش من الفرس الأبناءُ الذين باليمن اليوم . وكان ملك الحبشة باليمن فيما بين أن دخلها أرْياط إلى أن قتلت الفرس مسروقَ بن أبرهة وأخرجت الحبشة اثنتين وسبعينَ سنةً ، توارث ذلك منهم أربعة : أرْياط ، ثم أبرهة ، ثم يكسوم بن أبرهة ، ثم مسروق بن أبرهة .

***

ذكر ما آل إليه أمر الفرس باليمن

قال ابن هشام[٧] : ثم مات وِهرز ، فأمّر كسرى ابنه المرزبان بن وهرز على اليمن ، ثم مات المرزبان ، فأمّر كسرى ابنَه التَّيْنُجان ، ثم مات ، فأمّر ابن التَّيْنُجان ، ثم عزله عن اليمن وأمّر عليها باذان ، وفي زمنه بُعث رسول الله ﷺ .

قال ابن هشام : فبلغني عن الزُّهْري أنه قال : كتب كسرى إلى باذان : إنه بلغني أن رجلاً من قريش خرج بمكة يزعم أنه نبي ، فسِرْ إليه فاستَتِبْه ، فإن تابَ ، وإلا فابعث إليّ برأسه ، فبعث باذان بكتاب

= مخضرة كتائبها : يعني من الحديد .

(١) في الديوان :

يــوم يقــولــون يــال بــربــر والـ يكـــون لا يفلتـــن هـــاربهـــا

(٢) سقط البيت من ب . والإمة : النعمة .

(٣) كذا في الديوان . وفي أ وط : وبدل الهيج . وفي ب : الفيل غياجها . والفيج : المنفرد في مشيته . والزرافة : الجماعة من الناس .

(٤) في ب : وبعد تبع فيها نواخرة . وفي الديوان : بهم . والنخاورة : الكرام الأشراف .

(٥) السيرة (١/ ٦٨) .

(٦) في ب ، والسيرة : أحداً منهم باليمن .

(٧) السيرة (١/ ٦٩) .

كسرى إلى رسول الله ﷺ فكتب إليه رسول الله ﷺ : « إن الله قد وَعَدني أن يُقْتَل كسرى يوم كذا وكذا من شهر كذا » . فلما أتى باذان الكتاب وقف لينتظرَ[١] وقال : إن كان نبياً فسيكون ما قال . فَقَتلَ اللهُ كسرى في اليوم الذي قال رسول الله ﷺ . قال ابن هشام[٢] : على يدي ابنه شِيرَوَيه .

قلت : وقال بعضهم[٣] بنوه تمالؤوا على قتله ، وكسرى هذا هو أبرويز بن هرمز بن أنوشروان بن قباذ ، وهو الذي غلب الروم في قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الروم : ١ ـ ٣] كما سيأتي بيانه .

قال السهيلي[٤] : وكان قتله ليلة الثلاثاء لعشر خَلَون من جمادى الأولى سنة تسع[٥] من الهجرة .

وكان ـ والله أعلم ـ لما كتب إليه رسول الله ﷺ يدعوه إلى الإسلام ، فغضب ومزّق كتابه ، كَتَبَ إلى نائبه باليمن [يقول له ما قال . وفي بعض الروايات أن رسول الله ﷺ قال لرسول باذان][٦] : « إن ربي قد قَتَل الليلةَ ربَّك » . فكان كما قال رسول الله ﷺ قُتِل تلك الليلة بعينها ، قتله بنوه لظلمه بعد عدله بعد ما خلعوه[٧] وولوا ابنه شيرويه ، فلم يعش بعد قتله أباه إلّا ستة أشهر أو دونها . وفي هذا يقول خالد بن حِق الشيباني[٨] : [من الوافر]

وكسـرى إذ تَقَـاسمَـه بَنُـوهُ ... بأسْيافٍ كما اقْتُسِمَ اللَّحَامُ[٩]
تَمَخَّضَـتِ المنُـونُ لـه بيـومٍ ... أَنـى ولِكُـلِّ حَـاملةٍ تمـامُ[١٠]

قال الزُّهري : فلما بلغ باذان[١١] بعث بإسلامه وإسلام مَن مَعه من الفرس إلى رسول الله ﷺ فقالت الرسل : إلى مَن نحن يا رسولَ الله ؟ قال : أنتم منا وإلينا أهلَ البيت . قال الزُّهري : ومن ثم قال رسول الله ﷺ : « سلمانُ مِنّا أهلَ البيت »[١٢] .

---

(١) في ب : توقف ينظر .
(٢) في ب : ابن شهاب وهو سهو .
(٣) زاد في ب : قتله .
(٤) الروض الأنف (١/ ٨٨) .
(٥) في الروض الأنف : سبع .
(٦) سقطت من ب .
(٧) في ب : بعدما خلعوه لظلمه بقومه .
(٨) البيتان في السيرة (١/ ٦٩) والروض الأنف (١/ ٨٨) .
(٩) في ط ، والسيرة ، والروض : تقسّمه . . . واللحام : جمع لحم .
(١٠) في ط : ألا . وقوله : أنى : أي حان .
(١١) في ب : سمع باذان . . وفي ط : بلغ ذلك باذان . وكان إسلام باذان سنة عشر للهجرة كما أورد السهيلي (١/ ٨٨) .
(١٢) رواه الطبراني في الكبير ، والحاكم (٣/ ٥٩٨) من حديث عمرو بن عوف وفيه ضعف .

قلتُ : والظاهر أن هذا كان بعدما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، ولهذا بعث الأمراء إلى اليمن لتعليم الناس الخيرَ ودعوتهم إلى الله عز وجل ، فبعث أولاً خالد بن الوليد وعلي بن أبي طالب ، ثم أتبعهما أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جَبل . ودانت اليمن وأهلها للإسلام . ومات باذان ، فقام بعده ولده شهر بن باذان ، وهو الذي قتله الأسود العنسي حين تنبّأ[١] وأخذ زوجته كما سيأتي بيانه ، وأجلى عن اليمن نوابَ رسول الله ﷺ فلما قتل الأسود عادت اليد الإسلامية عليها .

وقال ابن هشام : وهذا هو الذي عنى به سطيح بقوله : نبي زكي يأتيه الوحي من قِبَل العلي . والذي عنى شِقٌّ بقوله : بل ينقطع برسول مرسل ، يأتي بالحق والعدل ، بين أهل الدين والفضل ، يكون الملك في قومه إلى يوم الفصل .

قال ابن إسحاق[٢] : وكان في حَجَر باليمن ـ فيما يزعمون ـ كتابٌ بالزبور كتب في الزمان[٣] الأول : لمن مُلْك ذِمار ؟ لحمير الأخيار . لمن ملك ذمار ؟ للحبشة الأشرار . لمن ملك ذمار ؟ لفارس الأحرار . لمن ملك ذمار ؟ لقريش التجار .

وقد نظم[٤] بعض الشعراء هذا المعنى فيما ذكره المسعودي : [من الخفيف]

حيـن شيـدتْ ذِمـارُ قِيـلَ : لمـنْ أنـ ... ـتِ ؟ فقـالـت : لِحميَـرِ الأخيـار[٥]

ثـم سِيلـتْ مـن بعـدِ ذاك فقـالـت : ... أنـــا للحُبْـشِ أخبـثِ الأشـــرار[٦]

ثـم قـالـوا مـن بعـد ذاك : لمـن أنـ ... ـتِ ؟ فقالت : لفارسِ الأحرار[٧]

ثم سيلت من بعد ذاك : لمن أنـ ... ـت ؟ فقالت : إلى قريش التِّجار[٨]

ويقال : إن هذا الكلام الذي ذكره محمد بن إسحاق[٩] ، وجد مكتوباً عند قبر هود عليه السلام حين

(١) كان أول تنبؤ الأسود سنة إحدى عشرة للهجرة . تاريخ الطبري (٣/ ١٨٤) . وما بعدها .
(٢) السيرة (١/ ٧٠) .
(٣) في ط : بالزمان .
(٤) لم يشر المسعودي إلى أن أحداً نظم هذا ، بل قال : وكان على باب ظفار مكتوب بالقلم الأول في حجر أسود ، ثم أورد الأبيات . مروج الذهب (٢/ ٨٨) .
(٥) في ط : شدت . وفي المروج : يوم .
(٦) في المروج : إن ملكي .
(٧) في المروج : ثم سيلت من بعد ذاك فقالت إن ملكي .
(٨) في ط : ثم قالوا . وفي المروج : ما بعد ذاك فقالت إن ملكي . وأورد المسعودي ثلاثة أبيات أخرى .
(٩) الإشارة إلى ما قاله ابن إسحاق من كلام منثور . أما الأبيات المنظومة فلم يذكرها ابن إسحاق بل أخذها ابن كثير عن المسعودي كما ذكر .

كشفَت الريح عن قبره بأرض اليمن ، وذلك قبل زمن بلقيس بيسير في أيام مالك بن ذي المنار أخي عمرو ذي الأذعار بن ذي المنار ، ويقال : كان مكتوباً على قبر هود[١] ، وهو من كلامه عليه السلام . حكاه السهيلي[٢] . والله أعلم .

* * *

(١) في ب : منبر ، وكذلك عند السهيلي .
(٢) الروض الأنف (١/ ٩٠) .

قصّة السّاطرون صَاحب الحَضْر

وقد ذكر قصته هاهنا عبد الملك بن هشام[١] لأجل ما قاله بعض علماء النسب : إن النعمان بن المنذر الذي تقدّم ذِكره في ورود سيف بن ذي يزَن عليه وسؤاله في مساعدته في ردّ مُلْك اليمن إليه إنه[٢] من سلالة الساطرون صاحب الحضر . وقد قدّمنا عن ابن إسحاق أن النعمان بن المنذر من ذرية ربيعة بن نصر ، وأنه روى عن جُبير بن مطعِم أنه من أشلاء قيصر بن معد بن عدنان ، فهذه ثلاثة أقوال في نسبه ، فاستطرد ابن هشام في ذكر صاحب الحضر .

والحضر حصنٌ عظيم بناه هذا الملك ، وهو الساطرون ، على حافة الفرات ، وهو منيف مرتفع البناء ، واسع الرحبة والفناء ، دوره بقدر مدينة عظيمة ، وهو في غاية الإحكام والبهاء والحسن والسناء ، وإليه يُجبى ما حوله من الأقطار والأرجاء . واسم الساطرون الضَّيْزَن بن معاوية بن عبيد بن سَليح[٣] بن حلوان بن الحاف بن قضاعة . كذا نسبه ابن الكلبي . وقال : غيره كان من الجرامقة[٤] وكان أحد ملوك الطوائف ، وكان يقدمهم[٥] إذا اجتمعوا ، وكان حصنه بين دجلة والفرات .

قال ابن هشام[٦] : وكان كسرى سابور ذو الأكتاف غزا ساطرون[٧] ملك الحضر . وقال غير[٨] ابن هشام : إنما غزا صاحب سابور بن أردشير بن بابك أول ملوك بني ساسان ، أذَلَّ ملوكَ الطوائف وردَّ المُلْكَ إلى الأكاسرة . وأما سابور ذو الأكتاف بن هرمز فبعد ذلك بدهر طويل . والله أعلم . ذكره السهيلي[٩] .

قال ابن هشام : فحصره سنتين . وقال غيره : أربع سنين[١٠] ، وذلك لأنه كان أغار على بلاد سابور

---

(١) هو مهذب السيرة لابن إسحاق .
(٢) في ب : إنه ملك .
(٣) في ط : . . . عبيد بن أجرم من بني سليح . وفي تاريخ الطبري (٢/ ٤٧) : ابن العَبيد بن الأجرام بن عمرو بن النخع بن سليح .
(٤) الطبري (١/ ٤٧) .
(٥) في ط : يقدمهم إذا اجتمعوا لحرب عدو من غيرهم وكان حصنه . . .
(٦) السيرة (١/ ٧١) .
(٧) في ط : الساطرون .
(٨) الطبري (١/ ٤٧) .
(٩) الروض الأنف (١/ ٩١) .
(١٠) قاله ابن الكلبي فيما نقله عنه الطبري (١/ ٤٨) .

في غيبته بأرض العراق ، فأشرفت بنت الساطرون ، وكان اسمها النضيرة ، فنظرت إلى سابور وعليه ثياب ديباج ، وعلى رأسه تاج من ذهب مكلّل بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ ، وكان جميلاً ، فدسَّت إليه : أتتزوجني إن فتحت[١] لك باب الحضر ؟ فقال : نعم ! فلما أمسى ساطرون ، شرب حتى سكر ، وكان لا يبيتُ إلا سكران ، فأخذت مفاتيح باب[٢] الحضر من تحت رأسه فبعثت[٣] بها مع مولى لها ، ففتح الباب .

ويقال : بل دلَّتهم على نهر يدخل منه[٤] الماء متسع ، فولجوا منه إلى الحضر ، ويقال : بل دلَّتهم على طلسم كان في الحضر وكان في علمهم أنه[٥] لا يفتح حتى تؤخذ حمامة وَرْقاء ، وتُخضَب رجلاها بحيض جارية بكر زَرقاء ، ثم ترسل ، فإذا وقعت على سور الحضر سقط ذلك الطلسم فيفتح الباب . ففعل ذلك فانفتح الباب ، فدخل[٦] سابور فقتل ساطرون واستباح الحضر وخرّبه . وسار بها معه فتزوجها . فبينا هي نائمة على فراشها ليلاً إذ جعلت تَململُ لا تنام ، فدعا[٧] بالشمع ، ففتّش فراشَها ، فوجد عليه ورقة آس . فقال لها سابور : أهذا الذي أسهركِ ؟ قالت : نعم . قال : فما كان أبوك يصنع بك ؟ قالت : كان يفرش لي الديباج ، ويلبسني الحرير ، ويطعمني المخَّ ، ويَسقيني الخمر[٨] . قال : أفكان جزاء أبيك ما صنعتِ به ؟! أنت إليَّ بذلك أسْرع ، ثم أمر بها[٩] فرُبطت قُرون رأسِها بذنب فرس ، ثم رَكَض الفرس حتى قتلها . ففيه يقول أعشى بني[١٠] قيس بن ثعلبة : [من المتقارب]

ألـم تَـرَ للحَضْـرِ إذْ أهلُـه	بنُعْمَى وهـلْ خـالِـدٌ مَـن نَعم
أقـامَ بـه شـاهَبُـورُ الجنـو	دَ حـوْليْـنِ تضربُ فيـه القَدم
فلمّـا دَعـا ربَّـهُ دعـوةً	أنـابَ إليـه فلـم ينتقِـم
فهـل زادَه ربـه قـوَّةً	ومثْـل مجـاورِه لـم يُقِـم

(١) في ب : وأنا أفتح .
(٢) ليست في ب .
(٣) في ط : وبعثت .
(٤) زيادة من ب ، وط . والكلام هاهنا ليس لابن هشام ، بل للسهيلي .
(٥) قوله : وكان . . . إلى هنا : زيادة من ط . وكذلك في السهيلي نقلاً عن الطبري (١/ ٤٩) .
(٦) عاد هنا إلى ما قاله ابن هشام .
(٧) في ب ، وط ، والسيرة : فدعا لها .
(٨) زاد في ب : وقال الطبري : كان يطعمني المخ والزبد ، وشهد أبكار النحل ، وصفو الخمر . وذكر أنه كان يُرى مخ ساقها من صفاء بشرتها . تاريخ الطبري (١/ ٥٠) .
(٩) زيادة من ب ، والسيرة . وقرون رأسها : أي ذوائب شعرها .
(١٠) في ط : بن ، وهو سهو . والأبيات في ديوانه ص(٩٣) ، من قصيدة طويلة يمدح فيها قيس بن معد يكرب . وفي رواية الديوان بعض اختلاف عما هنا .

وكـانَ دعـا قـومَـه دعـوةً ... هلمُّوا إلـى أمـرِكـم قـد صُـرِم
فمـوتـوا كِـرامـاً بـأسيـافكـم ... أرى الموتَ يجشِمه من جَشِم[١]

وقال عدي بن زيد في ذلك[٢] : [من المنسرح]

والحضرَ صابتْ عليه داهيةٌ ... مِـن فـوقِـه أَيِّـدٍ منـاكبُـهـا[٣]
ربيَّـةٌ لـم تُـوَقِّ والـدَهـا ... لِحيَنْهـا إذ أضـاعَ راقبُـهـا
إذ غَبَّقَتْـه صهبـاءَ صـافيـةً ... والخمرَ وَهْلٌ يَهيم شاربُها[٤]
فـأسلمـتْ أهلَهـا بليلتهـا ... تظـنّ أن الـرئيـسَ خـاطبُهـا
فكانَ حظُّ العروسِ إذ جَشَر الـ ... ـصبح دماءً تجري سبائبها[٥]
وخَرَّبَ الحضرَ واستُبيح وقد ... أُحرقَ في خدرِها مشاجبها[٦]

وقال عدي بن زيد أيضاً[٧] : [من الخفيف]

أيُّها الشامتُ المعيِّر بالدهـ ... ـر أأنـتَ المبَـرَّأُ المـوفـور
أم لديكَ العهدُ الوثيق من الـ ... أيـام بـل أنـتَ جـاهـلٌ مغـرور
من رأيتَ المنونَ خلَّدنَ أم من ... ذا عليـه مِـن أن يضـام خَفيـر
أين كسرى كسرى الملوك أنو ... شـروانَ أم أيـن قبلـه سـابـور
وبنو الأصفر الكرامُ ملوك الـ ... ـروم لـم يبـق منهـمُ مـذكـور
وأخو الحضْر إذْ بَنَاهُ وإذ دجْـ ... ـلَـةُ تُجبَـى إليـه والخـابـور
شـاده مَـرْمـراً وجلَّلـه كـأ ... سـاً فللطيـر فـي ذُراه وُكُـور
لـم يَهَبْـهُ ريـبُ المنـون فبَـا ... ن الملـك عنـه فبـابـه مهجـور
وتـذكّـر ربَّ الخـوَرْنَـقِ إذ ... أشرف يوماً وللهدى تنكير[٨]
سَـرَّه مـالُـه وكثـرةُ مـا يمـ ... ـلِكُ والبحرُ معرضاً والسديرُ

---

(١) يجشمه : يتكلفه ويركبه .
(٢) الأبيات في ديوانه ص(٤٦) ، مع خلاف ببعض الألفاظ .
(٣) أيد : شديدة .
(٤) غبقته : سقته الغبوق ، وهو شراب العشي . ويقال : وهَلَ الرجل : إذا أراد شيئاً فذهب وهمه إلى غيره .
(٥) جشر : أضاء وبيّن . والسبائب : الطرائق .
(٦) المشاجب : جمع مشجب وهو عود تعلق عليه الثياب .
(٧) ديوانه ص(٨٧) ، وفيه بعض اختلاف في الرواية .
(٨) في ب ، وط . والديوان : تفكير .

فارعوى قلبُه وقال وما غِبـ ـطةُ حيٍّ إلى المماتِ يصيرُ

ثـم أضْحَـوا كـأنهـم وَرَقٌ جـ ـفَّ فألْوَتْ به الصَّبا والدَّبورُ(١)

قلت : وربُّ الخوَرْنق الذي ذكره في شعره رجلٌ من الملوك المتقدمين ، وعَظَهُ بعضُ علماء زمانه في أمره الذي قد كان(٢) أسرف فيه وعتا ، وتمرد فيه وأتْبعَ نفسَه هواها ، ولم يراقب فيها مولاها ، فوعَظَه بمن سلَف قبلَه من الملوك والدول ، وكيف بادُوا ولم يبق منهم أحدٌ ، وأنه ما صار إليه عن غيره إلا وهو منتقل عنه إلى مَن بَعْده ، فأخذته موعظتُه وبلغت منه كلَّ مبلغ ، فارعَوى لنفسه ، وفكّر في يومه وأمسه ، وخاف من ضِيْق رَمْسه(٣) . فتاب وأناب ونزع عما كان فيه ، وترك الملك ولبس زي الفقراء وساح في الفلوات وحظي بالخلوات ، وخرج عمّا كان الناس فيه من اتِّباع الشهوات وعصيان ربّ السماوات .

وقد ذكر قصته مبسوطة(٤) الشيخ الإمام موفق بن قدامة المقدسي(٥) رحمه الله في كتاب « التّوابين » . وكذلك أوردها بإسناد متين الحافظ أبو القاسم السهيلي في كتاب(٦) « الروض الأنف »(٧) المرتَّب أحسن ترتيب وأوضح تبيين .

* * *

خبر ملوك الطوائف

وأما صاحب الحضْر ، وهو ساطِرون ، فقد تقدّم أنه كان مقدّماً على سائر ملوك الطوائف ، وكان من(٨) زمن اسكندر بن فليبس المقدوني اليوناني ، وذلك لأنه لما غلب على ملك الفرس دارا بن دارا وأذلَّ مملكته وخرّب بلاده واستباح بيضة قومه ، ونهب حواصله ، ومزّق شمل الفرس شَذَرَ مَذَرَ ، عزم أن لا يجتمع لهم بعد ذلك شمل ، ولا يلتئم لهم أمر ، فجعل يقرّ كل ملك على طائفة من الناس في أقليم من

---

(١) الصبا ، والدبور : ريح . وزاد في ب هنا بيتاً آخر ، وهو :

ثم بعد الفلاح والمُلْك والأ مَّـة وارتهـم هنـاك قبـور

(٢) في ب : الذي كان أسرف . وفي ط : الذي كان قد . . .

(٣) الرمس : القبر .

(٤) في ب تقديم وتأخير في العبارة هنا .

(٥) هو الموفق عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي ، توفي سنة (٦٢٠هـ) . وكتاب التوابين طبع في دار البيان بدمشق (١٩٦٩) ، بتحقيق الشيخ عبد القادر الأرناؤوط . والخبر فيه ص(٣٩) .

(٦) في ط : كتاب .

(٧) الروض الأنف (١/٩٣ ـ ٩٤) .

(٨) في ب : في .

أقاليم الأرض ما بين عربها وأعاجمها[١] ، فاستمر كل ملك منهم يحمي حَوزته ، ويحفظ صقعه[٢] ويستغلُّ محلَّته ، فإذا هَلَك قام ولده من بعده أو أحد قومه ، فاستمر الأمر كذلك قريباً من خمسمئة سنة ، حتى كان أردشير بن بابك من بني ساسان بن بهمن بن أسفنديار بن يشتاسب بن لهراسب ، فأعاد ملكهم إلى ما كان عليه ، ورجعت الممالك برمَّتها إليه ، وأزال ممالك ملوك الطوائف ، ولم يبق منهم[٣] تالد ولا طارف ، وكأنه[٤] تأخر عليه حصار صاحب الحضْر الذي كان أكبرهم وأشدهم وأعظمهم ، إذ كان رئيسهم ومقدّمهم ، فلما مات أزدشير تصدّى له ولده سابور فحاصره حتى أخذه كما تقدم . والله سبحانه وتعالى أعلم .

* * *

(١) كذا في ط . وفي أ : ما بين عرب وأعاجمها . وفي ب : عرب وأعاجم .
(٢) في ط . حصته . وهو خطأ .
(٣) في ب : منه .
(٤) في ط : وكان .

باب[(١)]

ذكر بني إسماعيل وهم عرب الحجاز وما كان من أمور الجاهلية إلى زمان البعثة

تقدم ذكر إسماعيل نفسه عليه السلام مع ذكر الأنبياء[(٢)] ، وكيف كان من أمره حين احتمله أبوه إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام مع أمه هاجر ، فأسكنها[(٣)] بوادي مكة بين جبال فاران حيث لا أنيس به ولا حسيس ، وكان إسماعيل رضيعاً[(٤)] ، ثم ذهب وتركهما هنالك عن أمر الله له بذلك ، ليس عند أمّه سوى جراب فيه تَمر ووِكاءٌ[(٥)] فيه ماءٌ ، فلما نَفد ذلك أنبع الله لِهاجَرَ زمزمَ التي هي « طعام طعم وشفاء سقم » كما تقدم بيانه في حديث ابن عباس الطويل الذي رواه البخاري[(٦)] رحمه الله .

ثم نزلت جُرْهم ، وهم طائفة من العرب العاربة من أمم العرب الأقدمين عند هاجَر بمكة على أن ليس لهم في الماء شيء إلا ما يشربون منه وينتفعون به ، فاستأنست هاجر بهم ، وجعل الخليل عليه السلام يطالع أمرَهم في كلّ حين ، يقال : إنه كان يركب البراق من بلاد بيت المقدس في ذهابه وإيابه ، ثم لما ترعرع الغلام وشبَّ وبلغ مع أبيه السعي كانت قصّة الذبح ، كما تقدم بيان أن الذبيح هو إسماعيل على الصحيح .

ثم لما كبر تزوج من جُرهم امرأةً ، ثم فارقَها وتزوّج غيرَها وتزوج بالسيدة بنت مضاض بن عمرو رئيس جرهم ، وجاءته البنون الاثنا عشر[(٧)] كما تقدم ذِكرهم ، وهم : نابِت ، وقيذر ، وأدبيل[(٨)] ، وميشا ، ومسمع ، وماسى ، ودما[(٩)] ، وأذر ، ويطور ، ونيشى ، وطيما ، وقيذما . هكذا ذكره محمد بن إسحاق[(١٠)] وغيره عن كتب أهل الكتاب . وله ابنة واحدة اسمها نَسَمة ، وهي التي زوَّجها من

---

(١) سقط من ط : باب . وهم عرب الحجاز .

(٢) في الجزء الأول من هذا الكتاب .

(٣) في ب : فأسكنهما . وفيها أيضاً : حيث لا حسيس به ولا أنيس .

(٤) زاد في ب : إذ ذاك .

(٥) الوكاء : هو ما يُشدّ به الكيس وغيره . وأراد القربة .

(٦) تقدم تخريجه في الجزء الأول .

(٧) في ط : ابن عمرو الجرهمي وجاءته بالبنين الاثني عشر . وتقدم الخبر كما أشار ابن كثير في سيرة إسماعيل عليه السلام في الجزء الأول .

(٨) وأدبيل : زيادة من ب ، تتمم العدد . تاريخ الطبري (١/ ٣١٤) .

(٩) في ب : ودوما .

(١٠) السيرة (١/ ٤ ـ ٥) .

ابن أخيه العيصو بن إسحاق بن إبراهيم فولد له منها الروم واليونان[١] ، والأشبان أيضاً في أحد القولين .

ثم جميع عرب الحجاز على اختلاف قبائلهم يرجعون في أنسابهم إلى ولديه نابت وقيذر .

وكان الرئيس بعده والقائم بالأمور الحاكم في مكة والناظر في أمر البيت وزمزم نابت بن إسماعيل ، وهو ابن أخت الجرهميين ، ثم تغلبت جرهم على البيت طمعاً في بني أختهم ، فحكموا بمكة وما والاها عِوضاً عن بني إسماعيل مدةً طويلة ، فكان أول من صار إليه أمر البيت بعد نابت مُضاض بن عمرو بن سعد بن الرقيب بن هي[٢] بن نبت بن جرهم ، وجرهم بن قحطان ويقال جرهم بن يقطن بن عيبر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح الجرهمي . وكان نازلاً بأعلى مكة بقُعَيْقِعان ، وكان السَّمَيْدع سيد قَطوراء نازلاً بقومه في أسفل مكة ، وكل منهما يَعْشُر[٣] من مَرَّ به مُجتازاًإلى مكة . ثم وقع بين جُرهم وقَطوراء ، فاقتتلوا ، فقُتِل السَّمَيْدعُ واستوثق الأمر لمضاض ، وهو الحاكم بمكة والبيت لا ينازعه في ذلك ولد إسماعيل مع كثرتهم وشرفهم وانتشارهم[٤] بمكة وبغيرها ، وذلك لخؤولتهم له ولعظمة البيت الحرام . ثمّ صار الملك بعد إلى ابنه الحارث ، ثمّ إلى عمرو بن الحارث .

ثمّ بَغَت جرهم بمكة وأكثرتْ فيها الفساد وألحدوا بالمسجد الحرام حتى ذُكر أن رجلاً منهم يقال له : إساف بن بغي ، وامرأة يقال لها : نائلة بنت وائل اجتمعا في الكعبة ، فكان منه إليها الفاحشة ، فمسخهما الله حَجَرين ، فنصبهما الناس قريباً من البيت ليعتبروا بهما ، فلما طال المطال بعد ذلك بمدد عبدا من دون الله في زمن خزاعة كما سيأتي بيانه في موضعه . فكانا منصوبين صنمين[٥] يقال لهما : إساف ونائلة . فلما أكثرت جرهم البغي[٦] بالبلد الحرام تمالأت عليهم خُزاعة الذين كانوا[٧] نزلوا حول الحرم ، وكانوا من ذرية عمرو بن عامر الذي[٨] خرج من اليمن لأجل ما توقّع من سيل العرم[٩] ، كما تقدم . وقيل : إن خزاعة من بني إسماعيل . فالله أعلم .

والمقصود أنهم اجتمعوا لحربهم وآذنوهم بالحرب واقتتلوا ، واعتزل بنو إسماعيل كلا الفريقين .

---

(١) في ب وط : فولد . وفي ط : الروم وفارس .
(٢) في ب وط : عيبر . وفي الروض الأنف (١/ ١٣٦) ، كما هنا .
(٣) يعشر : يأخذ عشر أموالهم .
(٤) في ط : وانتشارهم .
(٥) في ط : صنمين منصوبين .
(٦) في ب : الظلم .
(٧) ليست في ب .
(٨) الذي ، زيادة من ب وط .
(٩) الخبر في السيرة (١/ ١١١) وما بعدها .

فغلبت خُزاعة وهم بنو بكر بن عبد مناة وغبشان ، وأجلوا جرهماً[١] عن البيت ، فعمد عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي ، وهو سيدهم إلى غَزَالَي الكعبة ، وهما[٢] من ذهب ، وحجر الركن وهو الحَجَرِ الأسود ، وإلى سيوف محلاَّة ، وأشياء أُخر فدفنها في زمزم ، وعلَّمَ زمزم وارتحل بقومه فرجعوا إلى اليمن . ففي ذلك يقول عمرو بن الحارث بن مضاض[٣] : [من الطويل]

وقَائلَةٍ والدَّمعُ سَكْبٌ مُبادرٌ ... وقَدْ شَرِقتْ بالدمع منها المحاجرُ
كأنْ لم يكن بين الحَجُونِ إلى الصَّفا ... أنيسٌ ولم يسمُر بمكّة سامرُ
فقلتُ لها والقلبُ مِنّي كأنما ... يُلجلجُه بين الجناحَيْن طائرُ[٤]
بلى نحنُ كنّا أهلَها فأزالنا ... صُروفُ الليالي والجدودُ العواثر[٥]
وكنا ولاةَ البيت من بعد نابتٍ ... نَطوْف بذاك البيت والخيرُ ظاهر
ونحن وَلينا البيتَ من بعد نابتٍ ... بعزّ فما يحظى لدينا المُكاثر
ملَكنا فعزَّزْنا فأعظِمْ بمُلْكِنا ... فليس لحيّ غيرنا ثَمَّ فاخر
ألم تنكحوا من خيرِ شخصٍ علمتمُ ... فأبناؤه منّا ونحنُ الأصاهر[٦]
فإن تنثِني الدنيا علينا بحالها ... فإنّ لها حالاً وفيها التشاجُرُ
فأخرجَنا منها المليكُ بقُدرةٍ ... كذلك ، يا للناسِ ، تجري المقادِرُ
أقولُ إذا نام الخليّ ولم أنم ... أذا العرشُ لا يبعد سُهيلٌ وعامر
وبُدِّلْتُ منها أوجُهاً لا أحِبُّها ... قبائل منها حِمْيَرٌ ويُحابر
وصِرْنا أحاديثاً وكُنَّا بغبطةٍ ... بذلك عضَّتنا السِّنونَ الغوابر
فَسحَّتْ دُموعُ العَين تبكي لبلدةٍ ... بها حَرَمٌ أمْنٌ وفيها المشاعر[٧]
وتبكي لبيتٍ ليس يؤذَى حَمامُه ... يَظلّ (به) أمناً وفيه العَصَافر[٨]
وفيه وحوشٌ لا تُرام أنيسةٌ ... إذا خرجَتْ منه فليست تُغادر

---

(١) في ط : وأجلوهم .
(٢) وهما : زيادة من ط .
(٣) السيرة (١/ ١١٤) ، والروض الأنف (١/ ١٣٦) وما بعدها ، والأبيات فيهما .
(٤) البيت زيادة من ط . وهو كذلك في السيرة ، والروض الأنف .
(٥) صروف الدهر : نوائبه . والجدود : الحظوظ .
(٦) في ب ، وط . والسيرة ، والروض : علمته .
(٧) المشاعر : المواضع المشهورة في الحج التي يتعبَّد بها .
(٨) زيادة من ب ، وط . والسيرة ، والروض ، يستقيم بها الوزن . وقوله : العصافر : أراد العصافير ، وحذف الياء ضرورة .

قال ابن إسحاق : وقال عمرو بن الحارث بن مُضاض أيضاً يذكر بني بكر وغبشان الذين خلفوا بعدهم بمكة[(١)] : [من البسيط]

يا أيها الناسُ سِيروا إن قَصرَكم أن تصبحوا ذاتَ يومٍ لا تسيرونا[(٢)]
حُثوا المطيَّ وأرْخوا من أَزِمّتها قبلَ المماتِ وقضّوا ما تقضونا
كنا أناساً كما كنتم فغيّرنا دهر فأنتم كما صرنا تصيرونا[(٣)]

قال ابن هشام : هذا ما صحَّ له منها . وحدثني بعض أهل العلم بالشعر أن هذه الأبيات أول شعر قيل في العرب ، وأنها وجدت مكتوبة في حجر باليمن ولم يُسَمَّ قائلُها .

وذكر السهيلي[(٤)] لهذه الأبيات أخوة ، وحكى عندها حكاية معجبة وإنشادات معربة . قال : وزاد أبو الوليد الأزرقي في كتابه « فضائل مكة » على هذه الأبيات[(٥)] المنسوبة إلى عمرو بن الحارث بن مضاض : [من البسيط]

قد مالَ دهرٌ علينا ثم أهلكَنا بالبغي فينا وبزّ الناسَ ناسونا[(٦)]
واستخبِروا في صنيع الناس قبلَكمُ كما استبانَ طريقٌ عنده الهونا
كنا زماناً ملوكَ الناس قبلَكمُ بمسكنٍ في حَرامِ الله مسكونا

***

(١) السيرة (١/ ١١٦) ، والروض الأنف (١/ ١٣٩) .
(٢) في ط : قصاركم . وهو تحريف وأراد نهايتكم وغايتكم .
(٣) في ب : كنا تصيرونا . وفي السيرة والروض : كما كنا تكونونا .
(٤) الروض الأنف (١/ ١٤٠) وما بعدها .
(٥) في ط : الأبيات المذكورة .
(٦) كذا في ط . ومثله عند السهيلي . وفي أ : فيه . وفي ب : فيه وكل الناس . وزاد في ب بعد هذا البيت :

إن التفكر لا يجدي بصاحبه عند البديهة في علم له دونا
قضّوا أموركم بالحزم إن لها أمور رشد رشدتم ثم مسنونا

وهما كذلك في الروض الأنف .

قصّة خزاعة وخبر عمرو بن لُحَي وَعبادة الأصنام بأرض العرب[(١)]

قال ابن إسحاق : ثم إن غُبْشان من خُزاعة وليَتِ البيتَ دون بني بكر بن عبد مناة ، وكان الذي يليه منهم عمرو بن الحارث الغُبْشاني ، وقُريش إذ ذاك حُلول وصِرَم[(٢)] وبيوتات متفرقون في قومهم من بني كنانة[(٣)] .

قالوا : وإنما سُميت خُزاعة خزاعة[(٤)] لأنهم تخزَّعوا من ولد عمرو بن عامر حين أقبلوا من اليمن يريدون الشام ، فنزلوا بمرّ الظهران ، فأقاموا به . قال عون بن أيوب الأنصاري ثمّ الخزرجي : في ذلك يقول بعضهم[(٥)] : [من الطويل]

فلمّا هبطْنا بطنَ مرّ تخزّعتْ ... خُزاعةُ مِنّا في حُلُولِ كَرَاكِرِ

حمتْ كل وادٍ من تِهامةَ واحتمت ... بصُمّ القَنا والمرهَفاتِ البواتر

وقال أبو المطهر إسماعيل بن رافع الأنصاري الأوسي :

فلما هبطنا بطن مكة أحْمدت ... خزاعةُ دارَ الآكل المتحامل

فحلت أكاريساً وشتّت قبائلاً ... على كلِّ حيّ بينَ نجد وساحل[(٦)]

نفَوا جُرهماً عن بطن مكّة واحتبَوا ... بعزٍّ خزاعيّ شديدِ الكواهل

فوليت[(٧)] خزاعة البيتَ يتوارثون ذلك كابراً عن كابر ، حتى كان آخرهم حُلَيْل بن حُبْشِية بن سلول بن كعب بن عمرو بن ربيعة الخزاعي ، الذي تزوّج قصي بن كلاب ابنته حُبَّى ، فولدت له بنيه الأربعة : عبد الدار ، وعبد مناف ، وعبد العزّى ، وعبدا .

ثمّ صار أمر البيت إليه كما سيأتي بيانه وتفصيله في موضعه[(٨)] إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة .

---

(١) في ط : قصة خزاعة وعمرو بن لحي وعبادة العرب للأصنام .

(٢) الصرم : الجماعات المتقطعة .

(٣) السيرة (١/ ١١٧) .

(٤) ليست في ب . وتخزعوا : انقطعوا عنهم وفارقوهم . الاشتقاق لابن دريد (٤٦٨) .

(٥) زيادة من ب يستقيم بها الخبر . فالبيتان لحسان بن ثابت ، وهما في ديوانه (٢٦٤ و٢٦٥) . مع خلاف في الرواية (تحقيق عبد الرحمن البرقوقي) . وأورد ابن دريد البيت الأول بعد حديثه عن اشتقاق (خزاعة) منسوباً إلى حسان.

(٦) في ط : وشتت قنابلاً . والأكاريس ، جمع أكراس ، وهي جمع كِرْس ، وهي أبيات من الناس مجتمعة .

(٧) عاد إلى نقل ما قاله ابن إسحاق .

(٨) سيأتي خبر قصي بعد صفحات في هذا الجزء .

واستمرت خزاعة على ولاية البيت نحواً من ثلاثمئة سنة ، وقيل : خمسمئة سنة . والله أعلم .

وكانوا مشؤومين[١] في ولايتهم ، وذلك لأن في زمانهم كان أول عبادة الأوثان بالحجاز ، وذلك بسبب رئيسهم عَمرو بن لُحي لعنه الله ، فإنه أول من دعاهم إلى ذلك[٢] ، وكان ذا مالٍ جزيلٍ جداً . يقال : إنه فقأ عين[٣] عشرين بعيراً ، وذلك عبارة عن أنه ملك عشرين ألف بعير ، وكان من عادة العرب أنّ من ملك ألف بعير فقأ عين واحد منها كأنه[٤] يدفع بذلك العين عنها . وممن ذكر ذلك الأزرقي .

وذكر السهيلي : أنه ربما ذَبح أيام[٥] الحجيج عشرة آلاف بَدَنة ، وكسا عشرة آلاف حُلَّة في كلّ سنة يطعم العرب ويحيس لهم الحيس بالسمن والعسل ، ويلتُّ لهم السَّويق[٦] . قالوا : وكان قولُه وفعلُه فيهم كالشرع المتّبع لشرفه فيهم ، ومحلته عندهم ، وكرمه عليهم .

قال ابن هشام[٧] : حدّثني بعض أهل العلم أن عمرو بن لُحَي خرج من مكة إلى الشام في بعض أُموره ، فلما قدم مآبَ من أرض البلقاء ، وبها يومئذ العماليق ، وهم ولد عِمْلاق ، ويقال : ولد[٨] عمليق ابن لاوذ بن سام بن نوح ، رآهم يعبدون الأصنام ، فقال لهم : ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ونستنصر بها[٩] فتنصرنا . فقال لهم : ألا تعطوني منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه . فأعطوه صنماً يقال له : هبل ، فقدِم به مكَة فنصبَه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه .

قال ابن إسحاق : ويزعمون أن أول ما كانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل عليه السلام أنه كان لا يَظْعَنُ من مكة ظاعن منهم حين ضاقت عليهم والتمسوا الفَسَحَ في البلاد[١٠] إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم ، فحيث ما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة ، حتى سَلَخَ ذلك

---

(١) في ط : وكانوا سوس .
(٢) الأصنام لابن الكلبي (٨) ، واللباب للسيوطي (١/ ٤٣٩) ، والسيرة (١/ ٧٦) ، والروض الأنف (١/ ٩٩) وما بعدها ، والأوائل للعسكري ص(٤٨ ط . السعودية ١٩٦٦) .
(٣) في ط : أعين .
(٤) في ط : لأنه .
(٥) في ب : زمن .
(٦) الحيس : تمر يخلط بسمن وأقط فيعجن شديداً . واللت : الدَّقّ ، والفتّ ، والسحق . والسويق : ضرب من الطعام .
(٧) السيرة (١/ ٧٧) .
(٨) ليست في ب ، والسيرة .
(٩) في ط : ونستنصرها . وكذلك في السيرة .
(١٠) زيادة من ط . توافق نص السيرة .

بهم[١] إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم حتى خلفت الخُلوفُ ، ونَسَوا ما كانوا عليه .

وفي الصحيح عن أبي رجاء العُطاردي ، قال : كنا في الجاهلية إذا لم نجد حجراً جمعنا حثية من التراب وجئنا بالشاة فحلبناها عليه ثم طُفنا بها .

قال ابن إسحاق : واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام غيره ، فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات ، وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم عليه السلام يتمسكون بها ، من تعظيم البيت ، والطواف به ، والحج ، والعمرة ، والوقوف على عَرفات والمزدلفة ، وهَدْي البُدْن ، والإهلال بالحج والعمرة ، مع إدخالهم فيه ما ليس منه . فكانت كنانة وقريش إذا أهلوا قالوا : لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك . فيوحّدونه بالتلبية ويدخلون[٢] معه أصنامهم ويجعلون ملكها بيده . يقول الله تعالى لمحمد ﷺ : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف : ١٠٦] . أي : ما يوحدونني لمعرفة حقي إلا جعلوا معي شريكاً من خلقي .

وقد ذكر السهيلي[٣] وغيره : أن أول من لبَّى هذه التلبية عمرو بن لُحي ، وأن إبليس تبدّى له في صورة شيخ ، فجعل يلقِّنه ذلك فيسمع منه ، ويقول كما يقول ، واتَّبعه العرب في ذلك .

وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ كان إذا سمعهم يقولون : لبيك لا شريك لك يقول : « قَدٍ قَدٍ »[٤] أي : حَسْب حسب .

وقد قال البخاري[٥] : حدّثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا يحيى بن آدم ، أخبرنا إسرائيل ، عن أبي حصين[٦] ، عن (أبي صالح)[٧] ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « عمرو بن لُحَي بن قَمْعَة بن خِندف أبو خُزاعة » تفرد به البخاري من هذا الوجه .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد : قرأت على أبي : حدّثنا عمرو بن مجمع ، حَدّثنا إبراهيم الهجري ، عن أبي الأحوص ، عن عبد الله بن مسعود ، عن النبي ﷺ قال[٨] : « إن أول من سَيَّبَ السَّوائب ،

---

(١) سلخ بهم : خرج بهم .
(٢) في ط : ثم .
(٣) الروض الأنف (١/ ١٠٢) .
(٤) رواه مسلم (١١٨٥) في الحج ، باب التلبية وصفتها ووقتها .
(٥) صحيح البخاري رقم (٣٥٢٠) ، في المناقب ، باب قصة خزاعة .
(٦) في أ ، وط : حفص ، وهو سهو . والزيادة من ب ، والبخاري .
(٧) سقط من ط .
(٨) قوله : عمرو بن لحي . . . إلى هنا زيادة من ب يستقيم بها النص ، ففيه اضطراب من قبل .

وعبدَ الأصنام ، أبو خزاعة عمرو بن عامر ، وإني رأيتُه يجرُّ أمعاءه في النار »تفرّد به أحمد[١] من هذا الوجه .

وهذا يقتضي أن عمرو بن لُحي هو أبو خزاعة الذي تنسب إليه القبيلة بكاملها ، كما زعمه بعضهم من أهل النسب ، فيما حكاه ابن إسحاق وغيره . ولو تركنا مجرد هذا لكان ظاهراً في ذلك ، بل كالنص . ولكن قد جاء ما يخالفه من بعض الوجوه ، فقال البخاري : حدّثنا[٢] أبو اليمان : أخبرنا شُعيب ، عن الزهري ، قال : سمعت سعيد بن المسيِّب قال : البَحيرةُ التي يُمْنَعُ دَرُّها للطواغيت ولا يحلُبها أحدٌ من الناس ـ والسائبة ـ التي كانوا يُسَيِّبونها لآلهتهم فلا يُحملُ عليها شيء . قال ، وقال[٣] أبو هريرة : قال النبي ﷺ : « رأيتُ عَمْرو بن عامر بن لُحَيّ[٤] الخزاعي يجر قُصْبَه في النار ، وكان أولَ من سيّب السوائب » .

وهكذا رواه البخاري[٥] أيضاً ، ومسلم[٦] من حديث صالح بن كيسان عن الزهري عن سعيد عن أبي هريرة به . ثمّ قال البخاري : ورواه ابن الهاد عن الزهري .

قال الحاكم : أراد[٧] رواه ابن الهاد عن عبد الوهاب بن بخت ، عن الزهري . كذا قال .

وقد رواه أحمد عن منصور[٨] بن سلمة الخزاعي [عن الليث بن سعد ، عن يزيد بن الهاد ، عن الزهري ، عن سعيد ، عن أبي هريرة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « رأيت عمرو بن عامر][٩] يجر قُصْبَه في النار ، وكان أول من سيب السوائب وبحر البحيرة » . ولم يذكر بينهما عبد الوهاب بن بُخْت كما قال الحاكم . فالله أعلم .

وقال أحمد أيضاً[١٠] : حدّثنا عبد الرزاق ، حدّثنا مَعْمَر ، عن الزهري ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قُصْبَه في النار ، وهو أول من سَيَّب السوائب » .

---

(١) المسند (١/ ٤٤٦) .
(٢) في ط : وقال أبو اليمان . والحديث في البخاري رقم (٣٥٢١) ، في المناقب ، باب قصة خزاعة .
(٣) زيادة من ط ، والبخاري .
(٤) سقطت من ط .
(٥) صحيح البخاري رقم (٤٦٢٣) ، في تفسير سورة المائدة ، باب (١٣) .
(٦) صحيح مسلم رقم (٢٨٥٦) ، في الجنة وصفة نعيمها ، باب النار يدخلها الجبارون .
(٧) زاد في ط : البخاري .
(٨) المسند (٢/ ٣٦٦) . وفي ط : « عمرو » وهو خطأ ، فلا نعرف في شيوخ أحمد من اسمه عمرو بن سلمة ، وما أثبتناه هو الصواب (وينظر تهذيب الكمال ٢٨/ ٥٣١) .
(٩) سقطت من ب بنقلة عين .
(١٠) المسند (٢/ ٢٧٥) .

وهذا منقطع من هذا الوجه . والصحيح : الزُّهري ، عن سعيد عنه كما تقدم .

وقوله في هذا الحديث والذي قبله « الخزاعي » يدل على أنه ليس والد القبيلة بل منتسبٌ ، فلعل[١] ما وقع في الرواية من قوله « أبو خزاعة » [تصحيف من الراوي من (أخو خزاعة)][٢] ، أو أنه كان يُكنى بأبي خزاعة ، ولا يكون ذلك من باب الإخبار بأنه أبو خزاعة كلّهم . والله أعلم .

وقال محمد بن إسحاق[٣] : حدّثني محمد بن إبراهيم بن الحارث التميمي : أن أبا صالح السمّان حدّثه : أنه سمع أبا هريرة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثم بن الجَوْن الخزاعي : « يا أَكْثَم ، رأيتُ عَمْرَو بنَ لُحي بن قَمعة بن خِنْدف يَجُرُّ قُصْبَه في النار ، فما رأيتُ رجلاً أشبهَ برجُلٍ منكَ بِه ولا بِكَ مِنْهُ » . فقال أكثم : عسى أن يَضُرَّني شبهه يا رسول الله ؟! قال : « لا ، إنك[٤] مؤمنٌ وهو كافر . إنه كانَ أولَ مَنْ غيّر دينَ إسماعيل فَنَصَبَ الأوثانَ ، وبَحَر البَحِيْرَةَ ، وسيَّب السائبة ، ووَصَلَ الوَصِيْلَة ، وحَمَى الحامي[٥] » .

ليس في الكتب من هذا الوجه .وقد رواه ابن جرير عن هناد عن عبدة عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه أو مثله . وليس في الكتب أيضاً .

وقال البخاري[٦] : حدّثني محمد بن أبي يعقوب أبو عبد الله الكرماني ، حدّثنا حسان بن إبراهيم ، حدّثنا يونس ، عن الزهري ، عن عروة ، عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « رأيتُ جهنَّم يَحطم بعضُها بعضاً ، ورأيتُ عَمْراً يجرُّ قُصْبَه ، وهو أول من سيَّب السوائب » . تفرّد به البخاري .

وروى الطبراني من طريق صالح[٧] ، عن ابن عباس مرفوعاً في ذلك[٨] .

والمقصود أن عمرو بن لُحَي لعنه الله كان قد ابتدع لهم أشياء في الدين غيّر بها دينَ الخليل ، فاتبعه العرب في ذلك ، فَضَلُّوا بذلك ضلالاً بعيداً بيّناً فظيعاً شنيعاً . وقد أنكر الله تعالى عليهم في كتابه العزيز في غير ما آية منه ، فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ

---

(١) في ط : إليها مع .

(٢) سقطت من ب بنقلة عين .

(٣) السيرة (١/ ٧٥) . والقصب : الأمعاء .

(٤) لا زيادة من ط . والسيرة .

(٥) الأصنام لابن الكلبي ص(٥٨) . والوصيلة : الناقة البكر تنتج أنثى ثم أنثى ، يسيبونها لطواغيتهم . والحام : فحل الإبل ، يتركونه للطواغيت ويعفونه من الحمل .

(٦) صحيح البخاري رقم (٤٦٢٤) ، في تفسير سورة المائدة ، باب (١٣) .

(٧) في معجمه الكبير (١٠٨٠٨) ، وصالح هو مولى التوأمة .

(٨) في ب : مرفوعاً بنحوه نحو ذلك .

ٱلْكَذِبَ ﴾ . . الآية [النحل : ١١٦] . وقال تعالى ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة : ١٠٣] .

وقد تكلّمنا على هذا كلّه مبسوطاً وبيّنا اختلافَ السلف في تفسير[١] ذلك ، فمن أراده فليأخذه من ثَمَّ . ولله الحمد والمنة .

وقال تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ [النحل : ٥٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام : ١٣٦ ـ ١٤٠] .

قال البخاري في صحيحه[٢] : باب جهل العرب :

حدّثنا أبو النُّعمان ، حدّثنا أبو عوانة عن أبي بشر ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس قال : إذا سَرَّكَ أن تعلم جهلَ العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومئة في سورة الأنعام : ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ [١٤٠] .

وقد ذكرنا تفسير هذه الآية وما كانوا ابتدعوه من الشرائع الباطلة الفاسدة التي ظنّها كبيرُهم عَمرو بن لُحَي قبّحه الله مصلحةً ورحمةً بالدواب والبهائم ، وهو كاذب مفترٍ في ذلك ، ومع هذا الجهل والضلال اتّبعه هؤلاء الجهلةُ الطَّغام[٣] فيه ، بل قد تابعوه فيما هو أطَمُّ[٤] من ذلك وأعظم بكثير ، وهو عبادة الأوثان مع الله عز وجل ، وبدّلوا ما كان اللهُ بعث به إبراهيمَ خليلَه من الدين القويم والصراط المستقيم ، من توحيد عبادة الله وحدَه لا شريك له ، وتحريمِ الشرك ، وغيّروا شعائر الحج ومعالمَ الدين بغير علم ولا برهان ولا دليلٍ صحيحٍ ولا ضعيفٍ ، واتّبعوا في ذلك مَن كان قبلهم من أمم المشركين ، وشابهوا قومَ نوح ،

---

(١) في ب : تفسيرنا .
(٢) (٦/ ٥٥٠) ، في المناقب . وفيه : باب قصة زمزم وجهل العرب .
(٣) الطَّغَام : أوغاد الناس .
(٤) في ب : أطم وأعظم من ذلك بكثير . وأطَمّ : أدهى وأعجب .

وكانوا أول من أشرك بالله وعبد الأصنام ، ولهذا بعث الله إليهم نوحاً وكان أول رسول بُعث يَنهى عن عبادة الأصنام ، كما تقدم بيانه في قصة نوح[(١)] ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا ﴾ الآية [نوح : ٢٣ ـ ٢٤] .

قال ابن عباس : كان هؤلاء قوماً صالحين في قوم نوح ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، فلما طال عليهم الأمد عبدوهم . وقد بيّنا كيفيةَ ما كان من أمرهم في عبادتهم بما أغنى عن إعادته هاهنا .

قال ابن إسحاق[(٢)] وغيره : ثم صارت هذه الأصنام في العرب بعد تبديلهم دين إسماعيل ، فكان وَدٌّ لبني كلب بن وَبْرة[(٣)] بن تغلب بن حُلوان بن عمران بن الحاف بن قُضاعة . وكان منصوباً بدَوْمَة الجَنْدَلِ .

وكان سُواع لبني هذيل بن إلياس بن مُدْرِكة بن مضر . وكان منصوباً بمكان يقال له رُهَاط[(٤)] .

وكان يَغُوث لبني أَنْعُمَ من طيّئ ولأهل جُرَش من مذحِج وكان منصوباً بجرش[(٥)] .

وكان يَعُوقُ منصوباً بأرض هَمْدان من اليمن لبني خَيْوان بطن من هَمْدان[(٦)] .

وكان نَسْر منصوباً بأرض حِمْير لقبيلة يقال لهم : ذو الكلاع[(٧)] .

قال ابن إسحاق : وكان لخَولان بأرضهم صَنمٌ يقال له : عم أنس[(٨)] يقسمون له من أنعامهم وحروثهم قسماً بينه وبين الله فيما يزعمون ، فما دخل في حق عم أنس من حق الله الذي قسموه له تركوه له ، وما دخل في حق الله من حق عم أنس ردّوه عليه ، وفيهم أنزل الله ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا ﴾ .

قال : وكان لبني مِلْكان بن كنانة بن خُزيمة بن مُدركة صنم يقال له : سَعْدٌ ، صخرةٌ بفلاة أرضهم طويلة ، فأقبل رجلٌ منهم بإبلٍ له[(٩)] ليقفها عليه التماسَ بركتِه ، فيما يزعم ، فلما رأته الإبل ، وكانت مرعيةً لا تُركب ، وكان الصنم يُهرَاق عليه الدماء ، نفرت منه فذهبت في كل وجه ، وغضب ربها ، فأخذ حجراً فرماه به ثم قال : لا بارك الله فيك ، نفرت عليّ إبلي ، ثم خرج في طلبها ، فلما اجتمعت له قال :

---

(١) في الجزء الأول من هذا الكتاب . والسيرة (١/ ٧٨) .
(٢) السيرة (١/ ٧٨) ، والروض الأنف (١/ ١٠٢) .
(٣) كذا في ب . وهو الصحيح . وفي أ وط : مرة وهو سهو . الأصنام لابن الكلبي ص(١٠) .
(٤) الأصنام ص(٩) .
(٥) الأصنام ص(١٠) ، ولم يذكر أنه لطيّئ .
(٦) الأصنام ص(١٠) .
(٧) الأصنام ص(١١) .
(٨) في السيرة : عُميانس : وأشار المحقق إلى ما أورده ابن كثير . وفي الأصنام ص(٤٣) عُمْيَانِس .
(٩) زاد في ط : مؤبلة . وفي الأصنام ص(٣٦) ، ذكر موضع الصنم أنه بساحل جدة . والتنوفة : القفر .

أتينـا إلـى سعـدٍ ليجمـعَ بيننـا فشتّتنا سعدٌ فلا نحنُ من سعد[١]
وهـل سعـدُ إلّا صَخـرةٌ بِتنـوفـةٍ من الأرض لا يَهدي لغيّ ولا رُشْد[٢]

قال ابن إسحاق : وكان في دوس صنم[٣] لعمرو بن حُممة الدوسي .

قال وكانت قريش قد اتخذت صنماً على بئر في جوف الكعبة يقال له : هبل ، وقد تقدم فيما ذكره ابن هشام أنه أول صنم نصبه عمرو بن لُحَي لعنه الله .

قال ابن إسحاق[٤] : واتخذوا إسافاً ونائلة على موضع زمزم ينحرون عندهما . ثم ذكر أنهما كانا رجلاً وامرأةً ، فوقع عليها في الكعبة فمسخهما الله حجرين[٥] . ثم قال : حدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، عن عَمْرة أنها[٦] سمعت عائشة تقول : ما زلنا نسمع أن إسافاً ونائلة كانا رجلاً وامرأةً من جُرهم ، أحدثا في الكعبة ، فمسخهما الله عز وجل حجرين . والله أعلم .

وقد قيل[٧] إن الله لم يمهلهما حتى فجرا فيها ، بل مسخهما قبل ذلك ، فعند ذلك نُصِبا عند الصفا والمروة ، فلما كان عمرو بن لُحي نقلهما فوضعهما على زمزم وطاف الناس بهما . وفي ذلك يقول أبو طالب : [من الطويل]

وحيث يُنيخُ الأشْعَرونَ ركابَهُم بِمُفْضَىٰ السُّيولِ من إسافٍ ونائلِ[٨]

وقد ذكر الواقدي : أن رسول الله ﷺ لما أمر بكسر نائلة يوم الفتح خرجت منها سوداء شمطاء تخمش وجهها وتدعو بالويل والثبور[٩] .

وقد ذكر السهيلي : أن أجا وسلمى وهما جبلان بأرض الحجاز إنما سميا باسم رجل اسمه أجا بن عبد الحي فَجَرَ بسلمى بنت حام فصلبا في هذين الجبلين فعرفا بهما . قال : وكان بين أجا وسلمى صنم لطيّئ يقال له : فَلْس[١٠] .

---

(١) في ط : ليجمع شملنا . وكذلك في الأصنام ص(٣٧) .
(٢) في ط : لا يدعو . وفي الأصنام : لا يُدعى .
(٣) هو ذو الكفّين ، كما ذكر ابن الكلبي ص(٣٧) .
(٤) السيرة (١/ ٨٢) .
(٥) في ب : فمسخا حجرين .
(٦) في ط ، والسيرة : أنها قالت سمعت .
(٧) الروض الأنف (١/ ١٠٥) .
(٨) البيت في السيرة (١/ ٨٣) ، وروض الأنف (١/ ١٠٦) ، والأصنام ص(٢٩) .
(٩) المغازي (٢/ ٨٤١) .
(١٠) الروض الأنف (١/ ١٠٧ ـ ١٠٨) . والأصنام ص(٥٩) .

قال ابن إسحاق(١) : واتخذ أهل كل دار في دارهم صنماً يعبدونه ، فإذا أراد الرجل منهم سفراً تمسَّح به حين يركب ، فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه إلى سفره . فإذا قدم من سفره تمسَّح به ، فكان(٢) أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله . قال : فلما بعث اللهُ محمداً ﷺ بالتوحيد قالت قريش : ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص : ٥] .

قال ابن إسحاق : وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة لها سَدَنة وحُجَّاب ، وتُهدي لها كما تهدي للكعبة ، وتطوف بها كطوافها بها(٣) ، وتنحر عندها كما تنحر عندها(٤) . وهي مع ذلك تعرف فَضْل الكعبة عليها ، لأنها بناءُ إبراهيم الخليل عليه السلام ومسجده .

فكانت لقريش وبني كنانة العُزَّى بِنَخْلَة ، وكانت سدنتها وحجابها بني شيبان من سُلَيم حُلفاء بني هاشم ـ وقد خرّبها خالد بن الوليد زمن الفتح كما سيأتي ـ .

قال : وكانت اللاتُ لثقيف بالطائف ، وكانت سدنتها وحجّابها بني مُعَتّب من ثقيف(٥) وخرّبها أبو سفيان والمغيرة بن شعبة بعد مجيء أهل الطائف كما سيأتي .

[قال](٦) : وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل المدينة على ساحل البحر من ناحية المشلل بقُدَيْد(٧) . وقد خرَّبها أبو سفيان أيضاً ، وقيل علي بن أبي طالب كما سيأتي .

قال : وكان ذو الخلصة لدوس وخثعم وبجيلة ومن كان ببلادهم من العرب بِتَبَالة(٨) ، وكان يقال له : الكعبة اليمانية ، ولبيت مكة الكعبة الشامية . وقد خرَّبه جرير بن عبد الله البجلي كما سيأتي .

قال : وكان فلس لطيّئ(٩) بين أجا وسلمى ، وهما جبلان مشهوران كما تقدم .

قال : [وكان ريَآم(١٠) بيتاً لحمير وأهل اليمن كما تقدم](١١) ذكره في قصة تبع أحد ملوك حمير ،

---

(١) السيرة (١/ ٨٣) .
(٢) في ط : فكان ذلك .
(٣) في ب : وتطوف بها كتطوافها بالكعبة .
(٤) ليست في ط . ولا السيرة .
(٥) السيرة (١/ ٨٥) .
(٦) زيادة من ط . والسيرة .
(٧) قديد : موضع قرب مكة . والمشلل : جبل يهبط منه إلى القديد من ناحية البحر .
(٨) تبالة : موضع على مسيرة سبع ليال من مكة .
(٩) في ط . والسيرة : لطيئ ومن يليها بجبلي طيء . وفي الأصنام ص(٥٩) : وكان أنفاً أحمر في وسط جبلهم الذي يقال له أجأ ، أسود كأنه تمثال إنسان .
(١٠) في ط : رآم .
(١١) سقط من ب بنقلة عين .

وقصة الحَبْرَيْن حين خرباه وقتلا منه كلباً أسود .

قال : وكانت رُضاء[١] بيتاً لبني ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم ، ولها يقول المستوغر ، واسمه عمرو[٢] بن ربيعة بن كعب : [من الكامل]

ولقد شددت على رُضاءٍ شَدَّةً ... فتركتُها قفراً بقاعٍ أسحما

وأعان عبد الله في مكروهها ... وبمثلِ عبد الله أَغْشى المَحْرما[٣]

ويقال : إن المستوغر هذا عاش ثلاثمئة سنة وثلاثين سنة وكان أطول مضر كلها عمراً ، وهو الذي يقول : [من الكامل]

ولقد سئمت من الحياة وطولها ... وعمرت من عدد السنين مئينا

مئة حدتها بعدها مئتان لي ... وازددت من عدد الشهور سنينا

هل ما بقى إلا كما قد فاتنا ... يوم يمرُّ وليلة تحدونا[٤]

قال ابن هشام : وتُروى[٥] لزهير بن جناب بن هُبل .

قال السهيلي : ومن المعمَّرين الذين جازوا المئتين والثلاثمئة زهير هذا ، وعبيد بن شرية ، ودَغْفَل ابن حنظلة النسّابة ، والربيع بن ضبع الفزاري ، وذو الإصبع العدواني ، ونصر بن دهمان بن أشجع بن ريث بن غطفان ، وكان قد اسود شعره بعد ابيضاضه ، وتقوَّم ظهره بعد اعوجاجه[٦] .

قال[٧] : وكان ذو الكعبات لبكر وتغلب بن وائل وإياد بِسَنْداد[٨] ، وله يقول أعشى بني قيس بن ثعلبة[٩] : [من الكامل]

---

(١) في الأصنام ص(٣٠) : رُضًى .

(٢) في أ ، و : ب ، و : ط و : كعب بن ربيعة . . . وهذا غير معروف . ألقاب الشعراء (في نوادر المخطوطات) (٢/ ٣٠٤) ، والشعر والشعراء (١/ ٣٨٤) ، والمعمرين (١٢ ـ ١٣) ، والأصنام ص(٣٠) .

(٣) في الأصنام : ودعوت . . . ولمثل عبد الله يغشى المحرما .

(٤) قوله : بقَى ، يريد بقيَ ، وهي لغة لطيئ . والأبيات في المعمرين ص(١٢) ، والشعر والشعراء (١/ ٣٨٤) . إضافة إلى السيرة .

(٥) في ط : وتروى هذه الأبيات . وزهير بن جناب بن هبل الكلبي من المعمرين أيضاً . انظر المعمرين : (٣١) .

(٦) الروض الأنف (١/ ١١٠) . وانظر ذكراً لهؤلاء في المعمرين .

(٧) ابن إسحاق (١/ ٨٨) .

(٨) سنداد : من منازل إياد أسفل سواد الكوفة .

(٩) كذا في الأصل . والسيرة . وأشار ابن هشام إلى أن هذا البيت للأسود بن يعفر النهشلي . وليست الأبيات في ديوان الأعشى بشرح الدكتور محمد محمد حسين ، رحمه الله .

بين الخَوْرَنَقِ والسَّدِيرِ وبارقٍ　　والبيتِ ذي الشُّرفاتِ من سنداد

وأول هذه القصيدة[١] : [من الكامل]

ولقد علمتُ وإن تطاول بي المدى　　أن السبيل سبيل ذي الأعواد

ماذا أؤمّل بعد آل محرّق　　تركوا منازلهم وبعد إياد

نزلوا بأنقرةٍ يسيل عليهم　　ماء الفرات يجيء من أطواد

أرض الخورنق والسدير وبارق　　والبيت ذي الشرفات من سنداد

جرت الرياح على محلّ ديارهم　　فكأنما كانوا على ميعاد

وأرى النعيم وكل ما يُلهى به　　يوماً يصير إلى بِلىً ونفاد

قال السهيلي[٢] : الخورنق : قصر بناه النعمان الأكبر لسابور ليكون ولده فيه عنده ، وبناه رجل يقال له : سنِمَّار في عشرين سنة ، ولم ير بناء أعجب منه ، فخشي النعمان أن يبني لغيره مثله فألقاه من أعلاه فقتله . ففي ذلك يقول الشاعر[٣] : [من البسيط]

جزاني جزاه الله شر جزائه　　جزاء سنمَّار وما كان ذا ذنب

سوى رصه البنيان عشرين حجة　　يعلقْ عليه بالقرامد والسكب[٤]

فلما انتهى البنيان يوماً تمامه　　وآض كمثل الطود والباذخ الصعب

رمى بسنمَّار على حق رأسه　　وذاك لعمر الله من أعظم الخطْب[٥]

قال السهيلي : أنشده الجاحظ في كتاب الحيوان[٦] . والسِّنمّار من أسماء القمر[٧] .

والمقصود أن هذه البيوت كلها هدمت ، لما جاء الإسلام ، جهز رسول الله ﷺ إلى كل بيت من هذه

---

(١) هذه الأبيات ضمن قصيدة مفضلية للأسود بن يعفر ، ص(٢١٦) وما بعدها ، مع بعض اختلاف في الرواية . وكذلك نسب السهيلي البيت الأول للأسود بن يعفر .

(٢) الروض الأنف (١/ ١١١) ومن قوله : الخورنق إلى قوله : السهيلي وبداية المقطع الثاني سقط من ب بنقلة عين .

(٣) هو شرحبيل الكلبي كما في ثمار القلوب للثعالبي (١/ ١٣٩) . ولعبد العزى بن امرئ القيس الكلبي كما في الأمالي الشجرية (١/ ١٠٢) .

(٤) في ط ، وب : سوى رضفه . . . يعد عليه . . والسكب : النحاس أو الرصاص .

(٥) في ب ، ط : من أقبح .

(٦) حياة الحيوان (١/ ٢٣) .

(٧) زاد في ب : وقال آخر :

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر　　وحسن ظن كما يجزى سنمَّار

وأما السدير : فبيت الملك . وذو الكعبات ، وهي الشرفات ، بيت كانوا ينحرون عنده ويطوفون به كما ذكره ابن إسحاق وغيره . والله أعلم .

سرايا تخربه ، وإلى تلك الأصنام من كسرها ، حتى لم يبق للكعبة ما يضاهيها ، وعبد الله وحده لا شريك له ، كما سيأتي بيانه وتفصيله في مواضعه إن شاء الله تعالى وبه الثقة .

***

خبر عدنان جد عرب الحجاز
[وهو الذي ينتهي إليه نسب رسول الله ﷺ][(١)]

لا خلاف أن عدنان من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل ، عليهما السلام ، واختلفوا في عدة الآباء بينه وبين إسماعيل . على أقوال كثيرة ، فأكثر ما قيل : أربعون أباً ، وهو الموجود عند أهل الكتاب ، أخذوه من كتاب رخيا كاتب أرميا بن حلقيا ، على ما سنذكره . وقيل : بينهما ثلاثون . وقيل : عشرون . وقيل : خمسة عشر . وقيل : عشرة . وقيل : تسعة . وقيل : سبعة . وقيل : إن أقل ما قيل في ذلك : أربعة ، لما رواه موسى بن يعقوب[(٢)] الزمعي ، عن عمته ، عن أم سلمة ، عن النبي ﷺ أنه قال : « معد بن عدنان بن أُدَدْ بن زند بن اليرى بن أَعْراق الثرى »[(٣)] . قالت أم سلمة : فَزَنْد : هو الهَمَيْسع ، واليَرى : هو نابت ، وأعراق الثرى : هو إسماعيل لأنه ابن إبراهيم ، وإبراهيم لم تأكله النار ، كما أن النار لا تأكل الثرى .

قال الدارقطني : لا نعرف زنداً إلا في هذا الحديث وزَنْدَ بن الجَون[(٤)] أبا دلامة الشاعر .

قال الحافظ أبو القاسم السهيلي[(٥)] ، وغيره من الأئمة : مدة ما بين عدنان إلى زمن إسماعيل أكثر من أن يكون بينهما أربعة آباء أو عشرة أو عشرون ، وذلك أن معدّ بن عدنان كان عمره زمن بخت نصر ثنتي عشرة سنة . وقد ذكر أبو جعفر الطبري[(٦)] وغيره أن الله تعالى أوحى[(٧)] إلى أرميا بن حلقيا أن اذهب إلى بخت نصر فأعلمه أني سلطته على العرب ، وأمر الله لأرميا أن يحمل معه معد بن عدنان على البراق كي

---

(١) سقط من ط .
(٢) تمم نسبه في ط فقال : ابن يعقوب بن عبد الله بن وهب بن زمعة . تقريب التهذيب (٢/ ٢٨٩) .
(٣) تاريخ الطبري (٢/ ٢٧١) ، ورواه السهيلي في الروض (١/ ١١) ، وقال : أصح شيء روي فيما بعد عدنان .
(٤) في ط : الجون وهو أبو دلامة . والخبر نقله السهيلي في الروض (١/ ١١) ، عن الدارقطني . وأبو دلامة شاعر من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ، توفي سنة (١٦١هـ) . وله ديوان شعر جمعه الدكتور رشدي علي حسن وطبع في مؤسسة الرسالة (١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م) .
(٥) الروض الأنف (١/ ١١) .
(٦) تاريخه (١/ ٥٥٨ ـ ٥٥٩) .
(٧) زاد في ط : في ذلك الزمان .

لا تصيبه النقمة[١] ، فإني مستخرجٌ من صلبه نبياً كريماً أختم به الرسل . ففعل أرميا ذلك ، واحتمل معداً[٢] إلى أرض الشام ، فنشأ مع بني إسرائيل ممن بقي منهم بعد خراب بيت المقدس ، وتزوج هناك امرأة اسمها معانة بنت جوشن[٣] من بني دب بن جرهم قبل أن يرجع إلى بلاده ، ثم عاد بعد أن هدأت الفتن وتمحضت جزيرة العرب[٤] . وكان رخيا كاتب أرميا قد كتب نسبه في كتاب عنده ليكون في خزانة أرميا فيحفظ نسب معد[٥] لذلك . والله أعلم . ولهذا كره مالك رحمه الله رَفْعَ النسب إلى ما بعد عدنان .

قال السهيلي[٦] : وإنما تكلمنا في رفع هذه الأنساب على مذهب من يرى ذلك ولم يكرهه ، كابن إسحاق والبخاري والزُّبير بن بكار والطبري وغيرهم من العلماء . وأما مالك رحمه الله فقد سئل عن الرجل يرفع نسبه إلى آدم فكره ذلك ، وقال من أين له بعلم[٧] ذلك ؟ فقيل له : فإلى إسماعيل ؟ فأنكر ذلك أيضاً وقال : ومن يخبره به ، وكره أيضاً أن يرفع في نسب الأنبياء مثل أن يقال : إبراهيم بن فلان بن فلان ، هكذا ذكره المعَيْطي في كتابه[٨] . قال : وقول مالك هذا نحو مما روى عن عروة بن الزبير أنه قال : ما وجدنا أحداً يعرف ما بين عدنان وإسماعيل[٩] . وعن ابن عباس أنه قال : بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يُعرفون .

وروي عن ابن عباس أيضاً أنه كان إذا بلغ عدنان يقول : كذب النسابون مرتين أو ثلاثاً[١٠] . والأصح

---

(١) زاد في ط : فيهم .
(٢) زاد في ط : على البراق .
(٣) في الطبري (١/ ٥٦٠) ، أن معداً تزوج معانة بنت جوشم بن جلهمة الجرهمي .
(٤) تمحضت : تخلصت من الشوائب ، وزاد في ب هنا . ذكر السهيلي إنما سلط الله تعالى عليهم بخت نصر على العرب لأنه كان بعث فيهم رسولاً يقال له : شعيب بن ذي مهدم ، فكذبوه وقتلوه ، فقبره بجبل باليمن يقال له : صنين . قال : وليس بشعيب صاحب مدين ، وذاك شعيب بن عَيفي ، ويقال : ابن صيفون . قال : وبعث الله تعالى إلى العرب نبياً آخر يقال له : حنظلة بن صفوان ، فكذبوه أيضاً ، فسلط الله عليهم . بخت نصر . وفي هذا الذي قاله نظر من وجوه ، من آكدها قوله تعالى : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ والمراد بهم العرب ؛ لا أهل مكة على الخصوص ، وسنزيد هذا بسطاً فيما بعد ، إن شاء الله تعالى . الروض الأنف ، (١/ ١٢) ، وتاريخ الطبري (٢/ ٢٧١) .
(٥) زاد في ب : وكان النسب بينه وبين إسماعيل قريباً من أربعين أباً كما تقدم ، لكن تختلف ألفاظ الضابطين . تاريخ الطبري (٢/ ٢٧٤) .
(٦) الروض الأنف (١/ ١٤) .
(٧) في ط : وقال له من له علم ذلك .
(٨) قال السهيلي : وقع هذا الكلام لمالك في الكتاب الكبير المنسوب إلى المعيطي ، وإنما أصله لعبد الله بن محمد بن حنين ، وتممه المعيطي ، فنسب إليه .
(٩) من قوله : روي عن . . . إلى هنا زيادة من ط ، والسهيلي .
(١٠) ذكره السيوطي في الجامع الصغير ، ونسبه لابن سعد وابن عساكر ، من حديث ابن عباس ، وهو ضعيف .

عن ابن مسعود مثله . وقال عمر بن الخطاب إنما تنسب إلى عدنان .

وقال أبو عمر بن عبد البر في كتابه « الإنباه في معرفة قبائل الرواه » روى ابن لهيعة عن أبي الأسود أنه سمع عروة بن الزبير يقول : ما وجدنا أحداً يعرف ما وراء عدنان ولا وراء قحطان إلا تخرُّصاً ، وقال أبو الأسود : سمعت أبا بكر بن سليمان بن أبي خيثمة ، وكان من أعلم قريش بأشعارهم وأنسابهم يقول : ما وجدنا أحداً يعرف ما وراء معد بن عدنان في شعر شاعر ولا علم عالم .

قال أبو عمر[١] : وكان قوم من السلف منهم عبد الله بن مسعود وعمرو بن ميمون الأودي ومحمد بن كعب القرظي إذا تلوا ﴿ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۛ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ ﴾ [إبراهيم : ٩] قالوا : كذب النسابون[٢] .

قال أبو عمر رحمه الله : والمعنى عندنا في هذا غير ما ذهبوا[٣] ، والمراد أن من ادعى إحصاء بني آدم فإنهم لا يعلمهم إلا الله الذي خلقهم ، وأما أنساب العرب فإن أهل العلم بأيامها وأنسابها قد وعوا وحفظوا جماهيرها وأمهات قبائلها ، واختلفوا في بعض فروع ذلك[٤] .

قال أبو عمر : والذي عليه أئمة هذا الشأن في نسب عدنان قالوا : عدنان بن أدد بن مقوم بن ناحور ابن[٥] يعرب بن يشجب بن نابت بن إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام . وهكذا ذكره محمد بن إسحاق بن يسار في « السيرة »[٦] .

قال ابن هشام : ويقال : عدنان بن أد ، يعني عدنان بن أد بن أدد . ثم ساق أبو عمر بقية النسب إلى آدم كما قدمناه في قصة الخليل عليه السلام .

وأما الأنساب إلى عدنان من سائر قبائل العرب فمحفوظة شهيرة جداً لا يتمارى فيها اثنان ، والنسب النبوي إليه أظهر وأوضح من فلق الصبح . وقد ورد حديث مرفوع بالنص عليه كما سنورده في موضعه بعد الكلام على قبائل العرب وذكر أنسابها وانتظامها في سلك النسب الشريف والأصل المنيف إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم .

وما أحسن ما نظم النسب النبوي الإمام أبو العباس عبد الله بن محمد الناشئ في قصيدته المشهورة المنسوبة إليه وهي قوله : [من الطويل]

---

(١) زاد في ب : ابن عبد البر .

(٢) الإنباه (١٧ ـ ١٩) وتفسير الطبري (١٣/ ١٢٥) .

(٣) زاد في ب : إليه .

(٤) الإنباه (١٩) وزاد في ب : وقد حرَّر ذلك مستقصىً مطولاً الإمام أبو جعفر بن جرير في تاريخه ، وذكر الخلاف في ذلك مبسوطاً رحمه الله . تاريخ الطبري (٢/ ٢٧٤) .

(٥) زاد في ط : ابن تيرح . وكذلك في السيرة .

(٦) السيرة (١/ ٢) ، والإنباه (٢٠) .

مـدحـتُ رسـولَ الله أبغـي بمـدحِـه وُفورَ حظوظي من كريمِ المآربِ
مدحتُ امرأً فاقَ المديحَ موحّداً بـأوصـافـه عـن مُبعِـدٍ ومقـارِب[(١)]
نبيّـاً تسـامـى فـي المشـارقِ نـورُه فـلاحـتْ هَـواديـه لأهـلِ المغـاربِ
أتتنـا بـه الأنبـاءُ قبـلَ مجيئـه وشاعتْ به الأخبارُ في كلّ جانب
وأصْبَحَـتِ الكُهّـانُ تهتـفُ بـاسمـهِ وتنفـي بـه رجـمَ الظنـونِ الكـواذب
وأُنطِقـت الأصنـامُ نطقـاً تبـرّأت إلـى الله فيـهِ مـن مَقـالِ الأكـاذب
وقـالـت لأهـل الكفـر قـولاً مبيّناً : أتـاكـم نبـيٌّ مـن لـؤيّ بـنِ غـالـب
ورامَ استـراقَ السمـع جـنٌّ فـزيّلـتْ مقاعدَهم منها رجومُ الكواكب[(٢)]
هدانا إلى ما لم نكنْ نهتدي له لطولِ العمى من واضحات المذاهب
وجـاء بـآيـات تبيّـن أنهـا دلائـلُ جبّـارٍ مثيـبِ معـاقـب
فمنها انْشقاقُ البدرِ حين تعمّمت شعوبُ الضيا منه رؤوس الأخاشب[(٣)]
ومنهـا نبـوعُ المـاء بيـنَ بَنـانـه وقد عدِمِ الورّاد قربَ المشارب[(٤)]
فـروّى بـه جمّـاً غَفيـراً وأسْهلـت بـأعنـاقِـهِ طـوعـاً أكُـفّ المـذانِـب[(٥)]
وبئرٍ طفتْ بالماء من مَسّ سَهْمِه ومن قبلُ لم تسمح بمَذْقةِ شارب[(٦)]
وضـرع مَـرَاهُ فـاستـدرّ ولـم يكـنْ بـه دِرّةٌ تُصغـي إلـى كـفّ حـالـب
ونُطـقِ فصيـحٍ مـن ذِراع مبينـةٍ لكيـدِ عـدوٍّ للعـداوة نـاصـب
وإخبـارِه بـالأمـر مـن قبـلِ كـونـه وعنـدَ بـواديـه بمـا فـي العـواقـب
ومـن تلكـم الآيـاتِ وَحـيٌ أتـى بـه قـريـب المـآتـي مستجـمّ العجـائـب
تقـاصـرتِ الأفكـارُ عنـه فلـم يطـعْ بليغاً ولم يَخْطُر على قلبِ خاطب
حَوى كلَّ عِلمٍ واحْتَوى كلَّ حِكمةٍ وفـاتَ مـرامَ المستمـرّ المـوارب

---

(١) في ط : عن معبد .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى في سورة الحجر : ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ۝ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [١٧ - ١٨] .

(٣) قال عز وجل ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ . وحديث انشقاق القمر مشهور أورد ابن الأثير رواياته في جامع الأصول (١١/ ٣٩٦) عن البخاري ومسلم والترمذي . والأخاشب : الجبال .

(٤) حديث نبع الماء بين أصابعه ﷺ أخرجه مسلم (٣٠٠٦ وحتى ٣٠١٤) ، في الزهد ، باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر .

(٥) المذانب : جمع مِذْنب وهو سيل الماء إلى الأرض .

(٦) المذقة : الشّربة .

أتانا به لا عَن رَويَّة مرتئٍ ... ولا صُحْفِ مُسْتَمْلٍ ولا وصفِ كاتب

يواتيه طوراً في إجابةِ سائلٍ ... وإفتاءِ مستفْتٍ ووعْظ مخاطب

وإتيان برهانٍ وفرضِ شرائعٍ ... وقصِّ أحاديثٍ ونصّ مآرب

وتصريف أمثالٍ وتثبيتِ حُجّة ... وتعريفِ ذي جَحدٍ وتوقيف كاذب

وفي مَجمع النادي، وفي حومةِ الوغى ... وعندَ حدوثِ المعضِلات الغرائب

فيأتي على ما شئتَ من طُرقاته ... قويمَ المعاني مستدرَّ الضَّرائب

يصدّقُ منه البعضُ بعضاً كأنما ... يلاحَظ معناه بعينِ المراقب

وعجْزُ الورَى عن أن يجيؤوا بمثلِ ما ... وَصفناهُ معلومٌ بطول التجارب

تأبّى (بعبدِ الله) أكرمِ والدٍ ... تبلّجَ منْه عن كريمِ المناسب

و (شيبة) ذي الحمدِ الذي فخرت به ... قريشٌ على أهلِ العُلَى والمناصب

ومَن كان يُستسْقَى الغمامُ بوجهه ... ويُصدَر عن آرائه في النوائب

و (هاشمٌ) الباني مُشيد افتخارِه ... بعزّ المساعي وامتهانِ المواهب[1]

و (عبدِ مناف) وهو علّم قومَه اشـ ... ـتطاط الأماني واحتكامَ الرغائب

وإن (قُصَيّاً) من كريمِ غِراسه ... لفي مَنهلٍ لم يَدنُ من كف قاضب

به جَمع الله القبائلَ بعد ما ... تقسَّمها نهبُ الأكفّ السوالب

وحلَّ (كلابٌ) من ذُرى المجدِ معقلاً ... تقاصَرَ عنه كلُّ دانٍ وغائب

و (مُرَّة) لم يحلل مريرةَ عزمه ... سِفاهُ سَفيهٍ أو مَحُوبةُ حائب[2]

و(كعب) عَلاَ عن طالبِ المجدِ كعبُه ... فنال بأدنى السعي أعلا المراتب

وألوى (لؤيٌّ) بالعُداة فطُوّعت ... له هِمَمُ الشُّمِّ الأنوفِ الأغالب

وفي (غالبٍ) بأسٌ أبَى البأسُ دونهم ... يُدافع عنهم كلّ قِرنٍ مُغالب

وكانت (لفهرٍ) في قريشٍ خَطابة ... يعوذُ بها عندَ اشتجارِ المُخاطب

وما زالَ منهم (مالكٌ) خيرَ مالكٍ ... وأكرمَ مصحوبٍ وأكرمَ صاحب

و(للنضْر) طولٌ يقصُرُ الطَّرفُ دونَه ... بحيثُ التقى ضوءَ النجومِ الثواقب

لَعَمري لقد أبدى (كِنانةُ) قبله ... محاسنَ تأبى أن تَطوعَ لغالب[3]

---

(١) في ط : وامتنان .

(٢) الحوبة : الإثم .

(٣) كذا في ط . وهو الصحيح . وفي أ وب بعده .

ومـن قبلـه أبقـى (خُـزيْمَـةُ) حَمْـدَه … تليـدَ تُـراثٍ عـن حَميـدِ الأقـارب[١]
و(مـدرِكـةٌ) لـم يـدركِ النـاسُ مثلَـه … أعـفّ وأعلـى عـن دنـيّ المكـاسـب
و(إليـاسُ) كـان اليـأسُ منـه مُقـارِنـاً … لأعـدائـه قبـل اعتـدادِ الكتـائـب
وفـي (مُضَـرٍ) يُستجمَـع الفخـرُ كلُّـه … إذا اعتـركـتْ يـومـاً زُحُـوفُ المقـانـب[٢]
وحـلَّ (نـزارٌ) مـن ريـاسـة قـومـه … محـلَّا تسـامـى عـن عيـونِ الـرواقـب[٣]
وكـان (معـدّ) عِـدَّةً لـوليّـه … إذا خـافَ مـن كيـدِ العـدوّ المحـارب
ومـا زال (عـدنـان) إذا عُـدّ فضلُـه … تـوحَّـد فيـه عـن قـريـنٍ وصـاحـب
و (أُدّ) تـأدّى الفضـلُ منـه بغـايـةٍ … وإرثٍ حـواهُ عـن قُـرومٍ أشـايـب[٤]
وفـي (أُدَدٍ) حلْـم تـزيَّـنَ بـالحِجـا … إذا الحلـم أزهـاهُ قطـوبُ الحـواجـب
ومـا زال يَستعلـي (هَميسـعُ) بـالعلـى … ويبلـغ آمـالَ البعيـدِ المـراغـب[٥]
و (نبـتٍ) بنتْـهُ دوحـةُ العـزّ وابتغـى … معـاقلَـه فـي مُشْمَخـرٍّ الأهـاضـب[٦]
وحِيـزتْ (لِقيـذارٍ) سمـاحـةُ حـاتـم … وحكمـةُ لقمـانٍ وهمّـةُ حـاجـب
هُمـوا نسـلُ (إسمـاعيـل) صـادقِ وعـدِه … فمـا بعـدَه فـي الفخـرِ مَسْعـىً لـذاهـب
وكـان (خليـلُ الله) أكـرمَ مـن عَنَـت … لـه الأرضُ مـن مـاشٍ عليهـا وراكـب
و (تـارحُ) مـا زالـتْ لـه أرْيَحِيّـة … تُبيّـنُ منـه عـن حميـد الضـرائـب[٧]
و (نـاحـورُ) نحّـارُ العِـدى حُفظـت لـه … مـآثـرُ لمَّـا يُحصِهـا عـدُّ حـاسـب
و (أشـرغُ) فـي الهيجـاء ضَيْغـمُ غـابـةٍ … يقـدُّ الطّلـى بـالمـرهَفـات القـواضـب[٨]
و (أرغـو) فنـابٌ فـي الحـروب مُحكَّـم … ضنيـنٌ علـى نفـس المشيـح المغـالـب
ومـا (فـالـغٌ) فـي فضلـه تِلـو قـومِـه … ولا (عابرٌ) من دونهم في المراتب[٩]
و (شالخ) و(ارفخشذ) و (سام) سمتْ بهم … سجـايـا حمتْهـم كـلّ زارٍ وعـائـب

---

(١) كذا في ط . وفي أ و ب : ومن بعده أبقى خزيمة بعده .
(٢) المقانب : جمع مِقْنب ، وهي جماعة الخيل والفرسان .
(٣) في ط : أهله .
(٤) القروم : السادة الفرسان الشجعان .
(٥) في ط : ويتبع .
(٦) المشمخر : العالي المرتفع .
(٧) في ط : المضارب .
(٨) الطلى : الأعناق .
(٩) كذا في ط . وفي أ و ب : دونه .

وما زال (نوحٌ) عند ذي العرش فاضلاً يعـدّده فـي المصطفَيـن الأطـايـب
و (لمكٌ) أبوهُ كان في الرَّوْع رائعاً جـريئـاً علـى نفس الكمـيِّ المضـارب
ومن قبلِ لمكٍ لم يزل (متوشلخ) يـذودُ العِـدى بـالـذائـدات الشـوازب
وكـانـت (لإدريـسَ) النبـيّ منـازلٌ مِـنَ الله لـم تُقـرن بهمّـة راغـب
و (يـاردُّ) بحـرٌ عنـد آلِ سـراتـه أبـيُّ الخـزايـا مُستـدقّ المـآرب
وكـانـت (لمهـلاييـل) فيـه فضـائـلٌ مهـذَّبـةٌ مـن فـاحشـات المثـالـب
و (قينان) من قبلُ اقتنى مجدَ قومه وقـادَ بشأوِ الفضـل وَخْدَ الـركـائـب[1]
وكـان (أنـوش) نـاشَ للمجـد نفسَـه ونـزّههـا عـن مُـردِيـات المطـالـب
وما زال (شيثٌ) بالفضائل فاضلاً شـريفـاً بـريئـاً مـن ذميـم المعـايـب
وكلّهـمُ مـن نـورِ (آدم) أقبسـوا وعـن عـودِه أجْنـوا ثمـار المنـاقـب
وكـان رسـول الله أكـرمَ منجَـبٍ جـرى فـي ظهـور الطيّبيـن المناجـب
مقـابلـةً آبـاؤه أمهـاتِـه مُبـرّأة مـنْ فـاضحـات المثـالـب
عليـه سـلامُ الله فـي كـلِّ شـارقٍ ألاحَ لنـا ضـوءاً وفـي كـلّ غـارب

هكذا أورد القصيدة الشيخ أبو عمر بن عبد البر[2]، وشيخنا الحافظ أبو الحجاج المِزي في « تهذيبه »[3] من شعر الأستاذ أبي العباس عبد الله بن محمد الناشئ المعروف بابن شِرْشِير[4]، أصله من الأنبار، وورد بغداد ثمّ ارتحل إلى مصر فأقام بها حتى مات سنة ثلاث وتسعين ومئتين . وكان متكلماً معتزلياً، يحكي عنه الشيخ أبو الحسن الأشعري في كتابه « المقالات » فيما يحكي عن المعتزلة . وكان شاعراً مطبقاً حتى إنه من جملة اقتداره على الشعر كان يعاكس الشعراء في المعاني، فينظم في مخالفتهم ويبتكر ما لا يطيقونه من المعاني البديعة والألفاظ البليغة، حتى نسبه بعضهم إلى التهوّس والاختلاط . وذكر الخطيب البغدادي أن له قصيدةً على قافية واحدة قريباً من أربعة آلاف بيت ذكرها الناجم، وأرخ وفاته كما ذكرنا[5] .

قلت : هذه قصيدة تدل على فضيلته وبراعته وفصاحته وبلاغته وعلمه وفهمه وحفظه، وحسن لفظه، واطلاعه واضطلاعه واقتداره على نظم هذا النسب الشريف في سلك شعره، وغوصه على هذه المعاني التي هي جواهر نفيسة من قاموس بحره، فرحمه الله وأثابه وأحسن مصيره وإيابه .

---

(١) الوخْد : الإسراع .
(٢) الإنباه على قبائل الرواه (٢١/ ٢٥) .
(٣) تهذيب الكمال (١/ ١٧٧ ـ ١٨٠) .
(٤) ترجمته في : وفيات الأعيان (٣/ ٩١) ، والسير (١٤/ ٤٠) .
(٥) تاريخ مدينة السلام (١١/ ٢٩٧ ـ ٢٩٩) (ط . د. بشار) .

ذكر أصول أنساب قبائل عرب الحجَاز إلى عدنان[١]

وذلك لأن عدنان وُلِد له ولدان : معدّ وعك . قال السهيلي : ولعدنان أيضاً ابن اسمه الحارث ، وآخر يقال له[٢] المذهب . قال وقد ذكر أيضاً في بنيه الضحاك . وقيل إن الضحاك ابن لمعدّ لا ابن عدنان . قال : وقيل : إن عدن الذي تُعرف به مدينةُ عدَن ، وكذلك أَبْيَن ، كانا ابنين لعدنان . حكاه الطبري[٣] . فتزوج عك في الأشعريين وسَكَن في بلادهم من اليمن ، فصارت لغتهم واحدة[٤] ، فزعم بعض أهل اليمن أنهم منهم فيقولون : عك بن عدنان بن عبد الله بن الأزد بن الغوث ، ويقال : عك بن عدنان بن الذيب بن عبد الله بن الأسد ، يقال : الريث بدل الذيب ، والصحيح ما ذكرنا من أنهم من عدنان[٥] . قال عباس بن مرداس : [من الطويل]

وعكّ بن عدثانَ الذين تَلَقَّبُوا ... بغسّانَ حتى طُرِّدوا كلَّ مَطرد[٦]

وأما معد : فوُلِد له أربعة : نزار ، وقضاعة ، وقُنُص ، وإياد . وكان قضاعةُ بكرَه ، وبه كان يُكنى ، وقد قدّمنا[٧] الخلاف في قضاعة ، ولكن هذا هو الصحيح عند ابن إسحاق[٨] وغيره . والله أعلم .

وأما قُنُص : فيقال : إنهم هلكوا ولم يبقَ لهم بقيةٌ ، إلا أن النعمان بن المنذر الذي كان نائباً لكسرى على الحيرة كان من سُلالته على قول طائفة من السلف[٩] . وقيل بل كان من حمير ، كما تقدم . والله أعلم .

وأما نزار : فولد لهم ربيعة ومضر وأنمار . قال ابن هشام : وإياد بن نزار كما قال الشاعر[١٠] : [من الرمل]

وفُتُــوٍّ حَسَــنٌ أَوْجُهُهُــم ... مِن إيادِ بنِ نزار بن مَعَدّ

---

(١) في ط : أصول أنساب عرب الحجاز .
(٢) قوله : وآخر يقال له ، زيادة من ط ، توافق نص السهيلي (١/ ١٨) ، وكذلك بقية الزيادات التالية في هذا النص .
(٣) كذا في ط . ومثله في الروض الأنف . ونص أ ، وب : وقيل إن عدن وأبين اللذين باليمن اللذين تنتسب إليهما هذان اللذان كانا ابنين لمعد بن عدنان . تاريخ الطبري (٢/ ٢٧٠) .
(٤) السيرة (١/ ٨) .
(٥) انظر الروض الأنف (١/ ١٨) .
(٦) السيرة (١/ ٩) ، والروض (١/ ٢٠) .
(٧) في فصل (ذكر أخبار العرب) من هذا الجزء .
(٨) السيرة (١/ ١٠) .
(٩) السيرة (١/ ١١) .
(١٠) نسب ابن هشام البيت إلى الحارس بن دوس الإيادي ، وقال : ويروى لأبي داود الإيادي . السيرة (١/ ٧٤) . والروض الأنف (١/ ٩٧) .

قال : وإياد ومضر شقيقان ، وأمهما : سَوْدة بنت عكّ بن عدنان . وربيعة وأنمار شقيقان ، أمهما شُقيقة ، ويقال[١] : جُمعة بنتُ عك بن عدنان .

قال ابن إسحاق[٢] : فأما أنمار فهو والد خَثْعَم ، وبَجِيلة ، قبيلة جرير بن عبد الله البجلي[٣] . قال وقد تيامنت فلحقت باليمن . قال ابن هشام : وأهل اليمن يقولون : أَنمار بن إراش بن لِحْيان بن عمرو بن الغوث بن نَبْت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ .

قلت : والحديث المتقدم في ذكر سبأ يدل على هذا . والله أعلم .

قالوا : وكان مضر أول من حَدا ، وذلك لأنه كان حَسَنَ الصوت ، فسقط يوماً عن بعيره ، فَوَثِيَت يده فجعل يقول : وايدياه وايدياه ، فأَعْنَقَتِ الإبل لذلك[٤] .

قال ابن إسحاق[٥] : فولد مضر بن نزار رجلين : إلياس وعَيلان ، ووُلد لإلياس مُدركة وطابخة وقَمَعَة ، وأمهم خِنْدف بنت عمران بن الحاف بن قضاعة .

قال ابن إسحاق : وكان اسم مُدركة عامراً ، واسم طابخة عمراً ، ولكن اصطاد صيداً فبينا هُما يطبخانه إذ نفرت الإبل ، فذهب عامر في طلبها حتى أدركها ، وجلس الآخر يطبخ ، فلما راحا على أبيهما ذكرا له ذلك ، فقال لعامر : أنت مُدركة ، وقال لعمرو : أنت طابخة[٦] .

قال : وأما قَمعَة فيزعم نُسّاب مُضَر أن خُزاعة من ولد عمرو بن لُحي بن قمعة بن إلياس[٧] . قلت والأظهر أنه منهم لا والدهم ، وأنهم من حمير كما تقدم[٨] . والله أعلم .

قال ابن إسحاق : فولد مُدركة : خُزيمة وهذيل ، وأمهما امرأة من قُضاعة . وولد خُزيمة : كنانة

---

(١) في ط : وأم ربيعة وأنمار شقيقة بنت عك بن عدنان ، ويقال . . . وفي تاريخ الطبري (٢/ ٢٦٨) : أمهما جدالة بنت وعلان بن جوشم بن جلهمة بن عمرو ، من جرهم .

(٢) السيرة (١/ ٧٤) .

(٣) من أعيان الصحابة ، بايع النبي ﷺ على النصح لكل مسلم ، وكان أميراً نبيلاً . بديع الحسن كامل الجمال . توفي سنة (٥١هـ) وقيل (٥٤هـ) . ترجمته في سير أعلام النبلاء (٢/ ٥٣٠) .

(٤) وثيت : انكسرت . وأعنقت الإبل : أسرعت . والخبر في : الأوائل لابن قتيبة (٤٢ ـ ٤٣) (تح . محمد بدر الدين القهوجي ، بإشراف محمود الأرناؤوط ـ طبع دار ابن كثير ـ ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م) . والروض الأنف (١/ ١٠) ، والأوائل للحنبلي ص (١١٩) (ط . دار الإيمان ـ دمشق ـ ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م) .

(٥) السيرة : (١/ ٧٥) .

(٦) النص عن السيرة (١/ ٧٥) ، مع اختلاف وتصرف به . وانظر تاريخ الطبري (٢/ ٢٦٧) .

(٧) في خبر خزاعة وعمرو بن لحي من هذا الجزء .

(٨) السيرة (١/ ٩٢) .

وأسداً وأَسَدَة والهون . وزاد أبو جعفر الطبري[١] في أبناء كنانة على هؤلاء الأربعة : عامراً ، والحارث ، والنضير ، وغنماً ، وسعداً ، وعوفاً ، وجرولاً ، والحدال ، وغزوان .

قال وولد كنانة النضر ومالكاً وعبد مناة ومِلْكان[٢] .

الكلام على[٣] قريش نسباً واشتقاقاً وفضلاً وهم بنو النضر بن كنَانة

قال ابن إسحاق[٤] : وأم النَّضر بَرَّةُ بنت مرّ بن أد بن طابخة ، وسائر[٥] بنيه لامرأة أخرى . وخالفه ابن هشام فجعل برَّة بنت مرّ أم النضر ومالك ومِلكان . وأم عبد مناة هالة بنت سُويد بن الغطريف من أزد شَنُوءة . قال ابن هشام : النضر هو قُريش ، فمن كان من ولده فهو قرشي ، ومن لم يكن من ولده فليس بقرشي . قال : ويقال : فِهر بن مالك هو قريش ، فمن كان من ولده فهو قرشي ، ومن لم يكن من ولده فليس بقرشي . وهذان القولان قد حكاهما غير واحد من أئمة[٦] النسب كالشيخ أبي عمر بن عبد البر ، والزبير بن بكار ومصعب ، وغير واحد[٧] .

قال أبو عُبيد ، وابن عبد البر : والذي عليه الأكثرون أنه النضر بن كنانة ، لحديث الأشعث بن قيس .

قلت : وهو الذي نصّ عليه هشام بن محمد بن السائب الكلبي ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى ، وهو جادة مذهب الشافعي رضي الله عنه .

ثم اختار أبو عمر أنه فِهر بن مالك ، واحتج بأنه ليس أحد اليوم ممن ينتسب إلى قريش إلا وهو يرجع في نسبه إلى فهر بن مالك . ثم حكى اختيار هذا القول عن الزبير بن بكّار ومصعب الزبيري وعلي بن كيسان ، قال : وإليهم المرجع في هذا الشان . وقد قال الزبير بن بكار : وقد أجمع نُسَّاب قريش [وغيرهم أن قريشاً إنما تفرقت من فهر بن مالك ، والذي عليه من أدركت من نُسّاب قريش][٨] أن ولد

---

(١) فيما نقله ابن كثير عن الطبري هنا لبس . ونص الطبري (٢/ ٢٦٥) : واسم النضر : قيس ، وأمه برة بنت مر بن أد بن طابخة . وإخوته لأبيه وأمه : نُضير ، ومالك وملكان وعامر والحارث وعمرو وسعد وعوف وغنم ومخرمة وجرول وغزوان وحُدال . وأخوهم من أبيهم عبد مناة ، وأمه فُكيهة .

(٢) السيرة (١/ ٩٣) . وفي الخبر تأخير في نسخة ب .

(٣) قوله : الكلام على ليس في ط .

(٤) السيرة (١/ ٩٣) .

(٥) سائر الشيء بقيته .

(٦) في ط : أئمة علم .

(٧) الروض الأنف (١/ ١١٥ ـ ١١٦) .

(٨) سقطت من ب ، بنقلة عين .

فهر بن مالك قريش ، وأن من جاوز فهر بن مالك بنسبه فليس من قريش ، ثم نصر هذا القول نَصْراً عزيزاً وتحامى له ونحوه بأنه أعلم[١] بأنساب قومهم وأحفظ لمآثرهم .

وقد روى البخاري[٢] من حديث كليب بن وائل قال : قلت لرَبيبة النبي ﷺ يعني زينب ، في حديث ذكره : أخبريني عن النبي ﷺ ممن كان ، من مضر ؟ قالت : فممن كان إلا من مضر ، كان[٣] من بني النضر بن كنانة .

وقال الطبراني[٤] : حدّثنا إبراهيم بن نائلة الأصبهاني ، حدّثنا إسماعيل بن عمرو البجلي ، حدّثنا الحسن بن صالح ، عن أبيه ، عن الجُفْشيش[٥] الكندي قال : جاء قوم من كندة إلى رسول الله ﷺ فقالوا : أنت منا ، وادّعوه . فقال : « لا[٦] نقفوا أمّنا ولا ننتفي من أبينا ، نحن ولد[٧] النضر بن كنانة » .

وقال الإمام أبو عثمان سعيد بن يحيى بن سعيد[٨] حدثنا أبي ، حدثنا الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس[٩] قال جاء رجل من كندة يقال له : الجفشيش إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إنا نَزْعم أن عبد مناف منا ، فأعرضَ عنه ، ثم عاد فقال مثل ذلك ، ثم أعرض عنه ، ثم عاد فقال مثل ذلك ، فقال النبي ﷺ : « نحْنُ بَنو النضر بن كنانة لا نَقْفوا أُمّنا ولا ننتفي من أبينا » . فقال الأشعث : ألا كنتَ سكتَّ في المرة الأولى فأبطل ذلك من[١٠] قولهم على لسان نبيه ﷺ . وهذا غريب أيضاً من هذا الوجه . والكلبي ضعيف . والله أعلم[١١] .

---

(١) في ط : له بأنه ونحوه أعلم .

(٢) صحيح البخاري رقم (٣٤٩٢) ، في أول المناقب .

(٣) ليست في ط .

(٤) في المعجم الصغير (١/ ٨١) .

(٥) كذا في ب . وهو موافق لما عند الطبراني . وفي أ وط : الجشيش . . . وهو خطأ .
وجفشيش لقب ، واسمه معدان بن أسود ، وقيل غير ذلك ترجمته في الإصابة (١/ ٢٤٠) . وفيهم خشيش بن الأسود النسائي ، وثقه النسائي . توفي سنة (٢٥٣هـ) ترجمته في سير أعلام النبلاء (١٢/ ٢٥٠) .

(٦) في ط : نحن بنو النضر بن كنانة لا نقف أمنا ولا ننتفي من أبينا .

(٧) في ب . وط : بنو . وقوله : لا نقفوا أمنا : أي لا نتهمها ولا نقذفها . وقيل : لا نترك النسب إلى الآباء وننتسب إلى الأمهات . النهاية في غريب الحديث (٤/ ٩٥) . وفي الطبراني : لا ننبوا أمنا .

(٨) ثقة ، من الطبقة العاشرة ، توفي سنة (٢٤٩هـ) . تقريب التهذيب (١/ ٣٠٨) .

(٩) قال سفيان الثوري : قال لي الكلبي : ما سمعتَه مني عن أبي صالح عن ابن عباس فهو كذب . كتاب المجروحين (٢/ ٢٥٤) .

(١٠) في ط : ذلك قولهم . وزاد .

(١١) زاد في ب : والمحفوظ في هذا حديث الأشعث بن قيس ، وروي من حديث النبي . والكلبي هو محمد بن السائب المفسر ، النسابة ، الأخباري ، توفي سنة (١٤٠هـ) . المجروحين (٢/ ٢٥٣ ـ ٢٥٦) .

وقد قال الإمام أحمد : حدّثنا بَهْز وعفّان قالا : حدّثنا حماد بن سلمة ، قال : حدثني عقيل بن أبي طلحة . قال عفان : عقيل بن طلحة السلمي ، عن مسلم بن الهَيْصَم ، عن الأشعث بن قيس أنه قال : أتيتُ رسول الله ﷺ في وفد كِندة . قال عفان ـ لا يَرَوْني أَفْضَلَهم ـ قال : فقلت : يا رسولَ الله إنّا نزْعُم أنّكم مِنّا . قال : فقال رسول الله ﷺ : « نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفوا[1] أُمَّنا ولا ننتفي من أبينا » . قال : فقال الأشعث بن قيس : فوالله لا أسمع أحداً نفى قريشاً من النضر بن كنانة إلا جَلَدْته الحد[2] .

وهكذا رواه ابن ماجه من طرق عن حماد بن سلمة ، به[3] . وهذا إسناد جيد قوي ، وهو فَيْصل في هذه المسألة ، فلا التفات إلى قول من خالفه ، والله أعلم ، ولله الحمد والمِنة .

وقد قال جرير[4] بن عطية التميمي يمدح هشام بن عبد الملك بن مروان : [من الوافر]

فما الأمّ التي وَلَدت قريشاً ... بمُقْـرِفَـة النِّجـارِ ولا عَقيـمِ
وما قَرْمٌ بأنجبَ من أبيكم ... ولا خـالٌ بـأكـرمَ مـن تميـم

قال ابن هشام : يعني أم النضر بن كنانة ، وهي بَرّة بنت مُرّ أخت تميم بن مر[5] .

وأما اشتقاق قريش فقيل : من التقَرُّش وهو[6] التجمُّع بعد التفرُّق ، وذلك في زمن قُصي بن كِلاب ، فإنهم كانوا متفرقين فجمعهم بالحرم كما سيأتي بيانه . وقد قال حذافة بن غانم العدوي[7] : [من الطويل]

أبوكم قُصَيّ كان يُدعى مُجمِّعاً ... به جمَعَ اللهُ القبائلَ من فِهْر

وقال بعضهم : كان قُصي يقال له : قريش ، قيل : من التجمّع ، والتقرّش : التجمع كما قال أبو جِلْدة اليشكري[8] : [من الخفيف]

---

(١) في ط : لا نقفف .
(٢) مسند أحمد (٥/ ٢١٢) .
(٣) سنن ابن ماجه رقم (٢٦١٢) ، في الحدود ، باب من نفى رجلاً من قبيلته ، وهو حديث حسن .
(٤) في ديوانه (١/ ٢١٩) ، من قصيدة أولها : [من الطويل]
أَلُمْتِ وما رفقْت بأن تلومي ... وقلـتِ مقـالـةَ الخَطِـل الظلـومِ
(٥) السيرة : (١/ ٩٣) . . وديوان جرير (١/ ٢١٩) .
(٦) قوله : التقرّش وهو زيادة من ط . زانظر ما جاء في اشتقاق قريش : السيرة (١/ ٩٣) ، وتاريخ الطبري (٢/ ٢٦٣ ـ ٢٦٥) ، والروض (١/ ١١٥) .
(٧) أورد ابن إسحاق البيت في السيرة (١/ ١٢٦) . بلا نسبه ، ونسبه السهيلي (١٠/ ١٤٨) ، إلى حذافة بن جمح . وفيهما : قصي لعمري كان يدعى مجمعاً . وهو في تاريخ الطبري (٢/ ٢٥٦) ، ونسبه إلى مطرود وقيل إن قائله حذافة بن غانم .
(٨) شاعر أموي ، كان مولعاً بالشراب . توفي سنة (٨٣هـ) . الشعر والشعراء (٢/ ٧٣٣) ، والأعلام للزركلي (٢/ ١٣٣) . والبيت في السيرة (١/ ٩٤) ، والروض (١/ ١١٦) .

إخوةٌ قَرَّشُوا الذُّنُوبَ عَلَينا في حديثٍ من دهرِنا وقَدِيْمِ

وقيل : سميت (قريش) من التقرُّش ، وهو التكسُّب والتجارة . حكاه ابن هشام رحمه الله[١] .

وقال الجوهري : القَرْشُ : الكَسْب والجمعُ ، وقد قَرَش يَقْرِش . قال الفرّاء : وبه سُميت قريشٌ ، وهي قبيلة ، وأبوهم النضر بن كنانة ، فكل من كان من ولده فهو قُرَشي دون ولد كنانة ، ومن فوقه[٢] .

وقيل : من التفتيش . قال هشام بن الكلبي : كان النضر بن كنانة تسَمَّى قُريشاً لأنه كان يقرِش عن خُلَّة الناس وحاجتهم فيسدُّها بماله ، والتقريش هو التفتيش ، وكان بنوه يقرشون أهل الموسم عن الحاجة فيرفدونهم بما يبلغهم بلادهم ، فسُمّوا بذلك من فعلهم وقرشهم قريشاً[٣] . وقد قال الحارث بن حِلِّزة في بيان أن التقرُّش التفتيش : [من الخفيف]

أيُّها النـاطـقُ المقـرِّش عنّـا عنـدَ عمـروٍ فهـلْ لـه إبقـاء[٤]

حكى ذلك الزبير بن بكار . وقيل : قُرَيش تصغير قرش ، وهو دابة في البحر . قال بعض الشعراء :

وقريشٌ هي التي تسكن البحـ ـرَ بها سُمّيت قريشٌ قريشا

قال البيهقي : أخبرنا أبو نصر بن قتادة ، أخبرنا أبو الحسن علي بن عيسى الماليني[٥] ، حدّثنا محمد بن الحسن بن الخليل النَّسَوي[٦] ، أن أبا كُريبٍ حدَّثهم : حدّثنا وكيع بن الجراح ، عن هشام بن عُروة ، عن أبيه ، عن أبي ركانة العامري ، أن معاوية قال لابن عباس : فلم سُمِّيت قريش قريشاً ؟ فقال لدابة تكون في البحر ، تكون أعظم دوابه فيقال لها : القرش ، لا تمر بشيء من الغث والسمين إلا أكلته . قال : فأنشِدْني في ذلك شيئاً ، فأنشده شعرَ الجُمحي إذ يقول : [من الخفيف]

وقريشٌ هي التي تسكنُ البحـ ـرَ بها سُمّيتْ قريشٌ قريشا

تـأكـلُ الغـثَّ والسَّميـنَ ولا تتركن لذي الجناحين رِيشا

هكذا في البلادِ حيّ قريش يأكلون البلادَ أكلاً كميشا[٧]

---

(١) السيرة (١/ ٩٤) .

(٢) الصحاح (٣/١٠١٦) (قرش) . والنص في أ وب ، دون من كان من كنانة فمن فوقه . وأثبت ما في ط . وهو موافق لما في الصحاح .

(٣) تاريخ الطبري (٢/ ٢٦٤) .

(٤) من معلقته . ويروى : المرقش . ولا شاهد فيه . شرح القصائد السبع للأنباري (٤٥٣) .

(٥) الماليني : نسبة إلى مالين ، قرى مجتمعة من أعمال هراة في بلاد فارس . اللباب (٣/ ١٥٥) .

(٦) النسوي : نسبة إلى نسا ، إحدى مدن فارس .

(٧) الأكل الكميش : السريع المغني .

ولهـم آخـر الـزمـانِ نبـيٌّ يُكثِرُ القتلَ فيهـمُ والخُمـوشا

وقيل : سُمُّوا بقريش بن الحارث بن يخلُد بن النضر بن كنانة ، وكان دليل بني النضر وصاحب[١] مِيْرتهم ، فكانت العرب تقول : قد جاءت عِير قريش[٢] ، قالوا : وابنه[٣] بدر بن قريش هو الذي حفر البئر المنسوبة إليه التي كانت عندها الوقعة العظمى يوم الفرقان يوم التقى الجمعان . والله أعلم .

ويقال في النسبة إلى قريش : قُرَشي وقُرَيْشي . قال الجوهري : وهو القياس . قال الشاعر : [من الطويل]

بكُـلِّ قُـرَيشـيّ عَلَيـهِ مهـابـةٌ سريعٌ إلى داعي النَّدا والتَكَرُّمِ[٤]

قال فإذا[٥] أردت بقريش الحي صرفته، وإن أردت القبيلة منعته. قال الشاعر في ترك الصرف: [من الكامل]

وكفى قريشَ المعضلاتِ وسادَها[٦]

وقد روى مسلم في صحيحه[٧] من حديث أبي عمرو الأوزاعي قال : حدّثني شدّاد أبو عمار ، حدّثني واثِلَة بن الأَسْقَع قال : قال رسول الله ﷺ : « إنّ الله اصطفى كِنانةَ من وَلَدِ إسماعيل ، واصْطَفى قُريشاً من كِنانةَ ، واصطفى هاشِماً من قريش ، واصطفاني مِنْ بني هاشم » .

قال أبو عمر بن عبد البر : يقال : بنو عبد المطلب فصيلة رسول الله ﷺ ، وبنو هاشم فخذه ، وبنو عبد مناف بطنه ، وقريش عِمارته ، وبنو كنانة قبيلته ، ومضر شَعبه ، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين[٨] .

ثم قال ابن إسحاق : فولد النضر بن كنانة مالكاً ويَخْلُد[٩] . قال ابن هشام : والصَّلْت ، وأُمُّهم جميعاً بنت سعد بن الظَّرِب العُدواني. قال كثيِّر بن عبد الرحمن وهو كُثير عَزَّة أحد بني مُلَيح بن عمرو من خزاعة:

أَلَيْس أبي بالصَّلتِ أمْ ليس إِخْوتي لِكـلِّ هجـانٍ مـن بَنـي النضْـر أَزْهـرا

---

(١) في ب : وهو صاحب .
(٢) زاد في ب : قد خرجت عير قريش .
(٣) في ط : وابن وهو خطأ . تاريخ الطبري (٢/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤) .
(٤) الشطر الثاني من البيت زيادة من ط ، توافق نص الصحاح . وفي ط : لكل .
(٥) في ب : فإن ، وكذلك في الصحاح .
(٦) الصحاح(٣/ ١٠١٦) (قرش) . وصدر البيت :
غلب المساميحَ الوليدُ سماحةً
وهو لعدي بن الرقاع العاملي في مدح الوليد بن عبد الملك . الإنباه (٤٣ ـ ٤٥) .
(٧) صحيح مسلم رقم (٢٢٧٦) ، في أول الفضائل .
(٨) الإنباه (٤٥) .
(٩) في ط : ومخلداً ، وهو خطأ .

رأيت ثيابَ العَصْبِ مختلطَ السَّدَى ... بنا وبهمْ والحَضْرَميَّ المخَصَّرا[١]
فإن لم تكونوا من بني النضرِ فاتْركوا ... أراكاً بأذنابِ الفَوائجِ أخْضَرا[٢]

قال ابن هشام : وبنو مليح بن عمرو يُعزَوْن إلى الصلت بن النضر[٣] .

قال ابن إسحاق : فولد مالكُ بن النضر فِهْرَ بنَ مالك ، وأمه جَنْدلة بنت الحارث بن مُضاض الأصغر ، وولد فِهر غالباً ومُحارباً والحارث وأَسَداً ، وأمهم ليلى بنت سعد بن هذيل بن مدركة .

قال ابن هشام : وأختهم لأبويهم[٤] جندلة بنت فهر .

قال ابن إسحاق : فولد غالبُ بن فهر لؤيَّ بنَ غالب ، وتيمَ بن غالب ، وهم الذين يقال لهم : بنو الأدْرَم ، وأمهما سلمى بنت عَمرو الخُزاعي .

قال ابن هشام : وقيس بن غالب ، وأمه سلمى بنت كعب بن عمرو الخزاعي ، وهي أم لؤي وتيم ابني غالب[٥] .

قال ابن إسحاق : فولدَ لُؤيُّ بن غالب أربعَةَ نفرٍ : كعباً وعامراً وسامة وعوفا[٦] . قال ابن هشام : ويقال : والحارث وهم جُشم بن الحارث في هِزّان من ربيعة وسَعْد بن لؤي ، وهما بُنَانة في شيبان بن ثعلبة ، وبُنانة حاضِنَة لهم .

وخزيمة بن لؤي ، وهم عائذة في شيبان بن ثعلبة[٧] .

ثم ذكر ابن إسحاق[٨] خبر سامة بن لؤي ، وأنه خرج إلى عُمان ، فكان بها ، وذلك لشَنَآن[٩] كان بينه وبين أخيه عامر ، فأخافَه عامر ، فخرجَ عنه هارباً إلى عُمان ، وأنه مات بها غريباً ، وذلك أنه كان يرعى ناقَتَه ، فعلقت حية بمشفرها ، فوقعت لشقِّها ، ثم نهشت الحيةُ سامةَ حتى قتلته[١٠] . فيقال : إنه كتب بأصبعه على الأرض : [من الخفيف]

---

(١) العصب : نوع من الثياب اليمنية . والحضرمي نوع من النعال المخصرة .
(٢) الفوائج : رؤوس الأودية .
(٣) السيرة (١/ ٩٤ـ ٩٥) ، الروض (١/ ١١٧ـ ١١٨) .
(٤) في ط ، وب : لأبيهم . السيرة (١/ ٩٥) .
(٥) قوله : وتيم ابني غالب زيادة من ب . والسيرة .
(٦) قول ابن إسحاق زيادة من ب ، ط . والسيرة .
(٧) تتمة النص في السيرة (١/ ٩٧) .
(٨) السيرة (١/ ٩٧) . الروض (١/ ١٢٠) .
(٩) الشنآن : البغضاء .
(١٠) وقيل كان يسير عليها حين حدث عليها . السيرة .

عينُ فابكي لِسَامةَ بنِ لؤيٍّ عُلِقَتْ ما بِسَامةَ العَلَّاقه
لا أرى مِثلَ سامةَ بن لُؤيٍّ يومَ حَلّوا به قتيلاً لناقه
بَلِّغا عامراً وسعداً رسولاً أن نفسي إليهما مشتاقه[١]
إن تكن في عُمانَ داري فإني غالبيٌّ خَرجْتُ من غَير فاقه
رُبَّ كأسٍ هرقتَ يا ابنَ لُؤيٍ حَذَرَ الموتِ لم تكُن مُهراقه
رُمتَ دَفْعَ الحتوفِ يا بنَ لُؤيٍ ما لمنْ رامَ ذاك بالحتْفِ طاقه
وخَروس السُّرى تركْت رَدياً بعد جِدّ وجِدّةٍ ورشاقه[٢]

قال ابن هشام[٣] : وبلغني أن بعض وَلَده أتى رسول الله ﷺ فانتسب إلى سامة بن لؤي ، فقال له رسول الله ﷺ : « آلشاعر ؟ » فقال له بعض أصحابه : كأنك يا رسول الله أردت قوله :

رُبَّ كأسٍ هَرقتَ يا بنَ لؤيٍ حَذَرَ الموتِ لم تكنْ مُهراقه

فقال : أجل .

وذكر السهيلي عن بعضهم أنه لم يُعْقِب . وقال الزبير : ولَدَ أسامةُ بن لؤي غالباً ، والنبيت ، والحارث ، قالوا : وكانت له ذرية بالعراق يبغضون علياً ، ومنهم علي بن الجعد ، كان يشتم أباه لكونه سمّاه علياً . ومن بني سامة بن لؤي محمد بن عَرْعَرة بن اليزيد شيخ البخاري[٤] .

وقال ابن إسحاق : وأما عوف بن لؤي فإنه خرج فيما يزعمون في ركب من قريش ، حتى إذا كان بأرض غَطفان بن سعد بن قيس بن عيلان أُبْطِئ به ، فانطلق مَن كان معه من قومه ، فأتاه ثعلبة بن سعد ، وهو أخوه في نسب بني ذبيان ، فحبسه وزوّجه والتاطه[٥] وآخاه ، فشاع نسبه في ذبيان وثعلبة فيما يزعمون[٦] .

قال ابن إسحاق : وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير ، أو محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحصين أن عمر بن الخطاب قال : لو كنتُ مدّعياً حياً من العرب أو مُلحِقَهم بنا لادّعيتُ بني مرة بن

---

(١) في ط . والسيرة ، والروض : عامراً وكعباً .
(٢) خروس السرى : أراد ناقة صموتاً صبوراً على السرى لا تضجر منه .
(٣) السيرة (١/ ٩٧ ـ ٩٨) والروض (١/ ١٢٠ ـ ١٢١) .
(٤) الروض الأنف (١/ ١٢١) .
(٥) التاطه : ألصقه به وضمه إليه وألحقه بنسبه .
(٦) السيرة (١/ ٩٨ ـ ٩٩) .

عوف ، إنا لَنعرف منهم الأشباه مع ما نعرف من موقع ذلك الرجل حيث وقع . يعني عوف بن لؤي[(١)] .

قال ابن إسحاق : وحدثني مَن لا أتّهم أن عمر بن الخطاب قال لرجل منهم من بني مُرّة : إن شئتم أن ترجعوا إلى نسبكم فارجعوا إليه[(٢)] .

قال ابن إسحاق : وكان القوم أشرافاً في غطفان ، هم سادتهم وقادتهم ، قوم لهم صيت[(٣)] في غطفان وقيس كلها ، فأقاموا على نسبهم[(٤)] .

قالوا : وكانوا يقولون إذا ذكر لهم نسبهم ما ننكره وما نجحده[(٥)] ، وإنه لأحب النسب إلينا . ثم ذكر أشعارهم في انتمائهم إلى لؤي[(٦)] .

قال ابن إسحاق : وفيهم كان البَسْلُ ، وهو تحريم ثمانية أشهر لهم من كل سنة من بين العرب ، وكانت العرب تعرف لهم ذلك ويأمنونهم فيها ويؤمّنونهم أيضاً[(٧)] .

وكانت ربيعة ومضر إنما يحرّمون أربعة أشهر من السنة ، وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، واختلفت ربيعةُ ومضر في الرابع ، وهو رجب . فقال مضر : هو الذي بين جمادى وشعبان . وقالت ربيعة : هو الذي بين شعبان وشوال . وقد ثبت في الصحيحين[(٨)] عن أبي بَكْرة أن رسول الله ﷺ قال في خطبة حجة الوداع : « إنَّ الزمانَ قدِ اسْتدارَ كَهيئته يومَ خلق [الله][(٩)] السموات والأرض ، السنةُ اثنا عَشَر شهراً ، منها أربعةٌ حُرُمٌ ، ثلاثٌ متواليات : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورَجَبُ مُضَر الذي بين جمادى وشعبان »فنص على ترجيح قول مضر لا ربيعة ، وقد قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٌۚ ﴾ [التوبة : ٣٦] فهذا ردّ على بني عوف بن لؤي في جَعلهم الأشهر الحرم ثمانيةً ، فزادوا على حكم الله وأدخلوا فيه ما ليس منه . وقوله في الحديث : « ثلاث متواليات » رد على أهل النسيء الذين كانوا يؤخّرون تحريم المحرَّم إلى صفر . وقوله فيه « ورجب مضر » ردٌّ على ربيعة .

---

(١) السيرة (١/ ٩٩) .
(٢) السيرة (١/ ١٠٠) .
(٣) زاد في ب : وذكر . وكذلك في السيرة .
(٤) السيرة (١/ ١٠١ ـ ١٠٢) ، اختصر ابن كثير الخبر هاهنا .
(٥) السيرة (١/ ٩٩) .
(٦) وُضِع في ب هنا عنوان : ذكر السبل وهو تحريم ثمانية أشهر من السنة .
(٧) السيرة (١/ ١٠٢) ، والروض (١/ ١٢٦) .
(٨) في البخاري رقم (٤٦٦٢) ، في التفسير ، تفسير سورة براءة ، باب (٨) ، ومسلم رقم (١٦٧٩) ، في القسامة ، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال .
(٩) زيادة من ب ، والصحيحين .

قال ابن إسحاق : فولد كعب بن لؤي ثلاثةً ، مرة ، وهُصَيْصَا ، وعديا[١] ، وولد مُرَّةُ ، ثلاثةً أيضاً : كلاب بن مرَّة ، وتيم بن مرة ، ويَقَظَة بن مُرة ، من أمهات ثلاث .

قال : وولد كلابٌ رجلَين : قُصَيّ بن كلاب وزُهْرَة بن كلاب ، وأمهما فاطمة بنت سعد بن سَيَل أحد الجَدَرَة من جُعْثُمة الأسْدِ من اليمن حلفاء بني الديل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة . وفي أبيها يقول الشاعر :

ما نرى في الناسِ شخْصاً واحداً ... مَـنْ عَلمنـاه كَسَعْـد بـنِ سَيَـلْ

فـارسـاً أضبـطَ فيـه عُسْـرَةٌ ... وإذا مـا واقَـفَ القِـرنَ نَـزَلْ[٢]

فارساً يستدرِج الخيلَ كما اسـ ... ـتدرجَ الحرُّ القَطاميُّ الحجَلْ[٣]

قال السهيلي : سَيَل اسمه خير بن حَمَالة ، وهو أول من طُلِيت له السيوفُ بالذهب والفضة[٤] .

قال ابن إسحاق : وإنما سُمُّوا الجدَرَة لأن عامر بن عمرو بن خزيمة بن جُثْعمة تزوّج بنتَ الحارث بن مُضَاض الجُرهمي ، وكانت جرهم إذ ذاك ولاةَ البيت ، فبنى للكعبة جداراً ، فَسُمّي عامر بذلك الجدار ، فقيل لولده : الجدَرة لذلك .

***

خبر قصيّ بن كلاب وما كان من أمره في ارتجاعه ولاية البَيت إلى قريش وانتزاعه ذلِك من خزاعة واجتماع قريش إلى الحرم الذي جعله الله أمناً للعباد بعد تفرقها في البلاد وتمزقها في الجبال والمهاد[٥]

وذلك أنه لما مات أبوه كلاب تزوج أمَّه ربيعةُ بنُ حرام من عُذرة ، وخرج بها وبه إلى بلاده ، ثم قدِم قُصَيّ مكةَ وهو شاب ، فتزوج حُبّى ابنةَ رئيس خزاعة حُلَيْل بن حُبْشِيَّة . فأما خُزاعة فزعم[٦] أن حُليلاً أوصى إلى قُصي بولاية البيت لما رأى من كثرة نَسْله من ابنته ، وقال : أنت أحق بذلك مني[٧] .

---

(١) في ط : وعديا وهصيصاً . وكذلك في السيرة (١/ ١٠٣) .

(٢) الأضبط : الذي يعمل بكلتا يديه . والقرن : الذي يقاوم في الحرب .

(٣) الحر القطامي : أراد الصقر . والأبيات في السيرة (١/ ١٠٥) ، والروض (١/ ١٢٨) .

(٤) الروض (١/ ١٢٨) ، نقلاً عن الطبري (٢/ ٢٥٤) .

(٥) سقط من هذا الكلام جزء كبير من ط . ففيه : خبر قصي بن كلاب وارتجاعه . . . . من خزاعة . فقط .

(٦) في ب : فتزعم .

(٧) الخبر في السيرة (١/ ١١٧ ـ ١١٨) ، وفيه اختلاف عما هنا . وكذلك نقله الطبري عن ابن إسحاق (٢/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦) ، والسهيلي في الروض (١/ ١٤٢) .

وقال ابن إسحاق : ولم نسمع ذلك إلا منهم . وأما غيرهم فإنهم يَزْعُمُون أنه استغاث بإخوته من أمه ، وكان رئيسهم رزاح بن ربيع وإخوة[١] إخوته ، وبني كنانة ، وقضاعة ، ومَنْ حَول مكة من قريش وغيرهم[٢] ، فأجلاهم عن البيت ، واستقل هو بولاية البيت ، إلا أن[٣] إجازة الحجيج كانت إلى صُوْفة ، وهم بنو الغوث بن مُرّ بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر ، فكان الناس لا يرمون الجمار حتى يرموا ، ولا ينفرون من مِنًى حتى ينفروا ، فلم يزل كذلك فيهم حتى انقرضوا ، فورثهم ذلك بالقُعْدُد[٤] بنو سعد بن زيد مناة بن تميم[٥] ، فكان أولهم صفوان بن الحارث ابن شِجْنَة بن عُطَارد بن عوف بن كَعب [بن سعد][٦] بن زيد مناة من تميم ، وكان ذلك في بيته حتى قام على آخرهم الإسلام ، وهو كَرِب بن صفوان .

وكانت الإجازة[٧] من المزدلفة في عدوان حتى قام الإسلام على آخرهم ، وهو أبو سيَّارة عُمَيْلَة بن الأعزل ، وقيل : اسمه العاصي واسم الأعزل[٨] خالد وكان يجيز بالناس على أتان له عَوراء مكث يدفع عليها في الموقف[٩] أربعين سنة ، وهو أول من جعل الدية مئة[١٠] ، وأول من كان يقول : أَشْرِق ثَبِيْرُ كيما نُغير[١١] . حكَاه السُّهيلي[١٢] .

وكان عامر بن الظَّرِب العُدْواني لا يكون بين العرب نائرة[١٣] إلا تحاكموا إليه فيرضون بما يقضي به ،

---

(١) سقطت من ط . والنص في السيرة : كتب إلى أخيه من أمه رزاح بن ربيعة يدعوه إلى نصرته . . فخرج رزاح بن ربيعة ومعه إخوته . . . وهم لغير فاطمة . . .

(٢) زاد في ب : على خزاعة .

(٣) في ط : لأن ، ولا يستقيم مع المراد .

(٤) القعدد : قرب الآباء بالنسب من الجد الأكبر .

(٥) زاد في أ : من سهم .

(٦) زيادة من ط ، والسيرة (١/ ١٢٠) .

(٧) وفي السيرة ، والروض : الإفاضة .

(٨) في أ وب : العاص بن خالد والزيادة من ط ، والروض الأنف .

(٩) زيادة من ط . والروض . وانظر ما قاله الأصبهاني في الأغاني (٣/ ٩٣) ، وسوائر الأمثال (الدرة الفاخرة) . تحقيق د . فهمي سعد (عالم الكتب ـ بيروت) : ص(٢٧٣) .

(١٠) وقيل أول من سنَّ ذلك عبد المطلب . الأوائل لابن قتيبة (٢٣٣) ، وسوائر الأمثال (٢٣٣) ، والأوائل لأبي بكر الجراعي الحنبلي (٧٢) ، والوسائل للسيوطي (٧٢) .

(١١) ثبير : جبل بمكة . يريد أشرق كيما نسرع للنحر . وهو مثل يضرب في الإسراع والعجلة . مجمع الأمثال (١/ ٣٦٢) .

(١٢) الروض الأنف (١/ ١٤٦) .

(١٣) النائرة : الكائنة الشنيعة بين القوم . وعامر بن الظرب العدواني أحد المعمرين في الجاهلية ، قيل عاش مئتي سنة . المعمرين للسجستاني (٥٦) .

فتحاكموا إليه مرة في ميراث خُنْثَى ، فبات ليلته ساهراً يتروَّى ماذا يحكم به ، فرأته جاريةٌ له كانت ترعى عليه غنمه اسمها سُخَيلة[١] فقالت له : ما لك ـ لا أبا لك ـ الليلةَ ساهراً ؛ فذكر لها ما هو مفكّر فيه ، قال : لعله[٢] يكون عندها في ذلك شيء . فقالت : أَتْبِعِ القضاءَ المبالَ . فقال : فَرَّجْتِها والله يا سخيلة . وحكم بذلك[٣] .

قـال السهيلي : وهـذا الحكم من باب الاستدلال بالأمارات والعلامات[٤] ، وله أصل في الشرع ، قال الله تعالى : ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ ﴾ [يوسف : ١٨] حيث لا أثر لأنياب الذئب فيه . وقال تعالى : ﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [يوسف : ٢٦ ـ ٢٧] . وفي الحديث : « أَنْظِروها فإن جاءَتْ به أَوْرَقَ جعداً[٥] جُمَالِياً فهو الذي رُمِيَتْ به »[٦] .

قال ابن إسحاق : وكان النسيء في بني فُقَيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر .

قال ابن إسحاق[٧] : وكان أول من نَسَأَ الشهور على العرب القَلَمَّس[٨] ، وهو حُذيفة بن عبد بن فُقَيم ابن عدي ، ثم قام بعده ابنُه عَبّاد ، ثُم قَلَع بن عبّاد ، ثم أمية بن قلع ، ثم عوف بن أمية ، ثم كان آخرَهم أبو ثُمامة جُنادة بن عوف بن قَلَع بن عبّاد بن حُذيفة وهو القلَمَّس ، فعلى أبي ثُمامة قام الإسلام . وكانت العرب إذا فَرغَت من حجّها اجتمعت إليه ، فخطبهم[٩] ، فحرّم الأشهر الحرم ، فإذا أراد أن يُحلَّ منها شيئاً أحلَّ المحرَّم ، وجعل مكانه صَفَراً ليواطِئوا عِدَّة ما حرّم اللهُ فيقول : اللهم إني أحللتُ أَحَدَ الصفرين ، الصفر الأول ، وأنسأت الآخر للعام المقبل . فتتبعه العرب في ذلك . ففي ذلك يقول مفتخراً[١٠] عمير بن

---

(١) في المعمرين : فُصيلة .
(٢) في ط : وقال : لعلها .
(٣) الخبر ، مفصلاً ، في السيرة (١/ ١٢٢ ـ ١٢٣) ، والمعمرين (٥٧) ، والروض (١/ ١٤٧ ـ ١٤٨) .
(٤) كذا في ط . وهو موافق لنص السهيلي . وفي أ : وهذا الحكم بالأمارات وله . . . وفي ب : وهذا من باب الاستدلال بالأمارات وله .
(٥) زيادة من ط توافق نص الحديث . والحديث طويل رواه أبو داود (٢٢٥٦) في الطلاق ، باب في اللعان ، وأحمد (١/ ٢٣٨ ـ ٢٣٩) ، من طريق ابن عباس رضي الله عنه . والأورق : الذي لونه فيه سمرة ، والجعد : القصير الشعر .
(٦) الروض الأنف (١/ ١٤٧) .
(٧) السيرة (١/ ٤٤ ـ ٤٥) .
(٨) قيل سمي القلمس لجوده ، إذ القلمس من أسماء البحر .
(٩) في ب : فقام فيهم خطيباً ، ومحرم الأشهر الحرم الأربعة .
(١٠) ليست في ط .

قَيس أحد بني فِراس بن غَنْم بن مالك بن كنانة ، ويُعرف عمير بن قيس هذا : بِجِذْلِ الطَّعان : [من الوافر]

لقد علمتْ معدّ أن قومي كرامُ الناسِ أن لهم كراما[١]

فأي الناس فاتونا بوِترٍ وأي الناس لم نُعْلِك لِجاما

أَلَسْنا الناسِئينَ على معدٍّ شهورَ الحِلّ نجعلُها حَراما

والمقصود[٢] أنه جمع قريشاً من متفرقات مواضعهم من جزيرة العرب ، واستعان بمن أطاعه من أحياء العرب على حرب خُزاعة وإجلائهم عن البيت الحرام[٣] وتسليمه إلى قُصي ، فكان بينهم قتال كبير[٤] ودماءٌ غزيرة ، ثم تداعوا إلى التحكيم ، فتحاكموا إلى يَعْمَر بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، فحكم بأن قُصياً أَوْلَى بالبيت من خُزاعة ، وأنَّ كلَّ دم أصابَه قُصَيّ من خزاعة وبني بكر موضوعٌ يَشْدَخُه[٥] تحت قدميه ، وأن ما أصابته خُزاعة وبنو بكر من قُريش وكنانة وبني[٦] قضاعة ففيه الدية مُؤَدّاة ، وأن يُخَلَّى بين قُصَي وبين مكة والكعبة . فَسُمّي يَعْمَر يومئذٍ : الشدَّاخ[٧] .

قال ابن إسحاق : فوَلي قُصَي البيتَ وأمرَ مكة ، وجَمَع قومَه من منازلهم إلى مكة ، وتملَّك على قومه وأهل مكة فملّكوه ، إلا أنه أقر العرب على ما كانوا عليه ، لأنه يرى ذلك ديناً في نفسه لا ينبغي تغييرُه . فأقرّ آلَ صفوان وعَدوان والنَّسَأَةَ ومُرةَ بن عوف على ما كانوا عليه ، حتى جاء الإسلام فهدم الله به ذلك كله . قال : فكان قُصَي أول بني كعب أصابَ مُلْكا أطاع له به قومه ، وكانت إليه الحِجابة والسقاية والرِّفادة والندوة واللواء[٨] ، فحاز شَرَف مكة كلَّه ، وقطع مكة رِباعاً بين قومه ، فأنزل كلَّ قوم من قريش منازلهم من مكة[٩] .

---

(١) كذا في ط ، والسيرة ، والروض . وفي أ : معداً من لؤي .
(٢) زاد في ط قبل هذه الكلمة : وكان قصي في قومه سيداً رئيساً مطاعاً معظماً . ولا وجود لها في السيرة . في هذا الموضع .
(٣) الحرام ، ليست في ط .
(٤) في ط : كثيرة .
(٥) يشدخه : يكسره ، يريد إبطال تلك الدماء .
(٦) بني ، ليست في ط .
(٧) السيرة (١/ ١٢٤) .
(٨) الحجابة : أن يكون مفاتيح البيت عنده ، فلا يدخله أحد إلا بإذنه . والسقاية : سقاية الحجيج . والرفادة : طعام كانت قريش تجمعه كل عام لأهل الموسم . والندوة : الاجتماع للمشورة والرأي . واللواء : يعني في الحرب ولأنه كان لا يحمله إلا أناس مخصوصون .
(٩) كذا في ط : وكذلك في السيرة . وفي أ ، وب : من مكة منازلهم .

قلت : فرجَع الحق إلى نصابه ، ورُدَّ شاردُ العدل بعد إيابه[١] ، واستقرت بقريش الدار ، وقضت من خُزاعة المراد والأوطار ، وتسلمت بيتَهم العتيق القديم ، لكن بما أحدثتْ خُزاعة من عبادة الأوثان ونصْبها إياها حول الكعبة ، ونحرهم لها ، وتضرّعهم عندها ، واستنصارهم بها ، وطلبهم الرزق منها . وأنزل قُصي قبائل قريش أباطح مكة ، وأنزل طائفة منهم ظواهرها ، فكان يقال : قريش البطاح وقريش الظواهر . فكانت لقصي بن كلاب جميع الرئاسة من حجابة البيت وسدانته واللواء ، وبنَى داراً لإزاحة الظلامات وفَصْل الخصومات سمَّاها دار النَّدْوة ، إذا أعضلت قضيةٌ اجتمع الرؤساءُ من كلِّ قبيلةٍ فاشْتَوَرُوا فيها وفصلوها ، ولا يُعقَد عقدُ لواء ولا عقدُ نكاح إلا بها ، ولا تبلغ جاريةٌ أن تَدَّرِعَ فتدَّرع[٢] إلا بها . وكان باب هذه الدار إلى المسجد الحرام ، ثم صارت هذه الدار فيما بعد إلى حكيم بن حزام بعد بني عبد الدار ، فباعها في زمن معاوية بمئة ألف درهم ، فلامه على بيعها مُعاوية ، وقال : بعتَ شرف قومك بمئة ألف ؟ فقال : إنما الشرف اليوم بالتقوى . والله لقد ابتعتها في الجاهلية بزقِّ خَمر ، وهاأنا قد بعتها بمئة ألف ، وأشهدكم أن ثمنها صدقةٌ في سبيل الله ، فأيُّنا المغبون . ذكره الدارَقُطني في « أسماء رجال الموطّأ »[٣] .

وكانت إليه سقاية الحجيج ، . فلا يشربون إلا من ماء حياضه ، وكانت زمزم إذ ذاك مطمومة[٤] من زمن جُرهم ، قد تناسَوا أمرها من تقادُم عهدها ، ولا يهتدون إلى موضعها . قال الواقدي : وكان قُصي أول من أحدَث وقيد النار بالمزدلفة ليهتدي إليها من يأتي من عرفات . والرِّفادة وهي إطعام الحجيج أيام الموسم إلى أن يخرجوا راجعين إلى بلادهم . قال ابن إسحاق : وذلك أن قُصياً فرضه عليهم ، فقال لهم : يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل مكة[٥] ، وأهل الحرم . وإن الحُجَّاج ضيفُ الله وزوَّار بيته ، وهم أحق بالضيافة[٦] ، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى يصدروا عنكم ، ففعلوا فكانوا يُخرِجون لذلك في كل عام من أموالهم خرجاً فيدفعونه إليه ، فيصنعه طعاماً للناس أيام مِنًى ، فجرى ذلك من أمره في الجاهلية حتى قام الإسلام ، ثم جرى في الإسلام إلى يومك هذا ، فهو الطعام الذي يصنعه السلطان كل عام بمنًى للناس حتى ينقضي الحج[٧] .

---

(١) في ب : وآب : شرد بعد ذهابه .
(٢) ادرعت الجارية : لبست الدرع والدرع قميص المرأة .
(٣) نقله السهيلي في الروض (١/ ١٤٩) .
(٤) في ط : مطموسة .
(٥) في ب : بيته . وكذلك في السيرة .
(٦) زاد في ب : والكرم ، وفي السيرة : أحق الضيف بالكرامة .
(٧) السيرة (١/ ١٣٠) .

قلتُ : ثم انقطع هذا بعد ابن إسحاق ، ثم أُمِر بإخراج طائفة من بيت المال فتصرف في حمل زاد وماءٍ لأبناء السبيل القاصدين إلى الحج ، وهذا صنيعٌ حسن من وجوه يطول ذكرها ، ولكن الواجب أن يكون ذلك من خالص بيت المال من أحَلّ ما فيه ، والأولى أن يكون من جوالي الذمة[١] لأنهم لا يحجون البيت العتيق ، وقد جاء في الحديث : « من استطاعَ الحجَّ فلم يَحُجَّ فليَمُتْ إنْ شَاءَ يَهودياً أو نصْرانياً »[٢] .

وقال قائلهم في مدح قُصي وشرفه في قومه[٣] : [من الطويل]

قُصيّ لعمري كان يُدْعَى مجمّعاً ... بـه جَمَـعَ اللهُ القبـائـلَ مـن فِهـر
هُموا ملؤوا البطحاءَ مَجْداً وسُؤْدداً ... وهـم طَـردوا عنـا غُـواة بنـي بكـر

[٤]قال ابن إسحاق : ولما فرغ قُصي من حَربه انصرفَ أخوه رِزاح بن ربيعة إلى بلاده بمن معه ، [وإخوته من أبيه الثلاثة وهم حُنّ ومحمود وجلهمة][٥] . قال رِزاح في إجابته قُصَياً : [من المتقارب]

ولمَّـا أتـى مِـن قصـيٍّ رَسُـولٌ ... فقـالَ الـرسـولُ أَجيبـوا الخليـلا
نهضْنـا إليـه نَقُـودُ الجيـا ... دَ ونطـرحُ عنّـا المَلـولَ الثقيـلا
نَسِيـرُ بهـا الليـلَ حتـى الصبـا ... حِ ونكْمـي النهـارَ لِئـلا نَـزُولا[٦]
فَهُـنّ سِـراعٌ كـوِرْدِ القطـا ... يُجِبْـنَ بنـا مِـن قُصـيّ رَسـولا
جمعنـا مـن السرِّ مـن أَشْمَـذَيْـن ... ومِـنْ كُـلّ حـيّ جَمعنـا قَبيـلا[٧]
فيـالـكِ حَلْبَـةَ مـا لَيْلَـةٍ ... تـزيـد علـى الألـف سَيْبـا رَسِيـلا[٨]
فلمـا مَـرَرْنَ علـى عَسْجَـرٍ ... وأسْهلْـنَ مِـن مُسْتَنـاخٍ سَبيـلا[٩]

---

(١) الجوالي : جمع جالية ، وهم أهل الذمة ، لأن عمر رضي الله عنه أجلاهم عن جزيرة العرب ، ثم لزم كل من لزمته الجزية من أهل الكتاب بكل بلد . (اللسان) .
(٢) أخرجه الترمذي : (٨١٢) ، في الحج ، باب ما جاء في التغليظ في ترك الحج ، وإسناده ضعيف .
(٣) أورد ابن كثير البيت الأول قبل قليل ، في الكلام على قريش نسباً واشتقاقاً ، ونسبه إلى حذافة بن غانم العدوي . وهو في الروض (١/١٤٩) ، والإنباه على قبائل الرواة (٤٤) .
(٤) زاد في ب : ثم فوّض قصي هذه الجهات التي كانت إليه من السدانة والحجابة واللواء والندوة والرفادة والسقاية إلى ابنه عبد الدار كما سيأتي تفصيله وإيضاحه ، وأقر الإجازة في المزدلفة في بني عدوان ، وأقر النسيء في بني فقيم ، وأقر الإجازة ، وهو النفر في صوفه كما تقدم بيان ذلك كله ، ما كان بأيديهم قبل ذلك . وسيكرر هذا في مطلع الفصل القادم ، بعد قليل .
(٥) لم يرد هذا القول في نص السيرة (١/١٢٦) .
(٦) نكمي النهار : أي نكمن ونستتر .
(٧) الأشمذان : جبلان هاهنا ، وقيل : قبيلتان . انظر معجم البلدان (أشمذان) ، والروض : (١/١٥١) .
(٨) الحلبة : الدفعة من الخيل .
(٩) في ب : عسجد . وكذا روى ياقوت البيت في معجم البلدان (عسجد) . وأشار إلى روايته بالراء : عسجر .

وجـاوزْنَ بـالـرُّكـنِ مِـنْ وَرَقـا ... نَ وجـاوَزْن بـالعـرْج حَيّـا حُلـولا[١]

مَـرَزْنَ علـى الحِلـي مـا ذُقنـه ... وعـالجـنَ مـنْ مرّ ليـلاً طـويـلا[٢]

نُـدَنّـي مـن العُـوْذِ أفـلاءهـا ... إرادةَ أن يَسْتَـرِقْـن الصَّهِيـلا[٣]

فلمـا انتَهَيْنـا إلـى مكـةٍ ... أبَحْنـا الـرجـالَ قَبيـلاً قَبيـلا[٤]

نُعـاوِرُهـم ثَـمَّ حَـدَّ السُّيـو ... فِ وفـي كُـلِّ أوْبٍ خَلَسْنـا العقـولا

نُخَبِّـزُهُـم بصِـلابِ النُّسُـو ... رِ خَبْـزَ قَـويّ العَـزِيـزِ الـذَّليـلا[٥]

قَتَلنـا خُـزاعَـةَ فـي دارِهـا ... وبَكـراً قَتَلْنـا وجِيْـلاً فَجيـلا

نَفَيْنـاهُـمُ مِـن بـلادِ المليـ ... ـكِ كما لا يَحُلُّون أرْضاً سهولا

فـأصْبَـح سَبْيهُـمُ فـي الحَـديـ ... ـدِ ومـن كـل حَـيٍّ شَفَيْنـا الغَليـلا

قال ابن إسحاق : فلما رجع رزاح إلى بلاده نشره الله ونشر حُنّا ، فهما قبيلا عذرة إلى اليوم[٦] . قال ابن إسحاق : وقال قصي بن كلاب في ذلك[٧] : [من الوافر]

أنـا ابـن العـاصِميـن بنـي لُـؤي ... بمكّـةَ مَنْـزلـي وبهـا رُبِيْـت

إلـى البطحـاءِ قـدْ علمـتْ معـدّ ... ومـروتُهـا رَضيـتُ بهـا رَضيـت

فلسـت لغـالـبٍ إنْ لـم تـأثَّـلْ ... بهـا أولادُ قيـذرَ والنَّبِيْـت[٨]

رِزاحٌ نـاصِـري وبـه أُسـامـي ... فلسـتُ أخـافُ ضيمـاً مـا حييـت

وقد ذكر الأموي ، عن الأثرم[٩] ، عن أبي عبيدة ، عن محمد بن حفص : أن رزاحاً إنما قدم بعد ما نَفَى قُصي خُزاعة . والله أعلم .

---

(١) ورقان ، بفتح الراء ، وروي بكسرها : جبل عظيم .

(٢) الحلي : ثمر نبت . ويروى : الحِل وهو جمع حِلة ، وهي بقلة شاكة . ويروى : الحيل ، وهو الماء المستنقع في بطن واد . الروض (١/ ١٥١) .

(٣) العوذ : الحديثات النتاج من الظباء . والأفلاء : الصغار .

(٤) في ب : أنخنا الرحال .

(٥) نخبزهم : نسوقهم سَوقاً شديداً .

(٦) السيرة (١/ ١٢٩) . وفي ب : قبيلتا عذرة . وقال السهيلي : في قضاعة عذرتان : عذرة بن رفيدة ، وهم من بني كلب بن وبرة ، وعذرة بن سعد بن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاعة ، الروض (١/ ١٥١) .

(٧) السيرة (١/ ١٢٨) .

(٨) تتأثل : تتأصل وتنمو .

(٩) في ط : الأشرم وهو خطأ . والأثرم ، بالثاء : هو علي بن المغيرة ، أديب ، ورّاق ، لقي أبا عبيدة ، والأصمعي وأخذ عنهما ، توفي سنة (٢٣٢هـ) . ترجمته في معجم الأدباء (١٥/ ٧٧) .

فصل

ثم لما كبر قُصي فوّض أمر هذه الوظائف التي كانت إليه من رئاسات قريش وشرفها من الرفادة والسقاية والحجابة واللواء والندوة[١] إلى ابنه عبد الدار ، وكان أكبر ولده . وإنما خصصه بها كلها لأن بقية إخوته عبد مناف وعبد العزّى[٢] وعبد كانوا قد شَرُفوا في زمن أبيهم ، وبلغوا في قوتهم[٣] شرفاً كبيراً ، فأحب قُصي أن يلحق بهم[٤] عبد الدار في السؤدد ، فخصصه بذلك ، فكان إخوته لا ينازعونه في ذلك ، فلما انقرضوا تشاجر أبناؤهم في ذلك ، وقالوا : إنما خصص قُصي عبدَ الدار بذلك ليُلحقه بإخوته ، فنحن نستحقُّ ما كان أباؤنا يستحقونه ، وقال بنو عبد الدار : هَذا أمر جعله لنا قُصَي ، فنحن أحق به . واختلفوا اختلافاً كثيراً ، وانقسمت بطون قريش فرقتين : ففرقة بايعت عبدَ الدار وحالفتهم ، وفرقة بايعت بني عبد مناف وحالفوهم على ذلك ووضعوا أيديهم عند الحلف في جَفْنَة فيها طيب ، ثم لما قاموا مسحوا أيديهم بأركان الكعبة فسُمّوا : حلف المطَيّبين . وكان منهم من قبائل قريش : بنو أسد بن عبد العزى بن قُصي ، وبنو زُهرة ، وبنو تميم وبنو الحارث بن فِهر . وكان مع بني عبد الدار بنو مخزوم ، وبنو سَهم ، وبنو جُمح ، وبنو عَدي . واعتزلت بنو عامر بن لُؤي ومُحارب بن فِهر الجميع ، فلم يكونوا مع واحد منهما . ثم اصطلحوا واتفقوا على أن تكون الرفادة والسقاية لبني عبد مناف ، وأن تستقر الحجابة واللواء والندوة في بني عبد الدار ، فانبرم الأمر على ذلك واستمر[٥] .

وحكى الأموي عن الأثرم عن أبي عُبيدة قال : وزَعَم قوم من خُزاعة[٦] أن قُصياً لما تزوج حُبَّى بنت حُليل ونقل حُليل عن ولاية البيت جعلها إلى ابنته حُبَّى ، واستناب عنها أبا غُبشان سليم بن عمرو بن لؤي بن مِلكان بن قُصي بن حارثة بن عمرو بن عامر ، فاشترى قصي ولاية البيت منه بزِقٍّ خَمر وقَعود[٧] ، فكان يقال : أَخْسَر من صَفقة أبي غُبْشان[٨] . ولما رأت خُزاعة ذلك اشتدّوا على قُصي ، فاستنصر أخاه ، فقَدِم بمن معه ، وكان ما كان .

---

(١) في ب : ودار الندوة .
(٢) كذا في ب . وهو موافق لنص السيرة (١/ ١٢٩) ، وفي أ ، وط : عبد الشمس .
(٣) في ب : قومهم .
(٤) في ب : يلحق عبد الدار بهم .
(٥) السيرة (١/ ١٢٩ ـ ١٣١) .
(٦) ليست في ب .
(٧) القعود : الناقة ، والفصيل .
(٨) المثل والقصة في الدرة الفاخرة (١/ ١٣٩) .

ثم [١] فوّض قُصي هذه الجهات التي كانت إليه من السِّدانة والحجابة واللواء والندوة والرفادة والسقاية إلى ابنه عبد الدار ، كما سيأتي تفصيله وإيضاحه ، وأقر الإجازة من مزدلفة في بني عَدوان ، وأقر النسيء في فُقيم ، وأقر الإجازة ، وهو النفر في صُوفة [٢] ، كما تقدم بيان ذلك كله مما كان بأيديهم قبل ذلك .

قال ابن إسحاق : فولد قُصي أربعة نفر وامرأتين : عبد مناف وعبد الدار وعبد العزى وعبداً ، وتَخْمُر وبَرَّة ، وأمُّهم كلُّهم حُبَّى بنت حُلَيل بن حُبْشِيَّة بن سَلول بن كعب بن عمرو الخزاعي [٣] ، وهو آخر من ولي البيت من خزاعة ومن يده أخذَ البيتَ قُصي بن كلاب .

قال ابن إسحاق [٤] : فولد عبد مناف بن قُصي أربعةَ نَفَر : هاشماً ، وعبدَ شمس ، والمطّلب ، وأمُّهم عاتكة بنتُ مُرَّة بن هلال ، ونوفلَ بن عبد مناف ، وأمه واقدة بنت عمرو المازنية .

قال ابن هشام : ووُلِد لعبد مناف أيضاً : أبو عمرو وتُماضر ، وقلابة ، وحَيَّة ، ورَيْطة ، وأم الأختم ، وأم سفيان [٥] .

قال ابن هشام : وولد هاشم بن عبد مناف أربعةَ نفرٍ وخمسَ نسوة : عبد المطلب ، وأسداً وأبا صَيْفي ، ونَضْلة ، والشِّفاء ، وخالدة ، وضعيفة ، ورُقيَّة ، وحَيّة ، فأم عبد المطلب ورُقيَّة : سَلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن خِداش بن عامر بن غَنْم بن عَدي بن النجار من المدينة ، وذَكَرَ أمهاتِ الباقين . قال ووَلَدَ عبدُ المطلب عشرةَ نفر وستَّ نسوة وهم : العباس ، وحمزة ، وعبد الله ، وأبو طالب، واسمه عبد مناف لا عمران، والزُّبير، والحارث [٦] ـ وكان بكر أبيه وبه كان يُكنى ـ وجَحْل ، ومنهم من يقول : حَجْل ، وكان يلقّب بالغَيداق لكثرة خيره ، والمقوّم ، وضرار ، وأبو لهب ـ واسمه عبد العزى ـ وصَفية ، وأم حكيم البيضاء [٧] ، وعاتكة ، وأميمة ، وأروى ، وبَرة . وذَكَر أمهاتهم ، إلى أن قال : وأم عبد الله وأبي طالب والزبير وجميع النساء ، إلّا صفيةَ : فاطمةُ بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يَقَظة بن مرة بن كعب بن لُؤي بن غالب بن فِهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خُزيمة بن مُدركة بن إلياس بن مُضر بن نزار بن مَعد بن عدنان . قال : فولد عبد الله محمداً رسول الله ﷺ سيد ولد آدم ، وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زُهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي ، ثم ذكر

---

(١) ليست في ب .
(٢) صوفة : الغوث بن مر بن أد بن طابخة .
(٣) السيرة (١/ ١٠٥ ـ ١٠٦) .
(٤) في ط : بن هشام . وهو سهو . والسيرة (١/ ١٠٦) .
(٥) السيرة (١/ ١٠٧) .
(٦) زيادة من ط . والسيرة .
(٧) كذا في ط ، وهو موافق لما في السيرة . وفي أ ، وب : ذكر البيضا وبعد برّة .

أمهاتها فأغرق إلى أن قال : فهو أشرف ولد آدم حَسباً ، وأفضلهم نسباً من قِبَل أبيه وأمه صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين[١] .

وقد تقدّم حديث الأوزاعي عن شداد أبي عمار ، عن واثلة بن الأسْقَع قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله اصْطفى كِنانةَ من ولد إسماعيل ، واصْطَفى قُريشاً من كِنانةَ ، واصطفى هاشماً من قُريش ، واصطفاني من بني هاشم » . رواه مسلم[٢] .

وسيأتي بيان مولده الكريم وما ورد فيه من الأخبار والآثار ، وسنورد عند سرد النسب الشريف فوائد أُخر لَيست هاهنا إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة ، وعليه التُكْلان .

***

ذكر جُمَلٍ من الأحدَاث الواقعة في زمن الجاهِليّة[٣]

قد تقدم ما كان من أخذ جُرهم ولاية البيت من بني إسماعيل ، طمِعوا فيهم لأنهم أبناء بناتِهم ، وما كان من توثُّب خُزاعة على جُرهم وانتزاعهم ولاية البيت منهم ، ثم ما كان من رجوع ذلك إلى قُصي وبَنيه واستمرار ذلك في أيديهم إلى أن بعث الله رسوله ﷺ فأقر تلك الوظائف على ما كانت عليه .

***

باب
ذكر جماعة مشهورين كانوا في الجاهلية[٤]

خبر[٥] خالد بن سِنان العبسي الذي كان في زمن الفترة ، وقد زعم بعضُهم أنه كان نبياً[٦] . والله أعلم.

قال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدّثنا أحمد بن زُهَير التُّسْتَرِي[٧] ، حدّثنا يحيى بن المعَلّى بن

---

(١) السيرة (١/ ١٠٧ ـ ١١٠) .

(٢) صحيح مسلم رقم (٢٢٧٦) ، في أول الفضائل .

(٣) في ط : الأحداث في الجاهلية .

(٤) في ط : ذكر جماعة مشهورين في الجاهلية .

(٥) في ب : ذكر .

(٦) أخباره في : مروج الذهب (٢/ ٢٢٦) ، والكامل لابن الأثير (١/ ٣٧٦) ، والإصابة (١/ ٤٦٦) ، وتاريخ الخميس (١٩٩) .

(٧) التُّسْتَري : نسبة إلى تُستَر ، من قرى خوزستان . اللباب (١/ ٢١٦) .

منصور الرازي ، حدّثنا محمد بن الصَّلْت ، حدّثنا قيس بن الربيع ، عن سالم الأفطَس ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس : قال : جاءت بنتُ خالد بن سِنان إلى النبي ﷺ ، فبَسط لها ثوبَه وقال : « بنتُ نبي ضَيَّعَهُ قَوْمُه »[١] .

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزَّار ، عن يحيى بن المعلى بن منصور ، عن محمد بن الصلت ، عن قيس ، عن سالم ، عن سعيد ، عن ابن عباس . قال : ذُكِر خالدُ بن سنان عند رسول الله ﷺ فقال : « ذاك نبيٌّ ضَيَّعَهُ قومُهُ » . ثم قال : ولا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه[٢] . وكان قيس بن الربيع ثقةً في نفسه ، إلا أنه كان رديء الحفظ ، وكان له ابنٌ يُدْخِل في أحاديثه ما ليس منها[٣] . والله أعلم .

قال البزار : وقد رواه الثوري عن سالم الأفطس ، عن سعيد بن جُبير مرسلاً .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي : حدّثنا المعلّى بن المهدي الموصلي[٤] قال : حدّثنا أبو عَوانة ، عن أبي يونس ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : أن رجلاً من عبس يقال له : خالد بن سنان قال لقومه : إني أُطفئ عنكم نار الحرّتين . فقال له رجلٌ من قومه : والله يا خالد ما قلتَ لنا قَطُّ إلّا حقاً ، فما شأنك وشأن نار الحرّتين تزعم أنك تطفئها ؟! فخرج خالد ومعه أناس من عبس[٥] قومه ، فيهم عمارة بن زياد ، فأتوها ، فإذا هي تخرج من شِق جبل فخط لهم خالد خطة ، فأجلسهم فيها ، فقال : إن أبطأتُ عليكم فلا تَدْعُوني باسمي . فخرجَتْ[٦] كأنها خيلٌ شُقر يتبع بعضُها بعضاً ، فاستقبلها خالد ، فجعلَ يضربُها بعصاه ويقول : بدا بدا بدا كل هدى مؤدى[٧] زعم ابن راعية المعزى أني لا أخرج منها وثيابي تندى . حتى دخل معها الشق . فأبطأ عليهم ، فقال لهم عمارة بن زياد : إن صاحبكم لو كان حياً لقد خرج إليكم بعد فادعُوه باسمه . قال : فقالوا : إنه قد نهانا أن ندعوه باسمه . فدعوه باسمه . فخرج وهو آخذ برأسه فقال : ألم أنهَكُم أن تدعوني باسمي ، فقد والله قَتَلتموني ، فاحملوني[٨] فادفنوني ، فإذا مرتْ بكم الحُمُرُ ، فيها حمار أبتر فانبشوني ، فإنكم تجدوني حَياً ، فحملوه فدفنوه ، فمرت بهم الحمر فيها حمار

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢١٤) .
وأورده ابن حجر في الإصابة (١/ ٤٦٦) ، وابن الأثير (١/ ٣٧٦) ، والمسعودي (٢/ ٢٢٧) .

(٢) زاد في ب : قلت . والحديث أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢١٤) .

(٣) قيس بن الربيع الأسدي ، أبو محمد ، من أهل الكوفة ، توفي سنة (١٦٧هـ) . اختُلف فيه . المجروحين (٢/ ٢١٦ـ ٢١٩) .

(٤) زاد في ب : ورواه الطبري عن علي بن عبد العزيز ، وخلف بن عمرو العكبري ، عن معلى بن مهدي الموصلي .

(٥) ليست في ط .

(٦) قوله : فخط لهم . . . إلى هنا زيادة من ب ، وط .

(٧) في العبارة هنا بعض اختلاف في الأصول .

(٨) فاحملوني : زيادة من ب وط .

أبتر ، فأرادوا نبشه فقال لهم[(١)] عمارة لا تنبشوه ، لا والله لا تُحدِّث مضر أنّا ننبش موتانا . وقد كان قال لهم خالد : إن في عُكَن[(٢)] امرأته لوحين فإنْ أشكَل عليكم أمرٌ فانظروا فيهما ، فإنكم ستجدون ما تسألون عنه قال ولا يمسهما حائض . فلما رجعوا إلى[(٣)] امرأته سألوها عنهما ، فأخرجتهما إليهم وهي حائض ، فذهب ما كان فيهما من علم[(٤)] .

قال أبو يونس : قال سماك بن حَرب : سُئل عنه النبي ﷺ فقال : « ذاك نبيٌّ أضاعَه قومه » . قال : أبو يونس : قال سماك بن حرب[(٥)] إن ابن خالد بن سنان أتى النبي ﷺ فقال : « مرحباً بابن أخي »[(٦)] . فهذا السياق موقوف على ابن عباس ، وليس فيه أنه كان نبياً ، والمرسَلات التي فيها أنه نبي لا يُحتَجُّ بها هاهنا ، والأشبه أنه كان رجلاً صالحاً له أحوال وكرامات ، فإنه إن كان في زمن الفترة فقد ثبت في صحيح البخاري عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إنّ أولى الناس بعيسى بن مريم أنا ، لأنه ليس بيني وبينه نبي »[(٧)] . وإن كان قبلها فلا يمكن أن يكون نبياً لأن الله تعالى قال : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص : ٤٦] . وقد قال غير واحد من العلماء : إن الله تعالى لم يبعث بعد إسماعيل نبياً في العرب إلا محمداً ﷺ خاتم الأنبياء الذي دعا به إبراهيم الخليل باني الكعبة المكرمة التي جعلها الله قِبلةً لأهل الأرض شرعاً ، وبشّرت به الأنبياء لقومهم ، حتى كان آخر من بشّر به عيسى بن مريم عليه السلام . وبهذا المسلك بعينه يُرَدّ ما ذكره السهيلي[(٨)] وغيره من إرسال نبي من العرب يقال له : شُعيب بن ذي مَهذم بن شعيب بن صفوان صاحب مَدين ، وبُعث إلى العرب أيضاً حنظلة بن صَفوان[(٩)] فكذبوهما فسلّط الله على العرب بختَ نصّر فنال منهم من القتل والسبي نحو ما نال من بني إسرائيل ، وذلك في زمن معد بن عدنان . والظاهر أن هؤلاء كانوا قوماً صالحين يدعون إلى الخير . والله أعلم .

وقد تقدّم ذكر عمرو بن لُحي بن قمعة بن خِندف في أخبار خُزاعة بعد جُرهم .

***

(١) في ط : فقلنا انبشوه ، فإنه أمرنا أن ننبشه ، فقال لهم عمارة .

(٢) كذا في ط ، وهو موافق لما نقله ابن حجر في الإصابة . وهو الأشبه بالصواب . وفي أ ، وب : علم . والعُكن : جمع عُكنة ، وهي ما تثنى من لحم البطن وانطوى .

(٣) كذا في ط . وهو موافق لما أورده ابن حجر . وفي أ ، وب : تسألون ولا تمسه حائض فلما فرغوا من دفنه أتوا امرأته .

(٤) الخبر في الإصابة (١/ ٤٦٧ ـ ٤٦٨) ، وتاريخ الخميس (١٩٩ ـ ٢٠٠) ، والكامل (١/ ٣٧٦) . والمروج (٢/ ٢٢٦) ، وفي روايته اختلاف .

(٥) زيادة من ب ، وط . والإصابة .

(٦) كذا في الأصول . والذي في الإصابة . والكامل : أن الذي أتى إلى النبي ﷺ ابنة خالد بن سنان ، لا ابنه .

(٧) صحيح البخاري رقم (٣٤٤٢ و٣٤٤٣) ، في الأنبياء ، باب قول الله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ ﴾ وفيه اختلاف عما هاهنا ، وكذلك رواه مسلم ، رقم (٢٣٦٥) في الفضائل ، باب فضائل عيسى عليه السلام .

(٨) الروض (١/ ١٢) ، وتاريخ الطبري (٢/ ٢٧١) .

(٩) خبره في تاريخ الخميس (٢٠٠) .

ذكر حَاتم الطائي أَحَد أجواد الجاهليّة

وهو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحَشْرج بن امرئ القيس بن عَدي بن أَخْزم بن أبي أخزم ، واسمه هرومة[١] بن ربيعة بن جَرْول بن ثُعَل بن عَمْرو بن الغوث بن طيئ ، أبو سَفَّانة الطائي ، والد عَدِي بن حاتم الصحابي[٢] .

كان جواداً ممدَّحاً في الجاهلية ، وكذلك كان ابنه في الإسلام . وكانت لحاتم مآثر وأمور عجيبة ، وأخبار مُسْتَغْرَبة في كرمه يطول ذكرها ، ولكن لم يكن يقصد بها وجه الله والدار الآخرة ، وإنما كان قصده السمْعة والذكر .

قال الحافظ أبو بكر البزّار في « مسنده » : حدّثنا محمد بن معمر ، حدّثنا عبيد بن واقد القيسي ، حدّثنا أبو نصر ـ هو الناجي ـ عن عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر قال : ذُكر حاتم عند النبي ﷺ فقال : « ذاكَ أرادَ أمراً فأدركَه »[٣] .

حديث غريب. قال الدارقُطني: تفرّد به عُبيد بن واقد، عن أبي نصر الناجي، ويقال: إن اسمه حماد. قال ابن عساكر : وقد فرق أبو أحمد الحاكم بين أبي نصر الناجي وبين أبي نصر حماد ، ولم يسم الناجي . ووقع في بعض روايات الحافظ ابن عساكر عن أبي نصر شيبة الناجي . والله أعلم[٤] .

وقال الإمام أحمد[٥] : حدّثنا محمد بن جعفر ، قال : حدثنا شعبة[٦] عن سماك بن حرب ، عن مرِّي بن قطري ، عن عدي بن حاتم قال : قلت لرسول الله ﷺ : إن أبي كان يَصِلُ الرحمَ ، ويفعل ، ويفعل ، فهل له في ذلك ؟ يعني من أجر . قال : « إن أباكَ طَلَبَ شيئاً فأصَابه » .

وهكذا رواه أبو يعلى ، عن القواريري ، عن غُنْدَر ، عن شعبة ، عن سماك ، به . وقال : « إن أباكَ أرادَ أمراً فأدركه » يعني الذِّكرَ .

---

(١) زيادة من ط . وب . وكذلك في الأغاني (ثقافة ١٧/ ٢٧٨) . ووقع في نسبه بعض اختلاف في المصادر . الشعر والشعراء (١/ ٢٤١) ، ونشوة الطرب (١/ ٢٢٣) ، والأغاني .

(٢) توفي عدي سنة (٦٧هـ) وقيل (٦٨هـ) . ترجمته في سير أعلام النبلاء (٣/ ١٦٢) ومصادر ترجمته ثمة .

(٣) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد : (١/ ١١٩) ، وقال : رواه البزار ، وفيه عبيد بن واقد العبسي ، ضعّفه أبو حاتم.

(٤) تاريخ دمشق (١١/ ٣٦٢) .

(٥) في المسند (٤/ ٢٥٨) .

(٦) في ط : «حدثنا يزيد بن إسماعيل، حدثنا سفيان عن سماك. . .» ومثل هذا الإسناد لا يوجد في مسند الإمام أحمد، وفيه خلط، فقد روى أحمد عن يزيد ـ وهو ابن هارون ـ عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين، عن أبي عبيدة عن رجل، قال: قلت لعدي، وذكر حديثاً غير هذا (٤/ ٢٥٧) كما روى عن عبد الرحمن ـ وهو ابن مهدي، عن سفيان، عن سماك عن مُري عن عدي حديث ذكر اسم الله على الذبيحة (٤/ ٢٥٦) أما هذا الحديث فليس له في المسند سوى طريقين: الأول من طريق محمد بن جعفر غندر عن شعبة عن سماك، وهو هذا، والثاني من طريق حسين بن محمد بن بهرام المروزي، عن شعبة، به (٤/ ٢٥٨) .

وهكذا رواه أبو القاسم البغوي[١] ، عن علي بن الجعد ، عن شعبة ، به ، سواء[٢] .

وقد ثبت في الصحيح في الثلاثة الذين تُسَعَّرُ بهم جَهنم ، منهم الرجل الذي يُنفق ليقال : إنه كريم ، فيكون جزاؤه أن يقال ذلك في الدنيا ، وكذا في العالم والمجاهد[٣] .

وفي الحديث الآخر في الصحيح أنهم سألوا رسول الله ﷺ عن عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سَعد بن تَيم بن مرة فقالوا له : كان يقري الضيفَ ويعتقُ ويتصدَّقُ ، فهل ينفعه ذلك ؟ فقال : « إنه لم يَقُلْ يوماً من الدهْرِ رَبِّ اغفِرْ لي خطيئتي يوم الدين »[٤] .

هذا وقد كان من الأجواد المشهورين أيضاً المطعِمين في السنين الممحلة والأوقات المرملة .

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي[٥] : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ ، حدّثني أبو بكر محمد بن عبد الله بن يوسف العُماني ، حدّثنا أبو سعيد عبيد بن كثير بن عبد الواحد الكوفي ، حدّثنا ضِرار بن صُرَد[٦] ، حدّثنا عاصم بن حميد ، عن أبي حمزة الثُّمالي[٧] ، عن عبد الرحمن بن جندب ، عن كُمَيْل بن زياد النَّخْعي[٨] قال : قال علي بن أبي طالب : يا سبحان الله ما أزهد كثيراً من الناس في خير ، عجباً لرجل يجيئه أخوه المسلم في حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلاً ، فلو كان لا يرجو ثواباً ولا يخشى عقاباً[٩] لكان ينبغي له أن يسارع في مكارم الأخلاق ، فإنها تدلّ على سبيل النجاح . فقام إليه رجل فقال : فداك أبي وأمي يا أمير المؤمنين ، أسمعتَه من رسول الله ﷺ ؟ قال نعم . وما هو خير منه : لما أُتي بسبايا طيئ وقعت جارية

---

(١) الجعديات (٥٧٩) .

(٢) زاد في ب : وروى الطبراني من طريق سعيد بن أبي هلال عن أبي حازم ، عن سهل بن سعد ، أن عدي بن حاتم قال : يا رسول الله إن أبي كان يصل القرابة ، ويحمل الكَلَّ ، ويطعم الطعام . قال : هل أدرك الإسلام؟ قال : لا . قال : فإن أباك كان يحب أن يذكر فذكر .

(٣) أخرجه مسلم (١٩٠٥) في الإمارة ، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار . وكذلك الترمذي (٢٣٨٢) ، في الزهد ، باب ما جاء في الرياء والسمعة . وقال : هذا حديث حسن غريب . والنسائي (٦/ ٢٣) .

(٤) رواه مسلم (٢١٤) ، في الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على الكفر لا ينفعه عمله . وأحمد في مسنده (٦/ ٩٣ ، ١٢٠) ، من طريق عائشة رضي الله عنها .

(٥) في دلائل النبوة (٥/ ٣٤١) .

(٦) ضِرار بن صُرَد، أبو نعيم الطحان الكوفي، فقيه عالم، كذّبه يحيى بن معين. توفي سنة (٢٢٩هـ). المجروحين (١/ ٣٧٦).

(٧) أبو حمزة الثمالي ثابت بن أبي صفية ، كوفي ، ضعيف ، رافضي . توفي سنة (١٤٨هـ) .
المجروحين (١/ ٢٠٦) ، وتقريب التهذيب (١/ ١١٦) .
والثُّمالي : نسبة إلى (ثُمالة) بطن من الأزد . اللباب (١/ ٢٤١ ـ ٢٤٢) .

(٨) كُمَيْل بن زياد النَّخْعي من أصحاب علي بن أبي طالب رضي الله عنه . كان منكر الحديث .
المجروحين (٢/ ٢٢١) .

(٩) في ب : عذاباً .

حمراء لَعْساء ، زلفاء ، عَيْطاء ، شَمّاء الأنف ، معتدلة القامة والهامة ، درماء الكعبين ، خَدَلَّجة الساقين ، لَفَّاء الفخذين ، خميصة[١] الخصرين ، ضامرة الكشحين ، مصقولة المتنين . قال : فلما رأيتها أُعجِبْتُ بها ، وقلتُ : لأطلبَنَّ إلى رسول الله ﷺ فيجعلها في فَيْئي . فلما تكلَّمَتْ أُنسِيْتُ جمالَها لِما رأيتُ من فصاحتها. فقالت: يا محمد إنْ رأيتَ أن تُخلّي عني ولا تُشمت بي أحياء العرب، فإني ابنة سيد قومي، وإن أبي كان يَحمي الذمار ، ويفك العاني ، ويُشبع الجائع ، ويكْسوالعاري ، ويَقْري الضيف ، ويُطعم الطعام ، ويفشي السلام ، ولم يَرُدَّ طالبَ حاجةٍ قط ، أنا ابنة حاتم طيء . فقال النبي ﷺ : « يا جَارية هَذه صِفةُ المؤمنين حقاً ، لو كانَ أبوكِ مؤمناً لترحَّمْنا عليه ، خَلُّوا عنها فإن أباها كان يُحِبُّ مكارمَ الأخلاق ، والله تعالى [يحبُّ مكارمَ الأخلاق »][٢] . فقام أبو بردة بن دينار فقال : يا رسول الله ، والله يُحبُّ مكارمَ الأخلاق ؟ فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده لا يدخلُ الجنةَ أحدٌ إلا بحُسْن الخلق »[٣] .

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدَّثني عُمر بن بكر ، عن أبي عبد الرحمن الطائي ـ هو الهيثم[٤] بن عدي ـ عن عثمان ، عن عركى بن حليس الطائي ، عن أبيه ، عن جده ، وكان أخا عدي بن حاتم لأمه قال : قيل لنَوار امرأة حاتم : حدّثينا عن حاتم . قالت : كل أَمْره كان عجباً . أصابتنا سَنَةٌ حصتْ كلَّ شيءٍ ، فاقشعرَّت لها الأرضُ واغبرَّتْ لها السماء ، وضَنَّت المراضع على أولادها ، وراحت الإبل حُدْبا حَدابير ، ما تَبِضّ[٥] بقطرة ، وحَلَقتِ المالَ ، وإنا لفي ليلة صِنَّبْر[٦] ، بعيدة ما بين الطرفين ، إذا تَضَاغَى الأصبيةُ[٧] من الجوع: عبد الله، وعدي، وسَفّانة، فوالله إنْ وَجَدْنا شيئاً نُعلّلهم به . فقام إلى أحد الصبيين[٨]

---

(١) اللعساء : التي في شفتها سواد مستحسن . الزلفاء : الصقيلة البشرة من الزَّلَفة ، وهي المرآة النظيفة المستوية . والعيطاء : الطويلة العنق . ودرماء الكعبين : أي غطاهما اللحم حتى لم يبن لهما حجم . والخَدَلَّجَة : الممتلئة الذراعين والساقين . واللَّفَّاء : الضخمة الفخذين . والخميصة : الضامرة . والكشح : ما بين السرة ووسط الظهر . والمتن : الظهر ، أو ما ظهر منها .

(٢) ليست في ب .

(٣) وروى الخبر الأصبهاني في الأغاني (الثقافة ١٧/ ٢٧٨ ـ ٢٧٩) ، وابن عساكر في تاريخه (١١/ ٣٦٣ ـ ٣٦٤) .

(٤) كذا في ب ، وهو الصحيح . وفي أ ، وط : القاسم بن عدي ، وهو سهو .
والهيثم بن عدي بن عبد الرحمن الطائي أبو عبد الرحمن ، ولد بالكوفة ، وسكن بغداد ، كان عالماً بالسير وأخبار العرب ، تكلموا فيه . وتوفي سنة (٢٠٧هـ) . سير أعلام النبلاء (١٠/ ١٠٣ ـ ١٠٤) ، والمجروحين (٣/ ٩٢ ـ ٩٣) .

(٥) والحُدب : جمع حدباء ، وهي التي بدت حراقفها وعظم ظهرها .
والحدابير : جمع حِدْبير ، وهي الإبل الضامرة . والسنة الجدبة أيضا . والبَضُّ : السيلان ببطء .

(٦) حلقت المال : ذهبت بالإبل . وليلة صِنَّبْر : شديدة البرد .

(٧) ضغا : صاح . وأصبية : جمع صبي .

(٨) في ب ، وط : الصبيان .

فحمله ، وقمتُ إلى الصَّبِيَّة فعلّلتُها ، فوالله إنْ سَكتا إلا بعدَ هدْأَةٍ من الليل . ثم عُدْنا إلى الصبيِّ الآخر فعلّلناه حتى سكتَ وما كاد . ثم افترشنا قَطِيفةً[١] لنا شامية ذات خمل ، فأضْجعنا الصبيان عليها ، ونمتُ أنا وهو في حجرة والصبيان بيننا ، ثم أقبل عليَّ يُعلّلني لأنامَ ، وعرفتُ ما يريدُ ، فتناومْتُ . فقال : مالكِ أنمتِ ؟ فسكتُّ . فقال : ما أراها إلا قد نامت وما بي نوم . فلما ادلهمَّ الليلُ وتهوَّرت النجومُ[٢] ، وهدأتِ الأصواتُ ، وسكنتِ الرِّجْلُ ، إذا جانب البيت قد رُفع . فقال : من هذا ؟ فولّى ، حتى قلتُ : إذاً قد أسْحَرنا أو كِدنا ، عاد فقال : من هذا ؟ قالت : جارتُك فُلانة يا أبا عدي ، ما وجدتُ على أحد معولاً غيرَكَ ، أتيتك من عند أصْبيةٍ يتعاوَوْن عواء الذئاب من الجوع . قال : أعجليهم عليَّ . قالت النوارُ : فوثبتُ فقلتُ : ماذا صنعتَ ؟![٣] والله لقد تضاغى أصْبيتُك فما وجدت ما تعلّلهم [به][٤] فكيف بهذه وبولدها ؟ فقال : اسكتي ، فوالله لأُشْبِعَنّك [وإياهم][٤] إن شاء الله . قالت : فأقبلتْ تحملُ اثنين ، وتمشي جنبتيها أربعة ، كأنها نعامة حولها رئالها ، فقام إلى فرسه ، فوَجَأ بحرْبَتِه في لَبّته[٥] ، ثم قدَح زَنْده وأورى ناره ، ثم جاء بِمدْية فكَشَط عن جلده ، ثم دفع المديةَ إلى المرأة ، ثم قال : دُونَكِ . ثم قال : ابعثي صِبيانك ، فبعثتهم . ثم قال : سوءةً ! أتأكلون شيئاً دون أهل الصِّرم[٦] ؟ فجعل يطوفُ فيهم حتى هَبّوا وأقبَلُوا عليه . والتَفَعَ في ثوبه ثم اضجع ناحية ينظر إلينا . والله ما ذاقَ مُزْعَةً[٧] ، وإنه لأحْوَجُهم إليه ، فأصبحنا وما على الأرض منه إلا عَظْم أو حافر[٨] .

وقال الدارقُطني : حدّثني القاضي أبو عبد الله المحاملي ، حدّثنا عبد الله بن أبي سعد ، حدّثنا عُثَيم بن ثوابة بن حاتم الطائي ، عن أبيه ، عن جدّه قال : قالت امرأة حاتم لحاتم : يا أبا سَفّانة ، أشتهي أنْ آكلَ أناوأنتَ طعاماً وحدَنا ليس عليه أحدٌ . فأمَرَها فحوّلت خَيْمتَها من الجماعة على فرسخ ، وأمر بالطعام فهُيئ ، وهي مرخاة ستورها عليه وعليها ، فلما قاربَ نضجُ الطعام كشفَ عن رأسه ثم قال : [من الطويل]

فـلا تطبخـي قِـدري وسِتْـرُكِ دونَـهـا ... علـــيَّ إذنْ مـــا تطبخيـــنَ حَـــرامُ

(١) القطيفة : دثار مُخَمَّل .
(٢) تهوَّرت النجوم ذهبت ، أو ولّى أكثرها .
(٣) زاد في ط : اضطجع .
(٤) زيادة من ب .
(٥) الرأل : ولد النعام . ووجأ : ضرب . واللبة : المنحر .
(٦) الصرم : الأبيات المجتمعة المنقطعة من الناس .
(٧) المُزعة : القطعة من اللحم .
(٨) في ط : وحافر . والخبر في الشعر والشعراء (١/ ٢٤٢ ـ ٢٤٤) ، والأغاني (٧/ ٣٠٢ ـ ٣٠٣) ، ونشوة الطرب (١/ ٢٢٥) ، وفي روايته اختلاف يسير .

ولكــنْ بهــذاكَ اليَفــاعِ فــأَوقِــدي بجــزلٍ إذا أوقــدتِ لا بضِــرامِ[١]

قال : ثم كشفَ الستورَ وقدَّمَ الطعامَ ودعا الناسَ ، فأكل وأكلوا . فقالت : ما أتممْتَ لي ما قلت . فأجابها : فإني لا تطاوعني نفسي ، ونفسي أكرمُ عليَّ مِن أن يثني علي هذا ، وقد سبق لي السخاء . ثم أنشأ يقول : [من الطويل]

أُمارسُ نفسَ البخلِ حتّى أعزّها وأتركُ نفسَ الجودِ ما أستثيرها

ولا تشتكيني جارتي غيرَ أنها إذا غابَ عنها بعلُها لا أزورُها

سيبلُغها خَيري ويرجع بعلُها إليها ، ولم تقصُر عليها سُتُورها[٢]

ومن شعر حاتم : [من الوافر]

إذا مـا بـتّ أشْـربُ فـوقَ زِقِّـي لِسُكْـرٍ في الشرابِ فلا رَوِيْتُ[٣]

إذا ما بِـتُّ أختِلُ عِرْسَ جاري ليخفيني الظلامُ فلا خفيتُ

أأفضحُ جارتي وأخونُ جاري فلا واللهِ أفعلُ ما حَييتُ[٤]

ومن شعره أيضاً : [من الكامل]

ما ضَرَّ جاراً لي أُجاوِرُه أن لا يكونَ لِبابِهِ سِتْرُ

أُغضي إذا ما جارتي بَرَزت حَتّى يُواريَ جارتي الخِدْرُ[٥]

ومن شعر حاتم أيضاً : [من الوافر]

وما مِنْ شِيمتي شَتْمُ ابنِ عَمّي وما أنا مُخْلِفٌ مَن يَرْتجيني

وكلْمةِ حاسدٍ من غَيْرِ جرْمٍ سَمعتُ وقلتُ : مُرِّي فانقِذيني

وعابوها عليّ ، فلم تَعِبْني ولم يعرَقْ لها يوماً جبيني

وذي وجهينِ يلقاني طليقاً وليس إذا تغيَّب يأتسيني

ظفرتُ بعيبه فكففْتُ عنه محافظةً على حَسَبي وديني[٦]

---

(١) البيتان في ديوانه (١٦٤) ، (تحقيق د . عادل جمال ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ١٤١١هـ ١٩٩٠) . وفيه اختلاف في بعض الألفاظ .
واليفاع : المرتفع من الأرض . والجزل : الغليظ من الحطب اليابس . والضرام : دقيق الحطب .

(٢) ديوانه (٢٣٢) وما بعدها ، من قصيدة ، والخبر في تاريخ ابن عساكر من طريق الدارقطني (١١/ ٣٦٦) .

(٣) في ط : فوق ري .

(٤) ديوانه (٢١٠) .

(٥) ديوانه (٢٩٦) .

(٦) ديوانه (١٥٢) .

ومن شعره : [من الطويل]

سلي البائسَ المقرورَ يا أُمَّ مالكٍ إذا ما أتاني بين ناري ومجزري
أأبسط وجهي إنه أولُ القِرى وأبذلُ معروفي له دون مُنْكَرِي[(١)]

وقال أيضاً : [من الطويل]

وإنكَ إن أعطيتَ بطنكَ سُؤْلَه وفَرْجَك نالا منتَهى الذمّ أَجْمعا[(٢)]

وقال القاضي أبو الفرج المعافى بن زكريا[(٣)] الجريري : حدّثنا الحسين بن القاسم الكوكبي ، حدّثنا أبو العباس المبرد ،أخبرني التَّوزي ، عن أبي عُبيدة . قال : لما بلغ حاتم طيِّئ قول المتلمس :

قليلُ المالِ تُصلحهُ فيبقى ولا يبقى الكثيرُ على الفَساد
وحِفظُ المال خيرٌ من فَناه وعسفٍ في البلادِ بغير زاد

قال : ما له قطع الله لسانه حمل الناس على البخل ، فهلا قال : [من الطويل]

فلا الجودُ يُفني المالَ قبلَ فنائه ولا البخلُ في مال الشحيح يزيد
فلا تلتمسْ مالاً بعيشٍ مُقتّرٍ لكلّ غدٍ رزقٌ يعودُ جديد
ألم تَرَ أنّ المالَ غادٍ ورائح وأنّ الذي يُعطيك غيرُ بعيد[(٤)]

قال القاضي أبو الفرج : ولقد أحسن في قوله : وإن الذي يعطيك غير بعيد . ولو كان مسلماً لرجي له الخير في معاده . وقد قال تعالى في كتابه : ﴿ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ [النساء : ٣٢] . وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[(٥)] [البقرة : ١٨٦] .

وعن الوضّاح بن معبد الطائي قال : وَفَدَ حاتم الطائي على النعمان بن المنذر ، فأكرمه وأدناه ، ثم زوّده عند انصرافه جَمَلين ذهباً وورِقاً غيرَ ما أعطاه من طرائف بلده ، فرحل ، فلما أشرف على أهله تلقته أعاريب طيّئ . قالت : يا حاتم أتيتَ من عند الملك بالغنى[(٦)] وأتينا من عند أهالينا بالفقر . فقال حاتم : هلم فخذوا ما بين يدي فتوزّعوه ، فوثبوا إلى ما بين يديه من حباء النعمان فاقتسموه . فخرجت إلى حاتم

---

(١) ديوانه (٢٨٤) .
(٢) ديوانه (١٧٤) .
(٣) في كتابه الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي (١/ ٣٢٠ ـ ٣٢١) ، (تحقيق د . محمد مرسي الخولي ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ ١٩٨١) .
(٤) ديوانه (٢٥٠) .
(٥) الجليس الصالح الكافي (١/ ٣٢٠ ـ ٣٢١) .
(٦) زيادة من ب .

طريفة جاريتُه ، فقالت له : اتق الله وأبقِ على نفسك ، فما يدع هؤلاء ديناراً ولا دِرهماً ولا شاة ولا بعيراً .
فأنشأ يقول : [من البسيط]

قالتْ طُرَيفةُ : ما تَبقَى دراهِمُنا ... وما بنا سَرَفٌ فيها ولا خَرَقُ
إنْ يَفْنَ ما عندنا فالله يرزُقنا ... ممَّنْ سِوانا ولسنا نحنُ نَرْتَزِق
ما يألف الدرهمُ الكاريُّ خِرقَتَنا ... إلا يمرّ عليها ثُم ينطلق
إنا إذا اجتمعت يوماً دراهمُنا ... ظلّت إلى سُبُلِ المعروفِ تستبق[١]

وقال أبو بكر بن عياش : قيل لحاتم : هل في العرب أجود منك ؟ فقال : كل العرب أجود مني . ثم أنشأ يُحدّثُ ، قال : نزلتُ على غلام من العرب يتيم ذات ليلة ، وكانت له مئة من الغنم ، فذبح لي شاة منها ، وأتاني بها ، فلما قَرَّبَ إليَّ دماغَها قلت : ما أَطيبَ هذا الدماغ ! قال : فذهبَ ، فلم يزل يأتيني منه حتى قلتُ : قدِ اكتفيت ، فلما أصبحت إذا هو قد ذبح المئة شاة وبقي لا شيء له ؟ فقيل : فما صنعتَ به ؟ فقال : ومتى أبلغُ شكرَه ولو صنعتُ به كل شيء ؟! قالوا[٢] : على كل حال ؟ فقال : أعطيتُه مئة ناقة من خيار إبلي .

وقال محمد بن جعفر الخرائطي[٣] في كتاب « مكارم الأخلاق » : حدّثنا العباس بن الفضل الرَّبَعي ، حدّثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدّثني حماد الراوية ومشيخة من مشيخة طيّئ ، قالوا : كانت عنترة[٤] بنت عفيف بن عمرو بن امرئ القيس أم حاتم طيّئ لا تُمسك شيئاً سَخاءً وجوداً ؛ وكان إخوتها[٥] يمنعونها فتأبى ، وكانت امرأة موسِرةً ، فحبسوها في بيتٍ سنةً يطعمونها قوتَها لعلها تكفّ عما تصنع . ثمّ أخرجوها بعد سنةٍ وقد ظنّوا أنها قد تركتْ ذلك الخُلُق ، فدفعوا إليها صِرْمةً من مالها وقالوا : استمتعي بها ، فأتتها امرأة من هوازنٍ ، وكانت تغشاها ، فسألتها ، فقالت : دونك هذه الصِّرْمة فقد والله مسني من الجوع ما آليتُ أن لا أمنع سائلاً ثم أنشأت تقول : [من الطويل]

لَعَمري لقِدماً عضّني الجوعُ عضة ... فآليتُ أن لا أمنعَ الدهرَ جائعا
فقولا لهذا اللائمي اليومَ أعفِني ... وإن أنتَ لم تفعل فعضّ الأصابعا

---

(١) ديوانه (٢٨٦) .
(٢) كذا في ب ، وهو الأشبه بالصواب . وفي ط : قال .
(٣) محمد بن جعفر بن محمد بن سهل الخرائطي السامري ، فاضل من حفاظ الحديث . توفي في يافا سنة (٣٢٧هـ) . وكتابه مكارم الأخلاق مطبوع .
الأعلام (٦/ ٧٠) .
(٤) كذا في م ، وط . وفي ب ، والأغاني : غنية . وفي الشعر والشعراء : عنبة .
(٥) كذا في ب ، ط . وفي أ : وكانوا يمنعونها .

فمـاذا عسـاكـم أن تقـولـوا لأختِكـم سوى عذلكم أو منع مَن كانَ مانعا[١]
ومهمـا تـروْن اليـومَ إلا طبيعـةً فكيف بتركي يا ابنَ أمي الطبائعا[٢]

وقال الهيثم بن عدي ، عن مِلحان بن عركى بن عدي بن حاتم ، عن أبيه ، عن جده ، قال : شهدتُ حاتماً يكيد بنفسه[٣] فقال لي : أي بُني إني أعهدُ من نفسي ثلاث خصال : والله ما خاتلتُ جارةً لريبةٍ قطُّ ، ولا ائتمنت على أمانة إلَّا أدّيتُها ، ولا أوتيَ أحدٌ من قِبلي بسوءٍ .

وقال أبو بكر الخرائطي : حدّثنا علي بن حَرب ، حدّثنا عبد الرحمن[٤] بن يحيى العدوي ، حدّثنا هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبي مسكين ـ يعني جعفر بن المحرر بن الوليد ـ عن المحرر مولى أبي هريرة قال : مرَّ نفر من عبد القيس بقبر حاتم طيّئ ، فنزلوا قريباً منه ، فقال إليه بعضهم [يقال له : أبو الخيبري][٥] فجعل يركض[٦] قبره برجله . ويقول : يا أبا الجَعْراء[٧] اقرنا . فقال له بعض أصحابه : ما تخاطب من رِمَّة وقد بليتْ ! وأجنّهم الليلُ فنوموا[٨] . فقام صاحبُ القول فزعاً يقول : يا قوم عليكم بمطيكم فإن حاتماً أتاني في النوم ، وأنشدني شعراً ، وقد حفظته . يقول : [من المتقارب]

أبـا خَيْبَـرِيّ وأنـتَ امـرؤٌ ظَلـومُ العَشِيْـرةِ شتّـامُهـا
أتيـتَ بصحْبِـكَ تبغـي القِـرى لَـدى حُفْـرةٍ قـد صَخِـبٍ هَـامُهـا[٩]
أتبغـي لـي الـذنـبَ عنـدَ المبيـ ـتِ وحـولَـك طيـئ وأنعـامهـا
وإنـا سنُشْبِـعُ أضيـافَنـا وتـأتـي المطـيّ فنعتـامُهـا[١٠]

قـال : وإذا ناقة صاحب القول تَكُوس[١١] عقيراً ، فنحروهـا وقاموا يشْتَونَ ويأكلون . وقالوا والله لقـد أضافنـا حـاتـم حيّاً وميتاً . قـال : وأصبـح القـوم وأردفـوا صـاحبهـم ، وسـاروا . فـإذا رجـلٌ

(١) في ب : عسيتم . وفي ط : أو عذل من .
(٢) في ط : وماذا ترون . والخبر في الشعر والشعراء (١/ ٢٤٢) ، والأغاني (١٧/ ٢٨٠) .
(٣) كاد بنفسه : جاد .
(٤) في ب : عبد الرزاق وهو خطأ .
(٥) قوله : يقال له أبو الخيبري . زيادة من ط .
(٦) الركض : تحريك الرجل ، والضرب بها .
(٧) في ط ، ومروج الذهب : الجعد . وفي الشعر والشعراء : عذي . وفي الأغاني : جعفر . وأثبت ما في الأصل ، وهو الأشبه بالصواب . فالجعراء هي الاست . وهو هنا إنما يسخر من حاتم .
(٨) في ط : فناموا .
(٩) في ط : قد صدت هامها .
(١٠) في ط : لنشبع . والأبيات في ديوانه (١٦٨) ، مع اختلاف في الرواية .
(١١) تكوس : تمشي على ثلاثة أرجل .

ينوّه[١] بهم راكباً جملاً ويقود آخر . فقال : أيكم أبو الخيبري ؟ قال : أنا . قال : إن حاتماً أتاني في النوم فأخبرني أنه قرى أصحابَك ناقتك ، وأمرني أن أحملك ، وهذا بعيرٌ فخذه . ودفعه إليه[٢] .

***

ذكر شيء من أخبَار عبد الله بن جدعان

هو عبد الله بن جُدْعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مُرَّة ، سيد بني تيم ، وهو ابن عم والد أبي بكر الصديق رضي الله عنه . وكان من الكرماء الأجواد في الجاهلية المطعمين للمسنتين[٣] .

وكان في بدء أمره فقيراً مُمْلِقاً ، وكان شِرّيراً يُكْثِر من الجنايات ، حتى أبغضه قومُه وعشيرتُه وأهلُه وقبيلتُه ، وأبغضوه حتى أَبُوه ، فخرج ذات يوم في شِعاب مكة حائراً بائراً[٤] ، فرأى شِقاً في جبل ، فظن أن يكون به شيء يؤذي ، فقصدَه لعلّه يموت فيستريح مما هو فيه ، فلما اقترب منه إذا ثعبانٌ يخرج إليه ويَثِبُ عليه ، فجعل يحيدُ عنه ويَثِبُ فلا يُغْني شيئاً ، فلما دنا منه إذا هو من ذهب ، وله عينان هما ياقوتتان ، فكَسَره وأخذه ، ودخل الغار فإذا فيه قبور لرجال[٥] من ملوك جُرهم ، ومنهم الحارث بن مُضاض الذي طالت غيبتُه فلا يُدرَى أين ذهبَ ، ووجد عند رؤوسهم لوحاً من ذهب فيه تاريخ وفاتهم ومُدَد ولايتهم ، وإذا عندهم من الجواهر واللآلئ والذهب والفضة شيء كثير ، فأخذ منه حاجته[٦] ، ثمّ خرج . وعَلَّم بابَ الغارِ ثم انصرف إلى قومه ، فأعطاهم حتى أحَبّوه ، وسادهم ، وجعل يُطعم الناسَ ، وكلما قَلَّ ما في يده ذَهَبَ إلى ذلك الغار فأخذ حاجته ، ثمّ رَجَع[٧] .

فممن ذكر هذا عبد الملك بن هشام في كتاب « التيجان »[٨] .

---

(١) ينوّه : ينادي .

(٢) الخبر في الشعر والشعراء (١/٢٤٩) ، ومروج الذهب (٢/١٦٢ ـ ١٦٣) ، والأغاني (١٧/٢٨٧ ـ ٢٨٨ و٣٠٠) ، وخزانة الأدب (٣/١٢٩) .

(٣) المسنتون : المجدبون . وقد ذكره ابن حبيب في المحبر (١٣٧ ـ ١٣٩) وعده من أجواد الجاهلية .

(٤) حائر بائر : لم يتجه لشيء ، ولا يأتمر رُشْداً ، ولا يطيع مرشداً . (القاموس) .

(٥) زاد في ب : طوال .

(٦) في ب : ما يكفيه .

(٧) الخبر في الروض الأنف (١/١٥٩) ، وفيه توضيح كيف اكتشف ابن جدعان أن الثعبان مصنوع وليس حقيقياً .

(٨) عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري ، مؤرخ عالم بالأنساب واللغة وأخبار العرب . وهو الذي هذّب كتاب السيرة لابن إسحاق . توفي سنة (٢١٣هـ) وقيل : (٢١٨هـ) . وكتابه التيجان في ملوك حمير مطبوع . ترجمته في وفيات الأعيان (٣/١٧٧) ، والأعلام (٤/١٦٦) .

وذكره أحمد بن عَمَّار[١] في كتاب « ري العاطش وأنس الواحش » .

وكانت له جَفنة يأكُلُ منها الراكب على بعيره ، ووقع فيها صَغيرٌ فغرق .

وذكر ابن قتيبة وغيره[٢] أن رسول الله ﷺ قال : « لقد كنتُ أسْتظلُّ بظِلِّ جَفْنةِ عبد الله بن جُدعان صكة عُمَيّ » أي وقت الظهيرة .

وفي حديث مقتل أبي جهل[٣] أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه : « تطلبوه بين القتلى وتعرفوه بشَجَّةٍ في رُكبته ، فإني تزاحمتُ أنا وهو على مأدبةٍ لابن جُدْعان ، فدفعتُه ، فَسَقَطَ على رُكبته ، فانهشمت ، فأثرُها باقٍ في ركبته » . فوجدوه كذلك .

وذكروا أنه كان يطعم التمر والسَّوِيق ، ويسقي اللبنَ ، حتى سمع قول أمية بن أبي الصَّلْت : [من الكامل]

ولقدْ رأيتُ الباذلين وفِعلَهم ... فرأيتُ أكرمَهم بني الديّان[٤]
البُرُّ يُلْبَكُ بالشِّهادِ طَعَامُهم ... لا ما يُعلِّلنا بنو جُدْعان[٥]

فأرسل ابن جُدعان إلى الشام ألفي بعير تحمل البُرَّ والشَّهْدَ والسمن ، وجعل منادياً ينادي كلَّ ليلةٍ على ظهر الكعبة أن هلموا إلى جفنة ابن جدعان . فقال أمية في ذلك : [من الوافر]

لَهُ داعٍ بمكةَ مُشْمَعِلٌّ ... وآخرُ فوقَ كَعبتها ينادي[٦]
إلى رُدُحٍ من الشِّيزى عليها ... لُبابُ البُر يُلْبَكُ بالشِّهاد[٧]

ومع هذا فقد ثبت في الصحيح لمسلم أن عائشة قالت : يا رسول الله إن ابن جُدعان كان يُطعم الطعام

---

(١) أحمد بن عمار المَهدَوي التميمي ، مقرئ أندلسي ، من المهدية بالقيروان . توفي نحو (٤٤٠هـ) . الأعلام (١/ ١٨٤) .

(٢) غريب الحديث (١/ ٤٥٥) ، وقال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث (٣/ ٤٣) في صكة عمي : يريد الهاجرة . والأصل فيها أن عُمَياً مصغّر مرخم ، كأنه تصغير أعمى . وقيل إن عمياً اسم رجل من عدوان كان يُفيض بالحاج عند الهاجرة وشدة الحر . وقيل إنه أغار على قومه في حر الظهيرة فضُرب به المثل في من يخرج في شدة الحر يقال : لقيته صكة عُمي . مجمع الأمثال (٢/ ١٨٢) ، والمستقصى (٢/ ٢٨٧) ، والروض الأنف (١/ ١٥٨) .

(٣) زاد في ب : يوم بدر . والخبر في السيرة (١/ ٦٣٥) .

(٤) في ب ، وط : الفاعلين .

(٥) البر : الحنطة . ويلبك : يخلط . والشهاد : مفردها شهد ، وهو العسل . علّله بالشيء : شغله به والبيتان في ديوان أمية (٥٠٢) ، (صنعة د . عبد الحفيظ السطلي) .

(٦) المشمعل : النشيط السريع ، المبادر .

(٧) في ط : ملاء لباب . والردح : الجفان العظيمة . والشيزى : خشب أسود تُتَّخذ منه الجفان . واللباب من كل شيء : خالصه وخياره .
والبيتان في ديوان أمية (٣٨١)، والخبر في الروض الأنف (١/ ١٥٨).

ويقري الضيف فهل ينفعه ذلك يوم القيامة؟ فقال: « إنه لم يَقُلْ يوماً: ربّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين »[١].

***

ذكر امرئ القيس بن حجر الكندي صاحب إحدَى المعلّقات[٢]

وهي أفخرهنّ وأشهرهن التي أولها:

قِفا نبكِ مِن ذكرى حَبيبٍ ومنزل

قال الإمام أحمد: حدّثنا هُشيم[٣]، حدّثنا أبو الجهم، عن الزُّهْري، عن أبي سَلَمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « امرؤ القَيس صاحِب لواء الشُّعَراء إلى النار »[٤].

وقد روَى هذا الحديثَ عن هشيم جماعةٌ كثيرون، منهم بِشر بن الحكم، والحسن بن عَرفة، وعبد الله ابن هارون أمير المؤمنين المأمون أخو الأمين، ويحيى بن مَعين. وأخرجه ابن عدي من طريق عبد الرزاق عن الزُّهْري، به[٥]. وهذا منقطع[٦]، وروي من وجه آخر عن أبي هريرة[٧]، ولا يصح من غير هذا الوجه[٨].

---

(١) تقدم قبل قليل، في أول الحديث عن حاتم الطائي، وتخريجه هناك.
وابن جدعان واحد ممن حرموا الخمر في الجاهلية. المحبر (٢٣٧). وأخباره في الأغاني (ثقافة ٨/ ٣٢٩) وما بعدها.

(٢) قوله: ذكر ليس في ط. وفي ب: المعلقات السبع.

(٣) في أ. ط: هشام وهو خطأ.

(٤) المسند(٢/ ٢٢٨)، والجامع الصغير (١/ ٢١٧)، وضعّفه.

(٥) الكامل (٤/ ١٤٠٤).

(٦) هكذا قال المصنف، وهو وهم منه، فكأنه ظن عبد الرزاق هذا هو ابن هَمَّام الصنعاني فقال هذه المقالة، وإنما هو عبد الرزاق بن عمر الثقفي الدمشقي، وهو من الضعفاء المتروكين ومن أصحاب الزهري الكذبة المعروفين (تهذيب الكمال ١٨/ ٤٨ ـ ٥٠ والتعليق عليه)، وقد نسب ابن عدي هذا الحديث إليه فقال في ترجمة أبي الجهم الإيادي وبعد أن ساق هذا الحديث من طريق هشيم عنه عن الزهري: «وقد روي هذا الحديث عن عبد الرزاق بن عمر الدمشقي عن الزهري، كما رواه أبو الجهم» ثم ساقه من طريقه (الكامل ٤/ ١٤٠٤). ثم ذكره في ترجمة هشيم بن بشير منه (٧/ ٢٥٩٨)، وفي ترجمة أبي الجهم من الكنى (٧/ ٢٧٥٥) (د. بشار).

(٧) أخرجه ابن عدي في الكامل (١/ ٢٠٤) وقال عقيبه: « وهذا الحديث بهذا الإسناد باطل ».

(٨) قوله: «ولا يصح من غير هذا الوجه»، أي لا يعرف إلا من طريق أبي الجهم، لا أنه صحيح، وأبو الجهم هذا واهي الحديث كما قال الإمام أبو زرعة الرازي في كتاب الضعفاء (٢/ ٥٢٧)، وقال ابن حبان في المجروحين (٣/ ١٥٠): «لا يجوز الاحتجاج بروايته إذا انفرد» فإسناد الحديث ضعيف جداً، ولذلك ذكره ابن الجوزي في كتابه «العلل المتناهية في الأحاديث الواهية» (١/ ١٣٨)، وضعفه السيوطي في الجامع الصغير (١/ ٢١٧).

وقال الحافظ ابن عساكر : هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عَمرو بن[١] حجر آكل المُرَار بن عمرو بن معاوية بن الحارث بن يَعرب بن ثور بن مرتع بن معاوية بن كندة . أبو يزيد ويقال : أبو وهب ويقال : أبو الحارث الكِنْدي . كان بأعمال دمشق ، وقد ذَكَر مواضعَ منها في شعره ، فمن ذلك قولُه :

قِفا نبكِ من ذِكرى حَبيبٍ ومنزلِ ... بسِقْط اللِّوى بينَ الدَّخُول فَحَوْمَلِ

فتُوضِحَ فالمقراةِ لم يَعْفُ رسمُها ... لما نَسجَتْها من جَنوبٍ وشَمْألِ

قال : وهذه مواضع معروفة بحوران[٢] .

ثمّ روى من طريق هشام بن محمد بن السائب الكلبي : حدّثني فَرْوة بن سعيد بن عفيف بن معدي كرب ، عن أبيه ، عن جده ، قال : بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ أقبل وفدٌ من اليمن ، فقالوا : يا رسول الله لقد أحيانا الله ببيتين من شعر امرىء القيس . قال : « وكيف ذاك » ؟ قالوا : أقبلنا نريدُك ، حتى إذا كُنا ببعض الطريق أخطأنا الطريق ، فمكثنا ثلاثاً لا نقدر على الماء[٣] ، فتفرقنا إلى أصول طَلْح وسَمُر ليموتَ كل رجلٍ منا في ظل شجرة ، فبينا نحن بآخر رَمَق إذا راكب يُوضِعُ على بعير ، فلما رآه بعضُنا قال ، والراكب يسمع :

ولما رأتْ أنّ الشريعةَ هَمُّها ... وأنَّ البياضَ منْ فَرائصِها دامي[٤]

تَيَمَّمَتِ العينَ التي عند ضارجٍ ... يَفيءُ عليها الظلّ عَرْمَضُها طامي[٥]

فقال الراكب : ومن يقول هذا الشعر وقد رأى ما بنا من الجهد ؟ قال : قلنا : امرؤ القيس بن حُجر .

---

(١) كذا في ط ، وهو موافق لنص ابن عساكر . وزاد في : أ . ابن الحارث بن حجر . والمُرَار : نبتٌ حار يأكله البعير فيتقلص منه مشفره .

(٢) مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٥/ ٣٣) . ولم يشر ياقوت إلى أن هذه المواضع من حوران ، بل نقل عن السكري قوله : حومل والدخول والمقراة وتوضح مواضع ما بين إمرة وأسود العين . وإمرة : موضع على طريق مكة من البصرة . معجم البلدان (حومل ، إمرة ، أسود العين) .

(٣) كذا في ب وط . وفي أ : عليه .

(٤) كذا في ب وط . ومختصر تاريخ دمشق . وفي أ : أن المنبة وردها . والشريعة : مورد الشاربين . والفرائص : جمع فريصة ، لحمة بين الكتف والصدر . ترتعد عند الفزع .

(٥) ضارج : جبل ، وقيل : موضع ببلاد عبس . والعرمض : الطحلب . وفي اللسان (ضرج) . همها : طلبها . والضمير في (رأت) للحمر ، يريد أن الحمر لما أرادت شريعة الماء خافت على أنفسها من الرماة ، وأن تدمى فرائصها من سهامهم ، عدلت إلى ضارج لعدم الرماة على العين التي فيه . . . وطامي : مرتفع .
والبيتان ، مع الخبر في الشعر والشعراء (١/ ١١١ ـ ١١٢) ، وفي ملحقات ديوان امرىء القيس (تح . أبو الفضل إبراهيم) (٤٧٦) ، ومختصر تاريخ دمشق (٥/ ٣٤) ، واللسان (ضرج) .

قال : ما كذب وإن هذا الضارج أو (ضارج)[١] ، عندكم ، فنظرنا فإذا بيننا وبين الماء نحوٌ من خمسين ذراعاً ، فحبونا إليه على الركَب ، فإذا هو كما قال امرؤ القيس عليه العرمض يفيء عليه الظل . فقال رسول الله ﷺ : « ذاك رَجُلٌ مذكورٌ في الدنيا منسِيٌّ في الآخرة ، شَريفٌ في الدنيا ، خامل في الآخرة ، بيده لواء الشعراء يقودُهم إلى النار » .

وذكر الكلبي : أن امرأ القيس أقبل براياته يريد قِتال بني أسد حين قتلوا أباه ، فمر بِتَبَالَةَ ، وبها ذو الخُلصة ، وهو صنم ، وكانت العرب تستقسم عنده ، فاستقسم ، فخرج القدح الناهي ، ثم الثانية ، ثم الثالثة كذلك ، فكسر القداح وضرب بها في[٢] وجه ذي الخُلَصة وقال : عَضِضْتَ بأير أبيك ، لو كان أبوك المقتولَ لما عَوَّقْتَني . ثمّ أغار على بني أسد[٣] فقتلهم قتلاً ذريعاً . قال ابن الكلبي : فلم يُسْتَقْسَم عِند ذي الخلصَة حتى جاء الإسلام[٤] . وذكر بعضهم أنه امتدح قيصر ملك الروم يستنجده في بعض الحروب ويسترفده ، فلم يجد ما يؤمله عنده ، فهجاه بعد ذلك ، فيقال : إنه سقاه سُمّاً فقتله ، فألجأه الموتُ إلى جنب قبرِ امرأةٍ عند جبل يقال له : عسيب ، فكتب هنالك : [من الطويل]

أجـارتَنـا إن المـزارَ قـريـبُ ... وإنـي مُقيـمٌ مـا أقـامَ عسيـبُ

أجـارتَنـا إنـا غـريبـان هـاهنـا ... وكـلُّ غـريـبٍ للغـريـبِ نسيـبُ[٥]

وقد[٦] ذكروا أن المعلقات السبع كانت معلَّقةً بالكعبة[٧] ، وذلك أن العرب كانوا إذا عمل أحدُهم قصيدةً عرضها على قريش ، فإن أجازوها علّقوها على الكعبة تعظيماً لشأنها ، فاجتمع من ذلك هذه المعلقات السبع :

فالأولى لامرئ القيس بن حُجْر الكِندي كما تقدم ، وأولها : [من الطويل]

قِفا نَبْكِ مِن ذِكرى حَبيبٍ ومَنْزِلِ ... بِسِقْطِ اللِّوَى بينَ الدَّخُولِ فَحومَلِ

---

(١) في ط : والله ما كذب ، هذا ضارج عندكم .
(٢) ليست في ط . ولا الأصنام لابن الكلبي .
(٣) في أ : سليم وهو سهو .
(٤) الأصنام لابن الكلبي (٤٧) . وفي ص (٣٤ ـ ٣٦) . تفصيل خبر ذي الخلصة .
(٥) البيتان في ديوانه (٣٥٧) ، وكذلك في الشعر والشعراء (١/١٢١) ، والأغاني (٩/١٠١) ، ومختصر تاريخ دمشق (٤١) .
(٦) في ط : وذكروا .
(٧) انظر ما جاء في الحديث عن المعلقات وتسميتها وعددها وما إلى ذلك في كتاب (المعلقات سيرة وتاريخاً) لنجيب البهبيتي . طبع دار الثقافة ـ المغرب . (١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م) .

والثانية للنابغة الذبياني : واسمه زياد بن معاوية ـ ويقال : زياد بن عمرو[١] ـ بن معاوية بن ضباب بن جابر[٢] بن يَربوع بن غَيْظ بن مُرَّة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض ، وأولها : [من البسيط]

يــا دارَ ميّــةَ بــالعليــاءِ فــالسّنَــدِ أقـوتْ وطـالَ عليهـا سـالـفُ الأبـدِ

والثالثة[٣] لزهير بن أبي سُلْمى ، ربيعة بن رياح المزَني ، وأولها : [من الطويل]

أمِــنْ أمِّ أَوْفَــى دِمْنــةٌ لــم تكلَّــمِ بِحَــوْمــانــةِ الــدَّرَّاج فــالمُتَثَلَّــمِ[٤]

والرابعة لطَرَفَةَ بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضُبَيعة بن قيس بن ثعلبة بن عُكابة بن صَعْب ابن عُلَي بن بكر بن وائل ، وأولها : [من الطويل]

لخَــولــةَ أطــلالٌ ببُــرقَــةِ ثَهْمــدِ تلوحُ كباقي الوشْمِ في ظاهر اليد

والخامسة لعنترة بن شداد بن معاوية بن قُراد بن مخزوم بن ربيعة بن مالك بن غالب[٥] بن قُطَيفةَ بن عبس العبسي وأولها : [من الكامل]

هــل غــادرَ الشعــراءُ مــن مُتــردَّمِ أمْ هَل عَرَفتَ الدارَ بعدَ توهُّمِ[٦]

---

(١) قاله التبريزي في شرح القصائد العشر (٤٤٦) .

(٢) سقط ضباب من النسب في ب . وفي أ : بن جابر بن ضباب . ونسب النابغة كما هنا في طبقات فحول الشعراء (١/ ٥١) ، والشعر والشعراء (١/ ١٦٣) ، والأغاني (١١/ ٣) ، والمؤتلف والمختلف (١٩١) ، وجمهرة النسب لابن حزم (٢٥٣) .

(٣) في ب جعل الثالثة لعلقمة بن عبدة ، ثم تابع لزهير الرابعة ، وهكذا .

(٤) أم أوفى : زوجة زهير . والدمنة : آثار الناس وما اسود من أماكنهم . وحومانة الدراج ، والمتثلم : موضعان .

(٥) قوله : غالب زيادة من ط ، توافق المشهور من نسب عنترة . انظر طبقات فحول الشعراء (١/ ١٥٢) ، والشعر والشعراء (١/ ٢٥٠) .

(٦) زاد في ب بعد البيت قوله : وهو عربي صليبة ، وإنما كانت أمه حبشية ، فكان أسمر اللون كأمه ، فتوهم العامة أنه كان عبداً رقيقاً ، وسموا أمه زبيبة . ويقولون : عنتر ، ويجعلون له أخاً اسمه شيبوب ، ولم أرَ ذلك في شيء من التواريخ . وإنما كان له أخ اسمه عُتبة فيما ذكره ابن خالويه في شرح المعلقات السبع . وكان أبوه من الشجعان أيضاً ، وكان يعرف بفارس جِرْوة ـ اسم فرس له ـ وكان عنترة من أشد الناس بأساً ، وأبطشهم يداً . وكان له مقامات في العرب ، وكان أبوه يعترف له بذلك ويشكره على ذلك . وقد فاخره رجل فقال له عنترة : ويلك! والله إني لأحضر البأس في المقام ، وأعف عن الغنيمة ، وأفضُل الشجعان . فقال له الرجل : أنا أشعر منك . فقال له عنترة : ستعلم ذلك . فعمل قصيدته هذه ، فذكر فيها قتل معاوية بن نزّال ، وتغزل بمعشوقته عبلة بنت أم الهيثم . وله شعر كثير غيرها . ولكن هذه القصيدة هي أول ما قاله من الشعر فيما ذكره ابن خالويه . ومن شعره يقول :

يــا عبــل للمنيــة مهــربــي إن كان ربي في السماء قضى بها

وقد ذكر له الأصمعي ، وأبو عبيدة شيئاً يسيراً من سيرته ، فزاد عليها القصاص وجهلة الناس أشياء كثيرة مكذوبة ، وحروباً كانت بين رستم واسفنديار ملك من ملوك الفرس كانت بينهما حروب طويلة ، فساقوا كثيراً منها في حروب=

والسادسة لعلقمة بن عَبَدة بن النعمان بن قيس أحد بني تميم وأولها : [من الطويل]

طحا بكَ قلبٌ في الحسان طروبُ   بُعَيد الشباب عَصْرَ حانَ مَشِيْبُ[١]

والسابعة ـ ومنهم من لايثبتها في المعلقات وهو قول الأصمعي وغيره ـ وهي للبيد بن ربيعة[٢] بن مالك بن جعفر بن كلاب بن عامر بن صَعْصَعة بن معاوية بن بكر بن هَوَزان بن منصور بن عِكْرمة بن خصفة بن قيس بن مضر وأولها : [من الكامل]

عفتِ الديارُ مَحلُّها فَمُقَامُها   بِمِنًى تأبَّدَ غَوْلُها فَرِجامُها[٣]

فأما القصيدة التي لا يُعْرَف قائلُها ، فيما ذكره أبو عبيدة والأصمعي والمبرّد وغيرهم فهي قوله :

هَلْ بالطُّلولِ لسائلٍ ردُّ   أمْ هَلْ لَها بتكلُّمٍ عهدُ[٤]

وهي مطولة وفيها معان حسنة كثيرة[٥] .

* * *

= عنترة، ووضعوا لها أشعاراً ركيكة لا تناسب . وقد قيل لشيخنا العلامة ابن تيمية : إن العامة يجلسون يسمعون سيرة عنترة ، ويأكلون من الترمس والباقلا المقلي ، فقال : هؤلاء قال الله تعالى فيهم : ﴿ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ .

ويبدو أن هذا النص من الناسخ لا من ابن كثير ، فالأسلوب يختلف ، وإن ظهر فيه شيء من العلم ، فناسخ فيما يبدو من روايته عالم .

(١) لا أعرف أحداً ـ فيما قرأت ـ جعل قصيدة علقمة هذه من المعلقات السبع ، أو التسع ، أو العشر . وقد عدّها ابن خلدون المتوفى سنة (٨٠٨هـ) من المعلقات كذلك ، ولعل ابن كثير وابن خلدون قد وقعا على مصدر فيه ذلك ، ولم يصل إلينا .
المعلقات سيرة وتاريخاً (١١١) .
وقصيدة علقمة هذه قالها يمدح الحارث بن أبي شمر الغساني ، ويسعى بها إلى إطلاق أسرى قومه . الشعر والشعراء (١/ ٢٢١) . وهي في ديوانه (٣٣) .

(٢) المشهور أن قصيدة لبيد من المعلقات السبع المتفق عليها ، فقد اتفقت الروايات على أن قصيدة امرىء القيس ، وزهير ، وطرفة ، وعمرو بن كلثوم ، ولبيد ، من القصائد السبع ، واختلفوا في القصيدتين المتممتين بين قصائد : النابغة ، والأعشى ، وعنترة ، والحارث بن حلزة . الحديث مفصلاً حول عدد المعلقات في : المعلقات سيرة وتاريخاً (٦٩) وما بعدها .

(٣) عفت : درست وانمحت . وتأبّد : توحّشَ . ومنى : موضع غير الذي بمكة ، وقيل : هو . والغول والرجام : موضعان .

(٤) قيل : إن هذه القصيدة تنسب إلى سبعة عشر شاعراً . ونشرت القصيدة منسوبة إلى دوقلة المنبجي بعنوان (القصيدة اليتيمة) برواية القاضي علي بن المحسن التنوخي . حققها د . صلاح الدين المنجد (ط . دار الكتاب الجديد ـ بيروت ـ ١٩٧٠م) .

(٥) في ب : وفيها معان كثيرة .

ذكر شيء من أخبَار أميّة بن أبي الصّلت الثقفي[١]

[كان من شعراء الجاهلية ، وقد أدرك زمن الإسلام][٢]

قال الحافظ ابن عساكر[٣] : هو أمية بن أبي الصَّلْت عبد الله بن أبي ربيعة بن عَوْف بن عُقْدَة[٤] بن غِيَرة ابن عوف بن ثقيف ، أبو عثمان ، ويقال : أبو الحكم الثقفي . شاعر جاهلي ، قَدِم دمشقَ قبل الإسلام ، وقيل : إنه كان مستقيماً[٥] ، وإنه كان في أول أمره على الإيمان ، ثمّ زاغ عنه ، وإنه هو الذي أراد الله تعالى[٦] بقوله : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧٥] .

قال الزبير بن بكّار : فولدت رُقَيّة بنتُ عبد شمس بن عبد مناف أمية الشاعر ابن أبي الصلت ، واسم أبي الصلت : ربيعة بن وهْب بن علاج بن أبي سلمة بن ثقيف وقال غيره : كان أبوه من الشعراء المشهورين[٧] بالطائف ، وكان أمية أشعرَهم .

وقال عبد الرزاق : قال الثوري : أخبرني حبيب بن أبي ثابت أن عبد الله بن عمرو قال في قوله تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ هو أمية بن أبي الصلت . وكذا رواه أبو بكر بن مردويه[٨] عن أبي بكر الشافعي ، عن معاذ بن المثنى ، عن مُسدّد ، عن أبي عَوانة ، عن عبد الملك بن عُمير ، عن نافع بن عاصم بن مسعود . قال : إني لفي حلقة[٩] فيها عبد الله بن عمرو ، فقرأ رجلٌ من القوم الآية التي في الأعراف ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾ فقال : هل تدرون من هو ؟ فقال بعضهم : هو صَيْفي بن الراهب . وقال آخر : بل هو بَلْعم رجل من بني إسرائيل . فقال : لا ! قال[١٠] : فمن ؟ قال : هو أمية بن أبي الصلت .

---

(١) قوله : ذكر شيء من ، ليس في ط .

(٢) سقط من . وزاد في ب هنا ، فكان ممن آمن شعره وكفر قلبه كما قاله عنه سيد المرسلين رسول الله ﷺ .

(٣) تاريخ دمشق (٩/ ٢٥٥) .

(٤) في ط: «عوف بن عقدة بن ربيعة» وفي أ: «عقدة بن ربيعة بن عزة». وأثبت الصواب من نسبه. انظر الاشتقاق: (٣٠٤)، وجمهرة ابن حزم: (٢٦٧، ٢٦٩)، ومختصر تاريخ دمشق: (٥/ ٤٢) .

(٥) في مختصر تاريخ دمشق : كان نبياً .

(٦) تفسير الطبري (٩/ ٨٢ ـ ٨٣) .

(٧) الشعر والشعراء (١/ ٤٥٩ و٤٦١) .

(٨) في ب : وقد رواه ابن مردويه .

(٩) في ب : جماعة .

(١٠) في ب : قالوا : والخبر في مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٤٦) .

وهكذا قال أبو صالح : والكَلْبي . وحكاه قَتادة عن بعضهم[١] .

وقال الطبراني[٢] : حدّثنا علي بن عبد العزيز ، حدّثنا عبد الله بن شبيب الربعي ، حدّثنا محمد بن مسلمة بن هشام المخزومي ، حدّثنا إسماعيل بن الطريح بن إسماعيل الثقفي ، حدّثني أبي ، عن أبيه ، عن مروان بن الحكم ، عن معاوية بن أبي سفيان ، عن أبيه ، قال : خرجتُ[٣] وأمية بن أبي الصلت الثقفي تُجّاراً إلى الشام ، فكلّما نزلنا منزلاً أخذ أمية سفراً له يقرؤه علينا ، فكنا كذلك حتى نزلنا قريةً من قرى النصَارى ، فجاؤوه وأهدوا له وأكرموه وذهب معهم إلى بيوتهم ، ثم رجع في وسط النهار ، فطرح ثوبيه وأخذ ثوبين له أسودين ، فلبسهما وقال لي : هل لك يا أبا سفيان في عالِم من عُلماء النصارى إليه يتناهى علمُ الكتاب تسأله ؟ قلت : لا أرَبَ لي فيه ، والله لئن حدَّثني بما أُحِبُّ لا أثِق به ، ولئن حدّثني بما أكره لأَوجلن[٤] منه . قال : فذهب ، وخالفه شيخٌ من النصارى ، فدخل عَليَّ فقال : ما يمنعك أن تذهب إلى هذا الشيخ ؟ قلت : لست على دينه . قال : وإنْ . فإنك تسمع منه عجباً وتراه . ثم قال لي أثقفيٌّ أنت ؟ قلت : لا ، ولكن قُرشي ؟ قال : فما يمنعك من الشيخ ؟ فو الله إنه ليحبُّكم ويوصي بكم . قال : فخرج من عندنا ، ومكث أمية[٥] حتى جاءنا بعد هدْأةٍ[٦] من الليل ، فطرح ثوبيه ، ثم انجدل على فراشه ، فو الله ما نامَ ولا قامَ حتى أصبحَ كئيباً حَزيناً ساقطاً غبوقه على صبوحه[٧] ما يكلّمنا ولا نكلّمه . ثم قال : ألا ترحَلُ ؟ قلت : وهل بكَ مِن رحيل ؟ قال : نعم ، فرحلنا . فسرنا بذلك ليلتين من همه[٨] ثم قال في الليلة الثالثة : ألا تَحدَّثُ يا أبا سفيان ؟ قلت : وهل بك من حديث ؟ والله ما رأيتُ[٩] مثل الذي رجعتَ به من عند صاحبك . قال : أَمَا إنَّ ذلك لشيءٌ لست فيه، إنما ذلك لشيء وجلتُ منه من مُنقلبي . قلت : وهل لك من منقلب ؟ قال : إي والله . لأموتَن ثم لأحيين . قال : قلت : هل أنت قابل أمانتي ؟ قال : على ماذا ؟ قلت : على أنك لا تُبعثُ ولا تحاسَب . قال : فضحك ثمّ قال : بلى ! والله يا أبا سفيان لنُبعثن ثم لنُحاسَبن وليَدخلن فريق الجنة وفريق النار ، قلت : ففي أيهما أنتَ أخبرَكَ صاحبك ؟ قال : لا علم لصاحبي بذلك لافيَّ ولا في نفسه . قال : فكُنا في ذلك ليلتين يعجَبُ مني وأضحك منه ، حتى قدِمنا

---

(١) أورد الطبري في تفسيره معظم الآراء التي قيلت في هذه الآية (٩/ ٨٢ ـ ٨٣) .
(٢) ذكره ابن عساكر عن أبي علي الحداد ، عن أبي نُعيم ، عنه (٩/ ٢٥٧ ـ ٢٦٠) .
(٣) في ط : أنا وأمية .
(٤) في ط : لأجدن . والوجل : الخوف .
(٥) زاد في ط : عندهم .
(٦) بعد هدأة من الليل : أي حين هدأ الليل ، والرِّجْلُ ، والهدْءُ : أول الليل إلى ثلثه .
(٧) الغَبوق : العشي ، وما يشرب فيه . والصبوح : الصباح ، وما يشرب فيه .
(٨) قوله : من همه ، ليس في ب ، وط .
(٩) في ب : منك .

غوطةَ دمشق ، فبعنا متاعنا وأقمنا بها شهرين ، فارتحلنا ، حتى نزلنا قريةً من قرى النصارى ، فلما رأوه جاؤوه وأهدوا له ، وذهب معهم إلى بيعتهم ، فما جاء إلا بعد منتصف النهار ، فلبس ثوبيه وذهب إليهم حتى جاء بعد هدأةٍ من الليل ، فطرح ثوبيه ورمى بنفسه على فراشه ، فوالله ما نام ولا قام ، وأصبح حزيناً كئيباً لا يكلّمنا ولا نُكلّمه . ثم قال : ألا ترحل ؟ قلت : بلى إنْ شئتَ . فرحلنا كذلك من بَثّه[١] وحُزنه ليالي . ثم قال لي : يا أبا سفيان هل لك في المسير ؟ نقدمْ أصحابنا . قلت : هل لي فيه[٢] ؟ قال : نعم! فسرنا حتى برزْنا من أصحابنا ساعةً ، ثم قال : هيا صَخر[٣] . فقلت : ما تشاء ؟ قال : حدّثني عن عُتبة بن ربيعة[٤] أيجتَنِبُ المظالم والمحارمَ ؟ قلتُ : إي والله . قال : ويَصِلُ الرحم ويأمرُ بصلتها ؟ قلتُ : إي والله ! قال : وكريم الطرفين وسيطٌ في العشيرة ؟ قلت : نعم ! قال : تعلم[٥] قرشياً أشرف منه ؟ قلت : لا والله لا أعلم . قال أمحوجٌ هو ؟ قلت : لا ، بل هو ذو مال كثير . قال : وكم أتى عليه من السن[٦] ؟ فقلت : قد زاد على المئة . قال : فالشرفُ والسنُّ والمال أزْرَيْنَ به ؟ قلت : ولم ذاك يُزري به ؟ لا والله بل يزيده خيراً . قال : هو ذاك . هل لك في المبيت ؟ قلت هل لي فيه[٧] ، قال : فاضطجعنا حتى مر الثَّقَل[٨] . قال : فسرنا حتى نزلنا في المنزل وبتنا به ، ثم ارتحلنا[٩] منه . فلما كان الليل قال لي : يا أبا سفيان . قلت : ما تشاء ؟ قال : هل لك في مثل البارحة ؟ قلت : هل لي فيه! قال : فسرنا[١٠] على ناقتين بختيتين حتى إذا برزنا قال : هَيا صَخر ، هيه عن عتبة بن ربيعة ، قال : قلت : هِيْهاً فيه . قال : أيجتنب المحارم والمظالم ، ويصل الرحم ، ويأمرُ بصلتها ؟ قلت : إي والله ، إنه ليفعل . قال : وذو مال ؟ قلت : وذو مال . قال : أتعلم قرشياً أسودَ منه[١١] ؟ قلت : لا والله ما أعلم! قال : كم أتى له من السن ؟ قلت : قد زاد على المئة . قال فإن السن والشرف والمال أزْرَين به ؟ قلت : كلا والله ما أزرى به ذلك ، وأنت قائلٌ شيئاً فقلْه . قال : لا تَذْكُرْ حديثي حتى[١٢] يأتي منه ما هو آت . ثم قال : فإن الذي

---

(١) البث : شدة الحزن .

(٢) في ط : لنتقدم هل لك فيه .

(٣) أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية ، صحابي توفي سنة (٣١هـ) .

(٤) عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، أحد سادة قريش في الجاهلية ، كان خطيباً ، حليماً ذا فضل ، قتل يوم بدر على الشرك .

(٥) في ط : فهل تعلم .

(٦) في ب : أتى له من السنين .

(٧) في ط : قالت لي فيه .

(٨) الثَّقَل : المتاع ، والحشم .

(٩) في ب : رحلنا .

(١٠) في ط : هل لك فيه . قال نعم فسرنا . وفي ب : بخيبتين . والبُخت : نوع من الجِمال .

(١١) أسود : من السيادة .

(١٢) ليست في ط .

رأيتَ أصابني أنّي جئتُ هذا العالم فسألته عن أشياء ، ثم قلتُ : أخبرني عن هذا النبي الذي يُنْتَظَر . قال : هو رجل من العرب . قلت : قد علمتُ أنه من العرب ، فمن أي العرب هو ؟ قال من أهل بيت تحُجه العرب . قلت : وفينا بيتٌ تحجّه العرب . قال : هو من إخوانكم من قريش . فأصابني والله شيء ما أصابني مثله قط[١] ، وخرج من يدي فوزُ الدنيا والآخرة ، وكنتُ أرجو أن أكونَ إياه ، قلت : فإذا كان ما كان فصِفْه لي . قال : رجل شاب حين دَخَل في الكهولة[٢] . بُدُوٌّ أمره يجتنبُ المظالم والمحارم ، ويصل الرحمَ ، ويأمر بصلتها ، وهو محوج كريم الطرفين ، متوسط في العشيرة ، أكثر جنده[٣] الملائكة . قلت : وما آيةُ ذلك ؟ قال : قد رَجَفتِ الشام منذ هلكَ عيسى ابن مريم عليه السلام ثلاثين[٤] رجفةً ، كلها فيها مصيبة ، وبقيتْ رجفةٌ عامة فيها مصائب . قال أبو سفيان : فقلتُ : هذا والله الباطل ، لئن بعثَ اللهُ رسولاً لا يأخذه إلا مُسِنًّا شريفاً . قال أمية : والذي حلفتَ به إن هذا لهكذا يا أبا سفيان ، تقول إن قول النصراني حق . هل لك في المبيت ؟ قلت نعم ، هل لي فيه[٥] . قال : فبتنا حتى جاءنا الثَّقَلُ ، ثم خرجْنا حتى إذا كان بيننا وبين مكة ليلتان[٦] أدرَكَنا راكبٌ من خلفنا ، فسألناه ، فإذا هو يقول : أصابت أهلَ الشام بعدكم رجفةٌ دمَّرت أهلها وأصابتهم فيها مصائب عظيمةٌ . قال أبو سفيان : فأقبل عليَّ أميةُ فقال : كيف ترى قولَ النصراني يا أبا سفيان ؟ قلت أرى والله وأظن[٧] أن ما حدَّثك به صاحبُك حقٌّ . قال أبو سفيان : فقدِمْنا مكةَ ، فقضيتُ ما كان معي ، ثم انطلقتُ حتى جئتُ اليمنَ تاجراً ، فكنت بها خمسةَ أشهر ، ثم قدمتُ مكة ، فبينا أنا في منزلي جاءني الناس يسلّمون[٨] ويسألون عن بضائعهم ، حتى جاءني محمد بن عبد الله وهندٌ عندي تُلاعبُ صبيانها ، فسلّم عليّ ورحَّب بي وسألني عن سَفَري ومُقامي ولم يسألني عن بضاعته ، ثم قام . فقلت لهندٍ : والله إن هذا يعجبني[٩] ، ما مِن أحَد من قريش له معي بضاعة إلا وقد سألني عنها ، وما سألني هذا عن بضاعته . فقالت لي هند : أو ما علمتَ شأنه ؟ قلت وقد فزعت[١٠] : ما شأنه ؟ قالت : يزعم أنه رسول الله . فوَقَذَتْني وذكرتُ[١١] قول النصراني ،

---

(١) في ب قط مثله .

(٢) الكهل : من جاوز الثلاثين أو أربعاً وثلاثين إلى إحدى وخمسين .

(٣) في ط : من الملائكة .

(٤) زيادة من ب . وكذلك في مختصر تاريخ دمشق . وفي ط : ثمانين .

(٥) في ط : قلت نعم لي .

(٦) في ط : مرحلتان ليلتان .

(٧) في ط : أرى وأظن والله .

(٨) في ط ، ومختصر تاريخ دمشق : يسلمون علي .

(٩) في ط : ليعجبني . وفي ب : ما يعجبني أي الذي يعجبني .

(١٠) في ط : فقلت وأنا فزع .

(١١) في ب : وذكرتني . وفي ط : وتذكرت . والوقذ : شدة الضرب .

فوجمت[١] حتى قالت لي هند : مالك ؟ فانتبهتُ ، فقلت : إن هذا لهو الباطل ، لهو أعقل من أن يقول هذا . قالت : بلى والله إنه ليقول ذلك ويؤاتى عليه ، وإن له صحابة[٢] على دينه . قلت : هذا[٣] الباطل . قال : وخرجتُ . فبينا أنا أطوف بالبيت لقيته[٤] فقلت له : إن بضاعتك قد بلغتْ كذا وكذا ، وكان فيها خيرٌ فأرسِلْ فخذها[٥] ، ولست آخُذُ مِنكَ فيها ما آخُذُ من قومي ، فأبَى عليَّ ، وقال : إذن لا آخذُها . قلت : فأرسل فخذْها وأنا آخذ منك مثلَ ما آخذُ من قومي . فأرسَلَ إلى بضاعته فأخذها ، وأخذتُ منه ما كنتُ آخذ من غيره . فلم أَنْشَبْ[٦] أن خرجتُ إلى اليمن ، ثم قدمتُ الطائفَ فنزلتُ على أميةَ بن أبي الصلت فقلت : يا أبا عثمان ، قال : ما تشاء ؟ قلت : هل[٧] تذكر قول النصراني ؟ فقال : أذكره قلت : فقد كان . فقال : ومن ؟ قلت : محمد بن عبد الله . قال ابن عبد المطلب ؟ قلت : ابن عبد المطلب . ثم قصصْتُ عليه خبرَ هند ، قال : فالله يعلم ، لَتَصَبَّبَ[٨] عرقاً . ثم قال : والله يا أبا سفيان لَعَلَّهُ ! إنَّ صفته لهي ، ولئن ظهر وأنا حَيٌّ لأنيلنَّ[٩] من الله عزّ وجل في نصره عُذراً . قال : ومضيتُ إلى اليمن فلم أَنْشَب أن جاءني هنالك استهلاله ، فأقبلتُ حتى نزلتُ على أمية بن أبي الصلت بالطائف ، فقلت : يا أبا عثمان ! قد كان من أمر الرجل ما قد بلغَكَ وسمعت . قال[١٠] : قد كان لَعَمْري . قلت : فأين أنت منه يا أبا عثمان ؟ فقال : والله ما كنتُ لأومن برسولٍ من غير ثقيف أبداً . قال أبو سفيان : وأقبلتُ إلى مكةَ ، فوالله ما أنا ببعيد حتى جئتُ مكةَ فوجدتُ أصحابه يُضْرَبون ويُعْقَرون ، قال أبو سفيان : فجعلتُ أقول : فأين جُنْدُه من الملائكة ؟! قال : فدخلني ما يدخلُ الناس من النفاسة[١١] .

وقد رواه الحافظ البيهقي في كتاب « الدلائل »[١٢] من حديث إسماعيل بن طريح به ، ولكن سياق الطبراني الذي أوردناه أتم وأطول . والله أعلم .

---

(١) في ط : فرجفت .

(٢) في ط : ليقولن ذلك ويدعوا إليه وإن له لصحابة . والمؤاتاة : حُسن المطاوعة .

(٣) في ط : هذا هو الباطل .

(٤) في ط : إذ بي قد لقيته .

(٥) في ط : من يأخذها .

(٦) في ط : قال أبو سفيان : فلم أنشب . ولم ينشب : أي ما لَبِث .

(٧) في ط : . . الصلت فقال لي يا أبا سفيان ما تشاء هل . . . وكذلك ثمة خلاف في ألفاظ : قال وقلت بين المطبوع ، وأ ، وب . لن أشير إليها .

(٨) في ط : وأخذ يتصبب .

(٩) في ط : لأطلبن . وائتلى : إذا اجتهد ، أو قصّر ، من الأضداد .

(١٠) في ط : وسمعته فقال .

(١١) النفاسة : الحسد . والخبر في مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٤٣ ـ ٤٦) ، والأغاني (٤/ ١٢٣) .

(١٢) في ب : كتابه دلائل النبوة ، وهو فيه (٢/ ١١٦ ـ ١١٧) .

وقال الطبراني : حدّثنا بكر بن أحمد بن نُفَيل ، حدثنا عبد الله بن شبيب ، حدثنا يعقوب بن محمد الزُّهْري ، حدثنا مجاشع بن عمرو الأسدي ، حدثنا ليث بن سعد ، عن أبي الأسود محمد بن عبد الرحمن[١] ، عن عروة بن الزبير ، عن معاوية بن أبي سفيان ، عن أبي سفيان بن حَرب أن أمية بن أبي الصلت كان بغزةَ أو بإيلياء ، فلما قفلنا قال لي أمية : يا أبا سفيان هل لك أن تتقدم على الرفْقة فنتحدث ؟ قلت : نعم ! قال : ففعلنا ، فقال لي : يا أباسفيان إيهِ عن عتبة بن ربيعة . قلت : كريمُ الطرفين ، ويجتنب المحارم والمظالم ؟ . قلت : نعم . قال : وشريفٌ مُسِنٌّ ؟ . قلت : وشريف مسن . قال : السن والشرف أزْرَيا به ؟ فقلت له : كذبتَ ، ما ازداد سناً إلا ازداد شرفاً . قال : يا أبا سفيان إنها كلمةٌ ما سمعتُ أحداً يقولها لي منذ تبصرت ، فلا تعجل عليَّ حتى أُخبرَك . قال : قلت : هات . قال : إني كنت أجد في كتبي نبياً يُبعث من حَرَّتنا[٢] هذه ، فكنتُ أظن ، بل كنتُ لا أشك أني أنا هو ، فلما دارَسْتُ أهل العلم إذا هو من بني عبد مناف ، فنظرتُ في بني عبد مناف فلم أجد أحداً يصلح لهذا الأمر غيرَ عُتبة بن ربيعة ، فلما أخبرتني بسنّه عرفتُ أنه ليس به حين جاوز الأربعين ولم يُوْحَ إليه . قال أبو سفيان : فضرب الدهر من[٣] ضَرْبه ، فأُوحي إلى رسول الله ﷺ ، وخرجت في ركْبٍ من قريش أريد اليمن في تجارة ، فمررتُ بأمية ، فقلتُ له كالمستهزِىء به : يا أمية ، قد خرج النبي الذي كنتَ تنعته . قال : إنه[٤] حقٌّ فاتَّبِعْهُ . قلت : ما يمنعك من اتباعه ؟ قال : ما يمنعني إلاّ الاستحياء من نسيّات[٥] ثقيف ، إني كنتُ أحدّثهن أني هو ، ثم يَرَيْنني تابعاً لغلام من بني عبد مناف ! ثم قال أمية : كأني بك يا أبا سفيان إن[٦] خالفتَه ، ثم قد رُبطت كما يربط الجدي حتى يؤتى بك إليه فيحكم فيك بما يريد .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا مَعْمَر عن الكلبي قال : بينا أمية راقدٌ ومعه ابنتان له إذ فزِعت إحداهما ، فصاحت عليه ، فقال لها : ما شأنك ؟ قالت : رأيت نَسْرين كَشَطا سقفَ البيت ، فنزل أحدهما إليك فشقَّ بطنك ، والآخر واقفٌ على ظهر البيت ، فناداه فقال : أَوَعَى ؟ قال : نعم . قال : أزَكَا ؟ قال[٧] :

---

(١) في أ : أبي الأسود بن محمد بن عبد الرحمن . وهو سهو ، فأبو الأسود هو محمد بن عبد الرحمن بن نوفل الأسدي ، ثقة . توفي سنة بضع وثلاثين ومئة . تقريب التهذيب (٢/ ١٨٥) .

(٢) الحَرَّة : الأرض ذات الحجارة السود .

(٣) ليست في ط .

(٤) في ط : أنا إنه .

(٥) في ط : نساء .

(٦) في ط : قد .

(٧) كذا في ط . ومختصر تاريخ دمشق . وهي أوضح العبارات . وفي أ : أوعى؟ قال : وعى . قال : أرجا قال لا . وفي ب مثل ما في ط ، وفيهما : قال : أرجا . وقوله : زكا ، يعني الشفع ، ويروى الخبر ، قال : زكا؟ قال : خسا . وخسا : هو الفرد ، يقال : زكا ـ خسا أي أزوج أم فرد؟ قال الشيخ محمود شاكر في تحقيقه لطبقات =

لا . فقال : ذاك خيرٌ أريد بأبيكما فلم يقبلْه[١] .

وقد رُوي من وجه آخر ، بسياق آخر ، فقال إسحاق بن بشر ، عن محمد بن إسحاق ، عن الزهري ، عن سعيد بن المسيّب وعثمان بن عبد الرحمن ، عن الزهري ، عن سعيد بن المسيِّب قال : قدمَتِ الفارعة أختُ أمية بن أبي الصلت على رسول الله ﷺ بعد فتح مكة[٢] ، وكانت ذاتَ لُبٍّ وعَقْل وجمال ، وكان رسول الله ﷺ بها معجَباً ، فقال لها ذات يوم : يا فارعة هل تحفظين من شعر أخيك شيئاً ؟ فقالت : نعم ، وأعجبُ منه[٣] ما قد رأيتُ ، قالت : كان أخي في السفر ، فلما انصرفَ بدأني[٤] فدخل عليَّ ، فرقدَ على السرير وأنا أحلق أديماً في يدي ، إذ أقبل طائران أبيضان ، أو كالطيرين أبيضين ، فوقع على الكوّة أحدُهما ، ودخل الآخر فوقع عليه ، فشقَّ الواقعُ عليه ما بينَ قَصّه[٥] إلى عانته ، ثم أدخل يده في جوفه فأخرج قلبه ، فوضعه في كفه ، ثم شمه ، فقال له الطائر الآخر : أوَعَى ؟ قال : وعى . قال : أزكا ؟ قال أبى ، ثم ردَّ القلبَ إلى مكانه فالتأم الجرحُ أسرعَ من طَرفة عين ، ثم ذهبا ، فلما رأيتُ ذلك دنوتُ منه فحركْته فقلتُ : هل تجدُ شيئاً . قال : لا ، إلا توهيناً في جَسَدي ـ وقد كنت ارتعبتُ مما رأيتُ ـ فقال : ما لي أراك مرتاعة ؟ قالت : فأخبرتُه الخبرَ . فقال : خيرٌ أُريد بي ثم صُرِف عني . ثم أنشأ يقول : [من المنسرح]

باتت همومي تَسْرِي طوارِقُها ... أَكُـفُّ عينـي والـدمْـعُ سـابقُهـا
ممـا أتـانـي مـن اليقيـنِ ولـم ... أُوْتَ بَـراةً يَقُـصُّ نـاطِقُهـا[٦]
أَمْ مَـنْ تَلَظَّـى واقِـدَةُ النـ ... ـارِ مُحِيْـطٌ بهـمْ سُـرَادِقُهـا[٧]
أمْ أُسْكِنَ الجنَّةَ التي وُعِد الأبـ ... ـرارُ مَصْفُـوفـةٌ نمـارِقُهـا
لا يَسْتَوي المنزلانِ ثَمّ ولا الأعـ ... ـمـالُ لا تَسْتَـوي طَـرَائقُهـا
هُما فريقان فِرْقةٌ تَدْخُلُ الجـ ... ـنَّـةَ حَفَّـتْ بهـم حَـدائِقُهـا

= ابن سلام (٢٦٦) : وأراد به في هذا الخبر : أوعى فقبِلَ ؟ فهذان زوج ، الوعي والقبول معاً . أم وعى ولم يقبل ، فهذا فرد في الوعي وحده دون القبول .

(١) في ط : يفعله . والخبر في مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٤٦) .
(٢) في الإصابة : الطائف .
(٣) في ب ، وط : من ذلك .
(٤) في ب ، ومختصر تاريخ دمشق : بدأ بي . وفي ط : على سريري .
(٥) القَصُّ : الصدر ، أو رأسه ، أو وسطه ، أو عظمه .
(٦) اليقين : أراد به العلم بالبعث والحساب ، وهو شيء مؤكد . والبراة : أراد بها البراءة ، أي لم يُعط براءة تخفف من همه ، لأنه واحد من الناس ، وعليه ما عليهم يوم الحساب .
(٧) السرادق : ما أحاط بالبناء ونحوه . وخبر (من) محذوف ، والتقدير : أمّن يحترق بالنار ويحيط به العذاب كمن يسكن الجنة .

وفـرقـةٌ منهـمُ قـدِ ادخِلـتِ النَّـ ـــارَ فســاءتْهــمُ مَــرافقهــا
تعــاهــدتْ هــذه القلــوبُ إذا هَمَّـتْ بخيـرٍ عـاقَـتْ عَـوائقُهـا
وصَـدَّهـا للشقـاءِ عَـن طلَـبِ الـ ـجَنَّـــةِ دُنْيـــا ألله مـــاحِقُهـــا
عبـــدٌ دَعـــا نَفسَـــه فعـــاتَبَهـــا يَعْلَـــمُ أنَّ البصيـــرَ رامِقُهـــا
مـا رغبـة النفس فـي الحيـاةِ وإن تَحيـا قليـلاً فـالمـوتُ لاحِقهـا[1]
يــوشِــك مَــنْ فــرَّ مــن منيّتــه يــومــاً علــى غِــرّةٍ يُــوافقهــا
إنْ لـم تَمُـتْ عَبْطـةً تَمُـتْ هَـرَمـاً لِلمـوتِ كـأسٌ والمـرْءُ ذائِقهـا[2]

قال[3] : ثم انصرف إلى رحله ، فلم يلبث إلا يسيراً حتى طعن في حيارته[4] فأتاني الخبر ، فانصرفتُ إليه ، فوجدتُه منعوشاً[5] قد سُجّي عليه ، فدنوتُ منه ، فشهق شهقةً ، وشقّ[6] بصره ، ونظر نحوَ السقفِ ورفع صوتَه ، وقال : [من الرجز]

لبَّيكمـــا لبَّيكمـــا هـــا أنـــذا لـــديكمـــا

لا ذو مال فيفديني ، ولا ذو أهل فتحميني . ثم أُغمي عليه ، إذ شهق شهقةً فقلت : قد هلك الرجلُ . فشقَّ بصره نحو السقف فرفع صوته ، فقال : [من الرجز]

لبيكمـــا لبيكمـــا هـــا أنـــا ذا لـــديكمـــا

لا ذو براءة فأعتذر ، ولا ذو عشيرة فأنتصر . ثم أغمي عليه ، إذ شهق شهقةً وشق بصره ، ونظر نحو السقف ، فقال : [من الرجز]

لبيكمـــا لبيكمـــا هـــا أنـــا ذا لـــديكمـــا

بالنعم محفود ، وبالذنب محصود ، ثم أغمي عليه إذ شهق شهقة . فقال : [من الرجز]

لبيكمـــا لبيكمـــا هـــا أنـــا ذا لـــديكمـــا
إنْ تغفرِ اللهُمَّ تَغْفِرْ جَمّا وأيُّ عبدٍ لكَ لا أَلَمَّا[7]

---

(١) في ط : ما رغّب .
(٢) في ط الأصول : غبطة . ولا وجه لها . وأثبت ما في ديوانه . ومات عبطة : شاباً . والأبيات في ديوان أمية : (٤١٩) ، وتخريجها فيه .
(٣) في ب : قالت .
(٤) في ط : حيارته . وفي مختصر تاريخ دمشق : طعن في جنازته . ولا يستقيم بها المعنى . والحيار : الأثر .
(٥) النعش : السرير يحمل عليه الملك إذا مرض .
(٦) شق بصر الميت : انفتحت عيناه وشخص كأنه ينظر إلى شيء ، لا يرتد إليه طرفه .
(٧) ديوانه (٤٩١) . وألم الرجل : وقع في اللمم ، وهو صغار الذنوب .

ثم أغمي عليه إذ شهق شهقة فقال : [من الخفيف]

كـلُّ عيشٍ وإن تطاولَ دهـراً صـائـرٌ مـرَّةً إلـى أن يَـزُولا
ليتنـي كنـتُ قبلَ مـا قـدْ بـدالـي في قِلالِ الجبالِ أرْعَى الوعولا[1]

قالت : ثم مات . فقال رسول الله ﷺ : « يا فارعةُ فإن مَثَلَ أخيك كَمَثَلِ الذي آتاه الله آياته ﴿ فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾[2] الآية .

وقد تكلّم الخطابي على غريب هذا الحديث .

وروى الحافظ ابن عساكر عن الزهري أنه قال : قال أمية بن أبي الصلت : [من البسيط]

أَلا رسـولٌ لنـا منّـا يخبّـرنـا ما بُعْدُ غايتِنا منْ رأسِ مُجْرانا[3]

قال : ثم خرج أميةُ بن أبي الصلت إلى البحرين ، وتَنبَّأ رسول الله ﷺ ، وأقام أمية بالبحرين ثماني سنين ، ثم قدم الطائف فقال لهم : ما يقولُ محمد بن عبد الله ؟ قالوا : يزعم أنه نبيٌّ ، هو[4] الذي كنتَ تتمنى . قال : فخرجَ حتى قدم عليه مكة ، فلقيه . فقال : يا ابن عبد المطلب ، ما هذا الذي تقول ؟ قال : أقول : إني رسول الله ، وأن لا إلّه إلا هو . قال : إني أريدُ أن أكلمك ، فعِدْني غداً . قال : فموعدُك غداً . قال : فتحِبُّ أن آتيكَ وحْدي أو في جماعةٍ من أصحابي ، وتأتيني وحدَك أو في جماعةٍ من أصحابك ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أيّ ذلك شئتَ » . قال : فإني آتيكَ في جماعة ، فأْتِ في جماعة . قال : فلما كان الغدُ غدا أمية في جماعةٍ من قريش ، قال : وغدا رسول الله ﷺ معه نفر من أصحابه حتى جلسوا في ظل الكَعْبة . قال : فبدأ أميةُ فخطبَ ، ثم سجع ، ثم أنشدَ الشعر ، حتى إذا فرغ[5] قال : أجبني يا ابنَ عبد المطلب . فقال رسول الله ﷺ : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . يس . والقرآن الحكيم ﴾ حتى إذا فرغ منها وثَبَ أميةُ يجرُّ رجلَيه ، قال : فتبعتْه قريشٌ يقولونَ : ما تقول يا أمية ؟ قال : أشهد أنه على الحق . فقالوا : هل تتّبعُه ؟ قال : حتى أنظرَ في أمره . قال : ثم خرج أمية إلى الشام ، وقدم رسولُ الله ﷺ المدينة ، فلما قُتِلَ أهلُ بدرٍ قدِمَ[6] أميةُ من الشام حتى نزلَ بدراً ، ثم ترحَّل يريدُ رسولَ الله ﷺ فقال قائل : يا أبا الصلت ما تريدُ ؟ قال : أريدُ محمداً . قال : وما تصنعُ ؟ قال : أومنُ به وأُلقي إليه

---

(١) ديوانه (٤٥٠ ـ ٤٥١) . والقلال : جمع قُلّة ، وهي أعلى الجبل .
(٢) الخبر في مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٥٠ ـ ٥٢) . وطبقات فحول الشعراء (٢٦٥ ـ ٢٦٧) ، والأغاني (٤/ ١٣١ ـ ١٣٢) ، والإصابة (٤/ ٣٧٥) .
(٣) ديوان أمية : (٥١٧) .
(٤) في ب ، ومختصر تاريخ دمشق : فهو .
(٥) في ط : فرغ الشعر .
(٦) في ب ، وابن عساكر : أقبل .

مقاليدَ هذا الأمر . قال : أتدري مَنْ في القليب ؟ قال : لا . قال : فيه عُتبة بن ربيعة ، وشَيبة بن ربيعة ، وهما ابنا خالك ـ وأمه رُقية[١] بنتُ عبد شمس ـ قال : فَجَذَعَ أذني ناقته ، وقطع ذنبَها ، ثم وقفَ على القليب يقول : [من مجزوء الكامل]

مـــا ذا ببَـــدرٍ فـــالعَقَنْـ ـقَلِ مِن مرازبةٍ جَحاجِحِ[٢]

القصيدة إلى آخرها ، كما سيأتي ذكرها بتمامها في قصّة بدر إن شاء الله . ثمّ رجع إلى مكة والطائف ، وترك الإسلام[٣] .

ثمّ ذكر قصّة الطيرين ، وقصّة وفاته كما تقدم .

وأنشدَ شعرَه عند الوفاة : [من الخفيف]

كـلُّ عيـشٍ وإن تَطـاولَ دَهْـراً صـائـرٌ مـرةً إلـى أنْ يـزولا
ليتنـي كُنْـتُ قبـلَ مـا قـد بـدا لـي فـي قِـلالِ الجبـالِ أرعَـى الـوُعُـولا
فاجْعلِ الموتَ نُصْبَ عَينيكَ واحْذَرْ غَـوْلَـةَ الـدهْـرِ إنّ للـدهْـرِ غُـوْلا[٤]
نـائـلاً ظُفْـرُهـا القَسَـاورَ والصِّـدْ عَان والطِّفْلَ في المنار الشَّكِيلا[٥]
وبُغَـاثَ النِّيـافِ واليَعْفُـرَ النـا فِـرَ والعَـوْهَـجَ البُـرامَ الضَّئِيـلا[٦]

فقوله : القساور : جمع قَسْورة ، وهو الأسد . والصِّدْعان : ثيران الوحش ، واحدها صَدْع ، والطّفل : الشكل من حمرة العين . والبغاث : الرخم . والنياف : الجبال . واليَعْفُر : الظبي . والعوهج : ولد النعامة . يعني أن الموت لا ينجو منه الوحوش في البراري ، ولا الرخم الساكن في رؤوس الجبال ، ولا يترك صغيراً لصغره ولا كبيراً لكبره .

وقد تكلّم الخطابي وغيرُه على غريب هذه الأحاديث .

---

(١) كذا في ب : وهو معروف . وفي أ ، ط : ربيعة .

(٢) ديوانه (٣٤٦) . والعقنقل : كثيب رمل ببدر . والمرازبة : جمع مرزبان ، وهو الفارس الشجاع (فارسية) . والجحاجح : جمع جحجاح ، وهو السيد الكريم .

(٣) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٥٢ ـ ٥٣) .

(٤) الغَوْلة : المَرَّةُ من غاله الشيء غَوْلاً إذا أهلكه . والغُول : المنية وكل ما أهلك الإنسان .

(٥) في الديوان : في القفار الشكيلا . وقال محققه في رواية المتن المنار : لا يستقيم معناه بهذه الرواية ، ولهذا اجتهدت أن أقرأه (والطفل في القفار الشكيلا) لأن الطفل في اللغة : النار ، أو ولد كل وحشيّةٍ . والمنار : موضع النور . وطبيعة الأبيات لا تساعد على هذا المعنى .

(٦) ديوان أمية (٤٥١ ـ ٤٥٢) . والبرام : القُراد ، وهو دويبة تعلق بالبعير ونحوه .

وقد ذكر السهيلي في كتابه « التعريف والإعلام »[١] : أن أمية بن أبي الصلت أول من قال : باسمك اللهم[٢] ، وذكر عند ذلك قصة غريبة ، وهو أنهم خرجوا في جماعة من قريش في سَفْرٍ فيهم حرب بن أمية والد أبي سفيان ، قال : فمرّوا في مسيرهم بحيَّة فقتلوها ، فلما أمسوا جاءتهم امرأة من الجان فعاتبتهم في قتل تلك الحية ، ومعها قضيبٌ ، فضربت به الأرضَ ضربةً نفرت الإبل عن آخرها ، فذهبت وشردت كل مذهب ، وقاموا فلم يزالوا في طلبها حتى ردّوها ، فلما اجتمعوا جاءتهم أيضاً فضربت الأرضَ بقضيبها ، فنفرت الإبل ، فذهبوا في طلبها حتى ردوها[٣] ، فلما أعياهم ذلك قالوا : والله هل عندكَ لما نحن فيه من مخرج ؟ فقال : لا والله ، ولكن سأنظر في ذلك . قال فسار[٤] في تلك المحلّة لعلّه يجد أحداً يسأله عما قد حلّ بهم من العَناء ، إذا نارٌ تلوح على بعد ، فجاءها ، فإذا شيخٌ على باب خيمة يوقد ناراً ، وإذا هو من الجان ، في غاية الضآلة والدَّمَامة ، فسلّم عليه ، فسأله عما هم فيه ، فقال : إذا جاءتكم فَقُلْ : باسمك اللهم ، فإنها تهربُ ، فلما اجتمعوا وجاءتهم الثالثة أو الرابعة قال في وجهها أمية : باسمك اللهم ، فشردت ولم يقرّ لها قرار ، لكن عَدَت الجِنُّ على حَرب بن أمية فقتلوه بتلك الحية ، فقبره[٥] أصحابه هنالك حيث لا جار ولا دار ، ففي ذلك يقول الجان : [من الرجز]

وقبـرُ حـربٍ بمكـانٍ قفْـرُ ... ولَيْس قُربَ قبرِ حَربٍ قبرُ[٦]

وذكر بعضهم : أنه كان يَتَفَرَّسُ في بعض الأحيان في لغات[٧] الحيوانات ، فكان يمر في السفر على الطير فيقول لأصحابه : إن هذا يقول كذا وكذا ، فيقولون : لا نعلم صدقَ ما يقول . حتى مرّوا على قطيع غنم قد انقطعتْ منه شاةٌ ومعها ولدها ، فالتفتتْ إليه فَثَغَتْ[٨] كأنها تستحثه . فقال : أتدرون ما تقول له ؟ قالوا : لا . قال : إنها تقول : أسرعْ بنا لا يجيء الذئبُ فيأكلك كما أكل الذئب أخاك عام[٩] أول ، فأسرعوا حتى سألوا الراعي : هل أكل الذئب عام أول حَمَلاً بتلك البقعة ؟ فقال : نعم[١٠] .

---

(١) التعريف والإعلام بما أُبهم في القرآن من الأسماء والأعلام ، طبع في مصر (١٣٥٦هـ-١٩٣٨م) .
(٢) الأغاني (٤/ ١٢٣) .
(٣) قوله : حتى ردوها ليس في ب ، ط .
(٤) في ط : فساروا وكذلك باقي الخبر ورد في ط بصيغة الجماعة .
(٥) في ط : قبره .
(٦) الخبر في الأغاني (٤/ ١٢٥ ـ ١٢٧) . والبيت من شواهد البلاغيين على تنافر الكلمات . البيان والتبيين للجاحظ (١/ ٦٥) ، ودلائل الإعجاز (٤٧) . (تح . د . الداية) .
(٧) في ب : كلام .
(٨) الثغاء : صوت الغنم .
(٩) في ب : كما أكل أخاك في .
(١٠) الأغاني (٤/ ١٢٤) ، ومختصر تاريخ دمشق (٥/ ٤٨) .

قال : ومرَّ يوماً على بعير عليه امرأة راكبة وهو يرفع رأسه إليها ويرغُو . فقال : إنه يقول لها : إنك رحلتني وفي الحِدَاجَة مَخيط . فأنزَلوا تلك المرأةَ وحلوا ذلك الرحْل فإذا فيه مخيط كما قال[١] .

وذكر ابن السكّيت : أن أمية بن أبي الصلت بينما هو يَشْرَب يوماً إذ نَعَبَ غُرابٌ . فقال له : بفيك التراب ، مرتين . فقيل له : ما يقول ؟ فقال : إنه يقول : إنك تشربُ هذا الكأسَ الذي في يدك ثم تتكىء[٢] تموت . ثم نعب الغراب فقال : إنه يقول : وآيةُ ذلك أني أنزل على هذه المزبلة فآكل منها فيعلقُ عظم في حلقي فأموت . ثم نزل الغرابُ على تلك المزبلة ، فأكل شيئاً ، فعلق في حلقه عظمٌ ، فمات . فقال أمية : أما هذا فقد صدق في نفسه ، ولكن سأنظر هل صدقَ فيَّ أم لا . ثم شرب ذلك الكأس الذي في يده ، ثم اتّكأ فمات[٣] .

وقد ثبت في الصحيح من حديث ابن مهدي ، عن الثوري ، عن عبد الملك بن عمير ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أصْدَقَ كلمة قالَها شاعرٌ كلمة لبيد : [من الطويل]

ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطلُ

وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم »[٤] .

فقال الإمام أحمد[٥] : حدّثنا رَوْح ، حدّثنا زكريا بن إسحاق ، حدّثنا إبراهيم بن ميسرة أنه سمع عمرو بن الشريد يقول : قال الشريد : كنت رِدْفاً لرسول الله ﷺ فقال لي : « أمَعَكَ مِن شِعْر أمية بن أبي الصلت شَيءٌ » ؟ قلت : نعم ! قال : « فأنشِدْني » . فأنشدتُه بيتاً ، فلم يزل يقول لي كلما أنشدته بيتاً : « إيهِ » حتى أنشدته مئة بيت . قال : ثمّ سكتَ النبي ﷺ وسكتُّ .

وهكذا رواه مسلم من حديث سُفيان بن عُيينة عن إبراهيم[٦] بن ميسرة ، به .

ومن غير وجهٍ عن عمرو بن الشريد عن أبيه الشريد بن سويد الثقفي عن النبي ﷺ[٧] .

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٤٨ ـ ٤٩) . والحداجة : مركب للنساء .

(٢) قوله : تتكىء ، زيادة من ب ، وابن عساكر توافق سياق الكلام .

(٣) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٥٢) .

(٤) أخرجه البخاري رقم (٦١٤٧) في الأدب ، باب ما يجوز من الشعر والرجز ، ومسلم (٢٢٥٦) ، في الشعر ، وابن ماجه (٣٧٥٧) في الأدب ، باب الشعر .

(٥) المسند (٤/ ٣٨٩) .

(٦) في ط : أبي تميم بن مسرة . وإبراهيم بن ميسرة الطائفي فقيه ، ثقة . توفي قريباً من سنة (١٣٢هـ) . ترجمته في سير أعلام النبلاء (٦/ ١٢٣) .
والحديث في صحيح مسلم (٢٢٥٥) ، في أول كتاب الشعر .

(٧) زاد في ب : بنحوه .

وفي بعض الروايات : فقال رسول الله ﷺ : « إنْ كاد لَيُسْلم » .

وقال يحيى بن محمد بن صاعد : حدّثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري ، حدّثنا أبو أسامة ، حدّثنا حاتم بن أبي صَغيرة[١] ، عن سماك بن حرب ، عن عمرو بن نافع ، عن الشريد الهمْداني وأخواله ثقيف قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ في حجّة الوداع ، فبينا أنا أمشي ذات يوم إذا وَقْعُ ناقةٍ خلفي فالتفت[٢] فإذا رسول الله ﷺ فقال : « الشريد » ؟ فقلت : نعم . قال : « ألا أحملك » ؟ قلت : بلى ، وما من إعياءٍ[٣] ولكني أردت البركة في ركوبي مع رسول الله ﷺ فأناخ ، فحملني ، فقال : « أمعكَ من شِعر أمية بن أبي الصَّلْت » ؟ قلت : نعم ! قال : « هاتِ » . فأنشدتُه . قال : أظنه قال : مئة بيت ، فقال : « عند الله عِلْم أمية بن أبي الصلت »[٤] . ثم قال ابنُ صاعد : هذا حديث غريبٌ .

فأما الذي يُروى أن رسول الله ﷺ قال في أمية : « آمنَ شعرُه وكَفَرَ قلبُه » ، فلا أعرفه[٥] . والله أعلم .

وقال الإمام أحمد[٦] : حدثنا عبد الله بن محمد ـ وهو أبو بكر بن أبي شيبة ـ حدثنا عبدة بن سليمان ، عن محمد بن إسحاق ، عن يعقوب بن عتبة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ صدَّق أمية في شيء من شِعره قال : [من الطويل]

رجـلٌ وثـورٌ تحـتَ رِجـل يَمينـه ... والنَّسْر للأُخْرى ولَيْثٌ مُرْصِد[٧]

[فقال رسول الله ﷺ : صدق ، وقال][٨] [من الكامل]

والشمـسُ تَبـدو كُـلَّ آخـرِ ليلـةٍ ... حَمْـراءَ يُصبـحُ لـونُهـا يتـورّد

تأبى فما تَطلُعُ لنا في رِسْلها ... إلا مُعَـذّبـةٌ وإلاّ تُجْلَـدُ[٩]

فقال رسول الله ﷺ : « صدَق » .

---

(١) في ط : صفرة وفيه تحريف . وحاتم بن أبي صغيرة أبو يونس البصري ، ثقة ، من الطبقة السادسة . تقريب التهذيب (١/ ١٣٧) .
(٢) زيادة في ب .
(٣) في ب : وما بي من إعياء ولا لغوب .
(٤) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٤٧) .
(٥) أورده السيوطي في الجامع الصغير (١/ ٧) ، وضعّفه . وهو في الأغاني (٤/ ١٣٠) ، ومختصر تاريخ دمشق (٥/ ٤٨) .
(٦) المسند (١/ ٢٥٦) .
(٧) المرصد : المترقب المتهيىء للوثوب .
(٨) من ب ، وهي في المسند الذي ينقل منه .
(٩) الرِّسْل : الرفق وعدم العنف . والأبيات في ديوان أمية (٣٦٥ ـ ٣٦٦)، والحديث في مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٤٧).

وفي رواية أبي بكر الهذلي ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه قال : إن الشمس لا تطلع حتى يَنْخَسَها[١] سبعونَ ألف مَلك يقولون لها : اطلعي اطلعي ، فتقول : لا أطلع على قوم يعبدونني من دون الله . فإذا همّت بالطلوع أتاها شيطانٌ يريد أن يُثبّطها ، فتطلع بين قرنيه وتحرقه . فإذا تضيَّفت للغروب عزمت على السجود[٢] لله عز وجل فيأتيها شيطان يريد أن يثبطها عن السجود ، فتغرب من قرنيه وتحرقه . أورده ابن عساكر مطولاً[٣] .

ومن شعره في حَمَلَة العرش : [من الطويل]

فمن حاملٍ إحدى قوائمِ عرشِه ... ولـولا إلَـهُ الخلـقِ كَلُّـوا وبلَّـدوا[٤]
قيـامٌ علـى الأقـدامِ عـانـونَ تحتـه ... فرائصُهم من شدّة الخوف ترعد[٥]

رواه ابن عساكر ، وروي عن الأصمعي أنه كان ينشد من شعر أمية : [من الخفيف]

مجِّـدوا اللهَ فهـو للمجْـدِ أهْـلُ ... رَبُّنـا فـي السمـاء أمسـى كَبيـرا
بـالبنـاءِ الأعلـى الـذي سَبَـقَ النَّـ ... ـاسَ وسَـوَّى فَـوْق السَّمـاءِ سَرِيـرا
شَـرْجَعـاً لا ينـالـهُ بَصَـرُ العَيْـ ... ـنِ تَـرَى دُوْنـه المـلائِكَ صُـورا[٦]

ثم يقول الأصمعي : الملائك : جمع ملك ، والصور : جمع أصور ، وهو المائل العنق ، وهؤلاء حَملة العرش . ومن شعر أمية بن أبي الصلت يمدح عبد الله بن جُدْعان التيمي[٧] : [من الوافر]

أأذكـرُ حَـاجتـي أمْ قَـدْ كفـانـي ... حَيَـاؤُكَ إنَّ شيْمَتَـك الحيـاءُ
وعِلمُـك بـالحقـوقِ وأنْـتَ فَـرْعٌ ... لَـكَ الحسَـب المهـذّبُ والسنـاء
كـريـمٌ لا يغيّـره صَبـاح ... عـن الخُلُـق الجزيـل ولا مَسـاء[٨]
يبـاري الـريـحَ مَكْـرُمـةً وجُـوداً ... إذا مـا الكَلْـبُ أجحَـره الشتـاء
وأرضُـك أرضُ مَكـرمـةٍ بَنَتْهـا ... بنـو تَيْـمٍ وأنـتَ لهـا سمـاء

---

(١) ينخسها : يقال : نخس الدابة ، غرز مؤخّرها أو جنبها بعود ونحوه .
(٢) زيادة من ب .
(٣) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٤٨) .
(٤) في ط : وأبلدوا . وكذلك في ديوانه .
(٥) العاني : الأسير . والبيتان في ديوان أمية (٣٦٨ ـ ٣٦٩) .
(٦) في ط : شرجعاً يناله ، ولا يستقيم الوزن بذلك . والأبيات في ديوانه (٣٩٩ ـ ٤٠٠) . وهي من الشعر المتهم والشرجع : العالي المنيف .
(٧) في ب : ومن شعره يمدح ابن جدعان .
(٨) في ب ، ط : الجميل .

إذا أثنى عليك المرءُ يوماً ... كَفَاه من تَعرُّضِه الثَّناءُ[١]

وله فيه مدائح أُخَر .

وقد كان عبد الله بن جُدعان[٢] هذا من الكُرماء الأجواد الممَدَّحين المشهورين ، وكان له جَفنة يأكل الراكب منها وهو على بَعيره من عرض حافتها وكثرة طعامها ، وكان يملؤها لُباب البُرّ يُلْبَك بالشهد والسمن ، وكان يعتق الرقاب ، ويُعين على النوائب . وقد سألت عائشةُ النبي ﷺ : أينفعُه ذلك ؟ فقال : « إنه لم يقل يوماً من الدهر[٣] : ربّ اغفرْ لي خَطيئتي يومَ الدينِ »[٤] .

ومن شعر أمية البديع : [من الكامل]

لا يَنْكُتُونَ الأرْضَ عندَ سُؤَالهم ... كَتَطَلُّبِ العِلَّاتِ بالعِيْدانِ[٥]

بل يُسْفِرون وجوهَهم فَترى لها ... عند السُّؤال كأحْسَنِ الألوانِ

وإذا المقِلُّ أقامَ وسْط رِحَالهم ... رَدُّوْهُ رَبَّ صَواهلٍ وقيانِ

وإذا دعوتَهمُ لِكُلِّ مُلمّةٍ ... سَدُّوا شعاعَ الشمسِ بالفرسانِ[٦]

آخر ترجمة أمية بن أبي الصلت[٧] .

---

(١) ديوانه (٣٣٣ ـ ٣٣٥) .

(٢) سلف الحديث عن ابن جدعان قبل قليل .

(٣) في ب : لم يكن يوماً من الدهر يقول .

(٤) تقدم تخريجه قبل قليل في ترجمة عبد الله بن جدعان .

(٥) النكت : نبش الأرض بالعود ، فِعْلَ المفكر المهموم .

(٦) ديوانه (٥٠٠ ـ ٥٠٢) .

(٧) في حاشية ب: وهو آخر الجزء التاسع من أجزاء المصنف ، وزاد في النص التالي : فائدة جليلة ذكرها ابن عساكر في ترجمة صفوان بن أمية . قال الزبير بن بكار : حدثني محمد بن حسن ، عن نصر بن مزاحم ، عن معروف بن خَرَّبوذ رحمه الله، قال صفوان بن أمية الجد، أحد العشرة الذين من عشرة بطون الذين انتهى إليهم شرف الجاهلية ووصله لهم الإسلام: هاشم، وأمية، ونوفل، وأسد، وعبد الدار، وتيم ، ومخزوم ، وعدي ، وسهم ، وجمح . فمن هاشم: العباس بن عبد المطلب ، قد كان سقى الحجيج وبقي له في الإسلام . ومن بني أمية أبو سفيان بن حرب ، ومن بني نوفل في الجاهلية : الحارث بن عامر . قال الزبير : غَلِط في الحارث بن عامر . ومن بني عبد الدار : عثمان بن أبي طلحة . ومن بني تيم: أبو بكر الصديق. ومن بني أسد : يزيد بن زمعة . ومن بني مخزوم : خالد بن الوليد بن المغيرة. ومن بني عدي: عمر بن الخطاب . ومن بني سهم : الحارث بن قيس . ومن بني جُمح : صفوان بن أمية. قال ابن خرّبوذ : فإن قريشاً لم تكن تملّك عليها في الجاهلية أحداً ، فإذا كانت حرب أقرعوا بين أهل الرياسة من الذكور ، فإذا حضرت الحرب أجلسوه، لا يبالون صغيراً كان أو كبيراً، أجلسوه تيمُّناً به. فلما كان يوم الفجار أقرعوا بين بني هاشم ، فخرج سهم العباس ، وهو غلام ، فأجلسوه على فرس ، وكان أبو طالب يحضرها ، وكان النبي ﷺ يجيء معه وهو غلام، فإذا جاء أبو طالب هَزَمَت قريش وإذا لم يجىء هزمت كنانة، فقالوا: لا أبا لك لا تغب. =

بحيرى الراهب[١]

الذي توسَّم في رسول الله ﷺ النبوةَ وهو مع عمه أبي طالب حين قدم الشام في تجّار من أهل مكة ، وعمره إذ ذاك اثنتا عشرة[٢] سنة ، فرأى الغمامةَ تُظِلّه من بينهم . فصنع لهم طعاماً ضيافة ، واستدعاهم ، كما سيأتي بيان ذلك في السيرة[٣] . وقد روى الترمذي في ذلك حديثاً بسطنا الكلام عليه هنالك .

وقد أورد له الحافظ ابن عساكر[٤] شواهد وسائغات في ترجمة بَحيرى ، ولم يُورد ما رواه الترمذي ، وهذا عَجَبٌ .

وذكر ابنُ عساكر أن بحيرى كان يسكن قرية يقال لها : الكفر ، بينها وبين بصرى ستة أميال ، وهي التي يقال لها : (دير بحيرى) . قال : ويقال : إنه كان يسكن قرية يقال لها : منفعة بالبلقاء وراء زيزاء[٥] . والله أعلم .

***

= وأما عمارة المسجد الحرام ، فإنها والسقاية كانت إلى العباس بن عبد المطلب ، فأما السقاية فإنها معروفة ، وأما العمارة فإنهم لا يدع أحداً في المسجد الحرام ، ولا يقول : يحملهم على عمارته بالخير ، لا يستطيعون لذلك امتناعاً ، لأنه قد اجتمع ملأ قريش على ذلك ، فهم له أعوان . وكانت العُقاب عند أبي سفيان ، وإنه الرئيس ، وكانت العقاب إذا كانت عند رجل أخرجها إذا حمشت الحرب ، فإن أجمعت قريش على أحد أعطوها إياه ، وإن لم يجمعوا على أحد فأمروا صاحبها . وكانت الرفادة إلى الحارث بن عامر بن نوفل ، والرفادة : ما كانت قريش تخرج من أموالها في زمن ينقطع الحاج . وكانت المشورة إلى يزيد بن ربيعة بن الأسود بن المطلب بن أسد ، وقتل يوم الطائف مع رسول الله ﷺ ، والمشورة : أن قريشاً لم يجتمعوا على أمر إلا عرضوه عليه ، فإن وافق رأيهم رأيه سكت ، وإن سعت فيه فكانوا له جوّاباً حتى يرجعوا عنه . وكانت سدانة البيت واللواء إلى عثمان بن أبي طلحة بن عبد العزى . والسدانة : الخزانة مع الحجابة . وكانت الأشياق : إلى أبي بكر الصديق ، يحمل الديات ، كان إذا حمل شيئاً فسأل فيه قريشاً صدقوه وأمضوا حمالته وحمالة من قام معه ، وإن قام به غيره خذلوه ولم يصدقوه . وكانت القبة والأعنَّة إلى خالد بن الوليد . فأما الأعنَّة : فإنه أن يكون على خيول قريش في الجاهلية . وأما القبة : فإنهم كانوا يضربونها ، يجمعون إليها ما يجيرون له عيش . وكانت السفارة إلى عمر بن الخطاب ، إن وقعت الحرب بين قريش وغيرهم بعثوه سفيراً ، وإن نافرهم منافر ، أو فاخرهم مفاخر ، بعثوه مسافراً ومفاخراً ورضوا به . وكانت الحكومة والنوال المحجرة إلى الحارث بن قيس بن عباد ، والأموال التي سمّوا لآلهتهم . وكانت الأسمار إلى صفوان بن أمية ، والأنصاب والأزلام ، فكان لا يشق بأمر عام حتى يكون هو الذي يسره على يديه به » .

(١) خبر بحيرا الراهب هنا سقط من نسخة ب .

(٢) في الأصل : اثني عشرة ، وهو خطأ .

(٣) في أوائل الجزء الثالث من هذا الكتاب .

(٤) مختصر تاريخ دمشق (٦/٢) وما بعدها . وأورد له ترجمة في (٥/ ١٥٤ ـ ١٥٥) .

(٥) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ١٥٤) . وقوله : دير بحيرى . لعله أراد دير بصرى ، فقد ذكر ياقوت أن بحيرى كان به .=

ذكر قُسّ بنِ سَاعِدة الإيَادي[(١)]

قال الحافظ أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطي في كتاب « هَواتِف الجِنَّان »[(٢)] حدثنا علي بن[(٣)] داود القَنْطَري ، حدّثنا عبد الله بن صالح ، حدّثني أبو عبد الله المشْرقي ، عن أبي الحارث الورّاق ، عن ثور بن يزيد ، عن مورِّق العِجْلي ، عن عُبادة بن الصامت ، قال : لما قدِم وفْدُ إياد على النبي ﷺ قال : « يا مَعْشَرَ وفْدِ إياد ! ما فَعَلَ قُسُّ بنُ ساعدة الإيادي » ؟ قالوا : هلك يا رسول الله . قال : « لقد شَهِدتُه يوماً بسوق عُكَاظ على جَمَلٍ أحْمَرَ يَتَكَلَّمُ بكلامٍ معجب مونق لا أجدني أحفظه » . فقام إليه أعرابي من أقاصي القوم فقال : أنا أحفظه يا رسول الله . قال : فَسُرَّ النبي ﷺ بذلك . قال : فكان بسوق عكاظ على جمل أحْمر وهو يقول : يا معشرَ الناس اجتمعوا ، فكل من فات فات ، وكلّ شيء آت آت ، ليلٌ داج ، وسماءٌ ذات أبراج ، وبحر عَجَّاج ، نجوم تزهر ، وجبال مرسية ، وأنهار مجرية ، إن في السماء لخبراً ، وإن في الأرض لَعِبَرا ، مالي أرى الناس يذهبون ويموتون[(٤)] فلا يرجعون ، أَرَضوا بالإقامة فأقاموا ، أم تُرِكوا فناموا ، أَقسم قُسٌّ بالله قسماً لا ريب فيه ، إن لله ديناً هو أرضَى من دينكم هذا [وإن كان فيه بعض الاستطال][(٥)] ، ثم أنشأ يقول : [من مجزوء الكامل]

فـــي الـــذاهِبيـــنَ الأوّليـ ـــنَ من القُرونِ لنا بَصَائـر
لمّـــا رأيـــتُ مـــوارداً للمـوتِ ليسَ لهـا مصـادر
ورأيـتُ قَـومـي نحـوهـا يمضـي الأصـاغـرُ والأكـابـر
لا مَـن مضـى يـأتـي إليـ ـك ولا مِـن البـاقيـن غـابـر
أيقنـــتُ أنـــي لا محـــا لةَ حيثُ صارَ القومُ صائر[(٦)]

= وزيزاء : كان ينزلها الحاج ، وفيها بِرْكة عظيمة . (ياقوت) .

(١) ترجمته وأخباره في : المعمرين (٨٧ ـ ٩٠) ، والبيان والتبيين (١/ ٥٢ ، ٣٠٨ ـ ٣٠٩) ، ومعجم الشعراء(٢٢٢ ـ ٢٢٣) ، ومجمع الأمثال (١/ ١١١) ، والعصا لأسامة بن منقذ (٧٨ ـ ٧٩) ، وخزانة الأدب (تح . هارون) (٢/ ٨٩ ـ ٩٠) ، والإصابة (٣/ ٢٧٩) . وعيون الأثر (١/ ٩٥ ـ ١٠٠) .

(٢) في ب ، ط : الجان . والجنان : جمع الجان ، والليل ، والقلب لاستتاره في الصدر . وكتاب الخرائطي : (هواتف الجنان وما يحكى عن الكهان) طبع مؤسسة الرسالة ضمن كتاب نوادر الرسائل ، تح إبراهيم صالح .

(٣) زيادة من ب توافق ما في هواتف الجنان ويستقيم بها النص . وعلي بن داود بن يزيد القنطري الأَدَمي ، محدث ثقة . توفي سنة (٢٧٢هـ) . ترجمته في سير أعلام النبلاء (١٣/ ١٤٣) .

(٤) ليست في ط .

(٥) ليست في ط .

(٦) الأبيات في مصادر ترجمته . والخبر في هواتف الجنان (١٨٥ ـ ١٨٦) .

وهذا إسناد غريب من هذا الوجه .

وقد رواه الطبراني من وجه آخر فقال في كتابه « المعجم الكبير »[(١)] : حدّثنا محمد بن السَّرِي بن مهران بن الناقد البغداي ، حدّثنا محمد بن حسان السَّمْتي[(٢)] ، حدّثنا محمد بن الحجاج ، عن مجالد ، عن الشعبي ، عن ابن عباس . قال : قدِم وفدُ عبد القيس على النبي ﷺ فقال : « أيّكم يَعْرفُ القُسَّ بن ساعدة الإيادي » ؟ قالوا : كلّنا يعرفه يا رسول الله . قال : « فما فعل » ؟ قالوا : هلك . قال : « فما أنساهُ بعُكَاظ في الشّهْرِ الحرامِ وهُوَ على جَمَلٍ أحْمَرَ وهُو يخطُبُ الناسَ ، وهو يقول : يا أيها الناسُ اجْتمعوا واستَمِعوا وعُوا ، من عاشَ ماتَ ، ومَن ماتَ فاتَ ، وكل ما هو آتٍ آت . إن في السماء لخبراً ، وإن في الأرض لعبراً ، مهاد موضوع ، وسقفٌ مرفوع ، ونجوم تمور ، وبحار لا تَغُور . أقسم[(٣)] قسٌّ قَسماً حقاً لئن كان في الأمر رِضىً ليكون بعده سخط . إن لله لديناً هو أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه . مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون . أَرَضوا بالمقام فأقاموا . أم تُرِكوا فناموا » . ثم قال رسول الله ﷺ : « أفيكم من يروي شعرَهُ » ؟ فأنشده بعضهُم : [من مجزوء الكامل]

فــي الــذاهبيــن الأوليـ ـنَ من القرونِ لنا بصَائر
لمّــا رأيــتُ مَــوارداً للموْتِ ليسَ لها مصادر
ورأيـتُ قَـومـي نحـوَهـا يَسعى الأصاغِرُ والأكابر[(٤)]
لا يـرجـع المـاضـي إلـيَّ ولا مــن البَـاقِيـن غـابـر
أيقنـــتُ أنـــي لا محـــا لَةَ حيثُ صارَ القومُ صائر

وهكذا أَورده الحافظ البيهقي في كتابه دلائل النبوة من طريق محمد بن حسّان السَّمْتي[(٥)] ، به .

وهكذا رويناه في الجزء الذي جمعه الأستاذ أبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه في « أخبار قُسّ »[(٦)] قال : حدّثنا عبد الكريم بن الهيثم الديْرعَاقُولي[(٧)] ، عن سعيد بن شبيب ، عن محمد بن

---

(١) المعجم الكبير (١٢٥٦١) .

(٢) في ط : السهمي ، وهو تحريف . والسَّمْتي نسبة إلى السمت والهيئة . اللباب (٢/ ١٣٦) ، ومحمد بن حسان بن خالد الضبي السمتي ، أبو جعفر البغدادي ، محدث صدوق ، لين الحديث . توفي سنة (٢٢٨هـ) . تقريب التهذيب (٢/ ١٥٣) .

(٣) في ط . وأقسم .

(٤) هذا البيت والذي يليه ليس في ب .

(٥) في ط : السلمي ، وهو تحريف . والخبر في دلائل النبوة (٢/ ١٠٤) .

(٦) تفرد ابن كثير في الإشارة إلى هذا الكتاب ، ولم أقف على أحد غيره ذكره فيما رجعت إليه .

(٧) الديرعاقولي : نسبة إلى دير عاقول من قرى بغداد . اللباب (١/ ٥٢٣) .

الحجاج وهو أبو إبراهيم[(١)] الواسطي نزيل بغداد ويعرف بصاحب الهَرِيسة[(٢)] به ، وقد كذَّبه يحيى بن مَعين[(٣)] وأبو حاتم الرازي[(٤)] ، والدارقُطني[(٥)] ، واتَّهمه غير واحد منهم ابن عَدي[(٦)] بوضع الحديث .

وقد رواه البزّار[(٧)] ، وأبو نعيم من حديث محمد بن الحجاج هذا[(٨)] .

ورواه ابن درستويه وأبو نعيم من طريق الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس ، وهذه الطريق أمثل من التي قبلها ، وفيه أن أبا بكر هو الذي أورد القصة بكمالها نَظَمَها ونَثَرَها بين يدي رسول الله ﷺ .

ورواه الحافظ أبو نعيم من حديث أحمد بن موسى بن إسحاق الخطمي . حدّثنا علي بن الحسين بن محمد المخزومي : حدّثنا أبو حاتم السجستاني ، حدّثنا وهب بن جرير ، عن محمد بن إسحاق ، عن الزهري ، عن سعيد بن المسيِّب ، عن ابن عباس قال : قدم وفدُ بكر بن وائل على رسول الله ﷺ فقال لهم : « ما فعلَ حَليفٌ لكم يقالُ له : قُس بن ساعدة الإيادي » . . وذكر القصَّة مطوّلة[(٩)] .

وأخبرنا الشيخ المسند الرحلة أحمد بن أبي طالب الحجار إجازةً إن لم يكن سماعاً قال : أجاز لنا جعفر ابن علي الهمْداني قال : أخبرنا الحافظ أبو طاهر أحمد[(١٠)] بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السِّلَفي سماعاً (ح)[(١١)] : وقرأت على شيخنا الحافظ أبي عبد الله الذهبي : أخبرنا أبو علي الحسن بن علي بن أبي بكر الخلاَّل سماعاً قال : أخبرنا جعفر بن علي سماعاً : أخبرنا السِّلَفي سماعاً ، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن أحمد بن إبراهيم الرازي، أخبرنا أبو الفضل محمد بن أحمد بن عيسى السعدي، أخبرنا أبو القاسم عبيد الله ابن أحمد بن علي المقرىء، حدّثنا أبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه النحوي قال: حدّثنا إسماعيل ابن إبراهيم بن أحمد السعدي ـ قاضي فارس ـ حدّثنا أبو داود سليمان بن سيف بن يحيى بن دِرْهم الطائي ، من أهل حران ، حدّثنا أبو عمرو سعيد بن يربع ، عن محمد بن إسحاق ، حدّثني بعض أصحابنا من أهل العلم عن الحسن بن أبي الحسن البصري أنه قال : كان الجارود بن المعلَّى بن حَنَش بن معلّى

---

(١) في ط : عن إبراهيم الواسطي . وهو خطأ .

(٢) في ط : الفريسة ، وهو تحريف . وسقط لفظ به من ط . وإنما لقب بصاحب الهريسة لأنه روى حديث الهريسة وهو أن النبي ﷺ قال: « أتاني جبريل بهريسة فقال : كل هذه لتشد ظهرك لقيام الليل » . المجروحين (٢/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦) .

(٣) تاريخ الدارمي عن يحيى ، رقم (٧٩٨) .

(٤) الجرح والتعديل لابنه عبد الرحمن (٧/ الترجمة ١٢٧٨) .

(٥) سؤالات البرقاني رقم (٤٧٢) ، والضعفاء والمتروكون رقم (٤٦٠) .

(٦) الكامل في الضعفاء (٦/ ٢١٥٦) .

(٧) كما في كشف الأستار (٢٧٥٩) .

(٨) وهو حديث موضوع كما بينه الدكتور بشار عواد معروف في تعليقه على تاريخ الخطيب (٣/ ٩٣) .

(٩) المعمرين سجستاني (٨٨ ـ ٨٩) .

(١٠) في ب : أبو طاهر السلفي ، ولم يذكر تمام اسمه .

(١١) مختصر الحوالة هذا لم يرد في ط .

العبدي[١] نصرانياً ، حسن المعرفة بتفسير الكتب وتأويلها ، عالماً بسِيَرِ الفرس وأقاويلها ، بصيراً بالفلسفة والطب ، ظاهرَ الدهاء والأدب ، كاملَ الجمال ، ذا ثَرْوةٍ ومالٍ ، وإنه قدم على النبي ﷺ وافداً في رجال من عبد القيس ذوي آراء وأسنان وفصاحة وبيان ، وحجج وبرهان ، فلما قَدِم على النبي ﷺ وقف بين يديه ، وأشار إليه ، وأنشأ يقول : [من الخفيف]

يا نبيَّ الهُدى أتتكَ رِجالٌ … قَطَعَتْ فَدْفَداً وآلاً فآلا[٢]
وطَوتْ نحوكَ الصَّحَاصِحَ تهوى … لا تَعُدُّ الكلالَ فيك كَلالا[٣]
كُلّ يَهْماء قَصَرَ الطرفُ عنها … أَرْقَلتْها قِلاصُنا إرْقالا[٤]
وطوتْها العِتاقُ يَجْمَحُ فيها … بِكُماةٍ كأنْجُمٍ تَتَلالا[٥]
تَبْتَغي دفْعَ بأسِ يومٍ عظيم … هائلٍ أوجعَ القلوبَ وهالا
ومزاداً لمحشر الخلْق طُرّاً … وفراقاً لمن تمادى ضلالا
نحو نورٍ من الإلّه وبرها … نٍ وَبِرّ ونعمةٍ أن تُنالا
خَصَّكَ الله يا ابنَ آمنةَ الخـ … ـيرِ بها إذ أتتْ سِجالا سِجالا
فاجْعلِ الحظَّ منكَ يا حُجَّة اللـ … ـه جزيلاً لا حظّ خُلفٍ أحالا

قال : فأدناه النبي ﷺ وقرّب مجلسه وقال له : يا جارود ، لقد تأخّر الموعود بك وبقومك . فقال الجارود : فداك أبي وأمي ، أمّا من تأخّر عنك فقد فاته حظه ، وتلك أعظم حوبة وأغلظ عقوبة ، وما كنت فيمن رآك أو سمع بك فعداك واتّبع سواك ، وإني الآن على دينٍ قد علمتَ به ، قد جئتك وها أنا تاركه لدينك أفذلك مما يُمحّص الذنوب والمآثم والحوب ؟ ويُرْضي الربَّ عن المربوب ؟ فقال له رسول الله ﷺ : « أنا ضَامنٌ لك ذلك ، وأخْلِصِ الآن لله بالوحدانية ، ودعْ عنك دينَ النصرانية » . فقال الجارود : فداك أبي وأمي ، مُدَّ يدَك فأنا أشهد أن لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنك محمد عبده ورسوله . قال : فأسلم ، وأسلم معه أناس من قومه ، فَسُرَّ النبي ﷺ [بإسلامهم ، وأظهر من إكرامهم ما سُرّوا به وابتهجوا به . ثم أقبل عليهم رسولُ الله ﷺ][٦] فقال : « أفيكم من يعرف قُسَّ بن ساعدة الإيادي » ؟ فقال الجارود : فداك أبي وأمي كلُّنا نعرفه ، وإني من بينهم لعالم بخبره ، واقف على أمره : كان قُسٌّ

---

(١) اختلف في اسم أبيه فقيل : الجارود بن عمرو ، وقيل ابن العلاء . استشهد سنة (٢١هـ) . وقيل غير ذلك . تقريب التهذيب (١/ ١٢٤) ، والإصابة (١/ ٢١٦ ـ ٢١٧) ، والكامل لابن الأثير (٢/ ٣٦٨) .
(٢) الفدفد : الفلاة .
(٣) الصحاصح : ما استوى من الأرض .
(٤) اليهماء : الفلاة لا يُهتدى فيها . وأرقل : أسرع . والقلاص : جمع قلوص ، وهي الشديدة من الإبل الباقية على السير .
(٥) يجمح : يسرع . والخبر والأبيات في عيون الأثر (٢/ ٢٨١ ـ ٢٨٢) .
(٦) سقطت من ب بنقلة عين .

يا رسولَ الله سِبْطاً[١] من أسباط العرب ، عُمّر ستمئة سنة[٢] ، تَقَفَّرَ منها خمسة أعمار في البراري والقفار يضِجُّ بالتسبيح على مثال المسيح ، لا يقرُّه قَرارٌ ، ولا تكنه دار ، ولا يستمتع به جار . كان يلبس الأمْساح[٣] ويفوق السياح ، ولا يفتر من رهبانيته ، يتحسّى في سياحته بيضَ النعام ، ويأنس بالهوام ، ويستمتع بالظلام ، يُبصِرُ فيعتبر ، ويُفكّر فيختبر ، فصار لذلك واحداً تُضْرَب بحكمته الأمثال[٤] ، وتكشف به الأهوال ، أدرك رأسَ الحواريين سَمْعان ، وهو أول رجل تألّه من العرب ووحّد ، وأقرّ وتعبد ، وأيقن بالبعث والحساب ، وحذّر سوء المآب ، وأمر بالعمل قبل الفوت ، ووعظ بالموت ، وسلَّم بالقضا على السخط والرضا ، وزار القبور ، وذكر النشور ، وندب بالأشعار ، وفكّر في الأقدار وأنبأ عن السماء والنماء ، وذكر النجوم وكشف الماء ، ووصف البحار ، وعرف الآثار ، وخطب راكباً ، ووعظ دائباً ، وحذّر من الكرب ، ومن شدة الغضب ، ورسَّل الرسائل ، وذكر كل هائل ، وأرغم في خطبه ، وبيّن في كتبه ، وخوّف الدهر ، وحذر الأزْر[٥] ، وعظَّم الأمر ، وجنَّب الكفر ، وشوّق إلى الحنيفية ، ودعا إلى اللاهوتية . وهو القائل في يوم عكاظ : شرق وغرب ، ويتم وحزب[٦] ، وسلم وحرب ، ويابس ورطب ، وأُجَاج[٧] وعذب ، وشموس وأقمار ، ورياح وأمطار ، وليل ونهار ، وإناث وذكور ، وبرار وبحور[٨] ، وحَب ونبات ، وآباء وأمهات ، وجمع وأشتات ، وآيات في إثرها آيات ، ونور وظلام ، ويسر وإعدام ، ورَب وأصنام ، لقد ضل الأنام ، نشوّ مولود ، ووأد[٩] مفقود ، وتربية محصود ، وفقير وغني ، ومحسن ومسيء ، تباً لأرباب الغفلة ، ليصلحن العامل عمله ، وليفقدن الآمل أمله ، كلا بل هو إلّهٌ واحد ، ليس بمولود ولا والد ، أعاد وأبدى ، وأمات وأحيا ، وخلق الذكر والأنثى ، ربّ الآخرة والأولى[١٠] . أما بعد : فيا معشر إياد ، أين ثمود وعاد !؟ وأين الآباء والأجداد !؟ وأين العليل والعوّاد !؟ كل له مَعاد . يقسم قُسٌّ برب العباد ، وساطح المِهاد ، لَتُحْشَرُنَّ على الانفراد ،

---

(١) السِّبط : الأمة ، أي الشخص المنفرد بدين .

(٢) وقيل غير ذلك ، ففي المعمرين : أنه عاش (٣٨٠) سنةً . وفي الخزانة (٢/ ٩٠) : أنه عاش سبعمئة سنة .

(٣) الأمساح : جمع قلة للمِسْح ، وهو الكساء من الشعر .

(٤) قال الأعشى :

وأحلم من قس وأجرى من الذي ... بذي الفيل من خفّان أصبح حاردا

وقال لبيد :

وأقول من قس ، وأمضى إذا مضى ... من الرمح إذ مسّ النفوسَ نكالُها

(٥) الأزر : القوة ، والضعف ، ضد . وهذه الجملة والتي تليها ليست في ب .

(٦) الحزب : الطائفة ، والجماعة من الناس .

(٧) الأجاج : الملح المر .

(٨) في ب : وأبرار وفجور .

(٩) في ب : وولد مفقود . وقوله : نشو ، بتسهيل الهمز أراد : نشوء .

(١٠) زاد في ب : وهو أول من قال .

في يوم التناد ، إذا نُفخ في الصور ، ونقر[١] في الناقور ، وأشرقت الأرض ، ووعظ الواعظ ، فانتبذ الغائظ ، وأبصر اللاحظ ، فويل لمن صَدَفَ عن الحق الأشْهَر ، والنور الأزْهر ، والعرض الأكبر ، في يوم الفصل ، وميزان العدل ، إذا حَكَم القدير ، وشهد النذير ، وبَعُدَ النصير ، وظهر التقصير ، ففريق في الجنة وفريق في السعير . وهو القائل : [من الخفيف]

ذكَّـر القلـبَ مـن جـواه ادّكـارُ ... ولَيـالٍ خَـلالهـنّ نهـار
وسِجَـالٌ هَـواطـلٌ مـن غَمـام ... ثِـرنَ مـاءً وفـي جـواهـنّ نـار
ضَـوءهـا يطمسُ العيـونَ وأرعا ... دٌ شِـداد فـي الخـافقيـن تُطـار
وقصـورٌ مَشِيـدة حـوت الخـ ... ـيـر وأخـرى خلـت بهـن قِفـار
وجبـالٌ شـوامِـخٌ راسيـاتٌ ... وبحـارٌ ميـاههـن غِـزار
ونجـومٌ تلـوح فـي ظُلَـم الليـ ... ـل نَـراهـا فـي كـل يـوم تـدار
ثـم شمـس يحثّهـا قمـرُ الليـ ... ـل وكـلٌّ متـابِـعٌ مَـوَّار
وصغيـرٌ وأشمـط وكَبيـر ... كلهـم فـي الصعيـد يـومـاً مـزار
وكبيـر ممـا يقصـر عنـه ... حدسـه الخـاطـر الـذي لا يُحـارُ
فالذي قد ذكرتُ دلَّ على اللـ ... ـه نُفـوسـاً لهـا هُـدى واعْتبـار

قال : فقال رسول الله ﷺ : « مهما نَسيتُ فلستُ أنساه بسوقِ عُكاظ ، واقفاً على جَمل أحمر يخطب الناس ويقول : يا أيها الناس[٢] اجتمعوا فاسمعوا ، وإذا سمعتم فعُوا ، وإذا وعيتم فانتفعوا ، وقولوا وإذا قلتم فاصدقوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، مطر ونبات ، وأحياء وأموات ، ليل داج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهر ، وبحار تزخر ، وضوء وظلام ، وليل[٣] وأيام ، وبر وأثام[٤] ، إن في السماء خبرا ، وإن في الأرض عبرا ، يحار فيهن البُصَرا ، مِهاد موضوع ، وسَقف مرفوع ، ونجوم تغور[٥] ، وبحار لا تفور ، ومنايا دوان ، ودهر خَوّان ، كحد النِّسْطاس[٦] ، ووزن القِسطاس . أقسَم قُسٌّ قسما ، لا كاذباً فيه ولا آثما ، لئن كان في هذا الأمر رِضى ، ليكونن سخط . ثم قال : أيها الناس إن لله ديناً هو أحب إليه من دينكم هذا الذي أنتم عليه ، وهذا زمانه وأوانه . ثم قال :

---

(١) في ب : إذا نقر . وسقط ما بينهما .
(٢) قوله : يا أيها الناس . زيادة من ب . والخبر في عيون الأثر (١/ ٩٧) .
(٣) في ب : وليال .
(٤) أثام : الإثم ، وجزاؤه .
(٥) تغور : أي تذهب وتختفي . وفي اللسان (مور) . وفي حديث قس : ونجوم تمور ، أي تذهب وتجيء .
(٦) في اللسان (نسطس) : في حديث قس : كحذْو النسطاص ، قيل : إنه ريش السهم ، ولا تعرف حقيقته . وفي رواية : كحد النسطاس .

مالي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون ، أرَضوا بالمقام فأقاموا ؟ أم تُرِكوا فناموا » . والتفتَ رسول الله ﷺ إلى بعض أصحابه فقال : « أيُّكم يروي شعرَه لنا » ؟ فقال أبو بكر الصديق : فداك أبي وأمي أنا شاهدٌ له في ذلك اليوم حيث يقول : [من مجزوء الكامل]

فـي الـذاهبيـن الأوّلـيـ ـن من القرون لنا بصائر
لمـا رأيـتُ مَـوارداً للموت ليس لها مصادر
ورأيـتُ قـومـي نحـوهـا يمضي الأصاغر والأكابر
لا يَـرجـع المـاضـي إلـ ـيَّ ولا من الباقين غابر
أيقنـتُ أنـي لا محـا لة حيث صارَ القومُ صائر

قال : فقام إلى رسول الله ﷺ شيخ من عبد القيس ، عظيمُ الهامة ، طويل القامة ، بعيدُ ما بين المنكبين ، فقال : فداك أبي وأمي ، وأنا رأيتُ من قُسٍّ عجباً . فقال له رسول الله ﷺ : « ما الذي رأيت يا أخا بني عبد القيس » ؟ فقال : خرجتُ في شبيبتي أتبع[١] بعيراً لي نَدَّ عنّي أقفو أثره في تَنائف قِفاف ذات ضَغَابيس وعرصات جَثْجَاث[٢] ، بين صدور جَذعان ، وغمير حَوذان[٣] ، ومَهْمه ظُلْمان ، ورصيع أيهقان[٤] ، فبينا أنا في تلك الفلوات أجول بسبسبها وأرمق[٥] فدفدها ، وإذا أنا بهضبة في نشزاتها أراك كَبَاث مخضوضلة[٦] ، وأغصانها متهدلة ، كأن بَرِيْرها[٧] حب الفلفل وبواسق أقحوان ، وإذا بعين خرَّارة ، وروضة مُدْهَامَّة[٨] ، وشجرة عارمة ، وإذا أنا بقسّ بن ساعدة في أصل تلك الشجرة وبيده قضيب . فدنوتُ منه وقلت له : أنعم صباحاً ! فقال : وأنت فنَعِمَ صباحُك ! وقد وردتِ العينَ سباعٌ كثيرةٌ ، فكان كلما ذهبَ سَبُعٌ منها يشرب من العين قبل صاحبه ضربه قسٌّ بالقضيب الذي بيده . وقال : اصبر حتى يشرب الذي قبلك ، فذعرت من ذلك ذعراً شديداً ، ونظر إليَّ فقال : لا تخف . وإذا بقبرين بينهما مسجدٌ ، فقلت : ما هذان القبران ؟ قال قبرا أخوين كانا يعبدان الله عزّ وجل بهذا الموضع ، فأنا

---

(١) كذا في ب وهو أشبه بالصواب . وفي أ ، وط : أربع .

(٢) التنائف : جمع تنوفة ، وهي المفازة ، والأرض الواسعة البعيدة الأطراف . والقِفاف : جمع قُف ، وهي حجارة غاص بعضها ببعض لا تخالطها سهولة . والضغابيس : جمع ضغبوس ، صغار القثاء ، وأغصان الشوك . والجثجاث : نبات .

(٣) الغمير : الكثير . وحوذان : نبات .

(٤) في ط : ليهقان . وهو خطأ . والمهمه : المفازة البعيدة . والظلمان : جمع ظليم ، وهو ذكر النعام . والأيهقان : عشب يطول ، والجرجير البري .

(٥) في ط : أرنق ، وهو تحريف . والسبسب : المفازة . ورمَقه : لَحَظَه . والفدفد : الفلاة .

(٦) النشز : المكان المرتفع . والكَبَاث : النضيج من ثمر الأراك . ومخضوضلة : رطبة ندية .

(٧) البرير : الأول من ثمر الأراك .

(٨) روضة مدهامّة : خضراء تضرب إلى السواد نعمة ورياً .

مقيم بين قبريهما أعبد الله حتى ألحقَ بهما . فقلت له : أفلا تلحق بقومك فتكون معهم في خيرهم وتباينهم على شرهم ؟ فقال لي : ثكلتكَ أمُّك ، أَوَ مَا علمتَ أن ولد إسماعيل تركوا دينَ أبيهم واتّبعوا الأضداد وعظّموا الأنداد[١] ، ثم أقبل على القبرين وأنشأ يقول : [من الطويل]

خليليّ هُبّا طالما قد رقدتُما ... كما أجِدَّ لا تَقضيان كَراكُما[٢]

أرى النومَ بين الجِلد والعَظمِ منكما ... كأنّ الذي يسقي العقارَ سقاكما[٣]

أمِن طولِ نومٍ لا تُجيبان داعياً ... كأنّ الذي يسقي العقارَ سقاكما

ألم تعلما أني بنجرانَ مفرَداً ... ومالِيَ فيه من حَبيبٍ سواكما[٤]

مقيمٌ على قبريكما لستُ بارحاً ... إيابَ الليالي أو يجيبَ صَداكما

أبكيكما طولَ الحياةِ وما الذي ... يردّ على ذي لوعةٍ أن بَكَاكما

فلو جُعلتْ نفسٌ لنفس امرىء فِدىً ... لجدتُ بنفسي أن تكونَ فِداكما

كأنكما والموت أقربُ غايةٍ ... بروحيَ في قَبريكما قد أتاكما

قال : فقال رسول الله ﷺ : « رحمَ الله قُساً ، أمَا إنه سيبعث يوم القيامة أُمّةً وحده »[٥] .

وهذا الحديث غريب جداً من هذا الوجه وهو مرسل إلا أن يكون الحسَنُ سمِعَه من الجارود . والله أعلم .

وقد رواه البيهقي ، والحافظ أبو القاسم بن عساكر من وجه آخر ، من حديث محمد بن عيسى بن محمد بن[٦] سعيد القُرشي الأخباري ، حدّثنا أبي ، حدثنا علي بن سليمان عن سليمان بن علي ، عن علي[٧] بن عبد الله ، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما . قال : قدم الجارود بن عبد الله[٨] ، فذكر مثله أو نحوه مطولاً بزيادات كثيرة في نظمه ونثره ، وفيه[٩] ما ذكره عن الذي ضَلّ بعيره فذهب في طلبه ،

---

(١) الند : المِثْل ، والمشارك في الجوهر ، جمعه : أنداد .
(٢) الكرى : النوم .
(٣) العقار : الخمر . وهذا البيت لم يرد في الأغاني ، ولا الخزانة .
(٤) في الأغاني ، والخزانة : بسمعان . وهو الجبل الذي كان فيه قس كما في الرواية فيهما .
(٥) الأمة : الشخص المنفرد بدين ، أي يُبعث واحداً يقوم مقام جماعة . (الخزانة) .
والخبر في الأغاني (ثقافة) (١٥/ ١٩٢ ـ ١٩٣) ، وخزانة الأدب (تح . هارون) (٢/ ٨٠ ـ ٨٣) .
(٦) زيادة من ب ، وط . وعيون الأثر . وهو الصحيح .
(٧) كذا في ب ، وهو موافق لما في عيون الأثر ، وهو الصحيح . وفي م ، وط : علي بن سليمان بن علي عن علي بن عبد الله .
(٨) هذا اختلاف آخر في نسب الجارود .
(٩) في ب : فمنه .

قال : فبِتُّ في وادٍ لا آمن فيه حتفي ، ولا أَرْكن إلى غير سيفي ، فبت[١] أرقب الكوكب ، وأرمق الغيْهب ، حتى إذا عسعس الليل[٢] ، وكاد الصبح أن يتنفس ، هتف بي هاتف يقول : [من الرجز]

يا أيُّها الراقدُ في الليلِ الأَجَمّ قَدْ بعثَ الله نبياً في الحَرَم[٣]
من هاشمٍ أهلِ الوفاءِ والكرمْ يجلو دجنّاتِ الدياجي والبهَم[٤]

قال : فأدرت طرفي فما رأيت له شخصاً ولا سمعت له فَحْصاً[٥] ، قال : فأنشأت أقول : [من الرجز]

يا أيها الهاتفُ في داجي الظُّلَم أهلاً وسهلاً بك من طيْفٍ أَلَم
بَيِّنْ هَداكَ اللهُ في لحنِ الكَلِم ماذا الذي تدعو إليهِ يُغتنم

قال : فإذا أنا بنحْنَحَةٍ وقائل[٦] يقول : ظهر النور ، وبَطل الزور ، وبَعثَ الله محمداً بالحبُور[٧] ، صاحب النجيب الأحمر ، والتاج والمِغْفَر[٨] ، والوجه الأزهر ، والحاجب الأقمر ، والطَّرْف الأحور ، صاحب قول شهادة أن لا إلّه إلا الله ، وذلك محمد المبعوث إلى الأسود والأبيض أهل المدر والوبر[٩] ، ثم أنشأ يقول : [من مجزوء الرجز]

الحمدُ للهِ الّذي لم يخلقِ الخلقَ عبثْ
لم يُخلِنا يوماً سُدى من بعدِ عيسى واكترث[١٠]
أرْسلَ فينا أحمداً خيرَ نبيّ قد بُعث
صلى عليه اللهُ ما حجّ له ركبٌ وحثّ

وفيه من إنشاد[١١] قُس بن ساعدة : [من البسيط]

---

(١) ليست في ط .
(٢) في ط : إذا الليل عسعس .
(٣) في ط : الأجم بالجيم ، وهو تصحيف . والأحم : الأسود من كل شيء ، واحتم : اهتم بالليل .
(٤) في ب : يجلو غياهب . والدجنات : الظلمات . والبهم : السود .
(٥) في اللسان (فحص) : وفي حديث قس : ولا سمعت له فحصاً : أي وقع قدم وصوتَ مشي .
(٦) كذا في ب ، وفي أ ، وط : وقائلاً .
(٧) الحبور : السرور والنعمة .
(٨) المغفر : زرد من الدرع يلبس تحت القلنسوة .
(٩) في ب : المبعوث للأسود والأحمر من أهل الوبر والمدر . وكذلك في عيون الأثر .
وأهل المدر : هم أهل القرى الذين يبنون بيوتهم بالطين الذي فيه المدر ، وهو القش . وأهل الوبر : البدو الذين ينسجون بيوتهم من الوبر .
(١٠) في ب : فلم يخلّنا سدى : وكذلك في عيون الأثر .
(١١) في ط : إنشاء .

يا ناعيَ الموتِ والملحودِ في جدثٍ ... عليهمُ من بقايا ثوبهمْ خِرَقُ[١]
دعهم فإنّ لهم يوماً يُصاح بهم ... فهم إذا انتبهوا من نومهم أرِقوا
حتى يعودوا بحالٍ غيرِ حالهمُ ... خَلقاً جديداً كما مِن قَبْلِه خُلقوا
منهم عُراةٌ ومنهم في ثيابهمُ ... منها الجديدُ ومنها المنهجُ الخَلَقُ[٢]

ثمّ رواه البيهقي عن أبي محمد عبد الله[٣] بن يوسف بن أحمد الأصبهاني ، حدّثنا أبو بكر أحمد بن سعيد بن فرضخ الإخميمي[٤] بمكة . حدّثنا القاسم بن عبد الله بن مهدي ، حدّثنا أبو عبيد الله سعيد بن عبد الرحمن[٥] المخزومي . حدّثنا سفيان بن عُيينة ، عن أبي حمزة الثُّمالي ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس . فذكر القصةَ وذكر الإنشاد[٦] ، قال فوجدوا عِنْدَ رأسه صحيفة فيها : [من البسيط]

يا ناعيَ الموتِ والأمواتُ في جَدثٍ ... عليهم من بقايا نومهم خِرقُ[٧]
دعْهم فإن لهم يوماً يُصاح بهم ... كما تَنَبَّهَ من نوماته الصَّعِقُ
منهم عُراةٌ وموتىَ في ثيابهمُ ... منها الجديدُ ومنها الأزرَق الخَلَقُ

فقال رسول الله ﷺ : « والذي بَعَثني بالحق لقد آمن قُس[٨] بالبعث » .

وأصله مشهور . وهذه الطرق على ضَعفها كالمتعاضدة على إثبات أصل القصة . وقد تكلّم أبو محمد بن درستويه على غريب ما وقع في هذا الحديث ، وأكثره ظاهر إن شاء الله تعالى ، وما كان فيه غرابة شديدة نبهنا عليه في الحواشي .

وقال البيهقي : أخبرنا أبو سعد سعيد بن محمد بن أحمد الشُّعَيْثي[٩] ، حدّثنا أبو عمرو بن أبي طاهر المحمد آباذي[١٠] لفظاً ، حدّثنا أبو لبابة محمد بن المهدي الأموردي[١١] ، حدّثنا أبي ، حدّثنا سعيد بن

---

(١) في ب : بزهم . وفي ط : قولهم .
(٢) المنهج : البالي .
والخبر في عيون الأثر (١/ ٩٦ ـ ٩٩) ، وخزانة الأدب (٢/ ٨١ ـ ٨٣) .
(٣) كذا في ب ، وهو موافق لنص الدلائل ، وفي م وط : عن محمد بن عبد الله .
(٤) الإخميمي : نسبة إلى إخميم ، بلدة من صعيد مصر . اللباب (١/ ٣٥) .
(٥) في ب : عبيد الله بن سعيد بن عبد الرحمن .
(٦) في ب : هذا الإنشاد . وفيها : عند رأسه صخرة .
(٧) في ب : ثوبهم .
(٨) في ب : والذي نفسي بيده لقد آمن قس بن ساعدة بالبعث . والخبر مطولاً في دلائل النبوة : (٢/ ١٠٢ ـ ١٠٤) .
(٩) الشعيثي : نسبة إلى شُعَيث ، بطن من بَلْعنبر بن عمرو بن تميم . اللباب (٢/ ٢٠٠) .
(١٠) المحمد آباذي : نسبة إلى محمد آباذ محلة خارج نيسابور . اللباب (٣/ ١٧٥) .
(١١) في ب : الأنبوردي . ولم أقف على هذه النسبة . ولعلها الأبيوردي ، نسبة إلى أبيورد من قرى خراسان .

هبيرة حدّثنا المعتمر بن سليمان ، عن أبيه ، عن أنس بن مالك قال : قدِم وَفْد إياد على النبي ﷺ فقال : « ما فعل قُسُّ بن ساعدة » ؟ قالوا : هلك . قال : « أما إني سمعتُ منه كلاماً أرى أني أحفظه » . فقال بعض القوم : نحن نحفظه يا رسول الله . قال : « هاتوا » . فقال قائلهم : إني واقف بسوق عُكاظ فقال : يا أيها الناس استمعوا واسمعوا وعوا ، كلّ من عاش مات ، وكلّ من مات فات ، وكلّ ما هو آت آت ، ليل داج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهر ، وبحار تزخر ، وجبال مرسية ، وأنهار مجرية ، إن في السماء لخبراً ، وإن في الأرض لَعِبرا ، أرى الناس يموتون ولا يرجعون ، أرضوا بالإقامة فأقاموا ، أم تُرِكوا فناموا. أقسَمَ قُسٌّ قسماً بالله لا إثم فيه ، إن لله ديناً هو أرضى مما أنتم عليه. ثم أنشأ يقول: [من مجزوء الكامل]

في الذاهبين الأوّليـ ـن من القرون لنا بصائر

لما رأيت مصارعاً للقوم ليس لها مصادر[١]

ورأيت قومي نحوها يمضي الأكابر والأصاغر[٢]

أيقنتُ أني لا محا لة حيثُ صار القوم صائر

ثم ساقه البيهقي من طُرُق أُخَر قد نبَّهنا عليها فيما تقدم . ثم قال بعد ذلك كله : وقد رُوي هذا الحديث عن الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس بزيادة ونقصان . ورُوي من وجه آخر عن الحسن البصري منقطعاً . ورُوي مختصراً من حديث سعد بن أبي وقّاص وأبي هريرة .

قلت : وعُبادة بن الصامت ، كما تقدم ، وعبد الله بن مسعود ، كما رواه أبو نعيم في كتاب « الدلائل »[٣] عن عبد الله بن محمد بن عثمان الواسطي ، عن أبي الوليد طريف بن عبيد الله مولى علي بن أبي طالب بالموصل ، عن يحيى بن عبد الحميد الحِمّاني ، عن أبي معاوية ، عن الأعمش ، عن أبي الضحى ، عن مسروق ، عن ابن مسعود ، فَذَكَرَه .

وروى أبو نعيم أيضاً حديث عبادة المتقدم ، وسعد بن أبي وقاص[٤] .

ثم قال البيهقي : وإذا رُوي الحديثُ من أوجه أُخَر ، وإن كان بعضها ضعيفاً ، دلّ على أن للحديث أصلاً . والله أعلم .

---

(١) في ب : مصارعاً للقوم .

(٢) في ب : الأصاغر والأكابر . وكتب فوق العبارة : الأوائل والأواخر . وزاد بعده :

لا يرجع الماضي ولا يبقى من الباقين غابر

والخبر في دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ١٠١) وما بعدها .

(٣) دلائل النبوة لأبي نعيم (١/ ١٢٧ ـ ١٢٩) .

(٤) قوله : وسعد بن أبي وقاص ليس في ب . ولم أجد الخبر عند سعد في دلائل أبي نعيم . وهو في الزهرة لمحمد بن داود الأصبهاني (٢/ ٥٠٤ ـ ٥٠٥) . (تح . السامرائي ـ ط . الأردن ـ ١٩٨٥) .

ذِكْر زيد بن عَمْرو بن نُفَيْل رَضيَ الله عنه

هو زيد بن عمرو بن نُفَيل بن عبد العزّى بن رِياح بن عبد الله بن قُرط بن رزاح بن عَدي بن كعب بن لؤي القرشي العدوي[١] .

وكان الخطّابُ والدُ عُمر بن الخطاب عمَّه وأخاه لأمه . وذلك لأن عمرو بن نفيل كان قد خلف على امرأة أبيه بعد أبيه ، وكان لها من نُفيل أخوه الخطاب . قاله الزبير بن بكّار ومحمد بن إسحاق[٢] .

وكان زيد بن عمرو قد ترك عبادة الأوثان ، وفارق دينهم . وكان لا يأكل إلا ما ذُبح على اسم الله وحدَه .

قال يونس بن بُكير ، عن محمد بن إسحاق : حدّثني هشام بن عُروة ، عن أبيه ، عن أسماء بنت أبي بكر قالت : لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مُسنِداً ظهرَه إلى الكعبة يقول : يا معشرَ قريش ، والذي نفسُ زيد بيده ما أصبح منكم أحد[٣] على دين إبراهيم غيري . ثمّ يقول : اللهمّ إني لو أعلم أحبَّ الوجوه إليك عبدتُك به ، ولكني لا أعلم ، ثم يسجد على راحلته[٤] .

وكذا رواه أبو أسامة عن هشام ، به . وزاد : وكان يُصلي إلى الكعبة ويقول : إلَهي إلَه إبراهيم ، وديني دين إبراهيم . وكان يُحيي الموؤدة ويقول للرجل إذا أراد أن يقتلَ ابنتَه : لا تقتلها ، ادفعها إليَّ أكفِكَها ، فإذا ترعرعت قال :[٥] إن شئت فخذها وإن شئت فادفعها[٦] .

أخرجه النَّسائي من طريق أبي أسامة . وعلّقه البخاري فقال : وقال الليث : كتب إليَّ هشامُ بن عروة ، عن أبيه ، به[٧] .

وقال يونس بن بكير ، عن محمد بن إسحاق : وقد كان نفر من قريش : زيد بن عمرو بن نفيل ،

---

(١) في نسبه بعض اختلاف . وترجمته في السيرة (١/ ٢٢٣) وما بعدها ، والاشتقاق (١٣٤) ، ومروج الذهب (١/ ٧٠) ، والأغاني (ثقافة) (٣/ ١١٧) وما بعدها ، ومختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٦٢ ـ ١٦٧) ، والروض الأنف (١/ ٢٥٣) ، والإصابة (١/ ٥٦٩) ، وخزانة الأدب (٦/ ٤١٦) .

(٢) السيرة (١/ ٢٢٩) . ومختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٦٢) .

(٣) في ط ، ب : أحد منكم . والخبر في السيرة (١/ ٢٢٥) .

(٤) في الأصول : راحلته . وهو تحريف لا يستقيم به المعنى ، والتصحيح من السيرة ، والروض الأنف ، والإصابة لابن حجر .

(٥) في ط : ترعرعت فإن .

(٦) في ب : فدعها . وكذلك في مختصر تاريخ دمشق .

(٧) صحيح البخاري رقم (٣٨٢٨) ، في مناقب الأنصار ، باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل .

ووَرَقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزّى ، وعثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى ، وعبيد الله بن جحش بن رياب بن يَعْمَر بن صَبْرة بن بَرة بن كبير بن غَنْم بن دودان بن أسد[١] بن خزيمة ، وأمه أميمة بنت عبد المطلب ، وأخته زينب بنت جحش التي تزوجها رسول الله ﷺ بعد مولاه زيد بن حارثة ، كما سيأتي بيانه . حضروا قُريشاً عند وثن لهم كانوا يذبحون عنده لِعيدٍ من أعيادهم ، فلما اجتمعوا خَلاَ بعضُ أولئك النفر إلى بعضٍ وقال : تصادقوا ولْيكتم بعضكم على بعض . فقال قائلهم : تعلَمُنَّ والله ما قومكم على شيء ، لقد أخطؤوا دين إبراهيم وخالفوه . ما وَثَنٌ يُعْبَد ؟ لا يضرُّ ولا ينفع ، فابتغوا لأنفسكم ، فخرجوا يطلبون ويسيرون في الأرض يلتمسون أهل كتاب من اليهود والنصارى والملل كلّها الحنيفيةَ دين إبراهيم . فأما ورَقَة بن نوفل فتنصَّر واستحكم في النصرانية ، واتبع[٢] الكتب من أهلها ، حتى علم علماً كثيراً من أهل الكتاب ، ولم يكن فيهم أعدل أمراً وأعدل شأناً[٣] من زيد بن عمرو بن نفيل ، اعتزل الأوثان ، وفارقَ الأديان من اليهود والنصارى والملل كلّها إلاّ دين الحنيفية دين إبراهيم ، يوحّد اللهَ ، ويخلع مَنْ دونه ، ولا يأكل ذبائح قومِه ، باداهم[٤] بالفِراق لما هم فيه .

قال : وكان الخطّاب قد آذاه أذى كثيراً ، حتى خرج منه إلى أعلى مكة ، ووكل به الخطّاب شباباً من قريش وسُفهاء من سُفهائهم فقال : لا تتركوه يدخل ، فكان لا يدخلُها إلاّ سِرّاً منهم ، فإذا علموا به أخرجوه وآذوه كراهيةَ أن يُفْسِد عليهم دينَهم أو يتابعه أحد إلى[٥] ما هو عليه .

وقال موسى بن عقبة : سمعتُ من أرْضَى يحدث أنّ[٦] زيد بن عمرو بن نفيل كان يَعيب على قريش ذبائحهم ويقول : الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء ماءً ، وأنبت لها من الأرض ، لم تذبحونها[٧] على غير اسم الله ؟! إنكاراً لذلك وإعظاماً له .

وقال يونس ، عن ابن إسحاق : وقد كان زيد بن عمرو بن نفيل قد عزم على الخروج من مكة ، فضرب في الأرض يطلب الحنيفيةَ دينَ إبراهيم ، وكانت امرأته صفية بنت الحضرمي كلما أبصرته قد نهض للخروج وأراده آذنت الخطّابَ بن نفيل . فخرج زيد إلى الشام يلتمس ويطلب في أهل الكتاب الأوَل دين

---

(١) في أ ، وط : دودان بن أسعد بن أسد . وهي زيادة ليست في السيرة .
(٢) في ط : وابتغى .
(٣) كذا في ب . وهو الأشبه بالصواب . ومثله في مختصر تاريخ دمشق ، وسير أعلام النبلاء . وفي أ ، وط : ثباتا .
(٤) في ط : فإذا هم . ولا معنى لها .
(٥) في ب : على . . . والخبر في السيرة (١/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣) ، ومختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٦٣) ، وسير أعلام النبلاء (١/ ١٢٧) .
(٦) كذا في ب ، ومثله في الإصابة (١/ ٥٦٩) . وفي أ ، وط : عن .
(٧) في الأصول : تذبحوها . . . وهو خطأ . والحديث بتمامه أخرجه البخاري رقم (٣٨٢٦) في مناقب الأنصار ، باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل .

إبراهيم ويسأل عنه ، ولم يزل في ذلك فيما يزعمون حتى أتى الموصلَ والجزيرة كلَّها ، ثم أقبل حتى أتى الشامَ ، فجال فيها حتى أتى راهباً ببيعة من أرض البلقاء كان ينتهي إليه علم النصرانية فيما يزعمون ، فسأله عن الحنيفية دين إبراهيم ، فقال له الراهب : إنك لتسأل عن دينٍ ما أنت بواجدٍ مَن يحملك عليه اليوم ، لقد دَرَسَ مَنْ عَلِمَهُ ، وذهب مَن كان يعرفه ، ولكنه قد أظَلَّ[1] خروج نبي وهذا زمانه . وقد كان شام[2] اليهودية والنصرانية فلم يرضَ شيئاً منها ، فخرج سريعاً حين قال له الراهب ما قال يريدُ مكةَ ، حتى إذا كان بأرض لخمٍ عدَوا عليه فقتلوه ، فقال ورقةُ يرثيه :

رَشَدْتَ وأَنْعَمْتَ ابنَ عَمْرٍو وإنما ... تجنَّبْتَ تَنُّوراً مِن النارِ حاميا

بِدينكَ ربّاً لَيسَ ربٌّ كمِثلِه ... وتركِك أوثانَ الطواغي كما هيا

وقد تُدرِكُ الإنسانَ رَحْمةُ ربه ... ولو كان تحتَ الأرض ستين واديا[3]

وقال محمد بن عثمان بن أبي شَيبة : حدّثنا أحمد بن طارق الوابِشي[4] حدّثنا عمرو بن عطية ، عن أبيه ، عن ابن عمر ، عن زيد بن عمرو بن نفيل أنه كان يتألَّه في الجاهلية ، فانطلق حتى أتى رجلاً من اليهود ، فقال له : أحبُّ أن تُدخلني معك في دينك . فقال له اليهودي : لا أُدخلك في ديني حتى تبوء بنصيبك من غضب الله . فقال : من غضب الله أفِرُّ ! فانطلق حتى أتى نَصْرانياً فقال له : أحب أن تُدخلني معك في دينك . فقال : لستُ أُدخلك في ديني حتى تبوء بنصيبك من الضلالة . فقال : من الضلالة أفِرُّ ! قال له النصراني فإني أدلك[5] على دين إن تبعتَه اهتديتَ . قال : أيّ دين ؟ قال : دين إبراهيم . قال : فقال : اللهمّ إني أُشهدُك أني على دين إبراهيم ، عليه أحيا وعليه أموت . قال فذُكِر شأنُه للنبي ﷺ فقال : « هو أمةٌ وحدَه يوم القيامة »[6] .

وقد روى موسى بن عقبة ، عن سالم ، عن ابن عمر نحو هذا[7] .

وقال محمد بن سعد : حدّثنا علي بن محمد بن عبد الله بن سيف القُرشي ، عن إسماعيل بن مجالد[8]

---

(١) في ب : أظلك . وكذلك في مختصر تاريخ دمشق . وفي السيرة : أظل زمان نبي يخرج .

(٢) شام : اختبر .

(٣) الخبر في السيرة (١/ ٢٣١ ـ ٢٣٢) ، ومختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٦٤ ـ ١٦٥) ، وسير أعلام النبلاء (١/ ١٣٥).

(٤) الوابِشي : نسبة إلى وابِش بن زيد . اللباب (٣/ ٣٤٣) .

(٥) في ب : فإني لأدلك .

(٦) مختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٦٥) . وقد خرّج الشيخ شعيب الأرناؤوط هذا الحديث في سير أعلام النبلاء (١/ ١٣٠) .

(٧) أخرجه البخاري رقم (٣٨٢٧) في مناقب الأنصار ، باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل . وأورده أبو الفرج في الأغاني (ثقافة) (٣/ ١٢٠ ـ ١٢١) .

(٨) في ط : إسماعيل عن مجالد عن الشعبي .

عن مجالد ، عن الشَّعْبي ، عن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب قال : قال زيد بن عمرو بن نفيل : شاممت اليهودية والنصرانية فكرهتهما[١] ، فكنت بالشام وما والاها ، حتى أتيتُ راهباً في صومعة[٢] ، فذكرتُ له اغترابي عن قومي وكراهتي عبادة الأوثان واليهودية والنصرانية . فقال له : أراكَ تريدُ دِين إبراهيم يا أخا أهل مكة ، إنك لتطلب ديناً ما يوجَدُ اليوم أحدٌ يدين[٣] به ، وهو دين أبيك إبراهيم ، كان حنيفاً ، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ، كان[٤] يصلي ويسجُدُ إلى هذا البيت الذي ببلادك ، فالحق ببلدك ، فإن الله يبعثُ من قومك في بلدك من يأتي بدين إبراهيم الحنيفية ، وهو أكرم الخلق على الله[٥] .

وقال يونس ، عن ابن إسحاق : حدّثني بعضُ آل زيد بن عمرو بن نفيل : إن زيداً كان إذا دخل الكعبة قال : لبيك حقاً حقاً ، تَعبُّداً ورِقاً ، عذت بما عاذ به إبراهيم وهو قائم ، إذ قال إلَهي أنفي لك عان راغم ، مهما تُجشّمني فإني جاشم ، البِرَّ أبغي لا الخال ، ليس مُهَجِّر كمن قال[٦] .

وقال أبو داود الطيالسي : حدّثنا المسعودي ، عن نفيل بن هشام بن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل العدوي ، عن أبيه ، عن جده أن زيد بن عمرو ووَرَقة بن نوفل خرجا يلتمسان الدينَ ، حتى انتهيا إلى راهب بالموصل ، فقال لزيد بن عمرو : من أين أقبلتَ يا صاحب البعير ؟ فقال من بنية إبراهيم ، فقال : وما تلتمس ؟ قال : ألتمس الدين . قال : ارجع فإنه يوشك أن يظهر في أرضك . قال :

فأما ورقة فتنصَّر . وأما أنا فعزمتُ على النصرانية فلم يوافقني ، فرجع وهو يقول : [من مجزوء الرجز]

لبيكَ حقّاً حقاً تعبُّداً ورِقّا

البرَّ أبغي لا الخالْ فهل مهجِّر كَمَن قال

آمنت بما آمن به إبراهيم ، وهو يقول : أنفي لك عان راغم ، مهما تجشّمني فإني جاشم ، ثم يخر فيسجد . قال : وجاء ابنه ، يعني سعيد بن زيد أحد العشرة رضي الله عنه فقال : يا رسول الله ! إن أبي كما رأيتَ وكما بلغك ، فاستغفرْ له ، قال : « نعم فإنه يُبعث يومَ القيامة أمةً واحدة »[٧] .

قال : وأتى زيد بن عمرو بن زيد على رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة وهما يأكلان من سفرة لهما ،

---

(١) في ب : النصرانية واليهودية وكرهتهما .
(٢) زاد في ب فوقفت عليه .
(٣) قوله : أحدٌ يدين . زيادة من ط وفي السير : ما يوجد اليوم فالحق ببلدك .
(٤) في ب : إنه كان .
(٥) سير أعلام النبلاء (١/ ١٣٢) .
(٦) الخال : الخيلاء والكبر . وقال ، من القيلولة ، وهي النوم عند الظهيرة . والتهجير السير في الهاجرة ، في شدة الحر . السيرة (١/ ٢٣٠) .
(٧) أشار إلى الخبر ابن حجر في فتح الباري (٧/ ١٤٣) . وتقدم الحديث قبل قليل .

فدعواه لطعامهما ، فقال زيد بن عمرو : يا ابن أخي أنا لا آكل مما ذُبح على النُّصُب[١] .

وقال محمد بن سعد : حدّثنا محمد بن عمرو ، وحدّثني أبو بكر بن أبي سَبْرة ، عن موسى بن ميسرة ، عن ابن أبي مُليكة عن حُجير[٢] بن أبي إهاب ، قال : رأيتُ زيد بن عمرو وأنا عند صَنمِ بُوَانَةَ بعد ما رجع من الشام وهو يراقب الشمس ، فإذا زالت استقبلَ الكعبة فصلّى ركعة وسجدتين ثم يقول : هذه قبلة إبراهيم وإسماعيل لا أعبد حجراً ، ولا أصلي له ، ولا آكل ما ذُبح له ، ولا أستقْسِم الأزلام ، وأنا أصلي إلى هذا[٣] البيت حتى أموت . وكان يحجّ فيقف بعرفة ، وكان يلبّي فيقول : لبيكَ لا شريك لك ولا نِدّ لك ، ثم يدفع من عَرفة ماشياً وهو يقول : لبيك متعبِّداً مرقوقاً[٤] .

وقال الواقدي : حدّثني علي بن عيسى الحَكَمي ، عن أبيه ، عن عامر بن ربيعة قال : سمعتُ زيدَ بن عمرو بن نفيل يقول : أنا أنتظر نبياً من ولد إسماعيل ، ثم من بني عبد المطلب ، ولا أُراني أدركه ، وأنا أومن به وأصدّقه ، وأشهد أنه نبيٌّ ، فإن طالت بكَ مدة فرأيتَه فأقْرِئْه مني السلاَم ، وسأخبرك ما نعتُه حتى لا يخفَى عليك . قلتُ : هلم ! قال : هو رجل ليس بالطويل ولا بالقصير ، ولا بكثير الشعر ولا بقليله ، وليست تفارقُ عَينَه حمرةٌ ، وخاتم النبوة بين كتفيه ، واسمه أحمد ، وهذا البلد مَولده ومَبْعَثه ، ثم يخرجه قومُه منها ويَكْرَهُون ما جاء به ، حتى يهاجر إلى يثرب فيظهر أمرُه ، فإياك أن تُخْدَعَ عنه ، فإني طُفْتُ البلادَ كلها أطلب دين إبراهيم ، فكان مَن أسألُ من اليهود والنصارى والمجوس يقولون : هذا الدين وراءك ، وينعتونه مثل ما نعتُّه لك ، ويقولون : لم يبق نبيٌّ غيرُه . قال عامر بن ربيعة : فلما أسلمت أخبرتُ رسول الله ﷺ قول زيد بن عمرو وأقرأته منه السلام ، فردّ عليه السلام وترحَّم عليه وقال : « قد رأيتُه في الجنةِ يَسْحَبُ ذُيولاً »[٥] .

وقال البخاري في صحيحه[٦] : ذكر زيد بن عمرو بن نفيل :

حدّثني محمد بن أبي بكر ، حدّثنا فُضَيل بن سليمان ، حدّثنا موسى بن عُقْبة ، حدثني سالم بن[٧] عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ لقي زيدَ بن عمرو بن نُفَيل بأسفل بَلْدَح قبل أن ينزل على النبي ﷺ الوحيُ ،

---

(١) زاد في ب : وقد رواه أحمد عن يزيد بن هارون عن المسعودي ، به .
وهو كذلك في المسند (١/ ١٨٩) ، وذكره الذهبي في السير (١/ ١٢٩) .

(٢) في ط : حجر . وهو خطأ .

(٣) في ط : وإنما أصلي لهذا .

(٤) مختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٦٥) ، وهو من طبقات ابن سعد (٣/ ٣٨٠) .

(٥) مختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٦٥ ـ ١٦٦) . وهو في طبقات ابن سعد (٣/ ٣٧٩) .

(٦) صحيح البخاري رقم (٣٨٢٦ و٣٨٢٧ و٣٨٢٨) في مناقب الأنصار ، باب (٢٤) .

(٧) في ط : عن . والتصحيح عن البخاري .

فقُدِّمَتْ إلى النبي ﷺ سفرةٌ ، فأبى أن يأكلَ منها . ثمَّ قال زيد : إني لستُ آكل مما تذبحون على أنصابكم ، ولا آكل إلا ما ذُكر اسمُ اللهِ عليه ، وأنَّ زيدَ بن عمرو كان[١] يعيب على قريش ذبائحَهم ويقول : الشاةُ خَلَقها الله وأنزلَ لها من السماء الماء[٢] ، وأنبت لها من الأرض[٣] ، ثم تذبحونها على غير اسم الله ، إنكاراً لذلك وإعظاماً له .

قال موسى بن عقبة : وحدّثني سالم بن عبد الله ، ولا أعلمه إلا يحدث به عن ابن عمر[٤] : أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه ، فلقي عالماً من اليهود ، فسأله عن دينهم ، فقال : إني لَعلّي أن أدينَ دينكم فأخبِرْني . فقال : إنك[٥] لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله . قال زيد : وما أَفِرُّ إلا من غضب الله تعالى ، ولا أحمِلُ من غضب الله شيئاً ولا أستطيعه ، فهل تدلّني على غيره ؟ قال : ما أعلمه إلا أن تكون حنيفاً . قال زيد : وما الحنيف ؟ قال دين إبراهيم عليه السلام لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبد إلا الله . فخرج زيد ، فلقي عالماً من النصارى ، فذَكَر مثله ، فقال : لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من [لعنة الله . قال : ما أَفِرُّ إلا من لعنة الله ، ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئاً أبداً ، ولا أستطيع[٦] ، فهل تدلّني][٧] على غيره ؟ قال : ما أعلمه إلا أن تكونَ حنيفاً . قال : وما الحنيفُ ؟ قال : دين إبراهيم ، لم يكن يهودياً ولا نَصْرانياً ولا يعبد إلا الله . فلما رأى زيدٌ قولَهم في إبراهيم خرج ، فلما برزَ رَفَع يديه فقال : اللهم إني أُشْهدُك أني على دين إبراهيم .

قال[٨] : وقال الليثُ : كتب إليَّ هشامُ بن عُرْوة ، عن أبيه ، عن أسماء بنت أبي بكر قالت : رأيت زيدَ بن عمرو بن نفيل قائماً مسنِداً ظهرَه إلى الكعبة يقول : يا معشرَ قريش ، والله ما منكم على دين إبراهيم غيري . وكان يُحيي الموؤودة ، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنتَه : لا تقتلْها أنا أكفيك مؤونتَها ، فيأخذها ، فإذا ترعرعتْ قال لأبيها : إن شئتَ دفعتُها إليك ، وإن شئت كفيتُكَ مؤونتها .

انتهى ما ذكره البخاري .

وهذا الحديث الأخير قد أسنده الحافظ ابن عساكر من طريق أبي بكر بن أبي داود ، عن عيسى بن

---

(١) قوله : كان . زيادة من ب ، والبخاري .
(٢) في ط : ماء .
(٣) زاد في ب : الكلأ . وكذلك في الروض الأنف (١/ ٢٥٦) .
(٤) في ب : ولا أعلمه يحدث به إلا عن ابن عمر .
(٥) ليست في ب ، والبخاري . وفي ط : تأخذ نصيبك .
(٦) في ب : وإني لا أستطيع . ولفظ البخاري : وأنّى أستطيع .
(٧) سقطت هذه العبارة من ط .
(٨) صحيح البخاري رقم (٣٨٢٨) ، والخبر أيضاً في سير أعلام النبلاء (١/ ١٢٨) .

حماد ، عن الليث ، عن هشام ، عن أبيه ، عن أسماء ، فذكر نحوَه[١] .

وقال عبد الرحمن بن أبي الزناد ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن أسماء قالت : سمعت زيد بن عمرو بن نفيل وهو مسندٌ ظهره إلى الكعبة يقول : يا معشر قريش إياكم والزِّنا فإنه يورثُ الفقر[٢] .

وقد ساق ابن عساكر هاهنا أحاديث غريبة جداً ، وفي بعضها نَكَارة شديدة . ثم أورد من طُرق متعددة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يُبْعَثُ يوم القيامة أمة وحده »[٣] . فمن ذلك ما رواه محمد بن عثمان بن أبي شيبة ، حدّثنا يوسف بن يعقوب الصفّار ، حدّثنا يحيى بن سعيد الأموي ، عن مجالد ، عن الشعبي ، عن جابر قال : سُئل رسول الله ﷺ عن زيد بن عمرو بن نفيل أنه كان يَستقبل القبلةَ في الجاهلية ويقول : إلَهي إلَه إبراهيم وديني دينُ إبراهيم ، ويسجد . فقال رسول الله ﷺ : « يُحْشَرُ ذاكَ أمةً وحدَه بيني وبينَ عيسى بن مريم » .

إسناده جيد حسن[٤] .

وقال الواقدي : حدثني موسى بنُ شيبة ، عن خارجة بن عبد الله بن كعب بن مالك قال : سمعت سعيد بن المسيِّب يذكر زيدَ بن عمرو بن نفيل فقال : توفي وقريشٌ تبني الكعبةَ قبل أن ينزل الوحيُ على رسول الله ﷺ بخمس سنين ، ولقد نزل به وإنه ليقول : أنا على دين إبراهيم ، فأسلم ابنه سعيد بن زيد واتَّبع رسولَ الله ﷺ ، وأتى عمر بن الخطاب وسعيد بن زيد رسول الله ﷺ فسألاه عن زيد بن عمرو بن نفيل فقال : « غفر الله له ورحمه فإنه مات على دين إبراهيم »[٥] . قال فكان المسلمون بعد ذلك اليوم لا يذكره ذاكرٌ منهم إلا ترحَّم عليه واستغفر له . ثم يقول سعيد بن المسيب : رحمه الله وغفر له . وقال محمد بن سعد ، عن الواقدي : حدثني زكريا بن يحيى السعدي ، عن أبيه قال : مات زيد بن عمرو بن نفيل بمكة ودُفن بأصل حِراء[٦] ، وقد تقدم أنه مات بأرض البلقاء من الشام لمَّا عَدَا عليه قومٌ من بني لخم فقتلوه بمكان يقال له : مَيْفعة[٧] . والله أعلم .

وقال الباغَنْدي ، عن أبي سعيد الأشَجّ ، عن أبي معاوية ، عن هشام ، عن أبيه ، عن عائشة قالت :

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٦٦) . والسيرة (١/ ٢٢٥) .
(٢) سير أعلام النبلاء (١/ ١٣١ ـ ١٣٢) . وفي مختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٦٧) : إياكم والربا .
(٣) في ب : وحده . مختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٦٢ ـ ١٦٦) .
(٤) هكذا قال ، ومجالد ، وهو ابن سعيد ، ضعيف .
(٥) المصدر السابق (٩/ ١٦٦) . والإصابة (١/ ٥٧٠) .
(٦) المصدر السابق (٩/ ١٦٧) .
(٧) ميفعة : وراء بطن نخل إلى النقرة بناحية نجد ، بينها وبين المدينة ثمانية برد . (عن حاشية في المغازي للواقدي : ٢/ ٧٢٦) . والخبر في الأغاني (ثقافة) (٣/ ١٢١) .

قال رسول الله ﷺ : « دخلتُ الجنة فرأيتُ لزيدِ بنِ عَمْرو بن نُفَيل دَوْحَتَيْن »[١] .

وهذا إسناد جيد ، وليس هو في شيء من الكتب .

ومن شعر زيد بن عمرو بن نفيل رحمه الله ما قدمناه في بدء الخلق من تلك القصيدة : [من الطويل]

إلى الله أُهدي مِدْحَتي وثَنائيا ... وقَوْلاً رضياً لا يني الدهرَ باقيا

إلى الملِكِ الأعلى الذي ليس فوقَه ... إلَه ولا ربٌّ يكونُ مدانيا

وقد قيل : إنها لأمية بن أبي الصلت[٢] . والله أعلم .

ومن شعره في التوحيد ما حكاه محمد بن إسحاق[٣] والزبير بن بكار وغيرهما : [من المتقارب]

وأسلمتُ وجهي لمن أسلمتْ ... له الأرضُ تحملُ صخراً ثِقالا

دَحاها فلمّا استوتْ شَدّها ... سواءً وأرسَى عليها الجبالا

وأسلمتُ وجهي لمن أسلمتْ ... له المزْنُ تحملُ عَذْباً زلالا

إذا هيَ سِيقت إلى بلدةٍ ... أطاعتْ فَصَبّت عليها سِجالا

وأسلمتُ وجهي لمن أسلمتْ ... له الريحُ تُصرَف حالاً فحالا

وقال محمد بن إسحاق[٤] : حدّثني هشام بن عروة قال : رَوَى أبي أن زيدَ بن عمرو قال : [من الوافر]

أربٌّ واحدٌ أم ألفُ ربٍّ ... أَدِينُ إذا تُقُسِّمَتِ الأمورُ

عَزلْتُ اللاتَ والعزَّى جميعاً ... كذلك يفعلُ الجَلْد الصَّبُورُ

فلا العُزَّى أَدينُ ولا ابنَتَيْها ... ولا صَنَمَيْ بني عمروٍ أزور

ولا هُبلاً أدين وكان ربّاً ... لنا في الدهرِ إذْ حِلمي يسير[٥]

عجبتُ ، وفي الليالي مُعجِباتٌ ... وفي الأيامِ يعرفُها البصير

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٦٦) . وذكره السيوطي في الجامع الصغير : (١/ ٥٦٤) ، عن ابن عساكر ، وحَسَّنه .

(٢) ديوان أمية (٥٣٧) ، وقد أشار د . السطلي إلى اختلاف نسبة هذه الأبيات وقال : ومن المرجح أنها منحولة غير موثّقة .

(٣) السيرة (١/ ٢٣١) ، ولم يذكر البيت الخامس . وفي سير أعلام النبلاء (١/ ١٣٢ ـ ١٣٣) ، أربعة أبيات ، مع اختلاف في الرواية . وكذلك أورد صاحب الأغاني (٣/ ١٢١ ـ ١٢٢) ، ثلاثة أبيات .

(٤) السيرة (١/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧) والروض الأنف (١/ ٢٥٧ ـ ٢٥٨) . وفي الأغاني (٣/ ١١٨ ـ ١١٩) سبعة أبيات ، وفي مختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٦٧) ثمانية أبيات ، وفيها بعض اختلاف في الرواية وفي الأصنام (٢٢) ثلاثة أبيات .

(٥) في الأصول : ولا غنماً . ولم أجد لها وجهاً . وكذلك في مختصر تاريخ دمشق ، ولعله تحريف . وأثبت ما في سائر مصادر الأبيات .

بِـأَنَّ اللهَ قــد أفنــى رجــالاً ... كثيــراً كــان شــأنهــمُ الفُجــور
وأبقَــى آخــريــنَ بِبِـرِّ قــوم ... فَيَـرْبُـلُ منهـمُ الطفـلُ الصغيـر(١)
وبينـا المـرءُ يعثـرُ ثـابَ يـومـاً ... كمـا يتـروَّحُ الغُصـنُ النضيـر(٢)
ولكـنْ أعبـدُ الـرحمـنَ ربـي ... ليغفـرَ ذنبـيَ الـربُّ الغفـور
فتقـوى اللهِ ربكـمُ احفظـوهـا ... متـى مـا تحفظـوهـا لا تَبُـوروا
تـرى الأبـرارَ دارُهُـمُ جِنـانٌ ... وللكفّـارِ حـاميـةً سَعِيـرُ
وخِـزْيٌ فـي الحياةِ وإن يموتـوا ... يُـلاقـوا مـا تضيـقُ بـه الصـدور

[هذا تمام ما ذكره محمد بن إسحاق من هذه القصيدة](٣) .

وقد رواه أبو القاسم البَغَوي ، عن مُصعب بن عبد الله ، عن الضحَّاك بن عثمان ، عن عبد الرحمن بن أبي الزناد قال : قال هشام بن عُروة ، عن أبيه ، عن أسماء بنت أبي بكر قالت : قال زيد بن عمرو بن نفيل : [من الوافر]

عـزلـتُ الجـنَّ والجِنّـانَ عنـي ... كـذلـك يفعـلُ الجَلْـد الصبـور(٤)
فـلا العـزّى أديـن ولا ابنتيهـا ... ولا صَنَمـي بنـي طَسْـمٍ أديـر
ولا غنمــاً أديــنُ وكــان ربّــاً ... لنـا فـي الـدهـر إذ حِلمي صغيـر
أربّــاً واحــداً أم ألــفَ ربٍّ ... أديــنُ إذا تُقُسِّمــت الأمــورُ
ألــم تعلــم بــأن الله أفنــى ... رجــالاً كــان شــأنهــم الفجــور
وأبقــى آخــريــن بِبِــرِّ قــوم ... فيــربُــو مِنهُــمُ الطفــل الصغيــرُ
وبينـا المـرء يعثـر ثـاب يـومـا ... كمــا يتــروّحُ الغصــنُ النضيــر

قالت : فقال وَرَقة بن نوفل(٥) : [من الطويل]

رُشِدْتَ وأُنْعِمْتَ ابنَ عمروٍ وإنما ... تَجَنَّبْـتَ تَنُّـوراً مـن النـار حـاميـا
لـدينِـك ربّـاً ليـس ربٌّ كمثلـه ... وتـركِـك جنَّـان الجبـال كمـا هيـا

(١) يربل : يشب ويعظم . (الروض) .
(٢) يتروح الغصن : أي ينبت ورقه بعد سقوطه . (الروض) .
(٣) سقط من ب .
(٤) وكذلك في الأغاني .
(٥) تقدم قبل قليل أن هذه الأبيات في رثاء زيد بن عمرو .
والأبيات : ١ ـ ٢ ، في ديوان أمية بن أبي الصلت (٥٤٢) والرابع من قصيدة تروى لأمية أيضاً في ديوانه (٥٣٨) والخامس من قصيدة ثالثة لأمية (٥٢٩) .

أقولُ إذا أَهبطتُ أرضاً مَخُوفةً حنانيْكَ لا تُظهر عليَّ الأعاديا
حَنانَيكَ إنَّ الجن كانَتْ رَجَاءَهُم وأنتَ إلَهي رَبُّنا ورَجائيا[١]
لَتُدْرِكَنَّ المرءَ رحْمَةُ ربِّه وإن كان تحتَ الأرض سبعين واديا[٢]
أدينُ لربٍّ يَسْتجيبُ ولا أَرَى أدينُ لمن لا يسمعُ الدهْرَ واعيا
أقولُ إذا صليتُ في كل بيعةٍ تَبارَكْتَ قد أكثرتُ باسمِك داعيا

تقدم أن زيد بن عمرو بن نُفيل خرج إلى الشام هو وورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وعبيد الله بن جحش فتنصروا إلاّ زيداً ، فإنه لم يدخل في شيء من الأديان ، بل بقي على فطرته من عبادة الله وحده لا شريك له ، متّبعاً ما أمكنه من دين إبراهيم على ما ذكرناه[٣] .

وأما وَرَقة بن نوفل فسيأتي خبره في أول المبعث[٤] .

وأما عثمان بن الحويرث ، فأقام بالشام حتى مات فيها عند قيصر[٥] . وله خبر عجيب ذكره الأموي ؛ ومختصره أنه لما قدم على قيصر فشكى إليه ما لقي من قومه كتب له إلى ابن جَفْنة مَلك عرب الشام ليجهّز معه جيشاً لحرب قريش ، فعزم على ذلك فكتبتْ إليه الأعراب تنهاه عن ذلك لما رأوا من عظمة مكة وكيف فعل الله بأصحاب الفيل ، فكساه ابن جَفنة قميصاً مصبوغاً مسموماً ، فمات من سمه[٦] ، فرثاه زيد بن عمرو بن نفيل بشعر ذكره الأموي تركناه اختصاراً . وكانت وفاته قبل المبعث بثلاث سنين أو نحوها . والله سبحانه وتعالى أعلم[٧] .

●●●

---

(١) في ديوان أمية : كنت .
(٢) في ديوان أمية : ألا لن تفوت المرء رحمة ربه .
(٣) في ب : فكان من أمره ما ذكرناه .
(٤) في الجزء الثالث من هذا الكتاب .
(٥) ذكره ابن حبيب في المحبر (١٧١) تنصر ومات على النصرانية من العرب .
(٦) في ب : فمات بسببه .
(٧) انتهى الخبر في النسخة الأحمدية (أ) هنا . ثم وردت صفحة مستقلة كتب عليها : الجزء الثاني من تجزئة (المؤلف) من تاريخ الإسلام المسمى بالبداية والنهاية ، تصنيف الشيخ الإمام الهمام ، العالم المفتي المحدث ، عماد الدين إسماعيل بن كثير رحمة الله عليه .
أما في النسخة (ب) فقد وصل الكلام مباشرة بخبر كعب بن لؤي ، وذكر قبله الخبر التالي : وأما عبيد الله بن جحش فرجع إلى مكة ، وكان من جملة من أسلم وهاجر إلى الحبشة ، ومعه زوجته أم حبيبة بنت أبي سفيان ، ثم عاد إلى النصرانية بأرض الحبشة ـ قبّحه الله ـ ومات هناك ، فخلف على زوجته بعده رسول الله ﷺ ، كما سيأتي ذلك في موضعه إن شاء الله ، وبه الثقة ، وعليه التكلان .
ثم أورد خبر ما وقع من الحوادث في زمن الفترة بعد ذلك . أي هناك تقديم وتأخير في إيراد الأخبار .

الفهرس

الموضوع الصفحة

***